

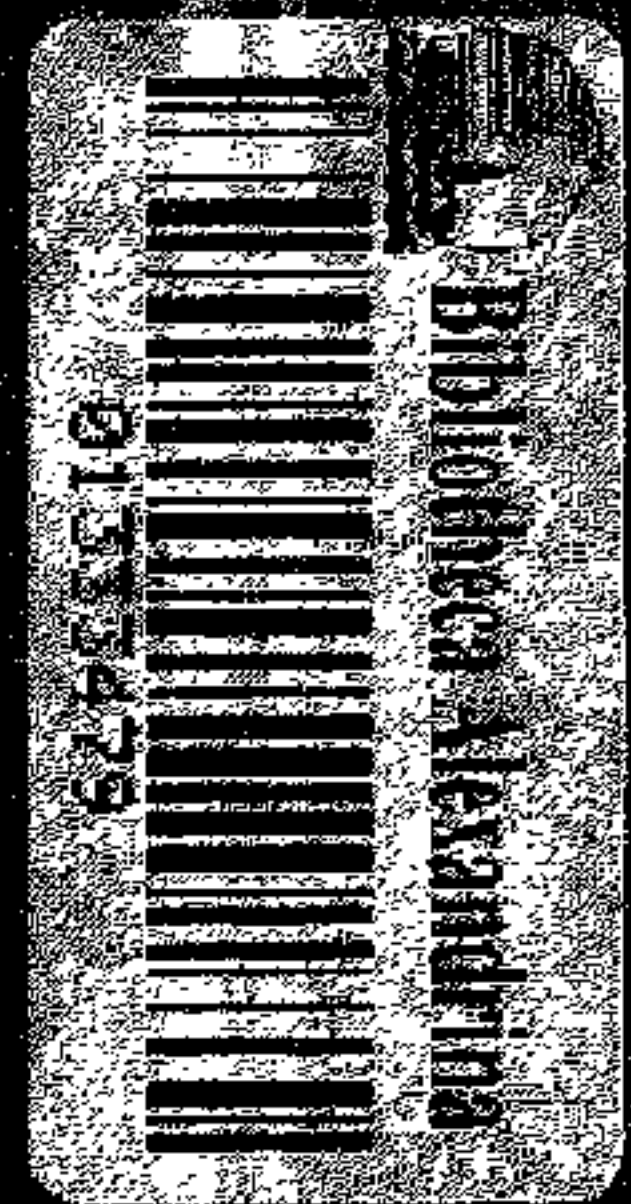
عَمَّا نَسَبَ بِالْبِلَادِ الْتُونِسِيَّةِ مِنْ عَالَمِ أَدْيَبِ

عَمَّا نَسَبَ بِالْبِلَادِ الْتُونِسِيَّةِ مِنْ عَالَمِ أَدْيَبِ

تنسيق و رفع عبد الكافي
ملتقى أهل الحديث

تأليف المؤرخ الكبير العلامة
الشيخ محمد بن النسيم
تدقيق و اشتراك ابن المؤلف
الشيخ علي النسيم

الجزء الثاني



تنسيق ورفع عبد الكافي
ملئقى أهل الحديث





عَنْ إِسْرَائِيلَ بْنِ أَبِي

عَوَاذُ الْأَرْبَعِ

عَمَّا نَشَأُ بِالْبِلَادِ التُّونِسِيَّةِ مِنْ عَالَمِ الْأَرْبَعِ

الجزء الثاني

تَدْوِيلُ وَاسْتِدْرَاكُ ابْنِ الْمُؤَلَّفِ

الشيخ علي النيفر

تَأْلِيفُ الْمُؤَلِّفِ الْكَبِيرِ الْعَلَامَةِ

الشيخ محمد النيفر



International Organization of the Alexandria Library (OIAA)
International Islamic Library and Archives



دار الغرب الإسلامي

© 1996 دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

دار الغرب الإسلامي

ص . ب . 5787-113 بيروت

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية ، أو أشرطة ممغنطة ، أو وسائل ميكانيكية ، أو الاستنساخ الفوتوغرافي ، أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من الناشر .

295 - أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ أحمد الخراط الصفاقسي

ولد بصفاقس ، وبها نشأ وطلب العلم ، فبرع في العلوم العربية والفقهاء . وكان من مجيدي شعراء صفاقس . اشتهر شعره ، وارتفع صيته فيه ، فمدح أمراء وأعيان عصره ، ونال جوائز جمة منهم . وكان والده الشيخ أحمد من علماء عصره العاملين ، لا يسكت عن منكر حتى يغيره بقدر وسعه ، فسعي به لأمر وقته الأمير علي بن حسين باي . ولما كانت ملوك الإسلام لا تزال تضغط على الأمة لسلبها الأصداع بتغيير ما يضر بمصالح العامة والخاصة من المنكر ويخالف الدين ليم لهم الاستبداد وتصبح الأمة جميعاً بمرتلة حيوان سخر في أغراض مالكة . وتلك خطتهم التي دأبوا عليها ، وتواصوا بها ، اقتناتاً على الشرع ، واستخفافاً بحقوق من استرعاهم الله ، والعلماء العاملون لا يسعهم السكوت امتثالاً للأوامر الإلهية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . قبلت تلك السعاية وأمر بشيخ من أساتذة العلم فسجن ، وشدّد عليه ، فبلغ ولده صاحب الترجمة أن مولاي علياً بن الأمير محمد بن الأمير الشهير إسماعيل سلطان فاس قادم على قابس متوجهاً للحج ، فتلقاه مادحاً بقصيدة بليغة مستشفعاً به في والده لأمر تونس علي باي ، قبله مولاي علي وأكرمه ، وكتب له كتاباً للأمير شافعاً ، قد ذكر نصه الشيخ محمود مقديش في تاريخه ، فقدم به صاحب الترجمة على الأمير علي باي ، فقبل الشفاعة ، وأطلقه ، وأحسن إليه . ولصاحب الترجمة تأليف في الأدب سماه زهر الربيع .

عمر مائة سنة وتوفي سنة 1251 هـ .

من شعره القصيدة التي امتدح بها مولاي علي المذكور ، وهي :

إذا رمت إدراك العلي فاسلك الصعبا	وبالنفس خاطر بالخطير ودع رهبا
وزر ريع من تهوى ولو كان نائياً	على أي حال فيه كن هائماً صبا
ألم ترني ملكت للحب مهجتي	ولم يعطني مثقال ودّ ولا حبا
لي الله قد خاطرت في سبل الهوى	بنفس تعاف الورد إن لم يكن صعبا
ففي درك الآمال استنصر الخطى	وفي موقف الأهوال استصغر الخطبا

ويذبل مما حل لي يذبل رهبا⁽¹⁾
كنقش الصفا أساعه مني العبا
تحير لي فانظروا الظبي والصبا
فصحح ياسي كسر مقلته الغضبي
وورداً شهياً من لماه حوى عذبا
فخذ فيه من أجفاني اللؤلؤ الرطبا
أحمل أشواقي النسيم إذا هبا
عليل نسيم الروض يسعى لكم خبا

يلين بما في مهجتي الصخر من جوى
وما لان قاسي القلب يوماً ولا صفا
به نقرات حين أشكو ولفته
ترجع أطاعي بياسم ثغره
فيا مانعي وردا بلحظي غرسته
إذا كان عنب الثغر بالدر يشتري
بعدنا ولم ينس البعاد لأتني
تعلني الذكرى فأغلو معاتباً
وهي طويلة .

ومن شعره يمدح الأمير علي باي وهنيه بغنيمة :

وجاهد فدين الله يهدي لك النصرا
أرى النصر معقوداً برايتك الصفرا⁽²⁾
وفي سورة الأنفال أعظم به بشرى
قدم حازماً واغتم بأعدائك الظفرا
إليك فجاهدهم تنلها وحز أجرا
وقد ركبوا سفناً بها قطعوا البحرا
كأني بهم صاروا بأسرهم أسرى
ولم يبق جمع منهم سلاً ذكرا
حصوناً لقد أحدثتها تذهل الفكر
إذا انتشروا عموا بذنا السهل والوعرا
ومن طلب العلياء لم يعلمه مهرا
لصلحهم والحزم يستهون الأمرا
على حظه يوماً بظلفه مقترا
يسد فم الأفعى أتى للردى جهرا

لك الفتح فاعزم غازياً واحسم الكفرا
بني الأصفر استعبد بسيفك إتني
فحسبك في الفرقان ما جاء متراً
وحسبك فوزاً نصر دين محمد
وحسبك هذا السعد قاد غنيمة
فلم تغزهم حتى أتوك هدية
قلوبهم تحكي اضطراباً قلوبها
بسفهم تلك الجموع تكسرت
أتوا حلق وادي تونس فرأوا به
وعسكر أبطال وجيشاً عرمرماً
ومن رام غنم الظفر حث طلابه
وما غادروا هذا به حين تقضهم
حرايك قد راموا فكانوا كباحث
أتوا للردى جهراً ومن بينانه

(1) يذبل : جبل .

(2) الصفرا : راية تونس كانت صفرا .

تحدثهم آمالهم أن سيحدثوا
عجيب بأذن الفيل طنت بعوضة
متى صارت البازي حبارى وهدد الـ
منها في مدحه :

ملك حواشيه عليها الكمال مسـ
فما منهم إلا مصيب برأيه
ملك له جيش يفتت جأش من
ملك إذا ما جال حرب العدى سطا
كان مناياهم بصفحة عضبه
مآثره لم تحص في كل وقعة
يساهر بيض السمهرية في الوغى
ملك إذا يعلو أغر محجلاً
ففي الحرب إرهاب لأفتلة العدى
سماً وسعد الدين قام بهم نصرا
سداد مقال أو سداد حمى ثغرا
يحاربه فاق النجاشي مع كسرى
وأجلى نفوساً من جسوم بها ذعرا
إذا سلّ في أرواحهم أنشبت ظفرا
ضخامة ذكر ضرها يفلق الصخر
ويسمر وقت السلم بالصعدة السمرا
فقل باسمك المولى على الطلعة الغرا
وفي السلم إعجاب وعز به قرا

296 - الشيخ أبو عبد الله محمد السنوسي الكافي

قدم هذا الفاضل من مدينة الكاف إلى الحاضرة التونسية لطلب العلم في جامع الزيتونة ، فأخذ عن علمائه في ذلك العصر ، مثل الشيخ محمد الشحمي والشيخ محمد الغرياني ولازم الشيخ صالح الكواش وانتفع به ، كان - رحمه الله - عالماً فقيهاً ثباتاً حافظاً واسع الاطلاع عفيفاً تقياً شديد المراقبة لربه قريباً من الزهاد ، تبي العرض حسن الأخلاق ، جميل الصبر ، جميل المحاضرة ، متواضعاً ، محبباً إلى الناس ، أديباً ، شاعراً . بذلك ترجم له الشيخ أحمد بن أبي الضياف في تاريخه قال : وتقدم للتدريس والمخطط العلمية فولّى قضاء بترت ثم قضاء باردو ومنه نقل إلى قضاء الجماعة بالحاضرة ، فسار سيرة أهل الفضل من قضاء العدل .

له رجز في الأحكام سماه لفظ الدرر أطول من رجز ابن عاصم المسمى التحفة ، توفي أواخر شعبان سنة 1255 هـ .

قلت : وشعره جيد عالي الطبقة ، نذكر منه ما أطلعنا عليه ، فنه قصيدة خاطب بها الشيخ محمد يريم الرابع مستنجراً ما وعده به من اطلاعه على رسالته في حكم الخلوات وأرسلها إليه في ذي الحجة سنة 1253هـ ونصها :

مطيات الشدايا عنبريات	بعد ابتلاي بإهدالي التحيات
من آل يريم خصوا بالعنايات	تغشى الإمام الذي في العلم منبته
ومن صميم فؤاد حبكم آت	يعمّ من زان بالأداب منطقته
ما فيه مناه عن حل السامات	إن كان في وسع من نرجو مودته
أجاب سائل تأليف الخلوات	مويد بظنون في حزامته

فأرسله وأجابه عن هذه الأبيات بقوله :

ترنو بالحافظ سحر بابليات	وافت تيه على الزهر المنيرات
لم يأت مثل لها يوماً ولا يأتي	خريلة من بنات الفكر حالية
تحكي ارتشاف الثغور اللؤلؤيات	وقابلتني بتسليم عنوبته
به لصاحبها السامي عباراتي	واستنجزت مني الوعد الذي سلفت
مع التحية والتسليم أبياتي	فهاك ما طلبت قد يمتك به

ومن شعره في القضية التي وقع فيها خلاف بين الشيخين سيدي إبراهيم الرياحي رئيس المفتين المالكية إذ ذاك وأبي عبد الله محمد البحري بن عبد الستار قاضي الجماعة يومئذ ، وقد ذكرها الشيخ أحمد بن أبي الضياف في الجزء الرابع من تاريخه ونص ما قاله صاحب الترجمة في ذلك :

فلا يرجى لراكبه نجاح	إذا اختلفت عل البحر الرياح
وفي استعلائه كسر يتاح	فللغرق المأل إذا تلتاني
وهذا في توسطه نياح	وكان الخير في وسط يرجى
فلا فصل يكون ولا اصطلاح	وقد حجب الخصوم عن التلاقي
فكان له من الغرق الفلاح	ولا المحجوب يسلم عند هذا
ترجيّه فيرتفع الجناح	ولا جري الرياح لها سكون
به يرجى لعابره رواح	ولا هول البحور له خمود

ومن شعره في واقعة حال ، وهي نازلة رفعت إلى المجلس الشرعي بباردو بين قريين من صفاقس من أبناء القطي ، وجرى بينها في أثناء الخصام من الحيل والتراجم بالحجج المفتعلة ما لم يعهد مثله . فقال صاحب الترجمة ، وكان ذلك بإثر ولايته قضاء الجماعة :

وقائلة هل للقضا فيك موضع فنوليكه إن شئت ، قلتُ على شرط
ف قيل : وما الشرط الذي أنت شارط قرنت به تلك الولاية بالربط
ف قلت : على أن لا أخوض خصومة مشعبة تعيي كنازلة القطي

ومن شعره ما قرض به وهو إذ ذاك قاضي باردو رسالة للشيخ محمد يريم الرابع أرسلها لبعض أصدقائه وهي شبه مقامة سأذكرها بعد . ونصُّ التقرير :

منشي الرسالة قد أجاد وأبدعا فيما أتى فيها وشئف مسمعا
فهي الجواهر بل زواهر في سما علم البلاغة للهداية طلعا
موضوعها لقب المسمى إن يرد تحقيره عند المنادي إن دعا⁽¹⁾
شالته إذ رفعته بعد خسارة فحوى الترقى للعلا واستجمعا
وكسته من حلل البها بجديتها عنه كساء بالجواهر رصعا
أفضى به إبلع منشيها إلى تشریف ما قد كان قدما أوضعا
صحفت معجمها بفقهِ مُجيدها فغدا للتمس المعارف مترعا
وصراحة الموضوع فيها قف بها يا من يروم إلى الصراحة مترعا
لا زال منشيها المحقق يريم يعلو إلى نجم الثريا مطلعا

فأجابه الشيخ يريم صاحب الرسالة المقرضة بقوله :

وافت إليّ فما أشالت بُرقعا حتى استباححت من قوادي موضعا
هيفاء ترفل في ملابس حسنها زهواً وتحقتر البلور الطلعا
وتسّمت بذرى البلاغة منبرا فغدت لها أهل البراعة خضعا
وأصاحت الأسماع نحو حديثها فأصاب حسن اللفظ منها الموقعا
ولها جدير ذاك لما أصبحت تاجاً على هام الزمان مرصعا
ما كنت أحسب قبل رؤية عقدها أن البراع حوى النجوم اللمعا

(1) تحقيره : يعني ، قلة .

كَلِمَ حَكَّتْ نَسَمَاتِ سَلْعِ رَقَةٍ اللَّهُ رَاقِمٌ وَشِبْهًا مَا أَبْدَعَا
 ذَاكَ الْإِمَامَ الْأَلْمِيَّ الْمُرْتَضَى مِنْ حَازٍ مِنْ كُلِّ الْمَعَارِفِ مَنزَعَا
 أَعْنِي السَّنُوسِيَّ الْإِمَامَ الْأَوْحَدَ الـ حَبْرَ الْجَلِيلِ الْأَحْوَذِيَّ الْبَلْتَعَا^(١)
 لَا زَالَ مَحْرُوسَ الْجَنَابِ مَرْفَعَا وَلِكُلِّ فَضْلٍ فِي الْبَرِيَّةِ مَطْلَعَا

ونصّ الرسالة المشار إليها وهي موجهة من الشيخ يريم المذكور إلى صديقه الشيخ حسن الخيري مفتي المنستير . وسبب توجيهها إليه أن صديقه المذكور كان استعار منه كتابين ثم أرسلها إليه صحبة مكتوب يعتذر فيه عن قلة المكاتبة بعدم إجادته الإنشاء وكان الكتابان حين أرسلها إليه موضوعين في قفة خلقة فكتبه الشيخ يريم بقوله :

محل الوداد ، ومن انطوى على محبته القواد ، وبلغ من تحقيق العلوم المراد ، وفوق المراد ، وأحرز من شيم الكمال الطارف والتلاد ، وفاق أرج ذكره النرجس والخيري ، أبو محمد سيدي حسن الخيري ، واصل الله إتحافه ، وأدام بما يروقه إسعافه .

أما بعد نشر سلام يظفيء من ظمأ الشوق إليكم بعض الأوام ، فقد أم ساحتنا كتابكم المكمل بالدرّ النضيد ، المزري ببدايع عبد الحميد ، فإذا ثغره من الاعتذار قد ابتسم ، لاذ بما ظن أنه الحرم ، مع أن لنا في سليم ما أبداه من العذر مقالاً ، وفي مساجلته في البحث مجالاً ، وكفى شاهداً لردّ دعواه ، ما تضمنه منطوقه وفحواه ، من العبارات المطربة ، والإشارات المعجبة ، والتراكيب التي هي عن وفور البلاغة معربة ، فإن كان غير ما ذكرتم من الأعدار فلتجئوه على منصة الاختبار ، حتى يصل إلى الأسباع من طريق الأبصار ، فينظر حيثئذ فيه ويحكم بما له أو عليه ، وبلي هذا أن قفة الكتب المرسلة قد أعجزني توصيفها ، وأعتقد أنه لا يمكن إلا بالإشارة تعريفها ، إذ بلغ بها البلى الحد ، فلعلها من بقايا آلات ذي القرنين في عمل السد ، فلو لمحها شعراء الشرق والغرب ، لأكبوا على وصفها بمثل ما وقع في طليسان ابن حرب ، ولافراطها في التقدّم ، لو رأتها الفلاسفة لتمسكوا بها في ادعائهم قدم العالم ، وحبذا لو لم يكن إلا ذلك ، لكنه أعجب من هذا ما هناك ، وهو أننا وجدنا بها شيئاً من تبين وشعير ، يدلان على أنها كانت معدة لعلف بعض الحمير ، لعمر الله إن ذلك واقع بلا مين ، حتى تداخل بين أوراق ذينك الكتابين ، وقد ثبت ما لنا بلسان حالها شكاية ، ربما تطول

(١) البتعا : الحاذق .

بإيراد جميعها الحكاية ، فها نحن ببعضها إليكم نلم ، وفي الإشارة ما يعني عن الكلم ،
 حيث قالت : إن صاحبي هدّني من التعب ، وأذاقني من أليم النصب ، ما يكَلّ عن
 بيانه اللسان ، ويعجز عن الإحاطة بشرحه مثل قسّ وسحبان ، وما لي من رثالة الحال
 على ذلك عنوان وأي عنوان ، وما كفاه إعمالي في جميع متعلقات الحضر ، حتى شفّع
 ذلك بتكليفي إليكم قطع مهامه السفر ، فقلنا لها : يا هناه ، إن أحسن شيم العبد أن
 يحسن ذكر مولاه ، ولا ينسى من الخير ما قلمته إليه يداه ، فاكفني عن بثّ ما
 ذكرت ، واعتمدي طي ما نشرت ، وارجمي إلى ربك مصحوبة مئاً بشفاعة ، والمظنون
 أنه يخفف عنك من مباشرة الصناعة ، ولا يكلفك بما فوق الاستطاعة . فقالت : أمّا
 وصف صنيعه فقد قصّرت فيه ، وأنى لي ببلوغ أقاصيه ، وأما الرجوع فمعاذ الله أن
 أرجع إليه ، أو أتطرح فيما بقي من عمري عليه ، فطالما توصلت إليه في التخفيف
 عني ، فلم يسمع ، وتضرعت بين يديه ليربحني فلم ينجع ، وأعملت في التخلّص منه
 صنوف الحيل فلم يكن والله ليرجع ، فلا أظن الشفاعة والحال ما ذكر تنفع ، بل ربّما
 أوغرت الصلر ، وتفاقم علي حينئذ بسببها الأمر ، وها أنا قد لذت بكم هاربة ،
 ولعبرتي بناديكم ساكبة ، وعن العود إليه وحققكم تائبة ، أفتخفرون النعمة ، وترضون
 المنمة ، وتسلمونني إلى هذه الخطوب الملهمة ، فالله الله في إنقاذ مهجتي ، وتسكين
 لوعتي . وحين أعوزنا صرفها ، وراقنا ظرفها ، وشقنا ما لفظه من الدمع طرفها ، وعلمنا
 أن لكم فيها حسبما أخبرت مآرب ، قمنا بما لها من حق الحفظ الواجب ، تترقب رأيكم
 في إرسالها ولا نظن أنكم تميلون لإغفالها وإهمالها ، غير أنا نشير عليكم بإعتاقها ،
 وتسريحها من وثاق الرق وإطلاقها ، فإنها قد شاخت في خدمتكم وبلغت أزدل العمر في
 صحبتكم ، ومن البين أن أعمل البرأولى ما بادر إليه الأواه ، وما تفعلوا من خير يعلمه
 الله ، ووراء هذه المطارحة ، التي هي لمكنون المحبة شارحة ، أنه قد سلف منكم وعد
 بأمور طال ارتقابها ، وتكاتف علينا حجابها ، وهي الحاشية الشريفة ، على اللامية
 الزقاقية ، وقصائد العلم البارع في المنظوم والمثور ، أبي الفضل قاسم بن عاشور ، وشيء
 من تخريراته لم يبق مني على ذكر ، وأظنه في المنطق إن صدق الحدس والفكر . فها نحن
 أعدنا استجلابها ، واستمطرنا مسحابها ، تنبيهاً للوعد الذي نجلّه عن وصمة الأخلاف ،
 ونلتمس له المعذرة في تأخير الإسعاف ، ويصلكم صحبة هذه العجالة الكنش الذي
 طلبتم إرساله ، بطرة تلکم الرسالة ، وأما التأليف الحساوي فإن الزمان لم يزل يعده

عني ، كما دأبه في إغراء كل مليح بالتجني ، ولو وصلني لكان إتفاذه إليكم كما قال
الحملائي ، أسرع من الريح إلى الهبوب ، والماء إلى الأنبوب ، والله سبحانه أسأل أن
يديم لنا ولكم العافية ، ويرزقنا وإياكم تقياً ظللال كرمه الصافية ، يُمِنه وحوله لا إله إلا
هو . وكتبه محمد بيرم الرابع في غرة صفر عام 1253 ثلاثة وخمسين ومائتين
وآلف ، ا هـ .

ثم ذكر الشيخ بيرم المذكور ما نوره هنا لعلاقته بذلك ، ونصّه :

وقد كان عمنا مصطفى أعار الشيخ حسن المذكور شرح ابن مرزوق على البردة
فأرسله إليه بقبعة خلقة أيضاً وأوقع بالكتاب بعض ترهل ، فكتب إليه ما نصّه :
المقام الذي نسر بكتابه وإن أصلف ، ونستشرف لموعده وإن أخلف ، مقام مقيم
ربع الجحد بعد عفائه ، وموقف طرف الفضل بعد إغفائه ، أحنينا سيدي حسن الخيري ،
لا زالت أطناب العافية على حضرته ضافية .

أما بعد إهداء التحية المرضية ، فقد بلغنا كتابنا المسكين صارخاً بظلامته ، شاكراً
لله على سلامته ، مكرراً لرزيته ، ساكباً لعبرته ، شاكياً لهول ما لاقاه في سفرتة ، من
الأهوال والهوان ، وتقلب أحوال الزمان ، فتارة في الغرف ، منبسط النفس بمحصول
الشرف ، مضطججاً فوق سرير ، أو منشوراً بين يدي الشيخ النحرير ، وآونة في إسطلب
الدواب ، لا يقبل منه خطاب ، ملقى على حصير ، أو مدرجاً في تبن أو شعير ،
فارتبت في مقالته ، وأعرضت عن سماع شكايته ، فنضا عنه ثوب الخلق ، وصرخ
صراخ محق ، قائلاً : يا للمسلمين ، وذوي العقول المتصفين ، من هذه حاله كيف يجوز
أن يرمى مقاله ؟ أما ترى جلدي قد خرقتة العيدان ، والتصق به جانب من الأتبان ،
حتى أن خصمي قد رقّ لحالي ، فكساني ثوباً من الخوص بالي ، بعد أن تراميت أياماً
بين يديه ، وتكررمني الحرص في ذلك عليه ، ثم التفت إليّ وقال : أما حيث أردت
صدي ، فأنت المطالب بحقي ، حيث بعثت بي إلى قوم لا يؤبه عندهم بالدفاتر ، ولا
يتنافسون إلا في ظلف أو حافر ، الرقائق عندهم مرفوضة ، والرقاق في صناديقهم
محفوظة ، تجفّ لديهم المحابر ، وتضيق بينهم المناير ، فلما رأيت ذاك لسان طليق ، وبيان هو
بالقبول حقيق ، قلت : يا هذا قصر عن شكواك ، واغتم الأجر في مسامحة من آذاك ،
أما كفاك أنه كسالك ، وحلاك بما قد حلاك ، فاحتسب هذه الحركة ، واعتقد فيما

منحته البركة ، إذ الخوص صنعة كثير من الخواص ، وقولك : إنه بالي لا يرد ، إذ لا تجود يد إلا بما تجد ، فكن ذا وثوق بأنك مرزوق ، ابن مرزوق . هذا والباعث على هذه المطارحة ، شدة الاشتياق ، إلى المحاورة عند التلاق ، يسره الله تعالى على أحسن الأحوال والسلام ، ١٥٠ .

قال الشيخ محمد بيرم الرابع بعد ذكره لهاتين الرسالتين ما نصّه :

ولما أوقفت الشيخ الوالد على هذين الكتابين بلغ من استحسانه لهما أن كتب عليهما : لله درّ هذه المطارحة ، وبلاغة هاتيك الأقوال الشارحة ، فقد أعربت عن ظلامه الظرف والمظروف بواضح تبيانها ، وأرتنا من حلبة البراعة سابقي فرسانها ، فدعوت ببقاء هذه العصابة ، إذ كلّ آت بالغريب مزيج ألم الكتابة ، عن محيا الأريب قاله محمد بيرم الثالث فرج الله كربه ١٥٠ .

ومن شعر صاحب الترجمة قصيدة هتأ بها المشير أحمد باشا بشفائه من مرض ألمّ به وقد أثاب عنه في إنشادها شيخ الإسلام إذ ذاك الشيخ محمد بيرم الرابع فأنشدها بين يدي الأمير المذكور بخلق الوادي لما ذهباً لهنته بالبرء مع كافة أهل المجلس الشرعي . وصاحب الترجمة إذ ذاك هو قاضي الجماعة ، وكان ذلك يوم الثلاثاء خامس جمادى الأولى ورابع يوليو من عام 1255هـ ، ونصّها :

يا طلعة السعد أشرفي واستشرفي	فعماد أهل الدين والدنيا شقي
وتباشرت بشفاه تونس وانثني	بؤس النفوس أزاله ما تصطفي
برء به فرح الأنام وأشرقت	منه السعود فنورها ما ينظني
أهدى لأهل الأرض نشر بشارة	برء المؤيد والأمير المنصف
ينسي تكرمه تكرم حاتم	ويحلمه ينسيك حلم الأحنف
كلّ يودّ ولا يودّ خلافه	أنّ الذي يشكو ويألم كان في
مرض الزمان لما شككا وانزاح ما	خافوا وولى التمس عنهم مذ عني
فاق الأنام سماحة وفخامة	ونجاجة دأباً بغير تكلف
لا يستطيع لسائل من فضله	ردّاً ولا وعداً أتاه بمُخلف
لا لا ولا سعياً بغير فضيلة	وبغير رأي صوابه لا يكتفي
خضعت لحسن حجاه أرباب النهي	وتشعشت أنواره ما تختفي

يا ليت أعمار الأنام جميعها
 فيكون كهف العزّين ظهورنا
 ذلك المعظم أحمد الباشا الرضا
 ورث الإمارة فاضلاً عن فاضل
 ساد الملوك بسيرة محمودة
 يا أيها الملك المعظم قلره
 يهنك بل ينهي الأنام جميعهم
 لا زلت مرجو المكارم متقى
 مأوى لمن يرجوك مرجو المنى

جمعت لأحمد جمع آي المصحف
 ويدوم طول حياته للموقف
 تاج العلاء والمّلك ذو الوعد الوفي
 ساس الولاية منصفاً عن منصف
 ما شيب صفو زلالها بتعسف
 ويزينه حلم على المستضعف
 نيل السلامة للأمير الأشرف
 بأس المطاعن بالحسام المرهف
 مصحوب عافية وباللطف الخفي

وفي هذا الموكب وللمناسبة المذكورة أنشد الشيخ محمد يريم الرابع من شعره بين
 يدي الأمير المتقدم ذكره قصيدة كانت هي أولى القصائد في هذا الموكب على روي وقافية
 القصيدة المتقدمة ، ونصّها :

اللهم أصبح بالأمان مسعني
 منحاً أفاد يكلّ عن إحصائها
 ومحا إساءته بما أسدى لنا
 فلذلك أصبحت الثغور بواسماً
 وتباشرت فرق الوري فجميعهم
 لم لا وقد شني الأمير وأقيت
 من بعد ما قلق الأنام لروعه
 يشكو فترتعد العلى لشكاته
 وبين عن شمس الظهيرة نورها
 فهناك أية مقلة ما أسبلت
 لكن رواق اللطف حف بسيد
 ملك له كرم يجلّ قليله
 هو كعبة الجود التي قصدت فكم
 أخفت شبائله سباحة حاتم

وبما أروم من المسرة متحني
 قلبي ويوصف منطقي بتوقف
 من برء مولانا المليك الأشرف
 وسرى النعيم بكل قلب مدنف
 أضحى يميل به السرور بقرقف
 لجنابه حلل من اللطف الخفي
 لا ذاق طعم مروّع أو مضعف
 فرقاً وتسمح بالدموع الذرف
 وتصيبها ظلم وإن لم تكسف
 دمعاً وأي جوارح لم ترجف
 أعياء الملوك لحاقه إذ تقني
 عن أن يشبه بالسحاب الأوطف
 من حولها قد طاف من متطوف
 وشجاعة العبيسي وحلم الأحنف

ولكم لأحمد من خصال عدّها
ورث المهابة كابراً عن كابر
من معشر مال الآنام لحبهم
يا سيداً أفديه مما يعتري
خذها إليك قلائداً قد صاغها
ولتشمّلها بردة لم يحكها
جاءتك ترجو الصفع عن تقصيرها
واسلم لصقع أنت نير أفقه
ولأمة جعلتك كهفاً كلما
تجلو دجنتها إذا ما أقبلت

يفضي إلى وصل الألوفاً بيّف
وحوى الرثاسة أشرفاً عن أشرف
ميل الموحد لاتباع المصحف
بحشاشتي وأقول لست بمشرف
فكر بغير مديحك لم يصرف
مثل تقدم من نسيج الأحرف
والصفح يرجى من كرم أراف
ويجيره من كل باغ مخوف
فزعت لخطب ملهم متلف
وتذبّ عنها بالحسام المرهف

واقفني إثرهما المفتي والشاعر البليغ الشيخ محمد الخضار الذي ستأتيك ترجمته وأنا
في سردها أيضاً الشيخ بيروم المذكور ونصّ ما قال :

وصل الزمان وزار بعد توقّف
والكون زايله السقام ورده
والجفن عاد له المنام مهتأ
وغداً أديم الدهر غضاً يانعاً
وتنفست ظلم الدجى عن كربة
وفلت بشائر للقلوب مسرة
الواحد الفدّ العزيز نظيره
الراكب الأخطار دون تناقل
والكاشف الأزمت غير مقصّر
هم تقاصرت الورى عن نيلها
ملك يصول على العدو برأيه
رأي يريك الصعب سهلاً خطبه
زعم الملبس أن يخادع رأيه
أفدي أبا العباس غير معادل

وبدا بوجه الياسم المتعطف
للاستقامة صاحب اللطف الخفي
بالغمض بعد تمنع وتخلّف
وجرى به شرح الشباب المترف
كادت لها سرج العوائم تنظني
تسمى بعافية المليك الأشرف
الواسع الكنف العلي الرفرف
والوالي الأغوار دون تكلف
والمنجد العزمت غير مسوّف
فتنكبوا عنها بقولة منصف
وبكل أبيض ذي فرند مرهف
وتفرّس يفضي لحسن تصرف
والزيف ليس يروح عند الصيرف
حقّ الجزاء له وغير منصف

وله النفوس وقاية من كل ما
يا بهجة الدنيا احتكم واسلم ودم
فلأنت عين الدهر بل إنسانها
فإذا سلمت فكل خطب هين
ومتى انتصبت لحصر برك لم أطق
فابق بقاء الدهر لا نرضى بأن
فلقد ملكت فكنت غير مفارق
لا زلت شمساً لا خفاء لنورها
وترخفت بيقائك الأيام ما
يشكو وكل مؤلم ومخوف
واسعد وسد واصعد وفر بتشرف
بل روحه الساري بكل مؤلف
وإذا شفيت فكل شيء قد شفي
ومتى احتسبت بشكر برك لم أف
تبقى بقاء مؤلف ومنيف
نهج الصواب وكنت غير مطقف
والبدر يلحقه السرار فيختفي
تليت من القرآن آي الزخرف

ونسج على منوالهم الشيخ محمد بن سلامة قاضي باردو إذ ذاك فقال :

من أفاض سجاطا اللطف الخفي
لا غرو إن لم تنهض لقيامه
ذي نعمة لم يجل عنها واحد
غضّ الزمان عن الأنام جفونه
ساق البشير بها من الأفراح ما
من بعد أن سلم المملك واكسى
ذاق الورى من أجله طعم الكرى
رضيت تقاسمه الشكاية بالضى
هانت عليها في الفؤاد نفائس الـ
الوارث العزّ الرئيس أساسه
المقتني أثر المعالي ظاهراً
لم ترو يوماً عن سواه حديثها
يروى السباحة عن دفاتر حاتم
في عدله بين الأنام وبأسه
حدث عن الحزم المكمل عزمه
أكد وأقسم إن وصفت بأنه

من يستطيع الشكر عنها أو يني
أوليس كهف الدين والدنيا شني
عمت ندى حتى العدا إن تنصف
فكانه من قبلها لم يطرف
أنسى بها في اللوق طعم القرقف
بعميم برء كامل اللطف وفي
ورسالتها خفق الفؤاد المرجف
بل يستقل بما اشتكاه وبشتني
أعمار في نفس المليك الأشرف
المستعزّ بربه والمكتني
والحق أن له المعالي تفتني
وسواه أصدق مسند لم تعرف
والصفح يحفظ عن صحائف أحنف
بأس الحديد ولين رطب المعطف
وإذا وصلت إلى ذكا الرأي قف
فرد الزمان ولا تخف إن تحلف

هجر المنام وجدَّ في طلب العلى لم يلوه عن ذاك هزل مسوّف
 حلم الزمان به وآلى أنه لمثله فيما مضى لم يتحف
 يا أيها الملك الأعزّ جنبه المستجدّ علا بدون تكلف
 إني الخلق بأن أكون وقاية لعلاك من ريب الزمان المخوف
 أولم ترخي من نوالك راحة وشفت سجال الجود منك تشوّف
 من غير بحرك درة لم أقتنص من غير روضك زهرة لم أقطف
 وأبنت لي نجماً منيراً ساطعاً قد كاد عن نظر المعاند يخنثي
 لا زلت فياض السحاب والتدى تلقى المنى سهلاً بغير تكلف
 وأعتة الأقدار تجري بالحنى والسعد فيما شئت أوق مسعف

297 - الشيخ أبو عبد الله محمد يريم الثالث

ولد هذا العلامة في 27 ربيع الأول سنة 1201هـ في مهد العلم وفرش المجادة ، فنشأ
 في طلب العلم مقبلاً عليه ، منقطعاً بكلية إليه . فلم يبلغ سن الشباب حتى أبدر هلاله ،
 وبهر كماله ، وزاحم العلماء الفحول ، وأحرز قصب السبق في علمي المعقول والمنقول .
 تصدر للتدريس فتر الدرّ النفيس . وتزاحمت على منهله العذب ، وروض تحريره
 الخصب ، طلاب المعارف ، ومنتجعو غيث الفوائد والعارف ، وكانت له اليد الطولى
 في علمي المعاني والبيان والمنطق . أتقن طريقة الإلقاء التي سنّها جدي أبو إسحاق
 الرياحي في هذا القطر ، فكان صاحب الترجمة وحيداً فيها بعده . أقرأ مختصر السعد
 مرات . تخرج عنه أعلام نحارير . كل يشرق على نوادي العلم وينير . وكانت دروسه غاية
 تنقطع دونها الأطلاع ، ويقصر عنها كل ذي باع ، ومع ذلك كان يقدر قدر التأليف ،
 وينزلها منزلتها ويراعي منافع الطالبين فيما يقري من التأليف ، ولا يطوح بتلامذته فيما لا
 يتناولون ثماره عن كذب .

أخبرني والذي أبقاه الله عن جدي والده أنه لما ختموا على صاحب الترجمة مختصر
 السعد طلب التلامنة أن يقرئهم المطول فأبى ، وقال : إن المطول لا يقريه إلا مثل
 الشيخ صالح الكواش . أما نحن فحسبنا المختصر ، وأعاد المختصر ، وقريب من هذا ما
 بلغني عن جدي أبي إسحاق الرياحي كان طلب الطلبة منه إقراء الشيخ عبد الباقي على

المختصر فابتدأه لهم ، فلما بلغ فيه أثناء الجمعة قال لهم : إن هذا الشرح كتاب نظر لا كتاب إقراء ، فلنبدله بشرح الخرشني فأبدله به .

ولصاحب الترجمة من التأليف شرح على إيساغوجي نحا فيه منحى الأعاجم وحاشية على المنار وتحريرات فقهية . ولي خطابة جامع صاحب الخيرات يوسف صاحب الطابع في سن الشباب وهو أول خطيب به انتخبه الأمير لذلك بتقدم واستحقاق وتقدم للفتوى في حياة والده . ولما توفي والده سنة 1247هـ ، قام مقامه في رئاسة المجلس الشرعي الحنفي وخطبة نقابة الأشراف ، حكى والذي أبقاه الله عن والده جدي أبي عبد الله محمد النيفر أن شيخه صاحب الترجمة زيادة على ما هو عليه من العلم والفضل ، كان يعد في أهل الكشف ومحكي من كراماته أنه لما ابتدأ لهم مختصر السعد بالمدرسة العنقية ، كان ممن حضر معهم وإن لم يكن من طبقتهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن سلامة ، وكان يجلس على يمين صاحب الترجمة والشيخ أبو العباس أحمد بن حسين ، وكان يجلس خلف الحلقة ، فحضر الشيخ ابن سلامة مدة ثم تغيب وتبي موضعه شاغراً ، وإذا بالشيخ صاحب الترجمة نادى يوماً للشيخ ابن حسين وأجلسه في موضع الشيخ ابن سلامة وقال : إن سي محمد بن سلامة مات رحمه الله . قال : فتعجبنا من قوله . فضرب الدهر ضرباته حتى ولي الشيخ ابن سلامة مفتياً ثانياً وهو يلي الرئيس كبقته بدرس صاحب الترجمة ، ثم مات وعلى أثره توفي شيخ العصر وبركة المصر جدي الرياحي ، فأتى الأمير أحمد باشا بالشيخ ابن حسين من بلدة الكاف ، وكان قاضياً بها وأولاده باش مفتي المالكية ، وهو الوظيف الذي كان يهياً للشيخ ابن سلامة ، فكان تفسيراً لما صدر من صاحب الترجمة .

وكان شاعراً مجيداً ، توفي سنة 1259هـ ، ليلة الأربعاء في 27 ربيع الأول . ومن شعره ارتجالاً وكتبه على ظهر روض الآداب يخاطب ابنه الشيخ أبا عبد الله محمد يريم الرابع وقد سمعه مع بعض أقرانه يتحاورون في الأدب :

إن الزمان الذي تفنيه في الأدب	يراه أهل النهى من جملة اللعب
فاصرفه في شرف ترجو عواقبه	تأتيك آثاره تنهل كالسحب
وذا مقالي عن نصيح أفوه به	وليس يرجى لنصح المرء غير أب

ومنه مقرضاً ختماً لجدي أبي عبد الله سيدي محمد النيفر وقد أطلعه عليه حيث كان

شيخه :

ختم به مزن المعارف ينهل
ويبرز معنى يعجز اللب دركه
يقول لطود البحث كن متلاشياً
حباك به من سحبه ثمطر التقى
محمد المشهور فينا بنيفر
فقف عنده واثن العنان لنحوه
وقل يا جميل الصنع أحسن ختامه
يثير غراماً والغرام له أهل
فكل عويص بعد إدراكه سهل
فيقضى سريعاً فهو واه ومنحل
فمن لم يصبه وابل ناله ظل
مفيد علوم عندها العقد والحل
ونحل سبيل الحاسدين وإن جلوا
فعند ختام الأمر يعتبر الفضل

ومن شعره مديلاً على نظم والده في سلاطين آل عثمان العظام المسمى بعقد الدر
والمرجان ، انتهى فيه إلى السلطان عبد الحميد الأول فطلب منه نظم من ولي بعده إلى
سلطان زمانه فقال :

ومن بعله قد قام بالأمر مصطفى
سرت فيه من عبد الحميد جلالة
وقد لاح في أفق الخلافة بعده
هو الملك الخاقان من خضعت له
تطلع من بيت السلاطين مثل ما
أعد لهذا الدين ما لم تجد به
وحسبك ما أبدى بترتيب جنده
فلا زال منصور اللواء مدعماً
ولما تناهى في الكمال ونفسه
تصاعد في أفق الجلال لجنة
فأظلمت الدنيا لفقد إمامها
وما عيس المحزون حتى تبسمت
إمام الورى عبد المجيد ومن غدا
فامات من أحيى الرسوم بنجله
فلا زال من ذا البيت تلبو أهلة
همام به ثغر العلى ذو تبسم
فأكرم به نجلاً لأصل معظم
شقيق له محمود أهل التقدّم
ملوك البرايا من فصيح وأعجم
تطلع بدر التم من بين أنجم
قرحة ذي لب وملك عمرم
فأنت تراه مثل عقد منظم
لأركان نصر الدين خير متمم
ثم المعالي من عظيم فاعظم
شهد سقام أجرها خير مغتم
وعم أولى الألباب أفضع ماتم
ثغور الليالي بالسعيد المعظم
ليبعته الإذعان من كل مسلم
وما فات من أبقى لنا خير ضيغم
تضيء الدجى نوراً إضاءة أنجم

ومن شعر صاحب الترجمة ما قرّظ به الدرّ المختار للعلامة العنابي مفتي الجزائر ،
ونصّه نقلاً عن ابنه الشيخ الرابع :

أكوكب لاح أم بدر التمام بدا
يا منصفاً ومزايًا الفضل ديدنه
ما كنت أحسب أن الدرّ معدنه
تلك البدائع آيات بها ظهرت
من أمّها نال من تحقيقه أرباً
قد صاغها عَلم التحقيق أوحده
محمد المرتضى ليث العرين ومن
يعطيك ما شئت من فقه ومن سنن
له مهابة علم جل منظرها
من معشر أدرك العلياء أصغرهم
دامت مآثرهم ما قال مبصرهم :

أم طالع الحق في أفق الهدى صعدا
هذي الفضائل لا تحصى لها عددا
طروس شرح غدا في الفقه معتمدا
وبارق الصدق في أرجائها أطردا
ومن أناخ بمرعاها فقد سعدا
من قد غدا بعلوم الدين منفردا
يهدي لمسترشد من علمه رشدا
بحيث يغنيك عن تحريرها أبدا
يلقى به من يراه الضيفم الأسدا
وعمّ علمهم أصلاً ومن ولدا
أكوكب لاح أم بدر التمام بدا

ومن شعره مؤرخاً وفاة فاطمة زوج حسين باي :

جلت عليه دلائل الخيرات
قد ضمّ من شهد الزمان بما لها
ظهرت محاسنها وشامخ أصلها
واستكملت كل الفخار بزوجها
كم طوقت من نحر كل يتيمة
وتفضلت قبل السؤال بمنحة
يبكي الزمان لفقدتها بمدامع
قد كان ديدنها المعالي فاقتنت
إذ جوزيت بالفضل نيل شهادة
وشواهد الشرع القويم كثيرة
فلذاك أقسم من يقول مؤرخاً

يسقيه وبل الفضل والحسنات
من صالح الأفعال والحسنات
كظهور بدر لاح في هالات
ملك الملوك ومفخر السادات
بيتيمة من درّها وصلات
تشفي سقيم العلم والعبيرات
ممزوجة بالحزن والزفرات
ما أورث العلياء عند عمات
موصولة باليمن والبركات
إن الشهيد لفي ذرى الغرفات
لمنحت أعلًا منزل الجنات

ومن شعره ما قرّظ به رسالة سيدي إبراهيم الرياحي المسماة «مبرد الأسته في الرد

على من أخرج الشيخ التجاني عن دائرة أهل السنة ، ونصه

أزهرٌ تبدى نافحاً من كرائم
تيقنت لا هذا ولا ذا وإنما
وذاك أبو إسحاق من عز أن يرى
إمام غدا التحقيق طوع ذكائه
وناهيك ما أبداه في هذه التي
أنت بالتي لا مثلها من عجيبة
وأبدت من التحقيق ما جاء ناسخاً
فلا زال يأتي من جواهر لفظه
ينظم منه الدرّ تاجاً فيزدهي

أم الدرّ منظوماً بنحر النواجم
جواهر علم صاغها فكر عالم
ضريب له في العرب أوفي الأعاجم
يعد إلى ذاك الذكا من لوازم
غلت في يمين للعلا فصراً خاتم
تقاصر عن إدراكها كل فاهم
ليل غريق في الجهالة فاحم
بيرهان قطع للتشكك حاسم
وتغشى محياه طلاقة باسم

ومنه مقرظاً أيضاً رسالة للشيخ المذكور في الأعذار :

نسخت بحكمة حكمها الأنظار
وخزائن التحقيق مها فتحت
ما كنت أحسب قبل ذوق زلاها
حكم الضمير بأن ناظم درها
لو ساغ إخراج الضمير لنسخة
لكنها في غنية عن ذلك إذ
فهو الإمام وكل فحل دونه
وهو الكبير يودّ كل موفق

رفع التراع وحقق الأعذار
برزت لها من طيها الأنوار
أن النهى تبدو بها أقمار
عرفت له الأشباه والأنظار
من حكمة ظهرت بها الآثار
مطلوبنا فازت به الأبصار
علم الهدى للناس منه فخار
ختمت بنور علومه الأعصار

وله مقرظاً رسالة أيضاً للشيخ الرياحي في الردّ على النخلة الوهاية :

روض العلوم تدفقت أنواره
لرسالة فاقت على نظرائها
وانجاب عن وجه الصباح بما حوت
لم لا ومنشئها أبو إسحاق من
ذاك الذي قد جدّ في طلب العلا

وتفتقت بعبيره أزهاره
ما فاق عن زهر السما أقماره
من حسن تحقيقاتها أستاره
بين الأفاضل لا يشق غباره
حتى علا بين الملا مقداره

فغدا وتحقيق العلوم شعاره أبداً وحل المشكلات دثاره
وبذاك تحريراته قد أنبات والحبر قد شهدت له آثاره
لا زال في أوج المعالي راقياً ما انجاب عن ليل الشكوك نهاره

ومن شعره ونثره مقرظاً ختم الشيخ محمد بن الخوجة للحديث الشريف بجامع محمد
باشا المرادي ونصهما :

طالعت هذه التعليقة الأنيقة ، التي هي بالإذعان حقيقة ، للبدر الزاهر الهام ،
الباهر أبي عبدالله محمد ابن شيخ الإسلام ، عمدة الأنام ، خاتمة للمحققين ، كمال
العلماء المتأخرين ، شيخنا أبي العباس أحمد بن الخوجة ، فرأيت ما يبتهج به الناظر ،
ويعول عليه المجادل والمناظر . من نقول تصحبها متانة وجزالة ، ونقود يمتزج بها بلاغة
وجلالة ، وحسن انسجام ألدّ من الوجدان بعد الإعدام إلى غير ذلك مما تركبه
الألباب ، لا يحيط به نطاق الاستيعاب . فحمدت الله سبحانه على التيسير في مثل هذا
الزمن العسير وابتهلت إليه جلّ جلاله ، أن يكثر من أمثاله ويسهل لهم النسيج على
منواله . إنه الفعّال لما يريد ، المالك لأزمة التيسير والتسديد ، وحين رتع الذهن الكليل
في ذلك البستان ، وتملك ناظره من بديع هاتيك الحسان ، صار اللسان على قدم
الشكر يجول ، وحمله الوجد المادح على أن يقول :

لا تنكروا وهي وفرط غرامي ومزيد أشواقى لها وهيامي
هذي الذي سمح الزمان بوصلها من بعد تسويني وطول قيامي
نسخت بطلعتها ونور جهاها ليل الشكوك وحيرة الأوهام
لا تعجبوا منها فإن مقبلها بيت العلوم وقبلة الأعلام
بيت إذا حل العويص بسائل وافاه ملتئماً لنيل مرام
لا زال محروس الجناح موقفاً متعطر الأرجا بحسن ختام

298 - الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن محمد بن محمد بن الحاج محمد بن
أبي بكر بن الطيب صدام القيرواني

بيت صدام بالقيروان من البيوتات العلمية النبية المتقلدة الخطط العلمية في قضاء
وفتوى وخطابة وعدالة ، وأصلهم من قبائل الفتح الإسلامي من اليمن كما هو مستفيدين

الناس . وصاحب الترجمة ممن نسج على منوال آله في العلم والفضل ، أخذ العلم عن أعلام بلده كالعلامة والده وكالشيخ محمد بو حديدة والشيخ حمودة الوحيشي وخاله الشيخ حمودة الطوير وغيرهم . ولما بلغ درجة التحصيل تصدّى لبث العلم بين طلابه فأروى الظمان ، وجلّى في ذلك الميدان ، ثم قلّد منصب الإفتاء في بلده فزانه بفضله وعلمه ، وخطب بجامع السيد الصحابي ، فأفاد الناس بوعظه البليغ المؤثر . ثم ولي رئاسة الفتوى بها ، فأصبح كما قال الشيخ أحمد بن أبي الضياف :

« فيه شمس ضحاها وقطب رحاها . قال وكان عالماً ، محدثاً ، فقيهاً ، نحوياً ، مفسراً ، أديباً ، شاعراً - وشعره معروف - نقياً عفيفاً ، خيراً ، من أعلام الدين ، سالكاً نهج المهتدين ، لّين العريكة ، سليم الصدر ، متواضعاً على رفعة ، محبباً إلى الناس ، معظماً عند الملوك والخاص والعام ، حسن المحاضرة ما شئت من بشر يتألق وآداب تتعطر بها النسمات وتتخلّق وإدراك ماضية فصوله ، عزيزة فروعها وأصوله » ١٥٠ .

توفي رحمه الله يوم المولد النبوي من سنة 1262هـ .

من شعره يمدح الأمير مصطفى باي :

دوام مسرة وبلوغ قصد	وعز باذخ وقران سعد
وإنعام وإكرام وبشرى	بتوفيق وتسديد ورشد
أت حلل المفاجر في حبور	بحول الله مع شكر وحمد
إلى المولى الهمام عظيم باشا	من السلطان تنبته بود
وتنعم بالهناء وباللزايا	وما خصّت ذوي غور ونجد
ونعمت النفوس بنشر بشر	تضوّع من شلى عطر وند
وراضت في رياض الأتس تخطو	على دوحاتها من غير صد
فقام العندليب بها خطيباً	على أغصانها من فوق رند
فبسل ثم حمل ثم صلى	على خير الخلائق من معد
وأ تبع ذا بجمد ثم شكر	على نعم أت من غير حد
لمولانا الأمير عظيم باشا	سليل الماجدين بغير جحد
سمي المصطفى الملك المفدى	جميل الذكر والرأي الأسد
به عقد الإمارة في انتظام	وعقد الملك موصول بشد

له في السلم لين لا يبارى
 إذا ما المشكلات دجا دجاها
 وإن نذت عريصات رماها
 وأعمل فكره الوقاد فيها
 مقام دونه نجم الثريا
 أيا ملك العلي الميمون طيراً
 جميع المكرمات إليك تعزى
 حوت مكارم الأخلاق طراً
 وحزت فضائل بالسبق جقاً
 وقد خضعت لك الأيام طوعاً
 عييلك يا جليل القدر يبغي
 إذا كنت المسلم والمعافى
 أيا شمس المحاسن دم مهناً
 ويا ليت الكتاب عش معافى
 أعيد علاك من جن وأنس
 يجاه محمد خير البرايا
 عليه صلاة ربي مع سلام
 وبأس في الوغى بصمي ويردي
 أنار سناءها برهيف حد
 بسهم الفكر في أوساط كبد
 فأغفى الجفن بعد كبير مهد
 وفخر قد سما في كل نجد
 ومن حاز الفخار وكل مجد
 ولست لبعضها أحصي بعد
 وفزت مع العلي بحميل قصد
 وقتت أباً وجداً حين تبدي
 وقد قامت لديك قيام عبد
 رضاك وما له شغف بتقد
 ظفرت بمُنْتِي وبكل قصد
 بكل كريمة كفاك تندي
 بعافية إليك الله يسدي
 بأي الذكر محكمة بعقد
 وما يتلوه من آي وورد
 عبر الختم من مسك وند

299 - جلدی أبو إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الرياحي

شيخ المسلمين

أصله من المحاميد القاطنين بطرابلس من فريق رياح الذين دخلوا إفريقية على عهد
 الدولة الصنهاجية لما سرحهم إليها خلفاء العبيديين من مصر ، وخبرهم معروف في
 التاريخ .

ولد هذا الإمام سنة 1181هـ ، ببلد تستور من بلدان الأندلس التي أحدثوها بعد
 هجرتهم إلى إفريقية ، فحفظ القرآن العظيم ببلده ، وسمت همته لطلب العلم ، فرحل إلى

تونس وتفرغ للعلم فدأب باجتهاد . حتى بلغ منه المراد . وظهرت براعته بين أترابه . حتى كان شيخ الشيوخ أبو عبد الله محمد الطاهر بن مسعود لا يقري إذا تغلف صاحب الترجمة عن درسه ، فكلمه بعض الطلبة في ذلك فقال : نحن نتفجع به أكثر مما ينتفع هو بنا لما يديه أثناء الدرس من الأبحاث النفيسة والفهم الجيد . فأصبح وحيداً في علماء جامع الزيتونة بلغت سيول معارفه الزبى . وأضحى تحلّ إعظاماً له الحبا . فتصدر للإفادة ، وأجرى في ميادين تحقيق العلوم جياده ، فتهاقت على حلق دروسه طلاب العلم من كل فج ، وتسامى إلى سماء العلى وعرج . حتى كان يذكر مع شيخه وشيخه شيخه الشيخ الطاهر بن مسعود والشيخ سيدي حسن الشريف كأنهم في مرتبة واحدة ، فالذي لا يعرف ترتيب تقدّمهم الزماني يظنهم أقراناً ، وكان شيخه ابن مسعود يقري بقربه ، فسكت يوماً وأنصت لتقريره درس مختصر السعد . ثم قال لطلبة درسه ما أحقنا بقراءة هذا الدرس .

وكان قدم على حاضرة تونس الشيخ العالم أبو عبد الله السّتاري من السودان فطلب من صاحب الترجمة أن يقرئه شرح السعد على الشمسية للكاتب في علم المنطق ، فأقرأه . وكان ممن حضر معه الشيخ أبو عبد الله محمد البحري بن عبد الستار ، فكانت بينهما علاقة أوجبت أن كاتبه بعد رجوعه إلى بلده يقول له في مكتوبه : اعلم يا أخي أي دخلت الأزهر واجتمعت بعلمائه وغيرهم من علماء المشرق والمغرب فلم نظفر بمثل شيخنا أبي إسحاق إبراهيم الرياحي ، فشد عليه يدك فهيناً لكم إن كان بين أظهركم .

تخرج به الأعلام ، وانتفع به أهل الإسلام . انتشر صيته في المشرق والمغرب ، وأبان لسان علمائها عن فضله وأعرب . لما وقعت المسغبة بإفريقية سنة 1216هـ ، رام الأمير حمودة باشا أن يوجه شيخ الشيوخ أبا الفلاح سيدي صالح الكواش إلى السلطنة المغربية لجلب الميرة لتونس ، حيث كانت ممنوعة الخروج ، وإنما اختاره لأن مثل مدينة فاس مناخ العلماء لا يصلح لملاقاتهم إلا مثله فاعتذر الشيخ للأمير بكبر السن وأشار عليه بتوجيه صاحب الترجمة ، وقال : إنه يقوم مقامي . وناهيك بها من شهادة فسعدت سفارته وأبقى فخراً علمياً لتونس بتلك الديار . وأخذ عن العارف بالله الغوث المكتوم أبي العباس سيدي أحمد التجاني بفاس ، وهو أول من أظهر طريقته بتونس . ووجهه الأمير أحمد باشا إلى الأستانة العلية شفيحاً فتلقى بالإجلال ، وأخذ عنه أشهر علمائها كالشيخ عارف شيخ الإسلام وهاداه المولى السلطان محمود بصندوق مرصع ثمين ، فلما قدم إلى

تونس أهده للأمير أحمد باشا . ولي قضاء الجماعة بعد تأخير الشيخ أبي حفص عمر المحجوب ، ففرّ منها إلى زغوان بعد أن امتنع فالزم ، ثم أقيل منها ، ثم ألزم أخيراً برئاسة الفتوى فقبلها بعد طول توقّف ، ثم خطابة جامع الزيتونة الأعظم كشيخه أبي محمد حسن الشريف بدون تلوّج في إمامته . ولم يتفق ذلك لغيرهما في العصور المتأخرة بعد البكرين . ولما توفي الشيخ أبو عبد الله محمد الفاسي عن درس تفسير اليبضاوي والبخاري بشرح القسطلاني بجامع المرحوم يوسف صاحب الطابع رام الأمير حسين باشا أن يسند الدرسين إلى صاحب الترجمة ، فطلب حضوره لديه يباردو ، فلما دخل عليه وهو بديوان حكاه ، وكان من تراتيبهم الكسروية بسط كفهم للتقيل لكل من يدخل عليهم كائناً من كان ، عدا أهل المجلس الشرعي ، فمدّ الأمير إليه يده فصافحه الشيخ كما جاءت به السنة المطهرة ، فتغير لها الأمير ورام أن يكسر الشيخ فأظهر أنه لا علم له بسبب مجيئه ، فقال له : ما حاجتك ؟ فأجابه الشيخ : لا حاجة لي إليك ، أنت أرسلت إلي . فلم يسع الأمير إلّا قوله : نعم أرسلت إليك لتتولّى درسي التفسير والحديث بجامع الحلقاوين عوض الشيخ الفاسي ، فامتنع الشيخ من قبول ذلك ، فأخذ الأمير يلاطفه ويلجّ عليه في قبولها إلى أن قبل . وكان شديداً في ذات الله ، يقول الحق ولا يبالي وله في ذلك مواقف حفظها الناس وجزاؤها عند الله . مهاب الجانب ، مجاب الدعوة ، محبوباً للناس ، لا ينطق باسمه إلّا موصولاً بالتسيّد . أما آثاره العلمية فحدثت عن البحر . له حاشية نفيسة على الفاكهي على القطر ، يقال إنه أكملها وضاع آخرها ، سافر به بعض طلبة السودان قبل أن يخرج منها نسخة والموجود منها بأيدي الناس إلي كان . وحاشية على شرح القاضي على الخزرجية في علمي العروض والقوافي ، ورسائل في مسائل كثيرة في فنون متعدّدة ، وجمع الشيخ أحمد بن الطاهر محشي التاودي على العاصمية حاشية من تقارير صاحب الترجمة على شرح الشيخ عبد الباقي على المختصر إلى الجمعة . وله فتاوي تبلغ جزءاً ضخماً وديوان خطب . أخبرني حفيده المرحوم أبو العباس أحمد الرياحي أنه جمع منها تسعاً وتسعين خطبة ، وقد كان جمع ابنه أبو الحسن علي خطب سنة أولى لولايته بديوان متداول بأيدي الناس . وله ديوان شعر جمعه حفيده المذكور نحو العشرة كراريس . بليغ الثر والشعر أفردت ترجمته بالتأليف ، توفي في 28 رمضان ليلاً سنة 1266 ، ودفن بترته بالزاوية التي أحدثها هو للذكر الورد التجاني بحوانيت عاشور . وهو آخر من توفي بمرض الوباء وارتجت البلاد لموته . وقد خطب تلميذه الإمام العلامة

أبو عبد الله الشيخ محمد بن الخوجة في موته بجامع محمد باي المرادي ، وضمن حديث :
القلب ينشع والعين تلمع ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بك يا إبراهيم لمخزونون . أو كما
روي .

من شعره يمدح السلطان محمود رحمه الله :

العزّ بالله للسلطان محمود	ابن السلاطين محمود فمحمود
خليفة الله ما أعلاه من شبه	بآدم ونبيّ الله داود
من آل عثمان سادات الملوك ومن	جاؤوا كعقد من الياقوت منضود
سادوا الأنام وشادوا الدين وافتحوا	من كل ما فيه خير كل مسلود
هم السلاطين ما ذرت وما غربت	شمس على مثلهم في نصر توحيد
وجاء سلطاننا المحمود بعدهم	بكل رأي من الآراء مسعود ⁽¹⁾
وربما جهل الإنسان مقصده	فجاء فيه بقول غير مقصود ⁽²⁾
لم يعطه الله ملكاً في خليفته	إلا لمعنى من الأغيار مفقود ⁽³⁾
دانت لدولته الأعناق خاضعة	من كل ذي ولد منهم ومولود
تخشى السلاطين من بعد بواده	لما له من جلال غير محمود
وكل باشا وإن جلّت مكانته	فليس غير فتى في الرق مصفود
يا عزّ دين الهدى إن يخشى منقصة	بكل قرم من الإسلام صنديد
وقوة من لدن ربّ العلى بهرت	براً ومحراً بنظم غير معهود
العجم تشهدا والعرب تعلمها	شرقاً وغرباً من البيضان والسود
أنت المذلّ لعباد الصليب وإن	لوى الزمان بإنجاز لموعود
لا يخلف الله في نصر مواعده	لكن إلى أجل في العلم معدود
أنت المؤمل في كل المهم فمن	أتى لبابك قصداً غير مطرود
وقد أتيتك من أقصى البلاد وفي	ظني الجميل بلوغي منك مقصودي

(1) وفي نسخة بخط تلميذه العالم الشيخ الصادق ثابت (محمود) بدل (مسعود) .

(2) وفي النسخة المشار إليها زيادة بيت نصّه :

لو لم يكن قصده قهر العدو لما رأته في اجتهاد منه مجهود

(3) وفي النسخة المذكورة زيادة بيت هنا أيضاً نصّه :

ما في الوجود سوى راجٍ لنعته أو خائف وسوى ذا غير موجود

دامت معاليك للإسلام مرحمة وللطغاة عذاب غير مردود
بحرمة المصطفى المهدي الإله له أزكى تحياته من غير تحديد
نعم أتباعه في الدين قاطبة والخلفاء إلى السلطان محمود

ولما أراد الأمير أحمد باشا توجيه الوزير الشيخ أحمد بن أبي الضياف إلى إسلامبول
في قضاء مهمة طلب من صاحب الترجمة مكتوباً لشيخ الإسلام بالسلطنة العثمانية ليكون
في عونته على قضائها فكاتبه بما نصّه :

المقام الذي رفع الله قدره ، وأكمل في سماء العزّ بدره ، وطهر من الدنس سرّه
وجهره ، وطيب في أنف الدهر ذكره ، مقام مولانا الهمام الأجد ، والإمام الأوحّد ،
غرّة سعادة الأيام ، وواسطة عقد نظام العلماء الأعلام . صدر صدور الأفاضل ، ومزية
الأواخر على الأوائل . معدن الأسرار واللطائف ، وكعبة العلم التي يثوب إليها كل طائف .
أبو العباس سيدي أحمد عارف ، أدام الله إسماعده ، وأفاض على البرية إمداده . سلام
تفوح أعطاره ، وتبوح بسرير المودّة أسراره لا يهتدي لكماله تنقيص ، ولا يعترى
عمومه تخصيص . هنا وإني من حين بلوغ كتابكم الكريم ، المعروف عن وداكم
القديم ، المصحوب بصلتكم المرفوعة على المفرق ، المذكورة بالسندس والاستبرق ، مقيم
على شكر أفضالكم الجليل ، إقامة شامة وطفيل ، سائل عن أحوالكم كل مظنة ، فيقع
الجواب بما لله فيه المنّة . هذا واستمدت من مدد جاهكم المقبول ، وعزكم الذي لا يحول
ولا يزول ، إعانة أحد أبناء قلبي ، الذي هو أعزّ من أبناء صليبي . نخبة نجباء أبناء
درمي ، واشكر من تمتع بشمار غرسي ، مختار ديوان الإنشاء ، المبوأ من مراتب الدولة ما
يشاء ، القائم منها مقام الإنسان من العين ، المتزل من الباشا منزلة العلق الثمين ، فإنه
وارد إلى حضرته العلية ، في قضاء لبانة سلطانية . فرادنا من علي همتكم إعانته
بالإمداد والإسعاد ، حتى يبلغ من أمله نهاية المراد . والله يبيحكم للإسلام ، ويجمع
شملكم بنخير الأنام ، في الدنيا قبل يوم القيام ، آمين من معظم قدركم إبراهيم
الرياحي ، اهـ .

ومن شعره يمدح الكاتب الشيخ محمد قلاله مجيباً له وهو من الكامل ، وتقرأ من
بجزوه العروض :

زمن السرور بما يسرك مسعف رحب المهاد . ومسعد لك متحف

فاجن المنى من روضها فلطالما
 واخلع براقعك التي منعتك من
 وانس بعسال القوام مهفهف
 واقطف ثمار اللهور قطف مراغم
 وأدِرْ بذكر محمد بن قلاله
 واصدع بحبك فيه لا تخش امرأة
 علم أبان بعلمه لمن اهتدى
 وأضاء تونس من سناه فأصبحت
 وتزينت من حسنه فكأنها
 وغلت به منحى الورى وملاذ من
 يا من به جاد الزمان ولم يكن
 ومن اغتدى من حسنه كل الورى
 لك في المكارم سنة وشريعة
 وعليك من حلل المهابة ما به
 ومن الجمال ملابس يصبو لها
 ومن العلوم مناهل تروي بها
 ومن البلاغة ما به سحبان في
 ومن القريض سوابق جلت على
 ومن الكتابة ما به تسمو على
 ولك اليراعة صارماً توقيعه
 وبك الوزارة أشرقت لو جثتها
 وسمت بك الكتاب مذ علمتها
 وبك العلوم وأهلها فرحاً نفت
 ولذلك أضحى باسمه ومحسنه
 وغلت ظنوني من سواه سليمة
 لا زال في فلك العلى مترقياً

حنّ الفؤاد . إلى بروق تخلف
 نيل المراد . فإن دهرك منصف
 طلق القياد . ودع علوك يرجف
 أنف الاعاد . ولا يصدك مسرف
 كأس الوداد . فإنما هي قرقف
 يبغى البعاد . فليس يخشى المدنف
 سبل الرشاد . فأين من لا يعرف
 شمس البلاد . ضياؤها لا يكسف
 ذات العماد . ولاح فيها يوسف
 يبغى الأياد . له فؤاد يرجف
 يدعى الجواد . ولا بفضل يعرف
 ألف السهاد . له دموع ذرف
 بين العباد . ومذهب متحنف
 خضع المعاد . وعاد إلهاً ينصف
 صلد الجواد . كأنه بك مدنف
 من هو صاد . بالجهالة مشرف
 فرش القتاد . من الفهاهة يلهف
 كل الجياد . ودون شأوك موقف
 رتب العماد . وأنت أنت الأشرف
 نفع يراد . ودبمة ترشّف
 بادي السداد . وفيك معنى يلفف
 سفك المداد . وحدّ سيفك مرهف
 لبس الحداد . وأصبحت تشرف
 شعري يناد . ومقلتي تشوف
 فهو السناد . وهل إذا أتحوف
 حتى المعاد . وبالمدائح يتحف

فإذا أردت إلى العروض المجزوة فقل :

زمن السرور بما يسر
 فاجن المنى من روضها
 واخلع براقعك التي
 وانس بعسأل القوا
 رك مسعف رجب المهاد
 فلطالما حنّ الفتواد
 منعتك من نيل المراد
 م مهفهم طلق القياد

إلى آخر القصيدة . ومنه قصيدته النبوية التي أنشدتها عند مواجهة القبر الشريف لما
 زار الروضة السنية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وهي :

مسك الصلاة وأعطار السلام تلي
 يا رحمة أهديت للعالمين هدى
 يا سيدي يا شفيع الخلق قاطبة
 إنا أتيناك في ظلم لأنفسنا
 فانظر لزورك واستغفر لهم كراماً
 إنا ضيوفك يا خير الأنام نرى
 جنتك من شاسع الأقطار يحملنا
 لم نعدم الفضل في بعد فكيف وقد
 يا رحمة الله في كل العوالم يا
 أتيت بالحق من عند الإله فما
 جاهدت حقّ جهاد في رضاه إلى
 وقت لله في تبليغ ملته
 حتى غلت ملة الإسلام ظاهرة
 وذاك مصداق ما يتلى ليظهره
 طوبى لمتبع نوراً أتيت به
 وويل من لم يقم رأساً به فغدا
 ها نحن بين يدي نجواك نشهد أن
 وإنك الرحمة المهلدة منه لمن
 وأن كل الذي بلغت من نيل
 هذي شهادتنا ذخر لديك ومن
 عليك تغدوها الأطياب في خجل
 لو لم تكن لم يكن كون بديع جلي
 إذ قول كل رسول ليس ذلك لي
 مستغفرين من الأثقال في وجل
 فإن فضلك بالإقبال لم يزل
 ذوو افتقار إلى ما منك من نزل
 حسن الرجاء إلى أفضالك المهطل
 صرنا بقربك مثل الشمس في حمل
 محمد أحمد يا أكرم الرسل
 أدخلت فيه إلى عجز ولا كمل
 أن أشرق الدين في سهل وفي جبل
 لم تخشَ لوماً ولم تحفل بمُنخزل
 تعلو على سائر الأديان والمثل
 برغم معطس أهل الكفر والحبل
 يمشي به في رياض العلم والعمل
 من خسرته في مهاوي الزينج والزلل
 لا ربّ للخلق إلا الواحد الأزلي
 سواه كي يستقيم الأمر عن ميل
 حقّ وصدق على التفصيل والجمل
 يستودع المصطفى ما خاب في أمل

نعم ولي حاجة في القلب تعلمها
 نعم وأخرى وقد جلت ولست لها
 يا كم قصدت لها ممن يظن به
 والآن جشك لا ألوي على أحد
 انظر للنبي بسقم الحجب عنك فإن
 وارحم قواداً بنار الفقد مصطلياً
 طالت ليالي الجفا مني وقد قصرت
 إن لم تكن بالذي أوتيت من كرم
 يا سيدي عمري ولى وما ظفرت
 إني توصلت بالأسما وأعظمها
 هب لي وصلاً على مرّ الليالي كي
 عليك صلى الذي في الذكر قال لنا
 وسلم الله تسليمًا يفوح له
 ثم الرضا عن أبي بكر وعن عمر
 وكل من يك يا خير الأنام له

لا عيش لي دونها فانعم بعيشك لي
 أهلاً وأنت الذي نرجوه للجلل
 فكنت أقنع بعد اليأس بالقفل
 أنت الجواد الذي تعطي بلا مهل
 تنظر رفقت بعزّ الوصل في حلل
 وانظر لدمع من الحسران منهمل
 يداي عن نزع ما ألبتت من علل
 تشني سقامي فما علمي وما عملي
 يدي بنيل الذي أعيت له حيلي
 وكل أمر يرى من أعظم الوصل
 أموت والقلب في سكر من الجذل
 صلوا بأمر من التسليم متصل
 مسك الختام مع الإشراق والطفل
 وذو الحياء أبي عمرو كذاك علي
 تعلق بانتساب غير منفصل

ومن شعره ، رضي الله عنه ، متشوقاً إلى زيارة الروضة النبوية - على صاحبها
 أفضل الصلاة وأزكى التسليم - سالكاً مسلك القاضي عياض التي ذكرها في كتابه الشفاء
 وعلى رويها وقافيتها :

يا روضة الرضوان والنفحات
 شوقي إلى مرآك شقّ جوانحي
 حتى ظلت من الصباية عبرة
 يا منزل التنزيل هل أنا نازل
 وأرى لتربك لائماً ومقبلاً
 ومرّداً ما بين دورك ناظري
 وجميل ظني في قطينك قاطن
 يا مصطفى يا خير من وطىء الثرى
 ومحلّة الرحمات والحرمات
 فشقيت بين تصعد الزفرات
 لأولي البصائر سائل العبرات
 بك متراً يشني من الحسرات
 ومعفر الوجنات في الجنات
 في ناصر العرصات والحجرات
 عار من الأوهام والشبهات
 يا باهر الحركات والسكنات

وحياتك العظمى لأنت مؤملي يا ملجئي في ميتي وحياتي
وصلاة ريك والخلائق كلهم تغشاك في الخطرات واللحظات

ومن شعره أيضاً مادحاً الجناب النبوي عليه الصلاة والسلام :

كفاني من زماني ما أقاسي ومن أهليه ما بالقلب راس
زمان ما له بالناس ميز وناس بالخمير لني جناس
فدهر بالحقيقة غير دهر وناس في الحقيقة غير ناس
أعمم في الجميع ولا أحاشي وأقصده وإني غير ناس
وما أنا فيهم إلا غريب وإن كثر المواخي والمواسي
ولولا سحر الحافظ نيام سياني صمغ من دنيائي بأس
تصول بها الظباء على أسود فتخضع ما رأت غاب الكناس
ففي كل القلوب لها جراح وفي كل الجفون لها مقاسي
وذاب لفتكها ما هو صلب ولان لفعالها ما هو قاس
فلست ترى سوى صب صريع يقاسي في الصباية ما يقاسي
فكلهم وإن تاهوا فني قد اقتبسوا الهوى أي اقتباس
ومن في الناس لازمه عذاب تزول لحمه الشم الرواسي
وكلفه الهوى بأساً شديداً إلى عدل من الناس الحساس
سوى هنا القتل ولا قتل كمقتول العناء من النعاس
ولا مثل النصال نصال جفن تبحرن القلوب بلا مساس
على صفحات وجه ذي جبين وخذت ورده من تحت آس
به الداء العضال وهل لصب سوى وصل الحبيب فديت آس
غزال لا يحاكيه غزال وشمس نورها للكون كاس
أغير المصطفى أبغي بحج أفي خير البرايا من التباس
من العرب الكرام أنار لما أريد هناك تصحيح القياس
وأومض في ليالي السود حتى أبان الدين من بعد اندراس
وأطلع في سماء الدين شهباً لها بين الوري أي احتراس
فصار الدين ذا وجه صحيح وملك الحق منصوب الكراسي

وعاد الكفر من بعد اعتزاز حليف الذل محكوم الدراس
 فيا كم هدّ من قصر مشيد و فرق بين جثان وراس
 بأبطال تدين القرن حيناً وتكسوه الدماء من اللباس
 عليه ما شدا في الناس شاد سلام كل آن في اغتراس

ومن شعره ونثره ما كتبه في نسخة انتسخها للوزير يوسف خوجة صاحب الطابع من كتاب فتح المعال في فضل النعال يمدح الحضرة النبوية - على صاحبها أفضل الصلاة والسلام - بالشعر . أما الثرثثناء على صديقه الوزير المذكور على نمط نثر ذي الوزارتين ابن الخطيب ، قال رضي الله عنه :

برسم الحضرة الشما ، والمقام الأعزّ الأسمى ، الذي اعترفت لجلالته الأمة ، وأذعنت لفضله أعلام الأئمة ، وفتحت لها مغلق اللها ، وأجمعت على محبته أهل النهى . المولى الذي كملت خلائقه ، وجملت طرائقه ، وابتسمت في حب الله حدائقه ، وعمّ إكرامه ، وانتشر إنعامه ، وأروى مزنه ، واستوى وزنه ، واتسع علمه ، ووسع حلمه ، ويوسف الرضا اسمه . أمدّ الله بقاءه ، وزاد ارتقاءه . فإن الليالي يجوده بيض ، والخيرات ببركة وجوده لها فيض على يد كاتبه أقفر العبيد إلى مولاه : إبراهيم بن عبد القادر الرياحي يوم الثلاثاء قرب الزوال أوائل صفر عام 1217 هـ سبعة عشر ومائتين وألف . ثم بحمد الله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى ، وقد أجرى الله تعالى بعض مدح المثال على لسان الكاتب حسبما اقتضاه الحال ، سائلاً فيه لمتسخ الكتاب . ما هو اللائق بذلك الجناب ، فهو أهل لأن يدعى له فيجاب ، وهذا نصّه :

يا مثال النعال تفديك نفسي من مثال لم يحكه من مثال
 فزت منها بنسبة ذات وصل تقتضي أن تجلّ مثل النعال
 فهنيئاً بكون مثلك كانت موطىء المصطفى الكرم الخلال
 وهنيئاً لمشتف منك يوماً طالما عاقه صدود الليالي
 مدنّف قد يراه شوق فأضحى كالحلال الجديد بل كالحلال
 قبل الوجنتين منك بوجد واقتضى ما اقتضى بطيب وصال
 واشتكى سائلاً إليك فولّى غانماً ظافراً بنجح السؤال
 إنما أنت آية كل حين يجتديك الورى لضيق المجال

آية للرسول تبقى وكم من
قد حكنتك العصا بتنوع سؤل
والعصا خصصت لموسى ولكن
فانظر الفضل يا أبا الفضل واعلم
يا نبي الهدى وخير كريم
ومُرَجِّي الوري إذا عمّ خطب
يوم لا ينفع الخليفة شيء
إن لي مطلباً وليس سوى أن
ترتضيه لنيل أجر وعفو
وجوار في عليين إذا ما
وتريه يا أكرم الخلق وجهاً
صاحب الطابع المعلى محب
مؤمن صالح رؤوف رحيم
فاكسه من رضاك سترأ عميماً
وصلاة على الرسول دوماً

آية للرسول ذات اتصال
غير أن العصا غدت في زوال
عمّ كل العباد نفع المثال
أن فضل النبي في كل حال
باسطاً كفه لبذل النوال
ظن منه البريء نيل النكال
غير تقديم صالح الأعمال
تقبل الخوجة الحميد الفعال
وفسيح من القصور العوالي
عمّ أهل الوقوف خوف الويال
حاز من قد رآه كل المعالي
لك يبغي رضاك يا خير وال
يبتغي من نذاك حسن المآل
سابقاً ضافياً وفي الكمال
عرفها شامل لصحب وآل

وقال مادحاً الحضرة النبوية وضمنها الطبع الموسيقية

قلبي على ذكر من أهواه في ألم
رقت لحالي أجلاذ الصخور وما
أتشدته عذب الحاني ألبته
لعلّ كأس «الرهاوي» أن يعطفه
وحرمة «الذيل» لا والله اقصدتها
وهب لساني «مزموماً» عليه أما
«بالاصبعين» لو أن القلب يدركه
ولو أرى «سيكة» تدني مودته
يا كم رسا «رصد» مني لغرته
أشكو «النوى» ولقد هما جرى فسقى

وحالتي بعده نار على علم
ترثي لحالي وما آوي إلى سقم
واللمع والوجد في فيض وفي ضرم
ويقتضي منه ما يرى من اللمم
«فالرصد للذيل» أمر ليس من شيمي
هو «الحسين» الذي يرى من الألم
أعدّد «الرمل» مالأ أن يعزّ دمي
كان «العراق» على ملكي ومن خدمي
«كالأصبهان» أناخ العيس بالألم
رمل الصحاري ورمل الماء والأكم

قولوا له صدري الملهوف في لطف
هو الذي بشرت توراة موسى به
هو الذي دولة الرسل الكرام ومن

«وماية» فاعف واصفح يا أبا الكرم
وباسمه صرح الإنجيل للأمم
ذانت له الناس من عرب ومن عجم

وقال معارضاً قصيدة الشيخ عمر بن
حيهم إن جتهم يا سعد حي
عش بهم صباً ومت في حبه
هم ملوك الأرض سادات الورى
لم يزل إحسانهم يغمرنا
كم كذا ألفاظهم تأتي بما
لفظهم والجود ذا فيه شفا
من كلا هذين لا أبرح في
فشاها لاعم في فكري
أنا منهم لم أزل مكتسباً
طرقني نفحة من سرهم
سودتني مرتحلاً
أسعد الله بهم فكري فلا
واجب عندي أن أسعى على
أنا والله محب لهم
مخفف حبه في مهجتي
قد منعت بوفا دون جفا
وسقاني كفكم كأس نوى
فلكم نبي صلاة كلما
وكذا الآل مع الأصحاب ما
واستمر المدح بآتيكم على
وقال في معارضتها أيضاً :

الفارض الشهيرة سائق الأظعان إلخ .
فهم أهل الوفا في كل حي
من يمت في حب حي فهو حي
فأرو عنهم واطور ذكر الغير طي
مطلباً بالفيض في نشر وطى
فيه للقلب شفاء ودوي
لنوي السقم وهذا فيه ري
سكرة فاروهم عن سكرتي
ونداهم طامع في راحتي
كلما ينسب في الخير إلي
فكسا ضولي سناها أصغري
كلما أطلبه في قبضتي⁽¹⁾
يعترني نصب في ساعتي
بصري حقاً لهم لا قدمي
صدقوني ليس بعد الله شي
عن جميع الخلق إلا ملكي
فلذا أنسيتموني أبوي
من رحيق بارد فيه شفي
أمطرت سحب بصبح وعشي
وجد الحي فتى في كل حي
سائق الأظعان يطوي اليد طي

وافتماري لكم أغنى يدي

حبكم قد شلني من عضدي

(1) بياض في الأصل

يا جلوسي حيث لا جلاس لي
شتم كمي فواد مغرم
فجزم لي فواداً متعباً
أتم أدري بما بين الحشي
افعلوا ما شتمم إنكم
وإذا عنفني فو عدل
قلت مه دعني فلو أنهم
هم فوادي وحياتي مثل ما
يا أساتي حيث أتم أنا
فاكشفوا عن عين قلبي غشوة
كي أرى بعضاً من الحسن الذي
وتعي نحوكم أذني وإن
فأرى منكم رضاً يلبسني
بالنبي المصطفى الهاشمي

ثم أنسي حيث لا أنس لدي
فانكوي منكم بكي أي كي
عجياً كيف يرى الجزم بكي
وانطوت عنه ضلوعي أي طي
كل فعل منكم عذب لدي
قائلاً حيك فيهم كان غي
منحوني الحب ما كنت بغي
أنهم سمعي ومرأى مقلي
وتزهم عن الشبه بشي
واقلعوا لي صمماً في أذني
دونه الأفكار في عجز وعي
كنت أرجو منصباً صعباً علي
تحت أطباق الثرى أحسن زي
خير خلق الله من آل قصي

وقال رضي الله عنه في بعض تجلياته :

وقد كنت قلماً قبل أن يكشف الغطا
فلما تجلّى الأمر أصبحت موقناً
أخالك أني حامد لك شاكر
بأنك مذكور وذكر وذافر

ومن شعره ونظمه وهو نائم وذلك يصدر من مثله رضي الله عنه :

الحمد لله وهو حسي
يختص من شاء لا بشيء
ثم الصلاة على النبأ
والآل والصحب والموالي
وبعد يا خالقي فإني
أن تجمع الشمل وهو فرق
الفاتح الخاتم المرجي

وفاز من حسبه الحسيب
إلا يجود له صيب
وآدم طينة لزيب
من كل من في الهدى نجيب
أدعو بكل الذي تجيب
يجمعه المصطفى الحبيب
لساعة هوها مشيب

السيد الكامل الملقى
 كثر الكمال الذي لكل
 من ملحه في الكتاب يتلى
 هو الرؤوف الرحيم جاء
 فيا رؤوف ويا رحيم
 إن لم تشارك حليف سقم
 هذا بكالي بدا مديحاً
 عليك من ذا العلا صلاة
 كذاك يصحبه سلام

الطاهر الطيب المطيب
 وإن علا قدره نصيب
 ماذا عسى يمدح الأديب
 في توبة نصها عجيب
 ما غير وصلك لي طيب
 فعيشه عيشة الغريب
 وذا اشتياقي وذا النحيب
 من عرفها مسكناً يطيب
 غصن الدوام له رطيب

وقال مستغيثاً من الوباء الذي حلّ بتونس سنة 1233هـ :

يا إلهي وأنت نعم اللجاء
 إن هذا الطاعون نار تلظى
 كم جموع تمزقت وكبود
 ودموع كاللتر تثر ثراً
 ووجوه مثل الشموس توارت
 أكرمت بالتراب فرشاً وكانت
 ابق يا ربنا علينا ودارك
 ذاك من ذنبنا العظيم لما قد
 يغضب الله بالننوب فتسطو
 هو لا شك رحمة غير آنا
 كم وكم رحمة لديك وتعطير
 ربنا ربنا إليك التجأنا
 بافتقار منا وذلّ آتينا
 نقرع الباب بالدعاء ونرجو
 لا نكن دون قوم يونس لما
 قد كشفت العناء عنهم حين

عافناً واشفنا فنك الشفاء
 لقلوب التوحيد فيها اصطلاء
 وسرور طارت به العناء
 في خلود توريدهن دماء
 لو تراها إذا أزيل الغطاء
 ربما ضرها هوا والماء
 باقياً قبل أن يعم الفناء
 جاءنا عن نينا الأنباء
 حين تغطي بوخزها الأعداء
 يا قوى عن حملها ضعفاء
 لها بلا محنة إذا ما نشاء
 ما لنا ربنا سواك التجاء
 ما لنا عزة ولا استغناء
 فلنم الدعاء ونعم الرجاء
 آمنوا حين بالتمتع جاؤوا
 ثم ماتوا وما لخلق بقاء

ولنا سيد الأنام رسول
ولنا عند ربنا قدم الصد
والكتاب العزيز نور ميين
ولو أن العصاة فينا قمنا
ربنا جاء عن نبيك وعد
ارحموا من في الأرض يرحمكم الله
فلأنت الأولى بذلك فارحم
فلقد زاغت البصائر منه
ضاق أمر الوري وأنت المرجأ
والكتاب العزيز بشر باليسر
وكفانا سيجعل الله يسراً
فجدير أن يأتي اليسر فوراً
وصلاة الإله ثم سلام
أحمد المصطفى الشفيح إذا ما
إذ يقوم الرسول والحمد شغل
يا له موقفاً عزيزاً تجلّت
والرضاء الأعم يهدى لصحب
ولكل الأتباع في كل قرن
أيها المؤمنون توبوا جميعاً

دونه الأنبياء والشفعاء
ق ونحن الخيار والشهداء
بيننا تنجلي به الظلماء
من إذا ما دعوا أجيب الدعاء
في حديث رواه أمناء
ه تعالى وترحم الرحماء
رحمة تتني بها البلواء
وعيون الوري به عمياء
وسطا ذا الوبا وعز الدواء
سرين في عسرنا ومنك الوفاء
بعد عسر والوعد منك وفاء
وحقيق أن تذهب البأساء
للإمام الذي به الاقتداء
كل نفس تقول إني براء
فينادي لك الرضا والهناء
عن جميع الوري به الضراء
بعد آل ومن حواه العباء
ما له بانقضا الزمان انقضاء
أيها الناس أتم الفقراء

وله متوسلاً بالنبى ﷺ وبآل بيته الكرام عليهم السلام :

إلهي قد سألتك بالنبى
بمولانا الحسين ومن قد أضحى
بزين العابدين وقد تسمى
بمن بقر العلوم وكان فرداً
بصادقنا المستى في البرايا
بموسى الكاظم الشهم الذي قد
وفرع الطهر بالحسن الولى
شهيداً من يد الشر الشقى
علياً وهو ذو القدر العلى
محمد الذكى ابن الذكى
بجعفرنا أخ السر الجلى
سما في الخلق بالخلق السنى

بمن في طوس قد أضحى دفيناً
بمن قد فاق في أدب وعلم
بذاك السيد الهادي علي
بمولى الفضل بالحسن المثني
بخاتم أولياء الله جمعاً
أدم لي حباً آل البيت حتى
أبي الحسن الملقب بالرضي
محمد الملقب بالثقي
حميد الفعل ذي العرض النبي
بسلطان الكرام العسكري
بمهديّ الزمان الهاشمي
أموت عليه بالعهد الوفي

وقال ، رضي الله عنه ، متوسلاً بالنبي ﷺ ، في نازلة حال وأتشدّها عند باب السلام لما وصل إلى الحرم النبوي :

إليك رسول الله جئت من البعد
بغى وطفى مستكبراً متشبهاً
وصار رقيباً مبغضاً متجسماً
وعبدك يا خير البرية غافل
ترفع للدنيا بخفضي جاهداً
وبالغ في خفضي إلى أن غدا على
ولم يرع أياماً يراني شيخه
وما خاف لوماً في القطيعة لا ولا
فهذا رسول الله إجمال مكره
ألا يا رسول الله هذا تذلي
ألا يا رسول الله ضيفك سائل
ألا يا رسول الله برّد جوانحي
عليك سلام الله يا منتهى الرجا

أبتك ما بالقلب من ألم الوقد
بوهم يقود النفس للخطا المردي
يقصر طول الليل بالرد والنقد
ظننت به خيراً لما مرّ من ودّ
معاناً بجهال عرّين عن الرشد
رؤوس الوري يتلى جهاراً بلا جحد
ومرشده الهادي ومنعمه المهدي
عقاباً من المولى على ناكث العهد
وتفصيله يا سيدي ليس في جهدي
إليك فخذ بالثأر يا منتهى القصد
فهل ضيف أهل الجود يكرم بالطرّد
بدائرة تسعى إليه بلا بعد
وأزكى سلام دونه فوحة الند

ومن شعره القصيدة الدالية الشهيرة في الحضرة النبوية - على صاحبها أفضل الصلاة
وأزكى التسليم - وقد ساقها في أواخر الترجمة العنبرية في الصلاة على خير البرية من تأليفه
ونصّها :

على باب خير الخلق أوقفني قصدي
وقد جتته لا علم عندي ولا تقى
لعلمي بأن المصطفى واسع الرقد
ولكن كل الحبث يا سيدي عندي

به أترى غيبي وعندكم رشدي
لعمرى وجد ما له بعد من فقد
مراراً أتى التزير وفق الذي بيدي
ملائك فاستحييت من وجهه الوردي
ولا سيما آل خصوصاً ذوي ود
بنوه بحوراً عذبا دائم الورد
أرى أنتي ألححت في مطلبي جهدي
بأسماهم نظمي فرائد في عقد
بروجاً ولكن كلها طالع السعد
علي الذي زان العبادة بالزهد
أبي الكاظم القرم الهام بلا جحد
علي التقي والعسكري أبو المهدي
به ظلمات الجور والزيف عن حد
وحاشا لهم إني أقابل بالرد
وسلم تسليمًا تقدس عن عد
وبعد فذا ذلي بلذواك يستجدي

فيا من وجود الكائنات بأسرها
ونفحة جود منك يا أجود الورى
توسلت بالصديق خلك والذي
وعثمان ذي النورين من حيث له
وحمزة والعباس والصحب كلهم
أبا حسن باب العلوم ومن أتى
بهم جئت يا خير الورى متوسلاً
وحاشا لهم أني أخيب وقد أتى
أدرت بهم أفلاك أمري كما ترى
هم حسن ثم الحسين ونجمله
وباقر علم وهو والد جعفر
علي الرضا ثم الجواد محمد
وسيدنا المهدي الذي سوف تنجلي
فها أنا مدل يا كريم بجاههم
وصلى عليك الله ما أنت أهله
وآلك والأصحاب طراً وتابع

ومن شعره وختم به النرجسة العنبرية مبتهلاً إلى الله تعالى :

دعوتك مضطراً وأنت سميع
وجئتك محتاجاً فكيف أضيع
وقلبي من ضرب الذنوب وجيع
وفي الصدر روع للحساب مروع
وروضك للعافي الفقير مربع
وعندي على طردني إليك رجوع
تعاليت وصلي من سواك قطع
وأي حمى إلا حماك منبع
تلظت لها مني حشى وضلوع

وعدت الذي يدعوها أنا سيدي
وحققت ياسي من سواك لقره
وتاديت والآمال فيك قوية
وفي عملي سقم وعلمي شهوة
أنطردني عن باب فضلك سيدي
وكيف يرى ظني لديك مخيباً
وهل لي من مولى سواك أرومه
وأي نوال غير فضلك يرتجى
لئن حجبتني عن نوالك زلة

وأخطني منها إلى الأرض شهوة
فما بيدي حول ولا لي حيلة
بإذنك توفيتي وفضلك واسع
أسوف بالإقلاع قلباً مقلّباً
وقد هدّيتني عن ذاك قلب مغفل
عسى أثر العصيان بالذنب ينمحي
فكم سعة وافت على حين شدّة

ومن شعره في الابتهاال إلى الله جلّ وعلا قوله أيضاً :

ارحم حنيني يا رحمان سائله
هنا الظلام سجا والناس قد رقدوا
فاجمع مفرّق شملي بالحبيب فقد
ما خاب راجوك من قبلي فكيف أرى

وكم رحمت ولم تسأل بلا عدد
وقد بسطت رجالي إذ مددت يدي
طال المدى ولهب الهجر في كبدي
يا فائض الجود من جدواك لم أرد

وقال في صدر رسالة خاطب بها الشيخ سيدي مصطفى بن عزوز :

جاء الكتاب من الحبيب مبشراً
قد ردّ عهداً للمسرّة مثل ما
أهدي إليك تحية مسكية
مستودعاً منك الدعاء وأنت في

بقدمه يا مرحباً يا مرحبا
بقميص يوسف ردّ ما قد أذهب
يا مصطفى يا متقى يا مجتبي
حال تراها للإجابة أقربا

ومن شعره تصدير القصيدة الشهيرة للشيخ البكري رحمه الله « ما أرسل الرحان أو يرسل » ونصّ التصدير :

حمداً لربي قبل ما أسأل
ثم صلاة الله من بعدها
أهديها للمصطفى المجتبي
هذا وما للعبد لاسيما
إلا حمى طه شفيح الوري
يوم يقول الرسل أنت لها

وكل عال دونه أسفل
أذكي سلام عاطر يرسل
وكل من في دينه يدخل
من ظهره من دينه مثل
في موقف أهواله أهول
وكلهم من هوله يوجل

فعند ذا ينهض خير الورى
 إذ النداء من ربه ذي العلي
 ففرج الله به كربهم
 وعبك الراجي له كربة
 إني أرى الهجران لي واصلاً
 فبالذي حلاك من نعته
 وحلة الرحمة مع رافة
 صلني لوجه الله حتى ولو
 فجودك الفيث أما أنه
 ونورك الشمس وما ضوءها
 هذا وظني فيك مستكمل
 ورحمة الله على قائل
 ما أرسل الرحمان أو يرسل
 محمد ربّ العرش ، إذ يسأل
 محمد بُلغت ما تأمل
 وكم به من كربة تنزل
 أعيبى علاجي داؤها المعطل
 وإن في الهجران ما يقتل
 أبهى حلى لم يعطها مرسل
 يتلى علينا نصها المترل
 لم أك أهلاً للذي أسأل
 في كل أرض مطلقاً يتزل
 يختص ما يختص بل يشمل
 وأنت عند الظن بل أكمل
 منه علا في ححك المقول
 الخ . . . الخ

ومن شعره هذان البيتان :

أهل الحديث طويلة أعمارهم
 ورويت عن بعض المشائخ أنهم
 ووجوههم بسنا النبي منورة
 أرزاقهم أيضاً به متكررة

ومن شعره مادحاً شيخه سيدي أحمد التجاني رضي الله عنهما :

صاح اركب العزم لا تخلد إلى اليأس
 واشرح متون صباباتي لجيرتها
 واقرا السلام على تلك المعاهد من
 وقل لهم ذلك المصني وحقكم
 لا يبصر الحسن إلا في وجوهكم
 وعج إلى حيث من عيني لفرقة
 ومن أنا فيه هيان يقلبني
 ومن فواحي به مضني يحملني
 ذاك الذي قال ما لم يحوه بشر
 واصحب أخا الخزم ذا جد إلى فاس
 وحي حياً بهم قد كان إينامي
 حيران تلفظه ناس إلى ناس
 باق على العهد ذو وجد بكم راس
 وليس يمنع في حب لوسواس
 تبكي وترفر بالأشواق أنفاسي
 دهري بأنواع تهيامي وأجناس
 ما بعضه دك منه الشامخ الراسي
 من العطايا ولم يعرف بمقياس

معناه أعظم أن يجلي بقرطاس
مدده سرّه الساري إلى الناس
مكونه كتزه الخفي بحراس
فيض الآله بلا لبس ولا باس
بسابع الفضل من عرفاته كاس
عقلي وروحي وجلاسي وأحداسي
ومقلتي ولساني بين جلّاسي
فجىء لأحمد ساقى السر بالكاس
تظفر بأعطار ذاك الورد والآس
إن لم تكن في بساط الغرب ذاباس
واسرع إلى الله مشاء على الراس
وقم ولاتك للإسعاد بالناسي
أن تستضيء من المعنى بنبراس
يد النبوة هل بينى بلا ساس
أما من أهوال نيران وأرماس
وأعظم الرسل ذي الإحساس والباس
مع الحسين وزهراء وعباس
وارحم به قلبي المضنى به القاسي
تنني عليّ شقاواتي وإفلاسي
تسلم ذاتك كفاء القطب في الناس

غوث البرايا أبو العباس أحمد من
روح الوجود وقطب الكون مركزه
رمز الوجود وسر الحق طلسمه
حقيقة الكون معنى السر يجمعه
أعني التجاني تاج العارفين ومن
ومن محبته ديني وخلته
ومسمعي وقوادي وانبساط يدي
يا سامعي إن تكن للسر ذا ظما
ردّ ورده العذب واستنشق روائحه
واستعمل الجذ في تحصيل واجبه
واهرع إليه إذا ما كنت ذا ظمًا
وانهض فقد لاح للإسعاد طالعه
واخلع ظلاماً على قلب منعت به
وما ظنونك بالورد الذي نظمت
ولا تظنّ بمنهاج لسالكه
يا رب أدعوك بالأسما وأعظمها
وحزمة وعلي وابنه حسن
اجعل قلادة جيدي في أصابعه
وابعث له عند سمع النظم مرحمة
وعم مشواه تسليماً فليس سوى

ومن شعره أيضاً مادحاً شيخه سيدي علي حرازم ، تلميذ الشيخ سيدي أحمد
التجاني والشيخ حرازم هو الذي أخذ عنه مترجمنا الطريقة الأحمدية قبل اجتماعه بالشيخ
التجاني بفاس ، قال :

وصفا فكان على الصفاء ندي
لله يشكرها في وصيمي
عجز الثناء عن الوفا بعظيم

كرم الزمان ولم يكن بكرم
وأفاض من نعم عليّ سوابغا
عظمت على الشعر البليغ وربما

وتمتعي من وجهه بنعيم
وتمتعي من خلقه بنسيم
ومعارف ولطائف وفهوم
وتشرفي من نعله المخدم
ما لو بدا لارتاب كل حلیم
منها لأرفع سرها المكتوم
وبنبله إن شاء غير ملوم
وأمدته من عنده بعلوم
فيه وخصّ مقامه لعموم
وهو الذي معناه غير مروم
همم الوری تسعى بكل سليم
فهي الغذاء لراحل ومقيم
حتى عرفتك فاستبنت رجومي
وأسير خلقي والشقاء نديمي
ومؤملي عند التهاب سهمي
وطغت علي وساوسي وهومي
فخيار أهل الله خير رحيم
من مسعد بجلي الهموم زعيم
فتكرمت باللؤلؤ المنظوم
وقد اصطلت وتكلمت بكلام
أمل عظيم الشأن غير هضم
وجدوا سوى شوق إليك أليم
بجدد الأشواق غير رميم
يسعى إليك وأنت خير كريم
وتوسلي بعلاك غير فصيم
أصبحت من معناه غير عديم
يا منجدي يا مؤثلي وحميمي

وأجلها نظري إلى ابن حرازم
وتلذذي من خلقه بمحاسن
وتعرفي من عرفه بتواسم
وتعززي بتذلي لجماله
ذاك الذي حملت خزائن سره
ذاك الذي منح المعارف فارتقى
وهو الذي نال الرضا من ربه
وهو الذي نزل الرسول بوصله
وهو الذي التجاني أودع سره
وهو الذي وهو الذي وهو الذي
عظمت لديه مواهب أضحت لها
وسعت محبته إلى أرواحهم
يا سيدي ولكم دعوت لسيد
وعلمت أتي كنت أرقم في الهوى
يا مؤثلي وكفى بفضلك مؤثلاً
هل أنت كاشف كربتي فلقد سطت
هل أنت راحم شقوتي فترخني
هل منقذ من قد تحير لم يجد
فارحم دعواً قد رأتك عيونها
وجوانحاً جعلتك في سودائها
وجوارحاً ضرعت إليك يقودها
وسرائراً لو أنها بليت لما
ومتيماً لولا التذكر لم يكن
لا تقطن أمني وقد وجهته
وقد اتخذتك في الأنام وسيلة
ورجوت من ربي بفضلك ما أنا
يا مسندي يا مقصدي يا سيدي

أنت الذي ربي اصطفاك لسره
فلك الهناء فأنت سلطان الورى
ورسوله أولاك ما اعترفت به
فسلام ربك كلما هبت صبا
وحباك من فضل عليك عميم
ولي الهناء بأن تقول خديمي
لك أهل سر الله بالتقديم
يفشاك طيب مزاجه المختوم

ومن شعره في الردّ على منكري الطريقة التجانية ومشوقاً إلى ملاقة صاحبها :

يا ترى ممرضى درى بسقامي
ما عدا هجره فأجناد صبري
أيها الهاجري وإن كنت أهلاً
كيف يا سيدي وأنت مرادي
كيف أذلت بالجفاء محباً
صار يهوى من بعد طول ائتلاف
ألف آه على ليال تقضت
حيث فاس قرارنا وهي دار
ما لمصر ولا لبغداد معنى
أي سر فيها وأي سرور
أي معنى وأي لطف وظرف
والإمام التجاني أحمد فينا
يسرج النور في القلوب ويمحو
يسكب السر في سرائر قوم
ذاك فإن في الله حياً وهذا
يا نفوساً دكت لقهر التجلي
مدد مدمم به الشيخ جوداً
كيف لا والإمام أحمد قطب
خاتم خصه الإله بفضل
دونها تنتهي النهى لعلو
هكذا أنبا النبي بصدق
فهو إن يدره أعز مرامي
ما استطاعت لحملها من قيام
أين حلم النهى وصفح الكرام
وعلى من سواك ألف سلام
لك في قلبه أعز مقام
لك وصلاً ولو بطيف منام
نظمت شملنا بأي انتظام
ما لدار في حسنها من مسام
مشبه لا ولا العراق وشام
قد قطفنا وأي شرب المدام
وغرام يهاج بالأنغام
داعياً بالهدى لدار السلام
بمياه الغيوب كل ظلام
أصبحوا بالوصال سكرى غرام
في جبال النبي بدر التمام
يا عقولاً خرت للطف الكلام
إن جود التجاني في الكون هام
ما له في الأنام قطب مسام
وعطابا من المزايا عظام
وارتقاء عن مدرك الأفهام
أو تهباً لرشقة من سهام

إن تقل كيف ذاك وهو أخير
 قلت فاق النبي وهو أخير
 ليس في القدرة القديمة عجز
 خلّ نعت النبي فهو محال
 ليس من حقل الجدال ولكن
 حيث لم تكنحل بنور اهتداء
 لا تجادل في الأولياء وسلّم
 بشر الخائضين فيهم بحرب
 رب إني صدقت كل ولي
 غير أن ابن سالم هو شيخي
 في هواه المطاع طاوعت عيني
 إن يكن راضياً فذلك فوزي

إذ يفوق المأموم قدر إمام
 كل ذي رتبة سمّت في الأنام
 وكذا الفضل لم يزل في انسجام
 والسوى جائر بغير ملام
 أن تكون الجفون منك دوامي
 كي ترى الشمس ما لها من غمام
 قبل توتير قوس أيد روامي
 من قويّ في بطشه ذي انتقام
 راعياً قدرهم بعين احترام
 وملاذي وعملي وإمامي
 وعلى بابه ضربت خيامي
 بجميع المنى وحسن الختام

ومن شعره مصدراً مكتوباً له خاطب به ابن شيخه سيدي أحمد التجاني :

يهنيك ياذا الطرس كف محمد
 فإذا شممت المسك من إقباله
 فقل السلام عليك يا ابن المصطفى
 ذاك المشوق إليك إبراهيم قد
 فلذاك عن إقدامه نابت له
 ينهي اشتياقاً بالفؤاد ملخصاً
 ويروم منك رضا به أرواحنا
 دامت علاك ودام سر طريقنا

وكذلك ثم الترب من أقدامه
 ونما سرورك حين كشف لثامه
 يا ابن الختام الغوث في أيامه
 قعد المشيب به إلى إسقامه
 عرب كساها الحسن من أقدامه
 لا يستطيع الكتب شرح غرامه
 ماء المزون بمزاج لمدامه
 كأس الرحيق وأنت مسك ختامه

ومن شعره مهنتاً شيخه أبا حنص عمر المحجوب بنحطة قضاء الجماعة :

على قدرٍ وافك عالية القدر
 وساعدها بحت ولولاه ما اهتدت
 فذلك لما آن للحق نجمه

ويا طالما نحت إلى وجهك البدر
 إلى أن ترى شمساً على صفحة الدر
 وللدين من صدع له أيما جبر

وللشرع إعزاز تيسر من عسر
 مسير على حمد ووقف على شكر
 بعروته الوثقى ومعقله الوعر
 أبي حفص المحجوب ذي العز والفخر
 إلى واحد الدنيا جميعاً بلا نكر
 به عجز الأعصار رُدَّ إلى الصدر
 معانيه أزهار على أوجه الزهر
 فأغنت عن الهتان في وابل القطر
 ولا نور إلا من سحائب الغر
 فخام فيا فخر أضيف إلى فخر
 به الملة البيضاء باسمه الثغر
 عن الوالد المبرور والولد البر
 تنسم ريا الفتح عن زهرها العطري
 حباهم بما معناه لم يجر في فكر
 وقلد من فخر وفخر على فخر⁽¹⁾
 وأوسع من فضل وأورث من ذكر
 إلى ضوءه تعشو البلور إذا تسري⁽²⁾
 ويغنى ظلام الليل عن طلعة الفجر
 ويكشف عن حق من الجهل في ستر
 ومن وصفه يهدي إلى الشعر والنثر
 بنخطه الميمونة السر والجهر
 علينا به ما لم يكن قبل في نشر
 فأصبحت الغبراء في حلال خضر
 وإسعاد دهر عن سعورك مفتر
 وأمرك مسموع وعزك في نصر

وللعدل إسعاد وللعلم دولة
 وللحضرة الشما خلافة أحمد
 أليست من الشيخ الإمام تمسكت
 ألم تأر من دون الإمام إلى حمى
 إلى عمر الأزكى فعلاً ومعتداً
 أما إنه التحرير والجهند الذي
 معاليه في غر الزمان قلائد
 معارفه في الأرض صارت عوارفاً
 فلا نور إلا من مصابيح علمه
 شمائل آباء كرام وإخوة
 خلأق في سود الليالي تبلجت
 توارثها منهم وليد ووالد
 عن اللوحة العليا والسدة التي
 عن المصطفى المختار أكرم والد
 وحسبك ما قد ذاع من علم قاسم
 ومهد من مجد وجدد من هدى
 فمن كان مرتاباً فهذا مَحَمَّدٌ
 ويشرق في وجه الشريعة نوره
 ويمسح أجفاناً من الحيف جرحت
 كمالك يا معنى المديح وقصده
 ومن بارك المولى على الدهر كله
 ومن نشر الرحمان من رحماته
 ومن سطعت أيضاً دلائل يُمنه
 فيهنى الورى عيشاً بعيشك أرغد
 وعزّ وتأييد بكل عناية

(1) قاسم المحجوب .

(2) محمد المحجوب .

وقال مادحاً ومهنتاً شيخه سيدي الطاهر بن مسعود حين رجع من المغرب
الأقصى :

زمن بكل مسرة وافاني
لا أستطيع ثناءه ولو أنني
حيث الحبيب مقارب ومواصل
والشمل منتظم الجواهر عقده
من بعد ما طحنت كلاكل جوره
وتداولت بين الحشاء همومه
وتناضلت فرق الأسى وتراحمت
بكتائب سود اللروع كأنها
جعلت تجول بأضلعي فحروها
وجوانحي ميدانها ومداسها
وقوا الحشاء مغام لكاتها
أفلا يحق على العيون تجرح
وتسهد وتحن وتأسف
وأحيتي ما بين ناء مبعده
وحليف ود لا يفيق من الأسى
ومحلهم من كل أنس موحش
يشكو حرارة ما ينوق وإنما
كانوا مصاييح الظلام لأهله
سلّ الزمان غراره فأراشهم
وكسا جسوم القاطنين هنالك ال
ولكم كسا من ذي اعتزاز ذلة ال
وطوى محاسن من كرام سادة
يجنود طعن بالحروب عليمه
طاعونها لا يكتني بأقل من
حتى مللت من الحياة وطولها

أكرم به زمناً وأي زمان
أعطيت في الإطراء كل لسان
وبحيث يسمعي وحيث يراني
وصفا المودة مشير الأغصان
كبدني وأصلي مهجتي ورماني
دولاً تشيب ذوائب الولدان
شيع الردى وطوائف الحدثان
ليل المحاق وأوجه السودان
ما مرّ عن نيرانها الملوان
وبجال كل مهند وسينان
قسمت أحاد بينها ومثان
وعلى الفؤاد تجرّع الأشجان
وتصعد في سلم الهيمان
وحميم آن في التراب مهان
لذهاب خلّ أو نبو مغان
يكي ويكي كل صلده جنان
يشكو فراق أئمة أعيان
فتناثروا كلالء الأجفان
بأسنة الأنكاد والأحزان
أسقام بعد نعومة الأبدان
أكفان بعد رفاة الأردنان
وكرائم تسبي الرشيد حسان
وخيرة بمقاتل الإنسان
أخذ النفوس ولا يقول كفاني
ورأيت رمسي فيه ليل أماني

وحسدت قطآن القبور وربما
 فإذا نسيم قد تضرّج باسمًا
 يبرى السقام شميمه وينشره
 يسرى إلى نحو المشارق مذهبًا
 ناديته ماذا وراءك طبت من
 فأجابني أتى هببت مبشراً
 شمس الأئمة طاهر من نوره
 شيخ حباه من الكمال إلهه
 أجلى على ترشيش ظلمة حزنها
 وأباد جيش همومها بعساكر
 أخذت تقارع كل شهيم ضيغم
 ونفى لها يؤس السقام فأصبحت
 وتحولت دار النعيم وطالما
 وتزخرفت حتى كأن قطينها
 وكأنها لما ألم بدورها
 وتباشرت لما رآته بأسرها
 حتى رأيت بناءها طرباً إلى
 وجوامعاً ومساجداً ومدارساً
 ودروسها تحتال في حل البها
 وتقول أهلاً يا حبيب ومرحباً
 يا محيي الإتيان بعد دروسه
 ومشيداً ربيع العلوم وقد هوى
 ومجدداً خلق التقى ومنوراً
 يا ابن الكرام ونجبة الفضلاء من
 يا نجل صاحب خير من وطىء الثرى
 ومعز دين المصطفى بأدلة
 ومبين صدق وقوع ما يقضي به ال

لذ الحمام لمصطفى النيران
 بالغرب هب معطر الأكوان
 يطفي حرارة كل صب عان
 علل الصدور وغلة الظمان
 محيي النفوس بنشرك الرباني
 بقدم من خضعت له الثقلان
 يهفو لرونق حسنه القمران
 ما لم تفر بنظيره العينان
 فبنت بوجه مشرق فتان
 من ضيغم ضار بكل لسان
 حتى استحال مردد العقبان
 خضراء بعد ييوسه الأفتان
 كانت بحال مصائب وهوان
 لم يجر دمة حائر ولهان
 أرم تبدت أو قصور جنان
 بلسان حال أو لسان بيان
 مرآه يهتر اهتراز غوان
 تومي إلى التسليم ذات حنان
 ولها بعقدته البهي تهان
 بك يا إمام مشائخ العربان
 ومحلّي الأذهان بالايقان
 فوق العروش أسافل الجدران
 لحمى الشريعة مظلم الأركان
 أهل الخلافة من بني عدنان
 عمر فوشح راية الإيمان
 وأسنة وبجلة الفرسان
 لرهاص مثل تصدع الايوان

فكأنه ما ذاق بنت دنان
ألقي فما ألفت مثلك ثاني
فرايتهم ينفون كل مدان
وهم لذكرك ناكسو الأذقان
تذر الشجاع البطل مثل جبان
وجميعهم يثني بكل لسان
حتى أجرع غصة الهجران
من ذا الفراق مياحة السيلان
بمغيب مطلعك العليّ الشان
عاري الحياء لشدة الهيمان
وترحماً من كل نذل شاني
وأرى السلو به عليك عراني
قلبي سواك وليس لي قلبان
يولي المسيء سحائب الغفران
أيجلّ منك عذاب غير العجاني
نسجت عليه عناكب النسيان
عالي الحصون ومحكم البنيان
حصلت منه على شفا خفقان
فرايت منها الأمر شبه عيان
بمكان أنت به من القطان
حلل الوجود محقق الإمكان
فيهم تعاق عوائق الأزمان
تقضي بأنك قرّة الأعيان
سارت لنحوك مطلقات عنان
فثنت لنحو الغرب بالميلان
لم يدر كيف مطالع الوجدان
غلبت عليه أشعة اللمعان
من دونها البحران يلتقيان
ويجيد فيك مبانياً ومعان

فأذاق كسرى كأس ذلّ قاتل
كم لي أنقر في الأنام لعنني
ولكم سألت الناس هل لك مشبه
ومن أين نلني مشبهاً لك في الوري
وإذا برزت رأيتهم بمهابة
حتى إذا ما الرعب زال رأيتهم
قل لي بفضلك أي ذنب جنته
وترى فراقى مذهباً ومدامعي
ولأي شيء ما رأيت من الأسى
وتركتني فوق البسيطة هائماً
حتى رأيت من العذول تعذراً
أحسبت لي إلفاً سواك يروفتي
لا والذي أولاك رقي ليس في
ولمن أتيت جريرة فلأنت من
أو كان هجرك لا لذنوب جنته
ولعل ودك حال حتى أنه
ومتى استحال وحسن عهدك في الوري
لم أدر ما سبب القدود وليتني
لكن حدسي قادني لطبيعه
هي أن ما قد حمّ ليس بواقع
فركنتنا كما ترى المقضيّ في
والصالحون لهم مزيد كرامة
سيما وقد شاهدت فيك عجيبة
إني رأيت كواكب الأفلاك قد
علمت بأنك زائر لسرته
فإن امتري ذو مربة فلعله
ولعله إذ كنت شمس معارف
ولأنت أرفع منزلاً بمراتب
أفستطيع بلوغ مدحك مادح

وأجلّ مدح أنت فوق أجلّه
لكنّ ما لا يُستطاع جميعه
والعفو عما قد جنيت مؤمّل
لا زال في حرم يلاذ بمحصنه
وأجلّ مُطرٍ في القصور يعاني
فُجاء منه بمُمكن الإتيان
حيث اجترأت على عليّ مكان
ما دام في حرميهما الحرمان

وله يرثي شيخه المذكور رحمة الله عليهما :

كأس الحمام المرّ دائرٌ
آلى بصدق آية
لو كان يسلم فاضل
ذاك الإمام المرتضى
من حفّ نوره أسرة
وشمائل نبوته
جرح القلوب مصابه
يا جامع الزيتونة الـ
وسراجك الوهاج قد
قد كان فيك يقوم من
من كان فيك علومه
إن قال : قال الله فالـ
أو قال : قال المصطفى
أو قال : مذهب مالك
لهف المدارس والمسا
عطلتها يا سيدي
أسف الأنام مضاعف
لكن يهون بعظمه
خلّفت حمداً ناصعا
يا زائراً يهنيك ما
أبشر وسل ما تبتغي
وأعجب لقول : مؤرخ

ومن شعره يرثي شيخه سيدي إسماعيل التميمي رحمه الله :

هل الحمي إلا هالك وابن هالك
ولو أنه يبقى على الدهر ماجد
وعزّ البقا لله دون مشارك
لكان لنحرير عزيز المدارك

كهنا الذي أمسى الثرى متوسداً
 لقد كان سيفاً في الشريعة صارماً
 قضاياه في جيد القضايا قلائد
 إذا قال إسماعيل فالكل منصت
 مشى ذكره في العالمين كما مشت
 إلى رحمة المولى مضى وهو آمل
 ولما قضى أبكى القلوب توجعاً
 وعمّ الأسى حتى لساعة دفنه
 لئلا تآتى أن يقول مؤرخ :
 ونجم الثريا منه تحت أرائك
 ونور ظلام في الجهالة حالك
 فتاواه تيجان المذهب مالك
 لأجزل معنى من صياغة سالك
 ذكاء ولكن ذكره غير ذلك
 لمقعد صدق عند أكرم مالك
 وإن كان ذا وجه من البشر ضاحك
 بكى المزن وبلاً بالدموع السوابك
 لعين السما جري على قبر مالك

ومن شعره مؤرخاً وفاة العدل الشيخ عبدالله التميمي خال شيخه سيدي
 إسماعيل التميمي قوله :

يا سالكاً في الأرض سبلاً
 قف واعتبر بجلا حل
 كانت به الأيام لا
 والعلم كان به حياً
 ولكم أفاد من اعتفى
 وأبان عن طرق الهدا
 وعلى أهالي الفضل من
 وعلى الكرام من الكرا
 وعلى عيون الكاتبين
 والآن سار إلى الرضا
 ودعاه عبد الله يا
 لبى لدعوة ربه
 ولذلك في تاريخه :
 ما يتقي للموت نبلاً
 متوحد فضلاً ونبلاً
 مثل لها بعداً وقبلاً
 للعالمين وكان وبلاً
 ولكم أزاح عليه جهلاً
 ية ما يرى صدقاً وعدلاً
 أهل العدالة زاد فضلاً
 م من الكرام الأصل جلاً
 من قوي البراعة كان جلي
 لما تبين منه إلا
 بدر التميميين أهلاً
 وتخير الملك الأجلاً
 كانت له الفردوس نزلاً

1234هـ

وقال يرثي شيخه سيلبي محمد القاسمي رحمه الله :

شرف الورى يا دهر كيف هدتمه
يا ليت أنك والمنى ممنوعة
لم مال في سوق الحيار إلى الردى
أفلم يغيب بغروب شمس محمد
والعلم لو كانت لقلبك رقة
لا غرو أن نثرت لآلىء أدمع
يا من إلى نور الكتاب وسره
كشآف أسرار البلاغة قد مضى
من للكلام إذا يدون فخره
ومتى أتى بوساوس متفلسف
ولو أن أفلاطون ساعده اللقا
يا محيي الإحيآ ليهنك مقم
لهني عليك ولست فيه بمفرد
شمس بناس أشرفت وثونس
قسماً بمن أعطاك خلقاً كاملاً
لو تفتدي لفداك من تحت السما
لكن ما تلقاه من حسن القرى
فلكم دعا داعي الردى فأجبهه
والله أحرى أن يُنيك كل ما
وحر لمجدك أن ينادي زائر

وقصدت عمداً للهدى فثلتمه
تلوي على نقض الذي أبرمته
يا ليت شعري هل بذآ أكرمه
فضل سما عن أن تكون علمته
لبكيت من بعده ورحمته
وبفقله عقد القلوب فصته
يسعى لقد أخفقت فيما رمته
ولسان تلخيص البيان علمته
من مبطل شبه الضلال كلمته
أرهفته وهدى الإله أفته
لدرى بأن العلم ما علمته
عمرٌ بإحياء العلوم ختمته
يا مفرداً جمع الكلام نظمته
غربت فيا أسفاً عليك ضرمته
وثبات حلم في الأمور عزمته
وبقيت حياً ما تشاء أفته
خير وأبقى والذي قدمته
وجميل ظنك بالرجا أحكمته
يجميل ظنك في الأمور كتمته
ومؤرخ : وارمس كيف ضمته

1232هـ

وقال يرثي شيخه أيضاً الشيخ أحمد بوخرىص :

كم رحيق معطر محتوم
قد سقاها أبو خرىص مداماً
في كؤوس المنطوق والمفهوم
أطربتهم بسرهما المكتوم
في سماء النهى بحسن فهم
في دروس أنوارها ساطعات

طالع السعد قال ذاك محلي
 أحمد جامع الجوامع طراً
 عضد اللين حجة الله فخر
 ذكره المسك في الآفاق عبيق
 صيته الشمس شهرة في البرايا
 ثم لبي لما دعاه المنادي
 سكن القبر بعد تلك المعالي
 إن هنا المصاب خطب جسيم
 غير أن المصير للفضل كف
 يا إمام الهدى عليك سلام
 رحمة في الحياة كنت ونوراً
 فحقيق قولي متى قلت أرخ :
 لا يحيط عن قطبها المعلوم
 سيد في الكمال غير مروم
 في سبيل الهدى وبث العلوم
 قدره دونه بجاري النجوم
 في ثناء كالتؤلؤ المنظوم
 لقضاء على الوري محتوم
 يا لحصن من الهدى مهدوم
 باذل الروح فيه غير ملوم
 تغرس الصبر في القواد الكليم
 من رؤوف بالعالمين رحيم
 أي جهل من بعدها مركوم
 كسفت بعدها بنور علوم

ومن شعره مادحاً سلطان المغرب الأقصى مولاي سليمان حين أوفده باي تونس
 للإتيان بالميرة في عام مسغبة وقعت في تونس قوله :

إن عزّ من خير الأنام مزار
 أوليس نور المصطفى بجيئته
 فاشف الغليل بقره فطلالما
 واحفظ جفونك من سناه فإنه
 وإذا أنامله اللطاف لثمتها
 وافخر على كل الملوك بلثمتها
 وانبد بفخر ابن الخطيب فإنما
 شتان بين ابن الرسول وغيره
 هنا يزين الشعر طيب مديحه
 هذا الخليفة وابن أكرم مرسل
 فلنا بزورة نجله استبشار
 كالشمس يظهر نورها الأفتار
 شطّ المزار وعانت الأقدار
 بريقه تتخطّف الأبيصار
 فحذار من غرق فهنّ بحار
 ما بعده للمستعز فخار
 لابن الخطيب بفخره المعشار
 أو يستوي ليل دجا ونهار
 حنتاً وذاك تزينه الأشعار
 وسليل من فخرت به الأعصار

بيت البتول ومن حواه إزار
 بطل شذا عزماته معطار
 شرفت بملك يمينه الأحرار
 ملك البسيطة والورى أنصار
 فلغيره الأجسام وهي قفار
 من أشرقت بجبينه الأنوار
 وسما به للمسلمين منار
 في أيكها ترمم الأطيّار
 وهو الذي يُحمى لديه ذمار
 وسنانه يوم الكربة نار
 من قبل أرهف حتّها الأخطار
 وتصاغر الأبطال وهي كبار
 مها يجر يوماً فنعم الجار
 ضاقت بحمل ضئيلها الأقطار
 ليل الخطوب وساءت الأفكار
 جذب وعم جميعنا أضرار
 زال العنا وتزحزح الإعسار
 ودرى بأن جاهها غرّار
 كانت كرام أصوله الأطهار
 لم يرضها دون الجنان قرار
 الدنيا فطاب لأهلها استقرار
 وتواترت بسخائه الأخبار
 نمت بطيب نسيجها الأزهار
 وله إليك بشاشة وبنار
 مستبشراً تجلى به الأكدار
 فيها كما انتسقت بها أسطار
 منهم سوى من فضله مدرار

وخلاصة الأشراف والخلفاء من
 وأعزّ وارث ملك إسماعيل من
 وأجل سلطان وأكرم مالك
 وأحق من تحت السماء بان يرى
 لكن إذا كل القلوب تحبه
 هذا سليمان الرضا بن محمد
 هذا الذي ردّ الخلافة غضة
 وأعزّ دين الله فهو بشكره
 وحمى حماه بفضله وينصله
 فلسانه يوم الجندال صوارم
 بمعارف وشهامة علوية
 تخشى الضراغم بأسه في غابها
 ويخاف صولة عدله الدهر الذي
 وهو الذي يرجى لكل ملمة
 وهو الذي يسمى إليه إذا دجا
 كمجيتنا نسمى إليه وقد سطا
 علماً بأننا إن رأينا وجهه
 مولى رأى الدنيا بمقلّة زاهد
 فرمى بها متزهاً وكذلك من
 وتخير الأخرى بهمة عارف
 فرحت به الأخرى كما صلحت به
 عمّ البرية حلمه وحيأوه
 مع ما به من مستلد شمائل
 إن تلقه لاقيته متهللاً
 متبسماً يجلو الظلام جبينه
 من عصابة ورثوا العلى وتناسقوا
 وتسابقوا في المكرمات فلن ترى

صلحاء أبرار أماجد سادة
 خلفاء أشرف كرام قادة
 أسد إذا حمي الوغى وإذا دجا
 من كل أحزم يتقيه حمامه
 درب على طعن الأباهر والكلبي
 قرم إلى نهب النفوس إذا سطا
 شدّ الإله بهم معاهد دينه
 وأحزهم بعزير نصرته التي
 أفما رأيت الكفر ذلّ لعزهم
 تهوى المشارق أن تكون مغارياً
 وتنال من عزّ الشريف كما رأت
 ردّ الزمان لصدره فكأنما ال
 العدل يبسط والنفوس سوامح
 والناس في رغد الحياة بجنة
 فليذكر النعم التي عمّتهم
 ولنسأل استمرارها ببقائه
 الله يبني نصره متتداً
 ويديم أملاك السماء تحوطه
 والأرض قبضة راحيه وأختها
 ما دتم يا أهل بيت محمد
 أوما ترنم منشد بحلامكم
 ثم الصلاة على النبي وآله
 علماء أخيار تلت أخيار
 سرج بها للمهتدي استبصار
 ليل بكت لبكائهم أسحار
 شاكي السلاح له اليقين دثار
 وعليه للحرب العوان مدار
 فطوال أيام العداة قصار
 والله جلّ لدينه يختار
 رعب القلوب أمامها سيّار
 وسنانه لسواهم خطّار
 ليعمها في الملتجين جوار
 إذ كان فيها للخلافة دار
 فاروق بين ظهورنا أمار
 والدين يظهر والعلوم تدار
 تجرى لهم من تحتها الأنهار
 الله يعلم أنهم غزار
 فبقاؤه لصلاحنا استمرار
 في عزّة خضعت لها الأقدار
 بعناية شيدت لها أسرار
 منها له تتزه الأسرار
 حرماً يطوف بيته الزوّار
 وترنم بحلامكم الأذكار
 ما ناف لي بمديحك مقدار

ولما أنشدها بين يدي السلطان ارتاب بعض الحاضرين في مجلسه - كما أخبر هو
 رضي الله عنه - أن تكون هذه القصيدة العصماء من بنات أفكاره . وجاءه بعض كتبة
 السلطان وطلب منه أن يدفع هذا الريب بنظم قصيدة تتضمّن إتفاقاً غريباً وقع للسلطان
 وذلك أنه أقرأ صبيحة يوم درساً في التفسير أنها عند قوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم
 من شيء فإن لله خمسه » الآية ، وفي مساء ذلك اليوم جاءته غنيمة ، فتبارى الشعراء في

هذا الاتفاق العجيب . قال : فقلت معرضاً ولخيام الشك مقوضاً :

دلائل فضل الله فينا ترجم
ومن أكبر النعماء ولاية من له
تلطف في إخفائها مستراً
ولما أراد الله إظهار سره
ليدري صحيح الذوق أن مليكنا
وأن له فيما قضاه مغانماً
فلا زالت الأيام تخدم سعده
وإن غفلت عنها طوائف نوم
علينا وفينا حكمة وتحكم
ومن كملت فيه الولاية بكم
جري الأمر في الإظهار آية واعلموا
له في طريق الكشف نهج مقوم
فعجل ذي بدء لما هو أعلم
ولا زال مثلي في علاه ينظم

ولما ظفر السلطان المذكور بابن أخيه الثائر عليه المستمى بسعيد هنأه بقوله :

بشرى الورى بالأمن بعد مخاف
أضفت جفون الرشد ثم تنبّهت
ما صحّ لولا ذلك في حقّ امرئ
وهو الذي عمّ البرية فضله
واللين في عزّ به والناس من
قل للمغارب هل جهلت كماله
أضحكت سن الشرق إذ أبكيت في
رمت القياس بغير معنى جامع
فأتيت بالخطأ الذي لا يرتضى
إن الكواكب في السماء كثيرة
وكنلك الأشراف كلّ جوهر
هل عمّكم منه التقى فستتم
أم علمه أم حلمه أم عدله
أم رمت بطراً وكم من قرية
فنقضتم العهد الذي قد أوثقت
ونسيتم يوم الولاية وهو في
لم يرضها لولا صلاح رامة
وقفوا به في موقف الإرجاف
بلطائف قد كنّ تحت سجاف
رؤيا سليمان بعين خلاف
فأحاط بالدنيا إحاطة قاف
بركاته في جنّة ألقاف
وكماله في الناس ليس بخاف
ما قد أتيت مسامع الإنصاف
وغرست لاستثمار غصن خلاف
حتى لأحمق في المدارك جاف
لكن ذكاء فريدة الأوصاف
وأبو الربيع فريدة الأصداف
نعماً سوابغ سترهن ضواف
أم وكف كف يمينه المتلاف
بطرت فجرّ بها إلى الإلتلاف
كفّ الشريعة في يد الأسلاف
كره لها والقوم في إلخاف
وتضرّع العلماء والأشراف

حتى إذا استولى كما شاء الهدى
لم يرضنا والعالمين بأسرهم
تستوجبون بذلك لولا حلمه
لكن عفا والعضو منه سجية
لم يلتفت لنفاد قدرته التي
لو شاء قهر عدوه لم يفتقر
وأمد من جند السماء ورائه
لكن طود ثباته لم يهتز
ورعى حقوق الله والأرحام في
كرهوا الهدى والحق مما جاءهم
ولو انه اتبع الهدى أهواءهم
يا خاتم الخلفاء لا تحفل بهم
واصبر كما صبر الهداة فإنها
فالله حسبك والذين استيقنوا
واطم على المولى السعيد فإنه
أنت اليزيد وإن يقولوا عمه
مثل اليزيد جفا فجاء بصارم
فأناله بالحلم واسع فضله
لا تياس القربى حنانك بعدما
ما همهم نصر له لكنهم
ولك الثناء مخلداً في هذه
يا من إذا تليت محاسن حمده
دامت حياتك للقلوب مسرة
خذها جناحاً في عيون أجلة
قصرت نبالي أن تناضل دونكم
ترمي العلاء بكل معنى مطرف
شكراً لأنعمك التي أسبقها

وبشتمم بالبر والألطف
فعل أتيتم للرشاد مناف
ما استوجبته القوم بالأحقاف
وأتى بصفح وافر وعفاف
بالنون مدّ مديدها والكاف
لقعاقع الأرماع والأسياف
من جده المختار بالآلاف
بعواصف من غيهم أصناف
قوم زعانف للضلال خفاف
جذباً إلى الإهمال والإسراف
جامعوا بسُمّ للآتام زعاف
واصدع بأمر الله صدع معاف
منح يلدن منائح الانحاف
فتصاموا عن ناعق استخفاف
ير البنوة صادق الإسعاف
والابن قد يحفو وليس يحاف
في فيه للسلطان ذا استعطاف
عطف الأبوة سابغ الأعطاف
فاضت سحائبها على الأطراف
نصروا سخائم في النفوس خواف
والفتح والنصر العزيز مواف
طرب النهى من كاسها بسلاف
والله جلّ بنصره لك كاف
ولها هيب في قلوب سخاف
فبريت من نبع الجدال قواف
وبكل لفظ مبرق خطاف
ولو أنه لعلاك غير مكاف

أهدي إليك تحية عصرية تغشى منازل آل عبد مناف
بعد اختصاص المصطفى بصفيها وتعمّ نشرأ كل من هو قاف

ومن شعره مهنياً سلطان المغرب الأقصى مولاي عبد الرحمان المتولي عوضاً عن
السلطان مولاي سليمان سنة 1238هـ :

نصر من الرحمان جلّ لعبه وأيروم خلق نقض مبرم عقده
وعدت به الأقدار وهي نوافذ لا تحسبنّ الله مخلف وعده
والله أعلم حيث يجعل نصره في الشاكرين له سوابغ رفته
فليتسم ثغر الهنا مستبشراً فالوقت ينطق عن سعادة جده
إن يمض مولانا سليمان الرضا وعليه تبكي الباقيات لفقده
العلم والتقوى وكل فضيلة منشورة طويت به في لحده
فلقد أضاء لنا أبا زيد هدى نوراً مييناً يستضاء برشده
لو لم يكن كفاء لما أوصى به وبنوه ترقل في ملابس جده
سعدت به الأيام ثم أراد أن تبقى السعادة للورى من بعده
أعظم به نصرأ يلوم سروره للخافقين سرى تضرع رنده
أهدى إلى الأعداء أقتل غصّة والأوليا متنعمون بشهده
فاستبشروا باليمن من مرضاته واستمطروا نيل المنى من وده
ما هو إلا ابن الرسول وهل فتى في الناس يعدل عن مكارم جده
وتناسقت أسلافه كراماً كما راق النواظر لؤلؤ في عقده
لا غرو إن جمع الحاسن كلها منهم فإرث الجمع حق لفرده
لا يافك الخراص حيث يقول قد ذهب الزمان بعمره وبزيده
فسيب ما تنسخ يقدر أديمه حتى ولو وفى العيان برده
فلكم وكم من آخر زمناً له فضل عظيم لا يحاط بسرده
يا أهل فاس والمغرب كلها والشرق من مصر لغاية حده
يهنيكم هذا الزمان فإن في أيامه للدين مطلع سعده
والعلم والتقوى وكل معظم عند الشريعة فهو بالغ قصده
النور أوقد منهم أترامهم يرضون إلا باستدامة وقده

الله يبتني نوره متوقداً
 ويخص مولانا الأمير بنعمة
 ويديمه ظللاً وديعاً كلما
 وحسام فتح كلما نهضت به
 وتغام بدر كلما اقتعد السرى
 وعليه تسليم تارج نده
 ثم الصلاة على النبي وآله
 يفنى الزمان ولا فناء لخلده
 لا تنقضي وعناية من عنده
 حمي الورى هرعوا لجنة برده
 عزماته فالنصر شاحذ حده
 لم يسر إلا في منازل سعده
 لكنه في الفضل عادم نده
 والحمد في بدء الكلام وعوده

وله في ابن السلطان سليمان مولاي إبراهيم لما شاع الخبر بمروره بتونس في طريقه
 إلى الحج ليلتقاه بها ، ولما لم يتم ذلك أرسل بها إلى والده السلطان سليمان ونصها :

هذا المنى فأنعم بطيب وصال
 ماذا وكم أوليتني يا مخبري
 بشرتني بحياتي العظمى التي
 بشرتني بابن الرسول لو أنما
 بشرتني بسلالة الخلفاء من
 من حبه فرض الكتاب أما ترى
 من ضمهم شمل العباء وأذهبوا
 من قوموا أود المكارم بعدما
 لولاهم كان الورى في ظلمة
 آباءك الأطهار أقصد يا أبا
 يا حيه وصفيه من قومه
 لو لم تكن أهلاً لصفو وداده
 لكن توسم فيك كل فضيلة
 وأقام جودك بل وجودك زاد من
 أنت استطاعتهم فما عذر الذي
 وبك المشاعر اطربت طرب التي
 ووصلتها رحمتي هناك قطيعة
 فلطالما أضناك طول مطال
 بقدمه من منته ونوال
 قد كنت أحسبها حديث خيال
 روحي ملكت بذلتها في الحال
 أمداحهم تتلى بكل مقال
 إلا المودة حين يتلو التالي
 رجساً فيا لك من مقام عال
 شادوا الهدى بمعارف ونبال
 مرّت غياهاها بكل ضلال
 إسحاق يا نجل الملك العالي
 وخياره من سائر الأنجال
 لم يستنبك لجدك المفضال
 فحبا يمينك راية الإقبال
 يبغى بيت الله خير رحال
 ترك الزيارة خيفة الإقلال
 وجدت على ولد بقيد فصال
 دهرأ مضى وبللتها بيلال

وتأنس الحرمان منك بطلعة
كرم لكم أدريه يوم أفاضه
وهب الألوفا وكان أكرم منزل
يوم التشرف لي بلثم يعينه
وتلذذي بخطابه المعسول إذ
لم أنسه يوماً حسبت نعيمه
عجياً له يحيي القلوب بعلمه
وإذا تقلد اللوغى فحسامه
يتلوه بالفتح المين عساكر
يخشى الملوك مقامه ولذكرة
وينال آمله لخفض جناحه
حتى سقى أصفى مناهله الأولى
وأنت لمغربه الشريف مشارق
لا تكدر صفوه بضلاله
ومتى تخلف عاجز فبقلمه
أمنية وقعت أشرت لذكرها
تهوى المشارق أن تكون مغارياً
يا فخر دين الله منه بناصر
لا تفتخر فاس ولا مراکش
أوليس في كل البقاع ثناؤه
أولم يشد للدين والعلماء وال
أوليس أحیی سنة العمرین فی
لو لم يعم بجوده أقطارها
أو لم تسر ركبائها بمحاسن
شيم يهز الراسيات سماعها
أوصاف والدك الإمام المرتضى
ذاك الرفيع أبو الربيع ومن به

أغتها عن وابل هطال
عني سليمان بأي سجال
يسلي الغريب بيره المتوالي
وتمتعي من وجهه بجبال
حفت به للدرس أي رجال
للذائد الجنات ضرب مثال
ويُبيت جند الفقر منه بمال
تعنو الرقاب له بغير قتال
قد أرهفت بالنصر حدّ نصال
رعباً تطير فرائص الأبطال
ما ليس يخطر منه قط ببال
يسعى لمروتهم ذوو الأتقال
والشمس تغرب لاقتضاء كمال
جاءته كيما ترتوي بزال
يسعى لفعل شعائر الإجلال
في مدحها قدماً بصدق مقال
لتنال من جدواه أي منال
وسعادة الدنيا به من وال
بولاية كل الأنام موال
ورد البكور وسبحة الأصال
أشراف والصلحاء صرح معال
زمن إلى بدع الهوى مبال
لا فرق بين جنوبها وشمال
ضاءت لهم سرجاً ينجح ليال
ويفحن في أنف الزمان غوال
للدين والدنيا بحسن خلال
حيي الهوى وشرائع الأفضال

فيه لك الفخر الكبير وإن يكن
 كل الكمال له وأنت مقره
 يا ابن المليك ابن المليك ابن الملي
 أنسيتم ذكر العباسية الأولى
 لكم الفخار بذاته وسواكم
 ولي الفخار بأن نسجت مديحك
 أملي معانيه عليّ وداذك
 ولو أنني حاولت مدح سواكم
 فكأنما طبعي شريف حيثما
 أو قد درى أن المديح تعرض
 أبقاكم كهفاً يلاذ بمجده
 وأدامكم رحمة فإن بقاءكم
 وأدام للإسلام والدك الذي
 وعليكم وعلى الذي يهواكم
 ما دام ذكركم بكل صحيفة
 صلى عليه مسلماً ربّ الورى
 لك في العلا نسج على منوال
 والفرع عين الأصل عند مثال
 لك ابن المليك سلالة الأقبال
 زالوا وما زالوا بعين جلال
 مستمسك من فخركم بضلال
 حللاً تجدد كل شيء بال
 فجرى به طبعي كما السلسال
 عقل القرحة عنه أي عقل
 لا يهتدي لسوى مديح الآل
 وسواكم لا يرتضى لسؤال
 مختاركم لإنالة الآمال
 من فيض رحمة سيد الإرسال
 هو رحمة وسعت بغير جدال
 أزكى الرضا من حضرة المتعالي
 تبعاً لأحمد سيد الإرسال
 وعلى مقدم حزه والتالي

ولا وصلت هذه القصيدة العصماء إلى السلطان مولاي سليمان اهترّ لها وأجاب
 بمكوب وقصيدة على رويها وقافيتها من إنشاء بعض كتابه ، وهو الشيخ الفقيه الأديب
 إبراهيم التازي . وقد بلغت هذه القصيدة إلى الحضرة التونسية واتصل بها الشيخ صاحب
 الترجمة سيدي إبراهيم الرياحي يوم الجمعة في 30 سنة 1228هـ ونصّها :

حيث فأجيت قلب صب صال
 واستفتحت بعد التحية سورة ال
 هيفاء ترفل في مطارف سندس
 مخضوية الكفين والقدمين في
 بينا نائل بعض أتراب لها
 فتضاءلت لسناه أقمار الدجى
 كيما تبشره بقرب وصال
 ففتح المين بقصد أخذ الفال
 من شيخ تونس لاتسام بمال
 طول القنا ملمومة بدلال
 إذ أسفرت عن وجهها المتلالي
 والصبح أصبح كالقميص البالي

فحسبها الدرّ الثمين ملاحه
العالم العلم الذي أهدى لنا
أدت قريحته وثاقب ذهنه
يا أهل تونس حزنتم شرقاً بما
يكفيكم أن فيكم هذا الذي
حتى غدت أملاحه ما بيننا
فلربما أدّى البعيد بأرضه
فله علينا مزيد فضل أيها الشد
حيث اهتدى لمقاصد فافتض من
يا حسنها من كامل في كامل
يا ما أميلحها تردّد قولها
فلذا غدت أرواحنا تهتر من
فكأنها النشوات في أشباحنا
لله درّ قصيدة حلّى بها
جاءت كأحسن ما رأيت بلاغة
حسن الصنيع وجودة اللفظ البدير
أنست بلاغتها قصائد من مضى
فالله يجزيه جزاء عباده ال
حتى يرى في جنة الفردوس من

أو بنت فكر السيد المفضل
درر المعاني بل عقود لآل
ما أعجز البلغا لبعد مثال
أبدتيم من صالح الأعمال
حلت بلاغته محل كمال
تقرا لدى الغدوات والأصا
حقاً ولم يحتج إلى ترحال
عراء إن أنصفتما في الحال
أبكارها عذراء ذات جمال
أزرت بذات الطوق والخلخال
هذا المنى فأنعم بطيب وصال
طرب استماع نسيها المتوالي
نشوات سكر لا بنجر دوالي
جيد البلاغة للمقام العالي
وفصاحة جمعت ثلاث خصال
مع ورقة التفصيل والإجمال
وبدت بأفق المجد بدر كمال
أبرار فوق السؤل والآمال
حزب النبيء وصحبه والآل

ولما وصف مجلس مولاي عبد السلام أخ السلطان مولاي سليمان وزيره الأعظم أبو
عبدالله محمد القرشي بأبيات نصّها :

ومجلس رائق من فضله سقيت
من فيض صنو أمير المؤمنين ومن
حتى رأينا غصون الروض مائلة

أرواحنا يرحيق العلم والأدب
بسمو السهى منصباً في أرفع الرتب
وتلثم الروض أحياناً من الطرب

وطلب من مترجمنا الرياحي رضي الله عنه أن يميزها فقال مساجلاً له :

والورق مفتنة الألحان راقصة
والزهر مبتسم عن ثغره الشنب

لا غرو أن رقصت أشباحنا طرباً
فإننا نحن عند الطاهر النسب اب
وجرّ أذيالنا فخراً على الشهب
من الطاهر النسب ابن الطاهر النسب

وزاره السيد القرشي المذكور فارتجل الشيخ الريحاني مرحباً به :

قد أنعم السيد القرشي بزورته
أما رأيت بدور العلم طالعة
فيا فؤادي بذاك المنظر ابتهج
في أفقه بيننا تغني عن السرج

فأجابه السيد القرشي بقوله :

قد بشر القلب بالأفراح والفرج
مها نظرت محيا الألمي أبي
والأمن من سطوة الأتراح والخرج
إسحاق أغنت عن الإصباح والسرج

ومن شعر صاحب الترجمة رضي الله عنه ، مادحاً الشيخ محمد بوراس الجزائري
من بلد أم العرائس لما وفد على الحضرة التونسية واجتمع به فيها ، ويثني على تأليفه
رحمه الله :

يا هل درى جيرة بالسفح قطآن
أشتاقهم وسواد القلب مسكنهم
وأجتلي عنهم الأنباء إذ عميت
فإن روعي بذكرهم لها طرب
فلا تلم أيها اللاحي فإنك عد
لم تأس يوماً على إلف أنست به
ولم تبت تسجم الدمع الرخيص وما
وحل أرقت تراعي الشهب مدرعاً
ترثي لك الشهب هذا ساقط صعق
وبتّ أياس في صبح تراقبه
وصرت أكثر ما تهوى المقابر لو
خلّ العناء لأهل مثل ما تركوا
واسلم بنفسك لا تجعل لها سبباً
وسلم الأمر تسليم الوري لأبي
أني بهم بين فيح البيد ولهان
وأسودّ العين وهو اليوم سيحان
عني وكالعين بعض الحين آذان
وللفؤاد بها رّوح وريحان
حما كابت كبدتي الحراء وستان
ولم يرع روعك الملتاع هجران
له إذا بيع لولا الحب أثمان
حنادس الليل والأحشاء أحزان
وذاك في السير مرتاب وحيران
من أن يقوم من الأجداث إنسان
أن الفؤاد لما تهواه يقظان
لك الهناء ففلاوجال إخوان
إن الهوى لهو للإنسان فتان
رأس ودين مثل ما دانوا ليزدانوا

إن لم تقل هو في التحقيق عرفان
وكل غصن له درس وتبيان
قوم مضوا فكأن القوم ما بانوا
تفقه اهتر بالاعجاب نعمان
تكلمت منه بالتوحيد أركان
أبصرته وهو ذو شوق ووهان
وفي كساء الكسائي منه أضغان
أن يعتدي وهو بالتسليم جذلان
معنى الضلالة نقصان ونيران
فهو الدليل وإن حابته خالصان
عين اليقين فالتقليد حرمان
سارت بتبريزه في الخلق ركبان
وأبصرت نوره الملتاح عميان
واشتد منه لدين الله بنيان
قول وحرر من بحث نه شان
له ابتغاء رضا مولاه أجفان
بالفصل إن يلتمس للشمس برهان
من عرفها الكون بالأعطار ملآن
معنى له من جلال السحر سلطان
له قلائد مرجان وعقيان
ها الصدر ليس لمن ضاهاد وجدان
ليلي ومي بها قد هام غيلان
ما لم يكن لك في العرفان ميدان
لذي التبصر لا من بالهوى مأنوا
فأنت من وردها السلسال ريان
به المكودي طالبت منه أردان
وأشرقت فحواشين عرفان

حبر تفيض بعرفان جوانبه
أنفاسه بضروب العلم ساحته
تراه جامع أشتات الفضائل من
إذا تحدث فاسمع مالكا وإذا
وما شعرت بغير الأشعري إذا
ولا نظرت إلى غير الجنيد إذا
وليس إلا ابن بشر حين تبصره
ما ضرر ذا الحقد لو كان امرؤ خطراً
إن خاف بالحق نقصاناً يحاذره
ومن يكن لم ير الله له خطراً
لا تصنع للإفك بالتقليد وارق إلى
هذا الإمام أبو رأس محمد من
هذا الذي أقلمت أنباؤه صمماً
أجلى الجهالة فانزاحت غياهما
فكم أفاد بتحرير وقرر من
وكم أفاد وكم أبدى وكم أرق
آياته الينيات الغر كم نطقت
بها الدلائل لا تنفك عاطرة
تفتّر عن برق أسرار وتسفر عن
وذي الحواشي التي جيد الحراشي بها
تومي إليك يجفن العين أن أبا
عذراء أحفل من عفرا وأجمل من
لا تطمن بمعانيها ففهمها
هي البيان لذي رشد وتبصرة
وهي التي إن تكن للفقه ذا ظم
فإن حنت إلى نحو فلونك ما
من الحواشي التي ضاءت محاسنها

تغزو القلوب بأجفان لها مُلِكت
لا تحسبن خضاب الجفن غير سوا
واسل الهموم بشرحيه اللذين هما
كانت عليك عقاب الجو ممتعاً
روض أزاهره تحيي الرفات إذا
ما هيّ إلا جنان العلم زخرفها
بها الحريريّ في ديباج رونقها
نثني عليك أبا رأس ونشكر ما
قل للبسيطة تنني حيث صار لها
وما على الغير تنني حيث أنت لها
لا خير للدهر إلا أن تكون به
سحراً وهل لك يا سحّار أعوان
د القلب هبّ أن ذاك الجفن نعيان
شرح الصدور وللشكلاان سلوان
فأصبحت ولها طوع وإذعان
ماجت بأدواحها في الرقص أفنان
آداب حسن لها التحقيق رضوان
على أرائكها الحسناء نشوان
أوليته وله بالشكر إعلان
من حسن فضلك بالإفضال تهتان
روح الحياة وكل الناس جثان
يا من به ختمت للعلم خلان

ومن شعره رضي الله عنه ، بيتان أنشدهما ارتجالاً في واقعة حال . وذلك أن سلطان المغرب الأقصى المخلوع مولاي سلامة بن عمر بن إسماعيل لما خلع وولي السلطنة بعده أخوه مولاي سليمان ، خرج إثر خلعه من البلاد المغربية وجاب الآفاق وأقام مدة بالبلاد المصرية وفد على تونس وعظم أميرها حمودة باشا الحسيني مقلّته ورتب له جراية كجراية ولي عهده ، وبنى بتونس معظماً مكرماً وتزوج بها ، وولد له ولد توفي صغيراً إلى أن أدركته المنية بتونس ، ودفن بزاوية سيدي علي عزوز بالحاضرة وكان رحمه الله كريماً زاره الشيخ الرياحي صاحب الترجمة ، ثم رام الخروج من عنده فقال له : لا أسرحك في حرّ الشمس وأثرمه أن يتغدىّ معه ويقبل ، فلما أراد الرجوع عشية أنشده :

ولما نزلنا في ظلال بيوتكم أمّا ونلنا الخصب في زمن المَحَل
ولو لم يزد إحسانكم وجميلكم على البرّ من أهلي حسبكم أهلي

فقال له مولاي سلامة : إنك أتيت أخي ومدحته فأجازك وهو سلطان وأنا غريب وكان بأصبهه خاتم ثمين تزعه من خنصره وناوله الشيخ ، فأخذه الشيخ وضمّه إلى صدره ، وأنشد مرتجالاً :

نظرت لخاتم قد جلّ قدراً تحف به الجلالة والكرامة
فقلت له شرفت وأي فضل حوت بلبس مولانا سلامة

وقال له : إن خاتمك شريف والشريف لا يستعمل وقد أجازني أخوك في الدنيا وجائزتي منك في الآخرة وأتم رجال الدنيا والآخرة . ووضعه بين يديه ، فامتنع مولاي سلامة من قبوله ، فقال له الشيخ : لا تحرمني من جائزة الآخرة فهي خير وأبقى والأعمال بالنيات . وخرج رحمها الله تعالى .

ولما وفد على تونس الشيخ السعيد بن عبد الله الغزواني بن محمد السعيد أبو الحاج المفضل الثعالبي الإدريسي امتدحه بقصيدة نصّها :

زمن التقى اغرب ما عليك ملام	تقوى المتيم لوعة وغرام
من يرتجي عدنا بفضل تنسك	فالناس في سبل الهوى أقسام
وتولعي بمحمد وبآله	حظي ويا كلّ الحفظ سلام
قل للعواذل فيهم أحسستم	إن الملامة في الغرام مدام
حاولتم بالعدل نزع محبة	ثمل بها يوم الخطاب تدام
عاقرتها صرفاً كما شاء الهوى	ومزيجها يا حبذا الأنغام
فهنالك لي طاب الشراب ولم يكن	في كأسه لغو ولا آثام
إن تطلبوا التقليد مني في الهوى	فلمثلي التقليد فيه حرام
وضحت فصحت للفؤاد أدلة	حجبتكم عن دركهن سقام
ونظرتها والشمس دون ضيائها	إذ أتم كلمى الجفون نيام
وشممت عرف حديثها وسمعته	دراً بغير الدرّ وهو نظام
لله هم ومحاسن خصوا بها	سمحت بها الأيام وهي جهام
ومكارم هم الزمان قصيرة	عنها وألسنهن والأقلام
ماذا يقال إذا هم قالوا بنا	مُحيي الضلال وكسر الأصنام
من يتبع آثارنا فله الهنا	دار النعيم ودينه الإسلام
هنا هو الشرف الأثيل فلذّ به	لا ما سواه فإنه أوهام
واستعدروا المعنور في تعظيمهم	قوم أجلهم الكتاب عظام
واصرف لتجلهم السعيد محمد	وجه الثنا تسعد لك الأيام
ذاك الذي وضحت محاسن سرّه	نور النبوة واضح بسّام
وتينت في وجهه نظارة	إن السعادة نظرة وكلام
جلّ الذي سواه حسناً خالصاً	فكأنه لم تحوه الأرحام

لا تعجبوا لجمال أرباب القنا
أو تحسبوه جهالة شمس الضحى
أو تظلموه يجعله بحر الندى
ولئن حوى كل العلوم فإنما
فتى ترد صفو المعارف منهم
واقبل مصون السر من نفحاتهم
صلّى الإلاه عليهم وفق الرضا
ما حركت ریح الغرام سواكناً

لجمال مولانا السعيد قوام
ولها على نقص الغروب ظلام
والبحرُ رشح أنامل وسجام
من يتهم حظيت بها الأعلام
فاشرب فما بعد لذاك هيام
فهم فقط دون الأنام كرام
من بعد ما هو فاتح وختام
وترنمت فوق الغصون حيام

وقد أجابه عنها الشيخ محمد السعيد على رويها وقافيتها بقوله :

وجه السعادة واضح بسام
بشرى المحب محب آل محمد
كل الأمانى نالها بولائهم
فرض الوداد على البرية واجب
هادي الهدى مفني الردى ملك الندى
لا خير إلا من نداء يرتجى
والفضل لا إلا لآله بعده
ورثوا المكارم والمعارف والتقى
سر النبوة بينهم متواتر
فهم إذا شاعوا انتفاع وليهم
يهيون للأسرار كل يتيمة
لا يتبعون بمئة ما أنفقوا
واللام لا تجري على لواتهم
قل للمحاول شأوهم في مجدهم
فجلي ما يبدون في أسرارهم
وإذا العناية لاحظت وال لهم
كأبي الذبيح أبي الذبيح الأحوزي

كالورد عنه تفتق الأكام
من للسعادة فاتح وختام
إن الجنان على البغيض حرام
في آل من وهبت له الأنعام
شهدت له الأحجار والأنعام
الخير بحر والمودة جوام
حقاً وفي من غيرهم أوهام
فهم هم الأجواد والأعلام
وعلى لطائفهم إلهام
قالوا لهم قم ماجداً فيقام
هم للمحامد كاهل وسنام
فالمن موزي الفضل وهو سقام
كولا التشهد قالها همام
الطبع حسن والتطبع لام
عن دركه تنقاصر الأفهام
يضحي وهو الفارس المقدام
عين الزمان الفرد أبراهام

محيي البلاغة بعد موتها وقد
 لله من خلّ توحد بالذكا
 بوليك من محض الوداد فرائداً
 ويغوص في لجج البيان مقانصاً
 ومحلّ في سلك المديح لآلئاً
 الحق هي راح العقول لأنها
 أمن الحلال السحر قوله فيهم
 لا تعجبوا لفصاحة وبراعة وبلاغة
 يشفي العليل حديثه فكانه
 فإذا تكلم لفظه من روحه
 كلم كفعل الراح تختل النهى
 لو مرّ طيب حديثه يا إخوتي
 إذ فيه من معنى الحياة سناؤها
 فعليه إن قرب المزار وإن نأى
 نفسي الفلاء له تواضع في العلى
 حقاً علينا السعي نحوه واجب
 فالله يحفظه ويبلغه المنى
 وينيل من فيض أحمد صفوه
 فمن العباد دنارهم فهم الأولى
 يأتيك بالإسعاد من جنباته

وفي حجته الأولى سنة 1241هـ والتي فيها نظم القصيدة الغراء المتقدّم ذكرها في مدح
 الرسول عليه الصلاة والسلام والتي طالعها :

مسك الصلاة وأعطار السلام تلي عليك تغدو لها الأطياب في خجل

مدحه الشيخ عبد الشكور المدني بقصيدة طالعها :

دنت بعد بُعد طال مدته سعدي تجدد من مضني متيها عهداً

فأجابه الشيخ الرياحي صاحب الترجمة بقوله رحمها الله :

ألذ سرور المرء ما لم يكن وعداً
تبدت بمجموع من الحسن فائن
ألم ترَ وَجْهاً ما حوى من طلاسم
فن صورة لو نالها البدر في الدجى
ومن وجنة أبدى الحيا طيب رشحها
ومن مقلة تروي أحاديث بابل
ومن حاجب هوّ الهلال وإنما
ومن مبسم واحر قلبي درة
فشكل كما راق صياغة خاتم
وطيب حديث كلما نطقت به
وزيق يهب المسك منه كأنه
وجيد غزال تحته خيزرانة
أتني بذاك الحسن كلا تقول لي
قللت أبعث الشيب أهوى وقد مضى
إذ الأنس ممزوج الكورس فكلمنا
نجر ثياب الأمن فوق بجرة
فأما وقد طار الشباب ولم يدع
فكيف وصال الغانيات ودونه
قللت ألم تدرِ بأني لقيت من
قالت أعبد الله ذاك الذي سما
قللت نعم هوّ الذي أتعب العدى

وطلب منه الشيخان أحمد صويمع المدني وسالم السرمي المدني أن يجيزهما فأجازهما

بقوله :

حمدت إلهي وهو مستوجب الحمد
وأهلي سلاماً مع صلاة على الذي
على نعم جلّت عن الحصر والعدّ
أتى مرسلأً بالحق للحرّ والعبد

تقفاهم سيراً على سنن الرشد
صويبع المعروف كل الذي عندي
على شرطه المعهود بين أولى الرشد
أذنت له إذناً عميماً بلا ردّ
بعلمها المحمود والفوز بالقصد
فعلم بلا تقوى كتحل بلا شهد
على المصطفى والآل مع كل ذي ودّ
به تختم الأنظام خاتمة الحمد

وللال والأصحاب طراً وكل من
وبعد فإني قد أجزت لأحمد
أذنت له في ذلك إذناً معتمماً
كذا الفاضل السرسبي سالم الرضا
وأسأل ربّ العرش أن ينفع الورى
وأوصيها أن يلبسا حلة التقى
وصلّى إلهي بكرة وعشية
ولله حمد دائم وأجلّ من

وأجاز الشيخ صالح الشابي بقوله :

وخصوص إنعام بمن قد علماً
لولاه ما أرضاً رأيت ولا سما
ومن ابتغى الإسلام ديناً قيماً
ذاك الذي للشابي في الأصل اتقى
أو قلته نثراً يرى ومنظماً
ما كنت في نفر الإجازة معلماً
ويدعوة تجلو عن القلب العمى
عبد الذي يرجو الشفاء من الظما
ما طائر بين الغصون ترناً
بدأ المهّم به امرؤ أو تمّاً

حمداً لمن يجزى حمد أنعماً
ثم الصلاة مع السلام على الذي
والآل كلّ والصحابة كلهم
هذا وإني قد أجزت لصالح
ما صحّ نسبه إليّ رواية
ساعفته جبراً له ولو اتى
موصي بتقوى الله جلّ جلاله
وأنا الرياحي بن عبد القادر ال
ثم الصلاة على النبي وآله
والحمد لله العظيم أحق ما

ومن زاره في رحلته هذه بمكة المكرمة الشيخ ابن سراج المكاوي . وقف بالباب
وأنشده قوله :

ما زال بابك مكة مفتوحة ، وترابها فوق الجباه رسوم
حتى ينادى في البلاد بأسرها هذا المقام وأنت إبراهيم

فأجابه الشيخ الرياحي صاحب الترجمة بقوله :

قسماً بمكة والمشاعر كلّها هي السنا وسراجها ابن سراج

ولمّا حلّ بالأستانة العليّة موجهاً من قبل المشير أحمد باشا باي إلى السلطنة العثمانية
في غرض الاستمرار على العادة في توجيه الحكومة التونسية الهدية السنوية إلى سلطنة
الخلافة العثمانية قال بديهة عند رؤيتها ، وذلك في سنة 1254هـ :

بلد الخلافة في الجبال فريد ولشأنه غرض مداه بعيد
من ظنّ يحسن وصفه فكأنما نحو الصعود إلى السماء يريد

وفي هذه السفارة اجتمع بالخليفة السلطان محمود وأنشد بين يديه قصيدته البليغة
السالف ذكرها والتي طالعها :

العر بالله للسلطان محمود ابن السلاطين محمود فمحمود

ومدح الصدر الأعظم بقوله مستشفعاً به في الغرض الذي وفد لأجله :

الصدر الأعظم مقصد المتوسل وهو المؤمل في القضاء المنزل
ولنالك من أقصى البلاد أتيته للفوز منه بيرة داء معضل
يا ملجأ الصلحاء والعلماء وال حوزراء من في الناس ذو قدر علي
كالد أو كالعطر أو كالمسك ما يحويه عرضك من ثناء أجمل
فيما حباك الله من خلق سرّي كالراح في الأرواح لا في المفصل
وحباك من خلق كأن الشمس في شرق ترى في وجهه المهلّل
اشفع لنا فيما دهي ترشيش من إلزامها غرم الخراج المثقل
الفقر يَمنعها وما تخشاه من شر الحوادث في الزمان المقبل
أرجو لك البشري نبيل شفاة تأتلك من عند الرسول الأفضل
دامت علاك لمن أحبك جنة بنعيمها قلب الحواسد مصطلّي

ومن شعره بجزاً شيخ الإسلام بإسلامبول أحمد عارف قوله :

حمداً لمكرمنا بأيّ عوارف شمخت عن الإحصاء بأنف أنف
وصلاته وسلامه أبداً على مجلي الدجى بصوارم ومعارف
ولكل من والاه أغلق رحمة ينهلّ دائماً انهلال الواكف
هذا ولما ساقني العنر الذي ما في وقوع صروفه من صارف
نحو القسطنطينية البلد الذي لا يستطاع جهاله للواصف

نفحت لروحي نفحة مسكية
وأثار لي منها ضياء خاطف
فسألت ما هذا النسيم وذا الضيا
ذاك الذي أخلاقه كالراح في
أو أنها هاروت في سحر النهى
وإذا رأيتَ جيته مهتلا
وإذا سمعتَ علومه فاسمع إلى
قسماً بما يحويه من حسب ومن
لو أبصر النعمان بهجة سمته
هذا ومن عجب رأيت سؤاله
كلا وإني والذي رفع العلا
لكني لا أستطيع خلفه
فأقول إني قد أجزت له الذي
موصي لإبراهيم منه بدعوة

كانت مسكنة لقلب الواجف
خلت النجوم ضياء ذاك الخاطف
قالوا ألم تسمع بأحمد عارف
لطف يلد مذاقه للراشف
إن لم نقل سر سرى من آصف
فعلى بدور التم لست بآسف
تلك البحور طمت فهل من غارف
نسب وفضل لاحق أو سالف
لاهتر عطفاً كاهتراز العاطف
مني إجازته كشيخ عارف
أحرى بأن أروي عليه صحاتي
وعليه فيما شاء لست بخائف
قد صح لي من تالد أو طارف
يرجو الرياحي بها أمان الخائف

وله قصيدة أخرى يمدح السلطان محمود ، ويشرح له فيها حال تونس الداعية
لقضاء المأرب الذي سفر من أجله إليه طالعها :

ركبت متون اللج وهي لها وجف
ولي منه أهوال يود رهينها
ولكنني ما زلت أمزج مرها
إلى أن يقول :

وأرواحها بالسابحات لها عصف
وقد خشي الإغلاق لو جاءه الخنف
بجلو رجاء طاب منه لي الرشف

نعم يا أمير المؤمنين وكهفهم
أتيتك ضيفاً مستغيثاً وشأنكم
توالى علينا الضعف من كل جانب
فجئناك نبغي العفو واللف والرضا
فعبشة من ترضى عليه هنيئة
رضاك رضا المولى لأنك ظله

إذا مسهم ضر فنك له كشف
إغاثة لهفان وأن بكرم الضيف
وما زال ذلك الضعف يتبعه ضعف
وهل من سواك العفو يطلب واللف
وكيف لعيش دون عيشك أن يصفو
وللظل من أوصاف صاحبه وصف

أدام لنا المولى إضاءة شمسه وليس لها يوماً غروب ولا كسف

ومن شعره متحمساً هذان البيتان :

وإني وإن رام العداة مهاتي يافك لبدر في الظلام ينير
وما قولهم إلا طنين ذبابة أطنين أجنحة الذباب يضير

ومن شعره فيمن كان يتعاطى الطب وكان عالج بعض أولاده ونجح في علاجه فقال
يثنى عليه :

قليل فيك يا عبد الرحيم نظام جلّ عن درّ نظيم
جمعت الحسن مع أدب وطبّ وأخلاق أرقّ من النسيم
إذا نادمت ذا حزن تسلى وفي مرآك عافية السقيم
لقد أحييت جالينوس حتى غنينا بالجديد عن القديم
أطال الله عمرك في عوافي كما مثواك جنات النعيم

وقال مهنيّاً بمولود سمّي زين العابدين ومؤرخاً لازدياده :

أحاديث السرور لها انتشار وأركاب الهنا بالبشر ساروا
فلا قلب تقلبه هموم ولا خبر يكدره انكسار
وروض الدهر تضحكه طيور يحركها إلى السجع إدكار
وصار الكون ذا طرب فأبدى عجائب ما لنا عنها اصطبار
فقلنا ما لدينا استنارت وصار بها إلى الناس اعتبار
فقالوا كيف يخفى عنك أمر جهالته على الأيسار عار
أنى من أهل بيت الله نجل به للدين يرتفع المنار
سراج للبرية غير طاف وعزّ للبرية وافتخار
فوافى والعلوم لها انتشار⁽¹⁾ فوافى والعلوم لها انتشار⁽¹⁾
ولا تعجب إذا ما الأصل باهى بفرع منه تقتطف الثمار
فتى من رشده لم يرض إلا بأن ينمى إلى بيت يزار

(1) مكان المصراع الأول يياض

له في الناس آيات تبدت
فبشراكم وبشرى الناس طراً
بمَن حاز العلا عمًا وخالاً
وإذ حاز المكارم أرخوه :
عظام ما لجمتها انحصار
أيا مَن في الكمال لهم يشار
وطاب به على الناس التجار
بزين العابدين نما لفخار

وقال مهنتاً الشيخ محمد يريم الثالث بزفاف ابنته للأمير محمد بن حسين باي :

سلام طيب كالمسك صائك
ولله الذي هناك حمد
فإنك قد ركبت من المعالي
فقت لها قيام ذوي اهتمام
وبالله استعنت فكان عوناً
فجاءت مثل ما يهوى محب
فيا لك من هناء نلت منه
أدام الله عزك في مزيد
على العَلَم الشهير ومن هنالك
على تيسيره صعب المسالك
متوناً غير صاحبهن هالك
لهم في نيل أفضلها مدارك
وأهل العلم مثلك أهل ذلك
ينادي بالدعا اللهم بارك
سرور الوصل من حب متارك
وحسبك في الوجود بلا مشارك

وعقب الشيخ محمد يريم الرابع أخو المبني بها عن القصيدة المذكورة بعد ذكرها في بعض كتابه بقوله : وكان البناء بها ليلة الجمعة السادسة عشرة من شعبان عام 1249 هـ ، تسع وأربعين . وقد قدم للذهاب بها المولى مصطفى باي وأخته السيدة عزيزة ، وكان يوماً مشهوداً اه .

قلت : وصادف ليلة زفافها خسوف القمر وتطير الباي حسين من ذلك هو وبطانته فهناه سيدي إبراهيم رضي الله عنه ، نافياً تشاؤمه بقوله :

حلول السعد في برج السعادة
يُمن طائر والد عيش
غلت حوراء لولا أن فيها
فيهنينا وإياكم سرور
تبسم منه ثغر الدين لما
وكم بقلادة جيد تحلى
زفاف اليرمية للسيادة
وأرضى عند سيدنا وداده
من الآداب والتقوى زيادة
نرجى أن يرى كالعيد عادة
توسم من سعاده سداة
ولكن ذا البنا شرف القلادة

وسرّ العالمين سوى حسود
وسار حديثه في الناس يروى
سما فوق السماء فلا عجيب
ومن ظن الخسوف بدا لشرّ
أدام الله عزّهما وأمنا
من الحدّثان لا نخشى نفاذة

وذكر الشيخ يرم الرابع في كناهه المشار إليه سالفاً ما نصّه :

وقع بين الوالد (وهو الشيخ محمد يرم الثالث) وبين شيخنا الرياحي مذاكرة في
مسألة ، فأطلع الوالد شيخنا المذكور على نصّ فيها فأرسل إليه بقوله :

أحطتُ بما بعثتَ إليّ خيراً
فكان الرأي أن لا خلف فيها
فلا زلتُ مناراً في رشاد
ولكن غير مختصري الإفادة

ومن شعره مؤرخاً بناء السقاية المسماة بيثر الجديد الكائنة في جبل المنار التي أنشأها
أبو الخيرات يوسف خوجة صاحب الطابع قوله :

ذا مورد جاد به
يوسف خوجة الرضا
فخر العلي حمودة
من عبدلية زها
بحسن نيّة ومن
جازه ربي جنة
يا وارداً فادع وقل
راجي ثواب ربه
صاحب الطابع البهي
باشا فذا من سيبه
بطيبه وقربه
إخلاصه لربه
وكوثراً لشربه
نارينه : بشربه

ومن شعره مؤرخاً أيضاً بناء السقاية التي أنشأها الوزير المذكور داخل باب سيدي
عبد السلام بحاضرة تونس :

سبيل ثني صاحب الطابع ال
وساق الأجور مخلومه ال
فنعم الجميل لمنّ قد بني
عنان إليه وشاد انتظامه
حليك الهام ومولى الكرامة
ونعم الجميل لمنّ قد أقامه

شفي غلة الخلق في وقتها
وجاء بماء معين له
فلا غرو أن جاء تاريخه:
وأطفأ من كل ظام أوامه
على السلم والأمن أقوى علامه
سيل حفيل سبيل السلامه

وقال في مثل ذلك مؤرخاً بناء السقاية التي أنشأها الوزير المذكور الكاتب علاوة
من حاضرة تونس :

هذا سبيل حسنه يزداد
ردّ منه سلسالاً فراثاً سائغاً
أجراه يرجو حسن نيل ثوابه
ذاك الهام أبو المحاسن يوسف
نو طابع الملك الذي عزماته
وتقلدت للملك منه ترائب
حمودة الباشا الذي أخباره
فخرت به الدنيا وكم للدين من
هذا السبيل وإن بناه وزيره
فهب الدعاء إذا اتهمت كؤوسه
واشكر لمن أسدى إليك مسارعاً
واعجب لها إذ قد أتى تاريخها:
وثوابه يوم القيامة زاد
طهراً ومنتعشاً به الأكباد
من في الوري ختمت به الأجواد
من رشده شهدت به الأضداد
لمهندات سيوفه أغهاد
فلسانه لصنيعه حماد
يهدي إليك عطيرها الترداد
فخر به إذ قام منه عماد
فيه ومنه يسر الإمداد
إن الدعا لمن السبيل يراد
إن المرید لشاكر يتقاد
يحيي بعذب معينها الوراد

وقال مهنتاً الأمير حمودة باشا بإتمام وزيره يوسف صاحب الطابع لبناء جامع
الكائن بالحلفاوين ومؤرخاً له :

ذكر جميل يوسف قد جدّده
ذا الجامع الحسن الذي هو جنة
بيت على التقوى تأسس والرضا
ولكم أتى فيما بنى بمحاسن
مدد من الباشا العظيم جري له
لا بل هو الباشا ولكن حبه
حمودة الباشا وما أدراك ما
وذخيرة في الصالحات مغلّطة
لولا رسوم الدين فيه مردّدة
فأبو المحاسن بالرضا ما أسعده
جمل ولكن ذي محاسن مفردة
فأتت به منه الأمور مسدّده
فضل الخفا في الخير قد أخفى يده
ملك به نعم الإله مجدّده

نامت به الحضراء في ظل الهنا
ولكم له من صالحات رصعت
صنع به ابتهجت ملائكة السما
ينهي الوري وخصوصاً العلماء و
ما شئت من علم قبست ومن هدى
ما شئت من آي الكتاب وسنة
يهدي المفسر والمحدث منها
فالله يجزيه الرضا وينيله
فاشكر له واسأل وقل متعجباً

وغدت لأجفان العداة مسهدة
تاجاً على رأس الزمان منضدة
وغدت به شيع الأبالس مكدة
الصّلحاء أنوار له متوقدة
يهدي به لله من قد أيده
هذي سلسلة وتلك بجودة
لئن الفؤاد وأدمعاً متبددة
غرف الجنان وثمّ يزلف مقعده
ومؤرخاً: لله ما قد سيده

وقال رضي الله عنه ، مادحاً مؤسس الجامع المذكور أبا الخيرات يوسف صاحب
الطابع من قصيدة طويلة :

لساعد هذا الدهر أنت أصابع
وفي كل ملك من يسوس شؤونه
وفي الفلك السامي كواكب جمّة
أيا نور عين الدهر فالدهر مبصر
حللت سماوات العلى فطويتها
وما جبت آفاقاً لغز وإنما
وما جاء أقباساً بغير محله
وأي كمال يتقي فيه كامل
فتى نشر الإحسان وابل جوده
أقت لدى الآفاق حمداً مخلدأ
غلامٌ قلت البخل جوداً وأهله
كما نهكت عليك علياء حاسد
وما حسد الأعداء شيئاً يرونه
ومذ برزت للملك منك عزائم
وأتمك بالإقبال في الحسن من له

وأنت لأمر الملك ختم وطابع
ولكن عن الماضي يحل المضارع
وأنى يضاهي الشمس في الأفق طالع
ومُسمع جسم الدهر فالدهر سامع
وإلا فعمماً أنت في الجو ساطع
أتاك ليلقى الغز إذ أنت رافع
ولكنّ فرع الشيء للشيء راجع
وأي جدي يبقى من الناس نافع
فقام ونطق الجود بالشكر صادع
ومجدأ عن الأصحاب يرويه تابع
على سقمه الماضي الجفون دوامع
فأصبح ملسوعاً وقدرك لاسع
ورب علوّ فيه للحقّ وازع
علمنا بأن السعد للنحس قانع
إمامتهم في الدين إذ أنت جامع

ولما استشهد يوسف صاحب الطابع رحمه الله ، رثاه مؤرخاً له بقوله :
 لله قد وجب الدوام وسواه نهب للحمام
 حكم جرى تعميمه حتماً على كل الأنام
 سبان في تنغيصه عال ومنخفض المقام
 أين الملوك وأين من كانت لهم تُرعى الذمام
 لم يجمعهم مال ولا لمع الصوارم والسهام
 وجميع عزهم انطوى كالبرق في طي الغمام
 لم يظفروا بسوى الذي عملوه من خير فدام
 وجدوه نوراً عند ما يسمى المقصر في الظلام
 وجدوه سعداً مؤنساً يهدي إلى دار السلام
 وجدوه ملكاً جلّ أن يسعى لعزته انصرام
 وهو الذي قد رame بصنيعه هذا الحمام
 فأتى بكل عظيمة عن مثلها صئر العظام
 أولم يسلم عين الندى حتى تزوي كل ظام
 أولم يشد للدين ما أنواره ذات ابتسام
 من جامع جمعت له كل المحاسن بالتمام
 ومكاتب أضحي بها درّ المفاخر في انتظام
 وموارد بزالها أبرا الأنام من الأوام
 هذا وكم لبته في أيامه زمر المرام
 والدهر كم لحظته من إجلاله عين احترام
 جرّ العساكر خلفه ويرأيه صلى الإمام
 وأطاعه في حربه نصر عزيز لا يرام
 ثم انقضى فكانه طيف تعرّض في منام
 ومن الذي دامت له والدهر مسلول الحسام
 تبكي عليه عوائد غرّ بأدمعها انسجام
 الله يرحم يوسفأ ختم الكرام بلا كلام
 لا غرو إن أرخته : بجماته . يتم الكرام

وقال مقرضاً سفينة جمعها صالح خوجة التركي :

يا راكب الأخطار يعني العلاء
اركب بحور العلم نحو المنى
فيها من الآداب ما لم يكن
خوافة صالح أبدى بها
لا زالت الأيام تبلي لنا
وسالكاً في المنهج الواضح
وهذه سفينة الصالح
في غيرها من مقصد ناجح
نصائحاً لم تأت من مازح
عجائباً من ذهنه السابح

وله مقرضاً قصيدة :

زارت على خفر وحسن توّدد
أنست إذ آنست من لطفها
وعلمت منها أن منزل بابل
لا تعجبوا لو تسمعون كلامها
أنزلتها وسط السواد ودونها
ونعمت منها باتصال مودّة
مني السلام على الأعزة قومها
فقضت بتقطيع الجوانح لا اليد
سحر الحلال وفتنة المتعبد
دون المنازل في فؤاد محمد
لرأتكم في الراكعين السجدة
قدراً ومترلة مجاري الوقد
تزداد باقية بقاء السرمد
أبدأ ولو كرهت قلوب الحسد

وأطلعه الشيخ محمد القرشي السلاوي على ديوان جمع فيه القصائد المقولة في مدح
السلطان مولاي سليمان ملك المغرب الأقصى رائماً تقرضه من الشيخ رضي الله عنه ،
فكتب على ظهره مقرضاً :

كحلُّ بِإِثْمِ هذا الروض أجفاناً
واخلع عنارك في تحصيل واجبه
واعص العنول إذا وافاك منتصباً
روض سقت غرّ آداب خيائله
كأنما الزهر حور في أرائكها
والريح من بينها مضى يعالج من
ما هو إلا جنان زخرفت أدباً
ذاك الأديب ومن شاعت فضائله
واقطف سرورك من مغناه ألوانا
فلست أول جاني اللهو أفنانا
فإنه أحسد الحساد إنسانا
وقلّد الطل جيد الزهر عقيانا
تكلمت من جوارى الزهر نيجانا
تقبيله لحدود النور أشجانا
لم لا وغارسه بكر بن رضوانا
بِحِثْ صارت على القرشي عنوانا

حاوي الكمالين من حسب ومن نسب
إن يتسب فهو خير الأكرمين أبا
أهداه حباً أمير المؤمنين إلى
كأنه قال من يهوى محاسنه
فلا يزال عزيز القطر خادمه

ومحرز المجد إسراراً وإعلاناً
أو يحتسب فاقهم حسناً وإحساناً
أن جاء فيه بهذا الوضع برهاناً
لم يستطع دون شرح الحب كتماناً
ولن تزال له في المدح حسناً

وله مريضاً رسالة للشيخ محمد بيرم الثاني في رجوع الموصي عن وصيته :

كأنك تهوى أن عدلك ينفع
إذا كان من ذاتي رجوعي إلى الهوى
وهل وقع الملزوم يوماً ولم يكن
لنالك تراني كلما شمت بارقاً
فأما إذا تبلو محاسن بيرم
سماء علوم كلما لاح لامع
وبحر فهوم يزدرى الدرّ عقدها
وفي هاته الحسنات التي برزت لنا
فجاءت تهادى لاسوى السحر غنجها
ترى بين معناها ورقة لفظها
إذا اختصم النعمان فيها ومالك
ومها ادعاها العقل ردّ اختصاصه
وإن تفخر الفتوى بها فلكم بها
فسبحان مختار الإمام محمد
وكيف وبيت الدين والعلم بيته
عفاف على وجد وعفو بقدرة
وخفض على رفع وتلين منطق
وفضل ثبات ما الرواسي رواسخاً
وقدر تمنى المجد نيل محله
إلى ما يفوت العدّ من كل حلبة

وهل كان للعشاق للقول مسمع
فما نفع قولي إتي لست أرجع
للأزمه في ساحة الكون موقع
يسابقه من برق وجددي أدمع
فكيف ترى الحبريا إذا الشمس تطلع
تقفاً منها ألمع ثم ألمع
على أنه للنقل والعقل مجمع
بألوان حسن للمنازل مقنع
ولا ما سوى ماء الوسامة برقع
عناقاً على نول الطبيعة يصنع
تقول : لكل منكما في مترع
بها نصّ قول بالحقيقة يقطع
لأهل التقى من تاج عزّ يرصع
لها وهو أدرى أيهم هو موضع
وللمجد والتقوى مقيل ومرع
وجاه ولكن لم يدنسه مطمع
على أنه للصدق في الحق يصدع
لديه إذا طارت نُهى وهي وقّع
فكيف ترى من في الثرى فيه مطمع
بها شمل أشتات الكمال مُجمّع

قدم واحداً لا من يضاهبك في الورى
ولا تحقر شعري وإن كان أهله
ولكنني حاولت شرح مودة
وأزكى سلام من سليم مودة
وعزك موصول وأمرك يسمع
فقدركم من أبلغ الشعر أرفع
وشافع شعري في الوداد مشفع
عليك برحان الرضا يتصوع

فأجابه الشيخ محمد يريم الثاني بقوله :

بلت وهي أبهى من ذكاء وأرفع
تشير بطرف فاطر اللحظ فائن
لقد جمعت ما بين رقة لفظها
ولكها حلت من الفضل عاطلاً
فحاولت نفسي أن تقوم بحققها
فألقيتها وافت وعمري مُدبر
وحيل جريضي عن قريضي فلم أطق
فحسبي دعاء للذي صاغ تاجها
عقيلة فكر للمحاسن مجمع
له كل أرباب الصباية خضع
وقوة معناها وذلك أبداع
وليس له في ذلك الروض مرتع
وتشرب من كأس أدارت وتكرع
ولم يبق مني للصباية موضع
أجاوب عنها بالذي فيه مقنع
بما هو في الدنيا وفي الدين ينفع

وقال مقرضاً قصيدة للشيخ التهامي المغربي الرباطي في مدح الحضرة النبوية ، وذلك حين وفد على تونس قاصداً الحج ، وقد توفي في الحجاز رحمه الله ونصه :

الحمد لله مزهر رياض الآداب ، وجلي بدائعها لأولي الألباب ، والصلاة والسلام ، الفاتح منها مسك الختام ، على من يفتخر المدح بشائله ، وتخص المنح بنائله ، سيدنا محمد صورة الكمال المطلق ، وينبوع بحر الرحمة المتدفق ، وعلى الآل والأصحاب ، ومن تبعهم بإحسان على تعاقب الأحقاب . وبعد ، فقد أطلعني الشيخ العلامة الدراكة الفهامة أبو عبد الله سيدي محمد التهامي ، ذو العلم الهامي ، والعمل السامي ، على قصيدته القافية التي مدح بها خير البرية ، فألقيتها عيبة الغرائب اللغوية ، وروضة العجائب الأدبية . شمرت في قود كل صعب عن الكعب ، وجرت الذيل على جرير ، وحاكت فصاحة كعب ، فلما سرني مُحياها ، وسرت في سرِّي حُمياها ، اقتضت مَنِّي بليغ المديح ، ولم تدر أن سهمي فيه الوغد والمنيح فقلت ، وبها إلى النبي ﷺ توست :

ماذا حوت من بهجة ورونق أعيذا هيفاً برّب الفلق

قد قلعت قلب حسود حنق
 من رائق المعنى ومن ريق
 وقيدت من عابد في طلق
 وفتحت من كل كتر مغلق
 بنورها مبتسماً عن عقب
 يجري على حصباء در نفق
 للصب قد جاءت بيرة الحرق
 يجلو عن القلب أسي كالغسق
 إذ ما لها في ذاك من تعلق
 قد أقبلت بكل حسن مشرق
 كأنها ما خلقت من علق
 ممن تثنى بقوام رشق
 من سحر عينيه وخمر المنطق
 من مدح ياسين عظيم الخلق
 ونثرت عقيق دمع مغرق
 قد أثمرت بكل خير مغدق
 وكل عقد فوق جيد غوهق
 ليس له إلا انحطاط العتق
 قلنا له يا أحمق فلتطرق
 ابن التهامي الرضا الموفق
 نسيج وحده يقول مطلق
 بما امتطى من نصب وأرق
 في حق خير صادق مصدق
 أضاء بالأنوار كل أفق

وكل مؤمن بهم ملتحق

والشيخ محمد التهامي الرباطي الأنف الذكر عبر عنه الشيخ محمد بيرم الرابع
 بالأوحد الفقيه وشيخنا ولعله شيخه إجازة أو رواية . وذكر أن من شعره قوله :

وربّ حميم بات يستقي حميمه
شربنا بها اثنتين من بعد أربع
وأن من شعره أيضاً قوله :

أدر القهوة صرفاً
من يدي أحوى محيا
نفث السحر ولكن
إنما المقلام حر
وتواري عن علول
عاش في ظلّ مناه
واتخذها خير جنّة
ه لمن يهواه جنّة
نفثه يطرد جنّته
ركب الهول دجنّته
لا يرى إلاّ ميّجنّته
في رياض وأجنّته

ومن شعر صاحب الترجمة ، مفضلاً رسالة ابن شيخه وهو الشيخ محمد بن سيدي صالح الكواش في الردّ على محمد بن عبد الوهاب قصيدة طالعها :

شموس الهدى والحمد لله شارقه
وإن خرس من نصره الدين ألسن
متى لمست كف العناية سماءه
ولا تحسبوا أهل الحماية قد مضت
ولا تياسوا من ذلك إن مات صالح
ألم ترّ ما قد أطلعت على علومه
كأنّ سناها في دجى البدع التي

إلى أن يقول :

وأنتطق من داعي الهدى متكلماً
وذاك يمين السيد الأسعد الذي
هو الناصر المنصور حمودة الذي
فوافت به الأيام وهي بواسم
وأخرس من فحل الضلال شقاشقه
لنصرته للدين حمل عاتقه
محامده في الشرق والغرب عابقه
وآمالنا فيها به وهي واره

وقال مفضلاً قصيدة للشيخ عثمان الحشايشي هناه بها حين ختم عليه شرح المكودي على ألفية ابن مالك ونصّ التقرير المثار إليه :

حَلَيْتَ جَيْدًا عَاطِلًا مِنْ دَرَّةٍ
لَوْلَا عِرَاقَةُ طَيْبِ أَصْلِكَ لَمْ أَكُنْ
مِنْ أَيْنَ لِي وَصِفِ الْكَمَالَ وَفَضْلَكُمْ
وَكَفَاكُمْ الشُّورَى إِذْ لَمْ يَكْفِكُمْ
فَلَكُمْ مَوَدَّتَنَا وَلَكِنْ صَفَوْهَا
فَلَهُ الرِّضَا مِنْ رَيْنَا وَلَهُ الْهِنَا
وَاللَّهُ يَمْنَحُهُ الْعُلُومَ بِأَسْرَاهَا
بِمَدَائِحِ جَلَّتْ عِلَا عَنْ قَدْرِهِ
مَنْ نَهَبَ عَلَيْكَ نَسْمَةَ عَطْرِهِ
يُرْوِيهِ كُلَّ مَحْدَثٍ عَنْ بَحْرِهِ
بَيْتَ كِتَابِ اللَّهِ جَاءَ بِطَهْرِهِ
قَصْرَ عَلِيٍّ عَثَانَنَا فِي عَصْرِهِ
وَبَلُوغِهِ مَا يَرْتَجِي مِنْ دَهْرِهِ
وَيْسِرِهِ بِرِقَاتِقِ مِنْ سِرِّهِ

وقصيدة الشيخ عثمان الحشايشي طالعها :

يَا مَالِكًا وَصِفِ الْكَمَالَ بِأَسْرِهِ
يَا مِمَطْرَ السَّحْبِ الْعَوَالِي سَاقِيًا
يَا رَامِيًا قَلْبَ الْمَعَالِي دَائِمًا
يَا عَالِمَ الدُّنْيَا الَّذِي سَارَتْ بِهِ الرُّكْبُ
يَهْنِكُمْ الْخِطْمَ الَّذِي قَدْ ضَمَخَتْ
مِنْكُمْ يَنَالُ الدَّهْرَ رَفْعَةَ قَدْرِهِ
شَجَرَ الْجَهَالَةِ مِنْ سَحَابِ قَطْرِهِ
بِصَحِيحِ فِطْنَتِهِ وَأَسْهَمَ فِكْرِهِ
إِن فِي الْبَحْرِ الْمَحِيطِ وَبِرِّهِ
أَقْطَارَ تُونِسَ كُلَّهَا مِنْ نَشْرِهِ

ومن شعره مستشفعاً للعدل الشيخ منصور الورغمي إلى الشيخ محمد بيرم الثالث من لبس «المللوسة»⁽¹⁾ حين أُلزم بلبسها الشيخ بيرم المذكور العدول وخاف الشيخ منصور أن يتعاطاه الناس بسبب ذلك فطلب من صاحب الترجمة أن يطلب إعفائه من لبسها فكاتب الشيخ بيرم بقوله :

كَبُرَتْ عَلَيْهِمْ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ
فَتَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبَا فِي حَمَلِهَا
فَعَلَى فَرِيقٍ مِنْهُمْ هِيَ مِثْلَةٌ
أَمَّا بَنُو وَرَعْمَةَ فَفَقِيهِمْ
فَلِنَاكَ أُمَّ حِمَاكَ عَلِمًا أَنَّ مِنْ
فَأَجْرِهِ مِنْ هَمَزٍ وَمِنْ لَمَزٍ بِهَا
لَا زَلَمَ كَهْفًا يَلَاذُ بِمَجْدِكُمْ
مَنْصُوبَةٌ عَلِمًا عَلَى التَّمْيِيزِ
وَالْحَلْفِ بَيْنَ النَّاسِ غَيْرِ عَزِيزِ
وَلِبَعْضِهِمْ زَلَقَى إِلَى التَّبَرُّيزِ
لَمْ يَجْرِ مَذْهَبُهُ عَلَى التَّجْوِيزِ
يَأْتِيهِ فِي حَرْزِ هُنَاكَ حَرْيزِ
مَا حَالَةَ الْمَهْمُوزِ وَالْمَلْمُوزِ
فِيْنَالِ فَوْقَ الْقَصْدِ كُلِّ عَزِيزِ

(1) لعلها الزمالة .

فقبل شفاعته الشيخ يرم وأجابه بقوله :

يا أيها العلم الذي حسناته شرفت بطلعتها على الأبريز
وجّهت لي درراً يضيء بحسنا أهل الصباغة من أولي التبريز
فعرفت مطلبها ونيل مرامها سهل يمين الله غير عزيز
فعلبه تأخير العمامة برهة حتى يكون القول في التمييز

ومن شعره رضي الله عنه ، في أثناء مكتوب منه إلى الشيخ محمد العربي الدمناتي المغربي أحد كتبة الإنشاء بحاضرة فاس الوافد إلى الحضرة التونسية في طريقه إلى الحج جواباً عن رسالة منه إلى الشيخ :

عجبت وهل ذا الدهر إلا عجائب لمن قال ذا عتب بحسن بيان
أتيناكم من بُعد أرض نزوركم على بازل بكر لنا وعوان
نسائلكم هل من قرى لتزيلكم بعيلء جفون لا بعيلء جفان
أتأتوننا قصد الزيارة ثم لا توافوننا من بعد نيل تدان
وتعنون بالإرسال عن وصل حبكم وقد صار منك الوصل طوع بنان
لقد جلّ هذا الحب حتى كأنه سراب تراهي لامعاً لعيان
وساءلتم ملء الجفون قراكم أشرتم إلى بخل بعيلء أوان
بعيشك ما صدّ الجفون عن القرى وما احتجت في لقياه للوخدان
وقد لاح لي في شرح ذاك ضمائر أنزه عن إعرابهنّ لساني

وقال مخاطباً الشيخ يرم الثالث في عدل اسمه محمد المعروف وكان جاراً له :

يا من إذا عضّ الزمان بناه حطت رحال القصد في أعتابه
إن الذي حمل الكتاب إليكم من سقاه العزل مطعم صابه
وبه تعدّر قوته إذ لم يكن يدري سوى التبريز من أسبابه
وله جوار حجّتي بحقوقه ولكم صلي الأحشا بنار عتابه
حتى رسا هيمانه في قدركم وإليكم حسن الظنون حدا به
فأنتي وقال اكتب لمن عجز الوري أن يظفروا لعلائه بمشابه
فكبت ملتداً بشهد خطابكم مع أنتي راج لنيل ثوابه
والله بيتي مجدكم حرماً له عز به يقف العفاة ببابه

ومن شعره يخاطب الفقيه الشيخ محمد ابن الشيخ سيدي أحمد بن عاشر حين
اجتمع به في سلا من بلدان المغرب الأقصى مجيباً له عن القصيدة التي أنشأها ترحيباً به
قال :

روحي فداك من الملمّ المعترى
وأنا الذي بتخلّني أصبحت في
يا خير من حسد العقود قريضه
وأجلّ من دان القريض لطبعه
وأرق من ساري النسيم إذا سرى
أعني الهام ابن الفقيه محمداً
ومن العلوم بنقده وذكائه
الدرس لا يهوى سوى تقريره
وإذا لثام الجهل غطّى مشكلاً
ببراعة من دون نيل أفلها
يا عاذلي في حبه أقصر فما
ما كنت فيه مقلداً غير الهوى
إن كنت تسمع ما سمعت فلإني
تسليك منه فكاهة فكأنها
ليس الغريب بأنسه في غربة
حيّاً معاهد أنسه برق الحيا
بلد به سطعت لوامع نوره
لا زال منه الغرب مشرق شمسه
وعليه من محض الوداد تحية
ما قال ذو وجد بجمك داعياً

ولو أنه يتتاع كنت المشتري
ندم فيا ويلاه إن لم تغفر
فتناثرت منها صحاح الجواهر
وبثره سحر النهى إن يثر
لطفاً وأسوغ من زلال الكوثر
شيخ الهداة وقلوة المستبصر
تزهو على الحور الحسان وتزدرى
وسواه لا تهوى مراقي المنبر
كشفت اللثام عن الجبين المسفر
حرب البسوس وهول يوم المحشر
أنا عن هواه المستلذ بمقصر
فأطل ملامك بعد ذا أو قصر
من حسنه أبصرت ما لم تبصر
راح براحة أغيد متبختر
بل من برؤية وجهه لم يظفر
وسقا سلا صوب الأغرّ المطر
فغدا بوجه ضاحك مستبشر
وسلا به أبهى وأبهر منظر
أذكي من المسك العتيق وعنبر
روحي فداك من الملمّ المعترى

ونصّ القصيدة التي هاته جواب عنها يعتذر فيها صاحبها عن تأخره عن الاجتماع به
والمبادرة لملاقاته :

اسمع أبا إسحاق قولي واعذر
فلعله قد كان عنك تأخري

في كل أسبوع مراراً يعتري
 عن مثل سؤددك المنيف الأشهر
 شوق الجديب إلى السحاب المطر
 يهوى السماك بلوغه والمشتري
 وأناخ فيهم بالرحيب الأبهري
 ووجودكم مثل السحاب المطر
 لم يجد فيه تجلدي وتصبري
 لأجل جيد في الزمان وأفخر
 يسبي النهى قسراً بأبهج منظر
 تختال في حلل البديع الأنور
 وهن في كل المحافل تزدري
 في بهجة وتبرج وتبختر
 بزرجد من نورها وبجوهر
 يقق وأصفر فاقع ومعصفر
 نسرینها وبهارها المتعطر
 عن فكرة جادت وحسن تدبر
 ما حوك صنعاء الأنيق وعبقر
 أنوارها تغشي نواظر مبصر
 ورث الخلاقة أكبراً عن أكبر
 ومكارم الأخلاق سامي العنصر
 عون الضعيف ونصرة المستنصر
 وقلائد العقيان غير مقصّر
 كلا ولا ابن نبأته والبحثري
 آداب تحفة رائع ومبكر
 لسن لدى أهل القريض مصدّر
 وزعيمهم مها القرائح تنبّري
 خرس شقاشقهم وإن لم تزار

ألم وعافاك الإله يلمّ بي
 ما دأب مثلي أن يعضّ جفونه
 عندي إلى لقيا الأحبة مثلكم
 لاسيما من في العلوم مكانكم
 وإليهم علم القريض قد انتهى
 أخلاقكم مثل النسيم لطافة
 شوقي إليك وإنه نأيت مضاعف
 قد راقي درّ نظمت فريده
 اللّر في جيد المليحة حسنه
 أبرزت من خدر البيان خريدة
 يرو على حسن الخرائد حسنها
 أخريدة لاحت لنا من خدرها
 أم روضة مطلولة قد رصعت
 من أحمر قان وأبيض ناصع
 أرواحها تهدي لناشقتها شدى
 بل حلة حيكت بأطرزة النهى
 ما خسروانيّ الدمقس وعصفه
 جمعت يواقيت الثناء فأشرقت
 أوصاف ميمون النقية سيد
 قطب المفاخر والمآثر والندى
 سبط الرسول إمامنا العذل الرضا
 أودعتها سحر البلاغة كله
 ما ابن الحسين بمُحسن مها تلا
 رحانة الكتاب نفحة رائد ال
 لله درك من أمير براعة
 ليث القريض رئيس زمرة أهله
 وإذا بناديبهم حلت فإنهم

لله تونسٌ التي بوأتها
 مني عليك تحية نفعاتها
 ما غردت قرية في دوحة
 وتلا محبكم المخلّ بحكمكم
 كم أحرزت بعلاكم من مفخر
 تربو على مسك يفوح وعبر
 وبدا سنا ذاك الجين الأزهر
 اسمع أبا إسحاق قولي واعذر

ومن شعره يمدح سيدي علي العريان بتستور بلد الشيخ رضي الله عنه :

من يكن في ضنى ورام خلاصه
 حضرة قد حوت سنى وسناء
 فاقترح ما تشاء مخلص عزم
 ذا مقام العريان أستاذ نصر
 فتلقى الأسرار منه وأبدى
 والذي جاءه ابن عزوز يحبو
 وأذكر ما حيت يوم مراد
 يوم وادي الزرقاء إذ رام ظلماً
 وكان الرصاص في الشيخ ماء
 قال يا ظالماً جوادك هذا
 فقضى نجه بطلعة سير
 وأسأل الناس ما ليونس ولي
 حين رام المبيت بالخود غصباً
 فغدا في محلة له حرباً
 يا لها من مناقب لإمام
 فلکم قد أجار من مستجير
 ولكم قد أفاث في البحر من قد
 أبقى يا رب فضله وارضَ عنه
 فإلى ذا المقام يخلو خلاصه
 ومقاماً يعطيك دون خصاصه
 واقتنص ما أردت منه اقتناصه
 يوم أعطاه من لدنه خواصه
 للشقي الشقاء منه مناصه
 خاضعاً مظهراً لديه انتقاصه
 يوم جرّ البلا عليه اقتصاصه
 وطغى جنده وأفنى رصاصه
 أنزلته السماء مزناً خلاصه
 رأسك المجتري أراك خصاصه
 عجلت هللكه وقدت دلاصه
 مظهراً بالفرار منه خلاصه
 مكرهاً أهلهن فيما أناصه
 مذ أثار ابتلاءه وقصاصه
 صفوة الأولياء طراً خلاصه
 في حياه وعنه ألقى فراصه
 صار في قعره غريقاً وغصاصه
 وأدم مجده وأكرم أصاصه

وعرضت عليه رحمة الله بيته بثبوت نسب لاستحقاق في حبس بإفتاء شيوخ ثلاثة

هم : الشيخ محمد بيرم الرابع والشيخ محمد بن الخوجة والشيخ محمود بن باكير فأيدهم في فتواهم بذلك قائلاً :

جاء الشيخ مجلياً ومصلياً ومسلياً في حلبة الإثبات
وأيت من بعد الثلاثة تالياً مستغفراً من غافر الزلات

والمفتي بثبوت نسبه هو تلميذه الشيخ محمد بن سلامة الواصل نسبه بسيدي بالحسن
الحلفاوي فقال مجيباً على روي البيتين السابقين وقافيتها :
تقبيل كفك عن رضاك تحية
وأقول من بعد التأدب قوله
أنت المجلي والمصلي دائماً
من أين يدري الطرف محقق طرفه

مسكية الأوضاع والنفحات
برهان صدقها قائم بالذات
أنت المسلي التالي بالإثبات
في متقن من مفرغ الحلقات

وأجاز الشيخ محمد بن سلامة بقوله :

حمداً لمن جعل الإجازة سلماً
وصلاته وسلامه أبداً على
ولآله وجميع أمته الرضا
هنا وإن الفاضل ابن سلامة
هشت إلى نيل الإجازة نفسه
فن الفقير لها ارتجى مع أنني
لكن رجوت تشبهاً برجالها
فأقول إني قد أجزت له بلا
من كل ما أرويه أو أدريه لا
موصي كما أوصيت بالتقوى التي
ويدعوة منه بقلب حاضر
والله إبراهيم محمد مهدياً

يرث المجاز بنيلها نسباً سما
خير الوري متعلماً ومعلماً
لا سيما علماؤهم لا سيما
ذاك الذي متن الكمال تسماً
لما رآها للأفاضل مغنياً
ما كنت للظمان فيها معلماً
آباؤنا العلما ومن يشبه فما
ثنياً رواية ما يصح لي انتما
الجعفي أقصده فقط أو مسلماً
أوصى بها القرآن نصاً محكما
أرجو بها حسن الختام مكرماً
أزكى الصلاة على الرسول مسلماً

ومن شعره مؤرخاً بناء مسجد بناه بتستور السيد محمد الصغير الأندلسي :

انظر له نوراً بدا مشهوداً
في ظلمة الأسواق لاح كأنما
يا رنة الشيطان منه إذا النداء
يأوي له رجل غدا مسعوداً
نشر الصباح على الظلام بنوداً
نادى فوئى خاسئاً مطروداً

وغنيمة السعدا إذا لم يلهم
قرت به لنوي الديانة أعين
لله أسسه الذي هو آمل
ربحت تجارته فأنفق فانياً
فلمثل هذا الصنع تستبق النهى
فاقبله من بانيه يا رب الورى
وأجب بفضلك دعوتي إذ قلت في
شيء فلبوا ركعاً وسجودا
وغدا به حزب الشقا مقوودا
أن سوف يحرز أجره الموعودا
لينال في دار النعيم خلودا
وعليه تنفطر الكرام كبودا
من لا يجيب لآمل مقصودا
تاريخه : جاز الصغير جودا
هـ1227

ومن شعره مؤرخاً أيضاً بناء المغارة الشاذلية :

انظر له تمت معاني حسنه
سطعت محاسنه سنا فكانا
وتبينت في وجهه وردائه
قرت بطلعته عيون أولي التقى
لا غرو إن قصب المعارف والهدى
الشاذلي وما أبو حسن ومن
يا رب غاو قد هدى ولكم فتى
ولكم ولي قام وزن ولاية
شيخ الطريقة في بنيه مريباً
وأبان في أحزابه نوراً لمن
لاسيما الحزب الكبير وما حوى
بالله شئت مسمعي بحديثه
واسمع به صرفاً فإن قتيله
فأنا المصاب بحبه وأرى الورى
كل يرى سوق البضائع راجحاً
يا ذاكرين الله في أرجائه
والله يذكركم بذكراكم له
وطوائف الأملاك قد حفت بكم
متعبداً لله مذكر عدنه
شمس الضحى بزغت لنا من رده
أن السعادة رشفة من مزه
واستمتعت بمنايح من يمينه
سأني مهينمه وراي حزنه
عزت عن الايضاح عزة شأنه
عاني الهوى فافتكته من سجنه
والشاذلي به استقامة وزنه
فكفاه عن شرح الطريق ومته
وقع القذى في قلبه أو جفته
من سر أنزله الاله بإذنه
وأدره كأساً واسقني من دته
يبقى على رمتق ولم يستفنه
كل أصيب بحبه عن فنه
فيما لديه وغيره في غبنه
بشراكم يوم المخاف بأمنه
ويحلكم من ذكره في حصنه
فليكف ذلك ذاكرأ وليهنه

هذا وكم لخصوص أهل طريقكم
فاسعوا إليه بكل قلب حاضر
وتمتعوا يا زائرين بمنظر
فبني به سعة زوائد وافقت
إن المقام بلونها حسن وفي
شرف عظيم لا يقام بمثله
غير الرضا من ربه لم يعنه
يهدى لمن قد زار قرة عينه
يمنى مهندسها رياضة ذهنه
تاريخها: تمت زوائد حسنه
1232هـ

ولما شاع خبر فناء العالم ونسب إلى سيدي أحمد التجاني شيخ صاحب الترجمة
رضي الله عنها ، كتب إليه تلميذه الشيخ محمد يريم الرابع يسأله عن صحة ذلك
بقوله :

أيا من رقى أوج المعالي وقد غدت
لقد ظهرت رؤياً لها نسبة إلى
همام على دست المعالي وقد علا
ملخصها أن الأنام جميعهم
أهل هو مما صح عنك نقله
أجنا رعاك الله عن كنه أمرها
لأنك ممن خاض لجة بجره
بقيت لنا كهفاً وللحق ناصراً
ويطلب رب النظم حسن دعائكم
فأجابه نافياً لذلك بقوله :

أيا من سبى الألباب حسن كلامه
أنتني من سحر البيان قصيدة
تسائل عما شاع في الناس ذكره
نعم هو ريب وهو مين وما له
جزى الله خزيًا مفتره وذلة
فهذا جواب للذي هو طالب
ويسأل إبراهيم من فضل ربه
كما أنه في الأذكاء مقدم
وما هي إلا عقد در منظم
أهل له أصل في الثبوت مسلم
ثبوت وأمر الشيخ أعلى وأعظم
ومأواه إن لم يعف عنه جهنم
حقيقة هذا الأمر والله أعلم
لك الأمن في الدارين وهو مسلم

ولمّا سَوَى الأمير أحمد ^{باشا} بين المدرّسين الحنفية والمالكية في الجراية ، وذلك سنة 1255 ، كاتبه بمكتوب يعلمه بذلك فأجابه عن مكتوبه بقوله :

جبرت بإحسان لمذهب مالك	قلوباً دهاها الكسر يا خير مالك
وما جبرها نيل الحطام وإنما	بتنوير حال من دجى الحيف حالك
تداركت تفریطاً من الدهر غفلة	وكم لك من رأي عزيز المدارك
فساوت ما بين الأفاضل رتبة	فهم من سباك العدل فوق أرائك
أيت بمقياس عزيز تباشرت	بفرحته الأرواح من كل ناسك
بمينا لو النعمان قرر عنده	لقربه عيناً ولست بآفك
جرى لبن من ثدي أحمد فارتوى	به حنفي في الإخاء ومالكي
أدام لنا المولى سعادة جده	بوجه وجيه باسم الثغر ضاحك
وأيامه يروى صحيح حديثها	عن العز عن نصر له متدارك

ومن شعره رحمه الله ، مناقضاً لأبيات أبي عبدالله محمد ابن الشيخ أبي القاسم بن جزى وهو أخو أبي بكر بن جزى قوله :

يا جميل الوجه والحسن به	أحسن الكتب على وجه أتم
قوس النون لعين حاجباً	وبميم الثغر في الخط ختم
كيف لا أطمع في وصلك لي	وعلى وجهك مكتوب نعم

وأبيات أبي عبدالله بن جزى هي :

يا محيا كتب الحسن به	أحرفاً أبدع فيها وبرع
ميم ثغر ثم نوناً حاجب	ثم عين هي تتميم البدع
أنا لا أطمع في وصلك لي	وعلى وجهك مكتوب منع

ومن شعره يرثي الشيخ البشير بن عبد الرحمان المشيشي ومؤرخاً له :

هذا ضريح يا له من مشهد	غرقت به شمس البشير محمد
انظر له ماذا حوى من بهجة	وسنا بأنوار الهدى متوقد
لم يخل بعد الشيخ من علم ولا	تقوى كأن بشيره لم يفقد
ذاك الذي لبس التصوف حلة	أولته في التسليك أصدق مقعد

وهو الذي لا ورد يعذب مشرباً
 سل عنه مكة والمدينة كم طوى
 وسل العفاة ببابه كم فاض من
 من عصبة نطق الكتاب بطهرهم
 آل الرسول السادة الأشراف من
 زاتهم التقوى وكل فضيلة
 من مثلهم فضلاً وكل موفق
 لا تعجبوا أن قد سما أبناؤهم
 مثل الوئيس السيد المفضل من
 لما مضى جاء البشير بإثره
 رائيه يذكر ربه عن غفلة
 ولكم دعا فانقاد صعب مقاصد
 شاعت مكارمه وأعجز عدّها
 وهو الذي لا من رآه فلم يقل
 فاقصد زيارته بقلب خالص
 لا غرو أن قد قلت فيه مؤرخاً :

إلا له منهن أعذب مورد
 بخطى المطي إليهما من فدقد
 سيب تلاطم مثل بحر مزيد
 ودعا إلى تعظيمهم بتودّد
 ورثوا السيادة سيّداً عن سيّد
 وبفضة فخر السوار وعسجد
 بهداهم في نيل فضل يقتدي
 في المكرمات إلى محل الفرقد
 بلغ المنى في سرّه المنفرد
 نوراً به باغي الهداية يهتدي
 وقواده يحيا بقول مرشد
 بدعائه ولغيره لم ينقد
 إن رمت إحصاء النجوم فعدّد
 ما مثله من ناسك متعبّد
 وادع الكرم فإنه بالمرصد
 بجاه لُدّ فلك الهنا بالمقصد

هـ1243

وقال مؤرخاً وفاة الشيخ علي دمدم مقتم الطريقة الشاذلية :

حكم المنية ليس بالمرحود
 الكل يتركه ولو من كان في
 ما هو إلا أجر يوم الحشر عن
 فتزود التقوى فإن وليها
 واجعل محبتك الصلاح وأهله
 لا سيما قطب الزمان الشاذلي
 ولذلك أصبحت الوفود ببابه
 ولكم أبو حسن عليّ راح في

عن والد سيّد وعن مولود
 برج بما يحمي القطين مشيد
 عمل تسرّ بوجهه المسعود
 أكرم به من سيّد محمود
 سيباً لنيل الفوز بالمقصود
 فهو الذي ضمن النجا لمريد
 يرجون من جدواه نيل الجود
 مرضاته وغدا بقلب ودود

ولكم تلا أوراده وأدارها
ثم استجاب لربه لما دعا
فتى ترره فقل وأنت مؤرخ :
صهباء تشني علة المفرد
وثوى بحكم الله تحت لحد
أسكنه في الفردوس منزل جود
سنة 1222هـ

وله مؤرخاً وفاة السيد محمود غربال :

الموت ليس بطالب متوان
فاذكر مصيرك في الثرى متفرداً
من بعد خفض معيشة وتانس
فارحم شبابك أو مشييك بالتقى
وأسلك سبيل الماجد الأزكى الذي
فخر الغرابة الأجلال في الورى
هم المعالي للذي يحويه من
ثم استجاب لربه لما دعا
فتى ترر فهب الدعاء مؤرخاً :
يا نالماً في هيئة اليقظان
ذا منظر يعظ الورى بيان
وعلو شأن يا له من شان
فهو الذي يتي على الحدثنان
ترك الثنا يتلى بكل لسان
محمودهم ذو الفضل والإحسان
شرف فحق له به الشرفان
داعيه ممثلاً على الظمان
أنزله في خير المنازل هاني
سنة 1218هـ

وقال مؤرخاً وفاة الشيخ حمودة الهيشري :

الموت كم فجج الورى وثباته
كيف اغترارك بالحياة وحبلها
أوليس في درج المنون مواعظ
وكفى بموت العالمين منبهاً
كالهيشري المرتضى حمودة
فخر المحابر والمحارب زينة الخ
صدر المحافل حلية القراء كم
لم يلك في طلب الرضا من ربه
ثم استجاب لربه لما دعا
فأناله أملاً وفي تاريخه :
إن لم يشب فبمرصد سطواته
بيد المنون مدى الزمان بتاته
وشتات شمل ما يضم شتاته
لنهي فتى نهضت به عزماته
ذاك الإمام المتقاة صفاته
طباه كم صدع النهى نبراته
سطعت بجو فواده آياته
فتشابهت في قصده حركاته
ومراده من ربه مرضاته
جادت عليه بوبلها رحماته
سنة 1223هـ

وقال مؤرخاً وفاة الوزير شاكير :

هذا سبيل الحى من كل الورى
هذا ضريح حلّه شاكير من
يا كم علا عند الملوك مكانة
ثم استجاب حامه لما دعا
فادع الاله وقل وأنت مؤرخ :
فانظر له ببصيرة كيما ترى
هصر المنى والعزّ غصناً مشيراً
ولكم حلا بين البرية منظرا
ويباب ذي المنن الجزيلة قد عرا
طيف بيابك لاح مرتجى القيرى
سنة 1243هـ

وقال أيضاً مؤرخاً وفاة بتاريخ أواخر صفر سنة 1223هـ :

نفوس البرايا للمنايا مناهل
فكيف البقا والموت أظفر طالب
وفي صالح الأعمال زاد مبلغ
كما خلّدت نشر ذكرها
مضت وعليها للقلوب مدامع
وكم أضحكت سنا بخالص برّها
مضت ولها من صالح الفعل مؤنس
وقد نزلت من جانب الجود منزلاً
فلترت عليه من مراحم جوده
لذلك تأتي أن يقول مؤرخ :
وأيامها منها لمن مراحل
وكيف البقا والدهر بالخلق راحل
وذكر به يبقى الذي هو عامل
وإن أوحشت بالفقد منها منازل⁽¹⁾
جرت من جفون وهي حمر هوامل
لمن دمه من نكبة الدهر سائل
إذا أوحشت سكانهن جنادل
تقرّ به عين الذي هو نازل
سحائب للعفو الجميل حوامل
سقى رمسها مزن من الجود هائل
سنة 1223هـ

وقال أيضاً مؤرخاً وفاة السيد أحمد سيطه :

كل امرئ ساع إليه مخونه
فلرجع إلى مرضاة ربك قبل أن
فالخزم في التقوى فقط فمن اتقى
واعمل كأحمد سيطه العمل الذي
قد كان برّاً ملجأً للمؤمل
جانّ جزا ما قدمته يمينه
بيكي المفرط إذ تخيب ظنونه
قرت بغاية ما بروم عيونه
يلقاك ساعة وحشة ميمونه
عفاً تغض من الحياء جفونه

(1) بياض يظهر أنه محل اسم المتوفاة .

حلف التلاوة للكتاب ونعم من
 حسناً خلأته جميلاً خلقه
 ثم استجاب لربه لما دعا
 وللمح برق الجود أ برق قلت في
 كان التلاوة للكتاب قرينه
 يرضيك منه حراكه وسكونه
 ليناله من خيره مخزونه
 تاريخه : جادت ثراه مزونه

وقال مؤرخاً وفاة الشيخ أحمد السهيلي سنة 1222 هـ :

قدّم لأهوال المال مآباً
 فإلى متى والعمر لحظة بارق
 القبر حسبك لو توافق واعظاً
 وإذا غفلت فإنه لك موتر
 عمّ الخلائق حكمه يا ليته
 كجناب أحمد السهيلي الذي
 وهو الذي إذ خاف فتنة وجهه
 خلق يود البدر نيل تمامه
 غارت من الدنيا عليك منية
 يا رب من وافاك أحوج مورداً
 أقبل مقالة من دعاك مؤرخاً :

واعمل فما التسويف منك صوابا
 تلهو وينصحك الشفوق فتأبى
 والموت يكني لو علمت مصابا
 قوساً متى تدع الفناء أجابا
 لو كان يمنع بالبقاء جنابا
 لبس المحامد في الوري أثوابا
 ضرب الحياء على الجمال نقابا
 وخلأق تسي العقول عجابا
 شوقاً له فاستعجلته شبابا
 أشهى من العذب الفرات شرابا
 نوله في أعلى الفسيح ثوابا

سنة 1222 هـ

وقال مؤرخاً أيضاً وفاة الشيخ أحمد بو عبدة :

أيلتدّ بالدنيا منعمٌ بال
 عجبت وما الأيام إلا عجائب
 فهل واصلت إلا وصال مخادع
 فإياك والإصغاء منها لزخرف
 وشمرّ لما تلقاه عن ساق جاهد
 وعظ منك نفساً ما ارعوت لمذكر
 وفي موت أهل العلم أوعظ واعظ

وللموت في الأحشاء رشق نبال
 ركون إلى آل وطيف خيال
 وهل أروضت إلا لبان فصال
 فما هو في التحقيق غير محال
 له هم في الصالحات عوالي
 ولا وثقت من ناصح بمقال
 لمن يخطر الإيمان منه ببال

ولا سيما من لم يزل بعلمه
وينشرها وهي العقود كأنما
وهل كان مثل الشيخ أحمد ناشر
أبو عبلة الأرضى الإمام ومن له
متى كَلَّ ذو جدّ جديد فإنه
إلى أن غدا من علمه الدهر مطالعاً
على فقله فليبك درس ودارس
وفي مثله تأسى القلوب فإنه
ولكنه حيث النعيم مصيره
ومن كان من قريى الرسول وآله
ومن كان للدين الجنيفى ساعداً
فزر قبره واذكر مقال مؤرخ :
يحلّى نحر الطالبين لآي
تفوح لذلك النشر منه غوالي
على طول أيام له وليالي
من العلم والتوفيق أي خلال
على كبر لم يتسم بكلال
لنجم يرى في دجنة وهلال
بدمع على وجه الطروس مزال
لها صيقل من رانها المتوالي
فكل امرىء ذو رحلة وزوال
فأولى بأن يحظى بخير مآل
فأحرى بثزل من رضا المتعالي
سقى قبره الرحمان مزن نوال
سنة 1222 هـ

وقال مؤرخاً وفاة عزيزة ابنة محمود باي وزوجة سليمان كاهية :

أكرم بها من روضة الرماد
بنت الملوك الصيد سادات الورى
نشأت بحر باذخ ولجرت على
لم تال في صوم وفي ذكر وفي
أحنى على الفقراء واللاجي لها
لم ينثا عز الملوك عن التقى
ربحت تجارتها فباعت فانياً
وقضت إلى حسن المآب وخلفت
وعيون من كانت تفيض عليهم
لا غرو أن الله يسعدنا بما
فلذا بحسن الظن قلب مؤرخاً :

سموه رمس عزيزة الأجواد
وكريمة الآباء والأجداد
سنن الصوالح منهج العباد
صدقاتها رى الفؤاد الصادي
من ذات إشفاق على الأولاد
وتزودت من هذه لمعاد
لشريف ما يبقى بغير نفاذ
حسن الثنا تلى كما الأوراد
فاضت بذلك الفيض من إرفاد
قد قلمته بصادق الميعاد
قد أسعدت ولها الهنا بمراد

وقال رحمه الله ، في رثاء الأميرة آمنة زوجة محمود باي وابنة علي باي وأخت

حمودة باشا الشهير ، وهي من وحيدات عصرها نوه بخصالها الشيخ أحمد بن أبي الضياف في تاريخه أيما تنويه غير أنه لم يذكر المراثية بتمامها ، ونص ما ذكره منها :

سكنت فسيحاً في الجنان ظليلاً وقطوفها قد ذلت تديلاً
لا تحسبها في الثرى ومقبلها يهوى الثريا أن يكون مقبلاً
سر الهام ابن الحسين عليّ الـ حملك الذي اتخذ الصلاح خليلاً
أم الملوك وأختهم وكفى بسحر حمود أمير المؤمنين خليلاً

ومن مراثيه رضي الله عنه ، قصيدته في الشيخ المفتي أحمد ابن الشيخ المفتي حسين البارودي الذي سبق لنا ذكرها في ترجمة الشيخ المذكور ونص طالعها :

عش ما تشاء لذاذة وحبوراً إن القصور ستستحيل قبوراً

ومن مراثيه ولعله آخرها ما رثى به ولده العلامة الشيخ محمد الطيب الرياحي وبين وفاتها أقل من ستة أشهر لأنها ماتا بالكوليرة قال رضي الله عنه :

إلى متى اللهو والأحباب قد رحلوا يا من بفانية اللذات مشتغل
كم جرعتك كؤوس البين من غصص فالعين باكية والقلب مشتعل
وكم نجت على صب علفت به وأصدقاء سويدا القلب قد نزلوا
قد سافروا سافراً جده المسير بهم فيه فليس إلى رجعتهم أمل
وبدلونا بسكنى حفرة قبحت ونخلفونا ودمع العين منهطل
وعاد حسنهم قبحاً وأنسهم وحشا وحزنهم نام ومتصل
فالتطق منطبق والجفن منغلق واللون منمحق والوصل منفصل
والأذن في صمم والرجل في سكن واليد في سدل فالكل منخزل
يا هل ترى ما لئلك الحسن منخسفاً وما دهاه وحارت عنده الخيل
دهاه أمر عظيم لا مرد له قضى به الله والإنسان يحتمل
يحق للعين أن تبكي لفرقتها أحبة ليس في الدهر لهم بدل
خلوا قوادي كئيباً بالفراق وقد توطنوا حفرة سوداء تبذل
فكر فإن نعيم الأمر متقل واعمل لملك عظيم ليس يتقل
فا يسرّ امرأاً أهل ولا ولد وليس ينفع إلا العلم والعمل

الأهل تلقى بديلاً بعد ميتهما والمال للغير قهراً عنك يستقل
والبنت تمثي لبعل عنك ذاهبة والابن بيكي زماناً ثم يشتغل
بالله يا راحلاً نحو الأحبة سل عنهم وسلم عليهم حين إذ تصل
وقل لهم إننا عنكم أسارى أسى وعن قريب إليكم نحن نرتحل

ومن نثره رضي الله عنه ، يخاطب المشير الأول أحمد باشا مستشفعاً ما نصّه :

« سيدنا يا مغيث المستغيث ، ويا طيباً ولو أعجبك كثرة الخيث ، بعد الدعاء لكم بطول العمر في نصر عزيز ، ودولة لها معقبات من حفظ القوي العزيز ، قد أقررت عيون الدين ، بالتمكّن من ذلك الشيطان اللعين ، ولا غرابة في إقرارك عين الشريعة ، وحماية حرمتها الشريفة المنيعة ، إذ هي حسبك ، وكلك الآيسة من أن يكون لها مثلك ، غير أن المملوك الذي تعين في طاعة الرسول وطاعتك ، متدرعاً بحرمته وعنايتك ، قابله بهتك الحرمة ، وكفران النعمة ، وتوعدوا في مكرهم به وزادوا ، بعدما استضعفوه وكادوا . وقد ثبت عندي أنه بريء من إفكهم الذي زوروا عليه ثبوتاً قطعياً تؤديه له يوم تكون الملائكة شهوداً ، والمحشر مشهوداً ، فأسألك يا مولانا بمن أوطأك رقاب العدى ، لا تشمت به الأعداء ، واجعله في شفاعته من أنت في شفاعته اليوم وغداً : وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، من معظم قدركم العليّ إبراهيم الرياحي في جمادى الأولى سنة 1268هـ .

ونثره رضي الله عنه ، عالي الطبقة خطابة وترسلاً ، ذكر منه جملة صالحة حفيده الشيخ عمر الرياحي في تعطير النواحي فليرجع إليه من أراهه .

300 - خالنا أبو عبد الله الشيخ محمد الطيب

ابن الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي

نشأ هذا العالم بين يدي أبيه شيخ العصر ، وبركة المصر ، في طلب العلم فأخذه عن أيمته القادة ، حتى ألقى إليه التحصيل مقاده ، فتصدّر للتدريس ، فثر من تحقيقه الدرّ النفيس ، وجلّى في ميدان البراعة ، ورفع من فلك التحقيق والتحرير شراعه ، متضلّعاً من العلوم العربية ، والفنون الأدبية ، والعلوم الشرعية ، والمعارف المرعية ، ما فاق به

الأقران ، وتعاضد في الإشادة به القلم واللسان .

أخذ عنه جم غفير ، وتخرّج به أعلام نحارير . وكانت له مكابدة ، على إدمان النظر والمطالعة ، يستغرق في ذلك جلّ ليله وقتاً نجد كتاباً يملكه ، أو طالعه لم يتبجج حواشيه بما من التحرير يسلكه .

ولي خطة التدريس بجامع الزيتونة ، وإمامة جامع أبي محمد الحفصي . وعزم الأمير أحمد باشا على أن يقلده خطة القضاء ، بعد خروجه من الحجر الصحي لمرض الوباء ، فسابقته المنية واختار الله له ما عنده . وكان تقياً زكي النفس عالي الهمة .

وله شعر رائق ، وثر فائق . توفي بالمرض الوبائي في 23 ربيع الأول سنة 1266هـ في حياة والده ، فوجد عليه وبكته اللروس والمنابر ، وكل حيّ فلى القناء صائر . وكان له ذهن وقاد ، وروية إليها الأبي بنقاد . يذكر أنه حفظ الخرجية في العروض والقوافي في عشية صيفية بمقبرة السلسلة على صعوبتها . وكان برّاً بشيخه العلامة أبي العباس أحمد ابن حسين ، وقد اقترح عليه أن يوجه إليه كل كتابة تصدر من والده شيخ الشيوخ في أي غرض ، فكان يوجه إليه ذلك بخط الشيخ ، ولذلك اجتمع عنده ما للشيخ سيدي إبراهيم الرياحي من المحررات .

ولصاحب الترجمة كلام حكيم منه قوله : « نهى عن الإسراف في الماء فكيف بالمال . وأنا ألومك على حاجتي في الإمهال فكيف بالإمهال . كل شيء إذا ظفرت به سلوت عنه إلا المال ، فكلما ازداد ظفرك به ازداد حرصك عليه . شيثان يخف أمرهما على الجهول ويثقل على العاقل الأمانة والوصاة » .

ومن ثره ما كاتب به الشيخ أبا العباس أحمد بن حسين وهو إذ ذاك قاض بالكاف شفيحاً ، ونصّه :

« المقام الذي طيب الله سيرته ، وطهر سيرته ، وزين بالأعمال الصالحة صحيفته ، مقام مولانا الهمام الأجد ، والعلامة الأوح ، صدر الأفاضل ، وعين أعيان الأمائل ، ومصداق كم ترك الأول للآخر من الفضائل . شيخنا الذي تجب له مبرة الوالدين ، أبو العباس سيدي أحمد بن حسين . واصل الله سعده ، وحرس بعين كلاءته مجده . آمين بعد السلام التام ، كما يليق بذلك المقام ، ورحمة الله وبركاته وألطافه وكراماته . فالهم أولاً السؤال عن الزكية أحوالكم لا زالت بملاءة العافية مشمولة ، وبأسباب السعادة

الكاملة موصولة . ويليهِ أعزكم الله أن جوابكم الأغرّ وصلني ، وبحسن عافيتكم سرّني .
والحمد لله على ذلك ، ثم إن من مطالب الابن ، الموقوفة على إجازة الإذن ، الشفاعة
في الأجل السيد أحمد بن إبراهيم بن الزين فإنه قد استشر من جهتكم طلائع
الإعراض ، وتوسّم في وسيم إقبالكم مخائل الإنقباض ، وقد هرع إلى العبد الفقير ومترلة
بنوتني عندكم تناجيه بالنجا ، وتواعده بتحقيق الرجا . وفضل السيادة بالوفاء ضمين ،
ولكم الأسوة الحسنة في سلوك سنن المتقين ، والتحلي بحلية « والكاظمين الغيظ والعافين
عن الناس والله يحب المحسنين » . زادكم الله عزّاً في الدارين . ويبلغكم أتمّ السلام في
جهدى الأولى من عام 1258 هـ .

ومن شعره مؤرخاً وفاة شيخه أبي عبد الله محمد يريم باش مفتي الحنفية الثالث سنة 1259 هـ :

جدث البلى أعلمت أم لم تعلم	أن قد حوت سنا الشريعة يريما
قُدِّسَتْ من رسم تَضَمَّنَ ذات مَنْ	كانت مراتبه تناجي الأنجما
لا عذر لي إن ⁽¹⁾ لم . . . نحية	أقضي بها حقاً عليّ محتما
وأقوم حولك ما استطعت أفضّ من	أخلاقه مسكاً عليّ محتما
وأقيم للمجد المنيف وللهدى	والدين والدنيا عليه ماتماً
هو ذاكم الشمس المنيرة كوّرت	أنوارها فالدهر أصبح مظلماً
هو ذاكم العلم الأشم جلالة	عصفت به ريح الردى فتحطماً
هو ذاكم الكثر الذي كتم الثرى	إن اللخائر شأنها أن تكما
سرعان ما اختطف الحمام كماله	فكانه برق تألق بالحمى
تبكي المنابر وهي عجم فقدّ مَنْ	نسي براعته الأصمّ الأبكما
تبكي الدروس عليه شيخ مشائخ	تشفي هدايته الصدور من العمى
ألمذهب النعمان بعد محمد	صبر فقدّ فقدّ الإمام الأعظمي
قد كان أيم الله فوق جبينه	تاجاً وفي يده لواء معلماً
ولخطة الإفتاء بحر يرتمي	بنفائس الدرّ الثمين منظماً
إن يَمْضِ فهو مسيل من وطىء الثرى	أين الذي نال الخلود ومن وما
قسماً بمنّ كتب الفناء لو أنه	يفدّى لكان فداه من تحت السما
لكنّ ما يلقى من الزلّفى ومن	حسن القرى خير من الدنيا وما

(1) بياض في الأصل

فقد استجاب لربه لما دعا
وله من الصنع الجليل مآثر
وتشير للأسف العميد من الأسى
لا غرو أن ناديت إذ أرخت : يا
داعيه منقاداً له مستسلماً
تنلو جميل الذكر نصاً محكماً
ما يجعل الصبر الجميل مذمماً
أسف على ركن الهداة تهدماً
ومن شعره يمدح القطب الملاذ سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه :

عسى نفحة تأتي بعطف وإقبال
وتنفك من قيد الأسار عزائم
هنالك لا غير الكواكب رفقتي
إلى المغرب الأقصى وما هو إنما
ملاذي وأستاذي ومن باتباعه
إمام الهدى غوث العوالم كلها
هتماً سقاه الله من فيض سره
وعلاه حتى نال بالقرب رتبة
تفيق بها من غشية العسر أحوالي
عتاق سراها غير وخذ وإرقال
إلى حيث جيد الفضل ليس بمعطل
مناي به من ليس يعزب عن بالي
أجر على هام الكواكب أذيالي
مبيد العدى ميري الضنى عند إعضال
كؤوساً بها مزج بود وإجلال
حوى فضلها مجد المقدم والتالي

وهي طويلة . ومنه يهني الوزير أبا النخبة مصطفى خزندار لما بنى قصره
بقرطاجنة ، ثم أعرض عن إرسالها إليه فلم تصله :

على طالع أيمن السعيد المفضل
تخيرته قبل اختيارك باهر
هو القصر لا بل في العلى بيت عزة
تنافسه فيك البروج لفوزه
وتغنوا إليه الزاهرات صباية
جميل محيا المكرمات ممجد
قريب منال الفضل في غير منة
هو الشمس إشراقاً وحسناً ورفعة
عليه لإحسان الصنيع مخيلة
لك الفوز إن أبصرت غرة وجهه
لقد ظفرت بالصالحات إيالة
نزلت بحمد الله أسعد منزل
من السعد في شرح من العزم قبل
يضيء بيدر من سناه مكمل
بأجمل مما قد حوته وأكمل
بأبلغ ميمون النقية مفضل
حميد مساعي الرأي في كل معضل
بعيد منال المجد للمتأمل
سوى أنه داني الرضا والتفضل
بها ولديها نجح كل مؤمل
بنيل نهايات المرام المعجل
تحلت بتاج من حلاه مكل

وضاءت بشمس من حجاه منيرة
وفاءت لظلّ وارف من أمانة
شمائل في أفق الفخار تعرّضت
تناولت قدر الوسع منها وليتني
ابا النخبة المحظي بخير وزارة
هنيئاً لك المبنى الذي شدت قبله
أناف على الزهراء حسناً وبهجة
أقمت لعزّ الملك في وضع شكله
وأعربت عن فياض جودك في الوري
تملاً به رغداً من العيش وارداً
عليه من الألفاف سور وحوله
ومن يُمّنه استخرج لحضرتك المنى

وصالت بسيف العزّ غير مفلّل
وسامت بروض للندی غير ممحل
تعرّض أثناء الوشاح المفصل
تمتعت من حظّ بها غير معجل
وخزنة دار الملك والمنصب العلي
من المجد مبنى في ذرى العزّ يعتلي
وأزرى بغمدان وحصن السموأل
على غاية الإبداع برهانه الجلي
وهتمتك العليا بأفصاح مقول
من الأمن والإسعاد أعذب منهل
وفود سعود ما لها من محوّل
وأرّخ لها : فوزاً بغنم معجل

ومن شعره مادحاً ومهتئاً شيخه محمد بيرم الثالث بختم مختصر الشيخ السنوسي
في شعبان من عام 1254هـ :

يا سيّداً سعدَ الزمان بسعده
وأضاءت الدنيا بنور علومه
لك في الفؤاد كمين ودّ يقتضي
وأودّ لو سمح الزمان فصغت من
ولكم يحوم الفكر حول حياضه
شغب من الأشغال ينتهب الحجى
سيّما وعندي اليوم أكبر شاغل
والحق أني في القضية مذنب
وأنا بعفوك من عتابك عائد
ولأنت أكبر واهب وأجل من
لا زلت موصل السعادة أوريا

وغدا الكمال حليف خدمة مجده
وتوضّحت سبل السّداد برشده
لكم من التعظيم غاية وُجده
مدحيك ما فاقت جواهر عقده
فيذوده صرف الأسى عن ورده
نهياً ويقبر سيفه في غمده
أغنى المقام وحاله عن سرده
جاوزت في التقصير أقصى حدّه
مستوهب نيل الرضا من بعده
ترتاد غايات المنى من عنده
لأثيل عزّ لا زوال لطوده

ومن شعره أيضاً مهتئاً لوالده سيدي إبراهيم بختم شرح القسطلاني على صحيح الإمام

غرة السعد أسفرت بابتسام
 والزمان المسميء تاب وأبدى
 نسخ العسر يسره مثل ما قد
 واتبرت للعدى أماني نفوس
 فن لم يجن بالفكر لولا
 ذلك السيد الإمام المرجى
 بدر أعيان زمرة المجد حقاً
 مالك العصر عالم المصر بالقصد
 حائز سبق في مدى الفضل حاو
 عضد الدين سعده ناصر الملة
 نور عين الزمان علماً وحلماً
 حافظ السنة السنية مبدئ
 عمدة الفقه غاية السؤل فيه
 درسه نزهة البصائر حسناً
 وتقاريره الرياض ولكن
 تتسامى ذرى المناير منه
 ليس إلا بوعظه تسمع الصم
 ليس إلا بذهنه تتجلى
 ليس إلا بلفظه العذب تُتلى
 ليس إلا به اقتناء المزايا
 عالة أصبح الأنام عليه
 خضعت عنده الرقاب بما قد
 مئة ما تزال تهدي وتروى
 لا ترى غير مهتد بهداه
 يا إماماً حواه برد المعالي
 يا سمي الخليل يا وارث الرأ

وتجلى بدر الدجى في تسامي
 لبنيه طرائف الأكرام
 نسخ الصبح آية الإظلام
 كُنَّ أسرى حوادث الأيام
 بركات المولى الجليل الهام
 بسنا وجهه انسجام الغمام
 وإمام الأئمة الأعلام
 ر وشيخ الشيوخ بين الأنام
 في اقتسام العلي معلى السهام
 تة بالحق حجة الإسلام
 وتقى في جلالة واحترام
 نور أسرارها بغير اكتام
 وشفاء الصدور في الأحكام
 بكامل التحرير والإحكام
 ثمر الدر في يد الأفهام
 ومحاريبها بنجر إمام
 ونجما بصائر الأقسام
 نكت العلم في دجى الأوهام
 سور الذكر في دياجي الظلام
 واقتباس الهدى وبره السقام
 طاعة التقض منه والإيرام
 طوقتها بداه بالإنعام
 لرواة الطروس والأقلام
 أو محب أو لائد بنعام
 ورد الفضل قبل عهد القطام
 قة والرحم من حلاه العظام

قد طلبنا فلم نجد لك في السوء
فقداء لشسع نعلك قوم
وهنيئاً لك المفاز بختم
جاء بشرى لكم بإقبال فتح
ولنا منه والبرية طراً
ولعمري ليست بأول نعمي
فجزاك الإله خير جزاء
وابق يا بدرُ في سماء المعالي

دد والفضل والندی من مسام
وُلدوا في العلى لغير تمام
للبخاري حديث طه التهامي
ووصول إلى قصي المرام
أيّ رحمی ونعمة واغتنام
كنت مولى ظهورها للأنام
مشرق بدوّه بحسن الختام
مستدام السنّا مصون التمام

ومن شعره أيضاً يهنئ والده بختمه شرح السعد على التلخيص :

ألا حدّثنّ عمّن به القلب مولع
على ذاك حبّست المسامع صبوة
لقد ظعنوا والقلب يزعم كمهم
فلله يوم بان إشراق نوره
وأمسى كئيب الصدّ بالبعد موحشا
ويا نسمة سارت إلينا عشية
فبالله إلا ما حملت إليهم
لقد خلفوني في الفؤاد متيماً
أبيت وأفكاري تؤمل شخصهم
ومهما بدا ركب أبادر قائلاً
فيا عاذلي دعني فإن ملامكم
ففي مذهبي السلوان جاء محرّماً
وهل تختفي شمس وفي الكون نورها
وهل يختفي علم الهمام الذي غدا
هو الأب عز الله أصلي أنا به
إمام همام فاضل متعفف
تقي نقي فاضل ذو سياسة

كفى طرباً ذاك الحديث للمسجّع
ولا لسواهم في فؤادي موضع
ولي أدمع كالنهر تجري وتدفع
ولله يوم فاض بالدم مدمع
وبات على جمر الهوى يتضجّع
مقلّة عرف منهم يتضوع
تحية مشتاق يذل ويخضع
كئيباً سقيماً باكياً أتضرع
فأصبح لطفاناً وما لي مرجع
أحنّ إليهم بالفؤاد وأخضع
هراء وإن الشهد ما أتجرع
فلم يبق للعدال عندي مطمع
وهل يختفي برق وفي الجو يلمع
له موضع فوق الكواكب أرفع
فطوبى لأجداد أقروا وفرغوا
شريف جليل للفواضل أجمع
حليم كريم للمكارم منبع

هو البحر في أي العلوم أردته
مشارك أنوار بطلعته انجبت
وفي أبحر التدقيق حاز دقائقاً
فيا فخر ممدوح ولست مبالغاً
رعى الله طوداً جثته بمقالة
ألا كل سمع غيرك اليوم باطل
وهذا دليل بالسعادة ناطق
وأفضل خير قد يكون غداً به

كما هنا والله رحمه الله بختمه شرح المحلّي على جمع الجوامع بقوله :

قواد لا يقيق من الغرام
وشوق ألف الأحزان حولي
ودمع لا نفاذ له كأي
ألا لله نفس جشمتها
وفي كف الحضائر أسلمتها
تقول : أفيك للتقصير عنر
أبي إسحاق فائدة الليالي
هام أغريت فيه المعالي
أغر الوجه وضاح السجايا
ولو قسمت مكارمه البرايا
إذا استبق الكرام مدى رهان
أو اقتسموا على خطط الزايا
غدا المثل الشرود تقي وعلماً
تناسينا به ذكر ابن قيس
تسامى للعلا طفلاً معني
فأحرز في الكمال مقام صدق
وأصبح منه هنا الدين يسمو

وجسم لا يبين من السقام
وفرّق بين جفني والمنام
أروم به مساجلة الغمام
مخامرة العلا هم سوام
عزائم تبيري مثل السهام
وأنت ابن المفدى بالأنام
وهجتها وواسطة النظام
تقدمه المعارف كالإمام
براء العرض من عاب وذام
فقدنا في الوري طيف اللثام
بدا وهو الجلي في الكرام
يكون له المعلى في السهام
وحلماً في وقار واحترام
ومعروف ومالك الإمام
بكسب العلم لا كسب الحطام
تضاهل دونه بلرّ التمام
بغرّ حمى وتاج فوق هام

وسيف في الهدى أمسى محلى
 بهمه تزول ذرى الرواسي
 عذيري من أعادته إذا لم
 ألما يدعنوا لما تحدى
 أبواً إلا مكابرة فأمسوا
 وراموا أن يدانوه فكانوا
 أمولى نعمتي وعماد مجدي
 إليك عقود أمتاح جلاها
 خدمت بها مقامك يوم ختم
 أدت بها علينا كؤوس علم
 وحليت النفوس بحلي فضل
 ألا إن المحلي لو رآه
 ونال كتابه عنكم وأمسى
 فلتت هنا فيه وفيما
 تسرّ بما تروح به الأعادي
 ودمت وأنت في شرف ومجد

وبالعرفان أضحي ذا اتسام
 وتنهل الغاتم في انسجام
 يهابوا سطوة الليث المحامي
 بآيات مبيّنة عظام
 يوازون الشوامخ بالآكام
 مكان المنسمين في السنام
 ويا سندي ويا كل المرام
 صناع الفكر في حسن انتظام
 يفوق غيره مسك الختام
 دهاقاً مزجه سحر الكلام
 به تزدان ما بين الأنام
 لأعجب من فوائدك الجسمام
 يفاخر منك بالشيخ الهمام
 يليه وما يليه إلى القيام
 وتغلو في مسيرة الغمام
 دوام الركن فينا والمقام

وقرض هذه القصيدة أخوه العلامة الأديب سيدي علي الرياحي بأبيات هي من
 بواكير شعره لصغر سنه إذ ذاك ونصّها :

أهذا الفجر أم بدر اللام
 أم الوجه المهلل من فتاة
 إذا ما عرضت يوماً بصد
 إذا ما أتخفتك بريق ثغر
 تحاكي البان قدًا إن تبتت
 لعمرك ما وجدت لها سلوا
 سراج العلم والتقوى تناهت
 إذا ما فكره أبدى مقالاً
 إليك الفكر قد أهدى مديحاً

أم الشمس العديمة للغام
 تراءت في محاسنها العظام
 تجرّ العالمين إلى الحمام
 تحال الريق من رشف المدام
 وتحكي السحر في لطف الكلام
 سوى جمع الجواهر من إمام
 إليه المكرمات بلا اكتام
 فإن القول ما قالت حنّام
 يقابل بالقبول لدى الكرام

ويرعى الله مجدك كل حين دوام الدهر من غير انفصام

فأجابه أخوه الأكبر الشيخ سيدي الطيب بقوله :

أناطت إذ أماطت بالثام بأقمار الدجى سمت احتشام
عقيلة فتنة الألباب أزررت بدائعها بأزهار الكمام
أعيد جماها من كل شوب معاذ كما لها من كل ذام
شهدت بأن منجبتها علي عزيز المثل ما بين الأنام
وكيف يكون مذموم المساعي فتى ينميه قطب رحي الكرام
أدام الله طود علاه فينا وصانك يا هلال إلى التمام

وقال رحمه الله مشطراً الأبيات التي نظمها والده رضي الله عنه في النوم :

(أستغفر الله وهو حسبي) حمداً به القصد لا يخيب
نال به المخلص الأمانى (وقاز من حسبه الحسيب)
(يختص من شاء لا بشيء) (إلا بجود له صيب)
(ثم الصلاة على المنبا) من قبل أن تفتق النيوب
إذ نوره المستين باد (وآدم طينة لزيب)
(والآل والصحب والموالي) أزكى صلاة لهم تطيب
والتابعين الأولى استقاموا (من كل من في الهدى نجيب)
(أن تجمع الشمل وهو فرق) بلاؤه للصفاء مذب
عسى بفضل لديك شملي (يجمعه المصطفى الحبيب)
(الفتاح الخاتم المرجى) الخاشع القانت المنيب
القيم المرتجى شفيحاً (لساعة هوها مشيب)
(السيد الكامل المعلى) المجتبي المتقى النحيب
الحاشر العاقب المفدى (الطاهر الطيب المطيب)
(كنز الكمال الذي لكل) من نشره هديه يطيب
ومن علاه لكل فرد (وإن علا قدرهم نصيب)
(من مدحه في الكتاب يتلى) مزية ما لها ضريب
إذ إله العزيز أثنى (ماذا عسى يمدح الأديب)

(هو الرؤوف الرحيم وافى)	في وصفه الواحد الغريب
فيا له من مدى فخار	(في توبة نصها عجيب)
(فيا رؤوف ويا رحيم)	ويا مجاب ويا مجيب
صل مستهماً عميد قلب	(ما غير وصلك لي طيب)
(إن لم تدارك حليف سقم)	أصلاه من وصلك لبيب
أشفى على الحين منه جسم	(فعيشه بعد ذا غريب)
(هذا بكائي بدا مديحاً)	يغار من حسنه النسيب
وذا فؤادي يذوب وجداً	(وذا اشتياقي وذا النحيب)
(عليك من ذي العلى صلاة)	شروقها ما له غروب
من نورها الكون ذو ابتهاج	(من عرفها مسكناً يطيب)
(كذاك يصحبها سلام)	سما به مغدق سكوب
تفنى الأحايين وهو باق	(لا يندوي غصنه الرطيب)

ومن شعره يمدح أحمد باشا باي الأول على تأسيسه المكتبة الأحمديّة بالجامع الأعظم جامع الزيتونة في عام 1256هـ . ونص ما ذكره الوزير ابن أبي الضياف من ذلك قوله :

تَمُدُّ عَلِيًّا زَاخِرَاتِ يَمِينِهِ	سوى أن ذاك المدّ ليس له جزر
ولما ازدرى الدنيا عطاء سمّت به	إلى الأوج نفس أمر أخطارها إمر
فأهدى إلى البيت الكريم خزائناً	من العلم يفني الدهر وهي له ذكر
فالله بكر في المعالي جلوتها	يطيل اعتباراً في محاسنها الدهر
تساقى الورى منها كووس مسرة	وفاح لديهم من شذا حمدك العطر
فجوزيت من ملك به انتعش الندى	ودين الهدى واستوصل الجهل والفقر
ولا زلت محروس الكمال مؤيداً	وصاحبك الإقبال وأيمن والظفر

وقال يمدح الأمير المذكور أيضاً بتأسيس المحمدية ومؤرخاً ، ونقشت بأعلى باب المدينة المذكورة المسمّى بباب باردو .

انظر لها تأسر طرف النبيل	وتسحر التّب بصنع جميل
بارعة الحسن ولكنها	رائعة قلب الحسود العليل

تاهت على الآفاق في منعة وعزّ شأن وفخار أثيل
 خطيرة جاد بإظهارها طالع يُمن وقران جليل
 على التقى أسس بنيانها وفي سبيل الله نعم السبيل
 أقر عين الدين إبداعها وأسلم الكفر لهمّ طويل
 دار حياة الدين آساده أنصاره في كل يوم ثقيل
 قد تاجروا الله بأرواحهم تجارة جاءت بريح جزيل
 أنشأها أحمد باشا الرضا خير مشير جاء في خير جيل
 للملك السامي عماد العلي الشامخ العزّ الكرم المنيل
 ذو المكرمات الباهرات التي ما إن لها في سمعنا من مثيل
 وهذه القشلة من خير ما أنتجه رأي حجاه الأصيل
 له بها الصيت البعيد المدى وللورى ظلّ أمان ظليل
 مزية دلت على فضله إن كان للصبح يقام الدليل
 بشرى فقد وافق تاريخها: نصر وإسعاد وفتح جليل

301 - الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد الطيب بن سلامة

الطرابلسي الأصل

نشأ هذا الفاضل بين يدي أبيه وجدّه ، وكان جدّه أبو العباس أحمد فقيهاً
 مشاركاً ، فاعتنى به ومرنه . وطلب صاحب الترجمة العلم عن نحاريه ، فحصل على
 ملكة مرضية ضربت بسهم غير طائش ، فتصدّر للتدريس برهة من الزمان ، ثم تحلّى
 عنه واشتغل بتعاطي الشهادة ، فاخص بالقاضي أبي عبد الله محمد البحري بن عبد
 الستار ، فتخرّج في علم الوثيقة بطول ممارسته كتب الأحكام وتسجيل المرافعات ، وكان
 من خواص سماره وتلامذته ، وقد كان الشيخ البحري أول من جمع المتفقيين من الطلبة
 وغيرهم للنظر معه ليلاً في النوازل المنشورة على بساط المرافعة من قضاة الحاضرة لتحرير
 النصوص المنطبقة عليها ، فكان صاحب الترجمة في زمرتهم . ولما ضرب الدهر ضرباته
 وتولى خطة قضاء الجماعة جرى في ذلك السبيل ، فألب المتخرجين من فقهاء الطلبة
 والعدول ، وربما ضمّ إليهم بعض المفتين والمدرسين لتحرير النصوص الفقهية بتبّع

دواوين المذهب كل واحد يتكفل بمطالعة ديوان منها ويخلص زبدة ما مخصوه في المسألة ، ويتحفهم بلذيذ المأكولات ورائق المشروبات ، وسلك ذلك حتى في تأليفه كحاشية التاودي على التحفة وغيرها من رسائله ، وهي طريقة حسنة تتيج تحريراً إذا كان فيمن يسلكها أهل تمحيص . وقد رأيت بعض محققي مشائخي يتقدها نقلاً وتقريراً ولعلّ مخيضها لم يتخلص .

يميل إلى التضخيم في محركاته من ذلك أي طالعت تاريخه الأحمدي وقد حذا فيه حنو التاريخ الباشي ، فإذا هو قد افتتحه بمقدمة تعرض فيها لتقسيم العلوم وتعاريفها ، وفي آخرها قال : ولعمري إنها تروى على مقدمة ابن خلدون . هكذا لفظه فوددت أن هذه العبارة تُمحي منها وكيف يقال ذلك مع مقدمة ابن خلدون التي تلقها حكام الشعوب بالقبول ولم يكن منهم عدا مناقشات ليظهر عجز البشرية .

تولّى مشيخة المدرسة المنتصرية ، وقضاء المحلة ، وقضاء باردو ، وقضاء الجماعة ، وتولّى الفتوى بعنوان كاهية باش مفتي نقله الأمير إليها ، وتخطى به المفتين قبله ، وكان يسيء نفسه لرئاسة المفتين بعد شيخ الشيوخ أبي إسحاق الرياحي فلم يقدر له . وكان له شديد علاقة مع الأمير أحمد باشا ووزيره مصطفى خزندار .

ومن مآثره تنيبه الأمير المذكور لإزالة عوائد التعصب المذهبي التي كانت جارية بين أهل المذهبين المالكي والحنفي منذ استيلاء الترك على تونس ، منها اختصاص القاضي الحنفي بنحتم الحجج والأحكام ، ومنها تقدّم المجلس الحنفي بحيث يكون رئيس المفتين من المالكية خلفه ، ومنها جلوس الحنفية على أسرة يمين الأمير وأخوانهم المالكية يجلسون يساره على مقاعد بالأرض إظهاراً للتمييز المبني على التعصب المذهبي ، وما دروا أن الفضل والتقدّم الحقيقي بالعلم والتقوى لا بالجلوس على الأسرة والتقدّم في الدخول ، وصدر المجلس حيث جلس صدره ، ولعمرك إن ذلك من آثار العجمة ومخالفة السنة . وقد كان صلى الله عليه وسلم يمشي خلف أصحابه كما ورد في حليته الشريفة ، وقد قال شاعره :

وقال نبي المسلمين تقدّموا وأحجب إلينا أن يكون المقدّما

فأبطل الأمير أحمد باشا جميع ذلك .

وله من التأليف جملة من الرسائل في مسائل خلافية ، وحاشية على شرح التاودي

على التحفة بلغ فيها التوقيف ، وكتابة على تفسير الفاتحة للقاضي البيضاوي ، وشرح قصيدة العارف البكري التي أولها :

ما أرسل الرحمان أو يرسل من رحمة تصعد أو تنزل

شرحها كما نقل عنه للتحصن بها من الوباء الذي مات به ، فذهب بأجره موقراً ، وما زال في مكانته إلى أن توفي بمرض الوباء بسيدي أبي سعيد في 11 شعبان سنة 1266 هـ . وأوصى أن يدفن بسيدي عبد العزيز المهدي بالمرسى ، فدفن حذاءه . ومن المصادفات أنه لم يحضر مشهد جنازته من أهل المجلس الشرعي عدا العلامة أبي عبدالله الشيخ محمد بن الخوجة كاهية شيخ الإسلام إذ ذاك ولهم العذر بعد الشقة وخوف الوقت فإن المرء لا يدري متى يصاب فهو لا تطيب نفسه أن يتباعد عن محله ، فكان ذلك ذريعة للوشاية بهم ، فإن بعض مضحكي الأمير وكان من ذوي السعيات أبلغ إليه أن أهل المجلس المالكي ، وحاشاهم أن يقولوا ذلك ، لما توفي صاحب الترجمة قالوا قد مات رماله ، أي الذي يخط له بالرمل ، فأحفظته هذه الفرية ولم يجد إلى كيدهم من سبيل حتى توفي جدي أبو إسحاق سيدي إبراهيم الرياحي بقرب ذلك ، فشغرت خطته فأشار عليه فيما يقال الشيخ أبو العباس أحمد بن أبي الضياف بأن يولي العلامة الشيخ أبا العباس أحمد بن حسين قاضي الكاف إذ ذاك باش مفتي ويقدمه عليهم إغاظة لهم ليستفي صدر الأمير ، ففعل فإن صح ذلك فلا أراه مؤثراً عليهم فإنه خليق بالخطة وهم أول من يشهد بعلمه ودينه وما هي إلا من باب إعطاء القوس باريها . وكان صاحب الترجمة نائراً شاعراً . ومن شعره مخاطباً أبا عبدالله الشيخ محمد بريم شيخ الإسلام الرابع وقد وجه إليه رسالته في معاوضة أرض القنديل :

إليك إمام الدين والعلم غادة كساها النهى ثوب الحياء فزانها
فإن قصرت فالفصح منك سجية وإن كملت فالفضل منك أعانها
فلا زلت بجرأ مستمداً ومورد لتحقيق آيات تفيد بيانها

ولما أجرى الأمير أحمد باشا لشيوخ المجلس المالكي مرتباً مع الجند النظامي كما لشيوخ المجلس الحنفي مع جند الترك دفعا لما يتوهم من الإيثار والتمييز بين حملة الشريعة وهداة الأمة . وكان ذلك في 20 ذي الحجة سنة 1255 هـ ، فاجتمع علماء المذهبين أمام محراب جامع الزيتونة بإذن أميري بين الظهرين وتلا عليهم كاتب السر الشيخ أحمد بن

أبي الضياف منشور الأمير في إعلامهم بذلك فقال صاحب الترجمة مادحاً للأمير على هذه المنحة :

نظمت القوم في سلك النظام
وأعززت الجماعة بالتساب
فسويت الورى في عدل قسم
محال أن يظن الناس هذا
ولولا الله أرشد منك قلباً
ولكن الإله أراد خيراً
فألفت القلوب به جميعاً
فأنت اليوم أعدل من رأينا

فغر المالكية في ابتسام
وليس العز في كسب الحطام
نسخت بصلحه كيف الظلام
وكاد يكون من نوع الحرام
لما لاقته حتى في المنام
فأرشدك السبيل إلى القوام
وواخيت البرية بالتمام
بك المبدأ وخاتمة الختام

ومن شعره أيضاً ما قرّض به قصيدة للشيخ محمد الأصرم وذلك قوله :

بزغت فأكسفت النجوم أفولاً
حرس حياها من علاك صوارم
سحرت مناطقها القلوب بلاغة
لم تبقى للمقوال بعد بقية
حسب البليغ إذا تأمل خبئتها

وكسا محياها البلور محولا
أضحت من الذهن الحديد صقيلاً⁽¹⁾
وسقت شمائلها العقول شمولا
فيروم في تقريضها التمثيلا
يسترسل التكبير والتهليلا

وقال رحمه الله ، مهناً شيخه سيدي إبراهيم الرياحي بولايته خطة رئاسة الفتوى المالكية رضي الله عنه :

يا سعد كم قد طال فيك الموعد
كم علّنتني من عهدك نسمة
عهدي بأن الدهر قد باع الكرى
كيف التخلص من خوادع فكره
بشرى بني هذا الزمان منة
شأن بين صنيعه فيما نرى

ووثق عهدك دائماً بتجدد
إن صادفت مني الرجا يتوقد
وله غدا ثمن المبيع الإئتمد
وبلوغك الآمال فيمن تسعد
شأن الزمان بمثلها لا ينجد
ووقوع أمر مثله مستبعد

(1) صوارم : فيه تلميح الى لقبه .

أن الجفون من الليالي ترقد
 من بعد ما قد طال منه تسهد
 وصفا من الأكدار شرب يورد
 من ذي الولاية أنعم لا تجحد
 جيد العلوم بفضله متقلد
 تاجاً علي هام الجلالة يعقد
 أن كفوها ديناً ودنيا أوحد
 مهر المعارف عكس ما قد يعهد
 وبه الولاية عزها يتأكد
 علمت بأنه كفوها المنفرد
 شمساً لها غضّ الجفون الأرمد
 وتليدها وقف عليه يؤيد
 سند العلوم إليه وهو المسند
 وبه بدا علم السلوك يفضد
 وأصوله ركن إليه مشيد
 بحر المعارف والمعالي المزيد
 إلا به جيش العويص يبتد
 وجميعه رهن لديه مقيد
 برشاده من جاز عته مرشد
 واشرف له يا سعد إنك سيد
 بلر اهتداء نزه لا يفقد
 درج المعالي بعدكم لا تصعد
 وبهامه عقد النجوم ينصد
 وكان ذلك النقط منها الفرقد
 فلها بمدحك مدحة لا توجد
 وبك القريض ثناؤه يتجدد
 ورضيتها فهو المنى والمقصد

ما كنت أحسب قبله حتى بدا
 فكأنه غضّ الجفون بهجعة
 فزهت من الإنصاف ورق ذوي العلاء
 ولقى البرية ما لقت من غرة
 مذ قيل قد لبس الرئاسة فاضل
 وازداد في معنى الفتاوي مذ غلت
 يكني المناصب عزّة في نيلها
 أعني أبا إسحاق من بذلت له
 فسواه يلني في الولاية رفعة
 خطبته عنراً خطبة من نفسها
 فلك الهناء وقد غدا في أفقها
 وهبت إليه المكرمات طريفها
 دنيا العلوم وعالم الدنيا ومن
 أضحي بسلك العلم وسطى عقده
 معنى البيان بيان معنى فقهه
 شيخ الطريقة والحقيقة والهدى
 ما جال في حرب العويصة فكره
 أو ما تشرد نافر إلا غدا
 الفاضل التحرير من داعي الهدى
 فاسعد به يا دهر إنك عبده
 واعلم بأنك يا كمال هلاله
 ما الفخر إلا ما اكتسبت وإنما
 خذها كوجه الأفق وشاه الدجى
 فكأنما تلك السطور مجرة
 وإذا رفيع الشعر باهى شعرها
 فسواك يعلو بالقريض ثناؤه
 وإذا مددت لها اليمين تحية

فأبدل لها مهر القبول ودم لها فبقاك للموجود عيش أرغد
وامنح أباها دعوة من نحوكم فيها على رغم الليالي يسعد

302 - الشيخ أبو عبدالله محمد الخضار

نشأ هذا الفاضل في طلب العلم ، فأخذه عن جهابذته حتى أثمر غرسه .
وتملأته من العلوم نفسه ، فظهر فضله ، ووضح بين أقرانه نبهه . تصدّر للتدريس ،
فحرّر وحبر ، وله في العربية اليد البيضاء . تخرّج به الجم الغفير من الأعيان ، وازدان
بجلى محاسنه الزمان . ولي خطة التدريس وقضاء المحلة فأصابه بالسفر ضعف في بصره
أعجزه ، ثم نقل إلى خطة الفتوى وولي خطابه جامع الهوى ، وكان عالماً فقيهاً ذكياً
خيراً عفيفاً كريم النفس غراً . وكان الشيخ أبو عبدالله محمد البحري قاضي الجماعة
يستعين بعلمه وذكائه في معاناة النوازل مع غيره من النجباء ثم بعده الشيخ أبو عبدالله
محمد بن سلامة ، وكان كثيراً ما يبيت عنده ، فإذا أظلم ما يعانيه من فهم عويص
استضاء بشعلة من ذكائه ، أو بارقة من لوامع آرائه . ولم يزل على حسن سيرته ، وطيب
سريره ، إلى أن توفي في 27 ذي القعدة سنة 1267 هـ ، وكان شاعراً مفلحاً ، ومن شعره
يهني الأمير حسين بن محمود باشا وقد أبلّ من مرض :

تمت بعافية المولى أمانينا	والدهر وافى بما نهوى يهينا
وأصبحت ساجعات الورق في فنن	تملي علينا من البشرى أفانينا
والروض قد نم بالزهر العبيق شذا	وكلته الحيا ورداً ونسرينا
وللشقيق ابتسام كلما خفقت	راياته أطربت سرّ المحبيننا
وعاودت دولة الإقبال مسعدة	من بعد ما أضمرت للعزّ توهينا
لله عيد سعيد طيب حفل	به تحلى لباس البرء والينا
وموسم أضحك الدنيا بيهجته	وبالمسرة بل قد أضحك الدينا
ونعمة ما قضاها الشكر هائلة	أريت على كل جزل من أيادينا
نبا حسين الذي الدنيا به حسنت	وازينت منه بعد الحسن تزينا
مملك دانت الدنيا لصولته	وذلت أيده الشم العرائينا ⁽¹⁾

(1) في هذين البيتين إغراق منكر .

فاقت على دول الإسلام دولته
 فيا سليل كرام قط ما عهدوا
 اسلم فسقمك سقم الناس أجمعهم
 إنا لمذُقبل قد عوفيت في جلد
 كأن غانية غنا تغازلنا
 نواصل الحمد إذ ولي بعافية

ومنه يرثي الشيخ أبا عبد الله محمد يريم باش مفتي الحنفية الثالث :

ألا فجع الإسلام وارتجّ جانبه
 وضاق مجال الدين رجاً فطره
 هوى نجم من زان العلى بكاله
 فيا لك من طود تضعض ركنه
 قضى الله أن تغزو الرسوم وتطمس الـ
 وأن يأخذ الناشي من الترب مضجعاً
 مضى ثالث الاعلام من آل يريم
 فلا كان من يوم به كان نعيه
 إمام كسا الإسلام نوراً فأشرقت
 إذا ذكر النقاد نقداً لغيره
 فن لمصاب الدين ييكه فليجد
 وقل لبناة المجد قد كان معجزاً
 محمد لا تبعد فدينك سيداً
 فمن للقضاء الفصل والكلم التي
 ومن لبيان المشكلات بصارم
 ومن لقضاء الصدر إن عن مجلس
 ومن لبغاة العرف إن ضاق ذرعهم
 وكنت لمن قد غص كالماء مسعداً
 عسى النسخة الغراء تجبر صدع ما

ودجت من الخطب المهول غياهبه
 كان لم تكن مسلوكة ومذاهبه
 وما طالع إلا سيأفل غاربه
 وخرت إلى بطن الوهاد شناخيه
 علوم وأن يسترجع الدرّ واهبه
 وإن خلقت فوق السماك مراتبه
 إلى نزل رحب كرم يناسبه
 فقد هلك النعمان فيه وصاحبه
 مشارك من حسنه ومغاريه
 فحليته منشورة ومناقبه
 بدمع وإن لم يقض بالدمع واجبه
 لكم وإذا فليطلب المجد طالبه
 فما عنك إلا فاقد الصبر ذاهبه
 إذا انتظمت كالدر أهداه ثاقبه
 من الفكر غضب ليس تنبو مضاربه
 له احتفلت يوم القضاء مواكبه
 بوجه كصوب القطر تهمي جوانبه
 فديت فن للماء إن غصّ شاربه
 صدعت ويكسي حلة الأصل نائبه

فيا تربه واريت أكرم من مشى
ويا ساحة العلياء أقفرت بعده
سقى رمسك السامي مساء وغلوة
ولفأك في الفردوس أكرم منزل
ونلت الرضا ما قال يوماً مؤرخ :

ومنه يهني الأمير أحمد باشا ببناء قصر المحمدية :

هي الروضة الغناء لا بل هو القصر
بلت غرة في الدهر تزهو بحسنا
تأنق في تنظيمها كل صانع
تود الثريا أن تكون لسقفها الذ
وكم رامت الشعري العبور لقصرها
وقد كاد قطب الجري يهوي مهنياً
وللحضرة الجوزاء شدت نطاقها
ولكن لليث الغضنفر صولة
مغان تناغيك السعود لواحظاً
فما القبة الفيحاء منها وإنما
وما جدّ مولانا المعظم بالذي
وإن أبا العباس في الدهر واحد
إمام لمن يرجو الغنى من نواله
تباعده مرمى صيته فلذكرة
كان معاني الحسن إذ ما تجمعت
كان ضياء الصبح غرة وجهه
كان رؤوس الكفر عند انقضاضه
أعدّ لهم ما اسطاع من فضل قوة

وإن راق مرأى العين أكنافه الخضر
فيعطفها والثغر زاه ومفتر
فجاءت كما شاء التعرز والفخر
ربا وأن يسمو بغرفتها الغفر
عبوراً فجرتها الحجر والنهر
فقبل له بالعزم ثم لك الأجر
وما عاقها الكف الخضيب ولا الثر
تهاب فللعذراء من أجلها عذر
ويرتع في أكنافها العز والنصر
على قدر جد المرء يسعى له الدهر
يحدّ ولا معناه ممّا له حصر
وربّ مقال كان مصداقه السر
يميناه مبسوطان كلتاها بحر
بما شاده في كل ناحية ذكر
عليه غواني الطيب يجمعها عطر
وأنى له منها الطلاقة والبشر
خشاش من الغريان قابلها صقر
وخيل رباط حسبما عمه الأمر

(1) إني لا عجب من صدور هذا البيت من صاحب الترجمة وهو رجل عالم متدين ، ومثل هذا لا يطلق إلا على خير البرية سيدنا محمد ﷺ ، وإن أمكن أن يتأول له لكن تبقى بشاعة المتبادر .

فهنا لسان الدين يشكر سعيه
يؤانس مهضوم الجناب بلفظه
تطلع بالأسرار حتى كأنه
لذلك والله القلوب ودادها
فله مرماه السيد ورأيه ال
هو الفضل تبنيه الجلود وربما
فيا بالكأ يعيي الزمان بوصفه
لبنتك السماء سبقت خريدة
فإن لاحظتها من جمالك نظرة
هنيئاً بها مرقاة عز منوطة
ولا زلت في أمن بها ومسرة
وهذا لسان الفال قال مؤرخاً

ومن صنع المعروف حق له الشكر
ويؤنس من أخلاقه العفو والستر
بها قيل من لم يدر أن له خبز
ورباً ولي كان إذعانه قهر
رشيد وما أوري لقادحه الفكر
بني فوق هام النسر ما دونه النسر
وهمة من قدره ما لها قدر
بمدحك ترهو كان يحجبا الخدر
فذلك مهر لا يقاس به مهر
بها آية الكرسي ما طلع الفجر
وطاب لك المثوى وطال لك العمر
منازل سعد حل قبتها البدر

ومن شعره يرثي الشيخ محمد بيرم الثاني :

بروع الدهر بالهمم العلية
ويتزل من أعينها اللراري
وأية نسمة تبقى بحال
وهل يبقى على الحدثنان باق
هوى الدهر الخزون براس طود
وزلزل من قواعد أصولاً
نعم الناعي لنا العلم المكتى
نعم بمحمد الأسمى ولكن
أما ما كان في العرفان بحراً
وكم نظم الجواهر في طروس
وكم جلى العماية عن سؤال
ولا طاشت لفكرته سهام
فضاقت بعده الدنيا وكانت
ألا يا زائراً جوزيت خيراً

ويكدي بعد أن يهب العطية
إلى ترب ببلقعة خلية
إذا نشبت بأظفار المنية
سوى الذات المقدسة العلية
من الأطواد ليس له ثنية
لها في الدين مرتبة سنية
بيرم فانطوى الإسلام طية
نعم نفس العلوم الأملية
ومن للبحر أن يحوى حليه
ترجم عن مداركه الخفية
يطول البحث فيه بلا روية
ولا كذبت لحجته قضية
رزيتنا به فوق الرزية
فلا تنس الدعاء ولا التحية

جزاه الله في الفردوس داراً
ولقاه السرور بما حباه
ولما فارق الدنيا وكانت
وللرحمن هم وفد فأرخ
من الدار المكدره الدنية
من النعماء محتسباً لقيه
سجايا المتقين له سجية
لرحمن مضى مفتي البرية
1247هـ

وله مقرضاً تأليفاً نحوياً وضعه الشيخ محمد بن ملوكة وذلك في صفر سنة 1156هـ:

جواهر عقد أم يواقيت تيجان
تبدت بروض قد تكأل غصنه
أم انتعشت أرواحنا بمؤلف
أبان لنا فيما حوى من غريبة
وأسفر عن شأو يريك غضاضة
فيا لك من ديباجة كان وشيها
على أنه من شاع في الأرض صيته
فيا ربَّ سرَّ بالصناعة غامض
ويا ربَّ بحث قد تطامنه النهى
تظنَّ به نجم السهى فيريكه
فلا نظرت عين الحسود لحسنه
ولا زال من سحَّت علينا سماؤه
مصوناً من الأسواء أسعد صاعد
بحق ملاذ الخلق من شرفت به ال

وزهر نجوم أم أزاهر بستان
بنور ووافى ورده بمُزيران
رقيق الحواشي لابن مالکها الثاني
ذكاء إياس في فصاحة سبحان
بذهن الدواني بل بسيد جرجان
على فضل من قد حاك أكبر عنوان
وشمس الضحى لا تستدل ببرهان
غدا من سناها في وضوح وتبيان
وكان نخفي السرَّ موقف اذهان
جلباً وقل إن شئت ما كل إنسان
ولا غضَّ عنه الطرف رائد عرفان
بوابه رحب الفنا ملجأ العاني
على منبر العلياء مرتفع الشان
جلود العوالي من ذواب عدنان

وله مؤرخاً بناء قشلة الطبجية التي أسسها الأمير أحمد باشا . قال الشيخ محمد بيرم
الرابع في بعض كتابه ما نصّه :

ولمّا كثرت اعتناء أميرنا المؤيد السيد أحمد باشا بالعسكر الجديد واقتضى نظره أن يُميّز
طائفة منهم ويخصّهم بأمر المذبح فقط ، عيّن هؤلاء الطائفة منزلاً مستقلاً وهو سانية
المرحوم إسماعيل باي الكاتنة بالفدان القريبة من مقام الأستاذ سيدي يحيى السليماني
فقلع أشجارها وغير شكلها وزاد في بنائها وصارت يعبر عنها بالقشلة المنصورة ، وعندما

تم أمرها ونزلها الجند عقد الأمير بها مجلساً حضره طائفة لقصد التبرك بفتح القرآن واستدعى أهل المجلس فحضروا وحضر الأمير أيضاً وذلك عشية الجمعة أوائل ذي الحجة عام 1255 وفي هاته القشة يقول صاحبنا الشيخ الدراكة أبو عبد الله محمد الخضار المفتي المالكي .

بناء أنيق ما نرى ما يقاربه	ممنعة أكنافه وجوانبه
أعد لجيش بالدفاع موكل	ليلقى به دين الهدى من يحاربه
فأكرم به داراً يحق لمن ثوى	به من عظيم الاعتنا ما يناسبه
بناها أمام شامخ القدر غالب	بسطوة قهار الورى من يغالبه
سعى سعيه لله نصراً لدينه	وقد نجحت عند الإله مطالبه
رأى الدين قد أشفى نفساً لما به	فأدركه من حيث ضاقت مذاهبه
غدت يده البيضاء تأسو جراحه	فجاش وصالت كالليوث كتابه
إمام سما فوق السماكين نعله	وحلق حيث النجم يخسأ واقبه
فما في بني العباس إن عدّ ناقد	فتى كأبي العباس تحكي مناقبه
وحين انتهى تأسيسها وتنظمت	كما نظم الجزع اليماني ثاقبه
تهيأ لي أن قلت فيها مؤرخاً	ستبقى رباطاً آمناً عز جانبه

سنة 1255هـ

وله ، وقد طلب منه الشيخ القاضي المالكي إذ ذاك ، أبو عبد الله محمد بن سلامة نسخة يستعيرها منه من البراذعي كان الشيخ الخضار مشغولاً بها ، فأرسلها وكتب بظاها هذين البيتين :

بطاهر ك الميمون آيت أنه	لمثل سواد العين مني سوادها
وسهل عندي نأيها أن تعود لي	ويندى بعرف من يدك مدادها

عنى بقوله : بطاهر ك ، ابن الشيخ القاضي الذي اسمه الطاهر .

وكتب إليه الشيخ محمد يريم الرابع أبيات يطلب منه حاجة لم يسمها وعبر عنه تنويهاً برتبته الأدبية بقوله شاعر الوقت ونص الأبيات :

يا من بدا بداراً بأفق العلا مبرئاً عن نقصه والأفول

ومن حلّى أوصافه نُزّهت عن افتقار لاجتلاء الدليل
في مارب أرجوك في نيّله وحسن ظن لاجتلاء الدليل
أبى ضيق الوقت عن حمّله وقال لي أودعه عند الرسول

فلجابه الشيخ صاحب الترجمة بقوله :

يا روضة غنّاء مطلولة تغني المعنى عن حديث الطلول
وسيف حقّ منته صارم ما في شبا أفرنده من فلول
والعلم الفرد الذي جلّ أن يحكى بمثل في قياس العقول
لا يكذب المادح في وصفه وإن تغالى قائلاً ما يقول
سالت شيئاً لم يكن وزنه تراب نعل لك بل للرسول
خذه هنيئاً بصفاء خاطر والفضل منكم دتم في القبول

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً ، وقد كان وعد الشيخ محمد بيرم الرابع بالاجتماع به وعين لذلك وقتاً ولما تخلف عن ذلك الموعد أرسل معتذراً إليه بقوله :

لكم السرور يدوم إثر سرور وبقيت في عزّ وفضل حبور
ما كنت أخطف موعداً أبرمته لكن يباح تخلف المعذور

وذلك في جمادى الأولى عام 1256 هـ .

ومن شعره أيضاً ، رحمه الله ، البيتان الآتيان نقلهما بعضهم من خط الشيخ محمد بيرم الرابع المتقدم ذكره ممهداً لها بقوله : كنت اجتمعت بأخينا سيدي محمد الخضار في بعض العشايا من العشر الأخير من شهر رمضان سنة 1254 هـ ، فأنشدني من نظمه في استحسانه ثلاث كتابات ممّا وقع في تلك السنة لأرباب الأختام قوله :

عيون أختامنا ثلاث قد أحرزت في الكمال فضلا
لغيرها لا أشد رحلي وهل تشدّ الرحال إلاّ

ويعني بها كتابة العبد الفقير الشيخ بيرم الرابع ، وكتابة والدي ، وكتابة أخينا الشيخ محمد بن الحوجة . وفي النظم تلويح إلى عدم الحضور في ختم أخينا سيدي محمد بن سلامة لما أنها في تلك المدة متنافران اه بلفظه .

ومن شعر صاحب الترجمة أبيات نظمها ارتجالاً لما ختم شيخه العلامة الشيخ محمد ابن ملوكة بعض الكتب وأراد هو من الشيخ تعويضه بشرح السعد على التلخيص ، ورام بعض أقرانه تعويضه بكتاب الدرّة في فن الحساب ، فقال صاحب الترجمة راداً عليه يخاطب شيخه :

فديت بالنفس يا من	منه النفيس يطاب
ومن به الشك عتاً	يزول والارتباب
تاقت بك الأرض فخراً	آكامها والهضاب
إن أعوز العقل ضعفاً	فمنك منك الجواب
يا أيها الطالب الظم	آن ماذا الطلاب
إن عادك «السعد» يوماً	أو حان منك الاياب
فاقبل على البرق وادع الـ	أسود فهي ذئاب
وغص على الدرّ وارق الـ	منجوم فهي قراب
ما الدر إلا رذاذ	والستير إلا تراب
وريق العيش شهد	لسيء الحظ صاب
يا أيها المتمني	أقصر عدك الصواب
دع «الحساب» لسيوم	يطول فيه الحساب

303 - الشيخ أبو الثناء محمود ابن الشيخ حمودة باكير

نشأ هذا الفاضل بين يدي أبيه الإمام ، فأخذ العلم عنه وعن علماء عصره كالشيخ محمد بيرم الثاني وغيره ، فحصل ملكة مرضية وتفقه ودرس بالجامع الأعظم جامع الزيتونة ، واختصه الأمير حمودة باشا به وقربه إليه وحظي عنده وأولاه إمامة مسجد بيت الباشا ، فكان يصلي به الخمس ، وحظي عند أخيه أيضاً . ثم صرف عن هذه الإمامة وبقى يدرس بالجامع الأعظم ، وولي إماماً بجامع القصر ، ثم أزم بنخطة القضاء ، فكان من قضاة العدل ، ثم ولي الفتيا . كان رحمه الله ، عالماً فقيهاً حافظاً متفتناً فصيحاً شاعراً عزيز النفس أبا الضيم كريم الأخلاق حسن البديهة حاضر الجواب عزيز المحاضرة وجيهاً

نيتها ، بذلك ترجم له الشيخ أحمد بن أبي الضياف في تاريخه إتحاف أهل الزمان . وقال الشيخ محمد يريم الرابع في كتابه التراجم المهمة للخطباء والأئمة أنه كان حاضراً حين أكره على تقلد خطة القضاء بعد امتناعه واعتذاره عنه بما لا مزيد عليه ولم يفده ذلك شيئاً وهو إذ ذاك بجل لا يمكن معها القيام بأعبائه من الكبر ، لكنه سار فيه سيرة لا بأس بها من الاسترشاد وعدم الاستبداد . ولقد طلب مني عند ولايته نظماً يرسمه في ختمه فقلت :

تسديك اللهم في كل الأمور أطلب
فلا تخيب مقصدي يا من إليه المهرب

قال ، وهذا الطلب اقتضاه ما اعتراه من الاهتمام بما ورد عليه من هذه الخطة حتى أوجب له عدم اجتماع فكره لهذا النظم اليسير وإلا فهو ممن يحسن النظم ويحيد . وكانت وفاة صاحب الترجمة رحمة الله عليه ، أوائل ربيع الأول سنة 1267 هـ ، وقد أسن من شعره مهنياً الشيخ محمد يريم الثالث بولاية ابنه الشيخ محمد يريم الرابع الفتيا وذلك في جمادى الأولى سنة 1247 هـ .

أحنّ إلى من في شغافى مكتم
فإن عدّد العذال مني نقيصة
مودته قلماً إليّ وراثة
وإن زعموا أني بما فهت كاذب
فلاني كلیم الوجد إن دام قاتلي
هو الكوكب الدرى والشمس في الضحى
إمام الهدى مجلي الصدى مني الردى
فلولاه للنعمان لم يبق مذهب
فأتم أساس الدين يا آل يريم
وأتم حسام الشرع للظلم حاسم
ومن بيتكم نور النبوة ساطع
لعزتك الخضراء نموك أقبلت
أراكم إلهي بابينكم ما رأى بكم
فن ذا بداني نجلكم في نجابة
ومن حبه فرض عليّ محتم
فقد أخطأوا في عدّهم ما توهموا
لماذا من المفروض بالوهم أحرم
فحالي بجثاني عليّ مترجم
ومدحي رفيع الشأن للكلم مرهم
هو البدر في أفق المغالي المتم
جيب الندى فهو العظيم المعظم
إذا اندرس الإعلام من أين يعلم
وكيف يهان الدين أم كيف يهضم
وأتم لسان الفضل بالعدل يحكم
لذا كان إسعاداً لمن يتيمم
تجرّ ذبول التيه والنعل تلم
من الرشد قياض العلوم المنعم
ومن ذا بإجلال عليه يقدم

إذا باحث الأقران كان إمامهم
 جليل جميل السعي في طلب العلي
 فلا غرو إن نال الفتاوى وظيفته
 وعمّ السرور الناس إذ تمّ لبسه
 فبادرت بالإنشاد فيه مؤرخاً:
 وفيه لهم فهم سديد مسلّم
 له لسماء العزّ في الأرض سلّم
 فأبأوه من قبل فيها تنظّموا
 وقالوا يميناً أنه اليوم موسم
 لأيمن مُفتٍ في الحقيقة يريم
 سنة 1247هـ

وأرسل مع هذه القصيدة قوله :

من فرط وجدّي في سري وإعلاني
 لكنتي قاصر عن درك رتبتكم
 فلا ركبت له يوماً بملحمة
 ذهلت من زمني عمّا دريت به
 فالصفح منك جميل إن بها خلل
 فإتني صحتها والبال في شغل
 فإن أردت لنقص فهو شيمتها
 لو استطعت لكم وشحتها درراً
 أتتك تسعى بتاريخ : (مبشرة)
 نظمت ذي فرحاً من بعد أحزان
 ولست مع ذلك من فرسان ذا الشأن
 ولا شهدت له حرباً بميدان
 فكيف ما صنعت من دون عرفان
 يبدو إليك بسهو أو بنسيان
 لم يحسن السبك في صنع ياتقان
 وأنت ذو الفضل إن تقبل وإحسان
 وزدت تحلية نظماً بمرجان
 لم تأت غيرك من أنس ولا جان
 سنة 1247هـ

هذا وقد رثي أيضاً شيخه الشيخ محمد يريم الثاني الذي حلّ حفيده الشيخ يريم
 الرابع المهتأ به محله في خطة الفتوى بقصيدة نصّها :

لا تعتر بحياة أيها الرجل
 في زهو دنياه واستعداد آخرة
 فاضت عيون الورى من فقدته أسفاً
 فهو الجليل الذي ما في فضله دخل
 ناهيك تشريفه فينا بمرتبة
 وكان كبير فيما جرّه الأمل
 حتى انقضى وهو فيما رامه الأجل
 حتى بدا في الثرى من سيلها الوحل⁽¹⁾
 كلا وليس له في مجده دخل
 جليلة برسول الله تتصل

(1) إشارة الى نزول المطر الغزير يوم وفاته .

محمد يريم نسل الكرام ومن
صدر الشريعة في الفتيا كوالده
وهو النهاية في علم وفي عمل
وليس في عصره فذ يقاربه
فالناس لو حاولوا تاريخه: (وجلدوا
كمثلهم في الأولى حلوا ومن رحلوا
والفخر في الفرع بعد الأصل يتقل
وليس يعرفه فيما عاشه فمثل
كذلك فيما مضى أشياخه نقلوا
بفقد يريم مات العلم والعمل)
1247هـ

وفيما نسبه إليه من الشعر الشيخ محمد يريم الرابع قصيدة ذكر أنه مدح بها بعض
رجال الدولة في وقته ، ويشكو فيها من زمانه والملوح بها . قال الشيخ المذكور من
الرؤساء ، وكان من أقرب خلّانه ، ولعلّه يعني به نفسه والله أعلم :

سرت نسمات حبنا ذلك المسرى
وحتت إليها القمر حتى ترنمت
فشوقت الأرواح من نغماتها
وما شعرت بالبين حتى تكذرت
وحل بجسمي ما لقيت من الجوى
وبادرني بالعدل من كنت نخله
يكلفني صبراً وما لي تجلّد
فما الصبر في التحقيق إلا مرارة
وما الوجد يأتي للفتي باختياره
فكيف سلوى عن ديار أحبتي
فكنت بها في طيب عيش بوصولهم
فليت زماناً بالتواصل عائد
وكلّ أمرىء يشكو إلى ذي مروءة
كمثل سمّي الهاشمي محمد
تفرّد بالتدبير والبأس والندى
لئن نظمت دار الخلافة غيره
وما السر قالوا للمنازل إنما
كذا قيل لا معروف إلا لأهله

فأهدت إلى الأزهار من طيبها نشرا
بأوزان الحان تفوق بها السحرا
لأزمة في صفوها أفنت العمرا
فأضحى به ما كان يحلو لها مرا
وصير ما أخفيت بين الورى جهرا
على أنني أبديت قبل له عنرا
ولم أستطع أمراً يكلفني إمرأ
وحسبك أن تلتني بأحرفه صبرا
ولكنه يأتي على رغمه جبرا
بها لي عهد لا تحيط بها حصرا
فأبدت لي الأيام من بعده هجرا
أصير به من رق ما حلّ بي حرا
زكياً جليلاً فاضلاً يدفع الضراً
له الطلعة الغراء والصولة الكبرى
فأضحى سراج الملك أعظم به فخرا
فما حاكت الحصباء في نظمها الدرا
بسكاتها تنحط أو عظمت قدرا
ولا يجلب المعروف في أهله الشرا

وأنت بأحوال الورى ذو بصيرة
فأزمتي والت علي همومها
فأنشأتها والعقل مني ذاهل
ولما رأيت الدهر ليس له فتى
ولكنني عن درك معنك قاصر
أرني نزر مدحي في سواكم كثيرة
فدونك عذرا تجتلي من خدورها
فلا زلت للمعروف في الخلق ساعياً
ومن شعره أيضاً قوله :

لعل زماني بعد ما جار أنصفا
وكدر لي عيشي سنين تطاولت
وكل فتى وافى له السعد كاملاً
ولي موعد في نيل ما رمت صادق

ومن شعره في بعض الشيوخ :

وقاموا على ساق لضيق الأماكن
لماوى فنتيح بالذرا بالمساكن
وما ينسب إليه من الشعر قوله :

شاكير لا عفواً ولا غفراناً
قد كان جباراً عنيداً فاجراً
أضحى جماداً في جمادى ذاهباً
من ربه يلقي ولا إحساناً
لا ذاق من طعم الرضا رضواناً
وغدا له التاريخ : (شرابانا)

304 - خالنا الشيخ أبو الحسن علي الرياحي

نشأ هذا الفاضل في بيت علم وتقوى يتمسح بأركانها ، ويلتمس النجاح في ظل
بنيانه فطلب العلم ، وأحرز من قسمه أوفر سهم . فظهرت براعته ، وفاق في المعارف

مقوله ويراغته . فتصنر لإفاة ببا ع مءءء ، وفكر فف الءءرفر والءءبفر ءءفء . وءان ءواءه فف الأءب لا فشق ءبارة ، ءء سارء مسفر الأمءال أشعاره . سابق أقرانه فسبء ، وانسء بءفءه عءء العلوم واعءلق . لما ءوفف أنءوه أبو عبء الله محمد الطفب انءءبه المشائء النظار لولافة الءءرفس عوضه ، وءلك عن اسءءءاق لها بعء ءبصرهم لا عن مراعة لوالءه عالم العصر وبركة المصر . ولما ورفء مءءوب المشائء النظار إلى الأمفر أحمد باشا ، أسر إليه ففما فقال الشفء أبو عبء الله محمد بن سلامة بأن فف علماء ءامع الزفءونة من هو أءق بالءرس من صاءب الءرءمة ، فأوقف الأمفر ءنففزه وءاب الساءة النظار بأنه بلغه أن فف علماء ءامع الزفءونة من فطلب المناظرة وعفله فلهمءنوا من أرادها طبء الءرفب فف معلقة الءءببس إءراء لءصه . وءان المرشح لءطة الءرس بلا نراع عم والءف العلامة المءقق أبو الفلاح الشفء صالح النفر وفله طبقة أخرى منهم العالم أبو محمد الشفء عبء الله الءراءف ، فأعلمهم النظار بءلك طبء المءءوب الأمفر ، فأنءروا أن فكون ففهم من طلب المناظرة وامءنعوا منها مسلمفن لصاءب الءرءمة ، فكءفوا الكءابة بءطوطهم فف ءلك ، فكءب الشفء أبو الفلاح المءءور ما مضمنه أنه لا فنازع ابن شفءه وشفءه شفءه فف الءرس وإن ءلك عن رضاً منه لما فعلم من اسءءءاقه . ولما عرضء الكءابة على الشفء عبء الله الءراءف فمن بعءه ءابعوه على ما كءب وأعلم بءلك الأمفر فأصءره أمره بولافة صاءب الءرءمة ولءء ءازف الله سبءانه الشفء أبا الفلاح عن هذا البرور الءف شكره على الءالء ءل وعز وءلقه بأن أورءه رئاسة الفءوى المالمكة وءطابة ءامع الأعظم ءامع الزفءونة وهما وظففا شفءه أبف إسءاق الرفاءف الءف برّبه وقلّما ءءمما لفره . وفف ءطابة ءامع أبف محمد الءفصف عوض أخفه ، ءمع ءطب والءه للعام الأول من ولافته ءطابة ءامع الزفءونة ، وءمع شعر والءه فف ءفوان وله ءقارفر نففسة على كءبه فف عءة علوم ، وءان فقفها نءرفراً ءسن الأخلاق عزفر النفس عالی الهممة نقى العرض ءطفءه فء المنفة وهو فف زهرة شبابه فوم ءامعة فف 13 ءف الءءة سنة 1268هـ ، وءفن ءءو أبفه بالزاففة الءف أنشاءها للورء الءءافف بءوانفء عاشور . من شعره مشطراً ارءءالاً ومءفلاً :

(للورء	عنءف	مءل)	وءمة	لا	فءل
وشمه	كل	وقت	(وظففة	لا	ءمل)
(كل	الرفاءفن	ءنء)	بظله		ءسءظل
فهو	العف	مقاماً	(وهو	الأمفر	الأءل)

وإن غاب عزوا وتاهوا حتى إذا جاء ذلّوا

وكتب لبعض الأدباء :

إن الثناء عليك قد بلغ السما حتى سمعنا بحر شعرك قد طما
من كان مثلك فلتجىء آدابه درراً ليدعن خصمكم ويسلما

ومن شعره يهني والده بختم القسطلاني على البخاري :

تبلج في أفق العلى طالع السعد وفاح شذى مسك يفوق نختامه
أو الروض إذ يزهو بحسن ابتسامه وأسفرت الأيام عن وجه بشرها
تذكرنا عهد الصبا وغرامه رعى الله تلك الغايات ولا أرى
لهن جين كالصباح بياضه وحاجبهن السيف لكن إذا جنى
وقد نثر الخيلان من حبر عنبر لك الله ما أحلى التغزل في الهوى
إمام أغرّ الوجه كالشمس في الضحى إمام إذا ما كنت في روض درسه
إمام لو أن الله يهدي بنوره ترى رأيه كالسيف في كل حادث
له رتبة لو حاول البدر نيلها غداً مثلاً في الحلم والعلم والتقوى
ألا يا أبا إسحاق والفاضل الذي إليك من السحر الحلال قصيدة
خدمت بها يوم الختام لعني ودمت مناراً في الشريعة هادياً

كسا حلل الإسعاد وأيمن والرشد نسيم الصبا جاءت برياً ربا نجد
فيحبي بريحان الأزاهر والرند كما أسفر المحبوب عن وردة الخد
وما قد رشفنا في الثغور من الشهد سوى أنهنّ الحور من جنة الخلد
يلوح سناه تحت فاحم مسودّ فليس قصاص يلزم الحرّ في العبد
بديع جمال لم يكن خط بالأيدي وأحسن منه مدحة العالم الفرد
وكالزهرة الحسناء في دوحة المجد رأيت نفيس الدر ينظم في العقد
لكان جميع الناس من نوره مهدي ورأي سواه لا يعيد ولا يبدي
لكانت عن الإدراك في حيز البعد كالك كالصيري كالأحنف السعد
مزاياه قد جلّت عن الحصر والعدّ تأنق في إتقان صنعتها جهدي
أقابل بالرضوان منك وبالود تبلغ من نيل المنى غاية القصد

ومن شعره ما قرّض به رسالة والده المسماة قطع اللجاج :

قطعت لجاج الحيف ميلاً إلى الحقّ
 وقت فينت الصواب فأنكروا
 أينكر ضوء البدر حين كماله
 فلا زلت في الدنيا مؤيد شرعنا
 يجاه رسول الله خيرة خلقه
 فأجابه والده رضي الله عنه بقوله :

جزاك إله العرش كل كريمة
 تسر بها في الدهر بالعلم والرزق

وأجابه أخوه الشيخ محمد الطيب بقوله :

يمينا بما تحوي من النبل والحدق
 وفي هذه الأبيات أعدل شاهد
 لقد أنبأت فيك الخيلة بالصدق
 بأنك تستولي على أمد السبق

كما أجابه الشيخ الباجي المسعودي بقوله :

أما والذي حلاك باللطف والحدق
 وما أنت إلا غصن دوحة سؤدد
 فقويت بالإحسان عن شكر سيد
 لقد بتّ تستولي على أمد السبق
 وبدر كمال قد تطلّع في الأفق
 سرى نوره الوهاج في الغرب والشرق

ومن شعره يمدح الأمير محمد باي وهو إذ ذاك ولي العهد ، ويصف براعته في
 الرماية حسب اقتراحه عليه وكان بينها سابق وداد :

بجمال غرة وجهك الأسنى الجلي
 وغلوت في كنف السعادة سائراً
 وترى البسيطة في انبساط كلاً
 ومن العناية لاحظتكم حياً
 فاليمن عبلك من يمينك قائم
 ولكم تراءت في الوجود محاسن
 ملك تعود بالنوال فكفه
 حتى أضاف الوحش في فلواتها
 سعد الورى والدهر أقبل في الحلي
 كالبدر يتزل متراً في متزل
 مرّت كتابك الكتيبة تنجلي
 مصحوبة بكمال سعد مقيل
 وعلى يسارك يسر كل مؤمل
 لابن الحسين الحائر الشرف العلي
 تنهلّ واكفة بما لم يسأل
 وسقى دم الرئبال نبت الجيال

في يوم صيد هاج حرب هياجه
 نفسي القلاء لمن حوى فيه المدى
 ما عنّ فيه طائر أو واقع
 يرمي فيصمي ماشياً أو راكباً
 فإذا نظرت إلى مجال طراده
 عجباً أكان ثقيله ذا فطنة
 لو ساعدته إلى المطار سبوحة
 جمعت صفات الخيل ثم ترنت
 كرمت فكانت للكرم وقلها
 يا فارس الفرسان غير مدافع
 يابن الحسين محمد المولى الذي
 إن الفروسة والرماية دون ما
 فعلام ترمقك العيون حسادة
 وبقيت في مجد وعزّ باذخ

لله من يوم أغر محجل
 وأبان آية مجده المتائل
 إلا رماه بالقضاء المتزل
 متأملاً أم ليس بالتأمل
 لم تلف غير معفر ومجندل
 أم كان فيه مغنطيس المقتل
 شنّ الإغارة بالسّمك الأعزل
 بجلى الغزاة وازدهت بالأجدل
 تجد الشيه لغير مشبهه ولي
 وأجلّ من نيطت حلاه بمجمل
 ورث السيادة أفضلًا عن أفضل
 لك من حلى الحمد الأعزّ الأطول
 حشيت مآقيا تراب الجندل
 ومسرّة ودوام خير مقبل

ولمّا عرضها على والده رحمه الله زاد فيها بيتين نصّها :

وبقيت محروس المعالي وادعاً
 أبقي الإله عليه دولة عزّه
 في ظل سلطنة المشير الأكمل
 وأدام عزّك في رضاه الأجل

حتى لا يخلو مدح ولي العهد من ذكر الأمير .

وفي سنة 1263هـ ، غارت بئر بستان والده بالمرسى وهو إذ ذاك به لتبديل الهواء ،

فقال صاحب الترجمة في ذلك يخاطب والده :

يا إماماً حويت كل المعالي
 هكنا هكذا بحارك حتى
 وارتنى في العلا منار افتخارك
 غارت البئر غيرة من بحارك

305 - الشيخ أبو حفص عمر بن سليمان

من الفضلاء الجلة ومن أهل التقوى والسلوك . كان خيراً معتقداً ، يذكر بالتسديد والتعظيم ، وله مشاركة علمية محمودة تجاني الطريقة ومن مقدميها الأوائل بتونس ، وله شعر يبلغ مرتبة الإحسان . توفي رحمه الله ليلة الأربعاء في ذي القعدة الحرام سنة 1271هـ . ودفن بداره الملاصقة لزاوية التجانية الكائنة بنهج طرنجة قرب قشلة زاوية . فن شعره مهتماً الوزير مصطفى خزندار بينائه بالأميرة ابنة الأمير مصطفى باي أخت الأمير أحمد باشا باي لأبيه هذه الأبيات ونصّها :

بناء به نلت الأمانى واليمنى	وقاد لك الإسعاد ما عشت والأمنى
لأنك صاهرت الأمير الذي له	مزايا حسان من مواهبه الحسنى
فبت على حال المسرة والهنا	وكل حسود بات من كمد مضني
يعضّ على كلتي يديه من الأسى	ويقرع مما نال من حسرة سنأ
بناء عزيز جاء يسرع بالرفا	وسوف ترى ما قد يسرّ من الأبناء
أبا النخبة الأرضى الذي يجميله	على حالة حسنى نسرّ بها صرنا
تُهني بما قد نلته من مزية	خصصت بها زادتك في القدر والمعنى
بها عمر وافى بتهنئة له	يهني بها حباً جنابكم الأسنى
هو ابن سليمان الذي لجنابكم	إليه انتساب عيشه بكم أهنا

306 - أبو العباس أحمد بن محمد الكيلاني

أصل سلفه من طرابلس ، وقدم أبوه إلى الحاضرة التونسية لطلب العلم لدى علماء جامع الزيتونة ، فأخذه عن أعلامه فاستفاد وأفاد . ثم باشر التوثيق فكان من فحولته . أما ابنه صاحب الترجمة ، فنشأ ناسجاً على منواله في الفضل والنبيل . ولد رحمه الله بتونس حوالي سنة 1190هـ . وتوفي يوم الاثنين في 26 جمادى الآخرة عام 1272هـ ، وقد نيف على الثمانين . كان أديباً أليماً مشاركاً في العلوم . وقال الشيخ أحمد بن أبي الضياف في تاريخه أنه كان عالماً ذكياً فصيحاً بليغاً أديباً خيراً عزيزاً عالي الهمة حسن اللقاء وجيهاً ، قرأ

على والده مبادئ العلوم ، ثم أخذ بالجامع الأعظم عن أعلامه كالشيخ صالح الكواش وغيره ، وتضلّع بالفنون العقلية والأدبية ، وكان يلزم مباشرة التدريس في الجامع الأعظم وأكثر دروسه في النحو والبيان . وانتفع به الجم الغفير . له في الفقه درجة وله قدم راسخة في الأدب . كان متصباً للتوثيق ، وولي الشهادة على دار البارود بالقصبة ، وولي مشيخة المدرسة الجاسوسية ثم المدرسة الحسينية الكبرى ثم تنازل عنها لابنه . وقال غيره في شأنه أيضاً ، أنه كان تقي العرض آية الله في المحاضرة بالتاريخ والفنون الأدبية فاضلاً وقوراً . له شعر يسع مجلداً عظيماً ١٥٠ .

فن شعره يرثي الأمير محمود باي :

هي المنية لم ترهب ولم تهب	تسطو على الأسد والاقبال في الحجب
كم من قلوب غدت منها ممزقة	ومن جفون تفيض الدمع كالسحب
هيات لا سوة تبقى ولا ملك	كل يصاب بهذا الحادث الأشب
فليسع ذو بصر فيما يقربه	إلى النجاة ويحميه من العطب
كما سعى في طريق الرشيد مجتهداً	نجل الرشيد جليل القدر والنسب
محمود من حمدت في الناس سيرته	زعيم آل حسين شامخ الرتب
بيت الفخار الذي طالت دعائه	حتى ارتقى شرفاً عن منزل الشهب
هذي الجدود وقد أغناه ما كسبت	يمينه من عُلَى عن قول كان أبي
دعاه داعي المنايا فاستجاب له	ولم يبال بمُلك لا ولا نشب
وسار في أثر الإمراء محتفلاً	بما يؤمل للمخلوق في العقب
لله يا رمس كم وارت من شرف	ومن عفاف ومن مجد ومن حسب
فأسعد يحسم عليك راق منظره	وطاب مخبره في العجم والعرب
لما انقضى نجه أنشا مؤرخه:	محمود حن لفوز الخلد في رجب

سنة 1239هـ

ومن شعره يمدح الشيخ محمد الأصرم رئيس الكتبة :

ما ماس بان التقي أوهب عرف صبا	إلا وقلبي إلى ذكر الحبيب صبا
حرمت عن مقلتي طيب المنام لمن	حاولت من طيفه عوداً لنا فأبى
فبت في قلق والجفن في أرق	والقلب في حرق لم يألف الطربا

من اللوع وقلب بالجوى الثها
 حسي من الشوق أن العقل قد ذهبا
 هيات أن يستوي من جدّ أو لعبا
 عن الرقيب ففاض الدمع وانسكبا
 إلّا وفيض دموعي ينجل السحبا
 إلّا التجأت إلى سيف العلى هربا
 في الأوج شمّ علاه الأنجم الشها
 حفظ غزير وحاز العلم والأدبا
 إلّا الحياء وإلّا الفضل والحسبا
 إلّا ونور سناه صار محتجبا
 إلّا اكتست نجلاً وضوءها انقلبا
 يستغرق العدّ في إحصائها كتبا
 تعزى إلى دوحة قد ارتقت حسبا
 فصاحة بذراها سدتم العربا
 من درّه أبداً يلتقط الأدبا
 لظلّ من صوغه يشدو به طربا
 معالم العزّ منه وانطوت حقبا
 منه العقول وأجلّ عنها ما احتجبا
 من العويص أزال الشكّ والربيا
 يتأّ دعائمه تطاول الشها
 مكارماً دونها طرف المعالي كبا
 والمجد من أصلكم يستكمل الحسبا
 وماجداً فضله قد أنجل السحبا
 شحّ الغمام به أو ماؤه نضبا
 حتى بلغت به أقصى العلى رتبا
 وقد كساها الحيا من حسنكم رهبا
 عن واضح درّه قد خالط الشبا

هذا وللصبّ أجفان مقرحة
 يا صاح كم بفؤادي من تنافرها
 لا يدعي شقّي من كان ذا كلف
 أخفيت شرح غرامي يوم رؤيته
 ما لاح برق الثنايا من مقبله
 أو سلّ سيفاً صقيلاً من لواحقه
 محمد الأصرم النحرير من سبقت
 أعني الهام الذي ضمّ الذكاء إلى
 والألمي الذي لا علم ينقصه
 من معشر ما رآه البدر محتفلاً
 أو قابلت وجهه شمس النهار ضحى
 يا ابن اللين إذا عدت مناقبهم
 فانت ذو نسبة في الفخر سامية
 من منحج مجلها قحطان أورثكم
 فلو رأى تركم عبد الحميد غدا
 ولو رأى الملك الضليل نظمكم
 أحيت سوق القريض بعدما اندرست
 له يراع متى ما هزه اضطربت
 أو جال فهم له في حل مشكلة
 كن كيف شئت فإن العزّ أورثكم
 وانهض إلى رتبة أبوك حاز بها
 فالحم شيمتكم والفخر نشاتكم
 يا فاضلاً علقت بالمجد همته
 بفيض كفيك يستسقى السحاب إذا
 ما زلت ترغب في فخر تشيئه
 وماكها روضة بالحسن باهرة
 مالت إليك بقدر البان وابتسمت

من فكر مضني كسير القلب منصدع
يشكو إليك زماناً أنت تعلمه
فاغفر لها يا وحيد العصر زلتها
ولا ترعها بنقد من جواهركم
بقيت والمربع المعمور ممتلىء
قد صار من وثبات الدهر مكسباً
وحاجة غيركم في نيلها لعباً
فالغفر من حلمكم يلقى إذا طلبا
فإن في عندها ما يملأ الكسباً
بالوافدين وأتم مئة الأدبا

ومن شعره ما كاتب به شيخ الإسلام محمد يريم الرابع في 15 شعبان سنة 1258هـ
يستعير منه كتاباً .

يا رابع الأعلام يا من عدله
وغدا به بين الوري في رفعة
إني قصدتك للتفكك طالباً
إن لم يكن لهذا لديك بغيره
في حكمة قد ذاع في الآفاق
منها إلى أوج الهجرة راق
فامنن عليّ بثمرة الأوراق
يلقى لسقمي عاجلاً كالراقي
فأجابه الشيخ يريم بقوله :

يا أيها العلم الذي كلماته
قسماً بمن سوى السماء ومن هوال
إن الذي طمحت له آمالكم
بل مارأيت نظامه يوماً ولا اكتحل
ولو انه عندي لعاجل سعيه
وإليك قد وجهت تزهة خاطر
وكساك من حلل الشفاء إلهنا
تزري بعقد الدرّ في الأعناق
بحكم المهيمن والعزير الباقي
لم أحوه في زمرة الأوراق
ت يائمد رقه أحداقي
لقياه لحظة بارق خفاق
تسمى لحضرتكم على الآفاق
ما يذهب الشكوى على الإطلاق

وكتب إليه الشيخ محمد يريم الرابع المذكور ملغزاً في سيف :

أيا رفعا في عصره راية الشعر
أين أي شيء قد يجرّ إلى الردى
فإن فاؤه زيلت وجيء مكانها
وإن أبليت حرفاً سوى ذا فإنه
وتصحيف ذا يا صاح أمر محبب
ومن حلّ في أهليه مرتبة البدر
وثلاثه بعد العكس من أحرف الجر
بحرف فهو شخص مقابل بالبشر
زمان قصير الجنح يأتي مدى الدهر
تراقبه العشاق في أمد الهجر

فما هو إلا ما أنالت يد القطر
وفي بعضها فعلان من غير ما نكر
وسابقه فعل يضاف إلى الأمر
ومن بعد ذا إلا الصراحة في الذكر
تعال الذي ترجوه في السر والجهر

وإن حلّ لام في محل لفائه
وأساؤه أضحت تعدّ كثيرة
فتأنيهاً فعل صريح مقاله
فها نحن بينا عوارض لفظه
فبينه لي واسلم بقيت مرفعاً

فأجابه صاحب الترجمة بقوله :

ويحيى فأحيى من سقام ومن ضرّ
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
يحاجي بما قد راع من نظر شزر
أقيساً أردتم أم شعاعاً من الجمر
بدال فذا وصف لكم منتهى العمر
لدى شرف الجوزاء لا مطلع البدر

لقد زار من أهواه غباً على هجر
تهددني عيناه بالسيف بعدما
وما أنسى لا أنس معاه إذ أتى
فقلت مجيئاً بعد قلب مصحف
وإن شتم إبدال لام لأصله
وهاك جواباً لا عدتم ميوءاً

وكتب إليه شيخ الإسلام المذكور أيضاً ملقزاً في حسن بقوله :

تربو على مطلع الزهرا وكيوان
تجدهما حصلاً في كل إنسان
على المطهر من أبناء عدنان
فذاك ما طوله يؤذي بأبدان
مكمل الحسن لا يرمي بنقصان

يا من له في سماء العزّ منزلة
بين لنا علماً ثلاثه إن فصلاً
وثلثه سورة في الذكر منزلة
وعينه إن وضعت الزاي موضعها
فاكشف معاه واسلم للعلی قرأ

فأجابه صاحب الترجمة بقوله :

هيفاء تحكي قوام الرند والبان
ولا انثت للكيب المؤلف العاني
قلبي يحدّثني فيها بسلوان
والدمع منسجم يزري بهتان
والروح في حزن منها وأشجان
عمّت بقول بديع اللفظ فتان

زارت على غفلة من بعد هجران
حوراء ما سمحت يوماً بموعدها
لا أستطيع عدولاً عن هواها ولا
قد غازلني بلغز من محاسنها
وفوقت لفؤادي قوس حاجبها
فصرت أقرع بالتخمين سنّي مذ

وهاك نسخاً لنسج رائق حسن من بعد قلب وتصحيف وإمعان
واسلم بقيت مدى الأيام في شرف يحكي سنا الشمس لا الزهرا وكيوان

وأرسل إليه شيخ الإسلام المذكور أيضاً ملغزاً في مصباح :

أياً مرسلأ من لفظه قرقفاً صرفاً ويا موقظاً جفن الزمان وقد أغفى
أحاجيك في شيء يجالس معشراً ولم يسمعوا من فيه عدلاً ولا صرفاً
وإن شئت قل بيدي غريب مقاله لمن رام من مختار ألفاظه الكشفا
وان زال من منظوم مبناه أول فذلك شيء أمره قط لا يخفى
وخمسه بعد القلب وصف لمن غلوا خيارى وإن كررت بينهم الصحفا
وشم ثاني الخمسين مع تلوه تجد فتى شاقه رم له مقل وطفى
مرادفه إن أنت أسقطت ربه تجد خشباً تمتاز عن جنسه صنفا
وإن ألفاً أسقطت منه فإنه غدا آله الفرسان من ركبوا الطرفا
وتصحيف ذا إيضاح ما كان مغلقاً فيكسوه من تحرير تيبانه كشفا
أين ذا لنا واصعد على رغم حاسد إلى رتبة لا أستطيع لها وصفا

فأجابه صاحب الترجمة بقوله :

أتى طيف من أهوى بليل وما أظفا لواعج نيران مدى الدهر لا تطفأ
فقلت لليلى عندما لاح زائراً أيلتنا إذ أرسلت وارداً وحفا
وبات يحاجي بالسراج وقد أتى مرادفه في سورة النور لا يخفى
وقلب لحمسيه يكون رضاؤه بموقف يوم الحشر للمقتني كهفا
وهاك جواباً عن قرحة عاجز أتى مستمداً من علائكم عطفاً

ومن شعره يرثي سيدي حسن الشريف بقصيدة طالعها :

أيا عين فيضي واهطلي بسجام أمام ضريح ضمّ أركى إمام

منها قوله :

تأليفه قد طار في الأرض صيتها بتحرير أبحاث وحسن نظام

وختامها قوله :

عليك سلام الله ما هبت الصبا وما لاح برق من خلال غمام
مدى الدهر ما قد قال فيك مؤرخ : فله من رسم لأسمى همام

1234هـ

ومن شعره ما كتبه على آخر ورقة من كتاب الموافقات الذي نسخه بخطه لابنه :

كتبته لولدي محمد يدعى الأمين
عساه أن يذكرني والجسم في التراب دفين
واسأل الله الرضا لي وله في كل حين

307 - جدي أبو عبد الله الشيخ سيدي محمد النيفر شيخ الشيوخ

ولد هذا التحرير سنة 1222هـ في بيت شرف ومجد ، ورثه الخلف عن السلف ،
ينتهي نسبه إلى أحد أسباط القطب الكبير العارف بالله أبي العباس سيدي أحمد
الرفاعي الحسيني رضي الله عنه . ترامت بسلفنا الأوطان إلى أن قطن جدنا صفاقس ،
ثم انتقل جدنا الشيخ أبو النور وسكن تونس حدود سنة 1110هـ .

ونشأ صاحب الترجمة بين يدي والده التالي لكتاب الله التاجر المثري
الخير أبي العباس أحمد بن قاسم النيفر ، معتنياً بتربيته ، فحفظ القرآن المجيد
وسنه اثنا عشر سنة ، وكانت سيماء الخير ومخائل النجابة تلوح عليه ، فأراد
أن ينقله من المكتب إلى طلب العلم بالجامع الأعظم ، فأشار عليه مؤدبه الفقيه
التالي الشيخ أبو عبد الله محمد القسنطيني بإبقائه بالمكتب ليحفظ المتون العلمية
حيث كان سنه إذ ذاك يقصر عن طلب العلم بجامع الزيتونة ، فأبقاه فحفظ
جملة من المتون كالمرشد المعين وألفية ابن مالك والجوهرية وتلخيص القزويني
ويتعاطى مع ذلك مبادي العلوم خارج جامع الزيتونة على بعض الشيوخ . ولما
بلغ أربعة عشر من عمره طلب العلم بجامع الزيتونة بمطالعة والده حيث
كان من العطارين الكبار ودكانه أمام الجامع المذكور ، فطلب العلم بجد
وانقطع إلى ذلك الجانب ، وفي مدة غير بعيدة ظهرت نجابته فاعتنت
به شيوخه واثقلت بروق تحصيله وبذ الأقربان . وجلّى في ذلك الميدان ،
فتصدّر للإقراء بجامع الزيتونة بإذن شيوخه على حدائثه سنة . ألف رسالته
الفقهية في مسألة جواز قربان المرأة إذا تعذر عليها الاغتسال بعد الطهر

فحرر المذهب المالكي فيها وسنه إذ ذاك ثمانية عشر سنة . وكان شيخه أبو عبد الله محمد بيرم شيخ الإسلام الثالث معجباً به ، فكان كثيراً ما يأتي لسماع درسه . وكان يقري شرح المحلى على جمع الجوامع فيجلس خلف الحلقة من غير علم صاحب الترجمة ، فيقوم مبتهجاً ويقول : ما رأيت مثل طريقته في إلقاء الدرس راحة وترتياً وإيضاحاً وتحريراً ، لو ملك التلميذ نفسه ولم يستعجل بالسؤال لم يحتج إليه . وكان شيخه أبو عبد الله محمد بن الخوجة شيخ الإسلام إذا سمعه يقري بقول لله درّه هذا معنى راحة العلم ، صارت مسائل الدرس في عينه ضرورية . ولي التدريس بجامع صاحب الطابع بالخلفاوين . ولما رتب الأمير أحمد باشا اللروس بجامع الزيتونة ، كان مقدّم المتخين لذلك . وولي إمامة ووكالة جامع باب الجزيرة الداخلي المعروف بمسجد القنيطرة وهو الذي بنى صومعته حيث وقع تداعياها ، فأجلدها من ماله حيث لم يكن في ريعه وفاء . وولي قضاء المحلة وباردو وقضاء الجماعة يوم الأحد في 15 صفر سنة 1263هـ ، وأحضر الأمير أحمد باشا يوم ولايته شيخ الشيوخ سيدي إبراهيم الرياحي باش مفتي المالكية وأعلمه بولايته خطة قضاء الجماعة قصداً منه للتتويه بشأنه . فأثنى على دينه وعلمه ، فقام بأعبائها . وكان لورعه وخوفه كثيراً ما يدعو الخصمين إلى الصلح تفصيلاً من إبرام الحكم بينها مع تثبته وقوة عارضته في التطبيق ، وحاول الاستقالة منها فلم يسعفه الأمير أحمد باشا . فلما توفي شيخه أبو إسحاق الرياحي باش مفتي المالكية ، وجد فرصة فالح في طلب الإذن في الحج ليتوصل إلى أداء الفريضة ثم التفصي من خطة القضاء . فأذن له الأمير المذكور بعد أن عزم على إبقائه فيها وبنوبه بعض المفتين مدة مغيبه حتى سأل أبا عبد الله الشيخ محمد بيرم شيخ الإسلام الرابع هل يعلم في التاريخ من أذن من الملوك لقاضيه في الحج ، فلم يعرف ذلك الشيخ بيرم ، فنقله حيثنذ إلى خطة الفتوى يوم الأحد في 25 رجب سنة 1267هـ ، وأصدر منشور ولايته موشحاً بالثناء عليه والشهادة له من إنشاء كاتب سرّه ابن خطيب زمانه الوزير الشيخ أحمد بن أبي الضياف ، وطلب الأمير أحمد باشا من صاحب الترجمة أن يباشر الحكم بين الناس مثل القاضي ويحكم بداره وكتب الإذن له بذلك بمنشور ولايته ولم يكن ذلك لغيره نقل المنشور المذكور بنصّه لتتمام الفائدة من خط منشه المذكور .

الحمد لله ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم ، من عبد الله سبحانه ، الراجي عفوه وغفرانه ، المتوكل عليه ، المفوض بجميع الأمور إليه ،

المشير أحمد باشا باي سدّد الله تعالى أعماله ، وبلغه من إعزاز الشريعة آماله . إلى من يقف على هذا المشور ، والخطاب المحرّر المسطور ، الذي بني على الحق أساسه ، ودلّ على ما يرضي الله تعالى التماسه ، وزكّت فصوله وأجناسه ، من أهل مجلسنا العلي بالشريعة المحمدية ، ونوابنا في القضايا الدينية ، وأبنائنا أمراء الأمراء ، أعيان الوزراء ، وأمراء الألوية وأمراء الآليات ، وقائمي المقامات ، وأمناء الآليات ، والينباشية ، وسائر الأجناد العسكرية ، والقواد والمخازنية ، وأولي الولايات الشرعية والعرفية . شرح الله تعالى للحق صلورنا وصلورهم ، واستعمل فيما يرضيه أميرهم ومأمورهم .

أما بعد ، فإن الفاضل الكامل القدوة الحجة العلامة التقي الأورع الماجد المحقق الزكي محبنا الشيخ سي محمد النيفر ، باشر خطة القضاء بحاضرتنا فأعطاهما الحق وزيادة ، واستمنح بذلك من الله تعالى المثوبة والسعادة . فنقلناه إلى خطة الفتوى ، وعضدنا به ركنها الأقوى ، ليحكم بين الناس في النوازل الشرعية ، والقضايا الدينية ، بمذهب إمام دار الهجرة ملك بن أنس رضي الله عنه وعن سائر الأئمة ، فليقم بخطته عالماً بمقدارها متصفاً بما يحمد من آثارها ، وأجريناه مجرى أمثاله في سائر أحواله وأعماله ، وأوصيناه بتقوى رب العالمين ، عملاً بقوله تعالى : «وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» ، كما أوصينا له بالتعظيم والإجلال ، وصون منصبه الشرعي عن الإخلال ، وعلى من تدبر هذا المقال ، أن يعرف مقدار هذا الكمال ، الواجب لأهل العلم في كل وقت وعلى كل حال ، والأمر لله الكبير المتعال . وكتب يوم 25 الأحد الخامس والعشرين من رجب الأصب سنة 1267هـ 1هـ . ثم أعلمه الأمير أنه يريد أن يصحبه بصر الحرمين ، وكان ذلك إذ ذاك عنوان التبجيل كما كان فعل مثل ذلك سلفه مع جدي شيخ الشيوخ سيدي إبراهيم الرياحي ، فسلمت إليه وأركبه بريك النسر أفخم مراكب الدولة تنويهاً به بقيادة السيد دلوار ، أبلغه إلى الإسكندرية وأذن الأمير بأن كل من يأذنه صاحب الترجمة من السفر بالركوب يركب مجاناً ، فركب من حجاج الأباله جم غفير . ولما ورد مصر احتفل للمقاه العلماء وأتوه للزيارة ولقاه عزيزها عباس باشا الأول إكراماً وأذن أن يكون سفره إلى السويس على نفقة الدولة . ولما رجع من حجّه إلى الحاضرة أقرأ تفسير القاضي الفيضوي بباب الشفاء أحد أبواب جامع الزيتونة تحت المعلقة هناك ، فكان درسه جامعاً لأعيان العلماء والمترسين . فأتى بالعجب العجاب حسبما تلقيت ذلك عن تلاميذه الكثيرين الأعلام كالعلامة الهام أبي العباس أحمد بن الخوجة شيخ الإسلام والمفتي أبي العباس

الشيخ أحمد بوخريص والمفتي الشيخ أبي الفلاح صالح بن فرحات وغيرهم . وسطره
 المؤرخون كالوزير أبي العباس أحمد بن أبي الضياف في تراجم تاريخه والماجد الفاضل أبي
 عبد الله محمد بيرم في صفوة الاعتبار ، ولم ندرك في جامع الزيتونة من تخريره من لم
 يفخر بالقراءة عليه ، ويتسبب في متانة علمه إليه ، ومع هاته المكاتبة العلمية كان نقياً تقياً
 زاهداً في الدنيا عابداً ، يقوم الليل من سن الحداثة إلى أن توفي محبباً جميل الأخلاق
 والحلق ، يعفو عمّن ظلمه لا يذكر بمجلسه أحد بسوء ، لا يفتر لسانه عن ذكر الله
 تعالى . حجّ ثلاث حجّات ، انتشر صيته حتى كان اسمه مع اسم شيخه سيدي إبراهيم
 الرياحي علماً وتقوى ، فيظن من لم يعرفها أنها طبقة واحدة يتبرك به ويلتمس منه
 الدعاء . اخترته المنية في سن الكهولة في حجّته الثالثة بعد أن حجّ بالمدينة المنورة ،
 فرض أياماً وتوفي يوم 12 الأحد من المحرم فاتح سنة 1277هـ عن أربع وخمسين سنة ،
 ودفن بالبقيع قرب قبة الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، بمقربة
 من قبر إمامه مالك بن أنس رحمه الله تعالى . وله محرّرات منها : حاشية على النخبة
 للحافظ بن حجر في علم المصطلح ورسالة في القصر وأخرى في حكم البسملة في الصلاة
 المفروضة وأخرى في مسألة قربان المرأة بعد طهرها وقبل الاغتسال ، ومختصر في علمي
 العروض والقوافي ومحكمة بين العالمين الشيخ محمد بن سعيد محشي الأشموني والشيخ عمار
 الشريف القسنطيني في ضعف الاستدلال على عرضية العقل ومحكمة أخرى في مسألة
 كلامية بين الشيخ حمودة بن عبد العزيز والشريف عمار المذكور . أما فتاواه فكثيرة
 وأختامه الخليلية قرّة لأعين العلماء ، أفردت ترجمته بتأليف مستقل ، وكان يقول شعراً
 غير كثير جيّد السبك محكم النسيج منه قوله متلماً على قبوله خطة القضاء ، ويرجو
 الخلاص منها كفافاً شأن المتقين ، وضمن قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله
 تعالى عنه .

فلو انني استقبلت من أمري الذي لعمرى قد استديرت ما كنت قاضيا
 ولكها الأقدار تجري على الورى بإرغام ذي كره ومن كان راضيا
 ومن يلتمس غنماً فغني تخلص وأنجو كفافاً لا علي ولا ليا

ومنه مقرّضاً نظم الأجرومية لبعض الناس المتسيين في آل البيت النبوي وقد عرضه
 عليه مستجيزاً :

لفتح علوم الشرع يرقى بذنا النظم
 حوى أصله الأسنى بعقد منضد
 إلى مثل جلّت وحسن وجازة
 على أنه إملاء شيخ مؤيد
 فطبتم أهل البيت نفساً وسيرة
 ونمسي فلكم مغلياً ما أهمكم
 يدور رضاكم بين خير فضيلة
 أعفأ خلقاً عن سفاسف زخرف
 بلوذ بكم خوفاً محمد نيفر
 ويدنو بإذن الله للحفظ والفهم
 يجيد جيود الجدّ في طلب العلم
 يرق لها المعنى إلى واضح الرسم
 شريف نصوح تابع أثر القوم
 ودمتم لدى العلياء في أنفذ العزم
 بأنفس أخلاق الكرام أولي الحلم
 وفاضلة منها لنا ديمة تهمي
 يرى عند أهلها بها أوفر السهم
 فيا ربّ أمن خوفه زمن الحتم

واستجازه الشيخ محمد الكافي من بيت الشيخ السنوسي الكافي في إقراء العلوم
 بجامع الزيتونة فكذب له بخطه :

أجزت له الإقراء عوناً على البرّ
 ولا يهملني من جميل دعائه
 وأوصيه بالإخلاص والجد في الأمر
 وأضرع للوهاب في الفتح والسرّ

ومن شعره أيضاً ما قرّض به رسالة للشيخ محمد بن ملوكة في فواتح السور يقال :
 إن لشيخ الإسلام محمد معاوية شرحاً عليها :

حققت بذنا التحقيق يا قطب دهره
 وخضت بحاراً عجز الجمّ سبوحها
 وزنته بالتيان فوق منصّة
 وقد أخذ التدقيق منه بجامع ال
 يسير لها التنوير في كل لفنة
 ولسنا نبتّ أو نردّ رواية
 فتنزها يجزيك عنها رضاؤه
 لأسرار وحي المصطفى حقّ قدره
 ومثلك غواص البحار بسرّه
 كما تنجلي الحسناء حسناً لنشره
 قلوب فلا تهوى الركون لغيره
 تضاعيف شوق للحبيب وفخره
 ولكن نرى للصبح أضواء فجره
 وإرضاء من وشّحت سرّاً بذكره

308 - أبو عبد الله محمد بن محمد بن سليمان المناعي

أصله من دريد من أولاد مناع. قدم أبوه إلى الحاضرة لطلب العلم فأخذته عن
 أعلام وقته كالشيخ صالح الكواش وغيره. وله رحلة إلى حاضرة فاس اجتمع فيها

بالشيخ سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه ، ثم رجع إلى الحاضرة التونسية واشتغل بالتوثيق وغيره إلى أن استكبه الأمير حسين باي وترجمته مبسوطه في تاريخ الشيخ أحمد ابن أبي الضياف . أما ابنه صاحب الترجمة ، فقد نشأ بين يدي أبيه الفاضل فأحسن تربيته وسلك به طريق العلم ، فأخذه عن أعلام جامع الزيتونة عن والده المذكور وعن غيره من الفحول كالشيخ سيدي إبراهيم الرياحي وابنه سيدي الطيب وشيخ الإسلام سيدي محمد بن الخوجة حتى حصل على ملكة علمية ثم استكبه الباي بديوان الإنشاء فأبدع ما شاء مع جمال الخط . قال الشيخ أحمد بن أبي الضياف في ترجمته أنه كان أديباً كاتباً شاعراً مفلحاً يستوقف الأسماع ببدايع اليراع ، ذا فهم حديد وباع في الأدب مديد . حاز من المفاخر أوفر نصيب ورمى الأغراض بالسهم المصيب . وأضافه الوزير شاكير صاحب الطابع للخدمة معه ، ثم سافر مع أبي عبد الله محمد باي بالمحال ، فكان ما من جهة قام فيها إلا زانها وأعلى شأنها ما ثبتت من فصاحة وأدب وظرف وفهم سبق ردّ الطرف ومحاضرة تسحر الأفكار وتستوقف الأنظار وترري بالعقار . ومع هذه الصفات الواضحة وضوح النهار لم تساعفه في دنياه الأقدار وعاش حليف إقلال وإعسار وانفصل من الكتابة لعدم مواظبته على الخدمة والرزق بالتقدير لا بالتدبير اهـ .

توفي رحمه الله في شعبان سنة 1273 هـ . ومن شعره قوله يستنجز وعداً ويمدح :

أبي القلب يصحون هوى المقل الوطف	فيا لك قلباً ما دعاه إلى الخطف
حليف أسي رام التداوي من الهوى	تداوي أخي الصهباء بالقرقف الصرف
رمته عيون الغايات بأسهم	من السمر أنكى واليمانية الرعف
خذوا بلعي منهن كل خريدة	أسيلة مجرى الدمع مجدولة العطف
رعى الله أيام العقيق ولا أرى	إذا قلت لهني أن يعود بها لهني
لهونا بنزلان الصريمة نجنتي	ثمار المنى من كل قاهرة الطرف
فيا رفة بلجزع يوم تحمّلوا	رويداً فما أبقى بذاك على ضعفي
ويا نسمة مرّت بنعمان عرجي	علينا عسى في طيّ نشارك ما يشني
ويا عبرة تنهل ماء شؤونها	جري ما جرى مذ كان في ذاك ما يكني
أما في سمير الحسن عندك سلوة	فذلك فرد وهو يغني عن الألف
فتى صيرّ الرحان كفيه من ندى	تجسم حتى صار في صورة الكف
فتى متنه كالسيف إن جدّ جدّه	وكالماء منها شئت في اللين والعطف

يميل الهويني من أمام ومن خلف
يجبر ذوي الخلات والطالب العرف
وكالعنبر المفتوت في غاية اللطف
وليس كمن يبني الوعود على خلف
تفوق على الأتراب في الحسن والظرف
يمدحك فخراً فهي شامخة الأنف
لتجني ثماراً من يمينك بالقطف
عليك نفيس المدح يقصر كالوصف

كريم يميل الجود أبان ظلّه
فتى لا تراه الدهر إلا مولعاً
فتى كالسحاب الجون ينهل ودقه
فتى وعده لا ريب فيه لطالب
أيا سيدي خذها إليك بتيمة
سمعت لكم ترجو القبول وقد حوت
ثومل من جدواك إنجاز وعدّها
بقيت بقاء الدهر فرداً مخلداً

وقال يمدح الوزير الشيخ محمد الأصرم وتضمن الاعتذار والمخلص :

أفوق ما بان من ضعفي ومن وهني
رفه عليّ لحاك الله من زمن
فليس يلوي إلى أهل ولا سكن
أرسي طلايهم مني على عن
نكداً فصاعف باستجدائهم مخني
ترهو كتابته الخضراء في اللمن
يجده العرب العراء من يمن
من عهد تبع أو من عهد ذي زن
بشر كأحسن ما أبصرت من حسن
وطلعة مثل صوب العارض المتن
عين الزمان له عادت ولم ترني
لوحني وناديت واغوثاً فأدركي
سواه فهي كرهن عند مرتين
وصان وجهي إذا المأمول لم يصن
لو حام حول حماها السر لم يهن
فخر الإمارة بالأسرار مؤتمن
لديك عن ساحة المعروف والمن

كفأك يا سقم ما أنهكت من بدني
ويا زماناً لحا عودي فأوهنه
أخني على الجسم بل أوهى بساكنه
ألقي بوجهي لأوباش سفاقة
فزاد سؤلي لهم ما بي من المحن
منابت وأصول غير زاكية
مالي سأصرف وجهي للذي افتخرت
ممن هو الدهر ذو بيت مكرمة
يبدو عياه كالسيف الصقيل له
ذو همة لا ترى الجوزاء منزلة
بلأت منه إلى كف لو التفتت
علقت من بعد أن أشفى على غرق
للك روحني لم يملك أزمته
إليه وجهت آمالي فأسعفها
محمد الأصرم السامي إلى رتب
ركن الكتابة دستور الوزارة بل
مولاي لا تبعلني هفوة وقعت

فما الذبابة إن مرّت على أذن
بالذنب إياك أرجو أن تراجعني
جسمي وكانت له نار لأحرقني
والنفس في مثل هذا لا تطاوعني
وما ترنم قمرّي على فنن
عال ترى العصم أدنى منه في القنن

فالبحر أنت وذنبي لا يكدره
يا نعمة السيد المولى لمعرف
لا تتركني لضد لو نمكن من
فكيف آمل من أمثاله فرجا
بقيت ما طلعت شمس على أفق
ودمت في شرف غال له كنف

ومن شعره فيه قوله :

فيشفي فؤادي أو ييل من السقم
كأن في سواد الليل وُكُل بالنجم
وأضحت كسحق البرد عافية الرسم
على الروح أشجى من مفارقة الجسم
تبيح دمي بالرغم مني وبالختم
فيأخذ من روحي ويوهن من عظمي
من اللين خوط البان باكره الوسمي
يفوح شذا بالكوثري من الظلم
عليه إذا ما لاح في ليلة التّم
ملامي بنعم أين ليلى من نعم
بتقيل راح الجود لا راحة الكرم
وأعلم ما تنفك أو ينمحي رسمي
إلى الحسب الوضاح والنسب الضخم
كريم بنات الأصل والحال والعم
إلى وارق يزكو ولا وارق السلم
أمانيّ كسرى راح منكسر العزم
مداركها بالذوق والغير بالشّم
ولو كان مستمليه كالحجر الصم
أو احتج فالاذعان أوسع للخصم
وخلصه ناويه عن دنس الوصم

أما لشؤون العين بالدمع لا تهني
ويهدأ تبريح الجوى من متيم
متى تعرف الدار التي شطّ وليها
نعننا بها دهرأ وكان فراقها
قضى الله إلا أن آرام حاجر
وبسعتني حبيهم في جوانحي
بكل ردينيّ كان قوامه
ونثر كعقد الجوهريّ مفصل
ووجه كأن البدر ألقى سناه
بليت بعدال يطيلون ضيلة
أفق ويك من سكر فقلت ونشوتي
بلى قد عرتني نشوة من محمد
فتى تنتهي أعراقه وأصوله
رضيع لبان المجد مذ كان كونه
مناسب من قحطان يمتدّ فرعها
له هم لو حاولت أن تنالها
توخذ في ضبط العلوم فعنده
ولو حاول التعبير عنها أبانها
إذا قال لم يترك مقالاً لقائل
نزبه بنا عن كل نقص فرنده

مثنىة بالوشي نادرة الرقم
 يريك دهاة الفهم حسرى بلا فهم
 على غير رأي منه ضلّ على علم
 لألقت عصاها وهي تجنح للسلم
 إليه الليالي لاستضاءت بلا نجم
 ولا القطر إلا من عوارفه يهيم
 إلى غرض إلا وعن قوسه يرمي
 فما القوس إلا وهي عن وتره ترمي
 أعزّ على الأيام من بيضة العقم
 فألفاه لم يخطر ببال ولا وهم
 بأن أجمع البحر العجاجي في نظمي
 على حجمك الإطراء لا بل على حجمي
 حياء إذا ما اللحظ خالطه يدمي
 بعثلك كفؤا وهي مفضوضة الختم

تلوح على عطف الزمان كحلة
 إذا جال في الأمر العويص برأيه
 ولو رام أهل الدهر إمضاء رأيه
 ولو هزّ في الحرب العوان يراعه
 يروقت منه منظر لو تطلّعت
 وما البدر إلا نسخة من جماله
 ولا قلم يجري على طرس كاتب
 وإن ساهته الأذكىء تكلفاً
 بنو أصرم حطوا الرجال فشاؤكم
 أيا سيباً أعبي الأنام مرامه
 تسوّرت في إطراء مدحك كيف لي
 ونهت من قلدي بملحك لم أقل
 فدونكها بكراً يكاد أديمها
 وما مهرها إلا رضاك وحسبها

وقال وهو يهنيء الشيخ محمود الأصرم بقدمه من سفر :

لقد قلبت ذكراك قلبي على الجمر
 من الدهر آلت لا تناط على نحر
 فتروي فنوناً لا تباح من السحر
 فنبدي ازدراء بالمتعقة البكر
 ولا نور إلا ما حوى الخدر من زهر
 ولا نم إلا أن يكون شذا عطر
 خليطاً مدام في قواقزة سمر
 لعين لقلت اثنان في حيز وتر
 موأناً وبحيننا النسيم إذا يسري
 وتلحظنا الجزاء بالنظر الشرر
 ويفزعنا فرق المليحة بالفجر

ليالي الحمى لله ما هجت من صدري
 فدينك ما إن كنت إلا لآلئاً
 يجاورنا في جناحها طرف أحور
 تدار علينا قهوة بابلية
 فلا نور إلا ما حوى النور من سنا
 ولا وشي إلا أن يكون من الحلى
 كأننا وقد بزّ الظلام ثيابنا
 تعانقت الأرواح منا فلو بدت
 ويسطوبنا سيف الغرام فنثني
 تغازلنا شهب الكواكب غيرة
 ويفجعنا ضوء الحجرة في الدجى

وقام على فرع الأراكة بلبل
 وأعجم حتى ما يبين حديثه
 فقلت رعاك الله لحنك مؤذن
 فقال بلا مهل كأنك لم تلق
 فلم يدر إلا الله ما هاج في الحشى
 فتلك ليالينا بمنعرج اللوى
 فيا لك من عيش يفرق ماؤه
 ويا لك من ظل تقلص برده
 فعدت عن الأيام فهي خوادع
 وما فشت تقلى العيون ولم تزل
 وما حسن الأيام غير أبي الثنا
 تسامت بمحمود يكن إن وزنته
 بأبيض وضاح محجب ماجد
 من الشمخ الشم الأولى ضريت لهم
 بنو أصرم شادوا الفخار ودعموا
 فهم في بقاع الأرض أطواد مجدها
 ميامين غرهم يفضون عفة
 إذا ما انتهى منهم لقحطان ماجد
 لقد كان فوق الوسع شأواً بي الثنا
 فتى لا يراه الدهر إلا مبادراً
 له هم أعصى على الدهر نيلها
 كأن عباب البحر فيض نواله
 يروعك في بأس يروك في ندى
 بصير بأعقاب الملوك كأنما
 إمام تحلى بالمكارم وارتدى
 مقدم فرسان الكنية حامل
 إذا خطرت أقلامه في طروسها

وغنى فخلى كل دامعة تجري
 وأعرب حتى كاد يفصح عن سري
 بشجو فما مرآك في الحلل الصفر
 غراماً ولم تلبس ثياب الهوى العذري
 فصار ولم يترك سيلاً إلى الصبر
 خلون فآل الحلو منها إلى المر
 صفاء نعمنا منه في غفلة الدهر
 فأضحى كأسمال على شعث غير
 على أن في أغراضها نكد الحر
 مماذقة تني الأمور على غدر
 ولولاه لم تخطر ببال ولا ذكر
 بما تحمل الغبراء أرجع في القدر
 أعز طليق الوجه منبسط البشر
 على قبة الأفلاك بيت من الفخر
 قواعد مجد دونها هامة النسر
 وهم في سماء العز كالأنجم الزهر
 يغيظون يوم الروح يوفون بالنذر
 تنظم في عقد فريد من اللز
 فقل للمناوي لا تخب ولا تجري
 لإنقاذ ملهوف وإنجاد مضطر
 فأضحى بكف من تناولها صفر
 وأين هبات البحر من واهب البحر
 يلين على يسر ينيل على عسر
 مصادرها من غير كفيه لا تجري
 بفضل رداء لا يجر من الكبر
 لواء القوافي في كتابها الخضر
 تكاد العوالي أن تطيش من الذعر

بزجر كأن الرعد من غضباته
 كأن المنايا ركبت في شباتها
 قلمت فأقررت العيون من الورى
 طويت الفيافي ثم عطرت تونساً
 فللكون بالأفراح عطف مرّح
 فغبت وقد شافت مطالعك الدنا
 لعمر إلهي إنّ عودك سالماً
 وفكك كان العصب من حنّه بفري
 وبالدم تجري لا بأسود من حبر
 سروراً فأنطقت النواطق بالشكر
 بنشر لقد أبدعت في الطي والنشر
 ورقص على توقيعه ينشد القمري
 وأبت وما أغنى غناءك من يدري
 لأننا وأحلى من مسألة الدهر

309 - الوزير أبو عبد الله محمد الأصرم باش كاتب

نشأ في بيت مجد ، موروث لأب عن جد ، فطلب العلم يجتهد : وسابق في تحصيله
 لغير حدّ ، على ما هو عليه من تسنّم ذروة العلى . وتقلّد عقود العزّيين الملا ، حتى تبيّن
 فضله ، ووضح للعيان نبه ، فاستكتبه الأمير حمودة باشا ، فرغب عن ذلك واختار
 الإقبال على رياض المعارف ، والإعراض عن كل حظ عنها صارف . فامتلاً وطابه ،
 وتوفر من العلم نصابه ، فحصل على ملكة مرضية في العلوم العربية ، وضرب بسهم في
 العلوم الشرعية والرياضية . وله في صناعة النثر والشعر ، باع يريك اللآلي في سلوك التبر .
 قاله في صباه ، وأجاد فيه بما أتمّ علاه . رام والده الوزير أبو عبد الله محمد الأصرم أن
 يختير مقدار توقّد قريحته في الأدب فدرسّ لصاحبه الأديب الأكتب الشيخ محمد قلاله
 القيرواني أن يختبره باستلرار درّ أدبه ، فكاتبه بأبيات منها :

يا من سمعنا له حرصاً على الطلب
 وأنه ينشئ النظم البديع على
 وليس ينكر فيه الفضل متسقاً
 وجدك الأصرم السامي له غرر
 فما ظلمت إذا ما جئت تشبهه
 وفكرة تعني بالشعر والأدب
 طريقة الفصحى الأولى من العرب
 ولا صدور اللآلي منك بالعجب
 في النظم والنثر حازت أرفع الرتب
 وما سطا ولد قد حاز فضل أب

إلى آخره . فأجابه صاحب الترجمة بقوله :

إن كنت تجهلني في أية الرتب سل الأهلّة عن شعري وعن أدبي

تلقى الذي خطّ في أرجاء صفحتها
 قحطان جدي وفي أخباره كتب
 فالنظم من شيمي والدرّ من ديمي
 كأنما الشعر في طي فأنشره
 وجيد الشعر في طبعي سلالة
 فانظر تجد صارماً أدنى مراتبه
 فإن سألت فأعلاها على زحل
 فالتقول قولي لمن جادت قريحته
 فبعد قولي لا تركزن لذي أدب
 وكن عذيري فولا بنت فكركم
 قد غادرتي كليماً من تكلمها
 ونخامرتي بخر من بشاشتها
 ودم فريدا بحفظ الله مشتملاً
 هذا الذي أصله من أشرف العرب
 لكنّ في الخمر معنى ليس في العنب
 فليس يفضي بنا شيء إلى تعب
 فيثني سابقاً في لجة الطرب
 نطقت بالشعر حتى كاد ينطق بي
 مراتب الشمس إن بانّت من الحجب
 واحلف حديثك محبوب عن الكذب
 شتان شتان بين الجد واللعب
 في طلعة الشمس ما يقني عن الشهب
 ما كان بيني وبين النظم من سبب
 من حسن ميسمها الدرّي ذي الشنب
 كأنما الخمر منهلّ من السحب
 ما لاح بدر الدجى في أرفع الرتب

ولما توفي والده عن رئاسة الكتاب قدمه الأمير حسن باي كاهية لعمّه أبي الثنا محمود
 المتسم لرئاسة الكتاب عوض والد صاحب الترجمة وقدمه على من تقلمه من شيوخ
 الكتاب . ولما توفي عمّه المذكور ، قدم لرئاسة الكتاب ونال وجاهة وجاهاً خصوصاً عند
 الأمير أحمد باشا . ولما تبدّل حال الدولة عمّا كان يعهده في زمن سلفه حينما طمح
 الأمير أحمد باشا لإلباس إمارة تونس الصغيرة لباس سلطنة وإحداث ألقاب تناسب ذلك
 لرجال إمارته ولزم لتفخيمها الاستكثار من الجباية حسب ما اقتضاه ذلك المظهر وعظمت
 المظالم . وكان للأمير بطانة يصنّف لآرائها ويعمل بمشورتها تعاضده على أفكاره وتشجعه
 على مقاصده . ومن أخصها وزيره أبو النخبة مصطفى خزندار ، وكاتب سرّه ولسانه أبو
 العباس الشيخ أحمد بن أبي الضياف فكان صاحب الترجمة يحلّره من الركون إليهما ،
 يقصد بذلك غاية النصح في نظره حتى يقال إنه لمّا وعظه بقصيدته السينية الآتية
 وأنشدتها بين يديه وكان الوزير المذكور وكاتب السرّ حاضرين ، فلما بلغ إلى قوله فيها :
 (واحترم مكائد كل من صاحبه * واعمل بما قد قيل في الخناس) .

أشار إليهما ومدّ بها صوته غير أنه لما رأى أن نصحه لم يؤثر في الأمير لغلبة دواعي
 شهوة الاستقلال عليه وحبك الشيء يعمي ويصم ، انزوى في بيته ونفض يده من

خدمة الدولة ولا يزال الأمير مع ذلك يجله ويعظمه . ولما ولي الأمير محمد باشا عامله
بمثل معاملة ابن عمه أحمد باشا ، ثم ولي الأمير محمد الصادق باشا فعامله كذلك إلى أن
توفي في 20 شوال سنة 1277هـ . ومن شعره يمدح الأمير أحمد باشا :

أثار كمين الشعر في كل خامد	رحيق المعاني في كؤوس القصائد
يشعشه كف البديع سلافة	بريق بيان في ثغور الخرائد
كذائب تبر خلصته يد النهى	فها هو سيال وليس يجامد
يخامر أشكال النفوس برقة	ويسري سري الأرواح في كل خامد
ومن عاش منه صاحباً كان ضاحياً	من الظرف عندي في جميع الموارد
له اللفظ كأس والبديع حبابه	يشير به كفّ البيان لوارد
جزالته قد أشربت سحر بابل	كنشوان في مهد البلاغة هاجد
ترشقت الأسباع منه لطائفاً	كرنات أوتار على نحر ناهد
وإلا كما هني الهزار موانساً	على غصن قلب الواله المتواجد
وإلا كما جاء الرسول مبشراً	بقرب وصال من حبيب مباعد
وإلا كما فاه الرسول مداعباً	بصوت رخيم في خلال التّراود
وإلا كما قد سرّ قلب متيم	برقة عتب من حبيب مساعد

وهي طويلة تزيد على مائة بيت ، غير أنها مجال للنقد ولعله عاناها بعد أن قوّض
خيام الشعر من فكره ، ومنه يعظ الأمير أحمد باشا وهي من واديه غير أن أصداعه
بالنصح فيها غضّ طرف ناقلها :

الصبر مفتاح لكل إياس	فاصبر ولا تك للنصيحة ناسي
يا أحمد الميمون في حركاته	يا ابن الأكارم يا أبا العباس
العدل أسّ للدوام مصيره	والظلم بنيان بغير أساس
والنفس تأبى أن تضام جبلة	فاكل لها ما كته للناس
والبيت لا يرسى بغير عماده	فاجمع إذا أوتاده بقياس
لا تصلح الدنيا ولا أحوالها	ما لم تكن أنت الطيب الآسي
واحذر مكائد كل من صاحبه	واعمل بما قد قيل في الخناس
إني سيرت الخلق كلاً أصبحوا	فوضى بلا كيل ولا مقياس

فاصمد إلى ما قلته بمودة
وارجع إلى العقل الذي قد ميّزت
واطو التحابي وانشرن أنصافه
واجر التجارب في ميادين الرضا
ولو اطلّعت على جواهر نظمها
من عهد آدم ثم من بعده
كن هكذا في عز ملك آمن

من صالح النصح الصميم الراسي
أبناؤه من سائر الأجناس
واحمل سياسته على القسطاس
وأحسن لهم ما أنت منهم حاس
قد سطرت في وجنة القرطاس
لرايت نوراً ساطع النبراس
تعطي وتمنع آخذاً ومواسي

310 - الشيخ أبو عبد الله محمد الحبيب الأصرم

وصفه الشيخ محمد بيرم الرابع بالأديب ، وذكر أنه كان يتعاطى الإسهاد في
الحاضرة كما ذكر أنه كان كتب رسماً للشيخ أبي العباس أحمد بن محمد البارودي المتوفي
في عام 1278هـ ووجهه إليه ومعه هذه الأبيات :

ألا يا أبا العباس يا واحد المجد
كتبت لكم كتباً ولم أعط حَقِّكم
ولورمت أحصي بعض فضلك في الوري

ومن هو في الأعيان واسطة العقد
مهاتكم ينبو لها الأصرم الهندي
لضاق بي التعبير عما لكم عندي

311 - أبو عبد الله محمد خلف الأكوذي

وصفه شيخ الإسلام محمد بيرم الرابع أيضاً بقوله المشارك وذكر أنه كان مدح الشيخ
أحمد بن محمد البارودي بقوله :

يهنيك عزّ وافياً بسعود
ته بالمفاخر والمعالي رتبة
قدما ورثت شعارها من سالف
سادوا وجادوا بالعلوم وبثها
فخر المنابر لا يضاهي فخره

ومن المهتجن غاية المقصود
ما نالها متفاخر بجنود
متقدم آباءكم وجدود
ومضوا فأخلفهم سليل الجود
بحر الفصاحة أحمد-البارودي

بدر تفرّد بالمحاسن في الورى
 قد حاز حسن سياسة ولطافة
 من رام بحكي بعض أوصاف له
 يا سيداً فقت الورى بتقدم
 خذها بنية فكر مضناك الذي
 وافقتك وهي بكيرة في خدرها
 تسبي عقول العاشقين بقولها
 جلّت عن المسرود والمعدود
 أكرم بها من مئة المعبود
 قد أتعب المجهود في المفقود
 في المكرمات بسيرك المحمود
 ألقاه حبك في بحار الجود
 بترنم المقصور والمملود
 يهنئك عزّ وافيا بسعود

312 - أبو العباس أحمد القليبي

أديب مشارك من شعره يهني الشيخ أحمد الغرياني بولايته الكتابة التي تقلدها في
 10 ذي القعدة سنة 1250 هـ ، وتخلّى عنها يوم الأحد في 6 صفر سنة 1273 هـ .

في الحب ما أخني وما أبدي
 ولو علقت أبدأ بالذي
 لألمعي سرتي بالسدي
 قد أصبحت آياته في الورى
 يهني أبا العباس ما ناله
 نال به الإنشاء ما يبتغي
 كأنما الكتاب عقد سما
 فأحمد الغرياني أضحى لهم
 قد جتته مهتأ سالكا
 معتلراً إذ الذي صفته
 ولو قلرنا قدره لم نكن
 أوصافه الحسنة في كثرة
 وذا السرور بعض ما عندي
 خامرني لم أصح من وجدتي
 قد ناله من رتبة المجد
 تتلى على الأسماع بالحمد
 من طالع التوفيق والسعد
 شوارد المعنى بلا حدّ
 وهو به كجوه فرود
 واسطة لذلك العقد
 في مدحه طرائق الودّ
 جهد مقلّ عادم الجهد
 نفع في مدحه بالقصد
 كالرمل لا يحصر بالعد

313 - أبو عبد الله الشيخ محمد بيرم شيخ الإسلام الرابع

ولد هذا الفاضل في جمادى الأولى سنة 1220 هـ ، ونشأ بين يدي أبيه ، في بيت
 مجده النيه ، واصطفاه جدّه الشيخ أبو عبد الله محمد بيرم الثاني وتلطف في العناية به حتى

لقد كان يلقنه المسائل وهو مضطجع معه بفراشه . وطلب العلم عن نحارير عصره ،
وجهاً بذه مصره ، فأحرز منها ما أحرز . وجلّى في ميادين العلوم وبرّز . وشاد صروح
مجده ، زيادة على بناء أبيه وجدّه . فتصدّر للتدريس فنثر الدرّ ، وأتى من التحرير والتجوير
بما بهر . ثم ولي الفتوى في حياة جدّه الثاني إقراراً لعينه على حداثة سنّه ، فإن الأمير حسين
باي لما عاد الشيخ الثاني في مرض وفاته ، أخبره لما أراد وداعه بأنه أولى حفيده صاحب
الترجمة الفتوى وبعد موته لبس شعارها فجلى في ميدانها وعدّها فيها من الراسخين ، وسابق
أعلامها السابقين . ولما توفي والده عن رئاسة الفتوى الحنفية وكان المترشح لها غيره ممن
تقدّمه في الفتوى أولاه الأمير أحمد باشا رئاسة الفتوى الحنفية ونقابة السادة الأشراف
عوض والده وتولّى خطابة جامع صاحب الطابع ثم الجامع اليوسفي وهو أول من لقب
بشيخ الإسلام في تونس فإن هذا اللقب لم يكن حتى فخم الأمير أحمد باشا الألقاب بإيالة
الصغيرة بحاكي السلطنة العثمانية فاستدعى يوماً صاحب الترجمة وألبسه كزاً سموراً
ولقبه بشيخ الإسلام . وقد حدثني الثقات ممن دخل الأستانة ومصر وغيرهما من أمهات
البلاد الإسلامية أنهم يسخرون من ذلك وحقّ لهم فإن وضع هذا اللقب لوحيد في دار
الخلافة الإسلامية لرعايته الدينية من يحويه في الشرق والغرب ظلها فآني لتونس ذات
المليون ونصف من السكان ذلك والله في خلقه شؤون . وكان الأمير يقربه ويستشيره في
المهام ويصله بأسنى العطايا ، ولما ولي الأمير محمّد باشا وكان صاحب الترجمة صهره قد
تزوج الأمير أخته قربه ، وجعل أمر الخطط الدينية إليه فلا يتولّى أحد منها شيئاً إلا بانتخابه .
فكان يؤثر عنه الإنصاف فتأتي المستحقين أوامر الخطط من غير علم منهم ، يجب إجراء
العوائد على سننها . فكان يلزم الشهود والمدرسين بملازمة زيهم الخاص بأهل العلم
والعدالة ويشتد مع المتساهل في ذلك . وكان خليقاً بالرئاسة كامل المروءة وقوراً مهيباً ذا همّة
عالية ونفس أبية لا يشقّ غباره في الشعر والنثر حتى كان الأمير محمّد باشا ربما التجأ
إلى أدبه الرائق عند المهام . ولما ورد مكتوب السلطنة الفاسية على الأمير المذكور في
غرض التهنة بالإمارة أحجم فارس ميدان الكتابة الشيخ أحمد بن أبي الضياف عن
الجواب عنه ، وأشار على الأمير أن يكل الجواب عنه إلى صاحب الترجمة فأجاب
عنه نثراً وشعراً بما هو واسطة قلادة الأدب . والأمر في ترتيب الديوان الشرعي من إنشائه
وغير ذلك من الأغراض . ومن تأليفه تراجم خطباء الحنفية وكتاب سماه الجواهر
السنية في شعر المتأخرين ورسالة شرح فيها قواعد عهد الأمان ومحركات فقهية في

مسائل مهمة ، وله كنانيش كثيرة مشحونة بالفوائد والأدب وما زال يرقل في علاه ،
ويتجمل من فضله بجلاه ، إلى أن توفي في 4 جمادى الأولى سنة 1278 هـ . ومن شعره
يهني الأمير محمد باشا بولاية الامارة :

وهب إله لك المحاسن كلها
أبدك في أفق الجلالة نيراً
وأراك طرق الحق بادية السنا
وكساك من حسن الثناء ملبساً
وأمال نحوك للخلائق أنفساً
ومنحت رفقا بالخليقة ضافيا
وتشرفت بك خطة أوليتها
وافتك ملقية القيادة وحق إذ
وكسا رقاب الخلق منك قلادة
وأحللك الدست الحري بنيله
وأجال رأيك في الإيالة منصفاً
وتميط عن أرجائها ما آدها
لله سر في ولايتك التي
لم تختلف فيها العقول وشأنها
فانساب أفواج لبيعتك التي
يقتادهم طوع القلوب محرض
وتبادروا فيها السباق وإنما
فأريتهم عنوان فضل دلهم
فرجتك أفئدة لضيق صدورها
قد مدت الأعناق تأمل صيباً
علماً بأنك واحد في فضله
ورجت بك الإنجاز فيما ترتجي

وحباك من رتب الكمال أجلها
في هاته الخضراء تنشر عدلها
وهذاك للتقوى ومهد سبلها
ترضى الملوك بأن تحوز أقلها
فقدوت منها إذ تؤمل سؤلها
وسع الإيالة كلها فأظلمها
ما كنت إلا أهلها ومحلها⁽¹⁾
تخذتك خدناً أن نعظم نزلها
أبدى محاسنها وأبدع شكلها
وبك الولاية زانها وأجلها
ترعي مصالحها وتجمع شملها
حملاً ويذهب حسن رأيك محلها
ما أبصر الراؤون قدماً مثلها
نصب الخلاف كما تقدم قبلها
كل يسارع كي يؤسس أصلها⁽²⁾
والذات طبق القلب تعمل رجلها
قصد المسارع أن يمسك حبلها
أن سوف يعقب ويل كفك ظلها
جزماً بأنك سوف ترفع كلها
وترقبك منك الفواضل كلها⁽³⁾
إن لم تكن للمكرمات فمن لها
إذ أبدت الأيام قبلك مطلقها

(1) في نسخة بخط السالم الشيخ الصادق ثابت : (حمداً لمن أولاك فينا حطة) .

(2) في نسخة بخط المذكور : (فأنتك) عوض (فانساب) .

(3) في نسخة بخط المذكور : (فامتدت) عوض (قد مدت) .

ما ساقها فيما ترجي سائق
 ولتغتم من ألسن مها انبرت
 قد أجنبت هذي البلاد وعلمها
 يا ساجع العلياء قم في دوحها
 أو ما علمت بأن ملك محمد
 سل عنه مشيخة وكهلاً تطره
 يجبرك مخبرهم بأن محمداً
 وبأنه إن جال في أفعاله
 يا أيها المولى الذي آمالنا
 نخدها توذ لحسنا وهائنا
 قد حاكها منوال فكري حلة
 وأمدّه ود متين لو على
 حسبي دعاء الله في إلهامها
 ذي منية ما بعدها من غاية
 أرجو لها المختار والشيخين والسـ
 صلّى عليه الله ما هبت صبا

ومن بدائعه الأدبية تشطيره لقصيدته ابن بحر صفوان ونصّه :

(يا حسنه والحسن بعض صفاته)
 سلب العقول تراه طوع يمينه
 (بلر لو أن البلر قيل له اقترح)
 أو قيل زد مما تمنى نيله
 (عبثت بقلب محبه لحظاته)
 ولقد أقول متى أصبت بنيلها
 (ركب المآثم في انتهاب نفوسنا)
 والصفح مبدول إليه وإن جنى

والشمس لم تبلغ إلى درجاته
 (والسحر مقصور على حركاته)
 قال اكتسائي من سنا مشكاته
 (أملاً لقال الكون من هالاته)
 فهي التي ينحشاه من سطواته
 (يا رب لا تعتب على لحظاته)
 وجرى بذنا سبقاً إلى غاياته
 (فالله يجعلهنّ من حسناته)

(1) بقية القصيدة بعد هذا البيت من نسخة الشيخ الصادق ثابت المذكورة .

(يعطي ارتياح الحسن غصناً أملداً)
 شاهلته فرأيت غصناً ناعماً
 (والحال ينقط في صحيفة خده)
 ولذا أجاد الصنع في إعجابه
 (وإذا هلال الأفق قابل خده)
 وأردت تعيين المفضل منها
 (ما زلت أخطب للزمان وصاله)
 وأجيد نسج السعد في استعطافه
 (فغفرت ذنب الدهر فيه لليلة)
 والدهر كم قد زلّ لكن هذه
 (غفل الزمان فنلت منها بدره)
 ليت الزمان مساعف بالوصل أو
 (ضاجته والليل يذكي تحته)
 لم أستطع منه الوقاية وهو من
 (بتنا نشعشع والعفاف نديمنا)
 أنى لها يبلوغ ما نسقاه من
 (وضمته ضم البخيل لماله)
 أو ضم أم طفلها فإذا أنا
 (أو ثقته في ساعدي لأنه)
 والحزم قاض لي بذاك فإنه
 (والقلب يدعو أن يصير ساعداً)
 أو أن يكون أديم صدر بادياً
 (حتى إذا هم الكرى يجفونه)
 وسرت حمياً النوم في أعطافه
 (عزم الغرام علي في تقيله)
 وأعاد عزمته فعدت ممانعاً
 (وأبى عفاي أن يقبل ثغره)

أكرم بمُعطي تلك بعض هباته
 (حمل الصباح فكان من زهراته)
 متوخياً اتقان مصنوعاته
 (وأخط حبر الصدغ من نوناته)
 وبدا قران السعد في ميقاته
 (أبصرته كالشكل في مرآته)
 وأقل عبء المظل من سنواته
 (حتى دنا والبعد من عاداته)
 فاقت سنين الصبّ طول حياته
 (سترت على ما كان من زلاته)
 وانضم فيه الشمل بعد شتاته
 (يا ليته لو دام في غفلاته)
 لهباً يعوق الجسم عن راحته
 (نارين من نفسي ومن وجناته)
 ما تقصر الصهباء عن نشواته
 (خمرين من غزلي ومن كلماته)
 أو ضمّ ظام نال ماء نجاته
 (أحنو عليه من جميع جهاته)
 لا يؤمن المعهود من فلتاته
 (ظبي خشيت عليه من نفراته)
 ليرى وساد جبينه من ذاته
 (ليفوز بالآمال من ضمّاته)
 وبدا الفتور المحض في نظراته
 (وامتدّ في عضديّ طوع سناته)
 فعددت ذلك من عظيم هناته
 (فنفضت أيدي الطوع من عزماته)
 واحتلّ منه محل بعض حماه

نظري بجنة وجتته منعم (والقلب مطوي على جمراته)
 فاعجب للتهب الجوانح غلة) كادت تحوم حول سلب حياته
 بات الغرام حليفه وقواده (يشكو الظما والماء في لهواته)

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً يمدح الجناح النبوي الرفيع عليه الصلاة والسلام
 ويتوسل بحضرتة الكريمة :

سلوا الأفق من أبدى النجوم به زهراً
 وفضض نثر الزهر فافتتر صاحكاً
 خليلي ما للبين عذب ناظري
 وما للهوى العذري أضنى حشاشتي
 سقى الدمع أكثاف المحطّب من منى
 ولم لا وفيه حلّ من جل مرتقى
 فادعوه يا خير البرية كلها
 حنانيك يا ذا التاج والحوض واللوا
 فإنك بحر الجود يا ملك العلى
 فكن جابراً كسري وجد لي تكراً
 فأنت شفيع الملتنين إذا دعوا
 وأنت الذي أرجو بجاهك أنما
 وأجرى بفيض الدمع في دوحه نهراً
 وذهب خدّ الورد فاحمر واصفراً
 فلا عبرة ترقى ولا مقلة تكري
 فلا غلة تشفى ولا صحة تشرى
 وأقلل به دمعاً ولو كاثراً البحر
 أنارت به الأكوان في ليلة الإسرا
 وأشرفهم وضعاً وأرفعهم قدراً
 ورب مقام الحمد والحلة الحضرا
 ولا غرو أن أهدي لك الدر والشعرا
 فثلك من أعطى ومن جبر الكسرا
 لعرض حساب هوّله يقصم الظهرا
 نعم جميع المسلمين بها البشرا

وله في سيدي عبد العزيز المهدي دفين شاطئ المرسى هذه القصيدة التي عقب
 عليها بقوله رحمه الله ، نظمت هاته القصيدة في 18 ذي الحجة عام 1245هـ بقرب ضريح
 الشيخ رضي الله عنه ، وفي تاريخ نظمها شرعت بعون الله في اختطاط الدار المباركة
 بقرب الشيخ المذكور اهـ⁽¹⁾
 ونص القصيدة المشار إليها :

تحف السلام المزدري بالعنبر تهدي لقطب الأولياء الأكبر
 علم الطريقة ذي المعارف من غدا لم يلف مثلاً في قديم الأعصر
 غوث أناب لربه فتسابقت هم الرجال لعذبه المتفجر

(1) هذه الدار صارت كنيسة فيما بعد وهي الآن رجعت لحالتها الأولى .

ذو المآثرات الغرّ والشيم التي
طود المهابة والجلالة والعلا
عبد العزيز المرتضى من ذكره
المهدويّ آخر الصلاح المرتقي
تاج الولاية معدن الأسرار من
ظهرت بواهر فضله لأولي النهى
شمخت له نحو المعالي همّة
وأناله المولى المكنانة عنده
يا سيّداً سطعت بوارق نوره
إني انتسبت إلى عليّ جنابكم
وأنتح عيس القصد نحو حاكم
إني سألتك بالنبي محمد
وبآله الغرّ الأولى نصروا الهدى
فأقبل مُريداً قد أتى لك سائلاً
وعليه من دنف الفؤاد تحية
ما سار بذر التّم في كنف اللجى

ومن شعره في سيلبي أحمد بن عروس رضي الله عنه :

إن جاذبتك يد الزمان بيوس
والجأ إلى ريع بكل فضيلة
تجد المناخ الرحب والباب الذي
أوليس ذا جاه كساه رداءه
أجدر بمُعمل أرجل لمقامه
والزم له الترداد غير مقصر
فأشدد يديك عليه واحزم أنسه
يلقاك بالبشر الزمان إذا به
جالس ضرباً ضمّه وأسعد به
واشهد به لينا إذا قابلته

فعليك بالإيوا إلى ابن عروس
وعناية من ربه مأنوس
بولوجه تحظى بكل نفيس
فضل الآله الواحد القدّوس
في سعيه أبداً لها برؤوس
وبه اغتم ما عشت طول جلوس
في فضله رأس لكل رئيس
قد لذت غير مكافح بعبوس
فإذا فعلت فذاك خير جليس
فكأنما واجهت بحر خميس

لا تحصر الأقلام شائع فضله
وله الكرامات التي لا يمتري
جداً تلوح فلم يمدّ لمجدها
لأبي الصرائر في السرائر موقع
فأنظّم له تاج المديح مكللاً
وامزج رحيق القول فيه مدبجاً
وأدر على الأسماع راح ثنائه
لله قطب حل فرط وداده
ها حبه يخلو النفوس كأنه
يا كعبة القصاد بل يا منهل الـ
يا سيدي إني أنخت مطالبي
عطفاً على عبد بفضلك عائد
يرجوك في كشف الكروب وسيلة
وإماطة الأسواء عن ساحاته
ولكم لأهل الله في قصادهم
ولأنت يا تاج الولاية مقصدي
ولمّن إلى عليك يلجأ غنية
وعليك ممن قد حباك تحية

كلا ولا يحويه جمّ طروس
فيها وقد طلعت طلوع شمس
كف الزمان ولم تشن بدروس
جلّت مكانته عن التليس
بفرائد الترصيع والتجنيس
لصناعة التأكيد بالتأسيس
وأجد من الألفاظ حسن كؤوس
من كل ذي لبّ محل نفوس
في جذبه للناس حادي العيس
ورّاد بل يا ليث كل وطيس
بفناء باب جنابك المحروس
عان بسجن همومه محبوس
لله والتعجيل بالتنفيس
والصون كل الصون من إبليس
من رفع نازل محرج محسوس
في أن تكون لجرح دهري موسي
فيما اعترى عن طب جالينوس
ما دار دائر جمعة وخميس

ومن شعره يقرّض رسالة في الإعذار لشيخه سيدي إبراهيم الراجحي رضي الله عنه .
قال صاحب الترجمة أنه أنشأها يوم عرفة عام 1255هـ ونصّها :

خضعت لغزة قدرها الأقدار
وبدت على هام العلا تاجاً له
حسناء حسب ذوي النهى أن ينصتوا
لا غرو إن وصفت بكل فضيلة
هو ذلك العلم الذي ركب العلى
جبل العلوم وبحرها ومنارها
يا من يجل عن الملائح قدره

وتضاءلت لسموها الأقدار
دراً أجادت نظمها الأفكار
لحديثها الإذعان والإقرار
فوليها عدمت له الأنظار
وله على صبهواتها استقرار
وزعيمها وسحابها المندار
ولو انه درر غلّت ونضار

أبت المعالي أن ترى لك ثانياً وتكفّلت بمدارها الأقدار
فلذاك لحت وأنت مفرد ألقها ومنيرها الأعلى ولا إنكار
لا زال فكرك مبدياً لجواهر في نيلها تتنافس الأحرار

وله مقرضاً رسالة في المعارضة للمفتي حيثئذ الشيخ محمد بن سلامة ومجيباً له عن
أبيات له ثلاث نقلت في ترجمته أولها قوله وقد أرفقها بتلك الرسالة :

إليك إمام الدين والعلم غادة كساها اليها ثوب الحياء فزانها
فأجابه صاحب الترجمة بقوله :

تبدت فأبدت للمعاني جمانها وقال الهدى للحقّ كن ترجانها
وكن مفصّحاً عمّا حوته طروسها فما أطلقت إلّا بصدق لسانها
ألم ترها قد أبدعت في اجتنابها وأبدت بما تهوى النفوس خوانها
وجاءت بيرهان لو اصطدمت به شنّخب صمّ الصخر يوماً ألانها
فله من أبلى جواهر عقدها ونظّم من تلك النصوص حسانها
وأبدع في تحقيقه غير مثنّ لمسألة لم تعط قدماً عنانها
فما سألت غير الرضا ابن سلامة وقد كرّرت في خاطبها امتحانها
وكانت حروناً لا تطاق فراضها بإرشاده حتى أزال حرانها
ومحجوبة عن طالبي لمح حسنها فأبدى لهم من حجبتها لمعانها
فلا زال مها وجه الفكر كاشفاً لمشكلة إلا وأصلح شأنها

ومن شعره يهنئ شيخه سيدي إبراهيم الرياحي بجنته شرح السعد على التلخيص
ويمدحه رحمها الله تعالى :

جسمي بأشواق المحبة صال متفرق الأعضاء والأوصال
والنفس مني قد غدت مشتاقة ترجو لذيد مودة ووصال
والدمع جاد بوابل من مقلة ليست تحل بكثرة الإرسال
يا عاذلي هون عليّ فإنتي لا عدل ينفعني بكل مقال
إني شغفت بحبّ ذات فواتر تغني بما تبدي عن الجريال
فالقدّ غصن البان غار لحسنه والوجه فيه بديع كل جمال

رامت تحاكي وجهها شمس الضحى
تلك التي قد أشعلت نار الهوى
وهي التي تركت متيم حسنها
وسبه نفساً ما لها ذنب سوى
عجباً لها أتسوءه ولقد غدا
أذبال إبراهيم من قد أعلنت
ذاك الإمام العالم العلم الذي
فيه لتونس مفخر ولنا به
وبمثلك الأقطار تفخر إذ غدا
وله محال يرتجي مثلاً له
كشاف ما خفيت مسالك نيله
وهو الخلاصة من رجال زمانه
يلقى بثر باسم كل الورى
إن رمت وصف مجالس لإماننا
فأقول فيه وإنتي مُقَصَّر
يا سيداً قد حلّ كل عويصة
هذا الختام لقد أتاك مبشراً
فلقت سررت بمجلس لقدمه
وأروم يا مولاي تجديد المنى
وإذا القضية بين انتاجها
وإليك بكرة قد أتت لا تبغى
وبقيت ترقى أوج آفاق العلا

فتداركت ما قد جرى في الحال
بقواد صباً للقا محال
في حبا متراكم الأهوال
تأميلها لتألف ووصال
متشبيهاً بجواشي الأذبال
بمديحه كل الورى بكمال
لم يأتنا دهر له بمثال
فخر عظيم لا يقاس بمحال
يجني لعز صالح الأعمال
قر السما في العز والإجلال
مغنى الأنام ومعدن الأفضال
وهو المعدن لتقص كل عقال
وتحية تأتي بكل مقال
غيث العلوم ومبلغ الآمال
كالليث حفاً بمُعظم الأشبال
بذكائه وبذهنه السيال
بدوام سعد مشرق متوال
ولقد شرفت به على الأمثال
تكسوه لي من حلة الأفضال
فلتطوها في منتج الأشكال
إلا الدعاء لنا بحسن الحال
متلبساً بالعز والإقبال

ومن شعره يهني ويمدح شيخه المذكور عندما ختم شرح المحلى على جمع الجوامع في
علم الأصول :

مديحك لا يحيط به النظام
وعلمك منهل للناس طراً
بك الآفاق قد زادت سروراً
وجودك لا يقاومه الغمام
ومجلسك الأعز له احترام
كأنك في فم الدنيا ابتسام

فأنت لأوج أفق الدهر بدر
وأنت لغز هذا الدين تاج
وأنت لكل معضلة ترجى
جمعت من المحاسن كل وصف
وآيات الفصاحة عنك تروى
فلو قسّ وسحبان جميعاً
صفوا يوماً لمنطقكم لقالوا
أباسحاق أنت فريد دهر
هنيئاً يا إمام العصر يا من
بجتم قد شرحت به علوماً
ختام قد جلا عتاً ظلاماً
وهاك خريدة الأفكار جاءت
تؤمل حسن صفح منك عمّا
ويطلب ربه منكم دعاء
ولا زالت لك العلباء داراً

منير لا يفارقه التمام
وأنت لنصره أبدأ حسام
وأنت لكل مشكلة إمام
وكل الناس عن هذا نيام
وفي كف لكم منها زمام
كذا أيضاً أو الفتح الإمام
يفوق الدرّ حقاً ذا الكلام
وأنت لقطرك العلم الهمام
له فوق السما الأعلى مقام
وسرت من ضخامته الأنام
وما أدراك ما هذا الختام
بصاحبها سرور وابتسام
يقصر في مديحك النظام
يقيه من الحوادث إذ يضام
تردد مدحك فيها الهمام

ولما توفي السلطان محمود الخليفة العثماني ، وولي عوضاً عنه ابنه عبد المجيد قال مديلاً
لقصيدة جدّه الشيخ محمد يريم الثاني في سلاطين آل عثمان :

ولما نجت أنوار محمود وانطوت
تعطر نادي الملك من نشر نجله
وأشرق في أفق الخلافة بدره
فلا برحت أغصان دوحة ملككم

محاسنه طيّ الرداء المنعم
ووارثه عبد المجيد المعظم
وعمر غابّ الملك أشرف ضيغ
تغذى بماء النصر ذات تنعم

ومن شعره ما كتبه يستدعي بعض أصدقائه :

نجوم إخوانك قد ضمّهم
فلح لهم يديراً وكن منعماً
ولتغتنمها ليلة ما لها
واسلم على رغم العدا صاعداً

ناد كما قد ضمّ شمل السرور
بما انطوت منهم عليه الصدور
فيما أرى مثلاً بماضي الدهور
لمرتقى تنحطّ عنه البدور

وقال مهنتاً الشيخ ابن سلامة بمولود في 27 ربيع سنة 1245 هـ :

أفق المكارم لاح كوكب سعه وذرا السيادة نال غاية قصده
ويد العناية أنجزت لك موعداً بمنال نجل درة في عقده
أبشر به فلقد غدا ابن سلامة فهي التي أبدأ تحف بمهده
واسلم على رغم الحسود مرفعاً في خصب عيش رافلاً في برده
حتى تراك على أسرة عزه ويكون خيراً من أيه وجدّه
وإليك ممن قد غدا لك صارفاً لب الحقيقة من خلاصة وده

قال صاحب الترجمة أن الرسالة إليه هذه الأبيات أجاب عنها بقصيدة تبلغ عشرين بيتاً هـ .

ولصاحب الترجمة تهنئة بمولود ونص ذلك منقول من خط يده ولد لأخينا أبي العباس أحمد بن أبي الضياف ولد سمّاه عمر في شوال من عام 1261 هـ ، فكتبت إليه بعد اجتماع به ما نصّه :

قد علمت أعزك الله مشاركي إياك في السرور بالنجل الجديد والطلع السعيد
والنعمه التي ما على موقعها من مزيد ، فافتضى ذلك أن جعلت سمير ليلتي ذكراه وتوقعت
منه بحسب التفّرّس ما يحقّقه الله فانطلق لسان القلم بما في هاته الأبيات :

عش سالماً متملياً كل المنى تحوي من العليا مكاناً أمكنا
واهنأ بمقدم من أنال قلوبنا فرط السرور كما أقرّ الأعيان
وكأنتي بهلاله قد صار في فلك العلا قرأ يتم له السن
وكأنتي بزمانه يكسى به حللاً تجل بها يفوق الأزمان
وكأنتي بصفاته قد قرّطت اذن المصيحخ لها حلّيا مشمنا
وكأنتي بجوابه إن قالت الـ علباء من كفاء يقول لها أنا
وكأنتي يراعه قد خط من درر البلاغة ما يروق ودونا
نسجاً على منوال أكرم والد تحذ المفاخر مذ ترعرع ديدنا
فاستغن مذ أعطيته عن كل ما تهوى النفوس عزيزة أن يقتنى
هذا الزمان أذاك يبذل بشره ويقول في تاريخه : عمر غنا

ومن شعره على ما أظن هذه القصيدة منقولة من خطه وإن لم يعزها لأحد ولعلها
على لسان غيره :

الصدق أولى ما ارتداه المسلم
فالنجاح إن لم يلقه متمسك
وحياض أبحاد الملوك موارد
لا عار في استجدائها لمؤمل
وإذا العليل أسر كنه سقامه
فلنا أفوه بما لدي لمن إذا
وأقول مختصراً لما تلخيصه
إني عجزت عن القيام بما أرى
وشواهد الأحوال تشهد لي بما
وألحت الأيام في إيداء ما
فلزمت صبراً لو يكلف عبثه
حتى إذا لم يبق من صدري له
لم ألق بُدأً من شكايه حالي
السيد الباشا المشير المرتدي
تاج الزمان ونوره وبهاؤه
فهو القدير على إزاحة كربتي
إذ سيبه الملرار عم جميع من
فلتشملي مثلهم نفحاته
من كان أحمد كهفه ونصيره
وتحامت الأيام ساحته فلا
وتزخرفت تلقاءه الآمال بل
لا زال مولانا المشير مؤيداً
ومحرر النظم المقر بفضلكم

ومن شعره الغزلي قوله :

هواها أذاب الجسم واللب والقلبا
حكّت مقلة الظبي الريب إذا رنت
إذا أسفرت للبدر ليلة تمّه
مهارة حوت من سحر بابل أعيناً
هي المنية القصورى لمن شام حسنها
نسيم الصبا يروي بديع دلالها
وهبت لها ودّي وأسكتها الحشى
فحلّت إذا ما شئت عن جمّ حسنها
وقوله أيضاً :

فأصبحت بين العاشقين بها صباً
وإن ماس ذلك القدّ حيرت القضا
كسا خجلاً من وجهها وجهه سحبا
كما قد حوت في ثغرها لؤلؤاً رطبا
فحمل من الحاظها إن رأى حبا
ويخبر عن تلك الشبائل إن هبا
وحقّ لها يا صاح أن تسكن القلبا
ولا تخش إن أكثرت لوماً ولا عتبا

أفندي التي سمحت بطيب وصلها
أوليت حبي من إذا ما أسفرت
أنست وكانت مثل غزلان الفلا
فهي التي من خدها الورد اكتسى
أمدامة في ثغرها أم جرعة
السحر في الحاظها والخمر في
ما كنت أعرف قهر سلطان الهوى
أحلى من العيش المرغد وصلها
فهي التي سبت النهى بعيونها
وقوله كذلك :

من بعد ما ظنت بطيف خيالها
تعني الدجنة عن طلوع هلالها
حنراً ولم تبرح بمثل نبالها
خجلاً وفاق المسك عنبر خالها
من كوثر أم ذلك عذب زلالها
ألفاظها والحسن في أفعالها
حتى غزت قلبي بجيش جمالها
ومنال زهر الأفق دون منالها
وقوامها وصفاتها بكمالها

على مثلها درّ المدامع تسفح
زكا ورد خديها ورمّان صدرها
زنوها بحسن الشمس ولتنصفوا به
يحاكي سيوف الهند فتكاً إذا رنت
تذل قلوب الأسد وهي عزيزة

مهارة لها تعنو النفوس وتجنح
ودرّ ثناياها وقد مرّح
فإن حكّم القسطاس تربو وترجع
مهند الحاظ به القلب يُجرح
.....
(1)

(1) يياض بالأصل .

وله كذلك وهو طالع قصيدة لم يكملها :

منى تزوق بلقبياكم ليالينا
ونجتني ورد خد جل مبدعه
يا جيرة سهلوا طرفي وقد تركوا
إني وإن جرتم عني بهجركم
وإن منعم طروق الطيف ساحتنا
ما ضرركم لو رفعم ستر هودجكم
إن عمنا من ظلام الجنج معتكر
كم بت تفعل بي الحاظ مقلتها
وكم سقتني جريالا نسيت بها
راح من الثغر مذ أرشفت خالصها
يا أخت بدر الدجى جودي لنا برضا
عودي إلى الوصل إن النفس ما جنحت
قد دبّ في كبلي سقم تلفت به
فإن منحت أنا الأشواق طلبته
وإن صددت وسلت مقلتك ضبا
ملك تهاب أسود الغاب صولته
لو شفّع الله للمخلوق وحدته

وينجح الدهر بالبشرى مساعينا
ونجتلي جوهرأ بالثغر مكنونا
زهر الدياتجي بمسراها تاجينا
باق على العهد لا أنفك مفتونا
فذكركم بلسان الشوق يكفيننا
على مهاة تحيينا فتحيينا
فثغرها لسلوك الطرق يهدينا
ما ليس تفعله أحداق ساقينا
غمي بما فعلت أيدي النوى فينا
علمت في العيش أني لست مفتونا
وزورة من ألم الشوق تبرينا
لغير لقبياك يا أقصى أمانينا
لم تلقه قط أكباد الحيينا
فقد فككت قتي في الحب مرهونا
فظل كهف حسين منك يحميننا
بعزمه فاق في انجد السلاطينا
لم تلف فوق بسيط الأرض مسكيننا

قال صاحب الترجمة رحمة الله عليه : هذا ما نظمته من هاته القصيدة ثم كفت عنها ا هـ . ومن شعره أبيات يظهر أنه خاطب بها بعض قضاة وقته ولم يذكر اسمه وهي :

يا قاضياً حسنت في الناس سيرته
أنتك من حجة الإسلام مسفرة
وأملت منك إقبالأ علامته
ومن به في المعالي يضرب المثل
عن وجنة الصدق ما في وصفها دغل
إثبات يُمنالك فيها يكتب العمل

ومن شعره القصيدة الآتية ، ذكر أنه أنشأها لتكتب على الدار التي أعدها المشير أحمد باشا لصنع الملف على حاقة نهر مجردة ، قال : وذلك مقترح عليّ ونصّها :

أرحها فقد أبلى السنايك وخذها
وأبعها غور الفلاة ونجدها

وألقى عصا التسيار إن كنت طالباً
فما بعد هذا الوضع بغية ناشد
مبان قضت أن المشيد لركنها
بها جرّرت ذيل المفاخر تونس
يقوم لها منها على الفخر شاهد
يباشر من فيها الصناعة وادعاً
إذا تعب الأفكار أنتج خصلة
كأن الذي يلقي لها الأمر آصف
ولا غرو إن جاءت كما أنت مبصر
فإن المقام الأحمدى اعتنى بها
ولا تحسب الوادي له الفضل إذ جرى
هو السيد الباشا الأمير الذي غدا
أنى أمره العالي برسم اسمه على
فأودعته نظمي وقلت مؤرخاً :

عجائب أسرار الملوك تعتمها
ولا غاية للعقل يبلغ حدّها
له همة قد زاحم البدر سعدها
بما لم تتل صين البلاد وهندها
ويكسى بها من فاتق النسيج جندها
ويلقى بها الراحة قد طاب وردها
تباعد عن سمّ الجوارح كدها
قبل ارتداد الطرف ينسج بردها
وقامت على تلك العجائب عمدها
وعن رأيه الحمود نظم عقدها
عليها فإقبال الأمير يمدّها
له صولة في الغيل تخشاه أسدها
دعائم هذا الباب كهفاً يشدها
مصانع ما فوق البسيطة ندها

ومن شعره أيضاً هذه القصيدة . قال صاحب الترجمة : قلتها مؤرخاً بناء الأمير
للمحمدية على الكيفية الصالحة لسكنى الجند واتخاذها لذلك . قال : وذلك مقترح
عليّ .

رباط به الإسلام قد عزّ واحتفى
هو الهيكل الفرد الذي عزّ أن يرى
لقد أنجب المجتاز ظاهره فما
أجلّ فيه لحظ الفكر تلف وجوده
وشادّ به شأواً من العزّ لم يكن
به انفرد الباشا المشير مزية
ألا إنه البدر الذي لاح نوره
يقرّ له بالسبق في المجد كل من
ويلقى له الأسلاب كل مقابل

وأصبح جدلاناً به متبسّماً
له مشبه في الأرض إلا توهاً
بداخله قد كان أسنى وأعظماً
على هامة الخضراء تاجاً منظماً
بيالغه الآتي ولا من تقدما
يقرّ بها من كان لله مسلماً
فأشرق من ذا القطر ما كان أدهما
بقسطاس عقل في المهات حكماً
ولو كان من ناواه عاداً وجرهما

فإن أنوشروان لو قدرت له
تصوّر كنه الملك فانبعث له
دزى أن نيل الفخر سام محله
فأحرز ما لم تحوه كفت مالك
وأيقن أن الملك بالجند فاغتندى
قربته جنداً به صار قطره
إذا أبصر الرائي احتفال جميعهم
تخيرهم أبناء ذي الأرض طالما
وأعرض عن جلب ولو شاء لانزوت
على أن من حسن الممالك جندها
فكم بين ذاتي المحاسن رونقاً
فنا بعض ما يحويه من شيم العلا
ذكرنا حلاك الغر لا أن قصدنا
ولكنه كان من السحر مدهق
فحسب مرید المدح أن قال أحمد
فما زال في حصن الحياة جالساً
يصاحبه النصر المؤزر ما شدا
وما لحظ الجتاز قول مؤرخ :

ملاقاته آوى لها متعلماً
عزائم لا تلوي فنال مصمماً
فأبدى له فعل المكارم سلماً
وأصبح والعليا سواراً ومعصماً
بتدبيره ينمي الخميس العرمرما
بأرجائه القصى وشاحاً منمنماً
تخليهم في العد والحس أنجماً
بروراً بها إذ كان أمراً محتماً
لحضرتة الأفواج يرجون أنما
فما كان موصولاً بها كان أضخماً
ومجلو بها خذ ما سمعت مسلماً
وقس ما انطوى ذكراً عليه لتعلماً
مديح ولا إظهار ما كان مبهماً
فما ذاقه المحزون إلا تبساً
وما زاد مطري الليث أن قال ضيفاً
على منبر الإسعاد ملكاً مفخماً
هزار على قضب الربا مترنماً
رباط به الإسلام قد عز واحتمى

ومن شعره ما هنا به الأمير المذكور ببناء أيضاً . قال رحمه الله : كتبت لأميرنا
المؤيد السيد أحمد باشا في يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجة من عام 1253 هـ ، مهتأ له
بالقصر الذي بناه على القبة التي كان أنشأها الأمير علي باي رحمه الله .

ليهنك قصر في محاسنه فرد
حوى من نعوت الحسن ما لو تلبست
تودّ النجوم الزهر سيراً بأفقه
يباري ابتهاج الشمس في رونق الضحى
تأنق في إبداعه كل صانع
تطلع إكليلاً على هامة العلى

تعاقد في أحكامه الملك والسعد
بمعشاره الغبراء قلنا هي الخلد
وفي أوجه الأبقار تأمل أن تبدو
فمن أجل ذا تعشو له الأعين الرمد
إلى غاية ما بعد إدراكها جهد
فما شيدت مثلاً له الفرس والهند

وكل ذوي السلطان من قبل أو بعد
 خلف فبالإلزام قوله ردّ
 فما إن له عيب سوى أنه فرد
 (هي القبة الفيحاء ما إن لها ند) "
 ومن فوقها مرّت أساطينه الملد
 ولكنها ما شاتها الهجر والصدّ
 وكم حاولوا نبلاً ولكنهم ردّوا
 لصاحبها الإرقال في المجد والوحد
 بأمثالها يا صاح قد قدم العهد
 تجمّع في جيد الزمان بها عقد
 تطلّع بدر التم والليل مسودّ
 شذا ذكره لم يحكه المسك والند
 وسيان ماء الود في الطيب والورد
 يصبّحها وفد ويُمسي بها وفد
 ومن حوله ليل الحوادث مرّيدّ
 قفل ربح المسعى وقابلك الرشد
 وفر بالأمانى إذ تروح وإذ تغدو
 بحيث تساوى عنده النوم والسهد
 تجلّ عن الاحصاء فلم يحوها العد
 فما بعده فخر يرام ولا مجد
 عليه رواق النصر والظفر ممتدّ
 كما أن مبدية هو العلم الفرد
 وجاء كما تنواه وانتظم العقد
 وأضحى بما قد حاز من حسنه يشلو
 بدا بارعاً في الحسن دغمه سعد

هـ1253

تقاصر عن إدراكه كف قيصر
 بدائمه تنسي البديع ومن يعل
 ترفع في علياه عن كل شائن
 فلو شامه من قد تقدّم لم يقل
 ألم تره أرى عليها فداسها
 ولو روعي الانصاف قلنا كواكب
 به لم نجد كف الزمان لسبق
 وأنخي كيما يستين بدولة
 هو الملك الآتي بغرّ فضائل
 مآثر تحكي الدرّ حسناً وبهجة
 تطلّع في أفق الأمانة مثلاً
 وقام بعبء الملك من يعد سيد
 وسار على نهج لوالده انتمى
 وأصبح كهف المستجير وكعبة
 قفل للذي يشكو صروف زمانه
 إذا استمسكت يمينك من ذيل أحمد
 فذلك إكسير النجاح فتق به
 ملك قويّ العزم في طلب العلا
 فيا سيداً أضحت خصال أكماه
 ويا رافعاً للمجد أرفع راية
 ليهنك هنا القصر والمترل الذي
 فما مثله في عالم الحسن هيكل
 ولا تناهى للتمام مشيده
 تبسّم إعجاباً به الدهر ضاحكاً
 وقال لسان الصدق فيه مؤرخاً

(1) يعني به الشيخ الورغي .

ومن شعره مهنتاً الأمير أحمد باشا أيضاً برجوعه من سفرة طاف فيها الناحية القبيلة
من الأيالة التونسية وقاتل فيها بعض الأعراب الثائرين عليه من رعيته هذه القصيدة :

تبسم للخضرا بمقدمكم ثغر
وهب نسيم الوصل فانتعشت به
وأصبح قمرى المسرة صادحاً
وأشرف أفق الملك لما انجلي به
هو الملك السامي الذي عزّ أن يرى
أناف على شمّ الملوك بهمة
وحزم لو ان الشهب قارعها به
وفرط مضاء في الأمور تظافرت
أشاد بناء المكرمات فأصبحت
وقام بتأليف الجنود منظماً
فجاء بترتيب تود لحسنه
يريك بسيط الأرض صفقة كاتب
بها صار للإسلام عزّ مبجل
ليوث عربن أنت قائد حزمهم
بهم لحت من خضراء ملكك سائراً
فشرقت في ذا السير منك منزلاً
كفاها عن التبعين ما اشتهرت به
وأوطأت أرض الثائرين فوارساً
فحل بهم من سطوة الملك ما رأوا
أما علم الأقبام أن وراءهم
ألم تره إذ وجه العزم نحوهم
فسكن من غوغائهم كل نائر
وعاجت إلى أغياها أسد جيشه
وآب أمير المؤمنين مظفراً
فكان لنا في عوده اليمن كله

وفاح بها من طيكم للورى نشر
نفوس صلاحها من مغيكم جمر
على فنن العلياء باد له البشر
لأحمد نجم بل تراءى به بدر
له مشبه في فضله إذ هو الوتر
تعالت على أوج به خيم النسر
لأضحى له في حزها النهي والأمر
على نجحه الأقدار فارتفع القدر
له مآثرات لا يحاط بها غر
ها مثل ما في سلكه ينظم الدر
لو انخرطت في ضمنه الأنجم الزهر
وتلك حروف قد أجيد لها حبر
ونحن نرجي أن سبيلى بها الكفر
وعقبان جو أنت من بينهم صقر
أمامك دون الجيش عزمك والنصر
نزلت بها بل جاد أرجاءها قطر
فصارت بروجاً حيث حل بها البدر
يهاب ونحشى أن يقارعها الدهر
وناهم ما لا يحيط به الحصر
ملك لدى الهيجاء مطعمه مر
أناف على مظنون ما زور الفكر
وأرخی رداء الأمن وانفصل الأمر
وعادت إلى الأغناد أسيافه البتر
يجرّ أذيال الثنا فله الفخر
وحق عليه أن يدام له الشكر

أمير الورى دم في العلا بدر أفته
ودونك من درّ الثناء جواهرأ
أتيت به نزرأ من القول بجملاً
لما أن إحصاء كمالك معجز
ولست بمن يزداد بالمدح رفعة
ولكنّ ذا عنوان حب منحه
قدم في مراقي المجد غير مزاحم
ودام لمولانا السرور مضاعفاً

وقطب رحي الأيام ما اتصل الدهر
وعنبر أمداح بحامره الفكر
ولي في التجاني عن تفاصيله العذر
وهل تحسب الحصباء أويحصر القطر
ولا أنا ممن عدّ حليته الشعر
علاك وأضعافاً له أودع الصدر
ولا زال ثغر السعد نحوك يفتّر
وطال له في العزّ والسؤدد العمر

كما هنا وزيره الأكبر مصطفى خزندار عند رجوعه من السفارة المذكورة بقوله

لك السعادة في حلّ ومرتحل
ولئن عودتك الغراء أنفسنا
فإن تباعدت شخصاً فالقلوب غدت
ولا يضر العلا أن غبت عن نظر
وقد غدا صادق العلياء يُسمعنا
آب الوزير فأبت كل مكرمة
ذاك الذي قد غدا في فضله مثلاً
شخص تصوّر من نبل ومن كرم
شخص أحاطت به أوصاف سؤدده
قد أضمرته العلى في سرها حقياً
يا من جعلت حمى قلبي له سكناً
خذ جوهراً قد غدا فكري يرصّعه
أملاه ودك والأقلام ترفه
لا زلت تكسو زماناً أنت بهجته

ولا برحت مدى الأيام في جذل
إذ أنت منها نظير النور في المقل
منازلاً أنت عنها غير منتقل
فطيب ذكرك لم يبرح ولم يزل
قولاً هو الغاية القصوى من الأمل
في سلك ما قاد من خيل ومن خول
ومصطفى ما له في الدهر من مثل
فجاء فضلاً بكل المكرمات ملي
فانظر تجده جميع الناس في رجل
حتى بدا غرة في أشرف الدول
والحب يشهد أي غير ذي زلل
له نصارة روض شيب بالبلل
فجاء مدحاً يحاكي رقة الغزل
محاسناً تزدري بالحلي والحلل

وقال يمدح الأمير أحمد باشا أيضاً خصوصاً بما أنشأه في الجامع الأعظم جامع
الزيتونة من المكتبة الجليلة المعروفة فيما بعد بالمكتبة الأحمدية . وقال أنه أرسلها إليه
في رمضان سنة 1256هـ :

السعد تخبرنا شواهد حاله
وعليك قد ضرب الفخار سرادقاً
يا من بدولته النجوم تكحلت
بك مفخر للدر ليس بخامل
فلأنت ضيفه ونير أفعه
أنى يحيط بك المديح وأنت من
لك خطة الشرف التي لم يحوها
وأصالة الرأي الذي آثاره
فلنا غدا خاقان عصرك آخذاً
وعناك إن قال المشير وجذا
ومن العناية أن غلوت مطوقاً
كم قد تطاولت الرقاب لنيه
فتفاصرت عن حوزة وحيته
وكساك تاجاً وهو أعظم آية
ولو المعاني صورت وتجمست
فبنا بلغت ذرا السيادة مدركاً
أنت الجليد بكل ما أوليته
من ذا يجاري أحمداً في فضله
سباق غايات المكارم أوحده
ملك تصمم أنه فرد العلى
فه بوصل المكرمات عناية
أغنت مهابة ذكره عن سيفه
أفضى لمزم عدايته تخمينهم
جأش يلين له الحديد وصوله
ورحيب صدر ضمّ حلماً واسعاً
وندى أناف على الغمام ومائه
فاذا الكرام تبسطت أيمانهم

أن قد كسا عليك ثوب جماله
وبإبلك العالى مناخ رحاله
بالأمن إن لجأت لبرد ظلاله
لم لا وقد أصبحت من أقباله
ونخصمه الطامي وطود جلاله
تهوى بدور التم لثم نعاله
ملك وإن عظمت خصال كماله
رويت بما يجريه من سلساله
بسديد رأيك في مهم فعاله
لقب حويت الفخر باستكماله
طوق الجلالة من سنا إفضاله
وتسارعت هم لجلب مثاله
وملأت كفك من وثيق حباله
دلت على المكنون من إقباله
لأتاك محض الود في إرساله
شأوا منال النجم دون مناله
وخطرت يا ذا الجد في سرباله
أم من له نسج على منواله
حاوي الفضيلة يوم رفع طواله
مها أجلت الفكر في أحواله
ولها مزيد عناية بوصوله
ودفاعه عن قطره بناله
في بطشه ومرور طيف خياله
تستوقف الضرغام عن أشباله
يلقى به الجاني منى آماله
إذ سيبه بمواهب من ماله
أربى على معروفهم بشماله

تاهت على كل البلاد بلاده
 أبدى بها الجيش العرمرم وشحت
 وأنال مسجدها المعظم رفته
 وحباه من كتب العلوم نفائساً
 أطلعها من أفق فضلك أنجماً
 وأجلت فيها راحة المثري ومن
 وبها أزحت شذائداً عن عاجز
 يا أيها الملك الذي حاز العلي
 خذها إليك قصيدة بل دمية
 رقت فمن فرط اللطافة خلتها
 عجزت عن التفصيل فيما نلته
 واهناً بعيد قد أظلك وقته
 هنا ولولا الشرع عيّن وقته
 إذ كل يوم من زمانك موسم
 لا زال ملكك زينة الدنيا ولا
 وبقيت ترفل في مطارف سؤدد
 وسما بها الايواء تحت جلاله
 أصنافه بالأسد من أبطاله
 وسقى مصوح نبتة بزلاله
 تزري بنفح الروض في آصاله
 يجلو بها الساري دجى أشكاله
 قد صفدت كفاه من إقلاله
 وكشفت ما أصماه من أهواله
 وسعى إليها سعي صبّ واله
 حوراء جللها الحيا بجلاله
 تغني رقيق الطبع عن جرياله
 من سؤدد فسعى إلى إجماله
 وسناؤه واسلم إلى أمثاله
 لانفك يوم العيد عن شواله
 يعني جبينك عن طلوع هلاله
 ذاقته مدى الأيام طعم زواله
 ومسرة بمحمد وبآله

ومن شعره قال أنه هنا بها المعظم الأرفح بيت قصيد الملوك أبا عبد الله محمد باي
 ابن الأمير المؤيد المنصور أبي عبد الله حسين باي بابة ولدت له سنة 1243 هـ .

السعد أشرق واستار وأجزلا
 وتنفست بصبا المسرة نسمة
 وبلابل الأذواح فوق غصونها
 لحديث أنس دار ما بين الوري
 بكريمة من آل بيت قد غدوا
 وافت لفرعهم المهذب من غدا
 نجم الملوك محمد وابن الذي
 يا ابن النبي سميت معالم مجدهم
 وعدا وأبدى وجهه متهللا
 فاقت بما أهدت إلينا المنذلا
 قد أنشدت خبير السرور مرتلا
 فكأنما شربوا الرحيق السلسلا
 كهفاً لمرتاد الفخار وموتلا
 ثوب المكارم والعلی متسرلا
 بكماه فاق الملوك الكمالا
 وتبوؤوا ملك المفخر متزلا

وزدانت الدنيا بحوطة ملكهم
 طالت على زهر الدجى أحسابهم
 من كل شهم حازم آثاره
 تهنيك زهرة دوحه الملك التي
 جاءت وجاء البشر يقفوا أثرها
 ما صورت إلا لفخر ذاتها
 قد عززت شمس الدجى بأخوة
 ومن انت يا فذ الزمان أبوه لا
 لا زالت الأقدار تحمي ربيعها
 وإليكها عقداً تود لو أنها
 قد صغتها لعل قلدك حلة
 وبقيت ذا شرف يخر لجده
 وهم تذكرت النظام الأولا
 وتسمنت شرفاً أتم وأطولا
 أضحى بها تاج الزمان مكللاً
 عن غير كاهل رفعة لن تحملا
 وبربعها خفقت بنود للعلا
 أو كفتها إلا لتقبيل الملا
 وانظر تجد هذي أجل وأكملا
 مين يكون مرفعاً ومفضلاً
 وحجاب رب العرش عنها مسدلا
 تحظى بها في الجيد غزلان الفلا
 وأروم أن تعطى محباً مقبلا
 قر السماء لراحتيك مقبلا

وعقب صاحب الترجمة على هذه القصيدة رحمه الله بقوله :

الحمد لله وفي يوم السبت الرابع والعشرين من حجة عام 1259 هـ ، زوجت البنت
 المقول فيها القصيدة أعلاه واسمها فاطمة وزوجها حيدر . وتولى خطبة نكاحها الشيخ ابن
 سلامة قاضي المالكية وتزوج في ذلك اليوم عماتها الأربع وكان الخطيب لإحدها كاتبه
 الفقير ولأخرى شيخنا الرياحي وللباقيتين القاضي المذكور . وكان ذلك بمحضر الباشا
 المشير وكبراء دولته وبني عمته وجميع أهل المجلس بالمحمدية اهـ .

ومن شعر صاحب الترجمة ما هتأ به الشيخ أحمد بن أبي الضياف بقدمه من
 الأستانة ونص ما وطأ به ، لذلك قوله رحمه الله ، ولما قدم أخونا أبو العباس أحمد بن
 أبي الضياف من أسلامبول في أواخر جمادى الأولى من عام 1258 هـ ، وقد كان ذهب إليها
 رسولاً عن مخدومه السيد المشير أحمد باشا نصره الله وجهت إليه بهاته القصيدة :

أيحسن بي أم بالغرام يليق
 إذا كان كأس الحب حلواً مذاقه
 وأي فتى يبقى على الميز ثابتاً
 فلا عاش من أخلى من الوجد قلبه
 سلوي كلاً ما لذلك طريق
 فأبي عوادي الدهر عنه تعوق
 إذا آن من سهم الجفون مروق
 وبات من الأشواق وهو مفيق

وما مقنع منه الوقوف بساحل
فإن لغايات الأمور مزية
فهذا أبو العباس لما تعلق
أبي الطرف اللاني الجنى منه فاعتلى
سوار يمين الدهر بل عقد جيده
له القلم الأعلى الذي ثبت له
إذا جال في سلم من القول هجنت
وإن صال في زجر بدا الرعد فاحتوى
وفي سائر الأغراض روض بلاغة
كلام كسق الدرّ راق اجتلاوه
حريق لأكباد العدا حسداً وإن
تخالفت الآراء في نعت حسنه
قال فريق إنّه الزهر ضاحكاً
وقال أولو التحقيق صهباً يشوبها
وكم لأبي العباس من فضل سؤدد
وما خفيت آثاره عن مليكه
فأورده من خالص العزّ منهلأ
وأولاه فرط القرب منه سفارة
رآه لها أهلاً لما أن عهد
فقام بها والحال في ذلك شاهد
وآب قرير العين يعلوه خافق
فعاد إلى الخضراء جلاب حسنها
وقد كان أضناها الحنين فأنشدت
وأشرق حتى قال لليلر أقه
ولما كسا الأسماع قرب إبابه
ترقبت الأبصار مرآه مثلاً
وهاك فدتك النفس تحفة قادم

إلى أن يُرى في اللج وهو غريق
إليها أبيات النفوس تتوق
له همم بالمجد وهو خليق
وها هو ذا للتيرين رفيق
ولو قيل وسطى تاجه فحقيق
على الهندواني الصقيل حقوق
له نغم الأوتار وهي تروق
على قلب من يصغي إليه خفوق
نضير بأنواع البديع وديق
وفاق كنشق المسك وهو فتيق
بدا لنوي الإنصاف فهو رحيق
فكل له فيما انتقاه طريق
وقال بل الزهر النجوم فريق
من الأشنب الصافي المقبل ريق
ياحرازه كل الكرام يفوق
وهل ساغ كم الطيب وهو فتيق
وأرقاه صرح المجد وهو أنيق
بتبليغها ذاك الجنب يليق
يانجاح ما يلقي إليه وثيق
قياماً إلى نيل المرام يسوق
من العزّ محفوظ الجنب صفيق
ولاح عليها من سناه بريق
متى يتلاقى شائق ومشوق
تنحّ فذا بدر الكمال شريق
سروراً ولاحت للقدم بروق
ترُقّب للغيّد الحسان طروق
ها منطلق عذب الحديث رقيق

أباح لي العهد القديم زفافها
بجك من دون الأخلاء أفعمت
وهب عمر الأنساب منّا تباعدت
تمازجت الأرواح منّا فأفردت
وشاهد حالي فيك يعلن أنني
فمن لي بأن أعطى من القول بسطة
فأفصح عن مكنون ما في جوانحي
فحسبي اعترافي أنني عنه عاجز
إليك وود طال فهو عتيق
مكان دمي الجاري العييط عروق
فأنت لنفسي بالوداد شقيق
فما ساغ لي أنني أقول صديق
بما خطه مني اليراع صدوق
وحسن بيان بالمقام يليق
ولكن مرمى ما قصدت سحيق
وأن مقالتي عن مداه يضيق

وعقب صاحب الترجمة عليها بقوله رحمة الله عليه :

وقد جارت هذه القصيدة قصيدة الشيخ العلامة أبي عبد الله محمد بن سعيد التي
مطلعها :

تروع الليلي ثم بعد تروق وكل غروب متناه شروق

ووكلت التفضيل بينها لمن غمس يده في الأدب مع التحلي بالإنصاف .

ومن شعره ما هنا به الوزير مصطفى خزندار لما قدم من سفرته إلى فرنسا رسولاً عن
مخدومه الأمير أحمد باشا في أوائل جمادى الأولى عام 1255 هـ ، وهو قوله :

سلام يزدري بالمسك طيباً
وينشر من مطارفه حلياً
سمي المصطفى من ليس نلني
يُنمقه لحضرتكم محب
تملاً من إيابكم سروراً
قدمت فأشرقت بالقطر شمس
وأخصب جانب العلياء لما
وعاد إلى الوزارة منك روح
وجئت مقارناً الشفاء ملك
فعمّ جميعنا بهما هناء
ياكر ذلك للغنى الرحيا
يناسب حسنه الفرد الأريبا
له في حسن سيرته ضربيا
يقوم بمدح سؤددكم خطيبيا
وقدماً قد شكنا منكم مغنيا
ولاح به شهاب لن يغنيا
أيت وكان مبيتساً كئيبا
وألبس شخصها برداً قشيبا
أزاح يئمن دولته الخطوبا
أقر بحسن بهجته القلوبا

بقيت لأنفس والتك عزا وفي نحر العدا سهماً مصيباً
ولا زالت سعودك في ارتقاء تربنا كل آونة عجبياً

ومن شعره البليغ قصائد أخرى رثائية منها قصيدة في تاريخ وفاة سيدي محمد الشريف . قال صاحب الترجمة باقتراح أبناء حبيبه المذكور :

قف وقفة المتذكر المتفكر وإلى المآل بعين قلبك فانظر
يا غافلاً عما تحقق كونه فكأنه بوقوعه لم يشعر
أفلا اعتبرت بمن مضى لسبيله وطواه طي الثوب مرّ الأعصر
طوبى لمجتهد تخير مشرباً تفضي موارده لحسن المصدر
ولحُب أهل البيت أقوى عدّة يرجى به نيل النعيم الأوفر
فاشدد يدك على وثيق ولائهم والى الآله به تفر وتظفر
كضجيج هذا الرمس فهو من الأولى لم ترم نسبتهم بقولة مُنكر
هذا الشريف محمد بن محمد نجل الرضا عبد الكبير الأكبر
السيد ابن السيد ابن السيد اب من السادة الحاوين طيب العنصر
وهلم جرّاً خض بحار سيادة وانظّمهم في الفضل نظم الجواهر
حتى يؤول به العناد لنخبة الـ أكوان كهف الخلق يوم المحشر
أبعد هذا المجد تطلب رتبة أو فوقه من غاية في مفخر
فبجاه هذا الجد أكرم نزله وأنله ما في باله لم ينظر
واقبل دعا من قال في تاريخه : أوردّه يا مفضال ماء الكوثر

وقال مؤرخاً وفاة حليلة زوجة حمودة باشا . قال صاحب الترجمة أنه التمس من بعض إخوانه أن يؤرخها فشقّ عليه ذلك ، فطلب مني أن أكفيه هذا الأمر فقلت :

جدت عليه غمام جود مُسبّل أولاه ذاك المنعم المتفضّل
قد ضمّ واحدة الزمان ومن لها بحليلها الشهم الهام تجمّل
أعني حليلة زوجة الملك الرضا حمودة الباشا الهزير الأكمل
كان العفاف لها رداء طالما جرّته أما العرض فهو المندل
نالت من المنان لما أودعت في رسمها نعماً تجلّ وتكمل
إذ وعده للمؤمنين منزّة عن وصمة الأخلاف وهو الجزل

فلذاك قد صدحت شواهد حالها
حازت جميع القصد في تاريخها
قالت ومحض الصدق عنها يُنقل
وبجته الفردوس طاب المنزل

وقال يرثي الشيخ حمودة بن الخوجة ويؤرخ وفاته في عاشر جمادى الأولى من عام

: 1258 هـ :

أجل في صروف الدهر معتبراً طرفاً
وحسبك منها واعظ الموت إنه
عجبت لمغرور ترامت بلبه
فمن قد تخطته حوادث دهره
فما الحزم كل الحزم إلا لنعرض
كحمودة ابن الخوجة الفد من ثوى
قرين العفاف المحض من شهدت له
سليل الإمام الجهيد الفرد أحمد
قضى طاهر الأثواب من كل شائن
فحقق إلهي فيه قول مؤرخ :
فقد خطت الأيام من وعظها صُحفاً
لأبلغها وعظاً وأينها كشفاً
أكف الأمانى وهو ينتظر الحنفاً
وساله صرف الزمان فقد أشفى
عن العرض القاني ومُلِق له خلفاً
يباطن هذا الرمس يرجو به الزلفى
بنو عصره أن لا نظير له يُلفى
وحيد العلا مفتي الورى المنهل الأصفى
وأبقى ثناء طاب ترديده عرفاً
حوى من نعيم الخلد ما يعجز الوصفاً

وقال مؤرخاً وفاة حليلة ابنة إسماعيل كاهية :

رسم عليه ظلال عفو ضافية
قد ضمّ من بيت الفخار كريمة
وصفت بفرط الحلم فهي حليلة
من جدها الملك الذي أرى على
أعني علي بن الحسين أخواً للعلا
وأب لها ذاك المرفع قدره
حسب لو اشتمل الزمان بيرده
أضحت لخير الدين خير حليلة
عكفت على ما ترتضيه أولو النهى
وتصورت كنه الدنا بجنان من
فلطالما كرت كؤوس تلاوة
وسحائب بمعين جود هامية
عرفت بفرط الهمة - المتعالية
ذات الفضائل والأيادي الجارية
شمّ الملوك بمأثرات واقية
خذن العفاف أبا الملوك السامية
يدعى بإسماعيل أعني الكاهية
لأعاد بيضا بالسناء ليالية
وغدت بآداب المودة حالة
وتدرعت بلروع فضل واقية
ماز الوثيق من الأمور الواهية
تروي بسلسلها الصدور الصادية

ولكم لها من شيمة نفحاتها
ومضت كذا غمراً جميع خصالها
قلمت على ما قلّمت من صالح
فلها البشارة والهنا إذ جاء في
أذكي أريحاً من نفيس الغالية
حتى أتى الداعي لدار باقية
فتسلّمت منه البضائع نامية
تاريخها: سكنت قصوراً عالية

وقال مؤرخاً وفاة العدل الشيخ الطيب الزين باقتراح :

رسم عليه غمام الجود قد وكفا
يمّمه وقرأ إذا أمّ الكتاب فقد
ثوى به الطيب الزين العفيف ومن
من وافق الاسم والتلقيب منه معاً
ذاك الذي سلمت من لفظه ويد
عدل به صنعة التوثيق قد شرفت
ينيل جُلاسه من حفظه حكماً
أضحى عتيقاً من النيران قد بلغت
وحين أضجع بالرسم المقدس في
ترنّمت ألسن الأحوال ناطقة
تقول أسدى لي الوهاب ما طلبت

ساق المهيمن للشاوي به تحفًا
أمسى به من غدا من أكمل الظرفا
بالرُشد بين الوري والفضل قد عرفا
خلقاً وفعلاً مجاز المجد والشرفا
له الأنام وعن تقواه ما صدفا
إذ من كؤوس لها يا طالما رشفا
تزري بعقد من الباقوت قد رُصيفا
سنوه عمراً له التسعين بل عطفا
يوم به رائم للحج قد وقفا
حتى كأنّ بها المرموس قد هتفا
نفسى: وفتح في التاريخ لي عرفا

1252هـ

وقال مؤرخاً أيضاً وفاة . قال ما نصّه :

التمس بعض الإخوان من عمنا مصطفى أن يؤرّخ وفاة أبي عبد الله محمد المحجوب
العدل بمتزل جميل وهو ذو بيت بها وجلّه صاحب زاوية شهيرة فأرّخه بمصرع لم يتيسر
له تضمينه ، قالتس مني أن أضمنه فقلت :

أيا غافلاً والموت منه بمرصد
وكن عالماً أن اللنا دار فرقة
كصاحب هذا الرسم أعني محمداً
تناول كأس الفضل من بحر جوده
تيقظ ومن فعل الجميل تزود
فكم قد أبادت من مصود وسيد
من اكتسب العلياء من خير محند
أبي الحسن المحجوب أكرم مرشد

لقد كان عدلاً ذا عفاف مبرراً له همه تسمو على كل مقعد
مضى طاهر الأثواب من كل شائن وأبقى أريجاً في ثناء مخلد
ويتم مفضلاً فقال مؤرخ: إلى جنة المولى مسير محمد

1253هـ

ومترجمنا رحمه الله ، كما أنه من العلماء النبغاء وفحول الشعراء هو كذلك من عليّة
الكتاب النبلاء كما سبق في ترجمته . ولندكر ما اطلعنا عليه من نثره ، فمنه خطبة نكاح
ذكر أنه خطب بها يوم عيد النحر بباردو بمحضر أمير وقته نصها :

الحمد لله خالق الإنسان في أحسن تقويم وملبسه بجميل فضله حلّة التكريم
ومختاره للخلافة دون أصناف مخلوقاته ومخصّصه بالاعتبار في خلق أرضه وسماواته
نحمده وهو أولى بالمحامد ونترمه عن الصاحبة والولد والوالد ، ونشكره على أن جعل لنا
من أنفسنا أزواجاً ومهد لنا إلى سلوك محبوب النكاح منهاجاً رفقا منه جلّت حكمته
وعظمت على العباد منته بمن هو أسير شهواته واقع لولا لطف ربّه في مهواته وإبقاء
للتناسل المفضي إلى انتفاع من سلف بدعاء من خلف ونشهد أن لا إله إلا هو شهادة
أقامت الأدلة عمودها وغدت مياه الإخلاص أملودها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله
أرسله لمكارم الأخلاق متمماً ولجواهر الأحكام منظماً . فبين صلى الله عليه وسلم
الشريعة بياناً تلقته العقول وهي مطيعة وورغب في النكاح ترغيباً وافقت عليه الطبيعة حتى
كاد مندوبه أن يكون محتوماً واستحق الرأغب عنه أن يكون ملوماً كيف ومن الوارد في
سياق تحسينه : «من تزوّج منكم فقد ملك نصف دينه» إلى غير ذلك من حفظه لمناصب
الأنساب وصونه عن أن يكون للحرّمات انسياب ومخالفة الجاهلية بالوقوف عند
حدود الكتاب فصلى الله وسلم عليه وعلى آله ما حصل ازدواج ، وقامت أسواق
المصاهرة فكان لسلمها رواج ونزل من المعصرات ماء ثجاج . هذا وما كان النكاح بالمحل
الذي ذكرناه والمقام الذي شرحناه بحيث تبين أنه من الدين وسنة سيد المرسلين وامتن به
تعالى فقال كذلك : «وزوّجناهم بحور عين» وكان ذلك من معلومات مولانا نخبة الملوك
الأكابر ورقاة الأسرة والمنابر ووارث المجد كبراً عن كابر صاحب الصيت الشهير الملك
الأفخم المشير ذي القدر المنيف الغني بشهرة مآثرة عن التعريف صدر منه أيده الله تعالى
الأمر المطاع الذي يسرع إليه الأتباع بإيقاع هذا العقد السعيد المزدوج لكمال المناسبة
بيوم العيد المشرقة في سماء المسرة زواهر المنظومة بلّبة الأيام جواهره بين عقيلة بيت
الرئاسة المحرزة بأخوة مولانا الدرجة العالية من النفاسة رضية لبان المجد البالغة من

الصون والعتاف إلى أبلغ حدّ الحائزة بنسبها العريق في الملك الرتبة المعلومة الطاهرة الجليلة السيدة فطومة وحليف المناصحة لمولانا في خدمته المسارع إلى مرضاته ولو يبذل مهجته للتغذي لكمال قربه بلبان نعمته أحد كبراء الأجناد القائمين بالمحافظة على عمارة هذا الناد الناصح الرئيس الضابط أبي عبد الله السيد محمد المرابط أمير الطائفة الخامسة من العسكر المحمدي المنور ذلك لما رأى مولانا تأهل جيده لبس هاته القلادة وعدم قصوره أن يعمل في الجهد زناده لتدرعه من عراقه الأصل بسلاح وتدرجه من بيت كرم وصلاح فشيّد أيدّه الله عضد معاليه بعلاقة المصاهرة ورضع تاج عزّه بهاته الدرّة الفاخرة ، فتلقّى النعمة قائماً بشكرها وتلقّف الأمانة ملتزماً برعيها ويرها باذلاً لها من المهر المناسب ما أوجبه الدين القويم وتضمّن تفصيله غير هذا الرقيم قرن الله بالسعادة أول أمرها وآخره وعمّ يبلوغ المرام مستقبلي وحاضره وهنأ مولانا الأمير بما ملكه من هاته المملكة وخوله وأضفى عليه لباس النعمة وجلّله ووصل بالتوفيق والتسديد قوله وعمله وبلغه من الدنيا والآخرة أمله كما اختاره لحراسة هذا القطر وأهله ، واستغفر الله لي ولكم وجميع المسلمين ا هـ .

وله خطبة أخرى في مثل ذلك ، وذكر أنه أنشأها في 21 حجة عام 1259 هـ وخطب بها بمحضرة الأمير في المحمدية ونصّها :

الحمد لله ذي النعم السابقة والحكم البالغة والآلاء المتتابعة والمواهب الواسعة باري الإنسان ومصوّره ومبدعه في أحسن الأشكال ومظهره نعمده على ما أجزل من إباحة النكاح وقرن به من طرق النجاح ورفع به عنّا الأصر والجناح ونشهد أن لا إله إلا هو تتّزه عن الصاحبة والولد وتعالى عن إحاطة الزمن به والأمد ونشهد أن محمداً عبده المنتخب من أظهر أرومه ورسوله المبعوث من خير جرثومة أرسله لمعالم الدين شارحاً ولمشاقّ التكاليف طارحاً فلم يأل جهداً في الإرشاد إلى المصالح والأبعاد عن القبائح والتحريض عن المتجر الرابع . فكانت خصلة النكاح منخرطة في سلك ما ندب إليه وحثّ بقوله وفعله عليه حيث صرح عليه السلام بأن لا رهبانية في الإسلام . ووقع منه الإفصاح بقوله : ما أحل الله حلالاً أحب إليه من النكاح وتزوج صلى الله عليه وسلّم وعلى آله ذوي الأنساب الطاهرة والأحساب الظاهرة والمفاخر المتكاثرة صلاةً وسلاماً نستفع بهما في الدنيا والآخرة ونرجو سريان بركاتهما في الأولاد والأزواج ونرجو شمولنا بأرجهما في الرواح والإدلاج . أما بعد ، فإن النكاح لما اشتمل عليه من الخصال المهمة عاضدت السنّة في الترغيب فيه من الكتاب العزيز آياته ومضت عليه صرائحه وإشاراته

أفیرغب عنه ، وطالما قرع الأسباع قوله جلّ ذكره : «فانكحوا ما طاب لكم من النساء
 منى وثلاث ورباع» كيف وهو مقدمة التنازل الكفيل بالتآلف بين الشعوب والقبائل
 ولولاه لساقت الشهوات إلى التحاق الإنسان بسائر الحيوانات ولانقطعت سلاسل
 الأتساب وتحطّلت النفوس عن الصعود في معارج الأحساب وانفتح من الفساد باب وأي
 باب . ولما لم يعزب علم ما قرّناه ومضمون ما تلوناه عن ذهن مولانا أسد الإسلام وواسطة
 عقد النظام ومن جعل الله بيده مقاليد التقض والإبرام والمنجلي بنور آرائه عن هذا القطر
 غيب الإظلام الباشا المشير ذي القدر الخطير زاده الله فضلاً ولا جعل له في ملوك الزمان
 مثلاً أمر أيده الله بترويج محجوبة جهاله ومحفوظة يمينه وشماله المتمسكة من العون بغايته
 الآخذة من العفاف برايته الرامية من المجد بسهام غير طائشة السيدة الفاضلة الجليلة عائشة
 ابنة مولانا الملك المقدس صاحب المجد الأقدس أبي عبد الله حسين باشا نور الله مرقده
 وهباً له ما النعيم أرغده واختار لها من خدمة حضرته ومعنني دولته ذا السيرة المرضية
 والخلال التي هي بإبلاغه هاته الدرجة حرة التحلي بالشيم الحسان أبا عمرو السيد
 عصمان . وذلك لما علمه مولانا من عدم قصوره عن لبس هاته الحلة واستحقاق الانخراط
 في سلك أصهاره الجللة ، فلقى راية هذا العزّ باليمين وعلم ما لهاته النعمة من المكان
 المكين ، وقابل صنيع مولانا بما يجب من شكره والتزم لمن دفعت إليه بغاية المقذور من
 برّه ، وعين لها من المهر المناسب ما ورد به من الشارع أمره ، وشرح بغير هذا المسطور
 قدره مهّد الله لها من الألفة أوطأ ما مهّد للأزواج وكساها من عناية مولانا أرفع تاج
 ونسأله تعالى أن يهب لسيدنا من العمر أوسع ومن القدر أرفع ومن الذكر أضوعه ومن
 العيش أمتع ومن شمل السعادة أجمعه متوسلين في نيل هذا المرام بالنبي وآله عليه
 وعليهم الصلاة والسلام اه .

وله خطبة نكاح أخرى ذكر أنه التمسها منه الشيخ الأبيّ عند إرادته العقد
 لحفيده ، وذلك في شهر رجب سنة 1268هـ ونصّها :

الحمد لله الذي أوجد العالم على أحسن نظام وأبرز فيه بحكمته ما تحار في خفي
 مداركه ثواقب الأفهام وركّب في النوع البشري عقلاً به تدرك الأسرار وأمر بإجالاته في
 للبتدعات قصد الاعتبار وجعل في النظر في العالم الأصغر الذي هو الإنسان كفاية وفي
 التأمل في تكونه وتطوره على وجود الصانع آية وأي آية ومهّد إلى إبرازه إلى الوجود سبيلاً
 وعيّن الأزواج به كفيلاً . فأباح لذلك من النكاح مرغوبه ويّن على ما اقتضته الحكمة

وقرّنه الشريعة أسلوبه نحمده سبحانه على جليل نعمه ونستريده من مواهب كرمه ونشهد أن الله الذي لا إله إلا هو المتّزه عن الولد والصاحبة المتعالي عن أن تكون بينه وبين خلقه مشابهة أو مقاربة . ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله للأمة ناصحاً ولمصالحها شارحاً ولمشاقّ التكاليف السالفة طارحاً صلى الله وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه ما رغب في النكاح راغب وتلاقى مخطوب ومخطوب وجلب فرائد الخرائد من ثمار البيوت الفاخرة جالب هذا وأن الترغيب في النكاح ممّا شمله من النبي ﷺ بيانه واتسع فيه مقالة ونطق به لسانه فرغب فيه لكونه من السنّة خلفاؤه الراشدون وحلفاؤه وإخوانه وبالغ عليه الصلاة والسلام في إبانة تحسينه إلى أن قال : من تزوج منكم فقد ملك نصف دينه . وفي حديث الثلاث التي حُيّت في الدنيا إليه دلالة على ذلك لمن وقف عليه ولخصوص نكاح الأبقار مزية تداولتها النقلة ويبتها الآثار ، وحسبك من ذلك قصة عبد الرحمن المتناهية الشهرة في هذا الشأن وقد عاصد الكتاب العزيز في ذلك السنة حيث ذكر النكاح فيه في مقام الأمر تارة وأخرى في معرض المنة والآيات المتضمنة لذلك غير خفية كقوله جلّ ذكره : «ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً وجعلنا لهم أزواجاً وذرية» إلى غير ذلك ممّا لا يعزب عن علم التالي ولا يخفي عن كل سابق من أعيان الأمة وتالي .

وحيث كان النكاح متحلياً بهاته الحلي وبالغاً تلك الدرجة من العلى فن الدين الإسراع فيه إلى تعاطي الأسباب وقران القبول بالإيجاب . وقد انعقد هذا المجلس الميمون لاستنشاق أرج هاته الفضيلة ، المثمرة للمعاشرة الحسنة والآثار الجميلة ، يئمنه تعالى وطوله ، وقوته سبحانه وحوله ، إله الله هو .

ومن نثره رحمه الله ، ما أجاب الشيخ محمد بن سلامة قال : كتب إليّ أخونا الشيخ القاضي أبو عبدالله محمد بن سلامة ، يطلب مني ما قلته من الشعر في أمير الوقت لشبهه في التاريخ الذي شرع في إنشائه في دولته وسألني : هل قلت في أسلافه شيئاً ؟ ويطلبه إن كان وبالغ في السؤال عن ذلك وهو إذ ذاك بحمام الأنف يتداوى في خلال المحرم عام 1258 هـ . فكتبت إليه كتابي :

أليسك الله من العافية أجمل لباس وحبك من الصحة ما يشرف به في أفق المعالي نبراس وأي نبراس ، ويقدم في نوادي السرور رافعاً عقيرته بقوله : سلم ابن سلامة أيها الناس عن نفس لا ستطلاع أخبارك شائقه . ولما تشكوه من الألم سلم ابن سلامة أيها الناس عن نفس لا ستطلاع أخبارك شائقه . ولما تشكوه من الألم حرجة ضائقة ، لكنها بما عودك الله عن جميع اللطف واثقة وليس المراد من هذه المقالة بيان مالك بالقلب من الاتصال كيف والوداد عميق أساسه تام جناسه تجاوز خالصه الحدود وقلبك في ذلك من أعدل الشهود .

سلوا عن مودات الرجال قلوبكم فتلك شهود لم تكن تقبل الرشا

ولولا أن سنة المحيين جارية بنحو هذا البيان . ما جرى لي قلم في الغرض ولا عمل بنان . هذا وقد وردت الرقعة الكريمة بل الدرة اليتيمة تلمس مني ملتمسها وتسال عن الشجرة ومن غرسها وليكن بعلمك أني لم يصدر عني في الغرض الذي طلبته والسمت الذي قصدته غير أربع قصائد في صاحب الوقت الذي نأمل بقاء جلوسه على ذلك التخت ، فها أنا مجيب خطبتك ملباً بإرسالها دعوتك مجلياً عليك بها عرائس أجمع بالغة النصاب المعهود ، إذ لم يجز زفافاً أكثر من أربع غير أن هن تابعة رقيقة الطبع عذبة على السمع جارية معهن مجرى الأصل والفرع ، ألفت صحبتين عندي فقالت : كيف أبقى بعدهن ووكرهن وكري ومهدهن مهدي ؟ فأخذت بأذيالهن نحوكم سائرة وعن مصاحبتين غير متقاعسة ولا نافرة ولولا ما عودت به نفسي من عدم مخالفتك وأجرتها عليه من حين مصافاتك ومخالفتك لما أرسلت بما أرسلت ولا نضبت ما أسلت فإني أعتقد أن أشعاري ليست ممّا إليه يشار ولا ممّا يودع لنفاسه بطون الأسفار فإن أحلتها بفضلك تلك الرتبة وأهلتها لتحية تلك اللبة فإنما ذلك لإغضائك عمّا فيها من الاختلال ونظرك إليها بعين الكمال والسلام اه .

ومن نثره أيضاً ما كاتب به بعض خلّانه وقد مضت مدة لم يلاقه فيها ونصّه : كتابي ألسك الله جلايب العافية ومنحك تغيُّر ظلالها الضافية ، وحبك من نباهة المقدار ما تتضاءل له شوارق الأعمار عن نفس لمودتك حافظة ولمواخاتك غير تاركة ولا لاقظة ، فإن التواصل إن أعوز بالقوالب فقد حصل بالقلوب وإن لم يسعف به الزمان ظاهراً فقد التفت عليه الجنوب . وهذه ترجمة ما هو مرسوم بجريدة القلب آخذ بمجامع اللب والعادة بنظيره من قبلكم قاضية وسنة المحيين في الاستدلال على هذا النحو من سوائف الحقب ماضية :

سلوا عن مودات الرجال قلوبكم فتلك شهود لم تكن تعرف الرشا

ويعلم الله لو أني كنت مطلق العنان غير مقيد بقوانين الزمان لكنت ممن اتهم في الملاقاة وأنجد وصوب لحظه في رياض محاوراتكم وصعدت لكني بين العذر سليم الساحة من شوائب العذر ومع ذلك فلم أخل بحظي من إلباع السلام كل من له بجنايبكم إمام مبالغة في السؤال عن شريف تلك الخلال . فإن بلغ الرسالة حاملها فذلك المراد وإلا فما على اليد

من عتب إذا لم يور مع القدرح الزناد والمحرك لتسطير هذا الكتاب وتحرير هذا الخطاب ما بلغني من إلامك في هاته المدة بنواحيننا ومسير شمسك بسمتنا لو كان ذلك الإلام من أليم الشوق يبرينا فلونك جهد المقل من البيان عمّا لك بالقلب من المكان . وبعد ، فليحطك في الفؤاد لا يحيط بكنه التعبير عنه قلم ولا يكفيه مداد والله أسأل أن يدل لك ويبلغك من كل محبوب أملك يُعنه وطوله لا إله إلا هو وكتبه فلان ١٥ .

ومن نثره أيضاً ما كتبه إلى الأمير أحمد باشا جواباً عن مكتوب من الأمير المذكور وجّهه وهو بفرنسا إلى شيوخ المجلس الشرعي بالحاضرة . قال صاحب الترجمة في شأن ما ذكر ما نصّه :

الحمد لله سافر الأمير الأفخم المشير أحمد باشا لبر النصارى يوم الخميس في 14 ذي القعدة عام 1262هـ ، ولما وصل إلى مرسى طولون وجّه عدّة مكاتيب للجماعة من أعيان البلد إعلماً بسلامته ، فكان أهل المجلس مخاطبين بكتاب عن تلك الكتب فتوليت الجواب عنه بقولي :

الحمد لله . إن أسنى ما وشّحت به الرسائل صلورها ورصّعت به من درر الكلام سطورها السلام الذي هو نحية الإسلام فها نحن نهدي من تحفه الفاتحة ولطائفه الرائعة الرائقة إلى حضرة مولانا وعماد ديننا ودينانا ومن أولانا برّه ما أولانا مفخر ملوك الإسلام والحسنة التي أبت أن تأتي بنظيرها الأيام الذي زاحمت النيرين في مطالعها كتفه ، واكتسب من المجد أضعاف ما تركه له سلفه الملك الأشهر الأفخم سيّدنا المشير أحمد باشا صاحب الأيالة الإفريقية وضواحيها وجميع أرجائها ونواحيها ، أنار الله تعالى في أفق العلى بدره وقرن بالتسديد نبيه وأمره .

أما بعد ، فقد بلغنا الكتاب الكريم والخطاب العظيم والاعتناء الذي نبتهل في المجازاة عنه إلى السميع العليم ، فإذا هو مبشر بالعافية والنعم الوارفة الضافية التي هي مادة أفراحنا وينوع انشراحنا وغذاء أرواحنا ، فقيّد تلك النعمة بواجب شكرها وطلبنا المزيد من واجب برها وحصل لنا من الأنس بوروده ما تقصر عن بياناته العبارات ولا تحيط به لطائف الإشارات ، كيف لا ومحبة مولانا جارية منّا مجرى الأرواح في الأجسام والدماء في الأكباد فنحن لذلك من الشوق إلى اللقاء والمحافظة على صالح الدعاء بالمثل الذي تغني فيه شواهد أحوالنا عن بسط أقوالنا نسأله سبحانه كما منّ بكلاءكم في الذهاب أن

يَمَنَ بها في الإياب حتى تزول عن قطرنا المحروس بهمتكم وحشة الفراق وبنوق أهله
بقومكم على أحسن الأحوال لذّة التلاق ويعود إشراق بدوركم بالأفق الإفريقي إلى
ديدنه ويرجع درّ الملك إلى معدنه والسلام . وحزّر ليلة الأربعاء في ذي القعدة عام
1262 هـ .

وبهذه المناسبة كتب صاحب الترجمة إلى الوزير الأكبر ما نصّه :

المقام الجدير بمزيد التبجيل المكتنف بأنواع الثناء الجميل مقام القطب الذي عليه
المدار المفرد الذي إليه بالبنان يشار أمير الأمراء ووزير الدولة سيدي مصطفى خزندار خلد
الله ثنائه وزاد بالمكرمات اعتناؤه .

أما بعد ، فقد اتصل بنا خبر وصولكم بالسلامة وما وقع للجناب الأحمدي طال
بقاؤه من الإجلال والكرامة فاهتزت لذلك منّا الجوارح وانشرحت منّا الصلور والجوانح
نسأله تعالى أن يجعل ذلك للنجح باكورة وما وراءه مرآة لتطبع فيها من التعظيم هاته
الصورة ولا تسأل عمّا نحن عليه من الاشتياق وترجيّ التلاق حتى كاد ذلك أن يطير
النوم ويجعل اليوم كالشهر والساعة كالיום ، يسرّ الله تعالى بكم الاجتماع على أكمل
الأحوال والأوضاع يعود تاج قطرنا إلى هامه وعمارة مخربنا بإمامه فتتخذ ذلك اليوم عيداً
وأبي عيد نرجو منه سبحانه أن يكون غير بعيد والسلام هـ .

وذكر صاحب الترجمة أنه كتب أيضاً إلى أخصّ الكتبة ما نصّه :

أدام الله تعالى رفعة صديقنا لسان الدولة ومن له في ميدانها الصولة والجولة ومن لم
يحم أحد من رافعي أعلامها حوله إمام البلاغة بلا خلاف أمير الأبي العباس سيدي
أحمد بن أبي الضياف .

أما بعد ، فقد كتبناه إليكم عن شوق زائد وودّ إلى للزيد معاورتكم قائد وفاء
بعهود الخلة وقياماً بحقوق الصحبة التي هي غير واهية ولا منحلة وشكر النعمة سلامتكم
من خطر الطريق وسرور بما وقع لمولانا من الإجلال الذي هو به حقيق . ويرجو من
كرمه تعالى أن يرد علينا من تلقائكم ما نزداد به سروراً على سرور ، ويتضاعف له منّا
انشراح الصلور إلى أن يعقب ذلك السرور الأعظم والموسم الذي يحلّي به الزمان الجيد
والمعصم وهو رجوع بدرنا إلى هاته وسلطاننا إلى إيالته محفوظاً في نفسه وحاشيته آخذاً من
العزّ بناصيته والله المسؤول أن يعجل ذلك ويسهل إلى حصوله المسالك بمته وطوله هـ .

ومن نثر صاحب الترجمة ، ما كاتب به أيضاً الأمير أحمد باشا في سفرته إلى فرنسا
المشار إليها ونصّه :

الحمد لله نستوهب من ذي الجلال ونرفع إليه سبحانه أكفّ الابتهاج للمقام الملكي
المشيري الأحمدي الذي بلغ من المجد إلى أقصى مداه وتناولت أزاهر السؤدد من أعالي
أدواحها يدها أن ينير بدره أينما حلّ ويصحبه اليمن فيما أقام وارتحل ، ويكسوه من
حلل النصر أرفعها ، ويهيء له من أسباب الظفر أنجعها وأسرعها ، ونهدي إليه سلاماً
مضمخاً بطيب الإجلال مناسباً لما حواه المقام من شريف الخلال ، ونُهي إليه أن قلوبنا
وإن حوتها جوانحها فهي لدى السيادة مقيمة وإن أظهرت الجلد بعد مفارقة المولى فهي من
الاصطبار عديمة حتى كادت رياح الأشواق أن تلقينا حيث حلتم وحبب إلينا مفارقة
الأوطان لنشتمل بالرداء الذي به اشتتمتم . ولولا أن نفوسنا تعلق بما ترقب من اللقاء
لاختارت مفارقة الأشباح عن البقاء والتميق أننا لا نحتاج في الاستدلال على ما ذكرناه إلى
سلوك محجة وكفى بقلب سيدنا طال بقاؤه حجة على ذلك وأي حجة :

سلوا عن مودات الرجال قلوبكم فذلك شهود لم تكن تقبل الرشا

والله تعالى نسأل أن لا يعدم هام إقليمنا حلية تاجكم ، وأن لا ينجلي أرجاء قطرنا من
إنارة سراجكم ، وأن يوالي علينا النعماء ببقائكم ويعجل ما نرومه من محبوب لقائكم
والسلام . حرر في 26 ذي الحجة عام 1262 هـ .

قال صاحب الترجمة : وكبت إلى كاتبه المقرب لديه ما نصّه :

جلل الله بملابس العزّ حضرة أختينا ومن قبضت على مودته دون جميع أهل الزمان
أيدينا لسان الدولة الأحمدية بطريق الإنصاف . ومن قصرت الألسنة عن حصر ماله من
جميل الأوصاف أبي العباس سيدي أحمد بن أبي الضياف ، أضاف الله إلى كماله
أضعافها وهياً له من ثمرات المعالي اقتطافها ومن ثغور الإقبال ارتشافها .
أما بعد ، سلام يشرق إشراق البدر في الدياجر ويعذب عدوية الماء الزلال في
الهواجر ، فقد توقعنا رجوع جوابكم وورود لذيذ خطابكم ، ثم لما يرد ولم يجرفيه الأمر
على الأسلوب المطرد حملناكم على العذر المعلوم الذي هو الشغل الزائد على الشغل
المرسوم وسألناه سبحانه إمدادكم بمدد الإعانة وتسديدكم في طرق الإبانة وأن يعجل
على أحسن الأحوال بكم الاجتماع ويمتّع بروؤيتكم الأبصار كما تمتع بخبر عافيتكم
الأسماع والسلام اهـ .

ثم إنه كاتب الأمير بمكتوب آخر نصه :

حرس الله تعالى المقام الأسمى والأسنى ورصع تاج هذا العصر بعالمه من المآثر الحسنى، وكتب نصره على صفحات الأيام وأدام حفظه في السفر والمقام مقام مولانا مشخر الملوك، ومن تتضاءل لرفعته الغزاة عند الملوك وارث الجهد كاهراً عن كاهر والمصدق بما أرى به على سلفه المثل كم ترك الأول للآخر سيدنا المشير أحمد باشا ملك تونس وأعمالها الباذل نفسه في تنظيم أحوالها .

أما بعد ، تحية لجلال حضرته صالحة وإنهاء ما لدينا من الأشواق الغادية علينا الرائحة . فقد وردت الرسالة الكريمة بل الدرة اليتيمة بل الغنيمة العظيمة المعربة عن عافية سيدنا ومن به تقويم أودنا وتسديد بلدينا وبلدنا ، فيا لك من بشيرتساهمت الجوارح في أخذ أفساطها من مسرته وتزاحمت على استجلاء أنوار غرته ، فطفقنا عند ذلك في الحمد والشكر لمن بيده الخلق والأمر على مامن من حفظ السيادة وسخر للقيام بما تستحقه من التعظيم عباده ، وتوجهنا إلى الدعاء بقلوب حاضرة وأنفس ما على ما لهجت به من التضرع متظافرة في أن ينجح لمولانا أمانيه ، ويرسم على صفحات الدرر معاليه ويهب له من الخيرات ما ترضاه همته العالية مما يعم بحوله تعالى نفعه ويدر على جميع رعيته ضرعه ويخص من ينتمي إلى جنابه وترتاح له نفوس مصادقيه وأحبابه وأن يعجل ما نرومه من استنارة أفقنا التونسي بيدرته وتطيب أرجائه بذكي نشره فتمحى ما للدهر من إساءة الفراق بما يسديه من محبوب التلاق والسلام . وحرر ليلة الثلاثاء رابعة المحرم من عام 1263 هـ . وكتب إلى الوزير ما نصه :

عامل الله باليمن والإسعاد وبلوغ القصد والمراد وإشادة الصيت بين الحاضر والباد . حضرة شمس الوزارة التونسية والمستحق بما له من الخلال تلك الرتبة العلية . والجدير بمزيد كماله كامل المزية فجر الوزارة الذي بأفق العلا استنار وزير المملكة وأمير الأمراء سيدي مصطفى خزندار .

أما بعد ، سلام يؤدي حقّ وداده ويبلغ به مرسله من الآمال أقصى مراده فقد هبت من قبلكم نسمة ذلك الكتاب وتألقت برق ذلك الخطاب وهي لدينا وأبل ما وجهتم به من السحاب فكرعنا من ريق زلاله الذي هو البشارة بعافيتكم وعافية من يتمون إلى جنابه وحصل من الأانس والسرور ما تملاً من كأسه صاديّات القلوب ونحن

نسأل الله تعالى إتمام ما عودنا من توارد المسرات من قبلكم حتى يَمُنَّ باجتماع شملنا بشملكم متمتعين بسلامة قطب مدارنا ومليك أقطارنا وسراج بلادنا ومن نفعه بانفسنا وأولادنا ومن تمام النعمة أن يقرب ما رجوناه ويبرز في أهلك الأحيين ما أملناه وإِنَّه ولي ذلك والقادر عليه والسلام .

وكتب في تاريخ المكتوب المتقدم الموجه إلى الأمير اه .

قال رحمه الله : وكتب إلى الكاتب ما نصه :

السلام الملى بشرح ما لدينا من الشوق الخارج عن دائرة الطوق تحط رحال أحماله لدى حضرة الأخوة ومن أرانا صورة الوداد للعيون مجلوة وخرالد محاسنه بالسنة الدهر متلوة ، فانفرد لذلك منا بكمال الامتراج وشدة الائتلاف أمير الاي سيدي أحمد ابن أبي الضياف قرب الله إيابه وفتح مما ترقبه من الاجتماع به أبوابه وسهل يمينه أسبابه .

أما بعد ، فقد وردت الرقعة المختصرة والرائحة العنبرية التي هي من أردانكم منتشرة ، فسرتي صغر حجمها لدالاتها على كمال الألفة القاضي بعدم تحميل الكلفة

قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يُقال له قليل

واعلم يا أخي أن شدة الاشتياق جرعتنا كأماً مرّ المذاق لا تزيل مرارته إلا حلوة التلاق فنحن نرجو لكم يوم وفادة يصح التمثل فيه بقول أبي عبادة :

ولو فهم الناس التلاقي وحسنه لحبب من أجل التلاقي التفرق

سهل الله تعالى وقوعه وأرانا من قر إقليمنا طلوعه محفوظاً من حواشيه بزواهر النجوم مبراً مما يعتري الأفق من الغيوم والسلام . كتب في التاريخ المتقدم اه .

ومن ثره أيضاً رحمه الله ، ما أنقله من مسودته بخطّ يده يخاطب به بعض فحول الشعراء ولعله الشيخ محمود قابادو ونصّه :

وقفت أعزك الله وحرملك على منصة كل فضيلة أصعدك وأجلسك على القصيدة البديعة الفائقة ، بل شاهدت الكنية التي جياها في ميدان الإتيان متسابقة بل سرحت

طرفي في أرجاء ما غرست من ذلك الروض وأبحت لفكري الري بما أترعته فيه من زلال ذلك الحوض ، وأصغيت إلى بلابل أدواحه الصادحة وانتشقت من أزهاره العاطرة روائحها الفاتحة وتلمّحت من مطالع براعته بدوره اللائحة وسمعت لسان حال كل بيت مشيراً إلى ما قبله قائلاً : ما أشبه الليلة بالبارحة ، فإذا هي في نظري للاختصار غير قابلة متعذر عندي أن تلحظ بعين الاستصغار بيت من حسان أبياتها التي هي للمباهلة على الحسن متقابلة ، فإنا أعيد كما لها أن يلحقه نقص وأستودع الله سبحانه أشخاص خردّها وأسأله أن لا يغيب عنها منها شخص فلنأمن الله بجملة في الاشتغال على الحسن كالحلقة المفرغة التي لا يدري طرفاها وإن طبقتها في الانسجام لا يقف حاد النظر في الصناعة الأدبية على متنهاها ، وما زال متأملها يتجدد له الوقوف على ما كان منها مستراً ويزيدها وجهه حسناً إذا ما زادها نظراً ، وما أخالك في استشارتي في اختصارها إلا مخبراً لا مستخبراً وبصيراً عدّ نفسه مستبصراً فلا أرى في شرع البلاغة أن ينحل من هذا النظام البديع مرتبطه أو يطرح من هذا الدرّ النقيس ملتقطه ، على انه لا يستطال استنشاق وارد النسيم ولا يملّ الإرتواء من عذب التسنيم . ولقد علمت أن العقد يزداد حسناً ما ازدادت جواهره ويبلغ الغاية ما تناسقت متناسبة أوائله وأواخره . وهذه قصيدتك المسؤول عن اختصارها التي لم يستهل من جمهور الشعراء ما يبلغ معشار معشارها ولم يلج في آفاق أفكارهم ولا تفتح في رياض دواوينهم مثل زهرها وأزهارها ولا تمخضت آراؤهم بمثل هذه الوليدة ولا وقفت في حبالهم على طول نصبها مثل هاته الشهيدة المكتسية من البراعة أفخر حلة ، المخلجة بفصاحتها الأقدمين بسهم ما وقفت لها على نظير ولو في كلام أبي الطيب وأبي عبادة وابن الجهم فهي الجارة ذيل الافتخار على أترابها المقسمة أن لا يرتشف خمر البلاغة إلا من رضاها ولو توثقت من عدم الوقوع في الملل توثق صاحبها لمددت أطناب المقال فيها حتى أكون مؤدياً لواجبها . ولقد استشعرت لسان حالها يومئذ إلى استحقاقها أن ينشد فيها قول ابن الرومي :

وحديثها السحر الحلال لو أنه لم يعجن قتل الناسك المتحرز
إن طال لم يعمل وإن هي أوجزت ودّ المحدث أنها لم توجز
شرك العقول وفتنة ما مثلها للمطمعين وعلقة المستوفز

ولا بدع في بروز هاته العقيلة من خدر كم كما لا غرابة في نفاسة هذا الدرّ بعد العلم

بأن لافظه زاخر بحركم ولا في صفائه بعد الشعور بأن العامل في صقله ثاقب فحركم ، وأنا أقول لك أيها المنتطي من البلاغة سناماً المتصرف في أغراضها نقضاً وإبراماً ، رفقاً بالعقول فقد تعرضت لسلبها بسحر بيانك ورويداً جولانك بمضمار الإبداع فقد عرفت أن اليراعة طوع بنانك ومهلاً فقد ألقينا إليك إقليد البلاغة وجعلناك رئيساً لمن هم لبر الكلام صاغة والبدار البدار إلى زمامها لصاحبها التي لا تصلح إلا له ولا يناسب بلده إلا إحاطة هاته الهالة التي أعوز أن نبصر في الشعر مثلها كما أعوز أن نبصر في الوزراء مثاله فلا يليق بلبته إلا هاته القلادة ولا يحمل خلوتاجه عن التصريح بهاته الياقوتة الوقادة وأنا الكفيل بمعرفته رتبة هاته العقيلة ولا يصفر كفت من نسج له هاته الحلة الفاتقة من عطية جليلة ، فهذا رأي الذي يكون عليه الانفصال ثم أجدد حمد الله تعالى الذي لم يزل يطلعني منك على ما يصحح شهادتي لك بكل كمال ، وكتبه فقير ربّه تعالى محمد بيرم لطف الله به في أوائل شهر ربيع الأول سنة 1270هـ 1905 .

314 - أبو عبد الله محمد الشنقيطي

أصله من شنقيط وهو من أعيان علماء جامع الزيتونة ومن الفوج الأول من مدرّسيه الذين سمّاهم الأمير أحمد باشا رحمه الله سنة 1258هـ حين وضع قانون التعليم به ، وكانت والدته لها درجة علمية ولذا كان في دروسه العلمية كثيراً ما ينقل عن والدته فيقول : قالت والدتنا ناقلاً عنها وهو مع ذلك كان من فحول الشعراء وجملة الأدباء . من شعره يرثي الشيخ محمد بيرم الثاني نقلاً من خط حفيده الشيخ محمد بيرم الرابع قائلاً أنه من أبلغ ما قيل في رثائه رحمه الله تعالى .

عين المحامد قد لبسن حداداً	وأرين كل مراد إيعادا
حزناً على بحر العلوم محمد	من كان للنهج القويم عمادا
من لو توزع علمه ورشاده	في الناس كان غويهم مرشادا
من لو أمدّ جميعنا من فضله	لنقى من أهل زماننا الأوغادا
نجم الهدى بحر الندى طود الحمى	من عال سيل بطاحه الأنجادا
ومن المكارم والمحامد طبعه	ومن المشايخ قد دعوه مرادا
ومن المجاور يستظل بظله	ومن العشيرة قدمته فقادا

فقدنا لكل جميلة وجليلة
ما زال يوضح وجه سنة خير من
ويجيز في النسب الشريف صحيحه
حتى دعاه إلهه لنعيمه
ضجبت لذلك بلاده حتى غدت
وغدت إلى تشييعه بأمرها
فقدنا بها الزلاج شدة هجيرة
ولذا قليل في كثير حقوق من
ولكم هدي مسترشداً لرشاده
جاد الإله ضريحه وصفيحه
وأعار ثلثة فقهه من نجله
وأفاض من بركاته وهباً على
ثم الصلاة على النبي وآله

ولفتح كل مقفل مقلادا
ركب المطي نجاباً وجيادا
وئري الدعوي صيانة إبعاداً⁽¹⁾
رفقاً وكان لأمره منقادا
وكان جانب أرضها قد مادا
زماً تبادر بابه وفرادى
تحكي لناظره الجموع جرادا
جمع العلوم تقرباً وسدادا
ولكم أفاد بمنطق وأجادا
من غمر رحمته الوساع وزادا
أمدأ يطول من الزمان سدادا
علم الهداة محمد وأعادا
ما فازا ذو الكرم التليد وسادا

ومن شعره أيضاً ما خاطب به الشيخ محمد يريم الرابع يمدحه ويستمنحه :

أرى نفسي تعيرني بأني
فقلت فما سألت سوى أمير
فقلت هل أريت سواه مدحاً
فقلت لي مديحهم لماذا
فقلت لي بلا غرض لدينا
تتال به مع الإخلاص دنيا
أما نال الفرزدق أي مال
فقلت لي هببت فذاك دهر
فلو كنت الفرزدق في مديح
فقلت لها فإن لكل دهر
تعاطوا في المجالس كل يوم

رضيت لها بذل السائلينا
على بيت مال المسلمينا
فقلت نعم سألت الفاضلينا
فقلت لوجه رب العالمينا
فقلت بلى ومدح الأكرمينا
وعند الله أجر العاملينا
بفعل من فعال اخلصينا
تحلى بالكرام ولات حينا
فهل لك مثل زين العابدينا
كراماً بالمكارم معتنينا
حديث الأولين والآخرينا

(1) إشارة لكونه كان نقيب الأشراف .

تراهم في المحامد والمعالي صفاراً بالأكابر مقتدينا
فخلّ اللوم عتاً إن وردنا فلسنا بالمدّة واردينا
ولسنا للسؤال نعدّ ذلاً إذا كان العفاة مذلينا
ولكننا نوّم ورود قرم كرم من كرام ماجدينا
فإما أن يجرد لنا وإلا رأينا الماجدين مسخرينا
ولسنا بالكرام نظن سوء ولسنا للخصاصة ملحفينا

315 - الشيخ أبو عبد الله محمد الكافي التونسي

لم أقف على جليّة خبره ، غير أنني رأيت بخط والدي رحمه الله : ما يقتضي أن له منزلة علمية جديرة بالاعتبار . ونصّ ذلك ، إجازة صادرة لأبي عبد الله محمد الكافي من بيت الشيخ السنوسي الكافي في إقراء العلوم بجامع الزيتونة من الشيخ سيدي محمد بيرم الثالث ومثلها من الشيخ محمد بن محمد عباس الحنفي سنة 1265هـ ، ومثلها من الشيخ محمد معاوية ، وكتب أسفلها الشيخ مصطفى بيرم القاضي ثم المفتي :

أجزت أبا عبد الإلاه محمداً كما فعل الشيخان قبلي وقد كفي
ولكنني أسعفته بمراده ومن بذل المطلوب منه فقد وفي

وكتب أسفل مما كتبه الشيخ بيرم جدّي سيدي محمد النيفر القاضي ثم المفتي :

أجزت له الإقراء عوناً على البرّ وأوصيه بالإخلاص والجد في الأمر
ولا يهملني من جميل دعائه وأضرع للوهاب في السرّ والجهر

وكتب أسفله الشيخ محمد بن أحمد القبائلي ، قاضي باردو ثم مفتي تونس :

أجزتك أهلاً للذي أنت سائله ولست بأهل للذي أنا باذله
كفتك إجازات الفحول فإنها تنيلك تقديماً وما أنت آمله
وأوصيك بالتقوى وإخلاص نية فن دان بالإخلاص تعل منزله

قلت : والشيخ محمد القبائلي ينتسب بيته إلى الشرف ويظهر أن له مشاركة حسنة في فرض الشعر زيادة على منزلته العلمية التي أهلته لتبوء خطة القضاء بباردو ثم الفتوى

بالحاضرة .

قال الشيخ محمد بيرم الرابع ما نصه :

كُتبت لأخيना الأديب الأملعي النبيه محمد القبائلي أستعير منه شرح الإحياء للشيخ
المرتضى :

سلام كورد الروض أهل للقطف يفوق ابتسام الغيد بابت من السجف
ويفتّر عن صفو المودّة ثغره ويدي سرور الإلف بُبشّر بالألف
وبعد فإلإحياء شرح قد ارتدى به المرتضى فخراً يجلّ عن الوصف
وقد ضمّه القطب البشير لكتبه وأحببت في أرجائه نزّهة الطرف
فأرسلّ عنان العزم في جلب نفعه فأنت لنيل الأرب من مطله كهفي
ويرجع إن شاء إله بسرعة وعاملكم ربّ البريّة باللطف

وعقب على ذلك بقوله : أجاب عنها المرسل إليه بليّات حسنة ضلّت عني
الآن اه .

وبعد كتابه ما سبق في شأن مترجمنا الشيخ محمد القبائلي وجدت الشيخ أحمد بن
أبي الضياف ترجم له في إتحاف أهل الزمان بقوله :

نشأ هذا الوجيه في طلب العلم وأخذ عن أعلام : كالشيخ حسن الشريف والشيخ
أحمد بو خريص والشيخ الطاهر والشيخ إبراهيم والشيخ ابن ملوكة وغيرهم ، وله قوة
عارضة في الفهم وحصل العلوم ودرس ثم احترف بالتجارة لمعاشه ولم يترك العلم ولا
نيزه . وقدمه المشير أبو العباس أحمد باي لخطبة الفتوى فأحسن القيام بها في الثبّت ،
وكان تقياً خيراً عفيفاً حسن المحاضرة المعبياً جيّد المباحثة حسن الأخلاق منصفاً من
نفسه نقيّ العرض فقيهاً غير متصنّع ، ولم يزل محبباً في الناس إلى آخر ما قدر له من
الأنفاس في ذي الحجة من سنة 1271هـ رحمه الله تعالى .

هذا وما كتبه الشيوخ في إجازتهم لمترجمنا الشيخ محمد الكافي يذكرني ما كتبه
غيرهم في إجازتهم لبعض الشرفاء من بني النجار ونصّه : نذكره إتماماً للفائدة للعلامة
الشيخ سيدي حسين بن حسين المفتي المالكي .

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد ، فقد تيمنت بمطالعة الشهادة أعلاه

الشاهد شهودها بالنسب الشريف لآل بني النجار نفعتني الله بهم في هاته الدار وفي تلك الدار بجاه جدّهم المختار وآله الأطهار وصحابته الأخيار ، فحمدنا الله تعالى على ذلك وعلى قبوت هذا النسب الطاهر والنور الباهر فقد نصت علماؤنا على ثبوت النسب بشهادة السماع . وسئل العلامة المحقق عن مثل هاته الشهادة وهل يثبت بها النسب الطاهر أم لا ؟ فأجاب بما نصّه :

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على سيّدنا محمد رسوله وعبده وبعد ، فإن الشهادة المنتسخة أعلاه صحيحة كافية شرعاً للمشهود لهم بثبوت النسبة العلية الطاهرة الزكية الشريفة البهية لقول مالك رحمه الله ، الناس في أنسابهم على ما حازوا وعرفوا به كحيازة الأملاك ومن ادعى عليهم خلاف ذلك كلف إقامة البينة وإلا حُدّ .

وقال أبو عمر بن عبد البر : شهادة السماع الفاشي في النسب جائزة لقوله في الرواية ، أتشهد أنك ابن القاسم ؟ قال : نعم ، قال البرزلي : وعليه اليوم إثبات أنساب الشرف . يقولون إن فلاناً الفلاني لم يزل قديماً وحديثاً ينتسب إلى هذا النسب الشريف ويدعى به ، ويوجد في أصدقائه إلى غير ذلك ، ولا ينكره عليه فيه مغير فمتى تواتر ينتقل الحال من شهادة السماع إلى القطع فتكون شهادة قطع اهـ . المراد منه ذكره في أجوبته . وقد ذكر ابن فرحون وغيره أن شهادة السماع لها مراتب ثلاثة وكلها يثبت به النسب الشريف ، فهنيئاً لساداتنا وموالينا بني النجار ثبوت هذا النسب الطاهر والنور الباهر .

يا بني الزهراء والنور الذي ظنّ موسى أنّه نار قبس
لا أوالي الدهر من عاداكُم إنّهُ آخر سطر في عبس

كتبه العبد الفقير المتيمسك بأذيال آل البيت في كلّ خطير حسين بن أحمد بن حسين المفتي المالكي بالديار التونسية حماها ربّ البرية من كلّ يلية في شعبان سنة 1230 هـ . منقولة من خطّ يده رحمه الله .

وكتب الشيخ سيدي محمد بيرم شيخ الإسلام في تاريخه ما نصّه منقولاً أيضاً
من خطّه :

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى وآله وصحبه أهل
الصدق والوفا وبعد فيوقوف العبد على هذه الشجرة المباركة وسلوكه بتبعها طرائق
اليمن ومسالكة قدر أنه واقف من الجناب العالي بأعباه فناداه سره بما اعتاده في
خطابه حتى أخرج القلم من جرابه وكان ما قد جرى به .

إليك رسول الله ما أنت أعلم به وسكوت العبد فيه تكلم
وبابك باب الله ما حيل دونه يحلّ به عقد المهّم ويرم
فسل فالق الإصباح تعجيل نفحة يحاكي سناها البارق المتيسّم
فيجبر مصدوع ويقرب نازح ويفرج عن قلب الأسيف وينسم
ويا آل بيت المصطفى أملي بكم وطيد له في السرّ حقّ مسلم
عليكم سلام الله يا خير معشر بهم يبدأ الذكر الجميل ويختم

أما صاحب الترجمة وهو الشيخ محمد الكافي ، فقد استفدت من كينش للشيخ
الكاتب علي الحداد أنه كان يحسن قرض الشعر علاوة على رتبته العلمية التي شهد له بها
أعلام الشيوخ المتقدم ذكرهم . قال الشيخ علي الحداد في شأنه ما نصّه : وللحاج محمد
الكافي التونسي معارضاً موشح الشيخ حمودة بن عبد العزيز :

الزمان قد أقبل بعد طول تعيس ولا أظنه يأتي بمثل عرش بلقيس
أيها العدو اخساً إنني تهنّيت
ها أنا على رغم منك قد ترقّيت
والإله قد أعطى فوق ما تمنّيت

ها أنا على كثر من كنوز الرحمان وقد أصبحت في حرز آصف سليمان
هذا ما ذكره من هذه المعارضة وموشح الشيخ حمودة بن عبد العزيز هو المذكور
في ترجمته والذي طالعه :

عاد لي زماني بعد طول تعليل فاستردّ الفاتت وطوع الأيّا

نشأ هذا الفاضل في بيت مجد سامي الذرى مقبلاً على طلب العلم باجتهاد ، حتى سبق في حلبة التحصيل الأنداد ، بفكر وقاد ، يحنو طريق النحارير النقاد . تصدر للتدريس فأفاد ، ثم ولي التدريس بالجامع الأعظم ، وسلك في الشيم والتراهة مسلك سلفه الأقوم . لما أحدثت المجالس وانتظم مجلس الشورى سنة 1279هـ من أعيان البيوتات وقع الاختيار عليه من بيتهم البيرمي ولولا ما أصابه من الأمراض . لبلغ إلى أقصى الأغراض ، فقطفته يد المنية في سن الكهولة وكان فقيهاً مبرزاً في كثير من العلوم شاعراً بليغاً . توفي في ذي الحجة سنة 1280هـ .

ومن شعره ما هنأ به جدّي أبا عبد الله سيدي محمد النيفر لما ختم عليه المطول للسعد على التلخيص :

بسعد الفتى تأتي إليه غنائمه	وتبدو لدى كل الأنام مكارمه
ومن لم يكن بالسعد في الجدد نائلاً	بنا عنه عكساً رجع وصورمه
ومن يطلب المجد الموقل والعلی	تهون عليه نفسه وكرائمه
تلذ له الأهوال في نيل راحه	كما يستلذ أطول الليل نائمه
كما يستلذ الوصل صبّ مواصل	يردد ذكراً للحبيب لوائمه
وأما إذا ما بان عنه حيبه	فأكره ما يلقي من الناس لائمه
وكيف يطيق العذل صبّ بشادن	تنصبه الأسقام والبعد جازمه
إذا ما جرى ذكر الأوجه عنده	جرى فوق خديبه من الدمع ساجمه
أبى الدهر للإنسان إبقاء حاله	يحاربه طوراً وطوراً يسالمه
ومن لاذ بالخبر الإمام محمد	غدا سيداً للدهر والدهر خادمه
هو العلم المشهور فينا بنيفر	ومفخر هذا القطر بل هو عالمه
إذا غاص في بحر العلوم مقرراً	ترى منه بجرأ ليس يعبر عاثمه
ترى طالبين العلم كالطالب الحيا	إذا أجذبوا جادت عليهم غائمه
وقد حاز في العلياء أشرف رتبة	فن ذا يحاربه ومن ذا يزاحمه
ترى كل من ناواه في نيله العلي	هوى ساقطاً كالطير قدت قوادمه
ومن يدعي في المجد ما ليس عنده	فذلك عندي ساقط الراي عادمه

وقد يترباً بالهدى غير أهله
إليك سبيل المجد والشرف الذي
أتيت بشعر قاصر عن مديحك
فأنت عماد الدين بل أنت قطبه
ويستصحب الإنسان من لا يلائمه
بجذك خير الخلق شدت قوائمه
ومن شعره تحوي علاك تراجمه
نعم أنت سعد الدين بل أنت خاتمه

ومن شعره يقرض القصيدة البائية الغراء للوزير الأكبر أبي عبد الله محمد العزيز
بوعتور التي مدح بها جدي أبا عبد الله سيدي محمد النيفر لما ختم عليه المطول للسعد .
وكان صاحب الترجمة رفيقه في قراءة هذا الكتاب عليه ونصّ القريض :

أبدر اللجى قد لاح جنح الغياهب
أم الروض أضحي بالغصون منظماً
أم السحر أبدى من بدائع نفثه
أم الروضة الغناء بل بكر فكر من
عزيزة حسن للعزيز قد انتمت
كشمس كبدر كالحياء وكالضحى
لقد ملأ الأقطار باهر فضلها
ولا غرو ان كانت كريمة أصلها
لعمرى هو الفرد الذي أصبحت به
فحسبي أن أدعو بكل العلى له
أم البرق يبدو من خلال السحاب
لعقد لآل في نحر الكواعب
فنوناً زرت آياتها بالهواذب
حوى من مرآتي الفضل أسنى المراتب
فكانت لعمر الله إحدى العجائب
كصبح كبرق كالسنا كالثواقب
وسارت بها الركبان من كل جانب
فإن لمنشياً كرام المناقب
تفاخر أرض الشرق أرض المغارب
ونيل الذي يرجو وحسن العواقب

ولعمرى إنَّ البيتين الأخيرين كرامة لصاحب الترجمة جليلة إذ قوله ذلك في زمن
شبيبتيهما وطلبها للعلم ، فصدق الله قوله واستجاب دعوته والمؤمن ينظر بنور الله ، فاتقوا
فراسته فالممدوح الآن هو كما قال ودعا له .

317 - أبو عبد الله الشيخ محمد الطاهر بن محمد بن عاشور

وقد سلفه من المغرب الأقصى من بلد سلا وهم من بيت مجد وشرف . ورثه الخلف
عن السلف ، فولد هنا الفاضل في مهد ذلك الفخار ، فطلب العلم عن شيوخ مصره

الأعلام . وأقبل عليه إقبال شغف وغرام ، فعظم محصوله ، وتوفرت لديه فروع العلم وأصوله . واشتهر بالذكاء ، اشتهار ذكاء . وأصبح بحره متدفقاً لا تترحه من مستغيبه الركاء . فتصنر للإفادة ، وأجرى في حلبة التحقيق والتحرير جياده . فكتب حاشية على شرح قطر الندى لمؤلفه بديعة المتزع ، عذبة المشرع . واختصر شرح شيخ الإسلام ابن مرزوق على البردة وابتدأ في تقارير على كل من حاشية العلامة الصبان على شرح الأشموني على الخلاصة وحاشية العلامة عبد الحكيم على المطول وأخرى على المحلي على جمع الجوامع وثلاثها لم تتم . ولي قضاء الجماعة في 25 رجب سنة 1267هـ ، فباشرها بساعد قوي ، وتمرس بها تمرس أحودي . ثم نقله الأمير محمد الصادق باشا إلى خطة الفتوى لما توفي جدّي أبو عبد الله محمد النيفر سنة 1277هـ ، وأولاه نقابة السادة الأشراف بعد وفاة أبي عبد الله الشيخ محمد بيرم الرابع . وكان للأمير المذكور محبة فيه خاصة انعقدت أواصرها قديماً بينها بواسطة صهر الأمير الماجد علاه العروسي . وكان لصاحب الترجمة نفس أيّة ، وفصاحة سحباية . له اليد البيضاء في سائر العلوم . وكان له ختم بمدرسة حوانيت عاشور في 23 رمضان يتسابق العلماء لتثنيف أسماعهم بأقراطه ، وما يبدي فيه من تحقيق مناطه . وله شعر رائق ، وتر فائق . وما زال في مكانته السامية وحظوته النامية ، إلى أن توفي في ذي الحجة سنة 1284هـ .

ومن نثره ما خاطب به بعض إخوانه حاثاً على طلب العلم وترك التكاسل ، نقله برمته لفائده ونصّه : هذا توقيع شريف ، وظهير شامخ منيف ، نبعت عنذوبته من رسيس القريجة ، وأمسست أرومته على صميم النصيحة . أبرزناه مطبياً ملم بعد عن الاندمال كلمه . وكاد أن يتسع على الراقع خرقة وثلمه ، عسى أن يكون وسيلة إلى السداد ، وحسماً لمادة الفساد . أما بعد ، فلولا أن السلام من تحية الإسلام ، لما كان لتحيّتي بساحتك مستقر ومقام ، وحيثئذ تسمع ما لا تجد لإنكاره من سبيل ، تهدي بموجبه أن صادفك التوفيق بأوضح دليل ، وليرتسم أولاً بخزانة خيالك أني لم أركب فيما أقول مطية اعتساف ، ولا حدث فيما سينقرع سمعك عن طريق إنصاف ، مقدماً للعفو أمام الدليل ، متجافياً عن شيم اللثام كما قيل :

إن الوفاء على الكرام فريضة واللؤم مقرون بذي الاخلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفاً وترى اللثيم بجانب الإنصاف

وما هو خطيب اليراع قد قام مفصلاً على منابر السطور ، مترجماً عن ملك زمام

النفس المتحجّب بغرف الصدور ، ضارباً بسيف البيان ، هادراً بشقشقة بزل معد وقحطان ، فلتكن له منك أذن واعية ، ونفس لما يوجب تزكيتها ساعية ، فأقول : قد قرأنا يا أبا العرب في غير ما كتاب من كتب الآثار ، متصلاً سنده بخيار خيار الخيار . ما رواه أبو رقية تميم بن أوس اللاري أن النبي ﷺ قال : الدين النصيحة ، قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم اه . وقد قال علماء الدين : نصح العامة إرشادهم إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم وكف الأذى عنهم وتعليمهم ما جهلوه وستر عوراتهم ، وأن يحب المرء لهم ما يحب لنفسه إلى غير ذلك مما لا يعزب عن علمك وإن شئت الإطلاع على نزر منه فأعد نظراً في معاملتي لك فإنها على زعمي ولا أضن خلافة على وفق النصيحة ومن لازمها أن لا أحب لك أن تعاملني بسواها وقد تكاثر من سوء فعالك ، ما متر جميل خصالك . أما علمت أن ثمرة العقول الراجعة ، الأخلاق الصالحة . فما لي أراك نبذت تلك الصفة وراء ظهرك ، مكذباً لحسن خبرك بتبجح خبرك ، تجازي الحسنة بالإساءة ، وتجبب داعي المروءة بالإبادة . تسارع إلى ما يجب عن مثله القعود ، وتتقاعد عما يرقبك في درج الصعود . ترى أقرانك جاهدين فتسول لك نفسك أن الراحة أحق ، فتميل إلى ما سهل أمره وترك ما شق . أما قرع سمعك أن الكد سلم المعالي ، ومن لم يعان تيار البحر أيس من اللآلي . وقل لي عافاك الله تعالى ماذا تفعل إذا تجوهر تبرك بعلمه . ونشر في المجالس حلية فهمه ، واستقدح من قريحته زنداً ورياً ، وأفاد من خزانة فكره أثاثاً ورياً . أجد لنفسك من تلك الفضيحة ملاذاً . أم تقول : يا ليتني متّ قبل هذا . فشمّر أيها الإنسان عن ساعد الجدّ ، واركب مطية الكد ، ولا يهولتك معاناة النصب ، فإن حلاوة الظفر تذهب بمرارة التعب ، ولا أرضى التواني عن فضيلة صرّح بها الكتاب . «قل : هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ إنما يتذكر أولوا الألباب» والسلام اه .

ومن شعره يني أخاه العلامة أبا عبد الله محمد بن محمد الأشموني على الألفية في 19 رجب سنة 1255 هـ .

هو العلم ضاءت من سناه المحافل	وشاعت له بين الأنام فضائل
مزايا تجلّت بالمحاسن والبها	تقاعد عن إدراكهنّ المحاول
رقى لسماه القوم حتى غلوا بها	بدوراً ضياهم للبرية شامل
مشارقهم تهدي السراة إلى المنى	إذا عاقهم ليل من الجهل سادل

كرام رأوا في المجد أنمي تجارة
 ولا غرو أن سادوا البرايا فإنما
 ومن يخطب الحسنة نال وصاها
 كجد الذي لاحت منارة سعده
 إمام دعا ركب النجاة فانتنى
 هو البحر إلا أن لامع دره
 إذا قام للإفراء فاسمع جواهرأ
 لآلي عذارى صاغها عزم فكره
 معان تحاكي رقة عاطر الصبا
 يصول بميدان البلاغة ذهته
 وإما نحا للنحو تسهيل صعبه
 ويعرف بالتصريح حال مسالك
 يقول لسان الحال فيه محدثاً
 «وإني وإن كنت الأخير زمانه
 أمولاي من فاق الأنام بفضله
 ومن صيته قد شاع بين ذوي النهى
 تهنّ فهذا الدهر أنجز وعده
 وحان المنى لما دنا الختم بالرضا
 أقامت به الأفراح وارتحل العنا
 جزاك الذي أولاك أعظم منه
 ودمت بعزّ للمؤمل ملجأ

ومن شعره مادحاً الشيخ أبا عبد الله محمد بن سلامة في ختم الشفا سنة 1262 ،
 أنشدها بمحضر الأمير أحمد باشا وقد ختمها بمدح الأمير المذكور .

لك الله من برق بدا متبسماً
 أضواء لطرفي بالعقيق معاهداً
 فألق ما بين المنازل والحمى
 فهيج أشواق الفؤاد وتيمناً
 فعاني بها القلب الجريح من الظأ
 فدينك هل من ماء رامة رشفة

فشنّف بها سمعي وأن كنت أعجبا
 على البعد ما بين الترائب خيما
 فإ نفع التذكار سمعاً مصمماً
 أهيل ودادي عهد صدق محكماً
 وما كل عهد بالوفاء متمماً
 من المنبع الفياض أكرم متمى
 له همّة فوق السماء وإن سما
 وأوضح من معنى السيادة مهبها
 مآثره في غرة الدهر أنجما
 هو البدر إن ليل الجهالة أظلمها
 وأحيى سبيلاً للهداية قيما
 مسالكة كان الرئيس المحكماً
 رأيت من الياقوت عقداً منظماً
 لقد أبدع النظم فيها وأحكما
 تحرس منطق الشاء وأفخما
 على فخره سعد السعود مترجما
 وحازت به الخضراء مجداً معظماً
 وأضحى به العرفان عضباً مقوماً
 وغنى به طير الفلاح ورنماً
 ولكن رأى ما قد رآه فأحجما

ومثل تحسن الأخبار عن عرب النقي
 هم خيموا بالرفقتين ووجدتهم
 عنولي دعني والتصابي والنوي
 أيرجى سلوي بعدما عاهدت يدي
 ومن شيمي حفظ العهود وصدقها
 مكارم أخلاق سقيت لبانها
 من الماجد الأسمى الإمام الذي علت
 جليل كسا ركن الجلالة مفخراً
 هو الحبر والعلامة الفرد من غدت
 هو البحر لكن ساغ عذب زلاله
 إمام مح ليلاً الضلالة هديته
 إذا ثار نفع للخلاف وأشكلت
 وإن حمت يوماً نحو ساحل درسه
 جواهر تبلو كالزواهر في الدجى
 وكم من مزايا دون معشار عدها
 ولا سيما هذا الختام الذي غدا
 ختام به كان الشفاء من الهوى
 مح غيب الأفكار طالع نوره
 تباشرت الأرجاء منه وأشرقت
 وكم رام قطب الجو تهته له

ولعمري إن عداد هذه الآيات السالفة في عقود أعذب الشعر ، ثم تخلص لمدهح
 الأمير فقال :

سرادق عزّ ما أجل وأفخما
 وإن عدت الأقبال كان المقدما
 فشيّد أركاناً وأوضح معلما
 وجيش في قهر العداة عرمرما

رأى طلعة الباشا المشير تحفها
 ملك يقاد النصر طوعاً لغزمه
 تصدى لحفظ الدين بالحزم والنهي
 وأحيى رسوم العلم بعد اندراسها

بكل كمي جهر الروح سيفه
فأرهب أعداء الإله بصولة
سرى صيته في الخائفين فلن ترى
ومن كان في نصر الشريعة حزمه
تهنى ملاذ العصر بالمفخر الذي
يمني به الإسلام والعلم والهدى
وما هذه أولى أباد منحها
أباد يغار الغيث من نفحاتها
كفى بك ذخراً للمريد وملجأ

ترى به في يوم الواقعة ضيفها
لو انبسطت لم تبق في الأرض مجرماً
لهيته إلا مطيعاً مسلماً
حري بأن يحمي حماه ويعظما
ملأت به الآفاق بشرى وأنما
ودهر زها من نشره وتبسمها
تسر الليالي منة ونكرما
ولا غرو إن كانت أعز وأعظما
وحسبك أن والي علاك ويمها

ولصاحب الترجمة قصيدة فرض بها قصيدة للشيخ سيدي علي الرياحي هنا بها
والده سيدي إبراهيم بختمه شرح القسطلاني على صحيح البخاري بجامع صاحب الطابع
المتقدم ذكرها في ترجمته ونصّ طالعها :

تبّلع في أفق العلا طالع السعد كسا حلل الإسعاد واليمن والرشد

ونصّ تفريض صاحب الترجمة لها قوله :

أحنّ وأصبو كلمأه من نجد
يمثل لي تلك الأباطح والربا
فهيج لي الشوق الأثيل ولم أكن
سقى الغيث هاتيك الخيام وأهلها
لهم مني الحب الصدوق ومنهم
أيا حادياً يحلو المطي مرناً
بلغت المنى بلّغ إلى غاية المنى
وناد إلى ليلي وقل صادق الهوى
زريه ولو بالطيف في سنة الكرى
بكت لساني يوم حمّ فراقها
وأصممت سمعي بعد طيب حديثها
فأسمعني بالقهر قول مبشر:

نسيم برياه يفوح شدى الندّ
وعهداً مضى يا حبذا ذلك من عهد
سلوت ولكن زدت وجداً على وجد
وإن أضمرُوا هجري ومروا على الصدّ
على مرّ أيام النوى كاذب الوعد
ترفق إذا ما جئت حيّ بني سعد
نحية صبّ في لبيب من الصدّ
مقيم على ما تعهدين من الودّ
نعم ما الكرى يستام مقلة ذي سهد
فلم يجر في مضمار حل ولا عقد
وليس استماعي غير ذلك من الرشد
تبّلع في أفق الهدى طالع السعد

لوامع درّ في بهي من العقد
على حانة الأسباع نابغة الجعدي
أحاديث فخر عمّ من غير ما حدّ
بفضل أبي إسحاق تسمو إلى الخلد
وأعلم من تحت السماء بلا جحد
ففاخر بها من دونها منتهى العدّ
بذلت له ما كان عندي من جهد
علقت من العلياء بالجواهر الفرد
من السحر إلا أنها خابص النقد
وذلك عند الألمي غاية القصد

وقال يمدح الشيخ محمد العزيز بوعتور رحمها الله بهذا الموشح :

وبريقاً لاح لي كالقبس
يطفى الذكر لهيب النفس
هل إلى العود زمان ينتظر
في رياض بين كأس ووتر
أعيد أحوى تبدى في حور

مرق البدر ظلام الخندس
رشق القلب بلحظ نعس
وسبا روعي وأردى بدني
أردف الصقور بضير الحن
اصطبر تحظ بأوفى المن

فانزلن دار المنى من تونس
وبها كان أمان المجلس

كعب السعد أسلمي واختصبي
واقطف منها ثمار الأدب
وأزح عنك كساء التعب

تطلبت ما تحت البشارة فانجلت
كؤوس من الراح الحلال يديرها
تضوع منها المسك لما تضمّنت
ختام به الخضراء فازت وهكذا
فخار بني الدنيا وذخر نوي التقى
مآثره سارت سرى الشمس في الضحى
لك الله من ختم وددت لو انني
وإن فاتني ذاك الفخار فاتني
أبي الحسن الأسمى إليك خريدة
خدمت بها عليك دمت بجودها

يا نسيماً هبّ من نحو الحمى
حدّثن عن أهل ودي علماً
يا ليال قد تقضت بالهنا
حين ضمّ الشمل أشتات المنى
مع مليح القد يزري بالقنا

مرق الأحشاء جواراً مثلاً
زارني عن طول وعد ريشما
سلب اللب وولى وجفا
هكذا الدهر إذا العيش صفا
قلت للقلب إذا ما رجفا

وإذا رمت من السوء حمى
فيها الدهر غدا مبيتسماً

جنته الدنيا على هاماتها
فأدر لحظك في روضاتها
واغتم الفرصة من لذاتها

حاطها الله من سوء كما
فلقد ضمت مخيار الندما
انتبه يا صاح ذا ربح الصبا
وطيور الأنس قامت خطبا
حرك الأوتار وانشد طرباً
لست كأسَ الراح أعني إنما
مدحة النجل العزيز المتتمى
غاية الفخر جمال النبلا
قر قد ساوم المجد على
ومن اعتاد المعالي كيف لا
يا رئيساً أخذ اللب بما
عقد درّ مذ بدا منتظماً
هاكها يا طلعة البدر البهي
قصرت عن مدحة الفخر الزهي
عارضت قول قبيل الوله
«هل درى ظبي الحمى أن قد حمى
فهو في حرّ وخفق مثل ما
وكتب إلى بعض أحبائه بما نصّه :

يا نائياً وفي القلب قراره ، وظاعنا وقد شاقني مزاره ، لقد افطت في الجفا وكان
من الهجر ما كفى ، وتركت ما تركت بين الجوانح وسلمت الفؤاد لموقد القوادح ، أظلمت
منازل أنتست من جمالك بدمراً منيراً وأوحشت منازل طالما استشقت من مسامرتك
عطيراً ، وأبقيت حليف هواك يقنع بطيف الخيال بعد تمتعه بطيب الوصال ويحسد أهل
ذلك المنزل الذي سعد يباه جمالك ولا يترقب سمعه إلا نعمة بشير وصالك قد جنح إلى
رسول الكتاب حين زاد وجدته وحنّ إلى الخطاب :

كتب ولو كتبت بقدر شوقي لا فنت القراطس والمدادا
ولكنني اقتصرت على سلام يذكرك المحبة والودادا

أصل سلفه من مدينة صفاقس ، ثم سكنوا تونس . ولد صاحب الترجمة بها ونشأ في طلب العلم فأخذ عن جها بذة عصره ، وكان له ذكاء مفرط وقرينة وقادة ، فحصل على حظ وافر من العلوم ، ثم تصدّر للإقراء . وله ولوع بعلوم اللغة والبلاغة والشعر والإنشاء ، وباع مديد في علم التصوف غلب عليه التوغل في كتب القوم ، وبالأخص كتب الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي الحاتمي الأندلسي حتى أفضى به الحال إلى التجرد وربما مشى في الأسواق بتونس حافياً مكشوف الرأس رافعاً صوته بالتهليل هضماً لنفسه بمخالفة عادة ذوي الهيئات ، وهجر وطنه سائحاً فدخل طرابلس واجتمع بالشيخ المرابي السيد محمد ملني شيخ الطريقة المدنية وأخذ عنه طريقه ودخل الأستانة وقطن بها سنين ورجع إلى السلوك فكان يغشى علماءها ويخالط عظماءها كشيخ الإسلام عارف بك . ولما ورد الوزير أبو العباس أحمد بن أبي الضياف على الأستانة من طرف الأمير أحمد باشا في مهمة لقيه صاحب الترجمة فحرّضه على مراجعة وطنه ووعدته بالمساعدة لدى أميره ، فرجع إلى تونس في 14 جمادى الثانية سنة 1257هـ وولي مدرساً بمكتب الحرب بباردو ثم مدرساً بجامع الزيتونة وقضاء باردو ثم الفتوى على المذهب المالكي في 9 شعبان سنة 1285هـ ، ومشیخة مدرسة التربة الكبرى . وكان غزاً كريماً مرجعاً لكثير من علماء جامع الزيتونة فيما يشكل عليهم من العلوم على اختلافها فيزيح الإشكال . وكان شيخنا العلامة أبو النخبة مصطفى رضوان يراجعه في المسائل الحسابية العويصة في فني الجبر والمقابلة وراجعته في حل أشكال إقليدس . وكان الشيخ العلامة أبو حفص عمر ابن الشيخ علي تطلعه في علم الميزان يراجعه فيه وغيرهم ، ومجلسه متدى الفضلاء وله تبخر في علوم القوم ، فإذا أفاض فيها أبدى العجب العجاب ومحاضرات لا يستطيع مجالسه أن يجاريه . أما الشعر فهو شاعر عصره غير مدافع ، له القصائد البديعة السائرة مشحونة بالحكم والأغراض النافعة ، يرتجل ما يبر ويحسن موقعه نقل بعض أحبابه يوماً بمجلسه ما حكاه الواحدي في شرحه لديوان أبي الطيب المتنبي عند قوله :

رأيتك في النين أرى ملوكاً كأنك مستقيم في محال
فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

من انتقاد بعض مزاحمي أبي الطيب بمجلس سيف الدولة في مقابله الاستقامة
بالمحال ومقابلها الإعوجاج وحمل أبو الطيب على ذلك تأدية المعنى العجيب الذي صار
مثلاً في قوله : « فإن المسك بعض دم الغزال » ، مراعاة للقافية ، ثم ما أصلح به المنتقد
البيتين أن لو كانت القافية جيمية بقوله :

رأيتك في الدين أرى ملوكاً كأنك مستقيم في اعوجاج
فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن البيض بعض دم اللجاج

وقول أبي الطيب للمنتقد إن سوق الملوك لا يباع فيها البيض ، فانقطع المنتقد وعدّه
في الأجرية المسكنة . فقال صاحب الترجمة : بديهة لو كنت أنا لأصلحت البيت الثاني
بقولي :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن الدرّ من ماء أجاج

وأقول : إن صحّ ما ينقل من أن الصدف تطفو في شهر نيسان وتفتح أفواهها لتلقي
ما يتزل من ماء مطره ، فما يقع في بطونها منه ينعقد دراً لم يصح إصلاح صاحب
الترجمة إذ الدرّ حيثئذ من ماء عذب لم يخالط ماء البحر إلا أن يكون بالنظر إلى الصدف
المتكوّن به .

وكان واعد المشارك الفقيه الشيخ عثمان الماطري صاحب الترجمة ثم لم يف فأشده
ارتجالاً :

إنما وعدك يا ماطري كراقم يوماً على ماطري

وكان أطلعه بعض الأدباء على تقرّض له لقصيدة الشيخ أبي عبد الله محمد يريم
الرابع شيخ الإسلام في الأمير محمد باشا التي مطلعها : جمع الإله لك المحاسن كلها ،
فلم يستحسنه ، وقال : هلا قلت :

عهدي بها في الخدر تخني دلها فعلى البروز لفتني من دها

في جملة أبيات من هذا الطراز البديع ارتجالاً إلى غير ذلك ، مما يطول تبّعه . وله
في التاريخ بحساب الجُمّل براعة لا تعرف لسواه من حيث انسجامها مع القصيد ،
ويقال : إن له قاعدة في ذلك اخترعها ، يستخرج بها التاريخ بسهولة وانسجام ويكفي

شاهداً على ذلك قصيدة دالية هنا بها السلطان عبد المجيد بانتصاره على روسيا ، فإن جميع أبياتها بمُهلها ومعجمها وصدورها وأعجازها ، يستخرج منها تواريخ لعام الانتصار بحيث يتحصّل منها الآلاف حتى جعل لها جدولاً في كيفية استخراجها . وله اطلاع واسع على اللغة العربية حتى كاد أن يحيط بها حفظاً . وله شعر كثير جمع تلميذه المرحوم الأديب الشيخ محمد السنوسي جملة منه ، فكان ديواناً ضخماً وأكثر شعره تلاشي حيث لم يكن متحفّظاً عليه . توفي في 3 رجب سنة 1288هـ عن تسع وخمسين سنة ودفن بالجلاز . ومن شعره مصدراً ومشطراً :

قيل لي أنت أحسن الناس شعراً	سبك لفظ وصوغ معنى نزيه
كم عقود قلدها لجيود	في فنون من المديح النبيه
(لك من جيد القريض مديح)	ليس يعرى من مفخر مكتسبه
تارة يسحر العقول وطوراً	(يُثمر الدرّ في يدي محتنيه)
(فَعَلَّامٌ تَرَكْنَ مَدْحَ ابْنِ مُوسَى)	وهو أولى بأعظم التنويه
أو لم تستبن كمال علاه	(والخصال التي تجمعن فيه)
(قلت لا أستطيع مدح إمام)	طهرّ الوحي بيته وذويه
ماعسى أن يقال في مدح من قد	(كان جبريل خادماً لأبيه)

ومن شعره قصيدته الميمية في مدح المثابة النبوية ، وصرف طرفها لمدح آل البيت الكرام لم ينسج على منوالها ذيلها بعقد من الشرفائق الدرر ومطلعها :

يا آل بيت له العلياء والعظم ومنه للأمة الآلاء والعصم
جوامع الحمد لم تفرع منابرها إلا مكارم يعزى فخرها لكم

وقصيدته الميمية التي هنا بها الوزير مصطفى خزندار بإياب ابنه الأكبر من أوروبا بعد أن طلب في مدارسها العلوم العصرية روضة غناء بها من الحكم والتريبات ، ما ينهض النفوس الأبيات ، مع روتق البلاغة وبديع الفصاحة ما فيه قرّة لأعين الأدباء ، وتأيد لنفوس الحكماء ، وبفحصها يتبين فضلها كغيرها من قصائده التي هي كالحلقة المفرغة .

ورأيت في كئش للشيخ محمد بيرم الرابع ما نصّه :

كتب إليّ الألمي الأديب الفاضل أبو الثناء محمود الشريف المشهور بقابادو إثر

اجتماع به وقع في عيد النحر من سنة 1259 هـ .

قالت الكُتُبُ ألا هل واصف علماء العصر ماذا حالهم
بمقال لم يخالف قلبه قلت : (مهلاً بيرم ريباهم)

وما وقعت العلامة عليه من المصراع الأخير يُقرأ معكوساً أيضاً على حدّ (سر فلا
كبابك الفرس) والريال الأسد كما في القاموس ١ هـ .

ومن نفائس شعره مشيداً بقانون عهد الأمان ومادحاً الأمير محمد الصادق باي على
سينّه للتونسيين في قصيدة مطوّلة بليغة يقول فيها :

العدل عهد خلافة الإنسان	ومداد ظل الأمن وال عمران
وتمدن البشر اقتضى إيلافهم	بتعاقد من دائن ومدان
وتطامح الخلقاء لاستبدادهم	بالفضل داعيهم إلى العدوان
فتقرّر السلطان ضربة لازب	لنظامهم بالعدل والإحسان
والعدل كل العدل يقصر دونه	رأي الليب وفضة اليقظان
ولو أنه تبع لأهواء الورى	شقّ الخلاف عصاه بالعصيان
والنفس جانحة لعزّ رئاسة	صنعاً وجامحة عن الإذعان
والرأي إن لم يصف عن كدر الجهوى	لم تبد فيه حقائق الأعيان
والشرع قانون متين محكم	ما فيه للتبديل من إمكان
سجلت له الألباب سجدة مدعن	وتقاصرت عنه يد المطعان
شمس منازلها صدور ذوي النهى	الراسخي الأقدام في العرفان
قد ضلّ من من غيرهم طلب الهدى	لصلاحه الروحيّ والجسماني
ظن السراب شراب ري قالع	ورأي الجباحب جذوة النيران
إن التي جمعت كمال مصالح الدا	رين ويك شريعة العدناني
ما شدّ عنها حكم حال يعتري	جيلاً ولا حيناً من الأحيان
أما جلياً طبق نازلة عرت	أو باطناً للممة لم تان
فكأنّ كل شريعة من قبلها	في أصلها صنوّ من الصنوان
يشبهن حال فروعها من بعد في	تبع لعادات وحكم زمان
فالنسخ في هاتيك كالعامل الذي	فيها مع الحالات ذو دوران

كم غادر العلماء من متردّم
 وهم الأولى خاضوا بها واستخرجوا
 وتحالف الفقهاء في أنظارهم
 وقضت مناهبهم على القاضي بها
 والكل مجتهد فمخطئهم له
 لكن إذا غلب اتباع للهوى
 وتطرفت بهم لمن يقضي فلم
 وتورط المرتاب في شبهاته
 وتبدلت سعة الخلاف مضائقاً
 واستهدف الدين الحنيف بظنة
 وزماننا هذا كما تدرونه
 فالأرض من أطرافها منقوصة
 ووراء ذلك ما يروع ذوي النهى
 كادت مني الإسلام تكذب أهلها
 الصادق العزمات سيف الله ذي الـ
 ملك له كرم أبي إثارة
 شام الهنا بيض الأنوق بحالق
 وغدا يراعيه بعين عناية
 ويسامر التفكير في تدبيره
 حتى أبان له المهيمن مسلماً
 أعشى على كل الملوك سلوكه
 وغدا يمهدّه يئمن كافل
 حتى تنهى ألفة وترتباً
 هو ذلك القانون والعهد الذي
 أمضاه سيدنا وكان لحكمه
 جعل الورى فيه سواسية فلم
 لم يعد فيه فقه مذهب مالك

بمغامها وجني قصيّ بجان
 منها الكمين بمبلغ الإمكان
 فتفاوتت في شدة وليان
 أن يهتدي بمواجب الرجحان
 أجر كما لمصيبهم أجران
 صار الخلاف ذريعة العدوان
 تقبل قضاء النفس باطمئنان
 وتدرع المحتال بالبهتان
 هي للخدوع نوافق الروغان
 في غربة لمطاعن المطعان
 ظهر الفساد به بلا كتمان
 والدين منبوذ ورا الظهران
 إن نام راعي السرح عن سرحان
 لو لم تمدّ بصادق السلطان
 حدّين رأي ثاقب وبيان
 لنعيم ملك عن هنا الأوطان
 فسماله بقوادم العقبان
 لا تستجير تصافح الأجفان
 مستسهلاً لمصائب الأحزان
 لا تستقل به قوى الإنسان
 فاجتازه فرداً بلا أقران
 بالأمن بين نواهش الثعبان
 فدعاه حيثئذ بعهد أمان
 أوتيم من قبل بالإيمان
 هو أول الراضين بالإذعان
 يترك لناء عنه بنت لسان
 إلا بفقه إمامه النعمان

لكنه انتخب الذي هو لائق
حكم به رفع الخلاف وشاد بند

ومنها :

لله قانون أقام سياسة
قد عمّ أنواع الجنايات التي
أبقى الوري أماناً على سكنتهم
فلو انّ عيناً تخشي من نومها
منع التظالم في المكاسب بينهم
وصيانة الأموال أصل موجب
كصيانة الأعراض عما شان وال
والأمن في تلك الأصول جميعها
يا أيها الملك الذي هو في العلاء
أشهدتنا مصداق قول نبينا
لم يدر هل في أول أو آخر
خلنا الزمان قد استدار فنحن في
عدنا إلى عصر الخلافة بعدما
لم لا وذا الزمن الذي من يحفظ
إن كان في طيّ الكتاب لديتنا
سبعان من أحياء بمسعاك الهدى

شرعية مرصوصة البنيان
هي مرجع الإيلاف والشنان
لا جور يزعجهم عن الأوكان
جوراً أحرارها على الأوسان
وتسخر الأدنى لذي السلطان
منع الريا في سائر الأديان
ألأب والأنسب والأبدان
هو منشأ الإثراء والعمران
بدء وما يتلوه من ثيان
هي أمتي كالوابل الهتان
مختاره فتشابه الطرفان
خير القرون بحكم خير قران
ملك عضوض عضه السودان
فيه بعشر الدين ذو إحسان
نصّ فذا القانون كالعنوان
وأراح روح العدل للجهان

ومنها يخاطب المجالس المؤسسة بمقتضى قانون عهد الأمان :

هذي رئاستكم وعزة مجدكم
وإلى أمانتكم وحسن وفائكم
وتعلموا أنّ الوفيّ لنفسه
والله ليس مغيراً إنعامه
وتيقنوا أنّ الذي غلب الهوى
نيطت بكم يا معشر الأعيان
وكلت وغيرتكم على الأوطان
يوفي ومن ينكث عليها جان
حتى يغيره ذوو الكفران
والنفس يغلب كل ذي سلطان

هذا وإن الصادقية دولة
 لما رأت مصباح شرع محمد
 جعلت له القانون شبه زجاجة
 فتدارسوه لما علمتم بينكم
 والله يشملنا ويشمل جمعكم
 خصت بتأييد من الرحمان
 بتلاعب الأهواء ذا خفقان
 لتقيه هب عواصف الطغيان
 عوداً على بدء بغير توان
 بالعون والتوفيق والغفران

ومنها في الوزير خير الدين :

وأنت خير الدين في تقريرها
 ما زال يُملئها بفضل خطابه
 كليم يفوت بيانها سبقاً إلى الـ
 ومقاله فصل كأن فصولها
 بفصاحة ترزي على سبحان
 حتى وعتها سائر الأذهان
 أذهان مسراها إلى الآذان
 شذر القواصل في عقود جهان

قال الشيخ أحمد بن أبي الضياف في تاريخه بعد أن ساق هذه القصيدة إنها على طولها أقصر من ليالي الوصال وأعذب ما يسمع من المقال .

319 - الشيخ أبو عبد الله محمد بن الفقيه أبي محمد الحسن التطاوي

أصله من مدينة تطوان من بلاد المغرب الأقصى . كان رحمه الله من أعيان الكتبة بالوزارة الكبرى التونسية حلاه الشيخ أحمد بن أبي الضياف في تاريخه بالأكتب البارع الأديب ، وذكر أنه صاحب قلم الإنشاء في المحلة الموجهة إلى العادل باي الثائر على أخيه الصادق باي التي يقودها باي المحال إذ ذاك أخوها علي باي ، وذلك سنة 1284هـ . قال : وله رحلة ألفها في هذه المحلة 1هـ . توفي رحمه الله بتونس سنة 1288هـ ، وقفت على قبره بمقبرة الزلاج منقوشاً عليه قصيدة في رثائه وتاريخ وفاته ظاهر ضعفها والبيت المتضمن للتاريخ نصه :

أنزله يا ربي جوار نبيك بمقعد صدق عند ملك مهيم
 93 223 210 83 216 194 124 90 145

سنة 1288هـ

اعتبرت الصاد في قوله : صدق ، بتسعين بحساب المشاركة .
من شعره ناظماً عقد نسب الشيخ سيدي محمود محسن إمام جامع الزيتونة المتوفي
سنة 1285هـ رحمه الله هذه القصيدة :

أما آن أن تستبدل الغي بالرشد
إلى م التواني والأمانى شرابها
فبادر ولا تُرج الأمور إلى غد
وسابق إلى سبل السعادة والهدى
وكن واثقاً بالنجح في كل مبتغى
ولا سيما إن رمته بشفاة
خصوصاً ذوي الإحسان من آل محسن
إليك بهم يا رب قد جئت ضارعاً
بمحمود الأرضي ووالده الرضا
ووالده المحمود وهو محمد
وذا حسن يدعى أبوه وجده
وبالحسن الأسمى أبيه ابن أحمد
أبي القاسم الميمون نجل محمد
وهو ابن عبد بالعبادة قد غدا
ومن خلف المدعو بابن علي ال
وسل بأبيه القرم وهو محمد
ولا تعد إسماعيل والده الذي
وبالباقر الأتقى أبيه محمد ال
وهو ابن زين العابدين علي ال
سليل الحسين نجل فاطمة التي
أبوه علي وهو صنو نبينا
بجدهم اللهم يا خالق الورى
أنلني رضاك يوم لا شيء غيره
ويا رب فاشهد أنني قد أحبهم

وتثني عنان الهزل منك إلى الجد
سراب يلوح فوق رابية صلد
فرب غد يأتي بما ليس في العدة
وشمر لإحراز العلاء ذيل مشتد
مؤمله في فضل من جد عن بد
من آل نبيّ خصّ في الذكر بالحمد
كرام السجايا كم يد لهم عندي
بحقهم لا تخجلني بالطرد
علي أبوه أحمد نير الجد
سليل لمحسن بن أحمد ذي الرفد
علي وفوز الابن بالأب والجد
سليل الذي لا زلت فضله أستجدي
هو ابن قريش نجل عيسى أخي الزهد
مضافاً إلى الرحمن أكرم بنا العبد
حليل التمس تفريج كربك عن حد
مرادك كي تحظى به دون مارد
أبوه يسمى جعفر الصادق الوعد
همام الذي حاز السيادة في المهدي
أمام الزكي الأصل ذي السؤدد العدة
هي الزهرة الزهراء أم ذوي ودي
عليه صلاة الله تترى بلا حد
ويا ملجأ المضطر يا وجهة القصد
يقرباني زلفى إلى جنة الخلد
لحبك إياهم وذا ملهم عندي

وأستنزل الرضوان منك عليهم لترضيهم عني وذا منتهى جهدي
وصلت وسلمت ثم بارك على الذي أتى رحمة للعالمين بلا جحد
ومن شعره منوهاً بمشروع المدرسة الصادقية قصيدة طالعها :

كُفيتَ اعتراضَ البيدِ أو لجاجَ اليمِّ بتسهيل طرق العلم يا طالب العلم
ومنها مشيراً إلى مؤسسها الوزير خير الدين :

فأحیی لنا رسم المعارف بعدما تقضت دهور وهي عافية الرسم
مکاتب تعلیم أجدّ بناءها وصان مبانيها بوقف عن الهرم
تغني بها شادي العلا مترنماً ألا هكذا بنى المدارس للعلم
وضمّ بها من شام منها نجابة ستعرب عن فتح لدى عامل الضم
وما انس يوم الامتحان وقد بدا يقيناً لذي الإنصاف ما كان في الوهم
تنافسهم في ضبط ما أخذوا بها من العلم والتأليف مع سرعة الفهم
ولما دروا والله كافل حفظهم بأن شياطين العيون لهم تصمي
تلا أولاً منهم أخير كأنهم كواكب تقفو إثر بعضها للرجم

ومن شعره أيضاً يثني على مبرة أحمد باي الأول بترتيبه ثلاثين مدرساً بجامعة
الزيتونة بهم انتظم التعليم به فقال :

فكان لسان الحال ينشد قائلاً : إلا في سبيل المجد ما أنا فاعل
فلا غرو أن بتنا نشاوي بذكره نراصد في مرضاته ونحاول
وننشد أبيات القريض تداولا ليحرز قصب السبق من هو عاجل
فدام لنا باليمن عزة نصره وهذا دعاء للبرية شامل

ومن شعره ونثره مفرضاً كتاب أقوم المسالك للوزير خير الدين باشا التونسي :

الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبيء بعده

هو العدل يحيي كل ميت من الأرض الأهلكذا فليقض من رام أن يقضي
هو العدل والإحسان توأمه الذي ينوء به عند الإقامة والنهض
وإعطاء كل من ذوي الحق حقه ألا إن ذا الإحسان وهو الذي يرضي
بذا تعمر الدنيا وتحسن لا بما وجود به نيسان من مائه الفضي
وليس لعمران البلاد ونخصبها وجر انتصاب الرفع للعيش بالخفض

سوى أمل في الأمن ينمو غراسه
وهل أمل أو هل أمان وكلنا
فياخذ من هذا وهذا مرجحاً
ويجعل ذا مستهتر في مكان ذا
خليلي إن الحق يعلو بناؤه
وفي الأخذ والإعطاء بالحق معقل
وما الحق إلا في اتباع شريعة
يروح لها المقضي عليه مسلماً
وفي حسن أخذ بالمدارة رغبت
أمان وإيمان نتيجة هديها
وليس مراد الشرع غير استقامة
يقول استقم كما أمرت وأن لو است
خليلي إن الاستقامة منهج
فتأبر عليها واعيا نصح حازم
هدانا من اقوم المسالك مسلماً
كتاب لخير الدين جاء محرراً
دعانا إلى حرية عز نيلها
ولكن عساها أن تروض صعابها
خبير بأدواء القلوب وطبها
فيا فخر دنيانا ويا خير ديننا
كتابك أجناني ثماراً غرستها
وأبرز ما أحرزت منها جواهر
وحبرتها تحبير واع لنصحكم
كتاب حوى سر التوصل للعلي
تقاضائي التفريض حقاً مرتباً
فجدت بهذا النزر من شكر صنعكم
ثنائي عليك أنك اليوم أوحد الزم
جزاك عن الإسلام كامل نصره

وأعمال بر لا تؤول إلى الدحض
يغلب حظ النفس بالحب والبغض
ولا وجه للترجيح غير الهوى المحض
وهذا إلى إخلا المكاتين قد يفضي
وليس بناء الحق يوماً بمنقض
لتأمين ذي خوف وبسطة ذي خفض
مطهرة جاءت بحكم لها مرضي
بلا حرج في النفس مما به تقضي
وحضت على تهدينا أيما حض
فعض عليها جاهداً أيما عض
يكون عليها الحق في العالم الأرضي
قاموا لأسقيناهم غير ذي برض
قويم لحفظ النفس والمال والعرض
عليم بإبرام العزائم والنقض
لدى السبق يكفي في مداها هنا الركض
أتانا من التحرير بالنقل والفرض
ومن دونها قلب السماء على الأرض
سياسة رحب الصدر ذو أدب غض
فلا نكس مهما جس منها على نبض
ويا ذخرم من يمني من الدهر بالدحض
فأول شعر قد أجرت له عرضي
بسلك نظام عقده غير مرفض
ومبصر ما أبداه برقك من ومض
ونبه جفن الاغترار من الغمض
علي له لا كالتعامل بالقرض
بحقك فانظره بعين الذي يغضي
ان قدم واسلم من الهضم والهض
وأرضاك عنا بالذي لك قد يرضي

سيدي أنجح الله مساعيك وأخصب بمنه مراعيك ، أتخفي بعض الأعزة من
الإخوان بأن رفع إلي وأنا بحال مرض نسخة مما طبع من كتابكم الموسوم بأقوم المسالك في
معرفة أحوال الممالك ، فلما وقفت عليه أكبرته بعدما كبرت واستفدت ما به اتعظت

واعتبرت واستعبرت عيني أولاً لما ضاع من ذمام الإسلام وأهله ، ثم اتشرح صدري لما تحققت من توجه همتكم لجمع شملهم وشمله علماً بأنك من أشاة الدين ولذا دعيت بخيره ومن سواغ دعائه المهتدين الذي بشر بيمن طيره ، فالله تعالى ينفيك علماً ويجعل قصدك أمماً ويتلافى بك من أهل هذه الملة الحنيفية أمماً ، إنه ولي ذلك والملي به . ولما قرأت في رائد الأسبوع الأول من هذه السنة المباركة جملة ما كتبه علماء العصر وأعيان المصر في تقريرض هذا الكتاب ، رأيت من ذلك ما يبر الأفكار ويسحر الألباب وما منهم إلا من أتى في مدحه باللباب وأظهر من ثقبات سحره العجب العجاب ، وإن كانوا يتفاضلون في مراتب الترجيح عند إرادة الانتخاب ، فحدثتني نفسي أن أدخل فيهم وأكون منهم ، وإن كنت لست بأهل لأن أجلس بين أيديهم وأخذ عنهم ، فأتيت بما أظنه يستجد وجعلته لعائق كتابك كالنجد وهي القصيدة المثبتة في صدر هذا الرقيم والأمل أن سيدي يقبلها بفضله العميم ويقابلها بما هو أهله من التبجيل والتكريم ويتصفحها بعين الناقد البصير ويصفح عمّا بها من القصور والتقصير وإن لم يرها من مطامح آماله ولا من موادح رياض أعماله فليخذها نعمة لكتابه وعودة لكماله والسلام الأتمّ عليه ما حنّ قلبي إليه ، كتبه آخر المفرضين إملاء وأوهم خلوصاً وولاء عبيد ربّه محمد بن الحسن التطاوني في 13 صفر الحير سنة 1285 هـ .

320 - أبو عبد الله محمد البشير التواني

هذا الفاضل من علماء جامع الزيتونة النّجاريير خصوصاً في علم القراءات . وكان فرضياً ومن أعيان المدرسين به ، ومن المشتغلين بالتوثيق ، وله فيه قدم راسخة ، ووضع فيه تأليفاً مفيداً معروفاً بوثائق التواني ، وهو مطبوع متداول بين العلول . كان رحمه الله ينظم الشعر الحسن . فن شعره يهنئ ويمدح شيخه عم جدي الشيخ أبا الفلاح صالح التيفر كبير أهل الشورى على المنهب المالكي المتوفى سنة 1290 هـ ، حين ختم عليه مختصر السعد على التلخيص :

أبدر تمام حلّ في مطلع السعد	أم البرق يبدو من نواحي بني سعد
أم ارتفع الجلباب عن وجه بيته	فبانت ثنايا الدرّ من مجمع الشهد
فأنست وجهاً دونه الشمس في الضحى	به الورد يبدو من حياء على الخد

وقد سدّدت نحوي سهام لواحظ
فبتّ و نار الشوق وسط حشاشتي
وكم وعدت مقتولها بحياته
وإني قنوع في الوصال بنظره
فإن لآمني العذال فالقصد صالح
تقيّ نقي ناسك متورّع
إمام همام لودعي وسيد
خلاصة أختيار ومفتاح كنزهم
كإل لنا كشف لكل ملمة
رياض علوم كأس عذب رحيقها
كأنه ليث في جيوش دروسه
إذا ما تصدّى للبيان رأته
وكم لهجت أنفاسه بجواهر
يفوق الورى في كل أمر يسودهم
أيا ماجدا قد حاز كل فضيلة
فدونك بنت الفكر قد تمّ حسنها

لقد فعلت بي كالمواضي من الهند
ولم تنل العينان ما طاب من برد
فشاب ولم يظفر بأنسة القد
إلى الغادة الحسناء بارزة النهد
لدى الناس مثل النار ليلاً على بند⁽¹⁾
هو الفاضل المحمود في القرب والبعد
من الشرفاء الطاهرين أولي النجد
وبحر محيط لا يغيض من الورد
خليل لطلاب العلوم أولي الرشد
أساس مبانيها يصول كما الرعد
وفي معرك الألباب سيف بلا غمد
يصوغ المعاني في البديع بلا جحد
ونظمه كاللؤلؤ الدرّ في العقد
وإن ذكروا مجداً تقدّم في العد
ويا سيداً دامت له سبل الودّ
أتتك تهني في ختامك للسعد

321- أبو إسحاق إبراهيم بن أبي عبد الله محمد السنوسي الكافي

وصفه الشيخ محمد بيرم الرابع بالفقيه ، كان أديباً . من شعره ما هنا به شيخ
الإسلام المذكور مؤرخاً ولادة ابنه الشيخ المفتي محمد السلامي بقوله :

بشرى لآل بيرم مولودهم بدر سعد
قاد المنى يُهنا وقد صدّ العنا عنا ورد
أورد في إقباله كل سرور إذ ورد
أقبل كالغيث على روض به القيظ اتقد
جاد به الدهر رضاً من بعدما لجّ ولد
فقلت في تاريخه : كنت السرور للأبد

(1) أي علم .

قال المهنا بهذه الآيات وهو الشيخ محمد بيرم الرابع ما نصه :
أنبتة الله نباتاً حسناً وجعله من صالحى عباده وأنالني فيه ما أتمناه . ولد قبل الزوال
بأربع ساعات إلا نزرأ يسيراً من نحو درجة أو درجتين⁽¹⁾ من يوم الأحد من جمادى
الثانية والموافق لخامس يناير الأعجمي⁽²⁾ من عام أربعة وسبعين ومائتين وألف ا هـ .

322 - الشيخ أبو عبد الله محمد الصادق بن عمر بن محمد ثابت

هذا التحرير من بيت ثابت العريق في الفضل الشهير بالمجد والوجاهة والنبل ،
وأصلهم من طرابلس الغرب ، وجدّهم الأعلى هو الوزير صاحب المبرات الحاج علي ثابت
باني جامع القنيطرة ، المعروفة إذ ذاك بقنيطرة باب علاوة ، والمشتهر فيما بعد بجامع
حرم ولعله صار يعرف بذلك نسبة لإمامة أو لمجدد بنيانه . والوزير المذكور هو المؤسس
أيضاً لميضاة سوق الترك التي نقلت فيما بعد لبستان الخضراء المسمّى «بالفيدير» ، وهو
وزير يوسف داي ومدبر شؤون دولته ، بل إنه هو الذي عمل لولايته الإمارة بعدما كان
مرشحاً لها غيره ، كما هو مبسوط في تاريخ حسين خوجة . وغالب رجال هذا البيت ، بيت
ثابت ، يحترفون صناعة الشاشية وهي التي كان يحترفها كثير من أعيان حاضرة تونس
وأثريائها من الأندلسيين وغيرهم وإلى الآن هي معتبرة من صناعات تونس الشريفة .
نعم ، هناك بعض أفراد من هذا البيت تقلدوا وظائف إدارية كوالد مترجمنا وهو الشيخ
عمر ثابت فقد ولي مشيخة المدينة بالحاضرة مكرهاً بعد امتناعه منها واستغفى منها في آخر
عمره فأقيل وكذا جدّ مترجمنا الشيخ محمد ثابت فقد ولي أيضاً مشيخة ربض باب المنارة
ثم تنازل عنها لابنه وترجمتهما مبسوطاً في تاريخ الشيخ أحمد ابن أبي الضياف . أما
مترجمنا فقد نشأ متفياً ظلّ آل بيته الكرام بين يدي أبيه الفاضل طالباً للعلم منكباً عليه
أخذاً له عن جهابذة عصره وفحول مصره أمثال خاتمة المحققين سيدي إبراهيم الرياحي
والعلامة الشيخ محمد البنا وغيرهما ، إلى أن نال منه أوفر نصيب وحاز من سهاته المعلى
والرقيب ، ثم عيّن مدرّساً بجامع الزيتونة فباشر به التدريس وانتصب فيه لإفادة الطلاب
فأفاد وأجاد وبلغ بذلك المراد وهو من أقران ونظراء العلامة التحرير الشيخ سيدي سالم
يوحاجب ومن أصلقاته . وكثيراً ما كان يذكره وينوه بشأنه . كان رحمه الله عالماً فاضلاً

(1) «الدرج» عند التونسيين خمس دقائق .

(2) شهر يناير هو شهر جانقي الإفرنجي .

كريم الأخلاق أديباً شاعراً ناسجاً في الفضل على منوال أبيه وجدّه . قال الوزير ابن أبي الضياف في آخر ترجمة أبيه ما نصّه : وأبقى ابنا يحيى ذكره ونشر فخره وسلك طريق أهل العلم وعُدّ من النجباء وأعيان الأدباء وطلب لمشيخة المدينة فأبى كثر الله من أمثاله اهـ .

غير أنه لم تطل أيامه بل عاجله حمامه وتوفي رحمه الله ولم يترك عقباً . كان يجيد قرض الشعر ، فمن شعره قوله ومن خطه نقلت :

ملاذي وذخري سيد الخلق إنني	قصدت حماك الرحب كي أبلغ المنى
لأدرك ما أرجو وأنسى مخاوفي	ويتزاح ما بي من هموم ومن عنا
وعاقبة حسناء في كل مقصد	أروم لأحظى بالمطالب والهنا
وفضلك واف ظله وارف غداً	ملاذاً لمن قد أمّه برّ أو جنى
وصلى عليك الله يا خير خلقه	وآلك والأصحاب طراً ذوي الثنا
وسلم تسليمًا كثيراً مباركاً	وبعد فإني لائد أرتجي المنى

ومن شعره قوله ونقلته من خطه أيضاً :

يا نفس لا تجزعي إن الشدائد مقـ	رون بها فرح يأتي على عجل
تبي بفضل من الرحمن خالقنا	واستشفعي بجناب سيد الرسل

ومن شعره أيضاً فيما أظن هذه القصيدة ناقلاً لها من خط يده ولم ينسبها لأحد في التشويق إلى الجناب النبوي عليه الصلاة والسلام :

سل ما أردت فهذه دار الندى	وضع الرحال فقد بلغت المقصدا
وأرح مطيِّك قد قضت حق السرى	وأرتك من دار النبوة معهدا
فاشكر لمنّ مدى الزمان فإنها	قد قلّدتك بحسن ما صنعت يدا
حملتك للهادي النبي فكم يد	قد حملتك ومثّه لن تجحدا
ركب أراك اراك طيبة حقه	جعل النفيس من النفوس له الفدا
أبصرت أعلى موضع فلك الهنا	فهنا رأت عينك أعلام الهدى
نادٍ به أوضحت بناييع الندى	قد جاد صبيها لكل من اجتدى
فاغنم بطفية كل عيش طيب	واحمد زمانك قد بلغت مُحمّدا
واذم ليالي قد مضت في بعده	ولو اجتنيت بها النعيم الأرغدا

واقصد بها ربعا ثواه ومسجدا
وامدد يدك لجوده مسترفدا
عن ذلك الوجه الذي يجلي الصدى
كي لا تشوب به سواه فتبعدا
ترفع إليه الطرف منك مبددا
كانت حياة بل تزيد تأكدا
تلقاه مثل العبد لاقى السيدا
حق السلام معظما ومجدا
بالقرب منه تخصصا وتوددا
بعد المات وقد تدانوا مرقددا
وشكرت في الإسلام ما قد مهدا
فاسأل فانت مقابل بحر الندى
والو العنان إلى اللوى كي تسعدا
إن سار هذا اليوم أتبعه غدا
فانهض ولا تجعل فعالك موعدا
من جاور السعداء يوما أسعدا
قد قت فيه بحسن مدحك منشدا
وافى فكنت له بعفوك مسعدا
بعظيم جاهك أنتي لن أبعدا
من حسن مدحك لن أضيع فأطردا
في جيده حلي النجوم منضدا
أوفى الأنام غلا وأندا هم يدا
مثل النجوم من اقتدى بهم اهتدى

واعرف بطيبة طيب عرف المصطفى
واقصر خطاك عن الدنو تأدبا
وانبذ وراعيك كل ما صدّ الورى
واجعل قوادك خالياً للقاءه
واخفض لديه الرأس من خجل ولا
تعظيم حرمة مما تأ مثل ما
فالزم بحضرة الوقار وكن إذا
واستقبل الشيخين واقض لديها
فهما ضجيعاه اللذان جاهما
كانوا جميعاً في الحياة فأصبحوا
فإذا فرغت من السلام عليهما
أقبل وإل كانت لنفسك حاجة
يا سعد ازر سعداً وسل عمّن له
وإذا غدا ركب الحجاز فلا تقل
كم ضاع بين عسى وليت من المنى
جاور إمام المرسلين وصحبه
يا سيد الثقلين هذا موقف
ورجوت منك رجاء كعب عندما
باليك قد رجّعت وجهي واثقا
أنا سائل عندي إليك رسائل
صلى عليك الله ما نظم الدجى
وعلى جماعة أهل بيتك كلهم
وعلى صحابتك الذين جعلتهم

ومن شعره يهنئ الأمير محمد باي بولايته الإمارة ، ومن خطّه نقلت وكأنها بقيت
مسودة قوله رحمه الله :

الله بالنصر العزيز مؤيد لك يا أمير المؤمنين ومسعد

فاهناً بنصر الله جلّ جلاله
 وبه فتق ويفضله تلى المنى
 الله قد ولّك أمر عباده
 ووضعت عنهم من مغارم جمّة
 فالله يوليك الجميل مجازياً
 الله أسعد أمرنا بمحمد
 ذو رافة وجلالة ومكانة
 يا أيها الملك السعيد المرتضى
 يا ابن الملوك العادلين أولي النهى
 ورثوا المعالي كبراً عن كابر
 جثنا ليعتك السنية نرتجي
 فانظر إلينا بالتعطف نظرة
 والفضل فضل الله جلّ جلاله
 يا رب صل على الرسول وآله
 وبقيت مولانا المليك مؤيداً
 بالمصطفى وآله وبصحبه
 سترى بفضل الله من أسراره
 وتنال من بركاته وسعوده
 وأنس وفر ونل المكارم والاعلا
 وبه استعن فهو الولي المرشد
 وبه اعتصم فهو الولي المنجد
 فوسعتهم عدلاً عليه محمد
 ما كان محمله ينوء وبجهد
 خير الجزاء بأنعم لا تنفد
 نعم الأمير لنا ونعم السيد
 علينا يقصر عن علاها الفرقد
 يا من به أفراحنا تترد
 والفضل كل فضله لا يححد
 وجمعت فضلهم وعدلك يشهد
 فضلاً (1)

ومن نثره ما قرض به أقوم المسالك للوزير خير الدين باشا التونسي ونصّه بعد
 فاتحته :

ركن المفاخر دون نزاع وطود السياسة الآتي من فنونها بعجيب الاختراع ، الجامع لما
 افترق من أشتات المعارف والرافع من حلال السيادة في أجمل المطارف ، الهام المفخم أمير
 الأمراء سيلبي خير الدين أدام الله إجلاله وحرس بعين عنايته كماله آمين . أما بعد ، إهداء
 سلام يحمله قرطاس الاحترام وتؤديه نائبة عن المشافهة ألسنة الأقلام ، فقد وافانا تأليفكم

(1) يياض بالأصل .

تأليفكم المسمى بأقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، وأجلنا الأفكار في اقتناء فوائده فراقنا ما احتوى عليه من عقود درّ السياسة المعجب للنفوس بفرائده، ورأينا الكفيل باستجماع شتاتها والموصل لطالبها بما تضمنه إلى غاياتها والباعث لمحّب الوطن على ما به ينمو عمرانها وتبدو به في جميع ساعاته مورقة أفنانه على طريق لا ينافي الشرع العزيز ولا يخرج عن خالص ذهبه الإبريز، فليله مؤلفه البارع المجيد المحرّض لأبناء وطنه على استعمال كل سبب معبّد والباذل لهم من النصيح ما يستحق عليه جميل الثنا ويصلون بالتعلّق به بحول الله تعالى إلى غاية المنى والله سبحانه ولي مكافأته على ما بذل من جهده ومبلغه من الانتفاع به تمام قصده والسلام من معظم قدركم محمد الصادق ثابت عفا الله عنه أمين. وكتب في المحرم الحرام سنة 1285 هـ، كما أنه أرّخ طبع الكتاب المذكور بقوله :

مؤلف أبان وجه الصواب	وجاء من نصيح الوري بالعجاب
قد تمّ طبعاً واغتدى نيله	ما دونه لطالب من حجاب
أسداه خير الدين ذاك الذي	منه لإحراز المعالي انتساب
فصوله يا صاح قد ضمنت	غرّ السياسات التي تستطاب
طبق اسمه كم فيه من مسلك	قوامه باد فسيح الرحاب
وروض نفع القطر قد قرّبت	ثمّاره للجني أي اقتراب
موانع العمران قد بيّنت	واضحّة فيه بدون ارتياب
وطرق السير به أبرزت	وعن محيّاها أزيل النقاب
فإن يرم تحصيلها مقتد	وافاه منها قصده والطلاب
ومتى أضدادها قلّ لدى	تاريخه : يقبه هذا الكتاب

سنة 1285 هـ

323 - الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بو علاق

هذا الفاضل من علماء وأدباء مدينة توزر من بلاد الجريد المشهورين بالذكاء، وهو ممن طار ذكرهم ولع اسمهم في النصف الثاني من القرن الثالث عشر من طبقة العلامة

الشيخ سالم بوحاجب رحمه الله تعالى . وشعره جيد متين يرويه الناس العارفون بقيمته ،
فما نسب إليه من الشعر هذان البيتان وهما :

لي صديق خسرت فيه ودادي حين صارت سلامتي منه ربما
حسن القول سيء الفعل كالجزر ارسى وأتبع القول ذبما
وهذان البيتان أيضاً :

وخير الكسب ما تعطيه كسباً لغاية تلاعب في الفراش
فن نال الغناء ولم ينلها فذاك من الأنام بلا معاش

وبيت آخر هو :

وللبغض عين لا تزال عبوسة وعين الرضا مكحولة بالتبسم

وقوله :

ويقبح من سواك الفعل عندي ففعله فيحسن منك ذاكا

324 - كاتب السر الوزير أبو العباس أحمد بن الحاج بالضياف

ولد هذا الفاضل بتونس سنة 1219هـ ، ووالده هو الذي قدم من أولاد عون إلى
تونس فنشأ صاحب الترجمة بين يديه فصرف وجهته إلى العلم ودأب على تحصيله عن
نحاريه ، وكان له ذهن وقاد ، ونفس أبية إلى المغالي تنقاد ، فحصل على باع مديد ،
وبصر في العلوم حديد ، لا سيما علم الأدب . فقد كان ابن خطيب زمانه يقال إنه
يحفظ الريحانة لابن الخطيب السلماي ولولا استيثار الأمراء الحسينيين به واشتغاله بالكتابة
عنهم ، لكان لآثاره العلمية شأن ، يفتخر به الزمان ، فأولاه الأمير حسين ابن الأمير
محمود باي خطة الكتابة وضمه لصاحب الطابع شاكير فحمدت خصاله ، وعملت في
تفنيه تدابير نصاله ، وهو أول من هدب أساليب الكتب في الدولة الحسينية
والمسطرات التي يكتبها كتابه الآن ما كان أسسه لهم جروا عليه ، وأول من كتب بالقلم
العربي للدولة العلية العثمانية ، ولما ولي الأمير أحمد باشا عرف مكانه ، فأعلى شأنه ،

وكان يتعجب كيف استقامت لمن قبله دولة ولم يكن فيها مثله ووجهه في المهام للأستانة ، فحمد أثره . وكان ممن صحبه في سفرته إلى فرنسا وباطلاعه على مبادئ الإنصاف والعدل التي تشبثت به الأمة الإفرنجية المعبر عنه بالحرية قايسها بالقواعد التامة التي أسستها الشريعة الإسلامية لذلك ألفاها المتكفلة بسعادة الدارين وأن تنكها إنما كان باستبداد ملوك الإسلام وضغطهم على الرعية ودؤوبهم على ذلك حتى استعبدوهم فضعف الأمر وظهر الفساد في البر والبحر حيث خالفت سيطرة الشريعة سيطرة الاستبداد الذي لا يقود إلا إلى الخراب وليس طريقاً للتقصي عنه غير الضرب على أيدي الأمراء في معاملة الرعية إلا بما تقتضيه الشريعة في نفوسهم وأعراضهم وأموالهم وأنسابهم وأديانهم ، فكان صاحب الترجمة يوميء للأمير وإن ساعده في سلوك طريق الاستبداد التي كان عليها وهي فيه متأثلة بأن التقيد بقيود الشريعة هو الدواء الناجع في إصلاح العباد والبلاد . وبقي ذلك في خياله إلى أن وجد من يعضده عليه فصرح بأمياله حسبما أفاض في ذلك في الباب السادس من تاريخه . وكان القائم بأعباء تأليف القانون الناشئ عن عهد الأمان يناضل عن فصوله ، ويقنع الخاصة على تسليم أصوله ، حتى سلقته الألسن ، ووسمته على براءته بما لا يحسن . ولقد كان في تأليفه ، ومدة معاناة تفويفه ، بيت ساهراً ، ويصبحه باكراً ، فباسط اللسن الليب حميده ما زيع . وكان بيت معه بكثرة نومه وطول استغراقه فيه مع أن صاحب الترجمة لم ينم إلا يسيراً . فأجابه بديهة حق لمن يضع ديناً جديداً أن لا ينام الليل ، فاحتملها ضاحكاً . وكان الأميران أحمد باشا وابن عمه محمد باشا يودان ولايته باش كاتب فلم يتسن ذلك لها . فلما ولي الأمير محمد الصادق باشا وقد غلب على هواه الوزير مصطفى خزنندار فقلب لصاحب الترجمة ظهر المحن . فلما توفي أبو عبد الله محمد الأصرم باش كاتب لم يشك أحد أن صاحب الترجمة هو المتسئم ذروتها . وإذا بالأمير أولى الوزير أبا عبد الله محمد العزيز بوعتور باش كاتب ، ثم بلغ الوزير مصطفى أن صاحب الترجمة قال في سمرة أن خطة باش كاتب وباش مفتي تقدم الدولة إليهما من شاءت ولا تراعي الأسبقية فيمن تنيطها به ، أما كاهية باش كاتب فإني بلغتني بنفسي إذ لم يبق من هو أسبق مني في الكتاب ، فسعى عند الأمير حتى أصدر للشيخ محمود بوخرىص منشوراً في ولايته كاهية باش كاتب ، وسمعت من يقول أن ذلك من عجائب القدر في المقاصصة الدنياوية عن نازلة باش مفتي المالكية بناء على صحة أنه هو الساعي في ذلك ويغلب على ظني براءته . ثم لازم بيته وتفرغ لتأليف تاريخه المقيد ونفت فيه نفثة

مصدر . فلما ولي الوزير خير الدين وزيراً مباشراً سعى له مع الأمير في مرتب عمري رعيماً
لما له من سوائف الخدم ، فأجري له إلى أن توفي في 17 شعبان سنة 1291هـ ، وكان
متفتناً فاضلاً فصيحاً لطيف المحاضرة حسن الأخلاق بعيد الهمة زكي النفس كاتباً بليغاً
شاعراً مطبوعاً . ومن شعره يمدح تونس ويتشوق إليها وهو بالأستانة معارضاً لقصيدة
الكاتب الفاضل أبي عبدالله محمد الورغي :

نسيم تونس حياتي ومحيني	والطيب منه إذا ما تهت يهديني
لا غرو أن تاه قلبي في محبتها	فأصل نشأته من ذلك الطين
إذ وجهتني لأرض لا تلامني	وحبذا أمرها يزكو ويرضيني
قاسى قوادي أهوالاً ينوب بها	أعوذ بالله من همز الشياطين
بالله يا نسمة إن جئت تونس قف	وانشر سلاماً لها من قلب محزون
واستمح النور من طود المنارة إذ	يبدو لمنظرك الباجي على حين
ترى مراسي حلق الوادي زينها	شوامخ السفن كالطير الميامين
فانظر منافعه واعرف عساكره	في البر والبحر حازوا خير تمكين
ونزه العين في تلك البقاع وطف	على الحصون ومأوى عسكر الدين
واسرع إلى قشلة القنديل إن بها	سمط المدافع في زبي الثعابين
طواير الأسد في آجامها روضوا	إن فاه أمرهم لبوه في الحين
زادوا لأقدامهم ترتيب حرهم	وأتقنوا نظمها من غير تخمين
إن الحنايا كنوع من وقوفهم	لا مثل نخل بمحني العراجين
قادوا الصواعق في سهل وفي جبل	طاروا بأثقالها مثل الشواهين
واستنطقوها إذا حنوا لنغمها	أصواتها عندهم رجع التلاحين
وسرح الطرف في قصر الإمارة من	أرجائها إذ بدا في كل تلوين
مرصع بنظام فاق نظمهم	سلك الجواهر في تلك الأساطين
غبل الملوك ومأوى كل ذي شرف	بقاعه شرحت أهل الدواوين
ديوان كتابها ديوان حسابها	ديوان قوادها أهل القوانين
وغيرهم من جموع طاب نشرهم	طيب الرياض بأنوار الرياحين
قاموا بخدمة مولاهم وطاعته	فلن ترى خطوة في غير مأذون
مدار عصبتهم مأمور سيدهم	فيما يصرف من صعب ومن لين

واعطف إلى قشلة الفرسان تبصرها
عقبانها من ظهور الخيل قد ثبتوا
تطير للناس في الهيجا جيادهم
واستخضر العيش بالخضرا وساكنها
أصل العلوم وماوى الصالحين بها
أنس الغريب بها ينسى موطنه
ومتع النفس من مرأى محاسنها
واعبر إلى القشلة الكبرى وعسكرها
غاضوا مُحارِبهم عَزَوا مُحارِبهم
وادخل مساجدها واذكر محامدها
والجامع الأعظم أجمع من فرائده
قد زانه أحمد ذاك المشير ومن
كُتَّاب الكُتُب أهداها وقد عجزت
قوى بتسييرها تأييد عسكرها
يا حسنها وهي بحر في خزائنها
وكم له من فعال لا عداد لها
لا زال يلبس والتأييد يصحبه
ما قال صب من الأشواق في قلق

تلفعت وتردت بالبساتين
مثل الجنور نلت من أفانين
فأعجب من البحر تجري بالموازن
وأسعد بإتيانها من باب سعدون
ومركز الدين من فرض ومسنون
وموضع اليسر من عيش المساكين
وانظر مآثر من شمّ العرائين
وانظم من الدرّ في نسق الأساطين
زانوا بصولتهم تلك الميادين
وصف معادنها وصف المجانين
ما يقتضي لنحور الخردّ العين
به الإيالة في عزّ وتمكين
عنها الملوك ولا هموا بتخمين
إذ مرجع الكل في التحقيق للدين
يغنيك جوهرها عن جوهر الصين
تبقى مع الدهر شجواً للملاعين
ملابس العزّ مع تاج السلاطين
نسيم تونس حياني ومحيني

ومنه يمدح شيخ الإسلام أبا العباس أحمد عارف بك :

سبقت إلى المعارف كل عارف
وعطرَ غرَبنا عنكم ثناء
تضوَع طيبه فهدى قلوباً
وحصل كل ذي أمل مناه
وقد زاد العيان على سماع
حوت من الكمال غرب كسب
وحليت الزمان بدرّ فكر

فأنت بأفقه شمس المعارف
يديّن له المسلم والمشارف
لبابك كي تنال من العوارف
فنحن الآن منك بظل وارف
فلم يجد اللسان ولم يقارف
يزيدك ما تزيد من المصارف
فأعجزت المجاري غير صارف

تفجر عن علومك كل عذب مباح للعطاش وللغوارف
أحمد أنت وحدك للمعالي تحدث بالنعيم فانت عارف
_ فمن لي واحداً يحكيك فضلاً ولو بذل التلاد وكل طارف
ودمت كما تريد قرير عين وصيتك في الوهاد وفي المشارف

وكتب صاحب الترجمة تحت هذه القصيدة مخاطباً شيخ الإسلام عارف بك بما نصه :
سيدي أبقاك الله عالي القدر منشرح الصدر جميل الذكر عند أولي الذكر اهـ . ومن
شعره يتشوق إلى تونس وهو إذ ذاك بإسلامبول سنة 1258هـ ، قوله والمقترح عليه شيخ
الإسلام بها المذكور :

تألق غريباً فذكرني الخضرا وزاد لنار الشوق في كبدي جمرا
إذا ما سلا قلبي بروض علومكم أته جنود العهد تطلبه قهرا⁽¹⁾
تثير قتام النفع في رجب صدره فتملك منه اللب والسر والجهرا
ويرتاع للغارات من علو خيلها فيوري لها جنباً لتأخذه قهرا
حيناً إلى أنسي ومعهد رقتي ومنشأ شبابي لا عدت به فخرا
بلادي التي حنت وربت وهديت فبائسها ما أن يجوع ولا يعرى
سقى حلق واديها وكل حصونها من السحب غيث يمطر العز والنصرا
بنفسي أفديها وأحمد حيتها وأقطع في مرضاته البر والبحرا
حماها وألقى نفسه دون نيلها وقد جالت الأيدي بضررتها الأخرى
وصعب لقاءها وسهل عيشها وزين مرآها فله ما أدرى
فأضحت وعيناها من العشق ما ترى سواء وقد ضمته في جيدها صدرا
فلا زال منصور اللواء مؤيداً وفخر بني عثمان يلبسه سترا
همامهم عبد - المجيد إمامه وعدته في كل معضلة كبرى
يلوم له التأيد والنصر والهنا ليتي لدين الله - من عزه ذكرا

وله يمدح الأمير أحمد باشا بموشح عارض به موشح ابن سهل وهو :

تونس الأنس لها شوقي نما نزهة النفس وروح النفس
أهلها أضحوا نجوماً في سما سطعت منهم بعقد أنفس

(1) خطاب لشيخ الإسلام أحمد عازف .

من وجوه الحسن ما يسبي الأريب
ولسكنها غداً يعنو الغريب
من بعيد حين تبلو أو قريب

بفتور من نبال وقسي
لا حمى من فاتك بالأنفس
ويدور الكأس بيديها النديم
زانت الألوان من ذلك الأديم
هكذا الشأن من العهد القديم
لثمت بالورد خد الأكوس
إنما الراح حياة المجلس

عقروا الهمّ بسيف ذي فقار
وأحاديث على صفو العقار
فاشرب الصرف على نقل الوقار
حول ورد في عذار الغلس
روتق الحسن لها بالعنس
بفرع الهم إلى أقصى مقر
يجوار في أمان وظفر
شرك الأنس إذا الأنس نفر

لمشير نبتة في تونس
حامي القطر بنصر قدسي
ملاً الغرب وزاد المشرقاً
مثل بدر في نجوم شرقاً
قطر من نجلهم قد برقا
مثل نار في هشيم اليبس
يجلب الأمن لعين النعس

بلدة طيبة قد جمعت
زانت الأرض بها وارتفعت
فضحت شمس الضحى إن لمعت

كم بها من أحور قلبي رمى
نالت الحرمة لم ينفع حمى
يا رعى الله ليالينا بها
تتهادى في حلى أثوابها
جاءت اللذات من أبوابها
فاغتتمها وارتشفها كلما
واتخذها لسرور سلما

بين خلان بهم صفو الزمن
لن ترى من جمعهم إلا الأمن
تجد الروح لهم أدنى ثمن
وامزجتها برحيق من لمتى
لا تزوج بكرها بابن السما
واجذب العود فمن نغمته
واسمع الألحان في ذمته
وانظر الأوتار في لمته

واغمم اللذات فالصفو نما
أحمد الباشا المشير المتسمي
ملك وابن ملوك ذكرهم
أسسوا المجد وهذا فخرهم
منهم الفجر ومنهم بدرهم
كثر الفضل وجنداً نظماً
أتقن الترتيب فيما أحكما

فاسكن الخضرا وخامر خيرها والبس الأمن بها والعافية
 واشكر النعمة واعرف سيرها هي للجاحد حقاً نامية
 وإذا لامست أرضاً غيرها قلت من شوق لتلك الضاحية
 تونس الأنس لها شوقي نما نزهة النفس وروح النفس
 أهلها أضحوا نجوماً في سما سطعت منهم بعقد أنفس
 ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً يمدح شيخه سيدي إبراهيم الرياحي ويهته بقدمه
 من سفره إلى الحج وذلك سنة 1242هـ . قوله :

قدمت وتفدي بالنفوس مع الأهل وإلا كسيف الجدد في موضع الهزل
 وإلا كما بانّت وجوه بشائر تخلص غرقى في بخار من الوحل
 وإلا كصبح الوصل أشرق نوره فاذهب ليلاً قد تبدى من العذل
 بعدنا عن التشبيه جهلاً وإنما لرؤية إبراهيم فضل على الكل
 فكيف ودرّ العلم قد جاء بحره وهل لمجيء البحر تبصر من مثل
 ففي حادث الأيام بعد أوانه فكيف أرى الأيام في غاية البخل
 سرى ذكره كالنيرين معطراً وعمّ جميع الناس طراً بلا مهل
 وسار لبيت الله والعزّ متبع وشدّد بالتقوى شديد ذوي التزل
 فحصل من تلك البقاع مغانماً مفاتيح فتح لا ترام ولا تملي
 وجاد على الأقطار من وبل علمه فأينع غصن العلم من ذلك الويل
 وخلف من زهر الثناء مناسماً يفروح شداها في رياض من القول
 وآب كما آب الزمان لأهله وقد زاد بالأضعاف فضلاً على فضل
 فكان لنا عيدان عيد قلوبه وعيد ختام الصوم فاعجب لذا الشمّل
 فهذا إمام الدين أقبل غانماً ليهتز بالأفراح من كان ذا عقل
 ولو نظرت عينك يوماً قلوبه رأيت ثغور الأرض تبسم بالفعل
 ألا أيها المولى الذي حسناته تزيد على الأمواج والقطر والرمل
 هنيئاً لجند العلم أقبل نصره وبشر جنود الجهل بالطعن والشل
 بقيت على رغم الحسود معظماً وطيب شذا عليك أحلى من الوصل
 ولاقاك كل اليمن والخير حينما قدمت وتفدى بالنفوس مع الأهل

325 - الشيخ الكاتب أبو عبد الله محمد الباجي

ابن الكاتب أبي عبد الله محمد المسعودي

ولد بتونس وبها نشأ ووالده هو الذي استوطن تونس وهو من أحفاد الصالح الشيخ بو بكر صاحب القبة بتراب تبرسق ثم طلب العلم عن علماءها وكان له مزيدٌ اختصاصٍ بجدي أبي اسحاق الرياحي لازمه في كثيرٍ من دروسه فحصل على ملكة حسنة ومشاركة في الفنون أخصها العلوم العربية فكان كاتباً شاعراً بليغاً ولي الكتابة وعرفت منزلته في الانشاء فترقى في معارجها. أحله الأمراء الحسينيون منزلة سامية. ولقوه مبرة نامية. وكان ذا مروءة حسن الأخلاق جميل السمات. ألف تاريخه «الخلاصة النقية في أمراء إفريقية» وله اشعار رائقة. من محبته في جدي أبي اسحاق⁽¹⁾ وراسخ اعتقاده فيه رغب في دفنه بزاورته يمتناً بجواره فساعفه خالي أبو عبد الله محمد⁽²⁾ شيخ الزاوية فأعطاه قبراً بيت السماط امام القبة فلما توفي سنة 1297هـ دفن به ومن شعره ما كاتب به أبا عبد الله الشيخ محمد بيرم شيخ الاسلام الرابع حسبما نقلته من خطه ونصه:

كنت عشية عند سيدي محمد بيرم شيخ الاسلام. الذي لا تأتي بمثله الأيام. ولو في الأحلام. بسانيته⁽³⁾ في العبدلية⁽⁴⁾ وتجادبنا اطراف الحديث. ما بين قديم وحديث. وتطارحنا من الأخبار. ما يفوق نسمات الاسحار. على صفحات النوار. وكان من جملة ما اورده الشيخ لعلي بن الجهم بصف فوارة في قصر جعفر المتوكل فكلنا عجب منه. واعترف بالتقصير عنه. ولما رجعت الى منزلي بالعبدلية. وكانت ليلة مقمرة مضية. جلست حول فوارة. تشبه الهالة ضياء واستدارة. والنسيم عليل. وثوب الليل بليل. فتذكرت ما كتبت فيه من وصف الفوارة. فنظمت يهديه بقدر ما تنساب دارة:

وفوارة في روضة مثل هالة على غصن مثل اللجين قد اعتلى
سمرنا عليها والنجوم كأنها أقاح رياض راق في أعين الملا
ولما تلاني الفجر خافت ذبوله فسأقت له السلسال طلا ووابلا
ثم قلت:

ودمية وقفت بين الغصون لها قد لطيف وردف كاد يردبها

(1) بستانه .

(3) يعني به إبراهيم الرياحي .

(2) هي المرسى .

(4) يعني به ابنه الشيخ محمد الطيب الرياحي .

لما رأت أعين الازهار غامرة سقتهم البارد السلسال من فيها

وكتب الى الشيخ. مولاي وسيدي حسنة الزمان وحسانه. ومالكي بدائع بيانه
واحسانه. ومن لا يجاريه ابن الحسين في شعب بوانه. ولا الارجاني في وصف كسرى
وايوانه. لم ازل اردد قول ابن الجهم في وصف الفوارة. وأجيل الفكر علي احوم حوله او
اشق غباره. فانحيت على القرحة الجامدة. وقلت اعينك ان تكون فوارتي من نظمك
عاطلة كاسدة. فاجابت على شرط ان تكتب ما تملي وتكتمه. الأ على من تعتمد وده
وانت تعلمه. فكتب حينئذ ما أملت ووجهته إلى حضرة سيدي وأستاذي ثقة بأنه ان
استحسنه رواه. او استهجنه وراه. والله المسؤل لسيدي في طول بقائه. وعزه وارتقائه. ثم
المقطوعين وعنوان الكتاب:

أهدي التحية والسلام لمن غدا صدر الشريعة حجة الاسلام
لا زال في نعم وسعد مقبل متتابع بتتابع الايام
اه وبيتا ابن الجهم هما:

وفوارة ثارها في السما فليست تقصر عن ثارها
ترد على المزن ما أنزلت إلى الارض من صوب مدارها

ومن شعره وقد ذهب إلى «قربص» للتداوي بياها المعدنية فضاق ذرعاً وتشوق
إلى إخوانه فكاتب خالي الشيخ أبا عبدالله محمد الطيب الرياحي بقصيدة نصّها:

عليل غريب ولا مونس يحن لرؤياك يا تونس
يموت إذا ما يحن الدجى ويحيى إذا نصل الحنّس
وما حال من تزحت داره وقربه للنعنا قريس
فلات اقتدار ولات اصطبار ولات افترار ومن ينس
ومن دون هنا تطيش الحلوم وتدمى الكلوم ولا تحبس
قرارة كحري ومرمي هوان ونار الهموم به تقبس
وما تقع العين الأ على مريض ثياب الضنى يلبس
وزمني وجرحي يسقون من حميم تحم به الانفس

يسمّون حيناً ولا يحملون
ترى كل ذي علة خافتاً
بيد الجليد ويشوي الجلود
وحيناً تراهم كأهل اللكام
فيجنون من كل مرّ بها
ويضحون صرعى نخارا إذا
يطيف باطلاله اقود
مطلّ فتحسبه ظلة
ومن حوله البحر لكن به
كأنّ بشاطئه حرة
فلا البرّ برّ بزواره
ولا نزهة غير عين التيوس
مكان سحيق وحزن وضيق
فقل للأحبة لامسّهم
وقاح العبير ولاح السرور
إذا ما شجاكم ذكرى حبيب
فقولوا بما تعلموا من اخ
لعل ادكاركم منعش
فيا فائق الحب يا خالتي
سألتك يا رب بالمصطفى
وبالآل والصحب والتابعين
وبالاولياء الاولى ليهم
تبارك عبيدك وانظر له
وعجّل شفاه فانت القدير
وجمّع بأحبابه شمله
وصل وسلم على من به
وآل وصحب مع التابعين

وعذرهم واضح ان نسوا
يثن إذا ضمه المغمس
كذات الوقود إذا يلمس
تجوب الجبال ولا تجلس
أمورا تجف لها الارؤس
حسوها وما دارت الأكؤس
أشمّ يناجي السما اقمس
فهل قوم موسى به عرسوا
عواصف صرصر لا تهمس
ثياب الحداد لها ملبس
ولا البحر يجبر او يؤنس
وعين السّلاحف لا قُلتسوا
وقهر يسوق العنا بسبس
هوان إذا انتظم المجلس
وحياهم الورد والترجس
وعلق مؤدته أنفس
محاسنه بينكم تدرس
قواه التي قاربت تدرس
وأنت هو المسعد المنحس
نبي الهدى الطيب المغرس
ومن في ثرى بدر قد عرسوا
بنور الهدى نير مشمس
بعين الرضا فيها يحرس
إذا حار بقراط او هرمس
فقد طال في قريس المحبس
بنود الطواغيت قد نكسوا
لعلّي في فضلهم اغمس

قلت وما كتبه مخاطباً به الشيخ محمد بيرم الرابع وما تضمنه من وصف الفوارة بعد
مطارحة وقعت بينها في ذلك اجابه عنه الشيخ بيرم مقرّضاً لمقطوعه فيه بما نصه:
أقبلت إليّ حرسك الله بنات الافكار بل فوائح الازهار بل نسبات الاسحار بل
لوائح الاقمار فأعلتني من رحيقها وأوقفتني من البلاغة على واضح طريقها وأنشطت قريحتي
الوانية وحملي استحسنها ان اقول موافقاً لاول المقطوعين في البحر والقافية:

رأيت القريض الغض قد جاء مهديا إليّ فروى الروح عذبا مسلسلا
هزرت له عطفي ارتياحا لحسنه وما كنت لولا حسنه مترلزلا
فلله من معنى لطيف مصاحب للفظ قوي المتن لن يتبدلا
ولله منشيه البديع فانه على صهوة الابداع قد مروا على
أديمت له النعما ولا زال تاجه من العز بالدر النفيس مكللا
ثم راجعت نفسي فإذا الايثار مظنة ايعار الصدور فجثتها على جمالة المقطوع الثاني
فابرزت هذا السطور:

لله من كلم لولا ترفعها لقستها بنفيس الدر تشيها
لم استطع ولو اشتدت قوى قلبي ابقاءها الحق تقريضا وتوحيها
لكنّ خالص حبي لجّ في عنلي عن أن أخلّ بمنظوم يحارها
قلت ما قلت لا اني ازاحمها مراتبا اجلسها كف منشيها
دامت عليه ظلال العز ضافية وبلغت نفسه أقصى أمانها

والمرجو من مثابة الوداد الاغضاء عن التقصير والتفضل بقبول هذا التزاليسير فان
العذر معلوم وراسخ الحب لا يحتاج إلى التقوية بمشور او منظوم والسلام اه
وعنوان الكتاب:

يلقى الكتاب رحاله وينيخ في ريع الزكيّ الأسمى البلغ الباجي
لا زال ممطور الجناب بنعمة تاني بأروى وابل ثجاج

ومن شعر صاحب الترجمة قوله يرثي شيخ الشيوخ سيدي ابراهيم الراجحي من
قصيدة:

ارى جيش الردى يرمي نصالا ويصلي غالب الاكباد جمرا

فلما استعظموه اغتال فردا
 ليس مصاب ابراهيم خطبا
 سقى الرحمن ترتبة سحابا
 ومن شعره ايضا يمدح الوزير الشيخ احمد بن ابي الضياف معارضا لموشحه السالف
 ذكره في ترجمته وسماه تقریضا له:

من لمشتاق معنى كلما
 اضرم الوجد له ما اضرما
 جنة الدنيا وفردوس النفوس
 تتجلى في حلالها كالعروس
 صانها صانعها من كل بوس
 وسقاها ورعاها وحمى
 بلدة اضحت لخلاني حمى
 حفظ الله حيا لي بها
 صيغ من لطف وظرف وبها
 حسب نفسي في الهوى من حبا
 حبذا جمعي بها اذ نظما
 ثغره كاسي وخمري من لمى
 في ليال أسرجت بنت العقار
 وندامى قد نضوا ثوب الوقار
 ورباب حقه عود وطار
 كيف حالي في ارتحالي بعدما
 هب عليكم لي سلوى ربما
 كاتب المغرب من غير خلاف
 ذوبان قد سرى مسرى السلاف
 أحمد الفاضل ابن بالضياف
 غرة في دهرنا قد نجما
 ما لسان الدين يرمي ما رمى

يقوم برزه كلهم ومرا
 يم جميع أهل الارض طرا
 من الرحى واحسانا وبرا
 شج سيف البرق غمد الخندس
 حين حياه الصبا من تونس
 وسنا كل اديب وأريب
 حين تبدو من بعيد وقريب
 وكفاها كل معيان مريب
 وكساها حللا من سندس
 ونداماي حياة الانفس
 وهو في الناظر بل في الخلد
 من برى صبري وابلى جسدي
 تلقى في الحب اسنى مقعدي
 وهو وسطى عقد ذاك المجلس
 من ثغير عنبري اللبس
 وسطت في كل انس بخميس
 وجروا طلقا لما تهوى النفوس
 حول مله ومغن وأنيس
 فارقت نفسي عدليل النفس
 كيف صبري عن كريم المغرس
 ولسان الدولة الصلت الفصيخ
 فاستلان الصعب واقتاد الجموح
 الوزير الشهم ذي الصيت الصريح
 فانشى مثل نهار مشمس
 يا زمان الوصل بالاندلس

حجة العصر وبرهان البلاد
مرتدي الفخر طريفا وتلاذ
بمقال قصرت عنها الاعاد
خصني بالذب لما عما
وتول كاسدي حتى سما
هكها عنراء يا سامي الفخار
من محب صادق نالي المزار
قرضت قولك في تلك الديار
تونس الانس لها شوقي نما
اهلها اضحوا نجوما في سما

المجاري في علاه النيرين
محرز المجد وسامي الرتبين
اين من يحكي ابا العباس اين
بأباد انظقت من خرمن
سوقه بين الجواري الكنس
حليها ود وشكر وخجل
كاسف البال خلي عن جذل
عندما سار بها سير المثل
نزهة النفس وروح النفس
سطعت منهم بعقد أنفس

ومن شعره ايضا يمدح شيخه سيدي ابراهيم الرياحي وهنئه بختم صحيح البخاري
بشرح القسطلاني في جامع يوسف صاحب الطابع هذه القصيدة:

وجه التهاى اليوم أصبح مسفرا
والسعد حيا والمسرة أقبلت
وتونس الإيناس أسفر صبحه
ويدا بإبراهيم بره هومنا
ركن الشريعة فخر ملة أحمد
علم الأولى بثوا العلوم وخير من
يجلو دجى الإشكال ثاقب فهمه
ويجبل في النكت العويصة ذهنه
وبين أسراراً تكاد لحسنا
أشهى على الأسماع من نيل المنى
كم قد لبسنا من مصوغ عقودها
وكم اقتطفنا من أزاهر روضها
ويدرسك الجعني كم اوضحت من

والكون أشرق والفضاء تعطرا
والأفق كلة السرور كما ترى
واهتر روض الصالحات ونورا
شيخ الشيوخ القطب مصباح الورى
شيخ التقاة الكمل الشم الذرا
قد أم محراباً ونور منبرا
فتراه بعد اليأس أصبح نيرا
فيشق كوكبه العجاج الأكدرا
حقاً تباع بها النفوس وتشتري
والد في الأجفان من سنة الكرى
دراً نفيساً في الرقاب وجورها
حتى لبسنا العيش ثوباً أخضرا
نكت تدق على العيان فما ترى

وسرت ذا جدّ حلّ رموزه
فلك ألهاء مقدماً ولنا بكم
وجزاك ربك خير ما جازى به
وبقيت شمس ظهيره تجلى بكم
وإليك من جهد المقلّ محوكة
وقريحة خمدت ودهر غالني
بلغ الربا تياره فأسمع بما
فإذا مددت ودودكم بدعائكم
وبلغت أمالي لصدق طويتي
لا زلت في أفق السعادة نيراً

والآن حان بختمه حمد السرى
ولن ينصك بالوداد وللورى
وأطال عمرك كيف شئت وأكثر
شبه الضلال ودمت غيباً ممطرا
من خاطرٍ منع ألنا أن يخطرا
من غوله ما صدّ عن أن تبصرا
يُنجّي الغريقَ وكن أجلاً من اشترى
اعددت منه الى المعاند عسكرا
فيكم وعشت مملئاً لن احذرا
نجلو بهمتك المهم الأكبـرا

وقد فرّض هذه القصيدة ابن الممدوح بها الشيخ سيدي الطيب الرياحي بهذين
البيتين وهما:

تبذت والجمال لها شعار
وجاءت من محاسنها بمدح
ورايات المفاخر باليمين
ثمين من ثمين في ثمين

ومن شعر صاحب الترجمة يرثي العلامة النحرير الكاتب المؤرخ الشيخ أحمد بن
أبي الضياف قوله:

هو النبأ العظيم فن يحامي
تصيب سهامه الصدر المعلى
كهذا العالم العلم الملقى
ابي العباس أحمد من تسامى
سليل أبي الضياف وصار ضيفا
وخلد من محاسنه رياضيا
وباري باليراع حديد غضب
إذا أجمسه في رقّ أقرت
ومها قال في دست خطابا
وإن نثر الجواهر في ندي

وقد أودى بنو سام وحام
فتقذفه إلى بحر الرّمام
إمام أولي البلاغة والكلام
ونادى فضله هل من مسام
إلى دار الكرامة والكرام
ثوت في طرسها ذات أبتسام
وصمصام وهندي حسام
له بالرقّ السنة الأنام
فإن القول ما قالت حدام
ترى العقد الفريد من النظام

حوى ما شاء من عز ولما
رمى بزخارف الدنيا وألقى
وصار سفير قرآن وذكر
وتاق الى اللقاء فاتاه آت
فأكرم نزله يا ربّ وأحسن
وحقق للمؤرخ قال صدق:
دري أنّ المصير إلى الحمام
بزهرتها إلى وجه الرغام
وزهد ما تدنس بالآثام
وسار به إلى دار المقام
كما أهتمه حسن الختام
أبو العباس في دار السلام
سنة 1291هـ

ومن شعره قصيدة ينوه فيها بالمدرسة الصادقية لما أسسها الوزير خير الدين على
عهد الأمير محمد الصادق باشا ونصّ طالعتها:

الصادقية حسنها بهر آلورى
فأجل لحاظك معجباً ومفكراً
ومنها في ذكر فضائل العلم:

يدعو إلى ما لا حياة بدونه
هل يستوي اللذ يعلمون وغيرهم
هبوا بني الخضراء وأنتبوا له
وخطوا المعارف والفنون بقوة
وتسابقوا لفضيلة جاءتكم
أغنت على خوض البحار وغربة
فالعلم داعية البقاء لمن درى
شأن ما بين الثرى والثرى
فالعلم في الدارين أريح متجرا
تنسيكم بقراط والإسكندرا
حاشاكم أن تنبذوها بالرا
ومشقة تذرُ الفنى متحيرا

ومن شعر صاحب الترجمة الشيخ الباجي المسعودي مؤرخاً إتمام المشير أحمد باي
لبناء زاوية سيدي إبراهيم الرياحي رضي الله عنه قصيدة يقول في طالعتها:

قف بالمقام مقام إبراهيم
وأنشق من الأرج العطر شمياً
وبيت التاريخ:

يا من يؤمل بابه كنز آمنة
قف بالمقام مقام إبراهيم

كما أرخ تجديد المشير الثالث محمد الصادق باي زاوية سيدي محرز بقصيدة طالعتها:

هذا مقام عظيم القدر فاسع وطف
ولذ بأبوابه وأسأل هناك وقف

وبيت التاريخ قوله :

وذي كرامته لاحت بشاثرها وجاء تاريخها الزم محرز بن خلف

326 - الشيخ محمد الشاذلي ابن الشيخ أحمد الغرياني

بيت الغرياني بتونس من البيوتات العريقة في العلم والفضل والمجد وصاحب الترجمة من ذرية الشيخ سيدي محمد الغرياني الذي قدمنا ذكر بعض تلاميذه الأدباء الفضلاء وهو ممن أنبتهم رياض جامع الزيتونة الأعظم بتونس تربى في حجر أبيه أحمد فكان من الأعيان الوجهاء ومن العدول المبرزين ولأهل الحاضرة رغبة في إسهاده على عقود أنكحتهم وتولى الخطبة بها . كان تولى وكالة أوقاف الحرمين الشريفين وكان يحسن نظم الشعر فمنه قوله يهنئ الشيخ محمد البشير بن الخوجة برجوعه لخطبة الكتابة بالوزارة الكبرى ومن خطه نقلت :

هذا المنى فابشر بخير مآل	واهنأ بعود للمقام العالي
اذ انت أرفع منصباً وأمد في	سير العلى قدماً بأكمل حال
فالحمد لله على إكمال ما	من فقدته قد كنت في أوجال
فالله يمنحك الإعانة والهدى	ويعيدكم من شائئ اوقال
مستمسكاً بالمصطفى المصحوب	بالتأييد في الأقوال والأفعال
صلى عليه مسلماً ربّ الورى	وعلى الصحابة كلهم والآل

ومنه مجيئاً عن أبيات هنأ بها شيخ الإسلام سيدي أحمد ابن الخوجة بازدياد مولود ونص ذلك منقولاً من خط صاحب الترجمة :

هنت بالولد السعيد الطالع	شمس المفاخر والهام البارع
ستراه في أفق المعالي لانحأ	ولنبر الابداع أكرم فارع

والسلام عليكم من ودودكم أحمد الذي لم يساعده القدر لملاقاتك حرس الله مجدك اهد وقد أجابه صاحب الترجمة بقوله منقولاً من خطه أيضاً :

جوزيت يا فخر الكمال البارع بسعادة من ربّ هذا الطالع

فلقد أتيت من البليغ بمعجز
 حملتني نظم القريض ولست في
 أبقاك من رقاك أشرف رتبة
 لأولي النهي من ناظم أو ساجع
 ميدانه بمزاحم وفقار
 مستوراً منها بضوء ساطع

كتبه أخصر أحبابك المثسف على ما فاته من لقاءكم ودودكم المخلص محمد الشاذلي
 الغرياني ا هـ . ومن خط صاحب الترجمة ايضاً معقباً على ما تقدم ما نصّه لما اطلع عليهما
 الشيخ محمد المختار شويخه كتب في محول البطاقة ما نصّه :

لله نظم قد حوى لمطالع
 يزري بسمط الدرّ سمط نظامه
 إنني وإن أرشحت مرعف مقولي
 والفضل إن يجذب عنانه مدع
 وكفى بإغضاء الكرم ينيل ان
 أمّا جميع المكرّمات فإنما
 ستراه فيها فارعاً هضباتها
 وإليك أهدي من غير تحية
 غرر البدائه في اجتلاء بدائع
 اذ هو بالاحسان شنف مسامع
 فقصارى شأني فيه جهد الضالع
 فمرده للنويه دون منازع
 لم تسعف المسعى مثوية راقع
 ذا النجل قطب محيطها في الطالع
 يفضيلة وسواه ليس بفارع
 ما قد تراه لديك أنجح شافع

قاله وكتبه محمد المختار شويخه لطف الله تعالى به آمين ا هـ .

ومن شعر صاحب الترجمة ايضاً ما يأتي منقولاً من خط والده الشيخ أحمد الغرياني
 ونصّه وقد ضمّن ولدي وثمرة خلدي والكتر الذي ظفرت به يدي فسح الله في أجله وأراه
 في قرّيته غاية أمله وأبعد تمنّنه المحن والأسقام بحرمة نبيّنا عليه الصلاة والسلام هذا البيت
 وهو : (ولم يذكر صاحبه)

فالأخذ حلّو كمثل عرس والرد مرّ كما الولاده

فقال :

أوصيك يا صاحبي بنصح
 فالك احفظه باجتهاد
 ولا تعامل به قريبا
 ولا تثق منه عند قبض
 إن شئت تستمر الافادة
 فإنّ في حفظه السعادة
 ولا بعيداً ترى رشاده
 فإنّه يُحسن الإعادة

واسمع لتمثيل ذي اعتناء قد جرب الأمر واستفاده
فالأخذ حلو كمثل عرس والرد مرّ كما الولادة
فالوقت لم يبقَ فيه خير فلا ترمُ بعد ذا عناده
والجأ إلى الله بابتهاج أن يصلحَ الغيب والشهادة

327 - الشيخ أبو العباس أحمد ابن شيخ الشيوخ أبي عبد الله محمد بن الخوجة

ولد هذا الفاضل في شعبان سنة 1245هـ ونشأ بين يدي والده العلامة فأقبل بكلية على تحصيل المعارف . وقطع أسباب ما هو عن تحصيلها صارف . بقرحة نائرة . ودؤوب على اقتطاف أزهارها ومثابرة . فبانت نجابته على الحدائث . وحاز من علوم الشريعة مقاصدها ووسائلها ميراثه . وسرعان ما كمل بذره . وانتشر بالعالمية ذكره . فتصدّر لبث ما حوى . فألقى التحقيق عصاه لديه واستقرّ به النوى . فولي مدرّساً بالجامع الأعظم ثم قضاء الحنفية سنة 1277هـ فباشرها بقويّ ساعد . وباع مديد له وفور التحصيل مساعد . ثم نقل للفتوى فجلى في ميدانها . وأحرز الخصل بين اعيانها . ثم مشيخة الاسلام في 27 صفر سنة 1294 فكان زينة الرئاسة . جامعاً بين فضيلتي العلم والسياسة . وتولى خطابة جامع يوسف صاحب الطابع بالخلفاوين ثم خطابة جامع محمد باي المرادي أقرأ تفسير البيضاوي بجامع الزيتونة فأتى بما يبهر وكان درسه جامعاً للعلماء من المدرّسين وغيرهم وكتب تقارير على حاشية الشيخ عبد الحكيم عليه إلى حيث انتهى في تقريره وله الفتاوى المرائقة . والمحرمات الفائقة وكمل على حاشية والده العلامة على الدرر وأختام على أحاديث من صحيح البخاري بديعة المنازع وتأليف سماه كشف اللثام عن محاسن الاسلام . حرّر فيه مسائل من مهات الفقه والسياسة وكان عالماً متضلّعاً ممتع المحاضرة حسن الأخلاق كريم النفس بشوشاً لا يخلو مجلسه عن القوائد العلمية . مع فصاحة سحرانية . وهمّة في الأمور عليّة . نائراً شاعراً عارفاً بمقتضيات زمانه . يجد كلّ مجالسٍ منه ما يوافق مشربه . أخبرني نعمه الله بداره بسيدي أبي سعيد وكان استدعاني لضيافته بها فليّت دعوته أن كاتب الدولة العام لمّا اجتمع به أول مرّة أفاض معه محاسن الاسلام وأنه أمر بإتقان كل شيء ووضع على أكمل وجه من الإحسان واستدلّ على ذلك بحديث ان الله كتب الإحسان على كل شيء الخ وتلطف في افهامه ذلك فقال له ما مضمونه هذا

الأثاث الذي حواه بيتي اقتضت الشريعة الاسلامية أن تكون الثريا التي به في أحسن محلّ
توضع به أمثالها وأكمله والكرسي الذي به في أولى محل ينصب مثله فيه وألقيه فإن لم يكن
كذلك لم يعطِ الاحسان الذي كتبه الله عليه فهو مخالف لما امرت به الشريعة السمحة
وليقس على ذلك كلُّ شيءٍ من امور الدنيا والآخرة لا يشدّ من ذلك شيء فقال له اني
أحمد الله على أن أحياني حتى لقيت عالماً مثلك من علماء الاسلام . أصابه مرضٌ مزمنٌ
فأضعفه وأعيب الأطباء علاجه ومع ذلك مها وجد نشاطاً أفاد بفتواه طالبها من جماهير
الوفود الذين لا ينقطعون عن بابه . وله غيرةٌ على المتسبين إلى العلم ولا تسنح فرصة للثناء
عليهم وإظهار فضلهم إلا اتزهوا ولا زال يرقل في علاه إلى أن دعاه مولاه فتوفي في ذي
الحجة سنة 1313هـ بمنزله بالسيدة المنوية خارج باب القرجاني ونُقل إلى داره بنونس
ودفن من الغد صباحاً وحضر جنازته امير العصر ومن شعره يمدح الأمير علي باشا لما ولي
الإمارة في سنة 1299هـ :

تهلّ وجه الملك بالطلعة الغرا	ودار السرور الصرّف في أكومس البشرى
عليّ علا دست الإمارة فأنجلي	عن القلب ما قد غير الحبر والسيرا
بدولتك العظمى سلونا فقيدنا	فكانت بحمد الله من صدعنا جبرا
بها هدلت بيض الأمانى قطوفها	وهزّت بها الأيام أعطافها فخرا
وألبستنا النعمى ببيعتك التي	عن اليمن والإسعاد طالعتها اقرا
وأصبح ثغر الثغر يبسم ناشرا	بلدائع أفرح معطرة نشرا
وسرّ بها . الاسلام أيّ مسرة	فقد أصبحت في أفقه الشمس والبدرا
وقرّت بها عين البلاد فلم تزل	تثر درّ الحمد لله والشكرا
هنيئاً لك الملك الذي أنت سعده	وسيف يمناه وغرته الغرا
هنيئاً لك الملك الذي قد ورثته	من السلف السامي الذي انتعل الشعرى
هم السادة الصيد الكرام الأولى هم	غيوث وذادوا عن حياضهم الككرا
وإنهم آل الحسين زواهر	بها ملّة الاسلام قد شدت الأزرا
ولي فيهم ودّ رسيس وأدعة	بها سلمي قد شيد العز والفخرا
تأثل فيك الملك والمجد والعلی	فكنت كمثل العقد قد جمّل النحرا
مليك له المعروف ضربة لازب	يبدل عسر النائبات بها يسرا
إذا نظرت عين الرجاء لفضله	تثوب وقد القت إلى قلبها السرا

مناقب زهر تزدري الأنجم الزهرا
 وما شئت من صدر حوى البر والبحرا
 ولم يك هذا الشهم حلواً ولا مرا
 ويزار حين البأس كالأسد الأضرى
 كماء قراح أحرز الصفو والطهرا
 لنوم رعاياه وقد أمنوا الذعرا
 على المقلة الدعجاء والوجنة الحمرا
 فيا ملك ما أبقي ويا قطر ما أثرى
 فيلبسه عزاً ويكسبه ذكراً
 بها ينصب المرعى ويخضر مزهراً
 يزيد بها الصهيم في ملكه خبراً
 فما يكتسي آت حجاباً ولا سترأ
 بهالة ملك قد رجوناكم ذخراً
 على الملك الأسنى الذي خول القطرا
 فأبامه تبدو محجلة غرا
 تحرق عام تقني حلة أخرى
 بنيل الأمانى يرتدي العز والنصرا

ملك له في كل روضة مفخر
 فاشئت من علم وما شئت من تقى
 يهاب ويرجى للشجاعة والندى
 ويحلم حين الحلم عن عظم قدرة
 له خلق كالشهد كالراح كالمنى
 يؤرق جفناً في مصالح ملكه
 لقد آثر الإصلاح والنسك والعلى
 وبالعدل والإحسان راض صعبه
 وإن سياج الملك عدل إمامه
 وما العدل والإحسان إلا غمام
 وليس جمال الملك إلا دراية
 ومن سبر الأشيا وأدرك غورها
 ولما رفلتم في المعارف والعلا
 فتثني على الله العظيم جلاله
 هنيئاً بعام كنت طالع يمينه
 ولا زالت الأعوام لبسك كلما
 إلهي أطل عمر المليك ممتعا

ومنه في القطب شيخه سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنه :

فصار جناني في غشاء وجنة
 فهيات أن يصلى سعيراً بجنة
 فما لك عني في صلود وغفلة
 وصبح سروري سافر في سريرتي
 على عبدك المهجور دجية حيرتي
 أغثني بوصل ماحق للقطيعة
 ضعيف يقاد نجله للكربة
 ألت شريفاً وابن خير البرية

أشيخي محيي الدين أعظمت هجرتي
 أشيخي محيي الدين من كنت شيخه
 واني لتعروني لذكراك هزة
 وكنت أراكم في المنام فأنثي
 ولما بختتم بالوصال تراكمت
 أبا صالح لله ثم رسوله
 أشيخي محيي الدين ما أنت ملجأ
 ألت ولياً عطر الكون ذكره

من الحسين النيرين تفرعت
 فوسى أبوه من بني الحسن الذي
 دعا الله أن يحيي حياً يحبه
 وأم أبي موسى الجمل محمد
 ألت إمام الدين والعلم والهدى
 ألت بقطب الدين والسيد الذي
 ألت بغوث يهتف الناس باسمه
 أنخت رحلي في رحابك راجيا
 وقد نقل الأثبات أنك ضامن
 تقلد أعناق الأنام قلائدا
 لملك بين الناس شرقاً ومغربا
 وذو الرحم الروحي من كان مخلصا
 تحدث كل الناس أنك صيقل
 فهب لي جلاء للبصيرة كافلا
 أشيخي عبد القادر العارف الذي
 أليس بعار أن أضام وانكم
 وأشهد أن الله جل جلاله
 وكلهم عبداً وربنا وحده
 وقد أرسل الرسل الكرام دواعيا
 وأيدهم بالمعجزات سواطعا
 وكان ختام الرسل منهم سيد
 ويسر أتباعاً علواً صهوة الهدى
 فمنهم عبد القادر الكوكب الذي
 فلنت به لا مستقلاً لغيره
 إلهي كن لي بالنبى محمد
 وصل على مسك الختام محمد

أرومته يا طيبها من أرومة
 يعانقه بالبشر خير الخليقة
 وأعلن فيه بالرضا والمحبة
 أبوها الحسين يا لها من فضيلة
 ملاذاً لخلق الله في أي لمة
 له الرتبة القعساء بين الأئمة
 ألت المجلي في مجال الولاية
 لفوزي عند الله يا ابن الأعزة
 مريدك بالفوز العظيم بتوبة
 من المن الغرا الضخام العجبية
 دعيت بخلاص الروح الملمة
 بحبك أولى باغتنام الإغائة
 وأن الصدى قد سام كل بصيري
 بإشراق أنوار العلوم المحقة
 تلاً في الأكوان شمس ظهيرة
 غياث الورى في كل محل وأزمة
 تفضل بالإيداع في كل خلقه
 إله تعالى عن شريك ونسبة
 يرون عباد الله نهج العبادة
 ولاحظ مسعاهم بعين العناية
 محمد المنوح أقطع حجة
 لتذكير خلق الله نهج السعادة
 تلاً برهاناً لنصر الشريعة
 وسفن الأمور في بحار المشيئة
 وبالشيخ محيي الدين شيخي وعلني
 ومن قاده للحق نور النبوة

وكنتم قلمت إليه قطعة من مسودة تاريخي حسن البيان في بعض إجتماعاتي به

فتأملها وفحصها وأثنى عليها بلسانه ثم كتب على ظهرها بخطه ارتجالاً :

أبا عبد الإله نظمت درا له حسن على الدرّي يعلو
كتاب يسحر الأبواب حسنا يشيب له عدوك وهو طفل

* ومن شعره ونثره ما قرّض به النظم المسموع، بمرصع الزاج في الحكم لوالدي الشيخ سيدي محمد النيفر ونصه بعد فاتحته قد اطلعنا أعزك الله على هذه المنظومة نظم الدرر المشتملة على الحكم الفرر فإذا هي شاهدة لناظمها بالنجاة والإستواء على صهوة الإصابة حكم محكمة ونصائح محبرة مُعلّمة تدل على ما لصاحبها من البراعة وحسن الاقتدار والاستطاعة :

منظومة غراء قد فازت بحسن صيب
لاحت من الأفق البهي الطيب ابن الطيب

كيف لا وهو الماجد اللوذعي الحسيب المتفنن الشيخ المتطوع السيد محمد ابن العالم الفاضل الجليل المدرس الشيخ سيدي محمد الطيب ابن شيخنا علامة الدنيا ومن جاء كما شاء التعزز والعليا الشيخ سيدي محمد النيفر قدس الله روحه وأفخم برحمته ورحم السلف وبارك في الخلف بعزة محمد صلى الله عليه وسلم حرره الفقير إلى ربه شيخ الإسلام بالمملكة التونسية أحمد بن محمد بن الخوجه كان الله للجميع غرة جمادى الثانية من عام 1308 هـ .

ومن شعره قصيدة نوه فيها بمشروع المدرسة الصادقية طالعها :

مآثرك الغراء كالأنجم الزهر تجلّت بها الخضراء عقداً على نحر
ومنها :

ولله مبني الصادقية قد بدت مطالع شهب العلم وقادة الفكر
ففي كل فن حلقة حول جهيد كما دارت الزهر النجوم على البدر
تلامذ سر الله جلّ جلاله لهم في نجاح السعي في الزمن التزر
تساير في الأسفار ذكر نجاحهم وصدقت الأخبار مشهدة الخبر

هذا وأبو صاحب الترجمة شيخ الشيوخ أبو عبد الله محمد بن الخوجة المفتي الحنفي

ثم شيخ الاسلام في عصره قد استوفى ترجمته الشيخ أحمد بن أبي الضياف في تاريخه فليرجع إليه من أرادته ولم يذكر فيها أنه كان يقرض الشعر ولا وقفت له على شيء منسوب إليه منه اما جده أبو العباس أحمد بن الخوجه القاضي الحنفي ثم المفتي مؤسس البيت الحوجي الرفيع العباد علماً وفضلاً فترجمته في تاريخ تلميذه المذكور الذي وصفه فيها بأنه نادرة اللھر في العلوم العقلية والنقلية وأنّ ما وليه من الخطط العلمية الامامة والخطابة والتدريس بجامع محمد باي المرادي وأنه اول من سنّ الأختام في شهر رمضان على الكيفية التي سار على منهجها بعده فحول العلماء وتقع المباحثات العلمية فيها بين أربابها وأن وفاته كانت في 26 شعبان سنة 1241هـ غير أن صاحب التاريخ المذكور لم يذكر في ترجمته له أنه كان يقرض الشعر ولكنني رأيت في غير التاريخ المشار إليه يتين منسويين إليه ولم أقف على نسبة غيرهما إليه فلعله كان ممن يحسن ذلك والبيتان هما قوله :

ألا إن نور الله بعد محمد بنو بنته الأطهار من وصة الحقد
وكلهم سيف فرندة لامع ولكنما الأسياف أشرفها الهندي

ويظهر من فحواهما انهما اعتذار منه لبعض السادة الأشراف من بيت الشريف الهندي الطائر الصيت بالحاضرة التونسية ومنهم الشيخ سيدي حسن ابن عبد الكبير الشريف المتوفى سنة 1243هـ الذي تقدمت ترجمته في هذا الكتاب رحم الله جميعهم *

328 - الشيخ ابو العباس أحمد بن محمود كريمة⁽¹⁾ التركي الاصل

ولد في صفر سنة 1243هـ ونشأ في طلب العلم فأخذه عن جهايزة نحارير منقطاً بجدة إليه حتى حصل على حظٍ جزيلٍ وتصدر للإفادة فثر النفيس . وغمر بتحقيقه الجليس . وتقدم بنفسه . على بني جنسه . وحذا على غير مثال . فيما اتسم به من الفضائل والخلال . عصامي في سيادته . مغبوط في سعاداته . اشتهر نبهه حتى همّ الأمير أحمد باشا بأن يجعله قاضياً حنفياً بالمحمدية وإماماً وخطيباً بجامعها عند إتمام منبره فحلّ به المرض المتصل بموته فحال دون ذلك حسبما نقلت ذلك من خطه . وليّ التدريس بجامع الزيتونة ولما انتصبت المجالس ولي كاهية مجلس الجنائيات برئاسة الهام التحرير علامة زمانه أبي الفلاح الشيخ صالح النيفر ثم لما تخطى عن الرئاسة لسفره للحج سنة 1280هـ قلّد صاحب الترجمة عوضه رئاسة المجلس المذكور مع خطة الفتوى وخطابة الجامع الجديد ولما توفي أبو العباس الشيخ

(1) بتشديد الياء المكسورة .

أحمد ابن الخوجه عن مشيخة الاسلام وليها صاحب الترجمة في ذي الحجة سنة 1313هـ فلم تطل مدته فيها ومن عجائب المرائي الصادقة والتعبير الصحيح أن صاحب الترجمة كان رأى في شبيته سيدتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنها فأعطته دراهم معدودة ونسيت بقية تفصيلها كما حكاهما هو لي فقصّها على جدّي أبي عبد الله محمد النيفر علامة العصر وصالحه وكان عالماً بالتعبير فعبرها له بما حاصله أنه يتولّى الخطة الشرعية ويمكث فيها بعدد الدراهم سنين وأنه يتولّى شيخ إسلام عند قرب أجله فكان يخشى من ولايتها ويدعو بطول بقاء الشيخ أبي العباس أحمد ابن الخوجه شيخ الاسلام حيث كان صاحب الترجمة كاهيته فلما وليها لم يسرّ بها حتى انه لم يمكث بداره في تونس لقبول الهناء كما هو الشأن فكانت وفاته بقرب ولايته . وكان فقيهاً متضلّعا في العلوم فصيحاً آتياً في الرياضة عند الإقراء حسن الأخلاق والخلق سليم الصدر لئن الجانب حسن المحاضرة بشوشاً يميل للفكاهة مشتغلاً بخاصة نفسه متبسّطاً في دنياه . وله من التأليف شرح على المنظومة المحيية في الأحكام على المذهب الحنفي وشرح على بانة سعاد وحواشٍ على خطبة السعد على التلخيص وحاشية على مقدمة ابن هشام النحوية وجمع كرارس من تقارير شيخه العلامتين أبوي عبد الله محمد ابن عاشور وأخيه الشيخ محمد الطاهر علي الأشموني على الألفية وله ديوان شعرٍ سمّاه بالسحر الحلال وغير ذلك من الرسائل والمحركات العلمية والفتاوى الفقهية وله مختصر في التاريخ ذكر فيه دولتي الحفصيين والترك من الدايات والمراديين والحسينيين إلى الأمير علي باشا وذكر فيه المفتين الحنفية إلى زمنه وتخلص من ذلك إلى ذكر فتاوى صدرت عنه للأمير محمد الصادق باشا وغيره جمع شتاتها . أصابه داء الفالج فلازمه مدة ثم انتفض عليه فمات فجأة بمحلّه في السيدة المنوية بمنوبة في المحرم سنة 1315هـ ونقل إلى داره بتونس ودُفن بالجلّاز وحضر جنازته أمير العصر . ومن شعره يتي عمي التحرير الهام العلامة أبا عبد الله محمد الطاهر النيفر قاضي الجماعة بإبلاله من مرض ببطاقة نصها . الحمد لله على العافية ونسأل من الله تعالى دوامها . والصلاة والسلام على من أحكم أساس الشريعة المطهرة وبيّن أحكامها . وعلى آله وأصحابه ما دامت الدنيا تكرر أيامها . هذا ولما عاقني إعمال القدم . بادرت إلى التهنئة بأعمال لسان القلم .

لبشري بشفائكم نيل المنى وأهمّ شيء عندنا لكم الهنا
بدوام عافية ونيل سلامة ومديد عمرٍ لا يُكدرُ بالعنا

وهو الشهير فلا أصرح باسمه
وهو المعظم قدره بين الورى
وإليك أبدي من صفاء مودتي
وردت إليك من الودود تحية
وتقول ان مرسلني ذاك الذي
فأسلم ودم واهناً بطول حياتكم
قاضي القضاة المالكي في عصرنا
شمس الظهيرة لا تعظم بالكني
لجنابك السامي اعتذاراً بينا
تروي الحديث عن الشفاء معننا
أهدى التهاني واضحاً مستحسنا
والكل داعٍ بالبقاء مؤمناً

والسلام الأتم من حليف وذككم . المعترف بالتقصير في حقكم . فقير ربّه أحمد كريمة
المفتي في 13 رمضان سنة 1311هـ انتهى ومنه مخمّساً رتجالاً لأبيات ثلاثة أنشدتها بعض
الأدباء عند زيارته ضريح السيدة المنوية سنة 1305هـ بمحضر صاحب الترجمة :

هذا مقام فضله لا يجحد قد كان فيه نشأني والمولد
فأخضع وقل إن زرتك يا أحمد (يا ستي عند النوائب تقصد)
(انت التي في المكرمات لك اليد)

أنت الطيبة للورى من كل دا أنت التي جرّدت سيفك للعدى
يا منيتي أنت المحببة للندا (طافت بك الزوار تلتمس الندى)
(فتفضلي كرمأ فانت المقصد)

هذا عييد قد أتى لك طائعا في مطلب قد كان عنه شاسعا
متوسلاً متبتلاً متواضعا (نوي على جمع اتى لك خاضعا)
(لا زلت عائشة وضدك يفقد)

ومنه يمدح شيخه الأستاذ الملاذ الغوث الشيخ ابا العباس سيدي أحمد التجاني نفعنا
الله به وأنشدتها بضريح سيدي إبراهيم الرباحي .

تألق غربياً فهيج أشجاني وذكرني عهداً به الله نجاني
نجوت بنور الله من ظلمة الهوى وكان بنور الله يعني وإيماني
ونور رسول الله أحمد شاهد على سره الساري لأحمد تجاني
سمي رسول الله وابن سمي شبيه رسول الله من خير عدنان
غياث الورى غيث الانام وغوثهم وملجأ مضطر ومنجا لذا الجاني
له الرتبة السماء في كشف معضل له الإذن والتصريف في الأوس والجان

ختم نظام الأولياء بأسرهم
فحدثت بما قد شئت عنه ولا تمن
إليك أبا العباس ألقى مقودي
فأغدو إلى تلك الموارد واردا
وأشدد في تلك الأباطح والربا
بأمداح من أسدى إلينا طريقة
تحاك على منوال شرع محمد
وتأمر بالاحسان في كل حالة
طريقة عبّاد رفيع مقامهم
عليه سلام الله ما قال منشد

وفي طي هذا الختم نشر بتيان
إذا قلت هذا الفرد ليس له ثان
عسى نفعة منكم تؤكد إذعاني
وأبني على تلك المعارف بنياني
قلائد در لا قلائد عقيان
لسالكها جنات روح وربحان
بنص حديث أو بمحكم قرآن
وتبني عن الفحشاء واللهو بالفاني
كصاحب هذا القبر في رفعة الشأن⁽¹⁾
حنانيك حب الشيخ يا صاح أضناني

ومن ثره ما وقفت عليه بخطه وفيه شاهد لما كان عليه صاحب الترجمة من الاعتراف بالجميل وشكر نعمة الأستاذ الناصح ونصه : الحمد لله - شيخنا العلامة وأستاذنا الفهامة شيخ مشائخ الاسلام . ومن لا تتي بإحصاء محامده الجسام . أقلام الألسنة وألسنة الأقلام . كعبة العلوم المحجوجة . سيدي محمد بن الخوجه ، تغمده الله برحمته ، وأسكنه فسيح جنته هو ولي نعمتي وعليه المعول في انتقالي من ديوان العسكر إلى دفتر الفقهاء في أوائل مدة المشير الأول وأنا إذ ذاك صغير السن لم ابلغ الحلم بيد اني أحسن الكتابة بالقلم حيث رتبني بجامع محمد باي متطوعاً للإقامة والآذان وكان ذلك باعثاً لي قوياً على تعاطي علم تجويد القرآن وبقية العلوم في عنفوان الشباب . أتطلب تحصيلها من كل باب . حتى كنت أول من نبغ من الغرسة الأحمدية . ونبغ في مضمار العلوم الآلية وأخذت الراية باليمين . وقلدت خطة التدريس في الطبقة الأولى من المدرسين . وأنا إذ ذاك في فن الفقه ذو بضاعة مزجاة . ظلي فيها أقل من ظل حصاة . فن نصح شيخنا المذكور . ضاعف الله له الأجور . أن قدم للجامع المشهور . في غير وقته المعتاد وأرسل لي من دعائي إليه فلما جثوت بين يديه . وتشرفت بالحضور لديه . قال لي يا بني الدين النصيحة وأنا لك اليوم ناصح أمين إنك قد سلكت الطريقة المرضية ومالك الخطة التي لا تنفك فيها العلوم الآلية فلتحضر درسي غداً للدرر على القرر ولست بمحتاج إلى حضورك ولست بمتيقن بقائي بينكم إلى أن أختم ذلك الكتاب ولكن

(1) المراد به الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي .

أعلمك أسلوب الأخذ من عبارات الفقهاء فإنك إن فاتتكَ هاته الشيبة لا نجد من يعلمك ذلك وأنا لك في منزلة الأب الرؤوف :

ومن يكُّ في أمر أبوه دليلاً تدانى له الأمر الذي هو طالبه

فشمرت على ساق الجذ في الحضور وتيقنت أنه في الفقه الحنفي والمالكي العلم المشهور . وكان كثيراً ما يتمثل ويقول : ضيق الشيب علي مطلي وطلبت منه الإجازة لي في صحيح البخاري بعد أن أخذت عنه نبذة قراءة تحرير كما هو ديدنه فيه فتأوه وقال :

ولكنّ البلاد إذا اقشعرت وصوح نبتها رعي الهشيم

وأجاز لي بالقول لا بالكتابة اه وقوله إنه في الفقه الحنفي والمالكي إلى آخره أما الفقه الحنفي فهو مذهب الشيخ وفيه أفنى عمره واما الفقه المالكي فقد كان الشيخ ملازماً لعلمائه خصوصاً حامل رايته باليمين الشيخ سيدي إسماعيل العيمى فكان كثير التردد عليه والاستقاء من بحر علمه في مراجعة المسائل وتحقيق المشكلات فصار له بذلك مشاركة نفيسة وقد كان الشيخ إسماعيل المذكور يشهد له بالعلم فكان إذا قام من عنده يتبعه نظره ويقول ما أعلم هذا الرجل تعجباً منه رحمهم الله تعالى .

ومن شعره وثره مقرضاً رسالة للشيخ الشاذلي بن صالح كبير أهل الشورى المالكية في نازلة وقع الخلاف فيها بينه وبين قاضي الجماعة إذ ذاك في شأن حكم كان صدر من الشيخ أحمد بن حسين كبير أهل الشورى المالكية في وقته رحم الله جميعهم ونص التقرير المشار إليه .

بسم الله الرحمن الرحيم يا من بيده الأبرام والنقض نسألك أن تصلي وتسلم على الشفيح المشفع يوم العرض وعلى آله وأصحابه ما دامت السماوات والأرض أما بعد فقد تأملت في هاته الرسالة الموسومة بغاية التبيين وأجلت النظر فيها على وجه الإنصاف والحق المين فإذا هي فريدة الخواص ودرة الغواص يشهد ميزان الاعتبار برجحانها وصدق الاختيار بفضلها عند امتحانها دالة على جودة جواد فكر منشياً شاهده ببراعة مبدعها ومبديها وأنه فريد العصر وعلامة هذا العصر فله درّه قد أحكم أساسها وأجلى قياسها وبين نصوصها ورتب فصوصها وشيّد مبانيها وأوضح معانيها حتى قلت :

برزت تزيك الشمس في إشراقها شمس المعارف تحت ظل رواقها

حسناء تبدي من جواهر لفظها ما قد أراه اليوم في اوراقها

غراء ماضٍ في البرية حكمها
 إن أيقنت أن سوق ينقض حكم من
 نطقت بقول في القضية فيصل
 حكمت بأن الحكم حكمٌ نافذ
 وتلت على ذلك النصوص وبيّنت
 إنشاء بحر في العلوم وحجة
 مفتي الأنام الشاذلي بن صالح
 دتم كما رتم وأتم بالمني
 والعدل في الأحكام من أخلاقها
 دانت له الأعلام من آفاقها
 لا تنقض الأحكام من وثاقها
 تجري قضاياه على إطلاقها
 في غاية التبيين حلو مذاقها
 قد عد في -المضمار من سباقها
 كل الفتاوي هو عقد نطاقها
 تأتيكم العليا على أحداقها

قاله بلسانه وفه وكتبه بلسان قلمه فقير ربه أحمد كريم المفتي الحنفي عامله الله بلطفه
 الخفي في شوال سنة 1290 هـ . قلت لعل هذا التفريض لصاحب الترجمة لما كتبه الشيخ
 الشاذلي ابن صالح كبير أهل الشورى المالكية هو لرسائله في التوليع والمخاباة وكان أهدى
 نسخة منها لصاحب الترجمة وكتب عليها قوله :

الحمد لله

خذها أبا العباس تحفة مُتَحَفٍ
 ولقد حباك بها أب ولطالما
 فلئن رضيت بها فقد أسعفتني
 جمعت وأبدت كل معنى مختلف
 عن غيركم صدت ولم تتعرف
 يا خيبة المسعى إذا لم تسعف

ومن شعره صاحب الترجمة أيضاً ما قرّض به الرجز الحكمي المسمى بمرصع
 الزاج فيما إليه من عيون الحكم والوصايا يُحتاج لوالدي سيدي محمد النيفر ونصه :

بحمدك ربّي أستريد من النعم
 عليه صلاة الله ثم سلامه
 وبعد فهذا النظم عقد منظّم
 نسيج سليل العلم والحلم والتقى
 ولست أسميه وإني أجّله
 ومن نور خير الخلق أستدفع الظلم
 على الآل والأصحاب في الحل والحرم
 من اللؤلؤ المكنون من محكم الحكم
 ونجل أخي حقاً كما ذاك قد علم
 وأنه في ذا القطر نار على علم

ويا ولدي كثر الله من أمثالك واعانني على مزيد إكرامك وإجلالك كأنك
 استسمنت ذا ورم أو نفخت في غير ضرم حيث وجهت إلي هذا النظم الفريد العزيز

لأكون له ثاني بجز كلاً اني لست من أهل ذلك المضمار إنما ذلك من خواص المشايخ
النظار كما ذلك صريح ترتيب الجامع الأعظم عمره الله بدوام ذكره ومن ثم أفردت كتي
بهذه الصحيفة دون طيه ونشره والسلام من فقير ربه أحمد كريم في 22 جادى الأولى
سنة 1309هـ ومن شعره الغزلي الرقيق قوله رحمه الله :

من لي بها شُغف الفؤاد بحبا	هيفاء تشكوها الظباء لربها
قد ولكن كالقضيب وخذها	نار ولكن لا أكون مشبها
نشر تصوع عنه نشر شعورها	يزري بنشر المسك عند مهبها
رمت السلو بغيرها فإذا التي	يمتها قد أصبحت تغري بها
قسماً بها وبحبا لا أبتغي	بدلاً بها ان الحياة بقربها
يكفي المصاب لبعدها ولطالما	سمحت وحننت بالوصول لصبها
نظرت إليك بأعين بناها	ترمي فلا تخطي فؤاد محبها
وغدا لها القلب المصاب ملبياً	فتبه عنه او تقول لربها
يا قوم ذا عبد الهوى وأسيره	يا حذالك القول لو أحظى بها
هبها على رغم الحواسد أذنت	فأنا الكفيل بحبا وبدنبا
هتف الفؤاد بذكرها رغباً على	أنف البرية قائلاً : من لي بها

ومن شعره الغزلي أيضاً قصيدة وقفت على طالعها فقط وهو :

عليك بها واخلع عذارك في الهوى ودونك من ثغر المليحة ما حوى

ومن شعره ينوه بقانون عهد الأمان ويمدح من سنه للتونسيين وهو الأمير محمد
الصادق باي من قصيدة منها قوله :

تيقن أن العدل أبقى للملكه	فأضحى لطرق الجور ينسفها نسفا
أمولاي قد عاهدت عهداً مؤمنا	فأوفيت في عهد الأمان ومن أوفى
وأمنت أهل القطر من كل ضائر	ولولا وجوب الحنف أمتنا الحنفا
جعلت أساس العدل فيهم أمانهم	على العرض والأبدان والمال مستوفى
وسويت في الأحكام بين جليلهم	وبين ذليل بان في الحق يستخفى
وألزمت أحكاماً هي الفيصل التي	توافقنا شرعاً ونعتادها عرفاً

قوانين تنني الجور عن ساحة الفتى وللغرض النفسي في حكمها أنفى
يقرُّ لها بالعدل كل معاند بعضٌ على غيظ أنامله لها

ومن شعره قصيدة نوه فيها بشأن التعليم في المدرسة الصادقية نصَّ طالعها :

الصبح أصدق شيء حين يتسم والصدق أنجح ما تأتي به الكلم

ومنها :

والصادقية أبدت من غرامتها نتائجاً شاهدتها العرب والعجم *

329 - أبو عبد الله الشيخ محمد ابن الشيخ عثمان السنوسي

أصل سلفه من بلد الكاف وجدّه العلامة أبو عبد الله الشيخ محمد السنوسي الكافي هو أول من قطن بتونس لطلب العلم حتى كان من أعيان علمائها وتولى خطة قضاء بتزرت ثم قضاء باردو ثم قضاء الجماعة بتونس وولد صاحب الترجمة بحاضرة تونس سنة 1266 فنشأ بين يدي والده وطلب العلم على سنن سلفه فحصل على ملكة مرضية . وشارك في العلوم نقلية وعقلية . فتصدر لبحثها فحضر بهم . واعترف له الأقران بجودة الروية وإصابة الفهم . وتولى تدريس العلم بزواية سيدي الهياص خارج باب القرجاني ثم سعى في نقله إلى جامع حمودة باشا المرادي غير أن اشتغاله بما تقلده من تحرير جريدة الدولة الرسمية المسماة بالرائد التونسي والكتابة عن جمعية الأوقاف صرفا وجهته عن رياض العلم ثم ما تقلده من كتابة المجلس المختلط العقاري ثم تسميته حاكماً بالمجالس العرفية الجنائية بالوزارة ومع ذلك فقد كتب كثيراً وألف مؤلفات مفيدة في بابها في غير ما موضوع منها في الأدب بجمع الدواوين جمع به شمل دواوين متأخري شعراء التونسيين وهو في عدة أسفار وجمع ديوان الشاعر المفلح الشيخ محمود قابادو وله تاريخ خصه بقضاة تونس وأئمة جامعها الأعظم والمفتين سماه بمسامرة الظريف بحسن التعريف . ونظم في العروض والقوافي وشرح على القانون العقاري سماه بمطلع الدراري ، إلا أن كثيراً من مسأله التي رام تطبيقها على أحد المذهبين المالكي والحنفي انتقدت عليه . وفوق بسببه سهام الاعتراض إليه . ورحلتان: الحجازية لما سافر إلى الحج والباريزية لما سافر للمعرض

و جمع شرح مختصر خليل فكانوا زهاء الثمانين شارحاً وقد كان قلمه رطب اللسان يترشح
بكتابة ما عنَّ له لا يتهيب أي موضوع . ولا يتأخر إذا أقدمه على مشروع . وقد أخبرني
بعض أصحابه أنه قال له أن ما يكتبه بين خطرات اليراع يريد أنه يحتاج إلى اعمال الفكرة
إعلاماً بقوة عارضته وذلك إغراق منه يرحمه الله ومؤذن بتعجله في محرراته وله تضلع في
التاريخ أخبرني أنه لما وصل إلى بيروت صادف جمعية دائرة المعارف وصلوا إلى ترجمة
الأمراء الحسينيين فالتمسوا منه أن يكتب لهم في تاريخهم فأملأه وأدرجوه بنصه في دائرتهم
وكان رحمه الله فصيحاً بشوشاً لين العريكة متحياً إلى الناس وله أدب غض . وثر
كلنثار لؤلؤ عقد مرفض . ابتلي بمرض عضال لازمه سنين يتقه منه يوماً ويعاوده آخر إلى
أن فاجأه الحمام في رجب سنة 1318هـ ودفن بمقبرة الجلاز ومن شعره العصري قصيدته
النونية التي سماها الفريدة في المخترعات الجديدة صدرها بثرو نصها :

هذه قصيدة فريدة . في مخترعات جديدة . نظمتها قضاء لما من دينها قد وجب .
على أبناء الأدب . سيما والتشايه الادبية أكثر تأثيراً في أنفس العارفين بلسان العرب .
تدعوهم البارعين منهم ان ينسلوا إلى ذلك الإبداع من كل حذب . ولم تر من شعراء
العصر الجديد من أتى بالأرب . فتطفلت على اقتحام عذراء هذا المدب . نشيطاً لفكر
من تعلم ولقلم من كتب . ولا أدعي الإيعاب . لجميع ما تقتضيه لطائف الآداب . وما
هي إلا فتح باب . ربما ظهر من بعده العجب العجاب . من براعة الشعراء والكتاب .
وعلى كل حال يحمد منها الإيتداء بدون عتاب . إن لاحظتها عين الرضا من أرباب
النصاحة والأغراب . وهي :

أرأيت كيف تقارب البلدان	بالمزجيات جرت على القضبان
يتمد من سكك الحديد ممرها	بالارض وهي جوالب العمران
وفروعها بين البراري خططت	خطاً أقيم بآلة الإيقان
أشكاله صينت بوضع مهندس	في ملتقاها حار ذو العرفان
إذ انها من جدول العمران أجز	رت ثروة تحيي بكل تدان
فهي الجداول في فروع قد جرت	بالأمن لا بالماء ذي الطغيان
ولها دوالب تستدار بها إلى	حيث المراد بقصد أي مكان
فترى على خط جموع محامل	وصلت به يوم التقى الجمعان
حتى إذا سارت فكل يغتدي	في فرع مقصد أهله الركبان

ما إن تفضل عن الطريق ولم ترع
 مع انها ليست ترى وبدت لها
 خرفت لها شم الجبال بمسلك
 ولها رأينا معظم الأنهار قد
 تلج البتيل ولوج لاعب مرشح
 وتبين من فوق الجسور كما جرى
 وترى من العجالات وقع رشابه
 وتسير في سطح من الأرض استوى
 وتضم أطراف البلاد جميعها
 فهي التي التهمت ثعابين الطريد
 وصل الجنوب من الشمال بها ومن
 لو مد في جوفها فرع به
 فيه قد ارتبطت من الأرض الجهه
 وتجر آلاف النفوس لما نأى
 فترى بني العمور في عرباتها
 كالريح كان غلونها شهراً وتلد
 قد حار أمري إذ ركبت بها على
 لم ندر تلك هي البساط يسير في
 ام اتنا في الجو والعقبان قد
 ام اتنا فوق السحاب الجون قد
 ومن اصطكاك الجري خلت رعوها
 مع أننا فوق الحرير جلوسنا
 ونحوظنا خير البيوت تناسقا
 تجري بمزجية إن اضطرمت حشى
 كفتواد مضنى بالهوى متأوه
 ولذلك تنفذ للركاب بمغرب
 فن المحط اذا سمعت صفيها

من قاصد إمساكها بعنان
 بالليل من مشكاتها عينان
 سهل يروع حماه كل جنان
 سويت بآية محكم البنيان
 للبهو يخفى عن محل عيان
 فوق الجبال مباحياً بأغاني
 نطق البيان من بنان بيان
 وله انطوى صعب من الإمكان
 بإحاطة لم تختلف عن آن
 حتى وقد طوت أرضاً نأت بثوان
 شرق إلى غرب وصال تدان
 بلغ البلون لمركز النيران
 ات الشاسعات بوصلة استحسان
 في لحظة قصرت عن الحسبان
 تجري بهم في سرعة وأمان
 لك رواحها بمسير شهر ثان
 بعد لرؤية آية العمران
 أرض على ريح لكل مكان
 خفقت بنا في أسرع الطيران
 سيقت بنا للمربع العطشان
 صعقت ببرق شرارة الدخان
 ومسيرنا في متره الأعيان
 وتسبقاً يجري مع الميدان
 قذفت لهيب تفجر البركان
 لم يصطبر لتسعر النيران
 من مشرق كالشمس دون توان
 رميت على غرض المحط الثاني

لولا سلامتها لخلت خروجها
وترى على بعد لها عدواً حكى
تجري بمخنة حكمت روقاً لذي
ترجي أغنّ كأنّ ابرة روقه
ومحطّ في صفحات خد الجوما
سطراً بطلمس سر سرعة سيرها
ما سويقت إلا وقد سبقت إلى
لم ندر هل هي من معارف آصف
فأتى به قبل ارتداد الطرف يي
أم أن مخترعي سريع حراكها
ولو أنها ولدت لقلنا بنت ما
لكنها صنعت بقوم أشعرت
هل كان يسبقها سوى صوت امرئ
حتى المقلة بالتليفون انبرت
إذ أنّها تسري كبرق خاطف
أو صوت من حملوا الشعاع مقاله
فالصوت ينقله انطباع أشعة ال
وبذا ذكرت كرامة الفاروق إذ
ليدل سارية إلى الجبل الذي
فأناه نفس الصوت من بعد نأى
صوت بلا سلك ولا المرآة سا
هو آلة ما قيل شيء عندها
وتعيده مها أريد بها مع الأ
نطق الجهاد بها جرى بل أغربت
تأتي بأفصح أحرف مع أنّها
فهي التي لا تكتم السر الذي
لكن لها صدق وحسن حديثها

كرة الكروبيّ ارتمت لطعان
عدو الظبا لمكانس أطمئنان
أمّ به تعدو على جريان
قلم يمد بأسود الدخان
نفضت عليه سوادها العينان
شرخته عندي هينات لسان
ما لا ينال بقوة الحيوان
إذ جرّ عرشاً شامعاً في آن
من يدي سليمان الرفيع الشان
طلبوا لحوق السابق العرفان
كانت قديماً محملاً للجان
فيهم بقوة فطرة الإنسان
قد حدثت الأسلاك بالأشجان
للسامعين على قصيّ مكان
ويجل موقعها من الآذان
بالفوتفون المحكم الإتقان
حررات حيث تقابل النوران
نادى فسار القول سير معان
يحمي به من كيد ذي عدوان
والحاز ممثلاً بدون توان
ر ولا بفونغراف ذي العرفان
حفظته منضبطاً كخير مصان
طوار بالتحريك والإسكان
يبقاء نفس الصوت والألحان
ما ان لها حلق ولا شفتان
يفشى لها ويعاد بالإعلان
قد صين عن زيد وعن نقصان

ويحفظ نغمتها سميت عن كل ما
 والكل يضبط صورة الألفاظ إن
 سلك كوههم الساعحين ممره
 طرفاه كل ينتهي في مركز
 وكلاهما من منبع السيالة اش
 فإذا سرى سرّ من الطرفين لا
 وإذا تمس يد الحراك رقيقه
 فكانّ ذاك السلك حب تواصل الـ
 وكان منبع ما سرى قلباها
 ويد الحراك كمثل أنملة الحكيم
 ولجسه الأثر أنبرى للقلب إذ
 ولذا غدا ذاك الحكيم مترجما
 فاعجب الى الأسلاك من سر الصنا
 تمتد فوق رؤوس أعمدة زهت
 فكانّ أبيض من حمام رسائل
 وبكل وقت وهي قائمة على
 ولها بأرض مقرها غوص إلى
 وعلى التوالي قد تناسق نبصبا
 كل يروم وصال حبّ سابق
 فغدت شواخص مثل من يهوى فتى
 ولذلك أسحلها وأنحل جسمها
 وتشذبت ونضت ملابس حسنها
 ولها زئير من شجا ما قد وعت
 وكان ما تزويه شيب رأسها
 إذ مر عنها سلك برق قد اتى
 كالأيد من رسل البريد تواصلت
 تسري به الأخبار من شرق إلى

به تبلغ الأصوات للإخوان
 باهى تفراف بنقل معان
 في كل وهم سائر البلدان
 ناء به قد نال وصل تدان
 تنف الحياة بأسرع السريان
 يتعارضان ويبطنان لأن
 يتحرك الأقصى بدون توان
 محتاشقين على نزوح مكان
 قد جردا وتخابرا بتفان
 سم يحس نبض مقاوم البحران
 أضحي يرى بتنبه الخيران
 عن سره الساري الى الأبدان
 عة توضح الأسرار بالتبيان
 إذ توجت بمجرد السريان
 له فوقها وقع من الطيران
 ساق تشير لوحدة الديان
 عمق كمثل منابت الأغصان
 فتنابت ،كتناجب الغزلان
 وله يمد بسلك وهم فان
 يرعى بدائع حسنه الفتان
 طول انتظار لم يطب للعاني
 وتشققت بالعشق شق سنان
 من ذي مسرات وذي أحزان
 فابيضّ مما مر بالآذان
 بخفيّ سرّ حوادث البلدان
 برسائل مدت من الأعوان
 غرب فيبلغ نشرها في آن

الوهم مر به على وسنان
 أمسى يعاني في لطيف معاني
 دلت حروف الخط عن تبيان
 يرويه عن دول وعن أعيان
 وهو البريد مبلغ بأمان
 به عمّمت بالنفع كل مكان
 في كل وقت بين أهل الشأن
 حلف السداد لسؤدد العرفان
 وتجددت بتجدد الأزمان
 للكهرباء وقوة النيران
 من صالح للمجمع الإنساني
 لعنان كسب العلم ليس بثان
 لمفاده فنراه أعظم جان
 طول الحياة لخدمة العمران
 يبنى بها فخراً لكل زمان
 منها وصلت لمدين الإتيان
 تبقى بسلك غرائب الحدائق
 عم البلاد بمنبت الإحسان
 واردة بفرسك ما يطيب لجان
 يسعى لينفع أنجب الأقران
 تأتي عليه عناكب النسيان
 الا وضع أو جهول شان
 فيمن يقوم بخدمة الاوطان
 له خبرة بمزية العرفان
 ن الى العلى في واسع الميدان
 لإضاعة الأزمان بالخسران
 شمس الهدى ينقاد للعيان
 ما يرتجيه بمنحة المنان

تأتي عليه كمثّل طيف وارد
 او مثل معنى رقّ في ذهن امرئ
 نطقت علامات النقوش به كما
 ما مان في الأخبار الا في الذي
 لكن آفات الحديث رواه
 ومزية الإبلّغ عند تخابر
 فيه الإدارة والتجارة ترتي
 وبه الأيادي في البوادي حرّكت
 وبه الفوائد قد غدت منشورة
 فلينظر التحرير في أسرار ما
 ليري مفاد الإختراع وما له
 وبناك يقدر قدر حلف تمدن
 وإذا الفتى بالعلم يقصر هم
 وأخو السداد فتى يجاهد نفسه
 فحياته تفنى وزيدة سعيه
 هل فيك يا حلف المدارس غير
 او هل قصدت لنفع جنسك غاية
 او هل لجذك من مآثر نفعها
 فأشكر غراسة ما جنيت ثماره
 فإذا فقدت فإن قومك كلهم
 لا يعملون صنيعك المشهود أن
 بل ما توانى عن إعانتك امرئ
 ومفاخر العصر الجديد معارف
 او حسن تشييط الغرائم من فتى
 ويمثّل ذاك تقدم المتسابقو
 فانشط ولا تك عند قرنك عبرة
 حاشا فتى ذا نية بانّت له
 والجد يبلغ كل ذي عقل الى

وحيث ذكر في ديباجتها أنه هو السابق في شعراء العصر للتشبيه بالمخترعات فلا جرم كان له الفضل في فتح هذا الباب . ولما كان بيننا من المودة طالما طارحني عيون الأدب فمن ذلك طلبه مني تشطير هاتين البيتين وهما :

بعثت بنرجسة إليّ ووردة ففهمت أفيها حقيقة قصدها
لما تعذرت الزيارة أرسلت بشييه ناظرها إليّ وخذها

فشطرتها بقولي :

(بعثت بنرجسة الي ووردة) من بعدما احترق الفؤاد لصدّها
رامت تحرك حبّ صبّ هائم (ففهمت أفيها حقيقة قصدها)
(لما تعذرت الزيارة أرسلت) فرعاً يزين رشاقة من قدّها
حاكت لي البدر التمام وأومات بشييه ناظرها إليّ وخذها

ولما أطلع عليه طلب مني تخميس التشطير المذكور فقلت :

يا ربّ راتعة الجمال ملدّة قد مازجت لين الدلال بشدة
هجرت وإذ طال النفار لمدة (بعثت بنرجسة إليّ ووردة)
(من بعدما احترق الفؤاد لصدّها)

زهرًا بمبسمها ارتواء الحائم وبصحن وجنتها زهور كرائم
روض البها شجو العنول اللاتم (رامت تحرك حبّ صبّ هائم)
(ففهمت أفيها حقيقة قصدها)

مهلاً فإنك شمس حسن قد علت حلت بروجاً من فؤادي قد خلت
أفديك من خود مقاصدها حلت (لما تعذرت الزيارة أرسلت)
(فرعاً يزين رشاقة من قدّها)

يا سلفة من ليل شعر اعتمت منها يبرق الفرق مهجتي آحتمت
يا حسن وجه تحت طرتها جلت (حاكت لي البدر التمام وأومات)
(بشييه ناظرها الي وخذها)

وطلب مني تخميس ديبتين: للإمام محمد بن جابر الأندلسي كان شطرها واقترح ان يكون إدخالاً بين صدر البيت وعجزها بحيث تكون المصارع الثلاثة وسطاً بين مصراعي البيت وهي طريقة مخترعة في التخميس . وأصل التشطير :

لما رأي من أحب مفكراً فيما أعاني من جوى وتلهف
 حتى، ورق لحالي لكنه نادى إليّ ملاحظاً بتلطف
 حدثت قلبك بالسلو فقلت بل أوسعته صبراً بوصل المسعف
 فحديث وصلك شغل أفكارى ولو قلبي يحدثني بانك متلني

ونص اقتراح صاحب الترجمة لتخميس هذا التشطير من الوالد رحمها الله بعد فاتحته منقولاً من خط صاحب الترجمة :

لما رأي من أحب مفكراً إلى آخر التشطير المذكور أعلاه ثم قال سيدي أسعد الله صباحك قد شرفني بطاقتكم ليلة أمس فأخذت فيها تخميسكم ليبي الأفندي عبد الجليل سميراً فإذا هو قد امترح بالأصل أمتراحاً وفصل بموصول معانيه ازدواجاً وبما أن الأبيات المذكورة أعلاه مما تبارى إخواننا أدباء العصر هاته الأيام في تخميسها وصدرت لها عدة تخاميس وبعضهم سلك بتخميسه لها مسلك التشطير بحيث أنه فصل بين مصراعَيْ كل بيت بثلاثة مصاريع دخل بها على المصراع الثاني مع كمال الارتباط بالمصراع الأول وهذه طريقة جديدة في التخميس فإن استحسنتم أن تعيدوا الكرة على هاته الأبيات في هاته المرة فإننا نتظر منكم حسن الإبداع الذي يكسي منه شعر ابن جابر بالدرّ النفيس من أحكام التخميس ودمتم معوذتين محروسين وعليكم من ودودكم أعز السلام محمد السنوسي اهـ ؛

ولما اطلع صاحب الترجمة على تخميس الوالد الآتي ذكره والمقترح له هو أعجب به وقرضه بقوله منقولاً من خط يده أيضاً بعد فاتحته حبذا ما سطره البنان وأبدع تنميقة البيان من السحر الحلال والعذب الزلال الذي كسا ذلك التشطير حلة التحير موشحة بالدرّ النفيس من لطائف التخميس وناهيك به من تعويد لمنشئه المجيد مقيم أود البراعة على الوجه الجديد فلا زلت أيها البارع في أحسن مطالع الإجازة متقدماً ولطروس الآداب مفوقاً ومعلماً ولا برحت آيات ابداعك واضحة من مطالع براعك فقد راقني ما في تخميسك من حسن الإدخال الذي هو مناط تفاوت المتبارزين للنضال ولا غرو إن ظهر هذا الأثر في مطلعكم المشتهر اشتهاً المحجّل الأغر نسأل الله أن يديم براعك رائقاً وفجرمقاخرتك صادقاً والسلام من ودودكم محمد السنوسي اهـ . *

فقلت في تخميسها على حسب اقتراحه :

(لما رأي من أحب مفكراً) في حبه الساري بحيث دمي سري

والقلب في ميدان يأس قد جرى يفتن مفطور الحشى متحيراً
(فيا أعاني من جوى وتلهف)

(حسى ورقاً لحالي لكنه) من بعد ما جسمي الغرام أجنه
يا حسن ثغر فره يا حسنه يوم الرضا أضفاه حتى أنه
(نادى إليّ ملاًعباً بتلطف)

(حدثت قلبك بالسلو فقلت بل) قلبي عن استمكان حبك ما انتقل
كيف السلو وأنت بدر قد كمل لكنني ان ضاق صدري واشتعل
(أوسعته صبراً بوصل المسعف)

(فحديث وصلك شغل أفكارى ولو) عني الوشاة حمى اقترابك قد حموا
ما دار في خلدي السلو وإن غلوا فإذا رأيتك قد أخذت بما وشوا
(قلبي يحدثني بأنك متلني)

* ومن شعر صاحب الترجمة ونثره يهنئ الوالد رحمهما الله بولايته خطة التدريس
من الطبقة الثانية ما نصّه ومن خطه نقلت :

نهني بك التدريس والفضل والعلا هناء به قد طاب أكرم محمّد
ولا غرّو أن راق الهناء فقد سما محمّد بن الطيّب بن محمّد

العالم ابن العالم ابن العالم وناهيك بعلم متسلسل رفيع المعالم التحرير الأبرع
والدراكة اليلمع محبّ الدروس بما هو أجمل من حلية العروس الصفوة الفاضل
المدرس الشيخ سيدي محمد النيفر أدام الله حراسته وحفظه وبعين العناية لحظه أما بعد
إهداء أعزّ التحية اللاتفة بمكارم أخلاقك الفاتقة فإني نهنتك بل نهني بك خطة
التدريس بجامعة الزيتونة هناء تتجاذب الكمالات فنونه وأنا على يقين بأنها الحرّية بالهنا
لبلوغها من كمالك غاية المنى حيث تواصل لها بحسن جدك ما عهدته من أيك وجدك
وما هي إلا طريق سعيد تجتازه إلى الشأو البعيد فتلتقي بسلمه إلى ما أنت له أهل من
الخطط العلمية التي تتسارع إليك بدون مهل وبذلك يتضاعف هناؤنا معاشر اودائك
حيث يرى كل فضل منشوراً تحت لوائك فتتضي لكم الأيام أعظم دين ونراكم دائماً
لمولانا الشيخ الوالد قرّة عين نسال الله أن يديم هناء كم وعزكم والسلام من مخلص
ودكم العبد الضعيف محمد السنوسي وفقه الله وكتب في 4 ذي القعدة سنة

1312 هـ .

ومن شعره ونثره أيضاً يهنئُ الوالد أيضاً رحمها الله بختان ابنه الشيخين محمد
العزیز وعبد الوهاب ونصه بعد فاتحته أسعد الله صباح سيدي باليمن هناؤه وبشراه أما
بعد فإني أتشرف بالإعتذار لرفيع جنابكم عن التخلف بتواصل الشغل الذي أباشره
بنثسي فيما يلزم للضعيف تهيئته لأجتماع العقد المبارك إن شاء الله في هذا اليوم وعلى
كل حال بإرادة الله نحضر عند سيادتكم في أول فرصة نجد بها حرية نفسي وقد بادرت
بكتابة هاته عن عجل تعجلاً لأداء الهناء الذي أقتضاه الإشتراك في السرور أدام الله
سرور الجميع بجاه جدكم الشفيح :

أمولاي يهنك الختان الذي به ترى برّ أبناء عزيز سرورهم
ودمت المهنى كي ترى من بينهم وأبناءهم ما قد أبان حبورهم

وعلى جنابكم أعزّ السلام من معظم قدركم محمد السنوسي لطف الله
بالجميع ا ه .

وله أيضاً يهنئه بختم الحديث الشريف في مسجد السبخاء نياية عن الجد سيدي
محمد الطيب ويعتذر له عن عدم حضوره بما نصه منقولاً من خطه الحمد لله جناب
العالم الماجد الأبرع المدرس الشيخ سيدي محمد النيفر أعزّه الله وحرسه :

نهيك بالحنم الذي أنت زيته ومنك توات بالمعارف ديمته
وأشكو لكم عذري فقد كان مانعي من الفوز بالجمع الذي تغلو قيمته
وأنت الذي تدري بعلمك رغبتى بقيت الذي تسمو بفضلك شيمته

وعلى جنابكم أعزّ التحية من مخلص ودّكم محمد السنوسي في 17 رمضان سنة
1311 ه .

ومن شعره عند تأسيس المستشفى الصادقي يمدح الأمير محمد الصادق باي
المؤسس على عهده ومؤرخاً لتأسيسه قصيدة طالعها :

لمشير تونس خير فضل يُقْتنى فيما أشاد إلى الأهالي واصطفى

وختامها قوله :

والآن أثل خير مستشفى به حفظ الحياة لكل شخصٍ قد وفي

حتى غدا كل ينادي داعياً ويقول في التاريخ: لي قدم الشفا
ومن شعره مؤرخاً بناء زاوية سيدي ابراهيم الرياحي بقصيدة طالعها :
لمقام إبراهيم فأدخل آمناً تجلو به فضلاً عظيماً كامناً
ويت التاريخ قوله :

فهو الذي لمؤرخيه جوابه: لمقام ابراهيم فأدخل آمناً
(1295هـ)

ومن نثر صاحب الترجمة أيضاً ما قرّض به شرح الوالد على صلاة الفاتح ونصه
نحمدك اللهم أنت المتفضل المانع ونصلي ونسلم على سيدنا محمد الفاتح وعلى آله
وأصحابه المتأدبين بأدابه أما بعد فإن شغف القلوب بمحبة أكرم محبوب دامت صلوات
الله عليه أوقفها في مواقف عزّ التلذذ بذكره ولا زال بحمد الله يسقيها من كؤوس سرّه
بمقدار ما وصلت الهمم إليه وكانت الأمة المتواردة على أبواب خدمة الحضرة النبوية لها
التميز الأكبر بتلك المزية التي بلغت بها الآمال وإن اختلفت من ذوئها الهمم والأعمال
ولا شك أن من أعظم الوجوه التي يتقرب بها إليه الوقوف في باب الصلاة عليه وقد
صلّى عليه الرب والملائكة الكرام وأمر الله المسلمين بالصلاة عليه والسلام وأوضح في
تشريعه لأصحابه الكرام كيفية الصلاة عليه على ما رواه الأعلام فكانت الصلاة عليه
من أفضل وجوه العبادة التي نرجو من الله الحسنى وزيادة وجميع الصلاة عليه مقبولة
على ما جاءت به الروايات المنقولة وقد أشتهرت صلاة الفاتح أشتهار البدر في الليل إذا
يسرى بروايتها عن عالم الأمة شيخ الإسلام سيدي محمد البكري رضي الله عنه وأرضاه
وجعل الجنة مأواه وهي الموسومة بالياقوتة الفريدة وكم من يواقيت اختارها لمن هدى
به عبده حتى كانت من أوجه الأوراد المتلوة على الاستمرار بين العباد ولذلك اعتنى
بشرحها العالم الأريب والمتفنن النقادة المصيب البارع الماجد المدرس الشيخ سيدي
محمد النيفر شرحاً عبق بمحاسنها عبيق المسك الأذفر سماه باللالى النضيدة بتاج الياقوتة
الفريدة وقد رأيت بالإطلاع على صفحاته ما طاب من عبيق نفحاته إذ حاز من التحبير
والتحرير ما يشهد لبراعة محرّره التحرير بنقول متلوه ودلائل مجلوه أجرى بها يتابع تلك
الخاصن بماء غير آسن شكر الله صنعه الجميل ولا زال بيته أهلاً بأمثاله جيلاً بعد جيل

والسلام من العبد الضعيف محمد السنوسي خادِم العلم الشريف وفقه الله وكتب في
شهر شعبان الأكرم سنة 1310 هـ .

ومن نثره أيضاً ما قرّض به كتاب «حسن البيان عما بلغته إفريقية في الإسلام من
السطوة وال عمران» للوالد رحمها الله ونصه بعد فاتحته أن إمطة اللثام عن محيا ما غير
من الأيام يكشف للمستئين عن عجائب الآثار فيضيف إلى عمره سالف الأعمار
ويصبح عارفاً بما أكتته السنون معرفته لما شاهده مما كان أو يكون ولا مربة لعاقل
في أن التطلع لتاريخ الوطن لمن أرتحل أو قطن هو بغية جميع النفوس إذا أدارت من
ذلك مترعات الكؤوس وإن أعمل التونسي أدنى التفات لتدارك ما فات بالنظر إلى ما
أتى على المملكة التونسية من عهدها القديم وما تقلبت فيه من البؤس والنعيم ير من
أطوار عمرانها ما يدل على رفعة شأنها ويعلم ما أفاء الله عليها بالإسلام الذي رفع فيها
أشهر الأعلام والإشتغال بهذا الغرض الرفيع لا يكون إلا ممن هو إلى المقاهر سريع
يدعوه داعي حب البلاد وساعده وفور الإطلاع والإجتهد حتى يصل إلى غاية المراد
وقد رأينا بحمد الله تلك الغاية البديعة والمقاصد الرفيعة مجتمعاً فيما طالعناه من كتاب
حسن البيان عما بلغته إفريقية في الإسلام من السطوة وال عمران تأليف العالم الوحيد
وزينة علماء العصر الجديد الدراكة التحرير الفاضل الباذ بكمال براعته على كل مناضل
الماجد الضفوة الأكمل المدرس الشيخ سيدي محمد النيفر لا زالت محامده عابقة
بمسك أذفر فلقد أبدع وأجاد فيما جمع به مفاخر البلاد فأتى على شذور من تاريخ
المملكة فيما قبل الإسلام وتبع كثيراً من الوقائع التي جرت فيما غير من الأيام وكشف
عن وجوه فتوحاتها الشهيرة بما رواه في تلك الأخبار الكثيرة حتى أوقفني بما أتبعته عن
السير على الوصول إلى وفاة موسى بن نصير وكان المجال فيما وراء ذلك واسعاً ولكنه
قرب بما قدمه متالاً شاسعاً شكر الله صنعه وأدام بتخليد المناثر نفعه وهو المسؤول أن
يتولى إعانتته على إتمام مشروعه بما ينتفع الناس من موضوعه انه قريب مجيب العبد
الضعيف محمد السنوسي خادِم العلم الشريف أخذ الله بيده وكتب في 7 رجب الأصب
1314 هـ .

وصاحب الترجمة كان كما لا يخفى من المعثين بتاريخ تونس الأفاذ وله فيه
مطارحات ومراجعات مع الوالد رحمها الله وإليك مكتوباً منه للوالد من بعض تلك
المراجعات المشار إليها نصه بعد فاتحته جناب العمدة التحرير الدراكة الماجد العالم

الفاضل المدرس الشيخ سيدي محمد النيفر أعزه الله وحرسه . أما بعد إهداء التحية
اللائقة بسدتكم السنية فإني أرغب من إفادتكم لا زلمت تفيدون نص عبارة المؤرخ في
عمل موسى بن نصير لفتح بحر تونس والله يديم بكم النفع العام وعلى جنابكم أعز
السلام من مخلص ودكم محمد السنوسي وفقه الله وكتب في 23 ذي القعدة سنة
1315 هـ

330 - الأديب حسن المزوغي

هذا الرجل على ما أخبرنا عنه الثقة عصامي في قرض الشعر كثيراً ما أجاد فيه
وأصاب مرماه بسهم سديد فإنه على ما ذكروا لم يكن من أهل العلم ولا من حذاق
العربية ولكنه ثاقب ببحر الشعر وقوافيه بمطالعة دواوين الشعراء وأقحم نفسه في قرضه
بمختلف بحوره ومتنوع قوافيه حتى برع وأصبح له ملكة لا بأس بها فيه ساعدته على
ذلك فطرة سليمة واستعداد طيب فصار من المكثرين لقوله مع الإحسان في مختلف
الأغراض بما يقضي منه العجب وإن كنا نجد له ربما خرج ببعض المفردات أو التراكيب
العربية عن منهجها وله العذر في ذلك وله أمداح وتهان كثيرة في الأمير علي باي في
شئى المناسبات كنت رأيت عند العالم الأديب الشيخ معاوية العيمى رحمه الله إبان
الطلب فصائد له وفيرة العدد من هذا القبيل لا أدري مصيرها الآن ؛ وكان صاحب
الترجمة ذا كياسة وفكاهة يسكن على ما ذكره صاحب تاريخ معالم التوحيد في المدرسة
الأندلسية قبيل انتظام أحوال المدارس بوضع إدارة المعارف يدها عليها ، توفي رحمه الله سنة
1323 هـ ، فمن شعره هذه القصيدة في الحماسة ناقلها من خطه رحمة الله عليه وهي :

البشر من حسن السجايا ينشأ	واللوم عن خبث الحبايا يُبنى
ومكلف الطبع السجى بضده	كمعالج بالطب ما لا يبرأ
ومظاهر الحسن بمكمن سئى	يبدو عليه بطي ذلك السئى
كعجوزة شمطاء تخبر أنها	تمحطى بمجد وهي رهط أدنا
فكأنها نسل أم دفر في الملا	تخني فتغري كيدها لا يفتأ
تدنيك من شئن الطبايع تطبعا	حتى ينالك مكرها المتخبى

إن عارضت بالقول زور قولها
 هي مثل من يوماً يجلس بمجلس
 فيبادر المعنى بفهم سيء
 ويعارض القول السليم سفاهة
 وإذا ذكرت متون علم قال لم
 ويقول إني قد وردت حياضها
 يا مدعي علماً بمحض غباوة
 تأتي ميادين الحروب تطفلا
 وتحيد عن سوح الحروب مباعدا
 تأتي لدرس العلم عقلك جامدا
 وقدمت تسمى للوغى متجرأ
 فانظر لقصد الرمح ينظر شزرة
 رأيت يوم الطعن مر بمعرك
 وشجاع ذاك اليوم يقدم قومه
 يتطلب المخيا ليسلم جلده
 غادرته إذ ذاك رهن مكانه
 وصفححت عن وزير أتاه تعجرفا
 وعففت ممتناً عليه قائلا
 أو أفحمت بالرد ظلت تخطيء
 يبدى المعارف وهو بو أنصاً
 ودليله ما هو منه الأسوأ
 ويروح بالواهي المسفسف يدليء
 يعرف لها غيري كتاباً يقرأ
 صفواً يروق وهو منها الأظماً
 تالله قد أغراك جهل أغباً
 حتى إذا شب اللظى لا تجراً
 إن الفرار إليه دوماً تلجأ
 وإلى حمى الهيجا وباعك أعباً
 كالذئب عن ليث الشرى يتجرأ
 وإذا يشير لنحو هام يبرأ
 تروي الأسته كل خيل نظماً
 وجبانه تحت الركاب موباً
 ويقول من ذعر فأين الملجأ
 قد حلّ منرجاً به يتخبأ
 وعددته ممن به لا يُعبأ
 إذهب معنى عنك سيني أدراً

ومن شعره أيضاً تخميسه لقصيدة السموأل بن عاديا الشهيرة في الحماسة نقلاً عن
 خط الوالد رحمه الله الذي كتبه في شعبان الأكرم سنة 1301هـ ونصه :

إلى البرّ صدق أثمر المجد روضه وللنذر عهد أوجب اللوم نقضه
 فله قول بين الحق لفظه إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه

فكل رداً يرتديه جميل

ومن يطلب الحسن يكابد ظلمها تنه رحيقاً قد تنبذ ظلمها
 ومن يصحب الدهنى تجرّع سمها وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها

فليس إلى حسن الثناء سبيل

ونحن حماة القوم صينت حلودنا وفي الحرب منا تُستشام رعودنا
وكم من كفاة أسرتها عبيدنا تعيرنا أنا قليل عديدا
فقلت لها إن الكرام قليل

وما ربيع من أضحي ييمم ظلنا ولا نخاب من أمسى يسائل بذلنا
وما عارض الأبطال في الحي نصلنا وما قل من كانت بقاياها مثلنا
شبابٌ تسامى للعلى وكهول

وللقاصدين النيل تفتح دارنا ومن كل من في الأرض يؤخذ ثأرنا
وفوق سماك الأفق قرّ قرارنا وما ضرنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل

وعنا ثناء الحمد طاب عبيره ومنا انتظام الشعر أين جريره
فقولوا لمن في الأرض ضاق مصيره: لنا جبل يحتله من نجيره
منيع يرد الطرف وهو كليل

له فلك تبلو بأفقي حجابيه كواكب ترهو عند فُسح رحابه
أيا رانماً نيل المنى باقترابه رسا أصله فوق الثرى وسما به
إلى النجم فرع لا ينال طويل

من الذهب الأبريز والدرّ بكره من اللؤلؤ المكنون والعز وكره
فقولوا لمن أغراه في الناس فكره هو الأبلق الغرد الذي شاع ذكره
يعز على من رامه ويطول

ثوبنا على العلياء في المجد رتبة لأننا لبسنا للعدا البطش رهبة
وفي مارح الهيجاء نكشف كربة وإنّا لَقَوْمٌ لا نرى الموت سبة
إذا ما رأته عامر وسلول

وإن سعرت حرب أهاجت مثالنا وإن زفرت غيظاً أحاضت نضالنا
نخوض طعاناً إذ نرى أن تنالنا يقرب حب الموت آجالنا لنا
وتكرهه آجالهم فتطول

وإن هبّ ربيع الموت يذكي بعرفه وسلّ كمنيّ الخيل بارق سيفه
تروا بطلهم بالرعب يسعى لحتفه وما مات منا سيّد حتف أنفه
ولا ظل منا حيث مات قتيل

وفي الحى عنا قد أشاعت طروستا نبيد العدو ما التفته بؤستا
وعن حفظ عهد المجد بيعت رؤوسنا تسيل على حد الضباة نفوسنا
وليس على غير الضباة تسيل

وإنّ وفاء العهد أبسم ثغرنا وإنّ إفشاء الحمد أجمل ذكرنا
وإنّ التقاء الضيّف أعظم بشرنا صففونا فلم نكدر وأخلص سرّنا
إنّات أطابت فرعنا وأصول

وجمع بنات الحى يذهب سخطنا وفيض كروس الراح يجلب بسطنا
وإنّ تليد العز نظم سمطنا علونا على خير الظهور وحطنا
لوقت إلى خير البطون نزول

وكل جبال العز تأوي لبابنا وتدنو من الديجور نحو شهابنا
وإنّ جل جذب أمطرت بسحابنا فنحن كماء المزن ما في نصابنا
كهام ولا فينا يُعدّ بخيل

ولكنّ قوماً عرفوا الناس جهلهم بدعوى انتظام الشعر ميتاً بداهم
لنا أن نرد اليوم بالقهر فعلهم وننكر إن شئنا على الناس قوهم
ولا ينكرون القول حين نقول

هصرنا من الكئبان ما هنّ مُيدُ وولنا من الغزلان ما هنّ شردُ
لنا من قريض الشعر ما هو جيد إذا سيّد منا خلا قام سيد
قوول بما قال الكرام فعول

ركضنا إلى العلياء من فوق سابق ورعنا كميّ الخيل من لمع بارق
وما بجلت يوماً يدانا براهق وما خمدت نار لنا دون طارق⁽¹⁾
ولا ذمّنا في النازلين نزيل

فدكت ثغور العز عند بدونا ودكت جبال الفخر عند نمونا
وربعت أسود الغاب عند دنونا وأيامنا مشهورة في عدونا
بها من قراع الدارعين فلول

تناهت وقد أغراها منها دلالها وأحرزها في يوم سلم رجالها

(1) براهق : لعل مراده بمرهق أي بمال باهض .

وعند انقاد الحرب ترى فعالها معودة أن لا تسلّ نصالها
فتغمد حتى يستباح قتيل

دعبي ذكر قوم قد مضوا واركبهم وفوهي بمن غيث الندى جاء منهم
وأما علمت يا خدام بمن هم سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم
فليس سواء عالم وجهول

وهناك تخميس آخر لقصيدة السمؤال بن عاديا المذكورة نسب إلى صاحب
الترجمة أيضاً فلعله خمسها تخميسين ونصه :

بحزم الفتى تكس المجادة أرضه وتثمر ما يقضي به الفضل أرضه
ولا لوم عن لم يل اللوم أضه إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

ومن تصطفيه المكرمات يديها تقدّ له من كل فخر أديها
ومن زاحم الأخطار أفرج غيمها وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليس إلى حسن الثناء سبيل

ونحن تعنى للخطوب وليدنا وليس سوى داعي الحروب يمدنا
وربّ فتاة غم عنها بعيدنا تعيرنا أنا قليل عديدنا
فقلت لها إن الكرام قليل

على أن قول الفصل قد زان قولنا وفينا أسود كلهم صان عدلنا
إذا غاب منهم واحد شمت شبنا وما قلّ من كانت بقاياه مثلنا
شباب تسامى للعلی وكهول

تعاصدنا عزّت به اليوم دارنا ويحمى به بين البرايا ذمارنا
فنحن لعزّ الجار توقد نارنا وما ضرنا أنا قليل وجارنا
عزيزّ وجار الأكثرين ذليل

بنا عز من أمسى ونحن ظهيره فيأويه من كهف المعالي ثبيره
لأننا حاة المستجير نصيره لنا جبل يحتله من نجيره
منيع يردّ الطرف وهو كليل

تكّلل من إكليلنا بشهابه ودعمه منا رسوخ انتسابه

لذلك لما أن حوى أسد غايه رسا أصله فوق الثرى وسما به
إلى النجم فرع لا يُنال تطويل

ألا إنّه ماوى يسرك سره وطال على الأفلاك بالمجد جهره
تفرد في جميع العلا وهو فخره هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره
يعز على من رame ويطول

حميناه حيث السمر تكسوه رهبة لانا إذا ما هبت الريح هبة
فرينا أديم الأرض نسرع رغبة وأنا لقوم لا نرى الموت سبة
إذا ما رآته عامر وسلول

هم جعلوا محياهم غاية المنى ونحن حياة الذكر أطيب عندنا
وحيث عشقنا موة السيف والقنا يقرب حب الموت آجالنا لنا
وتكرهه آجالهم فتطول

علام اتقاء الموت أو بغض وصفه إذا ثار المقتول منا يجلفه
لذا كلنا ما هاب أسباب حتفه وما مات منا سيد حتف أنفه
ولا ظلّ منا حيث مات قتيل

لبسنا دروع اليأس فهي لبوسنا وعند اصطلاء الحرب يزهو عبوسنا
وإن شربت في أخذ ثار كؤوسنا تسيل على حد الظبابة نفوسنا
وليس على غير الظبابة تسيل

نجد بها إن وقت الحرب نذرنا ومغنمنا منها يوقر وفرنا
وحيث سكير الحرب أخلص تبرنا صفونا فلم نكدر وأخلص سرنا
إناث أطابت فرعنا وأصول

ولا حمينا بالقواضب خطنا تهاوت نجوم كي ترصع قرطنا
لأننا الأولى قد منطق الحزم وسطنا علونا على خير الظهور وخطنا
لوقت إلى خير البطون نزول

ونحن إذا جاء الوفود لبابنا تنادوا بخصب في مساق سحابنا
وإن عدّ أهل الفضل بين صحابنا فنحن كماء المزن ما في نصابنا
كهام ولا فينا يعدّ بخيل

ونحن الأولى أفسوا على الأرض طولهم فطال على كل امرئ كان حولهم

ترى فضل من نوفي إليهم عولهم وننكر إن شئنا على الناس قولهم
 ولا ينكرون القول حين نقول
 نقول وسيف الحق فينا مؤيد ونفعل ما حسن الشاء يخلد
 ونحن لآثار الجدود نجدد .. إذا سيد منا نحلا قام سيد
 قوول لما قال الكرام فعول
 لنا ربع عز مُتتَحَى للخلائق يوفون من أعلامه وعد صادق
 فما طارق إلا رأي خير بارق وما خمدت نار لنا دون طارق
 وما ذمنا في النازلين نزيل
 ففري بوفر وافر في هدونا ونترل في يوم الوغى من سمونا
 نقارع إذ رحنا ييمن عدونا وأيامنا مشهورة في عدونا
 بها من قراع الدارعين فلول
 درت أنها بالحرب تالت وصالها وأنا ليوث محزون خصالها
 وكم وقعة منا أبانت فصالها معودة أن لا تسل نصالها
 فتغمد حتى يستباح قتيل
 فإ ربة الخال ادر بالقوم أنهم ثبار وأوثق للكرام ومنهم
 وإن كنت لم تدر ذوي الفضل من هم سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم
 فليس سواء عالم وجهول

هذا ما وقفت عليه من شعر صاحب الترجمة وتضمن تصدير هذا الكتاب من
 العالم المؤرخ السيد محمد بن الخوجه نقلاً عن كبار الشيوخ إنه أي مترجمنا بات من
 جملة الأدباء المنعوتين وأن من شعره في أثناء قصيدة امتدح بها علي باي قوله :
 وتأي القوافي غير باب مديحك وفي مدحك قد ساعد النظم والنثر*

331 - أبو عبد الله الشيخ محمد بن الحاج محمد طريفة الصفاقسي

ولد في سنة ستين ومائتين وألف بصفاقس بلد سلفه ومرض في صباه بالجدري
 فعمي وأودعه والده في المكتب فحفظ القرآن العظيم حفظاً جيداً . ثم جوده على علماء

القراءات ببلده وأخذه بالروايات من طريق الشاطبية وغيرها حتى ختم بالسبع . وكان
حسن الصوت ذكر لي من حضر ختمه أن يومه كان يوماً مشهوداً ، جمع الخاصة
والعامّة واحتفل به إلى الليل . وأخذ شيئاً من العلم عن علماء صفاقس ثم سافر إلى
الحج ، ولما رجع سمّت همته إلى السفر إلى تونس والهجرة إلى جامع الزيتونة لتلقي
العلوم به عن جهايدته . فقدم إليها واقتحم مشقة السفر على عجزه وقطع جميع
العلائق العائقة عن الطلب ، فسكن بمدرسة النخلة بالقشاشين . فكان لا يفارق
الجامع إلا وقت النوم أو إذا أتى بعض شيوخه لأخذ علم . وقد كان يأتي إلى دارنا
للقراءة على والدي أبقاه الله مع جماعة من الطلبة فاختموا عليه هناك جملة من الكتب
في علوم كثيرة أذكر منها : الخطاب على الوراقات في الأصول وشرح السنشوري على
الرحبية في الفرائض والتاودي على لامية الزقاق في الأحكام وشرح الشريف الغرناطي
على الخزرجية في علمي العروض والقوافي وشرح الأمير على غرامي صحيح في علم
المصطلح ولم أحضر معهم لصغري إذ ذاك وقصوري عن قراءة تلك الكتب عدا الأخير
فإني قرأته معهم . ولما أصدر الأمير محمد الصادق باشا ترتيب الجامع الأعظم في
تعاطي العلوم به وجعل اختبار التلامذة كل سنة ، كان صاحب الترجمة ممن جلي في
ميدان الاختبار بالسنة الأولى من إجرائه ، فأبهر السامع واشتهر من يومئذ بالنجاة
وتوجهت إليه هم المرفدين بالإعانة على إتمام مقاصده من التحصيل ، فأجريت إليه
إعانة من أحباس بلده . فكان مما قرأ الدردير على المختصر الخليلي والنووي على صحيح
مسلم وابن عقيل على الألفية على سيدي الوالد بجامع الزيتونة وجملة من تفسير
البيضاوي على عم والدي الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد النيفر وجملة من الأشموني
على الخلاصة والمطول على الشيخ أبي النجاة سيدي سالم بوحاجب والكبرى وجملة
من المواقف على الشيخ أبي حفص سيدي عمر بن الشيخ وغيرهم من أعيان العلماء .
ولما حصل على رتبة التطويح أقرأ بالجامع الأعظم كتباً . وفي سنة ثمان وتسعين ومائتين
وألف ، لما عزم على الإياب إلى بلده ، أولاه الأمير محمد الصادق باشا مفتياً ببلده
صفاقس فرجع قرير العين فانتفعت به أهالي بلده فأقرأ وأفاد وأفتى إملاء ومع ما كان
عليه من المشاركة في العلوم العقلية والنقلية . كان أديباً جيّد الشعر والنثر ، لا يقنع إذا
كتب منها بالتر ، فإذا قال أطال لكن مع الإسناع ، بما تلتدّ به الأسماع ، ولا ثمّله
الطباع ، وسنورد من صناعته ، ما يقضي له على مزاحميه بالتيه ، ويشهد بطول

باعه ، وفصاحة يراعه ، ولا زال في أوجه ، وتواصل عروجه ، إلى أن تبي
الداعي ، محمود الأثر مشكور المساعي . وله شعر كثير لو جمع كان ديواناً كبيراً
ومجموعة فتاوى نظمها من محرراته مدة مباشرته الإفتاء . وكانت وفاته في رجب سنة
1323هـ ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف ببلده صفاقس ، وبها دفن . فمن نثره وشعره ما
كاتب به سيدي الوالد أبقاه الله في 18 محرم سنة 1307هـ ، ونصّه بعد الحمد لله
والصلاة والسلام على النبي :

يا ليت شعري ما يكون جوابي عن واحد الأعصار والأحقاب
إن قيل لي ما مجده ما فخره ما فضله المعبي حجا الحساب

ليس في المقال ، إلا أن يقال ، هو فخر الأكابر ، الذي يعز وجود مثله ، وبحر
الجواهر ، الذي لا يحاكي في جوده وبذله . زينة هذا القطر ، وحلية ذلك المصر .
صاحب العلم اللدني ، ومالك التونسي لا المدني . قطب دائرة المعارف ومركزها ،
وحاثر قصبات السبق فيها ومحرزها ، المجلي في ميدانها ، والمتألي على أن لا يرجع بدون
غلبة فرسانها . ذو المجد القديم ، والجود الذي هو للبشاشة نديم ، التالي لسان تبرزه
على كل ذي علم وتعليم ، وفوق كل ذي علم عليم . ذلك البدر الأزهر ، الحائر من
كل كمال الحظ الأوفر . مولاي وأستاذي ، وملجئي وملاذي . أبو الشذا ، الذي
أصبح ذكره لروحي غذا . الشيخ سيدي الحاج محمد الطيب النيفر لا زالت مآثره على
الألسنة منقولة ، وهي على أجناس المفاخر مقولة :

يا كتابي بالله سلّم عليه ثم قبل بعد السلام يديه
تم عرفه أن شوقي إليه طار من أجله علي المنام
وإذا فزت بالحلول الجميل في يدي ذلك الإمام الجليل
فلتحدثه عن فؤادي العليل بدلاً عن في فيه احتشام

أما بعد فأقول ، وإن كان شوقي وراء المقول :

يميناً بما ضمّ المصلّي وما حوت يمينك من يُمن إليه أتوق
وما فيك من سر حبتك بنيله رحاب مني إني إليك مشوق

ثم تيقن واعلم ، يا أيها الملاذ الأعظم ، والمعاذ الأعصم ، إنكم أدام الله رعاية

جنابكم ، قد أنقلتم كاهلي بديع كتابكم ، الذي جرّ ذيل النسيان ، على سحبان ،
 وأعجز بفصاحته كل لسان ، من كل إنسان ، وبني لي من المفاخر بيتاً ، وأحياني بعد
 ما كنت ميتاً ، كيف لا وقد وافاني ، بما به شفاني ، وأرقصني وأزهاني ، بما به
 أغناني ، من ظريف المعاني ، وأطرب جناني ، بما به غناني ، من لطيف المباني ،
 وجاد علي بالأمان ، حتى تناولت بيناني ، مع بعد مكاني ، ما كنت أملته من
 روضكم العرفاني ، فأقسم بالله جهد أيماني ، أن مكتوبكم ما له من ثاني ، قد
 أرقص وأطرب ، وأعرب وأعرب ، وأجاد وجاد ، بما فوق المراد ، وجمع من
 الدرر ، ما لم يكن جمعه في طاقة بشر . فيا له من كتاب ، سحر الألباب ، ولما
 نشرت طيه ، وشغلت به عن دعد ومية ، الفتيه بعد نشر طيه جنة المأوى . وما كنت
 أحسب أن اللجنة تنشر وتطوى ، وهي مونة الرياض ، مغدقة الحياض ، مخضرة
 الغياض ، قد احتوت على ما لا تصفه الألسن ، وفيها ما تشبيهه الأنفس وتلذ
 الأعين . ومما زاد مكتوبكم ابتهاجاً وحسناً ، ورقاه في عين كل مطالع المقام الأسنى ،
 ما ألبستموه من حلل التواضع ، الذي نسجته يد كمالكم المشتهر في جميع المواضع ،
 وإلا فهو الدليل الأتم ، على أن القلم ما قال قط نعم ، إلا حين دعاه جنابك ، وعلم
 أنه من الآلات منابك ، وبالجملة فإن ما حصل لي بمكتوبكم من السرور ، لا تسع
 بيانه هذه السطور . غير أنه لما نفخ في نار أشواق ، بنفثاتكم التي زادت في التهاوي
 واحترافي ، كادت النفس تفيض ، والعين من كثرة البكاء تفيض . فقلت لها أوما
 نبيتك عن الكتابة ، وعرفتك أنها توقد نار الشوق وتثير التهايه . فزفرت زفرة أمطرت
 بها من سماء عيوني وابلاً ورذاذاً ، حتى خلت أني قد غلوت جذاذاً . وقلت : يا
 ليني متّ قبل هذا . ثم جعلت أرقبها ، محافظة على رمتي باقيا . فقالت : دع عنك
 الرقى ، فالمت مع حب هذا خير من البقا . فرد ضد المكتوب ، وضمنه قصيدة
 ترضي المحبوب . ولتكن من البحر المخلع ، لتدل على أنك بالمحبوب مولع . فما وسعني
 إلا امثال أمرها ، مخافة الزيادة في انقاد جمرها . فقلت مخاطباً لرفيع جنابكم ، بما
 يقتضي التشكي من بديع كتابكم :

كتابكم هيج الغراما وزاد في ناره اضطراما
 وكاد يفضي إلى هلاكي لو لم يكن يحمل السلاما
 أكرم به من كتاب ودّ أبرز منشوره نظاما

ذكرني منك كل وصف	كنت به قبل مستهما
ككونك اليوم للمعالي	أنموذجاً ضمها انضماما
وكونك المحتوي علوماً	تطفئ للظامئ الأواما
وكونك الواضح المزايا	وكونك الحافظ الذماما
وكونك الكثر للبرايا	والعمدة القدوة الإماما
وكونك المبرز الخفايا	أجلى من البدر ان تسامى
وكونك المطرز الجلايا	بما به تحسن انتظاما
وكونك النيفر المسمى	بالطيب الفائق الأناما
الذهب الخالص المصقى	من نسل قوم غدوا كراما
فهو الشريف الأصول لكن	له فروع سموا فخاماً
محيي صنوف العلوم طرا	من بعدما قد غدت رماما
ومحطر روضها بغيث	من فهمه المنجمل الغماما
وملقح زهرها بنفث	من ريقه المبرئ السقاما
فيا ملاذ الورى ويا من	أورثني حبه الهياما
قد طالما قد فطمت نفسي	عنكم فلم تستطع فطاماً
وكم تسليت عن هواكم	بمن سواكم فما استقاما
ما أن تناسيت منك وصفاً	إلا تخيلته مناماً
ولا توهمت منك قرباً	إلا ولت النوى ملاماً
ولا ذكرت الوصال يوماً	إلا شتبت الفراق عاماً
ولا تفكرت فيك إلا	أقول يا حسرتي على ما

هذا والمرجو من المولى الكريم ، بنبيه العظيم ، أن يَمُنَّ علينا بساعة توهي للبين ما بناه ، وتوهن البعاد وما جناه :

ساعة الوصل لو تأتت إلينا	لغدت أنفس النفيس لدينا
أسأل الله أن يَمُنَّ بها لي	ولكم والزمان مغض علينا

كما نرجو منه سبحانه ، أن يوالي عليكم فضله وإحسانه ، وأن يجعلكم من الذين سعدوا وأسعدوا ، وعلى بساط العزّ قعدوا وأقعدوا ، ومن الذين إذا سبقوا حازوا ،

وإذا وردوا على الصراط جازوا ، وإذا وقفوا بين يدي الله فازوا ، حرره إليكم الداعي ببقاء حضرتكم الشريفة ، ابنكم محمد طريفة . الخ . ومنه ما كاتبني به مهتأ ومؤرخاً ازدياد ابني محمد العزيز ونصه : بعد فاتحته أسعد الله مقام الجناب العالي ، والجوهر النفيس الغالي ، مقام الصديق الودود ، الذي له في سماء الودّ أجمل صعود . الفائق في عرفانه ، على جميع أقرانه . قديم الودّ ، وعديم الندّ ، وجميل الأوصاف ، وسليل الأشراف ، وعليّ الهمم ، وزكيّ الشيم . ذلك الماجد العالم . والناثر الناظم ، الكوكب الأزهر ، بل البدر الأنور ، ابني وصديقي ، ونتيجة القطر الإفريقي ، أبو عبد الله الشيخ سيدي محمد النيفر ، أدام الله سروره ، وأظهر فضله ، ويسر أموره ، وحفظ نجله . أما بعد إهداء تحية يشرق الكون سناها ، ويعطر الجو شذاها . فإنه قد بلغتني ما أقرتني العيون ، وأرقصني بعد الركون إلى السكون ، من ازدياد نجلكم الميمون ، المحفوظ إن شاء الله من كل شرّ كان أو يكون ، ومن كل ما يخطر بالظنون . وما حصل لي من الفرح بازدياد هذا الغلام ، فما لا تسعه الطروس ولا تقي به الأقلام . فالحمد لله الذي جاد به وأنعم ، وملاً القلوب من السرور به وأفعم ، حمداً يكون له به حرز من الشيطان ، وكتر من العرفان ، وأمن من الفتن ، ويؤمن يشيع به ذكره إن شاء الله في كل وطن . وها أنا أهنيكم بازدياده ، كما أهني به الأحياء والأموات من أجداده . وأما أنا فقد اثنت نفسي على جميعكم في هذا الهناء ، وقد أرخت ولادته وإن كنت على غاية من الشواغل ، التي أنا فيها واغل . راجياً من الكبير المتعالي ، أن يحقق له ما اقتضاه فألي ، وأن يصدق فيه مقال .

سُحِبَ العوارف قد أسالت وبلها	وشذا المعارف قد تَضَوَّع قبلها
وعرائس الأفراح نحوي أقبلت	ترمي على الأتراح عندي نبلها
غنت بيزمار السرور بساخلي	طرباً وقد ضربت بها لي طبلها
فرحاً بمولود كريم . ماجد	حاز المفاخر كلهن وفضلها
من والد عن والد عن والد	هم خير سلسلة أجادوا صقلها
وأنا أرى هذا الغلام يزينا	ويزيد فيها ما يحسن شكلها
أكرم به من طلعة ميمونة	جاءت لتجمع للمكارم شملها
فبها أهني النفس مني أنها	كانت أحق بها وكانت أهلها
لم لا وكيف وإنه ابن الذي	أضحت تراه الروح مني نسلها

فاهناً به يا والداً لجنابه فلقد منحت من السعود أجلها
 واهناً به يا جده وأنله من تلك الشفاه بكل سر تفلها
 واعلم بأنك إن تفلت فتحت من ذاك الفتى بالعلم والحكم اللها
 واجزم بذلك وأيقنته ولا تقل في قدرة المولى الكريم لعلها
 وابشر وقل فيه وأنت مؤرخ : ولدي الذي يجي المعارف كلها
 56 422 38 741 50

سنة 1307هـ

هذا والمرجو من الله الذي لا ربّ سواه ، أن يحفظه وجدّه وأباه ، وأن يمنح
 كلامنا مأموله ومناه ، وأن يتحف جميعنا برضاه ، يوم نلقاه ، بجاه نبيه ومصطفاه ،
 صلى الله عليه وعلى آله ، ما دام جنابكم على حال كماله . حرّره إليكم الداعي
 برفيقكم كل مرتبة شريفة ، خديم العلم وأهله محمد طريفة . أخذ الله بيد الجميع ، إلى
 ما فيه حسن الصنيع . وكتب في 26 شوال سنة 1307هـ سبع وثلاثمائة وألف وشهر
 المكتوب هو الشهر الذي ولد فيه ابني المذكور في أوائله .

ومن ذلك ما كاتبني به مهنتاً بخطة التدريس بالجامع الأعظم ثراً وشعراً . ونصّ
 ذلك بعد فاتحته الجناب الذي لا زالت تتشرف به المراتب ، وتشوّق إليه المناصب .
 جناب الابن الروحي ، الذي لم يزل ذكر محاسنه غبوتي وصبوحي . فاتح حصون
 المعارف بجيوش إفهامه ، والمرتب لسما عزاها بسلم اعتنائه واهتمامه . فهو الفائق في
 عرفانه ، على جميع أقرانه ، قديم الوداد ، وعديم الأنداد ، وكريم الأبناء والأجداد .
 ذلك السيد الغطريف ، الغني فضله عن التعريف ، الجهيد العالم : وجامع المكارم ،
 أبو عبدالله الشيخ سيدي محمد النيفر الشريف لا زالت شمس سعوده في درج
 المراتب طالعة ، وبدور محاسنه في فلك المناصب ساطعة . أما بعد إهداء أتمّ التحيات
 وأزكاها ، وأبركها وأنماها ، إلى جنابكم السعيد ، المهني بموسم العيد ، وبالمنصب
 المبارك الجديد ، فإني ما زلت على بساط الثناء عليكم متقلّباً . ولما يسرني من
 أخباركم متطلباً ، حتى بلغني عنكم ما أذهب عني الأحران ، وأطرب مني الجنان .
 وقال للفرح كن فيه فكان ، من ولاية جنابكم خطة التدريس ، التي ارتفعت بكم
 على أرفع من عرش بلقيس ، وأصبحت بكم تنادي ، هلموا إلى هذا النادي ، فقد

حان وقت العلم وبدا ، وظهر مصباح الفهم والهدى . فكأنني بها وقد لبث الناس
دعواها ، واقتسبوا من مصباح هداها . فيا لها من نعمة لا يقدر قدرها ، ولا يستطيع
شكرها ، قد أيقظت جفون أفرحي ، بعدما أخذت في النعاس ، وأحيت رسوم
مسراتي بعدما قاربت الإندراس . فإن خبر ولايتكم الميمونة قد وافى إليّ ، عقب
سرور كان عندي بختان ابنيّ . وبينما أنا آخذ في تناسيه ، إذ رجع بدره عن تماسيه ،
حتى توسط في سماء التهاني . ثم خصّني بالخطاب وناداني ، وقال لي أين أنت من
موجب السرور ، ومثير الابتهاج والحبور . فقلت له وما هو . فقال ها هو إن أكبر
أبناءك ، وأجدر من تبلغ لأجله غايات هناءك ، قد استوى على منصة التدريس ،
وسيصعد بعده كل مقام علي نفيس . فقلت لعلك تعني الآخذ من كل فن الحظ
440 10 181 50 81 450

سنة 1312هـ

الأوفر ، أبا عبد الله الشيخ سيدي محمد النيفر . فقال : وهل غيره يذكر ، ويتقدّم
للامتحان ويظفر . فحدث عندي إذ ذاك من السرور ، أضعاف ما كان منه عندي
بالختان المذكور . فما علمت أي سررت في عام مرتين فضلاً عن مرات ، إلا في هذا
العام الذي استحق أن أسميه عام المسرات . ولو لم يكن فيه إلا سرورنا بترقيكم إلى
منصب تدريس العلم ، لكان ذلك كافياً بتسميته بهذا الاسم ، فلا بأس أن يسميه
بذلك كل من كان متشوّفاً لدرس جنابكم العلي ويقول في تسميته مؤرخاً :
عام السرور بالمعارف لي . هذا ولما طرق خبر ولايتكم مسامعي ، وهشت به في جميع
40 424 737 111

سنة 1312هـ

بجامعي ، حملني الفرح بولاية جنابكم الكريم ، على أن أنشأت القصيدة التي تصل
إليكم صحبة هذا الرقيم . أداء لما يجب لكم عليّ من الحقوق فتقبّلوها بالترحيب ،
وقولوا أهلاً وسهلاً بابنة فكر الحبيب . ولا تظنّوا أنني أخرت مكاتبتكم إلى هذا
الأوان ، لتغافل أو نسيان ، بل لقلة الإمكان ، وعدم مساعدة الزمان . فإني والله في
أثقال ، من الأشغال ، وفي إمقات ، من ضيق الأوقات . ولولا ذلك لوردت
عليكم مكاتباتي ، في كل جمعة تأتي . لكنني أظن أن ما أجده من حرّ الأشواق ، لا
ينظني إلا بالتلاق . فترجو من الله أن يمنّ علينا بساعة تجمع مئاً ما تنافي ، ويكون

جميعنا فيها مسروراً معافى . كما نرجو منه أن يديم لكم التعالي ، في رتب المعالي ،
 ويمنحكم التسامي ، على كل سامي ، بجاه نبينا التهامي ، صلى الله وسلم عليه ،
 وعلى آله وأصحابه ومحبيه . حرره إليكم الداعي بيقائكم في ظل عيش وريف ،
 الحاج محمد طريفة المفتي الشريف . أخذ الله بيد الجميع ، إلى ما فيه حسن الصنيع .
 في 13 ذي الحجة ختام سنة 1312هـ . ونص القصيدة المشار إليها :

عهدي بأن خرائد العرفان	حجبت بخدر العز منذ زمان
ما بالها برزت تدل بدلتها	عنها وتطلب صحبة الأخدان
ولعلها لما رأت أكفاءها	عجزوا عن الصدقات والأثمان
صدقاتها صدق المرید وقلبا	تلقيه في زمن من الأزمان
لكن همة من علا أوج العلي	جادت بها كرمأ لكل معاني
فغدا بمهر الامتحان ينبلها	حظاً بها من سائر الإخوان
هو من علا في العلم عن أترابه	وسما بهمته على الأقران
هو من عنى بالمكرمات وجمعها	متعوداً ما اعتاده الأبوان
هو من بألبان المعارف والهدى	غذته وهو بمهده ثديان
نجل الامام الطيب الفذ الذي	ما نخت في دهري له من ثان
النير النفار من أن لا يرى	سور الشريعة قائم البنيان
ماضي الغرائم ما نبت عن مقصد	كلا ولا كلت من التبيان
قاضي قضاة الوقت إلا أنه	أقضاهم بالعدل والإحسان
نجم الفهوم وبدرها بل شمسها	غيث العلوم الهاطل الهتان
كشاف صعب المشكلات جميعها	من كل ما استعصى على الأذهان
مصباح ليل الغامضات بأسرها	مفتاح كثر جواهر العرفان
فهو الذي سارت أحاديث الثنا	عن مجده مع سائر الركبان
وغدت صنوف العلم تشكر صنعه	لما لها أضحي حليف بيان
وأبان من أبنائه لبيانها	أيضاً فتى فاق الملا بمعان
علم ولكن التقى هو أسه	حلم ولكن لم يشب بهوان
فهم ولكن الخفايا عنده	تحكي الجلايا بل هما سبان
عهد ولكن الوفاء حليفه	فها لديه ليس يفترقان

وذَ ولكن الصفاء حريسه
 فلك المهيمن من همام قد حوى
 وفصاحة وبلاغة وبراعة
 يا أيها الفذ الذي آياته
 إني سررت بما منحت من العلى
 لا غرو أن الأبُّ يفرح إن علت
 فبكم نهي خطة التدريس إذ
 فاهناً بها يا ابن الكرام فأنتم
 وابشر بنبيلك أجراها يوم الجزا
 واعلم بأنك مرتق من بعدها
 وإليك مني يا ابن قلبي غادة
 عربية قد أعربت عن فضلكم
 وتزيّنت من مدحكيم بأساور
 وافت تهنيتكم بأشرف منصب
 وأنت مبشرة بعلمكم الأولى
 ولهم غدت تروي أحاديث الهدى
 وتقول في تاريخه: فوزو بدر
 506 99

من أن يناط بموجب النقصان
 فخرأً وقدرأً ليس بالمتداني
 جرّت ردا النسيان عن سبحان
 قد أصبحت تتلى بكل لسان
 وطربت حتى صرت كالنشوان
 أبناؤه وسمت على الأقران
 بكم تقر لأهلها العينان
 أهل لها بشهادة الأعيان
 لما تكون بكفة الميزان
 رتباً تبين لكم كمال تهان
 ترنو بطرف ساحر فتان
 وكما لكم نطقاً بنحير لسان
 وخلخل وجواهر وجمان
 فزتم به عن سائر الأقران
 طلبوه وارقبوه منذ زمان
 عن درسكم لدقائق العرفان
 س الأورع ابن الطيب الرباني
 294 52 53 308

سنة 1312هـ

ومنه مهتأ لسيدي الوالد أبقاه الله بخطة قضاء الجماعة ونصها :

أقول من الأفراح الله أكبر
 وأنسى بأنس اليوم وحشة أمسه
 ومن غاب عنه البدر ثم تطلعت
 ومن فاته غيث وواقاه سيله
 ومن كان ذا فخر بقااض وقد مضى
 هو الطيب الحبر الذي قد حوى العلى
 وأهو عن الأتراح طراً وأصبر
 وأحمد مولانا عليه وأشكر
 صباحاً عليه الشمس لا يتحير
 فليس له عذر إذا يتضجر
 فها بأخيه اليوم يزهو ويفخر
 ولا عجب فيما حوى وهو نيفر

وما فوقه في المجد من هو أكبر
مآثره كالشمس بل هي أنور
طيب إلى كسر القلوب مجبر
أسوف عن الخيرات إن هي تعسر
ولكنه للمشكلات محرر
ومجلسه نور اخداية يثمر
بكل شذا يحكيه ورد وعبر
بكل شذا يحكيه مسك وعبر
بكل عبير من شذا العطر أعطر
تتي تتي ناقد متبصر
فا عسر إلا لديه ميسر
بحوراً من العرفان فيهن جوهر
فكم من عويص يختني وهو يظهر
فقل للذي إن شاء ينكر ينكر
تسامت وبالمجد النبيئي شهر
إذا ما عددت الأتقيا يتخضر
وكان ولي الله يخشى ويحذر
ويرجى لدى الإمقات أيضاً فينصر
ويشني به من كل ما منه يضجر
ويعطي أمانيه فيرجع يشكر
همام ذكي الفصل شهم موقر
صحائفه فاعجب خا وهي تنشر
وأحيته مع طول اندي وهو مقبر
يزيد اسمه طيباً إذا ما يكرر
من الدرّ فيما قد علمت لأنضر
من البحر فيما صحّ عندي لأزخر
بكل سؤال قد بدا يتنور

هو الأجد السامي على كل ماجد
هو الأوحى الفذ الجليل الذي بدت
طيب لفعل الصالحات حبيبها
عطوف لدى الخيرات عمن له التجي
ليب أريب للمعارف جامع
يفيد نفيس العلم في كل مجلس
تراه كروض راق نمت زهوره
تراه كروض فاح لمت زهوره
تراه كروض طاب نمت زهوره
إمام همام ماجد متعفف
فأنهامه للمغلقات مفاتيح
وأقلامه مها جرت فجرت لنا
وآراؤه للغامضات زيارج
وآلاؤه بين الآنام ظواهر
أليس هو ابن المتقى من سلالة
أليس هو ابن المرتضى العلم الذي
أليس هو ابن المرتضى رتب العلي
ويرجى لدى الفاقات طراً كما حكوا
ويكفي الذي آوى لباب جنابه
ويحظى بما يرجو من العلم والندى
إمام زكي الأصل قد معظم
محمد الخبر الأبر الذي انطوت
بذكر مزاياه التي قد سمت به
وأعظمها هذا الهام الذي غدا
ولا عيب فيه غير أن كلامه
ولا عيب فيه غير أن يمينه
ولا عيب فيه غير أن جبينه

بأحكامها ينهي الآنام ويأمر
 ألا من له حقّ به اليوم يظفر
 على كل ذي ظلم بما عنه يزجر
 نفائس أحكام بها القطر يعمر
 كأن لم ترع بالأمس والوجه أصفر
 بإلزامها ما منه تأبى وتنفر
 ومن سار فيه قلماً يتحير
 وفي عيشة حسناء لا تتكدر
 وأنت بأنجال كرام توزر
 بهذا دعاء للبقاء مقرر
 تفوح عليها من مديحك أعطر
 بميزمار ولدان المباني تزمّر
 حباكم بها من هو للخير مصدر
 ومن كفه مزن المعارف يطر
 فقلت لهم لا لا إذ البحر يجزر
 فقلت لهم لا لا إذ المزن يفتّر
 وإني على تشبيهه لست أقدر
 وجسم من الجود الحقيقي مصوّر
 كفانا ولم نطلب دليلاً يقرر
 إلى أن غدت فوق السما تتبختر
 ومن هو أولى بالحقوق وأجلر
 وحق النبي فيما تسر وتبهر
 بك الحق يبدو يا وفيّ ويظهر
 22 139 22 107 1021

سنة 1311هـ

به زادت السمحاء حسناً وقد غدا
 وتنادي لسان الحال منها على الورى
 فهذا إمام العدل قد قام قاضياً
 وأصبح يبدي من شريعة جده
 وعادت به الخضراء خضرا مريعة
 لك الله من قاض على النفس قد قضى
 وأضحى على طرق التصوف سيره
 قدم سيدي في عزة ومهابة
 وفي نعمة تبقيك مغتبطاً بها
 وفي همة تعلو ولكن دعاؤنا
 وخذ لك من صدق الوداد خريدة
 وتحملها حور المعاني إليكم
 أتتكم تهنيتكم بأشرف خطوة
 أمير سيمر للمعارف والهدى
 وقد قيل إن البحر يشبه كفه
 فقالوا هل المزن الهطول شبيها
 فقالوا بماذا قلت إني عاجز
 كفى فيه قولي هو ذات من الهدى
 ولو لم يكن فيه سوى جوده بكم
 فكم بعروس الشرع أبدى اعتناءه
 وقد جال منه الفكر فيمن ينيلها
 ولما رأى منك الوفاء بحقه
 جباها بكم فضلاً وقال مؤرخاً:

ومنه ما كاتب به سيدي الوالد أبقاه الله معزياً في والدته الماجدة الصالحة خديجة
 ابنة الماجد الوجيه الحاج حميدة عزيز ونصه :

الجناب الذي نرجو من الله بقاء حياته ، وسلامة ذاته ، جناب من رفع الله به من الشريعة منارها ، وأطلع به نهارها ، وأتبع به أنهارها ، وأينع به ثمارها ، وفتح به أزهارها ، وضوّع به أعطارها ، قطب الدائرة السنية ، وقاضي الجماعة المحمدية . موضع الخفيات بمحاسن تقريره ، وموشح الجليات بجواهر تعبيره . سليل الأشراف ، وخليل الإنصاف . جامع جوامع المعقول والمنقول ، وقامع غوامض الفروع والأصول . ذلك البدر الغني عن التعريف ، والبحر الذي لا تحيط بكنهه ما فيه عبارات التوصيف . مولاي وأستاذي ، وملجئي وملاذي . أبو الشذا الشيخ سيدي محمد الطيب النيفر الشريف .

عليه مني سلامٌ يلدُّ مثل كلامه
يحمل وجدي وشوقي إلى عليٍّ مقامه

أما بعد إعادة التحية للتأكيد ، ولتحقيق أداء ما يجب عليّ لجنابكم السعيد ، حتى تكون نائبة عني في تعزية حضرتكم السعيدة ، على تلك السيدة الفقيدة . فإنه قد بلغني منذ أيام ، ما أذهب عني المنام ، واغتممت لأجله غاية الاغتمام . من أن والدة رفيع جنابكم المأمون ، قد اختطفتها يد المنون ، وألقته حيث تقرّ العيون ، وتبين ثمرات النيات والظنون ، ويتميز الأمين من الخوؤون ، ويظهر متصفاً بكان كل ما اتصف ببيكون . برد الله ثراها ، وعرفها فضله وأدارها ، وأناها من الجنة طرفها ، وأسكنها منها غرفها . وما زلت متأسفاً على فقدتها من ذلك الحين ، ولا أسف إلا على الصالحين . حتى تذكرت قول سيدنا محمد النبي ، ليعز المسلمين في مصائبهم المصيبة بي . فرجعت حينئذ إلى الاسترجاع ، والدعاء بما يوجب لها إن شاء الله الانتفاع ، وتسليت عن هذا الأمر ، ببقاء جنابكم الرفيع القدر ، وقلت لا جزع ولا أسف ، والبركة فيمن خلف ، على أن في الضبر مضاعفة الأجر ، والله المسوؤل ، بنبيّه الرسول ، أن يعاملها بإحسان ، وأن يسكنها أعلى فراديس الجنان . هذا وقد خطر ببالي أن أؤرخ وفاة والدة جنابكم العالي . وبينما أنا أفكر في ذلك خاطر ، وأستعمل فيه فكري الكليل القاصر ، إذ هتف لي هاتف حسن ظني ، فيمن قال نبأ عبادي أني ، وهو ينشدني في حق تلك الفقيدة السعيدة بيتاً من الوافر ، يتضمن تاريخ وفاتها بما يشعر أن حظها عند الله وافر . فقال وما أطال :

لأمّ الطيب الأزكى الإمام مقام اليمن في دار السلام

71 52 69 113 181 131 295 402

سنة 1314هـ

فوقع هذا التاريخ موقع الاستحسان مني ، وقلت : جوزيت خيراً يا هاتف
 حسن ظني . ولولا أن أفكاري درستها هموم حوادث الزمان ، وطمستها غموم مكائد
 الأحباب والإخوان ، لجعلت ذلك البيت المتضمن للتاريخ آخر قصيدة ، تتضمن
 رثاء تلك السيدة الفقيده . ولكن لما قصر اللسان عن البيان ، وحيل بين العير
 والتزوان ، جنحت إلى الدعاء وتلاوة القرآن ، وأهديت ثواب ذلك إلى تلك الفقيده
 الرفيعة الشأن ، مجازاة لها حيث كانت سبباً في وجود جنابكم الكريم ، الذي كان
 سبباً في ترقيتي إلى سماء العز والتكريم . وأصعدني إليها في سلم علمه بيد التعليم . ولما
 رأى ما وقع مني على ذلك التاريخ من الاستحسان ، أرفده بثان . وقال لي : اجعله
 على الأول كالبرهان وقل مؤرخاً على لسان الجود والفضل والإحسان : «يا رضوان .

358

افتح أبواب الجنان ، وأنزل أم الطيب أطيب مكان» ، فتضاعف استحساني :

111 22 52 41 94 135 12 489

سنة 1314هـ

عند سماعي لهذا التاريخ الثاني . وقلت : يا هاتف حسن ظني ، لقد أثقلت كاهلي بما
 أدبته من الواجبات عني . فقال : إن شئت أبين منه وأظهر . وأدلل على ما للفقيده
 عند الله من الفوز الأكبر ، والوفاء لأجلها الأوفر . فقال مؤرخاً :

لأمّ الطيب النيفر . وفاء ورضوان من الله أكبر

223 156 353 88 371 52 71

سنة 1314هـ

فقلت كما قال . ودعوت الله تعالى بأن يحقق لها ما نطق به ذلك الفال . وأن
 يخلع عليها خلع القبول والإقبال ، وأن يحسن فيها عزاءكم ، وأن يجزل على مصابكم
 بها جزاءكم ، وأن يجعل البركة فيكم ، وفي كل من يتمي إليكم . وأن لا يريكم
 بعدها ما تكرهونه ، وأن يبلغكم من خيري الدارين ما تأملونه ، وأن يحفظكم بعدها
 من حوادث الليالي والأيام . وأن يبلغكم مع طول العمر ودوام العافية كل مرام . بجاه
 سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وعلى آله الكرام ، وأصحابه المرجو بهم حسن
 الختام . حرره إليكم ، معيد التحية عليكم ، وعلى الكرام الفضلاء بينكم ، الداعي
 ببقائكم في ظل عيش وريف ، ابنكم الروحي الحاج محمد طريفة الشريف ، وفقه

الله وكتب في 8 رمضان المعظم سنة 1314هـ وكانت وفاة الفقيده المذكورة أواخر شعبان من السنة المذكورة . ولتقتصر على ما جلبناه من بدائعه ، ففيه أوضح دليل على عدوية مشاريعه ، ومقدار ما كان له من البضاعة ، في هاته الصناعة ، التي انتقاد له أبيها وأطاعه رحمه الله تعالى . هذا وزيادة في إيضاح ما لهذا العالم الأديب . العبقري من الهمة الشماء في تحصيل العلوم بمختلف أنواعها علاوة على ما سبق ذكره في ترجمته ، أنقل هنا ما سمعته في شأنه من الفاضل الأكمل السيد محمد المنوي بوسن ، وكان ممن أدركه وعرفه معرفة تامة ، أن صاحب الترجمة يتردد على منزلهم لملاقة والديه العالم الفاضل الأكتب الشيخ محمد الطيب بوسن الرئيس لقسم بالوزارة الكبرى التونسية على رأس القرن الرابع عشر الهجري ، وكان من خريجي الجامع الأعظم جامع الزيتونة كعبة الشمال الأفريقي . وكان ممن يحدق علم الفلك والجغرافيا أن صاحب الترجمة كان يزوره بمنزله ليأخذ عنه ما ذكر تطبيقاً على مثال الكرة الأرضية التي نقط جغرافيتها ناتئة في تلك انكرة بارزة ، يزاول قراءتها عليه ، يتتبعان تلك التواءات البارزة بتأملهما ، لأن صاحب الترجمة كان كيف البصر كما سبقت الإشارة إلى ذلك في ترجمته ، فكانت صلة صاحب الترجمة بالمذكور وثيقة ومدحه بعدة قصائد في مناسبات شتى وإن كنت لم أقف عليها .

ومن نثر صاحب الترجمة الذي وقفت عليه مكتوب منه لأستاذه جدتي الشيخ سيدي محمد الطيب النيفر ، ينشوق إليه فيه ويهته بعيد الفطر ونصه بعد فاتحته :
 رعى الله مقام الهام الفاضل والعالم العلامة الكامل مقام شيخنا وأبينا وأعز محيينا قطب دائرة المجد وعزة جبهة السعد الجهيد المتقد والكوكب المتقد مالك زمانه ووحيد عصره وأوانه ، من لم تسمح بمثله الليالي ولم تجنح عن جنبه أشمس المعالي ذي المجد المتائل والرأي المتأصل والود الأصفي والعهد الأوفى شيخنا وقلوتنا وأستاذنا وعمدتنا أبي انشدي سيدي الطيب النيفر أدام الله وجوده وبلغه من الدارين مقصوده . أما بعد ثناء ينوب عن الفاعل ودعاء يفتح به كف السائل ولا تنفك عن قبوله إن شاء الله العوامل ، فإنه قد وافاكم يوم العيد والموسم المبارك السعيد جعله الله عليكم من أسعد الأيام وأبقاكم لمثله في كل عام وحقق فيه آمالكم وحفظكم وأنجالكم مما هو أنجي لكم . وإن سألتني غني فأنا والحمد لله على ما تعهدونه مني لم يجزني إلا بعدكم غني ، فإني ما وجدت صبراً عنكم ولا عمّا كنت أستفيد منكم ، فإني إذا تذكرت حضوري

بدروسكم واقتطافي لثمرات غروسكم ارتعد القلب مني وتقلب وتصعد وتصوب
وعلمت أني قد تورطت وقلت : يا حسرتي على ما فرطت وما زال التفكير يأخذ إليكم
بمجامعي ويسيل مدامعي حتى أطار الشوق إليكم فؤادي وأثار سهادي وأجرى عبراني
وأغرى علي زفراتي ومزق ذاتي وفرق بيني وبين لذاتي وإن كان البحر لا شعور له بمن
غرق فيه والبدر لا خبرة له بمن يُمزقه ويليه فالله بمن علينا بساعة تجمع منا ما تنافي
وتصير لنا فناء كم مطافاً ويكون جميعنا فيها مسروراً معافى . هذا ولا تظن أني أخرت
مكاتبكم إلى هذا الأوان لتغافل أو نسيان بل لقلّة الإمكان وعدم مساعدة الزمان ،
فإنه ما زال يدوسني بأقدامه ويرميني بسهامه ويفتح إليّ فاه ويعضني بشناياه ، حتى
كأنني قتلت أباه . ولولا ما نخشاه من طول الكلام لأخبرتكم بما وقع في هذه الأيام
فترجو من همّتكم التي هي من السيوف أقطع وعزيمتكم التي هي من الغيوث أنفع ،
أن تتوجهوا إلى الله وتتوسلوا إليه بنبيّه صلى الله وسلّم عظيم الجاه في تفريح همي
وذهاب غمي . فإن الرجاء ممدود وفضل الله غير محدود ونطلب منكم رضي الله عنكم
أن لا تنسوني في دعواتكم بخلواتكم ولكم علي مثل ذلك وعلى الله القبول والاعتماد في
نيل كل مأمول ولا يخفى عليكم تبليغ السلام إلى أنجالكم الفضلاء الكرام خصوصاً
الشيخ الفاضل والعالم الكامل الأوحّد الأجدد ابني الأعزّ الأسعد أبي عبد الله الشيخ
سيدي محمد حرس الله جميعهم وإياكم وأدامكم وأبقاكم وحفظكم ورعاكم .
حرره إليكم معيد التحية المشتغل بنشر شمائلكم وبث فضائلكم مقبل يدكم الشريفة
ابنكم محمد طريفة أخذ الله بيد الجميع ويبلغكم السلام من الشيخ الفاضل سيدي
حسن اللوز ومن كاتب الحروف محمد ومن الوالد ومن الحاج سالم عثيمين ودمتم في عزّ
وعافية . وكب في 4 شوال سنة 1298 هـ .

ومن شعر صاحب الترجمة يهنئ الجد حين ختم عليه شرح الأمير علي غرامي
صحيح في مصطلح الحديث هذه القصيدة وهي :

نسيم سرى من عرف درسك شمأل	فحقق لي ما كنت منك أوئل
وأود أشجار العلوم بروضة	وصير أفنان الفنون تميل
وحرك أغصان الأحاديث جلها	ففتق أزهاراً تفوح وتحفل
وبين لي منها الصحيح وضده	ونحوهما مما به أتوصل
وكم كنت أرجو أن أفوز بفهمها	وأحظى بإيضاح لما هو مشكل

وكم رمت إيضاحاً لغامضها فلم
 وها أنت قد أبديت خالص لها
 وأعربت عما كان منها مغلقاً
 وأبرزت من يمّ المعاني فرائداً
 وجردت من غمد الذكاء حسامه
 وحرابت من جهلي جيوشاً تجنّدت
 وعادت إليك المشكلات ظواهرأ
 وفاز الذي قد حاز منك فوائداً
 فيا نعمة الله العظيم انتفاعها
 لكم من خصال الفضل ما عزّحصره
 أما لكم في كل علم دراية
 أما لكم هذا الكتاب قد ازدهى
 فما زلت مقصوداً لكل عويصة
 ولا زلت مسموع الخطاب معظمأ
 ولا زلت في قدر سمي ورفعة
 ومرعيّ أحوال وأهل وشيعة
 ومرحوم آباء كرام وجلة
 ومولانا يوليك الرضاء الذي به
 ويوم الجزا يولي جنابك رتبة
 بجاه النبي الهاشمي الذي به
 عليه مع الصحب الكرام وآله

ومن شعره أيضاً يقرّض شعر الوالد في مبادئ قوله ليشعر رحمها الله :

الآن أصبح درّ نظمك يزدرى
 لا زال جمعك للمعارف سالماً
 بقلائد العقيان يا ابن النيفر
 ومصححاً بالخزم غير مكسر

ومنه يرثي عمّ والدي الشيخ سيدي محمد الطاهر النيفر قاضي الجماعة بقصيدة نصّها :

حذراً من الموت الورود الصادر ومن اغترارك بالزمان الغادر

ما هذه الدنيا بدار مسرة
 لا نطمئن لها ففي إقبالها
 كلا ولا تركزن لزيتها التي
 ما أقبلت يوماً على أربابها
 ما أظهرت وجه النصيحة لامرئ
 ما المرء إن طالت إقامته بها
 فإلى متى هذا الغرور بوعدها
 كم أوهمت أهل الشقا طول البقا
 كم أمنت من أحزنت حتى انثنت
 كم أسكرت من أنكرت حتى جرت
 كم أطمعت من طامع في نيلها
 وعلى المعاصي جرأته بقولها
 حتى إذا ما أنشبت أظفارها
 وغدا على تفريطه متندماً
 فيقال كلا قد مضى العمر الذي
 وأطعت دنياك التي قد طالما
 فأظن أخي لخداعها واحذر إذا
 وأسأل إلهك عصمة من مكرها
 فكفى بها مكرأ إراءتها العنا
 وكفى بها في الدهر غدرأ فتكها
 وهو الإمام الأوحى الحبر الرضا
 النبى القاضى بل الأفضى بل ال
 العالم العلامة القدّ الذي
 الجهد الفهامة العلم الذي
 ذاك الهام المهتدي بعلمه
 ذاك الذي قد كان ذا قدر وذا
 ذاك الذي قد أقنعت أحكامه

بل إنها دار العناء الوافر
 إدبارها لكن كطير طائر
 هي في التخيل كالسراب السائر
 إلا وقد ولت كأمس الدابر
 إلا وأخفت غشها كالماكر
 إلا كطيف أو كضيف زائر
 والوعد منها كاذب في الآخر
 والموت جاء إليهم بعساكر
 لرقابهم ضرباً بسيف بائر
 بهم إلى إسكانهم بمقابر
 وأرته ما هو غائب كالحاضر
 بكفيك ستر من إله سائر
 فيه المنية صاح صيحة حائر
 ويقول هل لي في الورى من ناصر
 أفنيه في زينة وتكاثر
 خدعت وأنت لخدعها كالناكر
 ما قابلتك بحسن وجه سافر
 واصجب أهاليها وكن كالسامري
 بعد هنا كالبحر عند مسافر
 بأجل مأمور وأكمل أمر
 الناسك المدعو باسم الطاهر
 أحظى بل الأرضى بكل منافر
 قد فاق في ذا العصر كل معاصر
 نقلوا حديث كماله بتواتر
 في سائر الأحكام دون تهاثر
 فخر ولكن ليس بالمتفاخر
 إداد كل مجادل ومكاير

مرّت مروز ابن السبيل العابر	أسفي على أيامه البيض التي
هي للغوامض كلها كزياجرجر	أسفي على أيامه الغرّ التي
كانت تجود على الوري بجواهر	أسفي على أقلامه الحسناء التي
ما كان يزري بالخضم الزاخر	يا قبر كيف ضمته وبصدره
ما كان يخجل كل بدر زاهر	يا قبر كيف ضمته ويعقله
ما كان يعجز كل شخص شاعر	يا قبر كيف ضمته وبخلقه
في حرقة تنمو بذكر الذاكر	يا راحلاً عنا وقد أبقيتنا
وتركت تونس في أسي متكائر	قد صرت تونس في المقابر أهلها
لا خاب سعيك سيدي من زاجر	لا خاب سعيك سيدي من أمر
ورأى مكارم فضل ربّ غافر	يا فوزه لما ألمّ برمسه
أضحى يشره بحسن بشائر	فكأنما القبر الذي قد ضمّه
قد ضخمت بشدي مسك عاطر	وكأنما الجنات حين أتى لها
أهلاً وسهلاً بالحبيب الزائر	والحور قلن له وقد عانقته :
بالأمجد الأتقى النقي الطاهر ⁽¹⁾	ويقلن فيه مؤرخاً : يا مرحباً
246 191 542 87 251	

سنة 1311هـ

ومن نثره ونظمه ما خطب به جدي تهنئة له ببناء عمي الشيخ سيدي محمد النيفر الأصغر بابنة عمّ أبيه السيدة فاطمة ابنة عمّ جدي الشيخ سيدي صالح النيفر ونصّه :

الجناب الذي وجبت به للعيد تهنئته وطابت به للمعيدين معيشة وبلهنيته جناب الأب العطوف المعروف بالمعروف ، المبتدأ به في كل خير بالثناء موصوف ، قطب دائرة الكمال وبحر المعارف والنوال ، حسام الشريعة القاطع وزندها اللامع ، سليل الأشراف وتحليل الإنصاف ، ذلك الخضم الذي لا يخاض والذي لا تضاع درره النفيسة ولا تعاض معدن الشرف والتشريف الحاوي من المجد كل تليد وطريف . مولاي وأستاذي وملجئي وملاذي ابو الشذى الشيخ سيدي الحاج محمد الطيب النيفر الشريف القاضي المالكي بالقطر الإفريقي بلّ الله بملاقاته ريقى وحرس من الآفات ساحات جنابه وأدام هناءه وهناءنا به . أما بعد إهداء تحية تروق وتفي بما يجب ، لكم علينا من الحقوق فإنه قد وافاكم عيد الإسلام جعله الله عليكم من أسعد الأيام وأبقاكم لمثله في كل عام وقدر لكم كل مأمول ومرام بجاه سيدنا محمد عليه الصلاة

(1) لعله لم يعد «يا» في التاريخ وإلا كان زائداً .

والسلام وعلى آله وأصحابه الكرام . هذا وقد بلغني ما ملأني سروراً وأطربني ابتهاجاً
 وحبوراً من بناء نجلكم الجليل بابنة المجد الأثيل ، فارجو من الله الكريم بنيه العظيم
 أن يجعل ذلك البناء جالباً للغنى وسالماً للعنى وسبباً للعمران وإفاضة الخير عليكم
 وموجباً للإطمئنان ودوام المسرات لديكم آمين . ولو حملني الفرح والسرور ببناء
 نجلكم المبرور على أن قدمت لجنابكم الرفيع الشأن مراسم التهان بالأبيات التي
 نظامها تهنئة لحضرتكم التي علي إعظامها وهي أبيات ثمان عدد أبواب الجنان تشتمل
 على تاريخ حسن يبشركم ، فإله بتجدد الهناء واستمراره فيما يستقبل من الزمن فقلت
 بلسان الوداد غير موف بعشر معشار ما انطوى عليه الفؤاد وهي :

لجنابكم أنهي أجل تهان	بناء من هو بالحليّة يان
نبت المعارف والعارف والمهدى	والفخر والشرف الرفيع الشأن
ذات المحاسن والكمالات التي	منها تلوح مخائل العمران
يا حسنها من غادة ميمونة	مأمونة الأذبال والأردان
فاهناً بها مولاي وادع لبعليها	بولادة منها ذوي عرفان
وابشر فإن ليمن وافاكم بها	متكفلاً لكم بكل أماني
بيدي لكم ما كنتم ترجونه	منها ومن ذاك الفتى السحباتي
ويقول في تاريخها : يهنيكمو	يُمن البناء لخير نجل ياني
141	100 85 840 83 63

سنة 1312هـ

وما اقتصرنا على هذا إلا مخافة التطويل على جنابكم الجليل لا سيما مع الشواغل
 التي أنا فيها واغل والله المسؤول بنيه الرسول أن يديم لنا بكم الهناء وأن يبلغكم من
 الفضلاء أنجالكم غايات المنى وأن يحفظكم من كل كرب وعنا بجاه من خصّه الله
 بالثناء سيدنا محمد ﷺ وعلى آله ما دام جنابكم على حال كإله . حرّره إليكم معيد
 التحية عليكم الداعي بحفظ مقامكم المنيف ابنكم الروحي الحاج محمد طريفة الشريف
 أخذ الله بيد الجميع إلى ما فيه حسن الصنيع في 12 شهر ذي الحجة الحرام خاتم شهور
 عام 1312هـ اثني عشر وثلاثمائة وألف هـ .

ومن نشره ما خاطب به الوالد بعنوان ملحق بالمكتوب الذي هنأه فيه بولايته
 التدريس من الطبقة الثانية الذي سبق ذكره والمؤرخ في 13 ذي الحجة عام 1312هـ
 ونصّه : إلحاق خير إن شاء الله لا يخفى عليكم قبح ما أشاعته جريدة الزهرة من

الأنخبار افتراء على الشيخ الفاضل سيدي الحاج محمد العذار كما لا يخفى على فهمكم
 المعهود قبح ما نسبته له ولولده الشيخ السيد محمود من المقاصد السيئة التي عللت بها
 سفره المحمود بتلك الألفاظ التي تقشعر منها الجلود ولا يفوه بها إلا حسود، وإني على علم
 لا يقبل الريب بأن ما نسبته لهما إنما هو رجم بالغيب، وأن الشيخ المذكور لم يخطر بباله
 شيء من ذلك الفجور وكفى بكم المطلب الذي أشيع عنه وكيف يعقل طلبه إياه وهو يعلم أن
 بطرفكم مدة ولم يطلب منكم المطلب الذي أشيع عنه وكيف يعقل طلبه إياه وهو يعلم أن
 أباه لم يزل قائماً بأعباء فتواه مرشداً لمن يسترشده ومنجداً لمن يستنجده وما قصد العدو
 بقوله: إن الوظائف لا تستحق بالوراثة إلا الإشارة إلى وصفه بالجهل وعدم الدماثة.
 ولكن يرد هذا القصد الذميمة ما يعلمه والدنا الكريم من نجابة ونباهة المتهم حيث كان
 يأخذ عنه العلوم وحيث فلا يحتاج إلى شهادة مني بواسطة ما أخذه من العلم عني ولا
 يخفى على سني جنابكم أنني ما أعلمت واحداً منهما بهذه العجالة التي حررتها
 لإعلامكم وإنما ساررتكم بها غيرة على مقام العلم الجليل حيث صار لعبة في أيدي
 أصحاب الجرائيل ولا زاجر يزرهم على ازدرائهم بقاء العلم وافتراءهم على أهله بالسنة
 العداء والظلم ولا يخفى على جنابكم الأود أنه لا سبب لما أشاعته هذه الجريدة إلا الحسد
 الكامن في صدور بعض أهل البلد، فإن أناساً منهم يتربون موت الشيخ العذار لا بلغهم
 الله ذلك النهار. وقصدتهم بذلك أن يتولوا مكانه بدون علم وبدون أمانة مع أنهم أبعد عن
 هذا المنصب العالي من القطب الجنوبي عن الشمالي وقصدتهم بذلك أيضاً أن يوقعوا في
 ذهن مولانا الشيخ القاضي قطع الله رقابهم بسيف عدله الماضي. أن درجة الشيخ الحاج
 محمود منحطة عن توليه مثل تلك الخطئة وحاشا أن يقع في ذهنه ما ظنوه أو يبلغ
 الحسود منه ما يرجوه، فترغب منكم جرسكم الله ورقاكم مراقبي ما نتمناه أن تعلموا
 والدنا أدام الله علاه بجميع ما ذكرناه حتى يبقى ذلك في ذهنه ويتأهب في المستقبل إن شاء
 الله إلى تولية ابنه كما نرغب منكم أن تبلغوا سلامنا إليه وتنوبوا عنا في تقبيل الكريمتين
 يديه وتعلموه بأبي له مشتاق وداع له بالإعانة على ما هو لاق وما صدني والله عن
 مكاتبته مع شدة الاشتياق إلى مخاطبته إلا اعتذاركم عنه فيما مضى حين وجهت إليكم
 رثاء الفقيد المرتضى وهناء جنابه الكريم بولايته خطة القضا. من قولكم ما معناه إن الشواغل
 قد عاقته عن مكاتبتي وألجأته إلى استنابتكم في مخاطباتي، ولما أخبرتموني بهذا
 العذر استحييت أن أكتبه بعده بنظم أو نثر وطويت قراطيسي على أقلامي وأعرضت
 عما كنت تحدثني به أوصافي وجعلت أدعو الله تعالى بالإعانة لرفيع جنابه

على ما يرضي به الواقفين ببابه على الله القبول والاعتماد في نيل كل مأمول ا هـ .

وفي هامش البطاقة التي فيها هذا الإلحاق ملحق آخر نصّه : إلحاق خير إن شاء بعد ما كتبت هذا بلقني خبر بناء أخيكم الجليل الفاضل بابنة الأماجد الأفاضل فما تمانكت حتى كاتبته جناب والدنا الرفيع وهنأته بمبارك ذلك الصنيع وأعرضت عما أبدىتموه لي من العذر وقلت : لعل ذلك إنما كان في أول الأمر إذ لا يخفى على بنيه أن الشواغل تكثر فيه وإلا فما كان عمكم المقدس المرحوم ضاعف الله له الأجر بتأخر عن مكاتباتي أكثر من نصف شهر مع أن الشواغل بالنسبة إليهما واحدة كما لا يخفى على حضرتكم التي لا زالت إن شاء الله في درج المعالي صاعدة ا هـ .

ومن نثره أيضاً مخاطباً الشيخ الوالد رحمهما الله في مأرب ضمنه إياه نصّه بعد فاتحته : أسعد الله مقام الجناب العالي والجوهر النفيس العالي سليل الأشراف وجميل الأوصاف وقديم الوداد وعديم الأنداد وكريم الآباء والأجداد . بحر المعارف ومعدنها وبيت العوارف ومسكنها ، نجل أستاذي نسباً وابن روعي أدباً ذلك البحر الأزخر والبدر الأزهر التالي لسان عرفانه على أهل زمانه كم ترك الأكبر للأصغر أبو عبد الله الذي اتخذ قلبي سكناه الشيخ سيدي محمد النيفر لا زال شكله أول الأشكال ونتائج فكره أرسى من الجبال . أما بعد إهداء سلام معرف الماهية في ضمن فرد فلا ينتهي عند السرد ولا يحيط به حد ولا عدّ أطيب أريجاً من الورد وأذكى من المسك والند قضيته بوصف أتميته مشروطة وماهيته بالأشواق إليكم مخلوطة . يوم ذراكم ويروم من حسن الرد قراكم فإن المقصد الأهم من كتبي هذا إليكم هو السؤال عن سني أحوالكم وأحوال الكريمين أخويكم لا زالت إن شاء الله طبق أمانيتكم وطوع أيديكم ، وذلك بعد السؤال عن أحوال أستاذي الذي رباني وملاذي الذي لولا شواغله ما كان ينساني وإن سألوها عتاً فنحن والحمد لله على ما نحبّه ونرضاه غير أنني قلق من طول فراقتي وبعد حجازكم من عراقي ولولا ترادف مرضى بدني وتخالف أغراض بني زماني لما تأخرت عن الملاقاة فيما مضى من الأوقات ، ولما استبدلتها بالورقات وطالما كلفت نفسي التناسي فأبت أن تسمح بذلك أو تناسي ، وأمرتها بالصبر فلم تصبر وسلكت بها مناهج السلوان فلم نعبر وقالت إني على سلو الأحبة لا أقدر ولغير محاسنهم لا أذكر ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ولما لم يفد فيها ما كلفتها به من تناسيها جعلت أعتها وأمنيتها وأصبرها - وأسليها بما سيتلى عليها من مخاطبتكم بعد مكاتبتكم .

وبينما أنا أترصد إذ ذاك مناسبة للمكاتبة وأتمس سبباً لتحصيل تلك المخاطبة إذ طرق
 مسامعي ما هنتت به في جميع مجامعي من أن والدي الروحي الذي لم يزل ذكر مزاياه
 غبوتي وصبوحني قد أنيطت بعهدته خطة القضاء وحصل لها به من الشرف أكثر مما لها
 منه فيما مضى ، فقلت لنفسي : ها هي أوقات المكاتبة قد وصلت وأسبابها قد
 حصلت . فكاتبته إذ ذاك جنابه الرفيع بمكتوب بديع يتضمن تهنتته بالفرض المقصود
 وأصحبته بقصيدة تكمد الحسود وتسرد الودود وفي ظني أني كاتبت إذ ذاك جنابكم
 المبرور بعثل المكتوب المذكور فما كان جوابكم عن المكتوبين إلا السكوت وما كانت
 جائرتي عنها إلا إلقائهما في زوايا البيوت فما وسعني إلا التماس العذر لجنابكم الرفيع
 القدر وبقيت من ذلك التاريخ إلى الآن أترصد مناسبة أخرى لمكاتبة جنابكم الرفيع
 الشأن حتى سمحت إرادة الملك المعبود بزيادة عشرة في عدد الشهود . فظهر لأخي
 الأير السيد الحاج محمد أن ينتظم في عقدهم إذ هو أولى بذلك من جل من انتظم أو
 ينتظم فيه من قبلهم أو من بعدهم . وقد طلب مني أن أكاتب في شأنه جنابكم
 الكريم المفضل حتى تكونوا حفظكم الله منه يبال . فاقترضت هذه المناسبة والحمد لله
 مكاتبة رفيع جنابكم ، وأصبحت النفس مسرورة بحصول ما كانت تترقبه من بديع
 خطابكم فنرجو منكم رعاكم الله ورقاكم مراقي ما نتمناه أن تمنحوا أبحاكم المشار إليه
 حسن الالتفات مما جبلتم عليه من جميل الصفات والله يحفظكم من جميع الآفات
 ويكفيكم كل المخافات ويبلغكم من خيري الدارين ما تؤملونه من الأمنيات بجاه من
 نرجو به من حسن الخاتمة في أبرك الأوقات صلى الله عليه وسلم وعلى آله ما دام جنابكم على حال
 كماله . ثم إني أنهي أتم السلام إلى والدنا الحبر العلامة الإمام وإلى جملة الأبناء الكرام
 والأخوة الفخام حرسهم الله وإياكم وحفظكم ورعاكم . حرره إليكم معيداً التحية
 عليكم الداعي ببقائكم في ظل عيش وريف . والدكم الروحي الحاج محمد طريفة
 الشريف المفتي المالكي بمدينة صفاقس وعملها بلغ الله مهجته من طول بقاءكم غاية
 أملها . وكتب في 26 صفر الخير سنة 1312 هـ .

332 - الأستاذ أبو النخبة شيخنا مصطفى بن علي رضوان التركي الأصل

ولد هذا العالم الجليل بمدينة سوسة سنة 1244هـ . فنشأ تحت رعاية والده المذكور فحفظ القرآن وكان بارع الخط . ثم اشتغل بمبادئ العلوم بسوسة على بعض علمائها المالكية ، وحفظ جملة من المتون العلمية ، وتفقه في مذهب إمام دار الهجرة مالك حتى أنه حفظ جملة من المختصر الخليلي حفظاً لم يذهب منه على طول المدة . فقد كان يسوق عبارة المختصر إذا مست المناسبة في درسه . ولما ظهرت بوارق نجابته ، تآقت نفسه للهجرة لدار العلوم التونسية جامع الزيتونة فرغب من والده الإذن له فساعده وانتقل معه مدة إلى تونس ، وكان قدوم صاحب الترجمة إليها سنة 1260 ، فأخذ العلم عن جهابذة ذلك العصر ، فكان جديّ أبو عبد الله سيدي محمد النيفر يُميّزه على كثير من طلبته لنجابته ويخصّه بمزيد الرعاية . أخبرني رحمه الله أنه لما انتقل بالسكنى إلى داره قرب مدرسة بئر الحجار اختار جملة من تلامذته الأخيار لقراءة صحيح البخاري بها تيمناً ، فكان صاحب الترجمة في مقدمتهم . وقد رأيت نسخة من رسالة القصر التي أملاها جدي المذكور في مسألة ما أنا قلت هذا بخط صاحب الترجمة ، ذكر لي أنه نسخها من خط مؤلفها . وقد كتب على ظاهر أول ورقة منها ما نصّه : رجع اللزّ إلى معدنه فسألته عن قصده بذلك فقال لي : من مكارم أخلاق جدك ومحبة في تلامذته أني لما نسختها قدمتها إليه راجياً أن يتبعها مطالعة لعله يجد فيها إصلاحاً فجازاني بذلك . وكان رحمه الله كلما اجتمعت به يحرضني على أن أترجم لجدي المذكور من قبل أبي وجدي أب والدي أبي إسحاق الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي ، ويقول لي : يجب عليك أن تجمع تاريخ حياتها وما كان لها من المناقب فإني أخشى إن انقضى هذا الجيل يجهل حالها الذي هو فخر الايالة التونسية فتأتي الأجيال من بعدنا فيظنونها بمنزلة غير منزلتها العلمية كما وقع ذلك لكثير من فضلاء هذه البلاد الذين تفتخر بهم ماتوا فلم تدون تراجمهم فانقرض ذكرهم وجهل أمرهم مما هو خسارة عليها وعنوان تفهقر العلم والأدب بها وهو أكبر حامل لابن خالي القاضل البارع الشيخ أبي حفص عمر الرياحي على تأليفه المسمى بتعطير النواحي . وكان الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد ابن الخوجة شيخ الإسلام ينوّه به ، فقد أخبرنا في بعض دروسه بمُناسبة الاعتراف وإعطاء الحقوق لأهلها أنه كان سأله في درسه وكان

بحث صاحب الترجمة مع شيخه وجيهاً سلّمه الشيخ ابن الخوجة وصحّحه ، ثم من
الغد لما اجتمع التلامذة للدرس قال له بمرأى منهم ومسمع : يا وندي لا أغمصك
حقك إن البحث الذي أوردته علي بالأمس ذكره الكمال ابن الهمام ويكفيك فخراً أن
يوافقك ابن الهمام ولما لاحت عليه مخائل التحصيل رام أن يعرف بنفسه عامل بلده
الوزير محمد خزندار فامتدحه بأبيات وكتبها بخطه الجميل وقدمها إليه ، فلما عرفه سرّ به
وتقرّس فضله واستجلبه وسعى له في ولاية خطة العدالة فوليا سنة 1262 هـ وهي أول
خطة يستتم ذروتها أهل العلم ، ثم رغب منه الوزير المذكور في الكتابة عنه ، فأجابته
على شرط بقاته في طلب العلم ، فكان يأتي دار الوزير المذكور لمباشرة أعماله في غير
أوقات دروسه فكانت له مع الوزير المذكور أواصر ودية وثيقة . ولما وجّه الأمير أحمد
باشا الوزير المذكور للدولة العلية للمفاوضة في شأن توجيه العساكر التونسية إعانة في
حرب القرم وإحضار ما يلزم لهم ، اختار صاحب الترجمة للسفر معه بدل كاتب من
الدولة فسافر معه ، ولما عاد إلى الحضرة التونسية وتولّى الأمير محمد باشا الإمارة
التونسية أعيد الوزير المذكور إلى اسلامبول للإتيان بالفرمان والخلعة للأمير علي العادة
أصبح صاحب الترجمة معه بصفته آنفاً ، وكان ذلك سنة 1271 هـ . وأخبرني رحمه
الله أنه أثناء إقامتها بدار الخلافة في انتظار الفرمان والخلعة السلطانية أتى إلى الوزير
المذكور مكتوب من الوزير الأكبر بتونس أبي النخبة مصطفى خزندار يتضمّن الحثّ
على قضاء الغرض والقدوم ، وإن الأمير محمد باشا ولد له مولود سمّي محمد الناصر
تفاؤلاً به ، قلت وهو أمير البلاد اليوم أيده الله تعالى . ويتضمّن أن السكة التونسية
نظراً لما داخلها من النقص والغش في دولة الأمير سلفه حتى أفضى بها إلى السقوط
وأصبحت سوقاً لتجارة الأجانب وطريقاً لاختلاس أموال المملكة . تلافى الأمير أمرها
وصحّحها وقطع مورد الأرباح فيها ووضع بأحد وجهيها اسمه بصفة ضمان على جودتها
وعيارها ، قلت : وهذا منه تمكّص مما عسى أن يطرق سمع الدولة العثمانية مما لا تزال
تهم به الأمراء التونسيين من سعيهم وراء الاستبداد على السلطنة وهو ما لم يفعله أحد
قبله من الأمراء الحسينيين ولو أحمد باشا . وقد حصل صاحب الترجمة على النيشان
انجيدي الجمول افتخاراً للخدمة الحربية سنة 1272 هـ ، ثم إن صاحب الترجمة سافر مع
الوزير محمد المذكور بصفة كاتب أول لما ولي علي الأعراض ولقبه المشير محمد باشا
بأمير الأعراض وجّهت معه محلة من العسكر النظامي والمخازنية والمزارقية لطرده المدعو

غومه الطرابلسي المحمودي من قبيلة الحاميد عرب طرابلس الثائر على الدولة العثمانية بولاية طرابلس . وقد كانت الدولة العثمانية جلبته إلى أسلامبول فهرب منها والتجأ إلى الأعراض من الأيالة التونسية ، فأتمّ الوزير المذكور أعماله كما تروم الدولة . ثم إن صاحب الترجمة انقطع بكليته إلى العلم وملازمة رياض الجامع الزيتوني من سنة 1281هـ فولي خطة مدرس حنفي من الطبقة الثانية به سنة 1285هـ . وفي سنة 1286هـ ترقى بالمناظرة مع الشيخ أبي الثنا محمود بيرم إلى خطة مدرس حنفي بالجامع المذكور من الطبقة الأولى ثم انتخبه الوزير خير الدين كاتباً بالكمسيون المالي لما ولي رئاسته سنة 1286هـ ثالث ثلاثة . وفي سنة 1287هـ توفي رئيس الكتبة المذكورين فولي صاحب الترجمة الرئاسة . وفي سنة 1291هـ عيّن عضواً في مجلس ترتيب الدروس للجامع الأعظم وتأليف قانونه وشارك في سائر القوانين التي أبرزها الوزير خير الدين مدة وزارته . وفي سنة 1294هـ عيّن عضواً بمجلس النظر في أحداث طريق سكة الحديد بين تونس وباجة وعضواً في مجلس النظر في نوازل طرقات الحديد عموماً وفي سنة 1295هـ عين عضواً في المجلس المشكل للنظر في دعاوي الكنت صانهي المتعلقة بمنحة هنشير سيدي ثابت . وفي سنة 1296هـ عيّن عضواً في المجلس المجمع للشورى في مهات أمور الدولة المتسبب عن نازلة تجاسر علي بن الزري تابع الوزير مصطفى بن إسماعيل على الأحكام الشرعية . وفي سنة 1300هـ عيّن عضواً في المجلس المعين للنظر في الدعاوي الموجهة على مصطفى بن إسماعيل ، وقد كان حميده بن عياد قام على الدولة التونسية بحسابات يدعي أنه شاط له بمقتضاها ملايين قبل الدولة ، فاعتنى صاحب الترجمة بالنازلة وبمبحث أوراق الدولة واستخرج منها حججاً ورثها وأجاب عن دعاوي ابن عياد المذكور ولخص حجج النازلة ، ولما نصبت الدولة محكمين في النازلة اتضح لديهم بتلك الحجج الأمر وظهرت براءة الدولة بل أصبح ابن عياد مطلوباً لها بعد أن كان طالباً ، فحمدته الدولة على حسن خدمته وجازته برئاسة قسم بإدارة المال سنة 1310هـ ، ولما رامت الدولة وضع مجلة الأحكام المدنية للمجالس العرفية ونظمت لذلك مجلساً بدار الإمارة تحت رئاسة شيخ الإسلام وعضوية باش مفتي ومفتين مالكي وحنفي ومدرسين مالكي وحنفي ، كان المدرس الحنفي هو صاحب الترجمة وذلك سنة 1317هـ . هذا من وجهة خدماته السياسية ، أما العلمية فقد أقرأ من الكتب العالية في العلوم من الأصول والمعاني والفقه وغيرها ما انتفع به جل أهل

الجامع الزيتوني إن لم نقل كلهم ، وقد رأى تلاميذه يزيتون المجلس الشرعي ويعمرون حلق الدروس ويحملون المجالس ناهيك من رجل خدم العلم والسياسة ما ناف عن الستين سنة . وكانت له علوم امتاز بها حريص على بثها منها : الحساب والهيئة وله أدب يكاد معانيه تسبق الألفاظ ، وتشربه لعدوبته مسامح الحفاظ . وكانت للنظارة العلمية بجامع الزيتونة أتم وثوق به في اختيار تلامذة امتحان التطوير العلمي حيث كان لا تأخذه لومة لائم في إجازة المتحقق ورد المتسلق وكان رقيق القلب متخشعاً كنا نقرأ عليه الهمزية البصيرية بشرح ابن حجر ، فكان غالب الدرس لا يرقأ دمه ومثل ذلك إذا قرأ الحديث متواضع النفس ، عرض عليه الوزير خير الدين إمامة جامع حمودة باشا المرادي فلم يقبلها كما عرضت عليه خطة الفتيا في أيام المرحوم علي باشا باي فلم يقبلها أيضاً . هكذا أخبرني بعض تلامذته بالنقل عنه ، وله رسالة في حكم المسح على الجورب وأخرى في تقدير نصاب العين بحسب دنانير ودراهم الوقت . أما مجالسه فحدث عنها ما شئت من تحارير ، تتشعح بها التحارير ، وتقارير ، يضحى بها جنن العلم وهو قرير ، وما زال يسحب برود الكمال ، مرموقاً بعين الإجلال ، حتى أصابه التهاب أعين الآسي ، ودك به ذلك الجبل الراسي . في 19 ربيع الثاني سنة 1322هـ بداره بالمرسى ودفن قرب ضريح سيدي عبد العزيز القرشي المهدي ، وكتب على ضريحه تاريخ من إنشاء صديقه العلامة الأستاذ الشيخ أبي النجاة سالم برحاجب . ومن شعره ما كتبه إلى الشيخ محمد معاوية شيخ الإسلام لما رام تقديم غيره عليه للدرس بلون مناظرة :

أيا شيخ إسلام وقدوة أمة	مقامكم أعلى مديح وأعظم
معاوية الأستاذ هل من معتب	فلا العلم مغبون ولا الحق يكتم
عهدناك قبل اليوم تشكو تأخرأ	وتقديم من لا تعلمون وتعلم
أعيدك من أن أشتكى منك مثلها	فعدلك ياباها ورأيك أحزم
فلا تجعلني واو عمرو وإني	أنا الميم والأيام أفلح أعلم
هديتم إلى رشد فخذ قول منصف	سلي إن جهلت الناس عتاً وعنهم
وإني على عليك أثني مسلماً	ولست لمن قدمتموه أسلم

ومنه مهنتاً الأمير محمد الطيب باي ولي العهد في تاريخه بالقدم من معرض باريس وكان ذلك لأمر ما

قلوب ولي العهد يزهو به القطر
 يهني به المولى الأمير مليكتنا
 أناط بكم عهد السفارة واثقاً
 تقلت منه ما ينوء بعثه
 مرنت على الأسفار لا متهيئاً
 ركبت الخضم البحر والجد مقبل
 وسرت وباسم الله تجري سفينكم
 جرت بسلام فأعجبوا لنجاتها
 وكم حاول القوم اختراعاً لمثلها
 والله لطف في شؤونك كلها
 برزت إلى باريز في موكب سما
 فلم تقتصر حتى تجاوزت غالباً
 وباريز بالتبريز في الحسن برزت
 أدارت كروساً مترعات بكفها
 فلاطفت بالمعروف منك سيامة
 فجاءت به صحف الجرائد مسهباً
 ونلت من الإكرام ما هو واسع
 فعلياًك تعلقو كل عال لايفل
 ترى منه باريزاً خطوطاً كأنها
 وجزءاً ولكن لا يجزي خطوطها
 لدى معرض فيه الخلائق جمعت
 فن محسن يرجو الجزاء لفعله
 يجازي من الأعمال ما عملت يد
 تلاحقت الأفكار في كل مبدع
 وآية روم أخبرتنا بعلمهم
 أقول ولا كفران بالحق صادقاً
 ولا زلم آل الحسين لتونس

كما الروض غبّ المحل عاوده القطر
 أبو الحسن الباشا عليّ له النصر
 بنجح ولم يشدّد بغير الأخ الأزر
 سواكم فلا زيد له لا ولا عمرو
 خطوباً وإن جلت ففتاحها الصبر
 وسعد السعود البيت والطالع الغفر
 وترسي على الجودي ويستدفع الضر
 ومن تحتها بحر ومن فوقها البحر
 فما فعلوا عجزاً وأعيانهم الأمر
 وسرّ بما قد طاب منه له السر
 يرى منه في وجه الأمانى لنا البشر
 إلى لندن حيث العمارة والتجر
 وخطابها العشاق لم يغلبهم مهر
 عليكم وقالت خذ فرائدنا حر
 بما يعجب الحسناء ويندفع الوزر
 إلى خطب من نشرها يعبق النشر
 ولكنه في جنب عليائكم نزر
 تعانقه العذرا ونجبه النسر
 خريطة تصوير تخللها التهر
 تراها من البالون فانعدم الكثر
 بأعمالهم حتى كأن قد أتى الحشر
 وآخر مغبون بضاعته خسر
 صناع باتقان وما صنع الفكر
 وللكل فضل لا يحيط به حصر
 بدنياكم قد صدق الخبر الخبير
 بقدر ازدياد العلم للأمم الفخر
 وبالعلم والإسلام يعلو لها القدر

ويا سيداً أحفاده قد رأيتهم
وبشراك فيهم عن قريب تراهم
ودمت قرير العين للشمل جامعاً
وحرصاً على التعليم ما فيهم كبر
بدوراً كما تنوي ويسعدك الصهر
تُهني بما ينمو به انجد والبشر

ومن نثره ما كاتب به العلامة الشيخ رحمة الله الهندي صاحب كتاب إظهار الحق في الرد على أهل التلث على لسان الوزير خير الدين ونصه : جناب العالم التحرير الفاضل ، الذاب عن حوزة الملة الإسلامية المناضل ، الدراكة الهام ، جار بيت الله الحرام ، الشيخ رحمة الله الهندي العثماني ، بلغه الله غاية الأمانى ، ولا زالت أقلامه عاملة عمل الصفاح ، ومعارفه الكنائب المنصورة عند الكفاح . أما بعد السلام ، الذي هو نعمة الإسلام ، ورحمة الله وبركاته فقد أطلعنا على تأليفكم المسمى بإظهار الحق ، فإذا هو إزالة القذى ، عن المورد الأصفى ، لأهل الإسلام ، والحجة الواردة على أهل التلث بالنقض والإلزام . كم تضمن من دلائل نقلية ، أسندت إلى علمائهم ، لتكون أبلغ في الحجاج ، وبراہين عقلية ، رتبت على أقيسة هي عند حكمائهم ، مسلمة الإنتاج ، حتى ظهر الحق وزهقت الأباطيل ، وجعل الله كيد أولئك الضالين في تضليل . ولعمري إنه لا يقدر على ذلك الجدال بل الجلال ، وإن شئنا قلنا الجهاد ، إلا فحول من العلماء لم يدرسوا كتب الإسلام فقط بل مارسوا كتب سائر الأمم وعكفوا على دراسة فصولها وأبوابها ، حتى عرفوا مواقع الحجاج مع أصحابها ، وجنابكم ، كما يشهد به كتابكم ، ممن برز في حلبة هذا السباق ، فساق لإظهار الحق الحجج التي خضعت لها الأعناق ، فلا ريب أنكم اطلعت على عجز القوم ويجرهم ، وحين تصدروا للجدال والتضليل رموا منك بجرحهم ، فأصيبوا منه بذات الأضراريس الدامغة ، وقامت عليهم بما في أيديهم الحجة البالغة ، وطالما بكتهم الكتاب المبين ، بآية قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فلم يزالوا مبلسين ، كاتمين للحق غير تابسين ، حتى ترجم إظهار الحق ما كتموه ، أو حرفوه وبدلوه ، فانكشف بذلك عوارهم ، وافتضحت به للعامة أسرارهم ، وهم الذين استهدفوا لهذا الغرض بوضع الرسائل التي محرقوا بها على عوام المسلمين ليضلوهم فحاهم الله بالعلماء أمثالكم . غير أن أولئك القسوس هم لعامتهم أشد تضليلاً حيث أنهم لا يعلمون من أصول ديانتنا ولا دياتهم سوى ما يلقيه إليهم أولئك المضلون ، ولهذا يسرني جداً اطلاعهم على إظهار الحق . ولما لم أعثر له على ترجمة بلسانهم رأيت من المناسب

ترجمته ونشره بينهم فإنه ربما كان أنفع من تجهيز الكتاب ، وأبلغ في نفوذ الحق من السهام الصوائب ، وأنكى لأولئك المضلين حيث ينعكس عليهم ما قصدوه من الإضلال بالإرشاد ، وإنفاذ من حصل في أشراكهم من العباد ، وأعلت جنابكم بذلك اغتناماً لمسرتكم إذ مقصد الكتاب ما أشار إليه الحديث الشريف لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس أو حمر النعم والله يجرسكم ويرعاكم والسلام . ومن ذلك ما أجاب به الفاضل العمدة السيد البشير صفر وهو مع رفقاته بأوروبا يستكملون معارفهم ونصه : فلذة الكبد ، ومحل الولد ، ورائد المعارف لهذا البلد ، أعيد كمالك بالواحد الأحد ، وافاني كتابك على شوق ، لم يشب عمرة عن الطوق ، فأبصرت منه ما يعجب ويروق ، وتوسمت منه أن المعارف سترجع إلى مركزها المعشوق ، وأكذبت من قال إنها لا ترجع السهم إلى الفوق . وقد علمت ما لم أجهله والله يديم توفيقك ، ويجعل الحزم رفيقك ، ما أتم عليه من المثابرة على التعلم ، والدؤب في دروب التقدم ، وهي الحسنة لا تسمح بالقل ، أو تبذل لها الكل ، ولا تتقرب إليك بالوداد ، حتى تغرب عن البلاد ، ولا تجود بالوصال ، حتى تنقطع في طلبها الأوصال ، لا تجتنى راحة إلا على تعب ولا تنال العلا إلا من الهون وقد جرى في هذا الميدان وأبدع فيه البديع ، وهل يدرك الضالع شأو الضليع . فقال كما قالوا شيء بعيد المرام ، لا يصاد بالسهم ، ولا يقسم بالأزلام ، ولا يرى في المنام ، ولا يضبط باللجام ، ولا يورث عن الأعمام ، ولا يكتب لغير الهام ، وزرع لا يزكو في كل أرض حتى يصادف من الحرص ثرى طيباً ، ومن التوفيق مطراً صيباً ، ومن الطبع جواً صافياً ومن الجهد روحاً دائماً ومن الصبر سقياً نافعاً ، وأنه علق لا يباع ممن زاد ، وصيد لا يألف الأوغاد ، وشيء لا يدرك إلا بترع الروح وغرض لا يصاب إلا بافتراش المدر ، واستناد الحجر وورد الضجر ، وركوب الخطر ، وإدمان السهر ، واصطحاب السفر ، وكثرة النظر ، وإعمال الفكر ، ثم هو معتاص إلا على من زكا روعه ، وخلا ذرعه ، ووعى بصره وسمعه ، وصفا ذهنه وطبعه ، وثمر لا يصلح إلا للغرس ، ولا يغرس إلا في النفس . وصيد لا يقع إلا في البئر ، ثم لا ينشب إلا في الصدر . وطائر لا يجده إلا قفص اللفظ ، ثم لا يعلقه إلا شرك الحفظ ، وبجر لا يخوضه الملاح ، ولا تطيقه الألواح ، ولا تهيجه الرياح ، وجبل لا يتسّم إلا بخطى الفكر وسما لا يصعد إلا

بمعراج الفهم ونجم لا يلمس إلا بيد المجد فكيف يناله ثوم الضحى ، ومن عكف على شهواته وما صحا . ثم هو يخدم بالنهار أمعاه ، ويعالج بالليل وجعاه . أيرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالماً ، أو يرجع في بلده أستاذاً أو حاكماً ، هذا إذا المجد كالوه بالقفزان كلا حتى ينسى الشهوات ، ويجوب الفلوات ، ويعتضد المحابر ، ويحتضن الدفاتر ، ويتج الخواطر ، ويحالف الأسفار ، ويخوض البحار ، ويصل الليلة باليوم ، ويعتاض السهر من النوم ، ويحمل على الروح ويجنى على العين وينفق من العيش ويخزن في القلب ولا يستريح من النظر إلا إلى التحديق ، ولا من التحقيق إلا إلى التعليق ، وحامل هذه الكلف إن أخطأه رائد التوفيق ، فقد ضلّ سواء الطريق . هذه مقالة البديع المعجب بديعها ، فلأريب حكمتها وللأديب تسجييعها ، وكم سرني تنبّهكم إلى ما حصل لكم من عناية المعلمين ، إنما هو ببركة أنكم من أهل الدين ، فله الحمد صدق الله ورسوله إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ومن سلك مسلك الإستقامة ، لم يعدم من أحد إكرامه ، واعلموا أنكم في بلد حفت بالشهوات ، وأوكار باض الشيطان فيها وفرخ بالشبهات . فلتستخفوا بالليل لحفظ ناموسكم ، ومطالعة دروسكم ، ولتسربوا إليها بالنهار مع السارين ، وترتضعوا العلوم من المعلمين ، من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاريين ، وتجتنوا منها أكمواً وعساقلاً وتجتنبوا بنات أوبر ، وتعتبروا بقول الله جلّ وعلا وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر . وقد علمت أن العلوم التي تدرسونها ، والفنون التي تهصرون فنونها ، هي من الرياضية الأرضية فهل من عروج إلى الأفلاك ، للإتيان بخبر السماء والسماء . وقد كان القدماء يعدون الهندسة وما يتبعها من المتوسطات ، والغاية عندهم هي المجسطي وهي الهيئة فهي مخدومة تلك الفنون ، والغاية التي إليها يتنون . فهل ذهبتم إلى المرصد لا لاستراق السمع ، بل لرؤية ما زيد على السيارات السبع ، وإحصاء العنب الذي في عنقود الملاحة ، ورؤية الحواً وقد قبضت بيديها على طرفي الحية ، والإعجاب من رأس الغول وقد سدل منه لحية ، والسعد الذابح وقد تل شاته للجبين كما تتل الأضحية . والأهم رصد الكواكب مارة بنحط الزوال ، ومعرفة نقطتي الانقلاب والاعتدال ، وهل شاهدتم الآلات التي تُمثل الكواكب في سيرها ، والأرض دائرة على ما يزعمون حول الشمس وعلى محورها ، فلا بدّ من الوقوف على ذلك ، والاطلاع على ما

هنالك ، هذا وإنما تأخرت بالجواب لتعلموا بالحري ليس بلازم على المتعلمين مثلكم أن يشغلوا بالجواب بل هو موكول إلى الوقت فما جاد به عفواً فهو المقبول وما لا فلا يضيع الوقت لتحصيله لأن أنفوس ما عندكم الوقت وأنا منتظر منكم لعفوه والله يصونكم بصونه ، ويمدكم بتوفيقه وعونه ، والسلام على بنوتكم وإخوانكم الأصدقاء فرداً فرداً وكتب إلخ .

* ومنه ما كاتب به الوزير الأكبر في تاريخه بواقعة حال وهي : أن رجلاً شغله الصيد وله ستة أولاد صغار وزوجته تعلقت به نازلة جناحية وسجن لأجلها ، فطلب من الوزير سراحه بأبيات شرح له فيها الحالة فوقع سراحه فعلاً ونص ما كاتب به الوزير الأكبر :

ماذا أقول لأفراخ وأمهم	زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
هم ستة وعجوز تلك سابعة	والكلب ثامنهم والنقص يعتفر
قد كان عائلهم بالصيد محترفاً	يصيد قوتاً وإن لم يكفهم صبروا
والآن شأنهم وشأنه شرع	في غربة شابها البأساء والضرر
قد عيل صبرهم يرجون مغفرة	والعفو محتمل والفضل منتظر
رحمك ربي لقوم يرحمونهم	ويعطفون لعل الحال تنجبر

ومن نثره ما قرّض به مرصع الزاج للوالد رحمهما الله وذلك قوله :

هذا النظم البديع والحكم المحكمة الترصيع ماذا أقول فيها وشهادة شيعي الإسلام تكفيها وكتبه مصطفى رضوان ١٤٠١ .

ومن نثره أيضاً مقرّضاً شرح الوالد أيضاً على صلاة الفاتح ما نصّه :

الحمد لله الذي افتتح عالم الظهور بما أشرق من الحقيقة المحمدية من النور ، ففتح منها ما كان رتق والصلاة والسلام على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق وعلى آله وصحبه الذين شلوا أزره وأشادوا أمره حتى نصرّوا الحق بالحق وعلى التابعين لهم بإحسان الجارين على ذلك النسق . وبعد ، فقد اطلع العبد الضعيف على هذا التأليف الحسن الترصيف فوجده جمّ الفوائد قيد الأوابد تكفل للمتفرّق بالشمل الجميع وأحسن بذلك الخدمة للجذاب الرفيع ، فماذا عسى أن يقال فيه وشرف موضوعه يكفيه ، ثم هو صنعة المتقدم بنفسه وبوراثته جديه السابقين بالخيرات ممن أثنى

الله عليه فإن نسج فإنما ينسج على منوالهما وإن حذا فإنما يحذو على مثالهما فهما اللذان أحكما له وضع الأساس وجعلا له ولكل ذي علم بهذا القطر نوراً يمشي به في الناس . نسأل الله أن يجازيهم وهو أكرم من سئل جزاء من علم ، وعلم وعمل ، وأن يقتس أرواحهم ويجعل في عليين غدوهم ورواحهم ، ويشكر لهذا الحفيد ما صنع ويجمع له خيري الدنيا والآخرة بما جمع ، وكتبه مزجي البضاعة المتمسك بأذيال الله بحسب الاستطاعة مصطفى رضوان ختم الله له بالإيمان في أواخر ذي الحجة الحرام سنة 1310 هـ .

ومنه مقرضاً الجزء الأول من حسن البيان للوالد أيضاً رحمها الله ونصه :
الحمد لله قد اطلعت على هذا الجزء من التاريخ المسمى بحسن البيان ، فرأيت في الغرض المطلوب قد أصاب المرمى . وفي البيان قد يطابق اسمه المسمى ولا غرو فناسخ برده هو ابن الأكرمين وناقلة علمي الفصاحة الأشهرين ، فتذكرنا منه والشيء يذكر بالنظير مقالة سيدنا الزبير حين أعجب بفصاحة ابنه في الترجمة عن الفتح الإفريقي «بأبي . لقد سمعت من كلامه ما ذكرني صفة جده أبي بكر الصديق» رضي الله عنه ، فما أشبه الليلة بالبارحة والغادية بالرائحة . هذا وأنا بفارغ صبر نتظر إتمام هذا المشروع سير الله إتمامه وجعل المسك ختامه . حرره المقيم على الود مصطفى رضوان ، كان الله له وختم بالسعادة عمله هـ . *

333 - أبو عبد الله الشيخ محمد ابن شيخ الإسلام

أبي العباس أحمد بن الخوجة

ولد هذا الفاضل سنة 1267 هـ ، فنشأ في مهد العلم والفضل ، وفرش المجادة والنبل ، سالكاً لمنهج آله ، متلرجاً في رتب كماله ، مقبلاً على طلب العلوم ، واقتطاف ثمرات الفهوم ، بذهن متوقد ، وعزم متجدد ، إلى أن تسنم مراتب العلى ، وتحلى بمحاسن الحللى ، فتصدر للإفادة ، وأجرى في ميادينها جياده ، ولي التدريس بالجامع الأعظم من الطبقة الثانية سنة 1291 هـ ، ومن الطبقة الأولى سنة 1297 هـ ، وبالمرسة الصادقية سنة 1300 هـ ، وخطابة جامع محمد باي المرادي حين انحلت عن والده العلامة أبي العباس سنة 1313 هـ ، وتقلد خطة الفتيا سنة 1315 هـ ، فأفتى الجاهير ، وأجاد التحرير والتحبير . كان رحمه الله حسن الأخلاق بشوشاً جميل المحاضرة مقبلاً على

شأنه محباً لآل البيت النبوي جميل الاعتقاد فيهم ، له قصيدة في مدحهم . وأشعاره
جيدة السبك والصيغة ، معقودة عليها ألوية البلاغة . ولم يزل مقتعداً دست علاه ،
متجللاً بجميل حلاه ، إلى أن دعاه داعي الحق قلباه . وهو في سن الكهولة في 23
شعبان سنة 1325هـ .

فمن شعره يرثي عم والدي العلامة الشيخ أبا الفلاح صالح النيفر باش مفتي
المالكية وإمام جامع الزيتونة الأكبر :

لك الله من خطب تداعت له رجفا
تمطى به ليل من الوجد حالك
صلى كل قلب من لظاه بمضرم
يحق له شقّ القلوب إذا اغتدى
إلى الله نشكوه عظيم مleme
ومن مارس الأيام هان به الأسى
وهل سالت من عهد آدم واحداً
ويا ليتها ترعى ذمام نوي العلا
وما ضرّ لو أبقت لنا الواحد الذي
وما ضرّ لو أبقت لنا الواحد الذي
وما ضرّ لو أبقت لنا السيد الذي
قضى الله في قطب الرئاسة أن قضى
فمن لنوادي الفضل بهجة صدرها
ومن للقضايا العضلات بجلها
ليكه ملهوف الجوانح غلة
إذا أمه المرتاد أصر جنة
ترحل فاقتاد القلوب وراءه
بني نيفر صبراً فهذا سبيل من
وما بيتكم في المجد إلا كهده
على أنه قد فاز بالفضل والرضا
وبلغ في الدنيا الذي شاء من علا

رواسخ أحلام وقد أحكت رصفا
يضل الكرى فيه فلا يعرف الطرفا
يزيد إذا ما اللمع برده ضعفا
يشقّ أخو الأحزان أثوابه لهما
عسى فرج يولي دجنته كسفا
فكم روعت سرأ وكم رنقت صرفا
فيأمن مرتاحاً إلى ظلها الحنفا
فتبقيهم لكن أبي طبعها اللطفا
أعد به دين الهدى للورى كهفا
يبر ولا يبدي الزمان له خلفا
بيد به جيش الضلال إذا اصطفا
فها أدمع الإسلام واكفة وكفا
وملبسها من فضل أقواله شفا
بصارم فكر لا يفل ولا يحفى
إلى عذب فتيا كان منهلها الأصفى
بدائعها تدني لمن رامها قطفنا
ولا غرو إذ تقفو المعارف والظرفا
يعيش ولو قد عاش في دهره ألفا
سنا عزه إن شاء ربّي لا يطفنا
وخلف ذكرأ طاب ترديده عرفا
ولم يرغم الأعداء من عزه أنفا

كفى أن سعت تلك الرئاسة نحوه
فألبسها من عدله وعلومه
عليه من الرحمن أزكى تحية
وحقق فيه الله قول مؤرخ:

ومنه مهنتاً ومعزياً الأمير محمد الهادي باي في ربيع الأول سنة 1320 هـ :

إنّ الهناء صباحه قد أسفرا
قد قام في غيل الإمارة ضيغم
قد لاح في أفق الإمارة نير
آل الحسين جبال عز أرسيت
هم ملجأ للواذناً لن يعدموا
شمّ الأنوف كريمة أحسابهم
قوم كرام سادة رأسوا الورى
آباء أهل القطر مفزع أهله
سيماً الذي قد سار نحو جنانه
قد قدّم الإحسان طول زمانه
وأطل بقاء أميرنا من سرنا
قد جربت أخلاقه فتعطرت
جمع اللطافة والمهابة والعلی
فلذاك قري التهاني مفصح
بشرى لنا ملك حلال سيد
هذا الهام محمد ملك لنا
يا أهل تونس قد جلا غمّاءنا
يا أهل تونس نعمة من ربنا
حب النبيء شعاركم فلذا كم
فالיום عرش الملك أصبح زاهياً
جبر القلوب إلهنا شكراً له
يا رب متعنا بطول حياته

من بعد ظلمة حادث قد كدّرا
في إثر ما ساق المنون غضنفر
بدر تطلّع إثر بدر أدبرا
طود يقام إذا ثير أخرا
هم غوثنا هم غيثنا أسد الشرى
تلقاهم الروض العطير الأزهرا
بفواضل ومحاسن لن تنكرا
فودادهم في القلب موثوق العرى
يرجو الكرم ليبتني خبر القرى
فأنله يا ربي النعيم الأكبر
يجلوسه في عرش ملك أكبر
منها النوادي بما يفوق العنبرا
إرثاً وكسباً فاستجد المفخرا
يشلو قهتر البلاد تبشرا
صفوا الجحاحجة الملوك تصدرا
فنديم للمولى الكرم تشكرا
لما رأيناه السراج النيرا
فلقد علمناه الأمير الخيرا
في شهره أشرقت بدرأ نيرا
يختال في حلق الهناء تبخترا
لما أنال الملك هذا الأزهرا
متأرجحاً منه الثناء معطرا

• وقال مادحاً الحضرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام ، وفي آخرها توسل
بسيدي علي محسن في واقعة حال :

إليك رسول الله شكري لكم يُجيبني
ألا إنكم كثر العصور فخيركم
بك الفوز والربح العظيم لعشر
فما فات خير كف ماسك شرعكم
تغاث سريعاً إن ترجيت غوثه
وذلك خير الخلق سيدهم غدا
ألا إنه المتبوع الاعظم فاعلموا
هو الرحمة المهداة دون تردد
بنو آدم طرا غدا سيداً لهم
وتمم بخير للعبيد فقد أرى
ويا سيدي يا أجود الناس هب لنا
لقد منّ ربي الله جلّ جلاله
على أتني ما كنت أهلاً لقربكم
فشكراً لربي إذ جانا ببعثه
شهدت ولا كفران خيرك سيدي
فأنت على خلق عظيم كما أتني
ولسنا إذا قمنا بواجب شكرنا
فإن لنا عيداً عظيماً بمولد
رأيت الذي يدي إليك بآلكم
هو الغيث ذاك السيد العلم الذي
له الكرامات الزهر حياً ومبتأ
وذاك عليّ محسن سيدي الذي
فلوذوا به يا سادتي فهو معقل
وليث هصور ذاكم فاحتصوا به

وذلك شكر الله إذ أعظم الوهبا
على كل عصر غيثه ساكب سكباً
بكم آمنوا حقاً فطوبى لهم طوبى
وستك الغرا فأعظم بذنا قربى
بفضل إله العرش فالتزم الحبا
رسولاً لكل العالمين به تحبى
ولا خير منه ما عدا الخالق الربا
ألا فاعلموا للعالمين ولا ريباً
فيا سيداً هات الشفاعة بالقربى
لخالص ظل الخير من نحوكم صبا
من الجاه ما تزداد منه حبا رجا
بسيدنا المختار في الحال والعقبى
ولكنهم أهل التعطف والعنبي
إلينا ويا بشرى به للوى تجبى
ألا يا رسول الله ضاعف لنا السبياً
بذلك تمجيد بنون ولا ريباً
لنا الفضل في ذا الاحتفال فلا عجباً
به غيث رحمة العالمين قد انصبأ
وبالصحب والزهراء ما أن يرى كرباً
يزهد عظيم زان منصبه الأربى
فبشرى لهذا القطر حيث به يُجبى
رأيت له فضلاً عليّ قد انصبأ
فن حاطه يحمى ولا يخنثي عطباً
عليه الرضا من ربه ساكب سكباً

ومن شعره يهتئ الشيخ سيدي محمد الطيب النيفر بولايته قضاء الجماعة عوضاً

عن شقيقه الشيخ سيدي محمد الطاهر :

سكب السرور سكوب غيث صيب
وتهللت بشرى الأسرة بعدما
وبمحض فضل الله جلّ جلاله
ويحلف تقوى الله والقذ السني
ورث المعارف والفضائل والتقى
سمط السيادة بالمحامد والعلی
حسن السريرة والنيات وصيب ال
ألف السباحة والرجاحة والهدى
فلتهن توتس باغتنام مرادها
فالله يقيقكم تسرّ بعدلكم

بولاية القرم الهام الطيب
عبست لخطب قد ألمّ بنهب
قد سرنا إشراق ذاك الكوكب
من أرج الأرجا بذكر أطيب
والعدل والتوفيق عن ذاك الأب
والمورد الأصفي الزلال الأعذب
أقوال والأفعال كفاء المنصب
ودمائه الأخلاق أزكى المذهب
وبلوغ ما تشتاقه من مطلب
وتذود عن شرع النبي بأعضب

ومنه أيضاً ما رثي به الشيخ السيد عمر بن أبي الضياف وهو قوله :

عذراً للمعك إذ ينهل كالديم
أعظم به حادثاً أهوت لوقته
آهاً له ثم آهاً من مرارته
أعظم به من فقيه لا اصطبار لنا
ما كنت أجزع حتى راعني أسف
فالعين باكية والقلب مضطرم
أفّ لذي الدار دار لا صفاء لها
يا نفس ومحك مات الألف فانتبهي
إننا إلى الله ماذا قد أصبنا به
ما شئت من سؤدد ماض ومكسب
حفظ المروءة مع ظرف ومع أدب
وحسن عهد مع الإخوان منبرم
أما بدائعه تترأ ومنتظماً
أبا الفلاح أخاه لست منفرداً

فالصبر غيل لخطب حالك الظلم
شوامخ الصبر حتى عدن كالرم
ولا مساغ لها يا ضرّاً ذا الألم
على فراق له فاعذر ولا تلم
لفقد نخل تمشى حبه بدمي
يبغي اللحاق به في جنة النعم
ومن يقل قد صفت قد غرّ بالحلم
فما بقاؤك إلا مشبه العدم
من فقد أجد يجي أحسن الشيم
ومن كمال يريك المجد كالعلم
مع التفنن في علم وفي شهم
صافي السريرة مع أخلاق ذي كرم
فإنها السحر لا نوع من الكلم
في ذي المصيبة منها نحن في عمم

فنسأل الله صبراً من خزائنه كذاك نسأله رحماً كالديم
تنهلاً واكفة تهمي بمرقده يجاه سيدنا المبعوث كالنعم
صلى عليه إله العرش خالقنا ما دام ذكره متلوّاً لدى الأمم

يوم السبت في جمادى الآخرة سنة 1297 هـ .

334 - الوزير الأكبر أبو عبد الله محمد العزيز بن محمد الحبيب

ابن محمد الطيب بو عنور

أصل سلفه من صفاقس ، وولد هذا الفاضل سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وألف
حسبما هو الحق الذي سمعته من الثقات منهم : الشيخ سيدي محمد بن أحمد الشريف
إمام جامع الزيتونة الأعظم والمفتي المالكي . وكان رحمه الله عالماً بتاريخ ولادة كثير
من الأعيان بتونس ، فكان في يوم عاشوراء يقول لزارثيه : إني ولدت في مثل هذا
اليوم سنة 1233 هـ والشيخ باش كاتب ، ويعني صاحب الترجمة ، أسن مني بما يقرب
من العام . وكذلك عن غيره من الذين أدركناهم مثل الشيخ الحاج أحمد الكيلاني
والسيد أحمد بن عومر الجزيري ومن لا يحصون . ومن الأدلة على صحة ذلك أن في
سنة 1256 هـ ، حبس أحمد باشا الكتب على الجامع الأعظم فكان صاحب الترجمة
منتخباً لترتيبها لما حصل عليه من صيت النجابة ونصاب العلم ولا أقل من أن يكون
سنة إذ ذاك خمسة وعشرين فما فوق ، فإذا كان مبدأ قراءته سنة 1254 هـ في شوال
فيكون من خوارق العادات تحصيله هذا الصيت العلمي في مدة تزيد على عام ،
والذي يعلمه جميع الناس أن هاته المدة لا تكفي في قراءة أصغر كتاب في النحوفتي
حصل على صيت العالمية التي أهلته لترتيب كتب العلوم ، لا شك أن مدعي ذلك لم
يتنبه لما يلزم من المجازفة التي يفقهها البله ، وبذلك يظهر أن الحق في تاريخ ولادته ما
ذكرناه فدعوى ولادته سنة 1240 هـ ليس من التاريخ في شيء فلا يحتاج أن يضرب به
الحائط . وقد ولد صاحب الترجمة في بيت شرف أثيل ، وظل مجد ظليل ، فإن نسبه
بتصل بأمية بن عبد شمس أبي الخلفاء الأمويين ، فشب بين يدي والده ، متحلّياً من
حلى الفضائل بطارف علاه وتالده . فقرأ القرآن ، وسمت نفسه إلى التحلي بقلائد
العرفان ، فأقبل على رياض العلوم بالجامع الأعظم فقرأ على جهايزة عصره ، ونحارير

مصره . كالعلامة النحرير جدي أبي عبد الله محمد النيفر والعلامة النحرير أبي عبد الله
 محمد بن الخوجة والعلامة النحرير أبي عبد الله محمد الطيب ابن شيخ الشيوخ أبي
 إسحاق الرياحي والعلامة النحرير أبي عبد الله محمد بن عاشور . ويذكر أنه قرأ على
 جدي أبي إسحاق الرياحي ولعله حضر بدرس الموطأ الذي كان أقرأه الشيخ آحر
 عمره ، فحضره طبقات من الطلبة رغبة في علو السند والتلمذة ، لذلك الحبر
 الجليل . أما ابنه خالنا الشيخ محمد الطيب الرياحي فإنه قرأ عليه مدة ولازمه في علوم
 منها الأصول فقد أخبرني عم والذي العلامة النحرير سيدي محمد النيفر أنه لما ابتداء
 اثتراء بالجامع الزيتوني وجد صاحب الترجمة يقرأ شرح المحلى على جمع الجوامع
 وشرح الأشموني على الخلاصة على خالنا المذكور . وكان لشدة رغبته في العلم لا
 يستنكف أن يأخذه ولو بمن يقاربه في السن ، فإنه قرأ مع الشيخ العلامة النحرير أبي
 عبد الله محمد الطاهر بن عاشور على أكثر شيوخه . فلما تبيّن تبرز الشيخ الطاهر
 المذكور قرأ عليه وتلمذ له . ولقد أخبرت انه حضر درس المحلى الذي أقرأه الشيخ
 المذكور بعد ولايته الفتيا بين الظهرين بجامع الزيتونة وصاحب الترجمة إذ ذاك يياً
 حطة باش كاتب وهو دليل على قوة رغبته في العلم ، وفي الحديث الشريف منهومان لا
 يشبعان طالب علم وطالب مال وبذلك فلا عجب أن يتسع محضوله ، ويتأثر في
 رياض التحقيق فروع علمه وأصوله ، ولما تَمَلَّأ وطابه ، وفاض عبابه ، وأحجم عن
 مجزاته أترابه . وكان من شيوخه بالمحل الأسمى تحصيلاً ونجاة وتوقد قريحة وضرب في
 كل فن يسهم ، أذن له شيوخه في التصدر للإقراء فأجاد وأفاد . وقد بعقود تحقيقه
 الأجياد . وقد كانت تلامذة الجامع الأعظم على جانب من إجلال العلم وإعظام
 شيوخهم فلم يكونوا ليحسر أحدهم على التصدر للإقراء بداخل الجامع بمُجرد الإذن
 لهم في الإقراء إلا بعد مدة ريثما يشتد اضطراره ، فكانوا إذا أذن لهم شيوخهم في
 الإقراء ورأوهم أهلاً للتصدر يلجؤون إلى مثل المجنات بصحن الجامع ومقصورة
 النواورية والمقصورة العالية ، فكان صاحب الترجمة ممن أقرأ في المجنبة الشرقية هضماً
 لنفسه عن مساواة شيوخه في التصدر بداخل الجامع وهو فرق يساوي ما عليه علماء
 القرويين بفاس وعلماء الأزهر بمصر ، من تميز علمائهم الجلّة بالجلوس على الكراسي
 دون الصغار والمتوسطين . وقد كان صاحب الترجمة من صغره مفضولاً على الشمم
 والحشمة وصدق اللهجة والصبر والاحتمال حتى لا يكاد تخفى تلك الأخلاق في

ملاحظه . وكان من صفه يطمح إلى الكتابة صناعة سلفه فكان يلبس شعار الكتبة ومن عجب الاتفاق ما أخبرت به عنه أنه كان جالساً قرب التوابت بالجامع الزيتوني يوماً ، ثم قام ليخرج وكان بالقرب منه جماعة من الطلبة فقال أحدهم على جهة الاستهزاء بصاحب الترجمة على عادة تحامل الأتراب : هذا الشيخ باش كاتب قام ليخرج . فسمعه صاحب الترجمة فاحتملها ولم يجبه . فكان ذلك فالاً وبشارة أجراها الله على لسان ذلك القائل . ولقد تذكرت والشيء بالشيء يذكر أن العلامة الشيخ إبراهيم اليبجوري شيخ الإسلام بالديار المصرية وقع له قريب من ذلك فإنه لما جاء إلى الأزهر من بلده لأخذ العلم وهو بزى الفلاحين في قصة تذكر قال فيه بعض المعبرين لآخر مستهزئاً : هذا شيخ الإسلام . فكان فالاً استبشر به الشيخ وقد كشف الغيب عنه بعد . وقد كان صلى الله عليه وسلم يجب الفأل الحسن وقد أقرأ صاحب الترجمة كتاباً كثيرة في غير فن حتى أقرأ التلخيص بشرح مختصر السعد التفتازاني وفي ذلك العصر العلمي لا يجسر على إقرائه إلا المتحققون بالعلم ولعمري إن إقرائه لهذا الكتاب في ذلك التاريخ يشهد بمرتبة العلمية التي اقتعد دستها ، ولما حبس الأمير أحمد باشا الكتب بجامع الزيتونة كان صاحب الترجمة أحد المتخين لترتيبها بمخزائنها ومع ما حصل عليه من نصاب العلم كانت له يد بيضاء في الأدب وتحقق بعلومه دري الشعر والنثر ، جميل الخط يكتب بأقلام ، فرغب في اصطفاائه الشيخ أبو عبد الله محمد الأصرم باش كاتب فاستعان به على بعض أعماله الكتابية واغتنط به . وكان ذلك مبدأ ابتزاز هذه الدرّة من تاج علماء جامع الزيتونة ، ولما سافر الأمير المذكور بمحلة عسكرية إلى الأعراض بها سبعة آلاف جندي للبطش بكبراء عمل الأعراض الذين شدّدوا النكير عليه لما أحدث الربع على ما يباع ، وغير ذلك من المغارم وأتاب عنه ولي عهده الأمير محمد باشا فاستكتب صاحب الترجمة كاتباً خاصاً وذلك سنة اثنين وستين ومائتين وألف . وقد أخبرني شيخ الإسلام أبو العباس أحمد كريم أن خاله سافر في هذه الجنود وكان شاطراً ، فلما ألقى الأمير أحمد باشا القبض على المتهمين أمر بضرب رقابهم وكانوا سبعين رجلاً فيهم أهل علم ودين وكان خاله المذكور مشهوراً بقوة الساعد فتقدم لضرب رقابهم واحداً بعد الآخر حتى قدم آخرهم وكان شيخاً وهو يتلو القرآن فضربه بسيفه فلم يقتله فرام تشفيح ضربته الأولى بأخرى فلما رفع يده لصب سيفه عليه يبست يده وسقط مغشياً عليه ، فلم يأت الليل إلا وقد فارقت نفسه فرأى الناس ذلك كرامة

فذا الرجل المظلوم ، ومع ذلك فقد أجهزوا عليه وكرّ الأمير المذكور راجعاً بما احتقبت . فلما قدم إلى تونس أولى صاحب الترجمة كاتباً في الدولة وكان ذلك سنة ثلاث وستين ومائتين وألف فلم يزل يتقدّم بنفس عصامية وتقيم أمرته وسيرته شواهد انكفاءة عليه حتى كان بالمحلّ الأسمى من أمراء البيت الحسيني ولما ولي الأمير محمد باشا الملك وأسندت ولاية العهد لأخيه الأمير محمد الصادق باشا ورام الخروج بالمحلة على عادة تراتيبهم إذ ذاك أسر الشيخ أبو عبد الله محمد الطاهر بن عاشور قاضي الجماعة للأمير المذكور وكانت بينهما مودة بأن يطلبه كاتباً خاصاً له بالمحلة وأوصاه به خيراً لما كان بين الشيخ المذكور وصاحب الترجمة من الوداد والأخوة ، فصاحب ولي العهد المذكور في سفراته فلتني منه ما ملك به لبه ، وأحكم فيه حبه . ولما كانت السعادة تنقاه لم تطل مدة الأمير محمد باشا فالتحق بربه وارتقى الأمير محمد الصادق باشا دست الإمارة فرعى له تلك الصحبة ، ومنحه محبته وقربه . أخبرني العدل الشيخ أبو حفص عمر الغربي قال : كنا بدار الشيخ القاضي أبي عبد الله محمد الطاهر بن عاشور إثر ولاية الأمير محمد الصادق باشا وكان معهم صاحب الترجمة فقال له بعض الجماعة : كيف ترى حالك مع هذا الأمير الجديد؟ فقال لهم : إما أن أكون باش كاتب وإلا فكاتب بدار الجلد مثل الحاج حمودة الطرابلسي لا واسطة . فكان الأول فكانت فراسته صادقة وهو ينظر إلى قول أبي فراس الحمداني :

ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

فلما توفي أبو عبد الله الشيخ محمد الأصرم باش كاتب قدمه الأمير محمد الصادق باشا إلى خطة باش كاتب دون من هو أسن منه وأقدم ترشيحاً إليها فزانها بحسن السيرة وكمال الأهلية ، ثم أسند إليه وزارتي المال والقلم والاستشارة وكان أحد أعضاء المجلس الكبير من رجال الدولة عند انتصاب المجالس وكان وحيداً في سياسته يلبس لكل يوم منها لبوساً وناهيك برجل استطاع أن يصحب الوزير مصطفى خزندار والوزير خير الدين والوزير محمد خزندار والوزير مصطفى بن إسماعيل ويخرج مع ذلك مرموقاً منهم بعين التجلة والاعتبار . وكان خير الدين يستنكر منه وفاقه في كل ما يلوح له حتى ربما صرح له بذلك وقرب غيره من الكتاب إظهاراً لضعف ثقته : كل ذلك لم يصدّ صاحب الترجمة عن سيرته ولعله رأى أن تيار آراء الوزير خير الدين لا يمكنه

مصادمته ، وإبداء فكره المخالف بحسبه خير الدين تنكيتاً عليه لثبات الرجل على رأيه فرأى الوفاق أسلم . ويقال : إن الأمير محمد الصادق باشا لما أوى مصطفى بن إسماعيل الوزارة الكبرى قال لصاحب الترجمة : إن تصرف ابني مصطفى بنظرك ومسايرتك . ولما توفي الأمير محمد الصادق باشا وتولى الأمير علي باشا ولم تبق وزارة أبي عبد الله محمد خزندار صالحة للوقت تعين صاحب الترجمة لاستلام الوزارة الكبرى فأولاه الأمير المذكور بإشارة من المقيم الفرانسوي الوزير المفوض فيما يذكر وموقف الوزارة الكبرى بتونس إذ ذاك حرج لما سيدفع إليه من التوفيق بين المتباينين والجمع بين الأضداد وإرضاء رعية اختلفت مشاربهم وسياسة أمة تضاربت مآربهم ، ولذلك لما بلغ الوزير محمد خزندار ولاية صاحب الترجمة الوزارة قال : ماذا يقاسي من المتاعب والله إن قلبي ليرق له ولكني أقول إن الله لما قضى بما به قضى على هذا القطر كان من أطفاه إسناد الوزارة إلى صاحب الترجمة رجل جمع بين العلم والسياسة والصبر الجميل فباشرها بحكمة وتدبير وتأن فلم يقصر به اجتهاده عن بلوغ أسمى درجة في حسن الإدارة مهد بها الأمر حسبما اقتضته الظروف وكانت القاعدة التي يسير عليها في أعماله ارتكاب أخف الضررين والخصلة التي امتاز بذكره بها أكثر من خصاله العديدة المحافظة على شرف أهل العلم والشرع المطهر والنود عن حياضها ، ويلاحظ التمهّل في السير فلا يخطو خطوتين أمكن له أن يقتصر على إحداهما احتفاظاً على إبقاء العوائد ، وإن ذلك من نظر الحكماء فانقراض الأمة بانقراض عوائدها ولسانها ودينها وهي مرتبطة فانقراض أحدها انقصاص للبقية وإني لأعجب من الناشئة كيف يتسارعون إلى التخلّق بالعوائد القريية فهم إنما يسعون في اندماجهم في الأمة التي قلدوا أخلاقها فيعيشون غرباء بين أممهم والأمة التي تخلقوا بعوائدها كل منها تبرا منهم وتنظرهم بعين الازدراء وإن أعطوا من طرف اللسان حلاوة ولو تميز كل من الأمتين بلم شعته لبقوا لا يأوون إلى قبيل ولا تضمهم جنسية ولا يرضى ذلك ذو عقل سليم هذا ولم يزل صاحب الترجمة على مكانته مدة الأمير علي باشا ، فلما توفي وولي ابنه الأمير محمد الهادي باشا وهو رجل في سن الكهولة نظر إلى خدمات صاحب الترجمة بغير العين التي كان ينظر إليه بها والده وأمل أن يصحبه وزير أصغر سناً وأكثر نشاطاً من صاحب الترجمة وقد كلفه شططاً بسجاراته في تقلباته حضراً وسفراً حتى صحبه إلى باريز وهو في سن من لا يألف إلا الكن ومع ذلك أبدى من الجلد ما صلح أن تضرب به

الأمثال ، وتدرّج من الصبر ما يقصر دونه المقال ، خصوصاً بعد أن أصيب الأمير المذكور بمرضه العضال ، مما أثر فيما أظن على جلادته ولم تنقض أنفاس الأمير حتى اعتادته الأسقام ، وتهاياً بدنه للملأ الآلام . ولما ولي أمير العصر محمد الناصر باشا أحله محل الوالد ولقاه من بروره ما أقر عينه وأطلق لسانه بالشكر . لكن لم تطل المدة حتى أصيب بمرض كان آخره تلبية داعي ربه زوال يوم الخميس مستهلّ المحرم سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وألف . ورام الأمير أن يظهر كمال عنايته بصاحب الترجمة فأذن بدفنه بترتهم والاحتفال لجنازته بمثل الاحتفال للملوك فدفن يوم السبت صباحاً وصلي عليه ببطحاء القصبة وعطلت دواوين الحكومة ودار الشريعة والإقراء بجامع الزيتونة وكانت عطلة دار الشريعة والإقراء ثلاثة أيام إظهاراً للأسف عليه . ومن شعره ما هنأ به جدّي أبا عبد الله سيدي محمد النيفز لما ختم عليه السعد على التلخيص :

طريق لنيل العزّ حرز المطالب	وغور لأسنى القصد صدر المراتب
وشم النفوس للمعالي مآثر	وحوز الخصال من تمام المتاعب
ولو كان إحراز الفضائل هيناً	لساد بمحض القول من لم يضارب
وشيئان في الأذهان حسم اجتماعها	طريد اجتهاد واختيار الملاعب
فلا وأبي لا يبلغ المجد عاجز	يعلّل نفساً بالأمانى الكواذب
ولكنا نو الحزم من ساد قرنه	لشأو العلى دون اقتناء الصواحب
وحزمه لا تلوي الحوادث قصده	فإما لحتف أو لنيل المناصب
وليس ثمار الحزم إلا عزائماً	تريه كميناً من عزاز المواهب
إذا كانت السادات تصبو لرفعة	فإني ملكت المجد جد الرغائب
وإني لمقدم وغيري جازع	وإني لقوّال بأي المواكب
نشرنا على متن السماء مراتباً	تؤمّ لها الركبان من كل جانب
ويا رب ليل يثبر الصلد حزنه	أضأت الدياجي من يراع وقاضب
وربّ عويص قد أزلنا لثامه	له الناس فوضى بين راد وذاهب
لقد كنت قدماً بالأوابد مولعاً	وأين من العلياء طود الشناخب
فخار بني الدنيا رحيب الجوانب	وعزّ سراة المجد شم النجائب
أبو المجد مهطال العلوم محمد	وهل ينكر الإنسان فضل السحاب
جواد همام باهر العزّ والسنا	له الشرف الأقصى لهام الكواكب

إمام حباه الله بالفضل حلة
 منيف على شأو الثريا إذا رنا
 يجل حياه ثم يعظم هيبه
 إذا افتّر علماً فالرقاب نواضع
 عليك سنا يعتاده من معاشر
 عفاف كرام للرسول نجارهم
 كأن سناء الشمس من نور وجهه
 كأن الثريا نظمت من بيانه
 كأن مهيب الشرق من فرط لطفه
 تجلى ويا لله كالدوح رافلاً
 تحارير أقوال وللروض جدول
 لها الدرّ جسم واللجين نطاقه
 فلا كلم إلا الدقائق دونها
 ولا كرم إلا إليك مثابه
 فما زال يبدي كل وقت ولحظة
 براعة فهم حنكتها فصاحة
 لقد ملأ الأقطار باهر ذكرهم
 وأنت إمام ما بقيت وإنما
 وما العلم إلا بعض ما أنت حامل
 لك الشرف السامي وإنك أوحده
 إليكم بني الزهراء تعنو وجوهنا
 وحسب المعالي أن تكونوا ملوكها
 ومن كانت العلياء طوع بنانه

ومنه مقرضاً قصيدة الشيخ العلامة أحمد بيرم نظمها تهنئة في الحتم المذكور :

إلى منزل العلياء هطل سواجهه
 مراتب عزّ لن تزال منيعة
 فمنه منار الهدى شم معاله
 بحرس جمال قد أطلت عزائمه

فتضحى بعز قد توالت غنائه
يسود به حضر وبدو ينادمه
وشنفت الأسماع حسناً سواجمه
سلافة ثغر قد تهادت مباسمه
كما ضعضع الإفضال قسراً مكارمه
فلا السيف بتارولا العضب خادمه
بسعد الفتى تأتي إليه غنائه

تباكره العلياء من نحو وجهه
جناب أبي العباس من آل بيرم
أزال عن الأيام سوء كسادها
ترنح من بين المديح كأنها
تشيد ركناً من معالي كماله
إذا جرد الأكفاء يوماً حملها
وهذا يسير في علاك فإنه --

ونص قصيدة الشيخ أحمد بيرم :

وتبدو لدى كل الأنام مكارمه
نبا عنه عكساً ربحه وصورمه
تهون عليه نفسه وكرامه
كما يستلذ أطول الليل نائمه
يردد ذكراً للحبيب لوائمه
فأكره ما يلقي من الناس لائمه
تنصبه الأسقام والبعد جازمه
جرى فوق نخديه من الدمع ساجمه
يجاربه طوراً وطوراً يسالمه
غدا سيداً للدهر والدهر خادمه
ومفخر هذا القطر بل هو عالمه
ترى منه بجرأ ليس يعبر عالمه
إذا أجذبوا جادت عليهم غنائه
فن ذا يجاربه ومن ذا يزاحمه
هوى ساقطاً كالطير قدت قوادمه
فذلك عندي ساقط الرأي عادمه
ويستصحب الإنسان من لا يلائمه
يجدك خير الخلق شدت قوائمه

بسعد الفتى تأتي إليه غنائه
ومن لم يكن بالسعد في الجد نائلاً
ومن يطلب الجد المؤئل والعلی
تلذ له الأهوال في نيل راحة
كما يستلذ العذل صب مواصل
وأما إذا ما بان عنه حيبه
وكيف يطيق العذل صب بشادن
إذا ما جرى ذكر الأجة عنده
أبى الدهر للإنسان إبقاء حالة
ومن لاذ بالخبر الإمام محمد
هو العلم المشهور فينا بنيفر
إذا غاص في بحر العلوم مقررأ
ترى طالين العلم كالتطالب الحيا
وقد حاز في العلياء أشرف رتبة
ترى كل من ناواه في نيله العلى
ومن يدعي في الجد ما ليس عنده
وقد يترياً بالهدى غير أهله
إليك سبيل الجد والشرف الذي

أتيت بشعر قاصر عن مديحك
فأنت عماد الدين بل أنت قطبه
ومن شعره تحوي علاك تراجمه
نعم أنت سعد الدين بل أنت خاتمه

ومن شعر صاحب الترجمة مقرضاً قصيدة الأديب الشيخ حمودة الزلفاني التي
نظمها في التهنئة بالتحتم المذكور وطالها :

غزال سبى الألباب في ثغره شهد
ومن هجره يبدو لعاشقه شهد
ونصّ التقرّض :

هو السعد ما ينحلّ ما عقد السعد
وما الناس في التحقيق إلا بسوائم
ولجت ديار الحي والذئب هاجع
لعلي أرى من نحو رامة لامعاً
فلاقيت وجهاً كالنهار جلالة
كشمس الضحى كالحقف كالقد كالقنا
وهبني حسبت الصبح وقت ظلامه
وضرب العوالي عند أصحابه فرد
وذو العقل منهم في الحساب له العد
بفرط سهاد ما له بالكري عهد
ينمنه حمودة الأوحاد الفرد
وصدراً هو الدنيا وعضباً هو الجدد
كصرف سلاف من لباب هو الرند
أيخفى ضياء عن عليم له الرشد

* كما قرّض الأديب المذكور وهو الشيخ حمودة الزلفاني قصيدة زميله في الطلب
أعني الشيخ العزيز بوعتور صاحب الترجمة المتقدمة التي طالها :

طريق لنيل العزّ حرز المطالب - وغور لأسنى القصد صدر المراتب

بقوله :

ومخجلة ترقى لكل المراتب
غدت ولها سر عجيب وسؤدد
جواهر فكر أشرقت بمحاسن
بديعة نظم للمعالي لطيفة
دقيقة معنى والبلاغة وصفها
أنت من عزيز حسنه وجماله
فقد صار ودقاً يهطل العلم ثغره
حوت حسن تبين بكل غرائب
تزيد سناء للنجوم - الثواب
تفوق جمالاً عن بهاء الكواعب
حكّت رقّة ما يستساغ لشارب
يجلي سناها جنح ليل الغياهب
ينير وميض منه دجن السحاب
وكالبحر يلقي درّ عقد التراب

غوامض علم تنجلي بذكائه اللد
بيد ظلام الجهل قد صار دونه
وحتى شموس الأفق نالت به سنا
ألا بأبي فرد جميل ممجد
لذي حده تحكيه بيض القواضب
فأرداه مهزوماً بحرّ المضارب
وسادت به الأتراب سمر الذوائب
يسود على الأتراب مجلي الغياهب

وقرّض القصيدة المذكورة رفيق آخر لصاحب الترجمة في الطلب وهو الشيخ
محمد بن الخوجة ، خوجة الجلد ، وطرزها بقوله ، عزيز تونس ، فقال :

عقود لآل في نحر الكواعب
زلال ثغور يزدري بمدامة
يعير عيون الظبي سحر بيانه
زعيم بنظم للقوافي لذا غدت
تراها وفحواها وحسن نظامها
ولا عيب فيها غير أن نظامها
نظمت طرازاً في رياض بدیعة
سأنفق طول العمر ما في خزائني
أم السعد يبدو بين زهر الكواكب
وسحر لفكر يزدري بالثواقب
ويهزأ حقاً بالعوالي القواضب
قوافيه ركناً أمه كل راغب
كؤوس رحيق أسكرت كل شارب
ليعجز عن مثل له كل كاتب
وما قت بالمندوب أحرى بواجب
من المدح للشهم العزيز المراتب

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً ما قرّض به قصيدة الشيخ محمد بن الخوجة
الجزيري في تهنئة جدي الشيخ سيدي محمد النيفر الأكبر بنحتم شرح مختصر السعد على
التخليص والتي مطلعها :

عائدي طرف سرى أو زائري
أضرم الشوق لصبّ حائر

ونصّ تقریض صاحب الترجمة للقصيدة الموماً إليها نظماً ونثراً :

حدثت النشوان عن زهر الرياض
عن قوام البان عن مزن الحياض
عن سلاف الكأس عن صوت الوتر
عن عيون الآس عن وقت السحر

قال : ما زجني السرور المونس إلى الخضراء تونس فوجدتها ما زالت تحوي
المسرات وتحليها وتحبي مشارع السؤدد وتحميها ، ما أورق غصن وبهر حسن كالروض
والغدیر لا بل الكأس والمدير وسادتها في البراعة كأنهم حلبة الخيل وفي مضاء العزم
كثواقب الليل :

حاطها الله من سوء كما حاطت الغيدَ عيونُ الحرس
فلقد ضمت خيار الندما ورئت فضلاً على الأندلس

وكنت أنختُ برحب هو محط الآمال والذي تنفق دونه سوايخ الأموال ،
فالتظمت جماعة كأصابع الكف أو الخيزران يرئحه الحقف لمجلس تود النجوم سماءها
والبدر سناءها ووقت لوشم لكان عطراً أو تجسّم كان فجراً فقام كمال يرقل في حلاه
ويعير الأهلة من علاه يقول : هل من وصول إلى حياة الأنفس أو من تلاق بعيون
الترجس ، كأنها الرضاب يزري بنشر الأرج أو الخطاب كبروج من حنايا المهج :

لست كأس الراح أعني إنما مقصدي كأس حياة الأنفس
مدحة النجم الأديب المنتمى للوكيل ابن الأديب الأنفس

قهض بعض الجلاّس بمزايا أخرجت للناس تسحر الأبواب من فتورها وتلعب
بالقلوب من وفورها قصيدة حكم فيها وأجاد وحرك بلابل كل شخص بل كل
جواد ، فقلت : لأوفضنّ بقدحي مع تلك الأقداح واستومض بلقظي من نور تلك
البطاح :

يا هلالاً قد تبدّى وانثنى برياض اللهو أنت زائري
هل ترى شمس البرايا خيّمتم نحو قصدي بجلاء عاطري
منحة قد أسعف الدهر بها من حلاه في بهاء سائر
ما خلود الورد إلا خجلاً من مزايا مثل جفن فاطر
يا كمال بن همام سيداً يا همام بن كمال باهر
يا رئيساً قد كسا أوج العلا بُرد عزّ من ضياء زاهر
قصر المديح عن علياكم فاعتذاري كالمريح الساهر
فاليالي أسلمتني طائعاً للمعالي كابراً عن كابر
من سراة كالسما رفعة وأباد مثل بحر زاخر

فما أتممتها إلا وقد فاز بالقبول قدحي وجرت على وسط الحجر ذبول ربحي
فقلت : إن العهد الأبيد قد جهز لأعبابه هذا القصيد فإن كان أهلاً لذلك فقد صادف
محلّه وإلا فلا ضير عليه في أن يحلّه . ثم انقضى المجلس والعيون نحوه رواق والألسن

بتحني عوده نواطق اه .

ومن شعره في مجلس أنس للأمير محمد باي ولي عهد المملكة إذ ذاك باقتراح منه

بشرى فقد صار الحبيب مؤانسا
واحرص على فرص اللذائذ كلها
واشرب على ضوء الظلال فقد بدا
تهدي كؤوساً من بديع مداة
قد زينت في كأسها بجواهر
في مجلس حاكي الربيع زهره
وبدا على حسن الرصافة فائقاً
جاد الهام بجمعه وكفاك من
حتى غدا بين الملوك بأسرهم
رأس الأكابر والأصاغر كلهم
فحاسن الأخلاق منه تفرعت
وسما على أمثاله وكفى به
يا ماجداً فخر الزمان بجوده
دم هكذا والسعد أول خادم

هذا السرور فلا تكن بالناسي
قد آذن الميقات بالإيناس
من بين سرو في رياض الآس
تهدي النفوس بصرفها الوناس
درية من أرفع الأجناس
وبعرفه وبخيرة الجلّاس
بلطافة الندماء والأنفاس
جمع العلى والفضل في أجناس
مثل الرشيد لدى بني العباس
بسياسة موثوقة الآساس
قد ضاق عنها واسع القرطاس
في حلم أحنف في ذكاء إياس
في عيشة عزّ الفلاح الراسي
سعى أمامك في رفيع لباس

ومن شعره مجيباً أبا العباس أحمد بن الخوجة عن كتاب أرسله إليه (وأظن أنه

هو شيخ الإسلام فيما بعد) :

ورد الكتاب فحار عقلي من سنا
لله ما قد شمت من ألفاظه
لو أن أعلام البلاغة شاهدوا
يا سيداً حاز العلى شم الدرى
لا تحسبن أني نسيت معاهداً
تالله نفسي لم ترم لكم قلى
فوحقكم ما حلت عن عهد ولا
هنا مقام العائدين فإن يكن

خطّ الحبيب وسحره الفتان
ما يزدرى بقلائد العقيان
ما قد حوى خروا إلى الأذقان
رفقاً بصب هائم وهان
أقابلنّ البرّ الكفران
أبدأ ولم تجنح إلى سلوان
أحد سواكم عنكم أغثاني
منك السماح فشان ذي الإحسان

فاخذ ودم واسلم كما تختاره ما حنّ مبتعد إلى الأوطان

ومن شعره أيضاً التاريخ المنقوش على السقاية التي بناها الوزير خير الدين في شوشة رادس إيفاء بنثره ، وذلك أن المشير أحمد باشا أرسله في مبدأ أمره في حاجة أكيدة أجرى لها فرسه في نهار مشمس ، فلما وصل إلى الموضع المذكور وقد اشتد عطشه حتى كاد يهلك لقيه أعرابي يحمل قلة ماء فاستسقاها فسقاها حتى روي ، فنذر خير الدين إن أكسبه الله مالاً ليجعل سقاية هناك للوارد والصادر . فلما بلغ منزله واكتسب من المال ما يسمح له بذلك بادر لإيفاء بنثره فاشترى أرضاً هناك وحفر بها بئراً جعل عليها سقاية وابتنى حوضاً حذاءها وحبسها ورغب في كتب تاريخ عليها ، فأرسل إلى جدي الشيخ سيدي محمد النيفر الأكبر يطلب منه ذلك فأرسل الشيخ النيفر المذكور إلى صاحب الترجمة وكان يقرأ عليه العلم إذ ذاك فوضع التاريخ المنقوش بلوح الرخام الموضوع عليها وهو :⁽¹⁾

335 - الأديب الشيخ عمر بن أبي بكر

هذا الفاضل من النبغاء في قرض الشعر ولم يكن معروفاً به في أول أمره يقال : إن سبب نبوغه فيه هو ولوعه بقصائد الأمداح النبوية وإكثاره من تلاوتها مع مواتاة الطبع ولا ريب وترامى على الأعتاب النبوية الشريفة بذلك قصد أن يمن الله عليه بوظيف يتبلّغ به في هذه الحياة الدنيا وقد قبل الله ابتهاجه لما علم من حسن ظنه به وإخلاص نيته في التوجه إليه فيسر له سبحانه وهو الجيب من دعاه الذي لا يجيب رجاء فتولّى خطة كتابة الإنشاء بالوزارة الكبرى ويحكى أن سبب ذلك أن الأمير علي باي رأى في منامه رجلاً يأمره بأن يلتفت إلى صاحب الترجمة ، وذكر له اسمه وهو إذ ذاك لا يعرفه . فلما أفاق من منامه جعل يكرّر اسمه لكلا ينسأه ولما أصبح أمر وزيره الأكبر الشيخ العزيز بوعتور بأن يوليه كاتباً بالوزارة الكبرى ففعل وهو الذي سنّ تلاوة القصيدة الهمزية للإمام البوصيري تحت المعلقة التي بجامع الزيتونة قرب باب الشفاء إثر فراغ الإمام الأكبر من تلاوة قصة المولد النبوي الشريف يوم المولد على صاحبه الصلاة والسلام ، فيتصدّر لتلاوة القصيدة المذكورة جهراً ويلتفت حوله

(1) بياض في الأصل ؛ ولم يثبت المؤلف بيت التاريخ .

الناس في جم غفير يملأ الجامع المذكور على اتساعه يثلوتها حتى يقع إتيانهم عليها ثم يتبلون إلى الله بالدعاء سراً ثم يتلون سورة الفاتحة جهراً مراراً وبذلك ينجم الاحتفال . وفي غضون تلاوة القصيدة الهمزية توزع على الحاضرين الشربيات المعطرة وتضمخ أيديهم بالطيب من طرف سدنة الجامع . وقد خلفه بعد وفاته في هذا الأمر ابنه الشيخ محمد المتوظف فيما مضى بإدارة المال ثم بعده حفيده الشيخ محمد علي المدرس المساعد على التعليم بجامع الزيتونة والمكلف بالكتابة بإدارته رحم الله جميعهم وإلى الآن تجرى هذه العادة الحسنة . وقد صار صاحب الترجمة لما ذكرنا مكثرأ من نظم الشعر الحسن الجيد في شتى المناسبات ولوعاً بالمحسنات البديعية وسندكر من ذلك ما يشهد بإحسانه واتساع مجال بيانه . فمن ذلك ما رثى به عم والدي العلامة التحرير الشيخ سيدي محمد الطاهر النيفر قاضي الجماعة في عصره وهو هذه القصيدة الغراء :

ما للعيون تسحّ الدمع أحياناً	ولم تبت للذي بالموت أحيانا
أليل شك عراها أم بها جزع	أم حان يوم عراها الصعب أم خانا
أم نوبة البين بانّت من أحبّتها	فأصبحت ترسل الأجنان طوفانا
أم أسهمت يد الموت التي تركت	عقل اللبيب من التعذيب حيرانا
أم ناولوها حريقاً لا رحيق به	فحلّ منها فؤاداً كان عطشانا
أم أرهقتها نصال أهرقت، دمها	من بعد ما أمنت ظلماً وعدوانا
أم خانها الدهر في إخوانها فجرت	منها العيون لدى الأزمان أقرانا
أم سار عنها ركاب الأنس فابتدرت	تفري اللبان بظفر ضفّره بانا
أم شاقها الوجد فيما شاقها يدّوا	م الهجر إذ حلّ الحاداً وأكفانا
أم راعها في الوري من لاعها ورمى	أضلاعها بسنان كان مكانا
أم راقها من سقى أوراقها فبدا	منها حياء يحاكي النور ألوانا
أم هالها أم أبي إمهالها فغدنت	تهل حزناً وتكسو الناس أحزانا
أم أضمرت حسداً أم أمرضت جسداً	أم أضمرت أبدأ في القلب نيرانا
أم ألبست أرقاً أم أبلست فرقاً	أم أخرست شرقاً أم كان ما كانا
لا تعدلوا فنار الشوق مؤلمة	تعدو وقد تورث الإنسان نسيانا
ليل الفراق طويل الذيل منتقم	يولي الأحيّة تشتيتا وهجرانا
يا طالب الوصل قف بالباب ممثلاً	واجعل شعارك قبل الظنن إذعانا

وارفع على الفور حكم الجور معترفاً
وَأَعْتَبِ الْكَرِيمِ ودع عنك اللثيم ورد
واهصر مراحمه وانصر محارمه
واطرح ظنون البنا إنَّ الكرم إذا
واسجد له حيث أبدانا وأيدنا
واثن العنان إلى روض الصلاة على
واسمع مواعظه واجمع غوامضه
واتل الكتاب وصل واتل العتاب وصل
وارع الحشى واعتزل شر الرشا وأزل
واقض الحقوق ولا تبدِ العقوق ودع
وارع الحلال وزن واحو الجلال وصن
واجل الكساد ولا تبغ الفساد وإن
وايف الردى واجتلب تاج الندى وأجب
وأخلص الود في قول وفي عمل
وابك الدموع دماً واخضع ومت عدماً
وانظر إلى القوم قبل اليوم كم تركوا
واحذر حمام الحمى كيما تفوز كما
مولى الورى (الطاهر) الأسمى الذي خضعت
قاضي الجماعة نبراس العلوم ومن
ركن الشريعة من آياته تركت
كثر الأرامل والأيتام من ملأت
سمط اللآل رفيع الآل من بهرت
قطب الملاح ومفتاح النجاح ومن
قد شرف الله في الأتار طلعت
الله أكبر أمسى البدر مختفياً
بكت عليه اليتامى والعفاة وقد
قد كان برّاً تقياً عالماً علماً

بالعجز واسأل بعيد الظهر رحمانا
صاح النعيم وزد في الحب تيبانا
وابصر مكارمه حياً وإيماناً
ما جنته نلت إكراماً وإحساناً
بما يروح أرواحاً وأبدانا
بدر علا وغلا أنساً وإنساناً
واتبع فرائضه سرّاً وإعلاناً
وانو المتاب تل روضاً ورضواناً
عيب الرشا واحتمل دراً ومرجاناً
دعوى عداك وكن ذا مقول لانا
منك الحلال وكن بالعلم ربّانا
رمت المراد فصن قلباً وأركاناً
داعي الهدى واجتنب زوراً وبهتاناً
وعد ودع في الورى من كان خوّاناً
واحش الحشى ندماً فالوقت قد حانا
أهلاً وسهلاً وإخواناً وأعواناً
قاز الذي حاز في الفردوس إيواناً
لعزه الشّم إقراراً وإذعاناً
نال العلا في الملا جهراً وكتماناً
كلاً من القوم مشمولاً وسكراناً
منه العفاة على الإطلاق إحساناً
منه الليالي بوجه بدره زانا
يوم الكفاح حوى في النّجح إتقاناً
وخصّه بكمال غصنه لانا
كأنه في سماء الحسن ما كانا
لاقت لفرقة الخضراء أحزاناً
يُردي العدا ويفي اللهفان عرفانا

يظل منه حيا المرء ألوانا
 فيه حياء على الحديد قد بانا
 نار الخصوم ورام الخصم كتمانا
 عرش التقى فاق في الآفاق سبحانا
 به الفحول فخاراً وقته حانا
 من عرفه نسمات الرشد تبياناً
 إلا وأرضعه بالنيل ألبانا
 إلا وأبرز وجهاً كان فتاناً
 أعبى بجدواه أخباراً وأعيانا
 خطين كانا على الآداب عنوانا
 لكنه فاق في الأصلين حسناً
 أو يقتني من حلال السحر برهانا
 سرّاً وكم راق بالقرآن أقرانا
 وكم كسا من قسا في الحق حرمانا
 كأساً بما يدهش الأذهان ملاناً
 وكم بنى في علا التدقيق بنيانا
 هرباً وكم تكفل أوطاراً وأوطانا
 أنسابهم وحووا أمنا وإيماناً
 بين الأنام من الإكرام تيجاناً
 وهم ليوث الوغى سرّاً وإعلاناً
 وهم ملوك حووا عزاً وسلطاناً
 منه المسائل إتقاناً وعرفاناً
 هاجرت من أجله خالاً وخلاناً
 ومات في حبه العذري نشواناً
 يدعو ويعيد في الأسحار دياناً
 يقضي بما يقضي عدلاً وعمراناً
 عطفاً ولطفاً وإقبالاً وغفراناً

شيخاً عليه وقار جلّ مانحه
 قرماً شريفاً ظريفاً بارعاً ورعاً
 سهلاً شفيقاً ومقداماً إذا حطمت
 إذا ترنم في فصل القضاء على
 بعدله سارت الركبان وافتخرت
 واستنشقت تونس الخضراء عن طرب
 ما من عديم أتى يسعى لساحته
 وما ادلهم دجى خطب على دنف
 من بحره وردت شم الأنوف وكم
 في وجته بنان الحسن قد كبت
 نظم الدراري ونشر النثر ديدنه
 حسب المحاول أن يجني فرائده
 كم بات يتلو كتاب الله معتكفاً
 وكم حبا في ربا العلياء منكسراً
 وكم أقر قرى ضيف وناوله
 وكم سما في سما التوفيق محتسباً
 وكم جلا كرباً تفتي الفتى
 من آل بيت هم القربى الذين علت
 أوصى الإله عليهم ثم ألبسهم
 فهم أمان الورى من كل نائبة
 ما الناس إلا عبيد في سيادتهم
 لهني على فارس الأحكام من عظمت
 صبراً قوادي على فرد الزمان ومن
 قد عاش في حسنه الدرّي محتفلاً
 ست وستون حولاً قدر مدته
 منها اثنتان مع العشرين منتصباً
 وإذا دعا روحه المولى ليلبسها

أجاب دعوته واختار صفوته
 ربّ اسقه خندريساً طاب مشربه
 وانشر كرامته واكتب سلامته
 وامنحه في جنة الفردوس يا سندي
 وارزق ذويه حلي صبر موشحة
 وابعث شآبيب رضوان ومغفرة
 قد قال في نصف شوال مؤرخها:

ولم يرم غيره أحلاً وجيرانا
 واجعل ضيافته جوداً ووجدانا
 يا من أمدّ الوري جنأ وإنسانا
 دوراً وهوراً وولداناً وبلدانا
 بالظفر تعبي الوري قدراً وأثمانا
 تبقى على قبره المرضي حيطانا
 قاضي الوري قد حوى رقفاً ورضوانا
 201 104247 24 381 354

سنة 1311هـ

ومن شعره أيضاً يهني جدي العلامة التحرير الشيخ سيدي محمد الطيب النيفر
 بولايته قضاء الجماعة عوض أخيه الذي رثاه بما سبق هذه القصيدة :

سعدت سعاد بحملها طوق الندى
 رفعت مراتبها كما رُفِعَ المنا
 تاهت بخال خلته عبداً يصو
 وغلت بشعر كالجمان تخاله
 رقت معانيها ورق معينها
 كتبت فنون السحر في لحظاتها
 وتبخترت في حلة درية
 وتكاملت أنساً وأنساً وارتقت
 وتكفلت بمُنَى النفوس وصيرت
 وترنمت فخراً بلابله على
 وتفنتت في الحسن حتى أنها
 أخذت عهود الحفظ عن كف امرئ
 وروت من الآداب كل فريدة
 وتسرتت بالعلم خوفاً أن ترى
 وترينت باللطف بين ذوي النهي
 قمر البها نور السهي طود النهي
 علم الوري كهف القرى أمد الشرى

وحكت بنشر زلاله قطر الندى
 دي مفرداً إذ جاءه حرف التدا
 ن جمال روض حيث كان مورداً
 عقداً من الدرّ الثمين منضدا
 وحكت ملاقة الفصون تأودا
 فرمت قلوب الشائقين تعمدا
 وأرت محيها قضياً أملدا
 أوج العلي رغماً على أنف العدا
 من حاد عن جمع السلامة مفردا
 قصب حكى في المهرجان زبرجدا
 قد أظهرت فيه الحديث المسندا
 ساس الأمور سجية وتعودا
 أضحي بمطلقها البديع مقيدا
 يوماً على تلك النفائس حسدا
 عملاً بما أوصى الإمام المقتدى
 من نال بين القوم فخراً وارتدى
 عالي الدرا مفني المرا بحر الندى

أخلاق سهل الملتقى بجلي الصدى
أضحى بآيات الحكيم مؤيدا
خذ المعارف واللوائف مصعدا
وحوى الشريعة صارماً وتقلدا
ذو راية لبس الوقار مهندا
في معطف تشفي الفؤاد من الردى
أصواتهم شكراً يليق مخلدا
واخضع لأحكام الإله تعبدا
سوى وزان بطيب وجه الهدى
تكسو اللبيب تيقظاً وتجردا
بالعلم كان ممجداً ومحمدا
وحباه عزاً في الوجود مسرمداً
سعدت سعاد بحملها طوق الندى

فهو الكريم الأقدسي الطيب الـ
سامي الأرومة طاهر الأصلين من
بحر الفضائل والعلو لكنه أتـ
فاق البرايا عفة وصيانة
يا حسنه يخطو البساط كأنه
جاءت لمجلسه الولاية تنثي
وبه تباشرت الأهالي واعتلت
يا عاذلاً سلم وكن متواضعاً
نجل الزمان بطاهر فتكرم الـ
حكم يدق على العقول خفاؤها
هذا ابن من سادت به العلماء إذ
أعلى الإله على السماك مقامه
ما قال في جمع الأفاضل قائل

وقال مهنتاً والذي الشيخ سيدي محمد النيفر بولايته خطة التدريس من الطبقة
الثانية ومؤرخاً لها بما نصه :

لله در أخي الكمال الصيب
خلدن النزاهة والنباهة والوجا
لا تعجبوا مما أجاد فإنه
فهو الشريف وقد أتى تاريخه:
بحر الذكاء محمد بن الطيب
هة والفكاهة والفخار الأشنب
يعلو الذي ركناه شداً بالنبي
حزت القرابة طيباً عن طيب
21 12 220 734 415

سنة 1312هـ

وله مهنتاً بمثل ذلك ابن عم جدّي الشيخ سيدي أحمد بن الشيخ سيدي محمد
النيفر :

أحمد إلهك شاكرأ يا أحمد
واعرف رضاء الوالدين فإنه
وأحب أباك بما يحب فإنه
فأخو الشهادة لا يموت وإنما
أوما أتى في الذكر أن عصابة الشـ
إن الشكور على الدوام محمد
لم يحوه إلا الكريم الأرشد
ما مات ذو التقوى أبوك محمد
يرد الحياة وفضله لا ينفد
هداء فضلاً بالكرامة فردوا

جاءتك عذراء المبرة تنثني
قاسرع وقبل ثغرها واعمل بما
وأدر على الجلاس عذب شموها
وعليك بالتقوى فإن المتقى
واجعل دروسك طاعة وعبادة
واصفح على قول الحسود فإنه
وافتح بسيف الفاتحين مدينة ال
واحفظ جناب العلم فهو وديعة
واختم كلامك بالصلاة على الذي
يا سائلين عن الوديعة أرخوا:
في معطف نفحاتها لا تجحد
قالت فني ذاك المقال تجدد
فإذا فعلت فأنت فينا الأسعد
من لهم قصور في الجنان وخرّد
وعبادة لا لغو فيها يعهد
من حل في أوج السعادة بحمد
علم التي فيها المنى والسؤدد
فإذا فعلت فأنت نعم السيد
للخلق فيه مراحم ونودد
بالدرس قد منح الوديعة أحمد
53 521 98 104 537

سنة 1313هـ

وقال يرثي شيخ الإسلام العلامة الشيخ سيدي أحمد كريم ويؤرخ وفاته بهذه

الآيات وفيها التزم الواو قبل الروي ونصّها :

تأمل من سهام الموت واعلم
ورم عمل العلا عكساً وطرداً
وجز طرق العمارة وابتدرها
ودع ما سؤلته النفس واسأل
فإن النفس تفعل في البرايا
وداو الغمّ بالتقوى وسارع
وكن لله ممتلاً ولازم
ألم ترّ عمدة الإسلام لما
أجاب القول ممتلاً وأضحى
أبا العباس نبراس المزايا
جباك الله عزاً وارتفاعاً
ألا يا واقفاً سل سلسيلاً
وأجمل في الدعاء له وأرخ:
بأنك قد خلقت إلى الزوال
لكي تحظى بمحمود النوال
ولا تركز إلى الطرق الخوالي
أمير العقل واخضع في السؤال
كما فعلت بهم بنت الدوالي
وقل كأس التقى فهو الدوّاء لي
معاملة العباد على التوالي
دعاه للعلا مولى الموالي
قريب العين في الغرف العوالي
وأكرم من بدت منه الغوالي
واقداماً حكى ضرب العوالي
لهذا الطود ذي الأيدي الطوال
فهاذا أحمد حبر الرجال
265 210 53 787

سنة 1315هـ

ومن شعره يهنئ الأمير علي باهلال عام 1313هـ قوله :

الانعام	متحلياً	بجلائل	العام	فاز الأمير	بفوز	هذا
الأيام	صفو	الليالي	بأذلاً	إذ أمه	عام	سعيد
الأقدام	في	عزه	الأشطي	رافلاً	بروضات	البيسطة
بمّرام	فيما	وطوراً	يرتمي	مسرة	ويدير	طوراً
بسم	يسمو	بشعر	ضاحك	بدا	فتراه	كالقمر
والآكام	فوق	الربا	والهضب	أعلامه	والسعد	أصبح
السامي	لعلّا	عليّ	ذي	المقام	النهى	متواضعاً
العلام	ورد	المنى	بناية	الملك	ذوي	السلوك
والإجرام	كبرى	وطي	الجور	ومن	جنى	لم
والأيتام	وإغاثة	الضعفاء	سجية	من	آياته	ال
والإبرام	من	ومحسن	في	الخلاصة	من	سنا
الأعلام	وثباته	أرسي	على	الحسيه	فانت	على
وإمام	إذ	كان	خير	الإله	تحفه	دامت
بسلاّم	ومجاله	ما	سرّه	ورجاله	في	آجاله
العام	فاز	الأمير	بفوز	تاريخها	في	الإنشاد
142	706	95	282	88		

سنة 1313هـ

336 - الشيخ محمد الطاهر بطيّخ

هذا التحرير من علماء جامع الزيتونة ونوابغ أدبائه ومن فضلاء نوابغ مدرّسيه المنتفع بهم في شتى العلوم التي تدرس به . تولّى به التدريس من الطبقة الثانية المالكية ولم تطل حياته حتى يجتازه إلى الطبقة الأولى حيث عاجلته المنية وهو في سن الأربعين . مأسوفاً عليه من الجميع لكرم أخلاقه ودماثتها وفضله ومكانته العلمية البارزة . وكانت وفاته رحمه الله منتصف ليلة الجمعة الثامن عشر من شوال عام 1328هـ ودفن ظهر يوم السبت بعده بمقبرة الزلاج . وشعره حسن جيّد فمنه ما هنا به الجد سيدي محمد الطيب النيفر بتوليّه خطة قضاء الجماعة وذلك قوله :

أدر كأس أفراح بدون توان أما ترى هذا الدهر وافى بإحسان
فالحرّ من عانى شؤون معاده أبداً وذلك لا تردّ بضائعه

وبادر بالبشرى إلى كل إنسان
 مضيئاً وقد أخفى غياهب أحزان
 كما اقتر ظبي عن عقود جهان
 تسر أخوا شجو بالطف الحان
 بطيب أزاهير ويانع أغصان
 به صين عن روع ونيل هوان
 همام فريد الفخر سيد أعيان
 أوان القضاءات بساطع برهان
 نبيل أخو فكر دليل لخيران
 وكعبة آمال عظيمة أركان
 بنظم لآلي القول في سلك تبيان
 يرتل آيات البيان كنشوان
 بمضمارها الآتي بمحصل رهان
 قضاء بإجلال وغاية إذعان
 هو الطيب الأسمى الوحيد بلا ثان
 إلى نادي أحكام وأرفع ديوان
 عن الحق من غبن بأقصى سنان
 هوى النفس أو يصغي لزور وبهتان
 سبيل نجاح لا يؤذي لخسران
 وعذب خطاب مع سجايا لحسان
 إلى سيد من آل مجد وعرفان
 وذكرهم وافى بمحكم قرآن
 ومن ذا يؤادي شكرهم بلسان
 كمال جلال لا يشان بنقصان
 ونالت سروراً مع بلوغ أماني
 تصونها من ذلّ وريب زمان
 إلى الحق مقداماً بثبت جنان

وأسعف من بعد الإساءة بالمنى
 يبشر أن قد لاح للفرّ بدره
 وأن ثغور البشر أضحت بواسما
 وأن طيور الأنس في روضة الهنا
 وأصبح روض الرشيد والعدل رائقاً
 وتوّج تاج العلم تاج مهابة
 وذلك قد وافى إلى منزل العلا
 همام الهدى كهف الورى أسد لدى
 أصيل أخو علم جليل أخو تقى
 خضمّ همى نفعاً وشمس هداية
 دريّ بأبواب البلاغة مغرم
 فتنظر ذا الإدراك يهتر عندما
 تضلّع من علم الشريعة فاغتدى
 لذلك أتت تسعى إليه وظيفة الـ
 وقد علمت أن المجدد عزّها
 فتاهت به عجباً وتاهت بشاره
 تقول له وافاك ليث مناصل
 يعامل بالإنصاف لا يستمليه
 ويسعى لما فيه رضا الله سالكاً
 له صدق تدبير وأرفع همّة
 ولا غرو في هذا الكمال وغزوه
 هو الأصل في نيل السعادة للورى
 فماذا عسى قول امرئ في مديحهم
 فيا أيها الطود الرقيق ومن به
 لتهنك أسمى خطة فنخرت بكم
 وتنهى بك الخضراء إذ صرت عزّها
 تصدّيت في نادي الشريعة مرشداً

تصول بسيف الحق أخذاً بحق من
وتبذل جهداً بالنصيحة لامرئ
فيا لك من كهف منيع وسيد
بيئك هذا الدهر يكسب رفعة
فلا زلت في عز رفيع ممتعاً
ولا زالت الأيام تأتيك بالذي
يعامله خصم بظلم وعدوان
يؤمك حتى لا يؤوب بحرمان
رفيع وذو زهد مطيع لديان
مآثرها تبدو بكل مكان
يعيش للذئب في رياض أمان
يسرك من بشري وخير تهان

ومن شعره ما رثى به عمّ والدي الشيخ سيدي محمد الطاهر النيفر ومؤرخاً لوفاته
رحمه الله :

خطب همت به للزمان مدامعه
طمست به للعز شمس ظهيرة
أذكى لهيباً بالخشى وسبى النهى
كلّ تجرع كأسه وجميع من
رزء ويا له من قضاء مبرم
لا غروا أن عظم المصاب يفقد هـ
أولم يكن كهفاً يلوذ به الذي
أولم يكن نجم اهتداء دأبه
أولم يكن بالحق يصدع لا ترى
ماذا ترى يا ذا الحجى بيكاء من
من للشريعة بعد طاهرها الذي
من للفضائل والفواضل بعد من
من للمهارق بعد هاتيك التحا
من للمعارف بعد روضتها التي
تباً لهذا الدهر كم فعلت بنا
ما باله عند الإصابة بصطفي
ما هذه الدنيا وغاية أمرها
كيف الهنا فيها يحاوله امرئ

وطغت على كل البلاد روائعه
وخفت بغيمة للسرور طوالعه
واستأصلت مهج الأنام قواطعه
في ذي البسيطة هشمته مقامعه
من ربنا ما أن يرجي دافعه
لذا الضيغم الشهم العديم مضارعه
لعبت به من ذا الزمان خدائعه
إرشاد من ضلّت عليه منافعه
سهماً درياً بالنضاب ينازعه
هدمت بفقده للقضاء مرابعه
كانت تجلّه أسدها وتراجعه
راقت بعزه للزمان مراتعه
رير التي قد سطرها أصابعه
يلقى بها من كل فن يانعه
نكباته وسطت علينا وقائعه
منا الكرام ومن تروق طبائعه
أبدأ غرور وامتحان تابعه
متيقن أن المتون مصارعه

فالحرّ من عانى شؤون معاده
 كالنيفر الصدر الخضمّ ومن إلى
 علم الدراية والهداية طيب الـ
 ذو مقول عذب وصدق فراسة
 ذو همّة كبرى وحسن بشاشة
 ذو رحمة باللائذين وشدة
 يا سيداً كنا نؤم حماه إن
 كيف الحياة تلذ لي وفؤادي في
 أم كيف بعدك أجتني ثم الهنا
 تالله ما رمت التصبر برهة
 ليس الحداد لأجل رزتك واجب
 غيّت في لحد فهدت للعلا
 كنا بأمن والزمان يهابنا
 أه وهل هذا التأوه نافع
 ما نفع إلا التضرّع للذي
 فأننا جميل الصبر خلقك يا رحيم
 وامنن على هذا الفقيد بكل ما
 وابعث سحائب رحمة ربي إلى
 قبر يوانسه السرور عليه من
 لا ريب فيما قلت فيه مؤرخاً :

أبداً وذلك لا تردّ بضائعه
 أوج السعادة حسن صنعه رافعه
 أخلاق ذو النظر المصيب وبارعه
 ولطيف صنع جل رب صانعه
 وبثوب عز قد كساه تواضعه
 بمن التجبّر في المذلة واضعه
 خطب ألم وأدهشتنا فجائعه
 حزن العنا ولهيب فقدك لاذعه
 من روض أفراح ترن سواجعه
 إلا ردعت وعارضتني موانعه
 ومن الذي ليست تسيل مدامعه
 أركانه وغدت تسيء بلاقه
 حتى دعت من ذا الفراق زعازعه
 قلباً يُمزقه فراق باخعه
 باب امتنانه لا يخيب قارعه
 حماً فاز بالنعم الجليلة طائعه
 يرجوه من خير تسر بدائعه
 قبر حوى بجرأ تروق صنائعه
 نور الهداية والسعادة ساطعه
 فالنيفر البحر تحب مضاجعه

209 410 241 451

سنة 1311 هـ

ومن شعره ونثره ما قرّض به كتاب تقويم المنطق الحضري بكف اللسان المضري
 لوالدي سيدي محمد النيفر الذي برهن فيه على شدة قرب لغتنا التونسية الدارجة من
 اللغة العربية الفصحى وأن من الميسور إرجاعها إليها ونص التقرير المشار إليه :
 حمداً لمن شرف نوع الإنسان باستقامة اللسان وخصّه بنعمة الإدراك وفضيلة البيان
 وصلاة وسلاماً على نبيه ناصر الحق بأوضح برهان وعلى آله وصحبه ذوي البراعة
 والإتقان . وبعد ، فمن المواهب الربانية والمنح الكاملة السنية أن تشرفت بهذا التأليف
 الرفيع والكتاب البديع الموسوم بتقويم المنطق الحضري بكف اللسان المضري واطلعت

على ما فيه وأمعنت النظر في إدراك أغراضه ومعانيه فإذا روضة لا تحيط بوصفها
الأفهام ولا تستطيع تسطير محاسنها الأقلام ما شئت من لطائف تتغذى بها الأرواح
ونفائس أشهى من لذيذ الراح ووصال الملاح وبدائع إشارات مضمّنة في أصناف
عبارات وما شئت من أنظار عيّة وتحقيقات عبقرية ولعمري إنه لجدير بأن يكون
غرة جبين الدهر وأن يبقى فخراً لأبناء هذا القطر إذ قد أوضح أن بين لغتهم
وأشرف اللغات اتصالاً وحسبك هذا مزية وكالاً كيف لا ومؤلفه الفذّ القادة ذو
القرينة الوقادة المتغذي بلبان اللطف والحائز أكمل فضيلة ووصف خلاصة
الفحول الأعلام ونجل الفضلاء الكرام صديقي بل أخي الحقيقي الشيخ سيدي
محمد النيفر لا زال بهجة الأيام والليالي ودرّة حسن في جبين المعالي . سيدي ،
بماذا أؤدي هذا الصنيع الجميل وأنتى لمثلي للتوصل إلى هذا الغرض الجليل .

ولو أن لي في كل منبت شعره لساناً يثّ الشكر كنت مقصراً

وغاية ما يمكن لهذا الباع القاصر والفكر الفاتر أن ينشد في هذا المقام معتمداً على
كون العفو من شيم الكرام :

هذي المزايا وهذه الآثار	وبمثلها تتفاخر الأعصار
لله ما أبديته من جوهر	خضعت لباهر حسنه الأفكار
طوّقت للآداب جيداً عاطلاً	بمؤلف به للزمان فخار
ما كان أطف ذاك الكتاب محاسناً	ونفائساً في ضمنها أسرار
روض مريع فيه للنفس المتى	وتضوعت لغصونه أزهار
ألفاظ معناه كؤوس ضمّنت	سحراً حلالاً للعقول عقار
وغدت لطائفها لدى الألباب أشد	هي من رحيق في الكؤوس يدار
فخرت بطلعته السنية تونس	وبأفق عزها أشرقت أقمار
ما ذاك إلا أنّ ناظم درّه	دانت له الأفهام والأنظار
شهم تفرّد في الكمال وماجد	له من سلوك رضا الإله وقار
ذو الهمة الكبرى محمد الذي	هو من شريف معادن مختار
النيفر البحر الوحيد ومن له	بذرا المعالي قد تسامى نجار
نجل الأولى لهم بمضمار المعالي	رف والعارف بالبنان يشار
مولاي يا مولى المفاخر هاك من	درّ النظام قلائداً تختار

وافت تروم آداء شكر واجب ولعمري لم يحصل لها المعشار
إذ أن كنه مديح صنعك لا تقي أبدأً به الأنظام والأشعار
لا زلت في عز رفيع سالكاً سبل الهدى ولك الفخار شعار

كتبه الفقير إلى ربه محمد الطاهر بطيخ في صفر الخير سنة 1312 هـ .

337 - أبو الثناء الشيخ محمود ابن شيخ الشيخ أبي عبد الله

محمد بن الخوجة⁽¹⁾

ولد هذا العالم في 16 المحرم سنة 1249 هـ ، فنشأ بين يدي والده الإمام في بيت العلم والمجد ، الموروث عن أب وجد ، فأضاف لتليد مجده طارفاً ، ووشى له من عليائه مطارفاً . كرع من مناهل العلوم ، وامتلك أزمة الفهوم ، برأي فراسي ، وذكاء إياسي ، فنال من العلم أوفر نصيب ، وحاز من سُهَمائه المعلي والراقيب . ثم تصدّر للتدريس ، فأسس مبانيه أبداع تأسيس ، بفصاحة تحلب النهي ، وتحقيق إليه حسن البراعة انتهى . وقد كان رحمه الله ذا فصاحة ولسن ، يجري بهما بيانه في أقوم سنن ، نظماً رائقاً ، وثرأ فائقاً ، سريع البديهة حاضر الجواب حلو الفكاهة له محاضرة كالروض الأنيق ، والمسك الفتيق ، ومجالس تضم العلم والأدب . يسعى لها أفاضل القوم من كل حذب ، لا تخلو عن فوائد يقتنيها سامعه ، وفرائد تتشرف بها مسامعه ، يتحف المجلس ، بلطائف التأنيس ، فلا يزال منه بجنة علوم ، ثمارها يانعات الفهوم . وكان حسن السميت والشارة متبسطة في دنياه . أما رتبه العلمية والشرعية التي تسنم فروتها ، وتقلدها فكان حليتها ، فهي التدريس بالجامع الأعظم تقلده من الطبقة الأولى سنة 1278 هـ والتدريس بجامع صاحب الخيرات أبي المحاسن يوسف صاحب الطابع والخطابة به سنة 1313 هـ ، فكانت له فيه كل سنة أختام ، يؤمها جماهير أهل العلم هي للإبداع مسك الختام . وتولّى خطة الإفتاء سنة 1303 هـ ثم مشيخة الإسلام ، اقتعد دستها سنة 1318 هـ فأصدر نفائس الفتاوى للجماهير ، ودبجها بما ينسبك الروضة والغدير ، وما زال في رفعة مقام ، يحفّه الإجلال والإعظام ، إلى

(1) بعد الشروع في طبع الكتاب وجدنا هاته الترجمة لم تخرج من مسودتها .

أن لبي داعي الحمام ، في 16 ليلة الإثنين من المحرم الحرام عام 1329 هـ . ومن ثره الذي هو في الإبداع صنوف ، وفي آذان الدهر شنوف . هذه الخطبة النفيسة خطب بها يوم ختم امتحان التطويح سنة 1319 هـ في يوم مشهود نثبها هنا لما فيها من الذب عن اجناب العلمي بجامع الزيتونة ورد سهام العدوان المسددة إليه ونصها من خط ناظم عقدها :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على الأسوة الحسنة سيد المرسلين وإمام المتقين ، وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد ، فإني أعرض على مسامعك أيها الوزير العلمي الطائر الصيت ، المحلي جيد وزارته من جواهر أفكاره المستنيرة بأيقوت ، خلاصة إجراء الإمتحان بين نجباء تلامذة الجامع الأعظم عمره الله بدوام ذكره على مقتضى الأمر العلي المؤرخ بالثامن عشر من ذي القعدة سنة تسع وثلاثمائة وألف . هو أنه لما قدمت التلامذة المقالات الفقهية من باب الاعتكاف فما قبل منها سعت النظارة العلمية التأمل فيه واستفادت من جملتها نوع حذق في رسم الكتابة وتقرير الفقه كل بما يسره الله إليه ، ثم تقدمت الطلبة للإمتحان التدريسي على حسب ترتيب تقييد أسماهم ، وقرروا دروساً في الفقه والأصول وفي البلاغة والبيان والنحو والرياضيات وتسابقوا في ذلك المجال . والمباحثة من جهة المشائخ النظار تقلب أذهانهم ذات اليمين وذات الشمال ، فاستفيد من جملتهم أن جمهورهم لا سيما أبناء الحاضرة ممن تبرز ، وأحرز حصل سبق وتميز . ثم ختمت جلسات الإمتحان بإلقاء الأسئلة من الفنون العديدة التي تجري مجرى التحسينيات لإتمام نصاب الإمتحان وإلا فإننا نرى العالم التحرير الذي يشار إليه ، ويعول في كشف المعضلات عليه ، قد يلقي عليه السؤال بغتة فيتبدل ويتوقف ، ويستعيده المرة بعد المرة لاستكشاف جلية حاله بغاية التنطف ، عساه أن يهتدي لاستحضار الجواب ، كأنما يتختل لصيد تلك العقاب . هذه حالة الإمتحان إجمالاً وسيأتي لوزارتكم التفصيل فيمن استحق منحة التطويح أو الإعفاء مع جدول العلوم المقروءة بالجامع . أما هيئة النظام العلمي ، فإن العلوم في إقبالها ، والأنفس في تهممها بانتحالها واهتبالها ، والدروس تختال في حلق الفنون على اختلاف أجناسها ، فيرتشف عذب نتائجها من مباسم قياسها ، ولن يخلي الله هذا الجامع المبارك من هلال يطلع ، فيشرق بسائه بدرأ ، وزلال ينبع ، فيغدق بفضائه بخرأ ، وشبل يشلو ، فيزار من غابه ليثاً ، وطل يبدو ، فيمطر من ربابه غيثاً ، فما

أشاعته بعض الجرائد العربية في عددها 651 من أن دروس التفسير والمعاني والبيان والأصول أصبحت دراسة ، وأن الجامع الأعظم خلو من الحساب الذي يحتاجه المتقاضي والفرضي إلى غير ذلك من التدجيل والمكابرة للحس كنسبة القصور أو التقصير للنظارة العلمية ، في تغافلها عن العلوم الرياضية ، فمن الكذب الذي تأباه المروءة والإنسانية ، وتنتزه عن مثله العناصر الإيليسية⁽¹⁾ . ألم ير أعمى البصر أو البصيرة⁽²⁾ ؟ أن الأسئلة على بساط الإمتحان في الرياضيات تترى ، وأجوبتها في آذاتها شنوقاً تتلألاً درأ . أكانت هذه الأجوبة في الرياضي مفاضة على التلميذ بطريق الكرامة بدون تعليم ؟ كلا ، بل ارتضعتها من أخلاف دروس هذا الجامع الذي لم يزل بحمد الله بنفائس الفنون محلى . وحيث أن هذه المصادر التي مرعاها وخيم . وإذا نظرت نظرة في نجوم فلك العلوم بالجامع الأعظم قالت : إن نظامها سقيم ، محتاج لمثله في المعالجة والترميم ، قد أحدثت تشويشاً في الأفكار وفتوراً في الهمم وقالوا وقيل ، وليس القصد إلا الإيقاع في التضليل والتخذيل ، فنطلب على لسان النظارة العلمية من حضرة سيدنا ومولانا الذي بيده مقاليد مملكي الدين والدنيا ، ومن جاء كما شاء التعرّز والعليا ، صاحب التصنيف الشهير ، الذي يسمع لصولة فكره في معامع المشكلات القعقعة والزئير ، سيدنا الباشا علي حجز الصحف العربية ، عن التكلم في المسائل المدنية ، وفي مقدمتها مسألة جامع الزيتونة مخيم العلم ومهبط فيض الفتوحات ، والمهيب الذي يستنشق من روح الله في مواقع الأزمات ، قدس الله أرضه الزكية وطهرها ، وضمخها بخلاخل المسك من أنفاس السادة آل البيت ونورها . ونسأله تعالى أن يزيد ملكنا بسطة في العافية الضافية وفسحة في الأجل ، قرير العين بولي عهده ذلك الشبل البطل ، درة تاج الملك وصارم يمينه ، وروتق بهجته وغرة جبينه ، وبوزيره الذي ما تازرت العلياء بمثاله ، ولا نسج الدهر على منواله . اللهم اجعل سفن حياتهم في بحار الطافك الجميلة ساجحة ، وأعمالنا من التجارة الراجحة ، بحرمة القرآن العظيم وسرّ الفاتحة اه . وقد قرضتها بقولي :

صدعت بما يشنف كل سمع فدمت مسدداً في كل صنع
وذدت عن العلوم وناشرها مقال المدعين بكل قطعي

(1) من تفسير الرازي في قوله تعالى « لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » .

(2) هذا الترديد في مقابلة قصور أو تقصير - صاحب الترجمة .

فاخرس مصقع وجنى أديب
ودمت مهناً في كل عام
ودونك سمط تاريخ لختم :
ثمار بلاغة من روض سجع
وذكرك ذائع في كل صقع
ليزهو بعقد در عام تسع
770 111 204 176 85

سنة 1319هـ

ومن شعر صاحب الترجمة وقد زار شيخنا العلامة أبا النخبة مصطفى رضوان
بمحله بالمرسى فقدم له بعد العوم بسياسة وهي السوق فقال في ذلك :

إذا رمت عوم البحر في ساحل المرسى
مؤسسه رضوان يدعى بمُصطفى
يعاطيك إثر العوم صفو بسياسة
عناصرها من فستق ثم بندق
صنيع عجيب أثمرته قريحة
فيمم به بيتاً له العزة القعسا
تجلى منار العلم من صدره شمسا
فآونة دنا وآونة كأسا
وتالله لا أدري أفيها التي تحسى
بميناها فلك المعارف قد أرسى

وشطرها شيخ الشيوخ أبو النجاة سالم بوحاجب بقوله :

(إذا شئت عوم البحر في ساحل المرسى)
وإن شئت للبحرين جمعاً منعماً
(مؤسسه رضوان يدعى بمصطفى)
يعم هداه الخافقين لأنه
(يعاطيك إثر العوم صفو بسياسة)
ينوط بقدر القابلية قدرها
(عناصرها من فستق ثم بندق)
وخفة روح هي مغزاي إن أقل
(صنيع عجيب أثمرته قريحة)
وإجمال قولي أن ساحة مصطفى
تجد بحمي الجراح فلك الشفا أرسى
(فيمم به بيتاً له العزة القعسا)
فله بيت بالرضا دعم الأسا
(تجلى منار العلم من صدره شمسا)
تبس جبال الحر من بردها بسا
(فآونة دنا وآونة كأسا)
وختمها يومي لتخوبلك المنسا⁽¹⁾
(وتالله لا أدري أفيها التي تحسى)
بها صنع بقراط وأضرايه ينسى
(بميناها فلك المعارف قد أرسى)

ومن شعر صاحب الترجمة في الأمير مصطفى باي :

(1) لعل مراده أن القافين كثرة عددهما كالغفال في أنساء أجله.

يا ابن الجحاجة الشمّ العرائن
ونخبة ملوك طار صيتهم
أبوك سيدنا الباشا الذي ملأت
تلوح أفكاره في كل مسألة
يأيها المصطفى السامي إلى رتب
جمعت بين خلال المجد أجمعها
ما زلت تسبق للعلياء منفرداً
أثقلت كاهل هذا الدهر من منن
ملكنا منا قلباً إذ شمائلكم
لك الهناء بهذا القصر قد سعدت
قد كان إنشاؤه في ظل دولتكم
لم لا وقد أسس المولى العليّ به
بقيت فينا مفدى لا إلى أجل
ودمت فوق الذي ترجوه ما رفعت

ومفخر السادة الغرّ الأساطين
على البسيطة من غرب إلى الصين
نفائس صاغها صدر الدواوين
زواهراً في سماء الملك والدين
علياء من تحتها رأس السماكين
مرأى سناها كمرأى الشمس في العين
حتى عرفت بسباق الميادين
جلت مزاياها عن حصر وتعيين
فاقت برياًها نفحاً من رياحين
منه العواقب في عزّ وتمكين
وعاد إحياءه منكم بتحسين
من برّه مسجداً يسمو بتأذين
ولا جرى قنرٌ ضدّاً لهذين
كف الدعاء وأصوات بتأمين

* ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً في الأمير محمد الهادي باي وهو إذ ذاك ولي عهد
أبيه الأمير علي باي يطلب منه مرآة هند :

أقدم للمولى الجليل مقامه
واثر من لبّ الدعاء جواهرأ
يزيدك حسناً وجهه كلما رنا
فياليت لي مرآة هند أرى بها
همام له في الملك مجد مؤثّل
له همة قعساء ترنو إلى العلا
إذا ما امتطى متن الجواد رأيت
شهادة طبع مع حصافة مدرك
سليل لطود الدين سيدنا عليّ
فيا رب متعنا بطول حياته

تحية مشتاق صباً لمقره
على صفحات الدهر تسمو بقدره
لمرآه طرف يستضيء بنوره
سموّ ولي العهد مفرد عصره
تود النجوم الزهر تبدو بقصره
وأخلاقه كالزهر يشدو بزهره
يرد أسود الغاب عن خوض بحره
يلوح ضياء الحق من صبح فجره
مرصع تاج الملك درأ بفكره
معافى سعيد الشمل طراً بأسره

ومنه مجيباً الشاعر الشاب إذ ذاك السيد محمد الشاذلي خزندار :

أنحفتني يا ابن الكرام بدرّة غاص عليها فكرك النقّاد
أبستني حلة جرّت علي نهر الحجرة ذيلها الوقاد
لم لا وناسجها بديع زمانه أدباً تألّق من سناه مداد
الشاذلي وفي اسمه رمز إلى خلق شذاه سما به الإنشاد
لله ذره من أديب بارع يزكو به الإصدار والإيراد
الله يحرس جمعه ويمده بعناية يرنو لها الإسعاد

338 - الشيخ محمد ابن الشيخ محمد الطيب ابن الشيخ محمد النيفر(1)

هذا الإمام الجليل هو والد العبد الضعيف الواضع لتكملة هذا الكتاب : « عنوان الأريب عمّا نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب » ، وهو مؤلف الكتاب المذكور العلامة النحرير أبو عبد الله محمد ابن الإمام المحدث الفقيه بقية السلف الصالح أبي عبد الله محمد الطيب ابن إمام المعقول والمنقول الذي تخرج عليه الجلة الفحول أبي عبد الله محمد النيفر دفين البقيع الشريف رضي الله عنه ابن أحمد بن قاسم بن محمد بالفتح بن محمد بن أبي النور بن محمد بن أحمد النيفر رحم الله جميعهم بمّته وكرمه .

أولّيته :

تعرّض لييانها صاحب هذا الكتاب نفسه في ترجمته لسميّه جده المشار إليه أعلاه كما تعرّض لها أيضاً العلامة المؤرخ السيد محمد بن البشير بن الخوجة في تصديره لهذا الكتاب ، كما قام فيه بترجمة مؤلفه بيد أبي رأيت لزاماً علي في هذا المقام أن أزيدها تفصيلاً وبياناً فأقول أولاً ما قاله أبو الحسن علي بن سعيد في كتاب المغرب نقلاً عن كتاب نفع الطيب للمقرّي حين عرف بوالده موسى بن محمد بن عبد الملك ابن سعيد قال : رحمة الله على جميعهم ، لولا أنه والذي لأطنبت في ذكره ووفيته من الوصف حقّ قلده إلخ ، ولذا اقتصر على ما ساد ذكره في شأنه نغمده الله برحمته ورضوانه فأقول :

(1) هذه الترجمة وما بعدها كلّ مزيد تكملة لكتاب عنوان الأريب .

ولادته ووفاته :

ولد رحمه الله في شعبان سنة 1277هـ ، أخبرني جدي سيدي محمد الطيب النيفر أن أباه سيدي محمد سرّ بولادة هذا الحفيد سروراً عظيماً وابتهل إلى الله بالدعاء له وناهيك به من دعاء صالح صادر من ذلك الرجل الصالح وهو إذ ذاك يتأهب للسفر إلى الحرمين الشريفين لأداء حجّته الثالثة التي توفي فيها رضي الله عنه وهو الذي سمّاه محمداً تيمناً بالإسم الشريف . أما وفاته فكانت صحوة يوم الأحد السادس من شهر رمضان سنة 1330هـ فجأة بمرض القلب بمتزله بالمرسى ونقل إلى محله بتونس دار والده الكاتبة بنهج الوصفان عدد 22 واسم هذا النهج في الأصل نهج اللوثقو لقب لبعض الأندلسيين لعلّه كان يسكن به ثم حرف بلفظ النيفر ويظهر أن سبب هذه التحريف أنه لما أضيف لأسماء الأنهج بالعربية ترجمتها بالفرنسية ثم عرب بلفظ الوصفان ودفن رحمه الله بمقبرة آله بالزلاج .

نشأته :

نشأ في بيت دعامتاه أبو عبد الله محمد النيفر الأكبر جده من قبل أبيه ، وأبو إسحاق إبراهيم الرياحي جدّه من قبل أمه ، وناهيك بهما دعامتني صلاح وتقوى وعلم . ولما بلغ سنّ تعلّم القراءة والكتابة وضعه والده المبرور في الكتاب الكائن بيطحاء رمضان باي لحفظ القرآن العزيز على المؤدّب به إذ ذاك الشيخ الحبيب العروي رحمه الله ، فأتى عليه حفظاً في زمن غير بعيد وتعلّم على الشيخ المذكور القراءة والكتابة ورسم المصحف الكريم وأحسن الخط أي إحسان ، فكان كل من الأمرين المذكورين من دلائل سلامة فطرته وتوقّد ذكائه وإذ ذاك أرسله والده إلى الكعبة العلمية بتونس جامع الزيتونة وذلك في حدود عام 1290هـ .

مشيخته :

جميعهم من جلة العلماء ونحاريرهم ، منهم : العلامة والده سيدي محمد الطيب والعلماء الأكابر سيدي سالم بوحاجب وسيدي حسين بن حسين وسيدي محمد الشاهد وسيدي محمد النيفر عمّ والده وسيدي مصطفى رضوان وسيدي عمر ابن الشيخ وسيدي محمّد الشاذلي ابن القاضي وسيدي مصطفى بن خليل وسيدي علي الحبيب قرأ عليه الفلك والميقات والربع المجيب تغمد الله جميعهم برحمته .

حرصه على العلم والتعلم :

كان شديد الحرص على التعلم ، مقبلاً عليه أي إقبال ، دائماً على التعمق فيه والاستكمال . ومن آيات ذلك أن المشير الثالث الأمير محمد الصادق باي ، أصدر له ظهيراً في 2 جادى الأولى سنة 1291هـ ، في توليته الشهادة على أوقاف المدارس فلم يباشرها خوفاً من أن تعوقه عن تحصيله العلم الذي هو إذ ذاك بصدد شأن من أخذ يتذوق لذة التحصيل ويتشوق إلى الاستكمال ، فكان وهو تلميذ ذا شهرة وصيت بعيد . ومن آيات حبه لزيادة الاستكمال أيضاً أنه لم يباعد إلى المشاركة في امتحان التطويح ، شهادة انتهاء التعليم الثانوي والضرب بسهم في القسم الابتدائي من التعليم العالي ، وقد مضت له حينذاك في هذا التعليم تسع سنوات حتى شدا فيه وكفى بذلك منه حكمة وتبصراً وكالاً .

تحصيله على شهادة التطويح وإجازته العلمية

حصل على شهادة التطويح في سنة 1299هـ من المشايخ النظار المتكونة منهم لجنة إجراء الامتحان المحرز الناجح فيه على الشهادة المذكورة دون مشاركة منه في الامتحان المشار إليه اعترافاً منهم باستحقاقه لها وكفى بذلك فخراً له . ثم إنه لم ينقطع بالتحصيل عليها عن حضور دروس شيوخه الجللة ولم يكف حين أحرز على شهادة التطويح المحولة لمن نالها مباشرة التعليم بجامع الزيتونة دون إجازة شيوخه الأكابر له . فقد أجاز له عمّ والده الشيخ محمد النيفر والشيخ حسين بن حسين والشيخ محمد الشاذلي ابن القاضي ، جميع هؤلاء من شيوخه . كما أجاز له عالم الحرمين الشيخ زيني دحلان والشيخ محمد المهدي الوزاني عالم المغرب الأقصى والشيخ محمد العذار قاضي مدينة صفاقس الذي أخذ العلم في الأزهر الشريف رحم الله جميعهم .

تروجه ومن وُلد له من الأولاد

تزوج أولاً السيدة بية ابنة السيد محمد الدلاجي شيخ مدينة تونس في حينه ، فولدت له بنتاً ثم مرضت زوجته المذكورة وتوفيت والبنت لم تزل رضية وتبعها البنت بعد مدة . وفي بعض شعره تأسف وتوجع لموتها . قال رحمه الله : وقلت في معرض التسلية عن فقد زوجة وبنت :

يا دهر ما مستريح القلب أغبطه أيّ امرئ منك ما دأباً تقنطه

متى مننت بإحسان على كدر
بحسب ذي نية فيك الرضاء ومن
عادت عليه إساءات فتحبطه
لم يرض أصبح في خسر تورطه

ولعلّ في هذا الحادث نفسه والسبب الآنف قوله أيضاً :

هي الدار لا يصفو لقاطنها شرب
تبدىّ بألوان الفضاضة وجهها
يقان على أحلامنا فكأنّ ما
نفوه بأقوال تروك مسمعاً
تشب بها آمالنا وسبالنا
إذا أمنت سرّاً براع بها سرب
ونحن على لأوائها نحوها نصبو
نشاهد من تصرّفها حقّه كذب
ونجني بأفعال يضيق ذا الرحب
تشيب وأسياف المنية لا تنبو

وفي الغرض المذكور نفسه يقول كما هو صريح البيت قبل الأخير :

الله يعلم أني ما مضى زمن
يُظنّ أني من طول البعاد سلا
وقيمة الصبر ألفتني إلى جلد
إن الليالي أشجهاها مكاتنا
رنت ونحن بأصفي عبشة فرأت
فبددت شمل مجموع وما رأفت
يا مهجة لم تزل تفرز دماً وجوى
إلا تردّد ذكر منك في خلدي
قلبي وهيات لا أسلو على الأبد
فالآن أصبر إلا أن يهي جلدي
من ودنا فرمت من عين ذي حسد
أن ليس من صنعها الإبقا على أحد
بنصم أم وتفرق من الولد
على فراق حبيب فتّ في عضدي

وفي ذلك أيضاً يقول نعمه الله :

فإن أجزع فما جزع بمجد
وإذ كانت على المقدور تجري
وإن أصبر فذاك من الرشاد
أمر العالمين فما مرادي

وفي ذلك يقول أيضاً :

زاد وجلدي ومدمي ظل يهي
أقصدتني على حداثة سن
أنشبت بي أظفارها فجزون اللد
كالحلات الوجوه يضرع منها
لخطوب سحم الجوانب دهم
حملتني من نقلها أي همّ
سحم مني تهوي إلى حدّ عظم
كل ثبت الفؤاد أحزم قرم

قد ثبتُّ ولو أَلَمْتُ بغيري زعزعتُ من ثبات طود أشم

ووجدت له هذا البيت ، ولعلّه حين فقد تلك البنية أو غيرها :

أين صبري عليك يا ابنة أَيْنَهُ وبأي محجّة تحسينه

وله متأسفاً على فقد زوجته تلك ومؤكداً عهد وداده لها :

لئن كنت قد أمسيت في لحد غربة فيا طالما قد ضم ما بيتنا لحف

وإن شيب في قلب ودادٍ فإنما ودادي كما تدرينه في الحشى صرف

ويقول أيضاً مسلياً نفسه رحمه الله :

ولن تصفو الدنيا لمرء ولو غدا مفاتيح أقفال الكنوز بكفه

وقال أيضاً :

ويوم رثى لي سحبه فيه واختفى محيا ذكاء رقة لتوجعي

وقفت على ريع الأجابة باذلاً نفائس نفسي من مشارع أدمعي

ثم تزوج بعدها والدتي السيدة هناني ابنة الحاج محمد ثابت الشواشي صناعة وهو من العشرة الكبار لهذه الصناعة الشريفة ومن أعقاب الوزير الحاج علي ثابت وزير يوسف داي صاحب الميضاة الكائنة الآن بحديقة الخضراء المسماة بالبلقدير ، المنقولة إليها لما تحوي عليه من الآثار والصنعة العجيبة التونسية العتيقة . وكانت حين ابتناها صاحبها المذكور بسوق الترك القريب من جامع يوسف داي وهو أيضاً مؤسس جامع القنيطرة أي باب الجزيرة اللخلاني المعروف بجامع حرمل ولعلّه عرف به لكونه كان إماماً به وطالت حياته .

وهذه الزوجة الفاضلة والدتنا رحمها الله أنجبت له من الأبناء خمسة توفي أحدهم وعمره عامان والباقون المشايخ محمد العزيز وعبد الوهاب وعمر وكاتب هذا ، عليّ كلهم قد ضرب في الأدب بسهم . ومن البنات خمس كبر منهم اثنتان وتوفيت ثلاث في حال الصغر ، وفي الأولين المذكورين من أبنائه يقول صاحب الترجمة في ديوانه الذي ابتدأ جمعه ما نصّه : وقلت في ابني محمد العزيز وعبد الوهاب وفقهما الله وصانها محرضاً على الجدّ في طلب العلم والكمال :

هلموا يا بنيّ إلى المعالي ولا تتقاعسوا عنها بحال
 وجدّوا للعلوم لتقتنوها وتُمسوا قادة بين الرجال
 فما فضل يحلي المرء أسنى مقام بين ذي قدم وتال
 من العلم الذي رفع الأداني وأنزلهم بمنزلة الموالي
 وما نقص يدنس عرض مرء ويترله إلى درك النكال
 من الجهل الذي ذلت رقاب به من سادة شرفاً أعالي
 ألا فلتدأبوا حرصاً عليها أفتلك أجلّ من جاه ومال

وفي كتاب هذا يقول تشييطاً على تحسين خطي وأنا إذ ذاك طفل في نحو العاشرة
 من سنّي حياتي حين رأيّ أكتب للمقصد المذكور فأكتب بخطه ما نصّه :

الخط خط حسنٌ ما إن رأيت مثله
 إن علياً رجل لا بعده لا قبله
 يكتب كابن مقلة بل ربّما فصله

ما تقلده من الوظائف :

صدر له أمر العدالة عام 1284هـ في ذي الحجة أولاً ، ثم صدر له ثانياً لما أحرز
 على شهادة التطويح في سنة 1299هـ ، كما صدر له في الشهادة على أوقاف المدارس
 سنة 1291هـ ، كما أسلفنا . وتقلّد التدريس من الطبقة الثانية بجامع الزيتونة سنة
 1312هـ ، كما ارتقى إلى التدريس من الطبقة الأولى سنة 1316هـ ، كلاهما تولاه
 بالمناظرة . وفي سنة 1323هـ انتخب عضواً بلجنة تحرير فهرسة كتب المكتبة الصادقية ثم
 استقال منها لأسباب صحية حتى رغبت إليه الدولة أن يعود إليها فعاد وما لبث أن
 استقال لأسباب صحية أيضاً ، ثم أعيد انتخابه بصفة عضو أول عند تشكيل لجنة
 أخرى لتحرير فهرسة المكتبة الأحمدية ، فقبل بعد إلحاح . وفي سنة 1325هـ صدر
 الأمر بإحداث خطتي حاكم معاون بالمجلس المختلط العقاري ، فكان رحمه الله أحد
 الحاكمين المنتخبين ، ثم سمّي حاكماً أصلياً سنة 1326هـ ، وقد ابتهج رئيس المجلس
 المذكور بهذه التسمية وكاتب صاحب الترجمة بمكوب يهنئه وبنوّه به . وفي أثناء سنة
 1328هـ سمّي من طرف الدولة عضواً باللجنة المشكلة للنظر في إصلاح التعليم بجامع
 الزيتونة وفيها سمّي عضواً بلجنة النظر في الأراضي المشتركة بين العروش ، وكتب

يومئذ في الموضوع تقريراً مسهباً قههياً تاريخياً إدارياً قدّمه إلى الدولة ترجمه رئيس اللجنة المذكورة ورئيس المجلس المختلط «بول دوما» في تأليف له في الموضوع بالفرنسية وطبع . أخبرني بذلك مترجم المجلس المذكور إذ ذاك السيد خير الله بن مصطفى . وفي سنة 1329هـ سمّي نائب الدولة لدى النظارة العلمية بجامع الزيتونة . وكان رحمه الله في جميع ما تقلّده من الخطط مثال الاستقامة والدراية والكفاءة لما قلّده ، حتى أن رئيس المجلس المختلط المذكور قال لما نقل من خطة عضو حاكم بذلك إلى نيابة الدولة بجامع الزيتونة لو علمت نبأ نقلته قبل وقوعها لرغبت من سمو الأمير أن يدعه في مجلسنا لشدة الحاجة إليه ، وكتب إليه مهتئاً لتغيبه وقت ولايته عن الحاضرة مكتوباً مؤرخاً في 30 نوفمبر سنة 1311هـ يقول فيه بعد عبارات التهئة ما نصّه : سيدي كنت أود منذ زمن أن أوجه إليكم تهاني القلبية الخالصة لترقيتكم إلى خطة متنفذ التعليم بالجامع الأعظم وهي خطة سامية مهمة ، وقد منعتني من ذلك مغيبني عن الحاضرة أولاً ثم كثرة أشغالي التي أخذت لي لحد الآن كامل أوقاتي ، ولكن بمعنى زيادة التأخر عن أن أتمس منكم الترخيص لي في ضم نفسي إلى كافة أبحاثكم لأبتهج معكم بشاهد الثقة والاعتبار الذي حصلتم عليه باستحقاق واسمحوا لي بأن أضيف إلى ذلك عبارة أسف عن رؤيتي المجلس المختلط محروماً من إعانة حاكم كان جميع الأعضاء وخصوصاً الرئيس يقدرون أعظم تقدير أخلاقه ومعلوماته الفقهية وتحكّكه في النوازل ، وعند إعادة التهئة أتمس منكم أن تفضلوا يا حضرة المتفقد بقبول عبارة تعظيمي الفاتحة وأخلص إحساساتي الودادية الإيماء اهـ .

وقد وصل الكتاب للمرسل إليه فأجابه عنه ، فكتب إليه ثانياً ما نصّه :

العزير سيدي النيفر ، إني اطلعت على مكتوبكم ولقد أثر علي كثيراً لما أبدىتموه من تذكركم إياي بالتهاني الخالصة ، وإني أرغب منكم قبول دعائي الخالص باستمرار عافيتكم وسعادتكم ، وحيث أن إدارة علياً ظهر لها حرماننا من أنواركم بتعيينكم لخطة تلائم طبعكم ومعلوماتكم فإني أتمنى لكم أن تكونوا دائماً مسرورين بوظيفكم الجديد وأن لا يحدث أدنى عائق لكم ولا ما يشغل فكركم هذا ولما لم يبق لكم مساس رسمي بالمجلس المختلط ، مع أن ذكركم سيقتي فيه مخيلاً ، فإني أطلب منكم الترخيص لنا إذا عرضت لنا يوماً ما مشاكل ذات بال - أن نلتجئ إلى معلوماتكم الجمّة لإرشادنا اهـ .

مؤلفاته :

كان رحمه الله ذووياً على التحرير والتأليف لم ينقطع عنهما منذ حداثة سنّه إلى وفاته على وفرة الأعمال المنوطة به والتي اقتضتها خططه المتقلد بها فمنها رجزه المسمّى «واسطة التاج فيما إليه من عيون الحكم والوصايا يُحتاج» أتمّ نظمه في رجب سنة 1305 هـ وطبع مختصراً منه وسَمّه «بمُصنّع الزاج من سلسلة واسطة التاج فيما إليه من عيون الحكم والوصايا يُحتاج» وهو بديع الأسلوب وذو تحرير رفيع ؛ وكتابه المسمّى «تقويم المنطق الحضري بكف اللسان المضري» في ضبط ما بين لغتنا الحضريّة التونسية واللغة العربيّة المضريّة والفصحى من مخالقات جويّة . وأنّ من الممكن إرجاع الأولى في الذكر إلى الثانية التي هي أهمها بأدنى التفات وهي مطبوعة أيضاً ؛ وشرحه المسمّى «باللآلي النصيدة بتاج الياقوتة الفريدة» على صلاة الفاتح وهو جليل المقدار حقق فيه مسائل كثيرة مشكّلة من علوم الفقه والكلام والتصوّف فرغ منه في 17 ذي الحجة سنة 1309 هـ ؛ ورجز سماه «جلاء العين بذكر الوزير خير الدين» وهو بديع الحوك جيد السبك تبلغ أبياته إلى ثلاثمائة وخمسين بيتاً شرح بعضه شرحاً وجيزاً ؛ «وعنوان الأريب عمّا نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب» ؛ «وبرهان البقية من أدب أهل إفريقية» وهو سفر جمع فيه ما مدح وهنئ به الجّد الشيخ سيدي محمد الطيب النيفر لما ولي قضاء الجماعة وما هنأه به بعض تلاميذه بمُناسبة ختمه لبعض الكتب العلميّة وما رثى به شقيقه قاضي الجماعة الشيخ سيدي محمد الطاهر النيفر ؛ وكتابه المسمّى «بالتحفة السنية في الأخلاق والسيرة المدنيّة العقليّة» ؛ «وحسن البيان عمّا بلغته إفريقية في الإسلام من السطوة وال عمران» ولم يكمله ، والموجود منه ثلاثة أجزاء مفيدة جداً ؛ وجمع ديوان ذي الوزارتين محمد بن زمرك الأندلسي في جزئين اشتملا على نحو ثمانية آلاف بيت ؛ ومجموع مراسلات سماه «عيون المراسلات المختارة من لباب التحقيقات» ؛ وله رسائل كثيرة منها : رسالة حافلة في تاريخ القضاء الشرعي ، وأخرى في الردّ على من ادّعى تحريف القرآن الكريم وعدم تحريف التوراة والإنجيل ، ورسالة في العقلة ، وغير ذلك من تحارير فقهية غاية في الإبداع . وله تقرير حافل في ملكية أراضي العروش للمستقرين بها ترجم لمن أورد فيه ذكرهم من الفقهاء والمؤرخين وغيرهم . كالكتب الوارد ذكر أسمائها فيه بلغت تلك التراجم خمساً وسبعين . له أختام حديثية تتجاوز العشرين ، وشرع في جمع ديوان شعره ولم يتمّه وإن أتمّ جمعه فيما بعد .

أخلاقه رحمه الله تعالى :

كان تقياً تقياً تقي العرض عزيز النفس شهماً كريماً لئن العريكة متواضعاً حسن السميت مهياً سليم الصدر موطأ الأكناف مثابراً على أعماله في أوقاتها برّاً بوالديه عطوفاً على أقربائه متودداً لخلّانه بشوشاً طلق المحيا وقافاً عند النصوص الشرعية . أخبرني صديقه السيد خير الله بن مصطفى وكان مترجماً بالمجلس المختلط العقاري الذي كان صاحب الترجمة أحد الحكام أعضائه أنه كان لا يتساهل في العمل بالنصوص الفقهية وأنه كان على جانب عظيم من استحضارها مع حسن تطبيقها ، فكان إذا سئل عن شيء أجاب عنه في الحين ، ولشدة تحمّيه كان إذا انفضّ المجلس ورجع إلى منزله يراجع النص فيما سئل وأجاب عنه ، ويرسل به إلى المجلس فيجيب كتابة بعد أن أجاب مشافهة . وكان رحمه الله علامة ثباً في مختلف العلوم عقلية ونقلية ، حلّو الحديث حسن المحاضرة فصيحاً بليغاً قوي العارضة ، أخبرني العالم الشيخ سيدي محمد بن الصادق ابن القاضي أن صاحب الترجمة كان لا يعدم جلسه فائدة يقتنيها من حديثه مهما جالسه وحاسب نفسه بعد انفضاض مجلسه عمّا استفاده منه .

أدبه :

كان رحمه ذا أدب رفيع وقلم بديع ، ذاع صيته وعلا شأنه من نوع السهل المتنع ، يصوغه بفكر متزن وذوق عالي الطبقة ، سليم الفطرة يشهد له بذلك كل من عاصره وعرف قيمة ما يأتي به من ثمر بنوعيه السجع والترسيل خصوصاً هذا الأخير الذي بلغ فيه درجة رفيعة في عصره كما كان له شأن بعيد في الصناعة الشعرية . حدثني شيخنا العلامة التحرير الشيخ سيدي محمد النخلي أن شعر صاحب الترجمة لا يعدو الشبه بأحد الصنفين المشهود لها بالبراعة الشعر العراقي والشعر الأندلسي ، وسنورد هنا نبذة من شعره وثره تشهد بما قلناه :

شعره السياسي والوطني :

لما وقع احتلال البلاد التونسية من فرنسا ، كان المترجم له في سن الشباب يبلغ العشرين سنة أو تجاوزها بقليل ولذا نجد له جملة من القصائد والمقاطع تتصل بهذا الحادث المؤسف الذي يهزّ نفس الشاب المسلم مثله فأول ذلك أنه أنشأ قصيدة حماسية في الموضوع أرسلها إلى صحيفة كانت تصدر باللغة العربية في روما عاصمة إيطاليا بقصد نشرها ، لا أدري هل نشرت بتلك الصحيفة أم لا ؟ وهذا نصّها :

بغير تونس أقوى ربعُ تأنيس
تَدْرَعَت بعوالي الدارعين كما
شَمَّ الأنوف حلاهم كل مكرمة
تقاذفت بهم الغارات عن كتب
مُلَّ النزال وما مالوا إلى دعة
لم ينزلوا عن متون الجرد مذ نشأوا
فلا يغرنكم كثر الجيوش فمن
وقد تأسوا بعرب القادسية مذ
بلغتم الجهد في بذر الترات كما
وأسخنوا أعيناً للثاكلات كما
كأنَّ نهر الفرات نهر مجردة
ما حال من حل أكناف الشرى خرقاً
مثل الفراشة قادتها حماقتها
تلك المعامل لا دور الجزائر إذ
هلا غرزم هناكم بند جيشكم
سينقضي من ضواحي الغرب ملككم
قد كنتم تدعون البأس في سعة
وفي التجارب ما تجلو صياقلها
وما سمعنا بنصر نلتموه ولم
ما تذكرون حروب الشرق هل تركت
جيرون نضحك والشهباء ساخرة
إن من مصر فني ترشيش مصرعه
ووقعة القدس لم تبرأ كلومكم

وفي سواها سمّت أيدي الفرنسيين
حيطت بسور من الأبطال محروس
تجلو وجوههم سود الحناديس
لا يرهبون ليوث الغاب في الخيس
وواصلوا طولُ تعيس بتعيس
كانما نشأوا بين القرايس
يمتموهم عرب حاصدو الروس
نهجتم منهج الروم المناحيس
قد أكثروا منكم حشو النوايس⁽¹⁾
أقررتُم منهم الحاظ تأنيس
وأتمم والربا دير الخنافيس
يزاحم الأسد فيها بالجواميس
حتى اصطلت برضاها حرّ ماموس⁽²⁾
أخذن قسراً على كثر الكراديس⁽³⁾
ولم تقيموا بجد ثم منحوس
كما ابن داود عفى ملك بلقيس
فافتّر بأسكم عن ثغر تدليس
متن الأقاويل من كذب وتليس
يعقب لكم عن قريب طرد إبليس
نفعاً لكم غير أوزار الجماميس⁽⁴⁾
وثغر دمياط أغلى غل محبوس
بين الأجارع من قطر الدواميس⁽⁵⁾
منها ولا نفهت أدواء قسيس

(1) النوايس : العبور .

(2) ماموس : قار .

(3) الكراديس : الجيوش .

(4) أوزار : أثقال ؛ الجماميس : الكمأة .

(5) قطر : ناحية .

وما بمصر زمان طال معهده
 وكم لقيتم هواناً من بروسية
 وقبلها وقعات الإنكليز وما
 أقذت عيونكم إيطاليا ونفت
 من يعد طوره ألقته مطامعه
 دعوا الحروب فليست من كفاة وغى
 لا تحسبوا أننا دنا لسلطتكم
 لكن تُتيح لكم هيجاء حامية
 تغلى مراجلها يوماً بهامكم
 حيث انقلبتم بحظ جدّ ميخوس
 غداة قووض من آطام باريس
 ألقتم من كفاة الترك والروس
 بروما ما اعتمدتم من مقاييس
 من رأس شاهقة في ليل تغليس
 واعنوا بتوفير مطعم وملبوس
 تدين هيئات عرب للهجاريس⁽¹⁾
 لم تخر يوماً على ظن وتحديس
 لا الدهر ينشلكم منها ولا يوسي

ووقع الاحتلال البغيض وأكره الأمير محمد الصادق باي وأعضاده ذوو السُلط
 التونسية إذ ذاك على إمضاء معاهدة الحماية ، معاهدة باردو ، اللعينة التي وجم لها
 جميع التونسيين ، وفي هذه الكارثة يقول :

نَبَّهَا تَلِك الْجَفُونِ التَّوْمَا
 أَسْعَدَانِي نَسَكِبِ الدَّمْعِ دَمًا
 يَا وَجْهًا كَسَفْتِ يَوْمَ الْحَذَرِ
 مَا لَنَا أَمْرًا إِذَا شَاءَ الْقَدْرُ
 لَوْ تَرَى إِذْ فَتَحُوا بَابَ غَدْرٍ
 تَمَشَّى صَوْرًا حَيْرَى كَمَا
 آدَهَا خَطْبُ فِظْيَعِ دَهْمًا
 يَا حَمِي تُونِسَ لَا تَعْبَأْ بِهِ
 حَرَمَ حَرَمٍ مَاضِي عَضْبِهِ
 يَحْطِمُ الْأَطْوَادَ مَبْدَأَ حَرْبِهِ
 نَبِكَ أَرْجَاءَ الْعَلَى مِنْ تُونِسَ
 كَمَدًّا كَالْعَارِضِ الْمَنْجَسِ
 قَبْلُ قَدْ كَانَتْ شَمُوسًا ضَاحِيهِ
 لَيْسَتْ الْحَيْلَةُ شَيْئًا مَاحِيهِ
 وَتَرَى الْأَقْوَامَ سَكْرَى صَاحِيهِ
 يَتَمَشَّى مِنْ بَسْكَرٍ مَحْتَسِ
 أَشْرَكَ الْحَمْسَنَ مِنَّا وَالْمَسِي
 كَمْ كَفَى كَفْكَ مِنْ بَاغِ غَشُومِ
 لَا يَرْجَى هَتَكَ أَهْلَ الْحَلُومِ
 مِثْلًا تَحْطِمُ أَطْوَادَ هَشِيمِ

ووقعت مقاومات ومناوشات مسلحة للمحتل الغاضب في بعض جهات المملكة
 التونسية كجبل خمير ، لكن دون تكافؤ بين الطرفين في القوة ، وقد ضمن صاحب
 الترجمة في شعره هذه المقاومة الشريفة وإن لم تكن ناجحة فقال :

(1) الهجاريس : القروذ .

هلم فوجه الدهر أبدى لنا البسطا
وقد آل أن يهوي الفرنسيس مقعداً
مقيماً على ما غاضه رغم أنفه
يخال كراديس الجنود مهية
تترسّم جنباً وما لمدافع الـ
ألم تبصروا منا الغداة نمودجاً
غداة أراغيل الخمير أقلها
فغادركم صنفين جزراً مجدلاً
إذا سمعوا ذكرهم أرعدت لهم
كتائب غلب من خمير تهابهم
تحلّوا بأخلاق الزمان وزاولوا
فإن شتمتم أبتم وإلا فإننا
وفي حملة الأبطال من بعد طردكم
وقال في ذلك نازعاً منزع التغزل :

خامري حب خميرة
تفعل الحاظها بعاشقها
وقال رحمه الله أيضاً :

إن الفرنسيس يخال أنه
وتلك طود لم تُرض ذروتها
وربما يوم غد تورده
مقاد ترشيش بكفيه غدا⁽⁶⁾
لمتد على مناواة العدى
موارداً من الصغار والردى

وكان مما ارتأه طائفة من التونسيين الإستنجد بالدولة العثمانية لإزالة هذا الاحتلال
البيغض بالقوة أو بالمساعي السياسية لأنهم يعتقدون أن القطر التونسي من ممتلكات
الدولة العثمانية ولذا حرّر صاحب الترجمة خطاباً للسلطان العثماني عبد الحميد

- (1) الأسطى : من السطوة .
- (2) سرطاً : ابتلاعاً .
- (3) قعطا : شدأ .
- (4) غمطا : احتقاراً .
- (5) هبطا : إنزالاً .
- (6) ترشيش : تونس .

خان خليفة المسلمين إذ ذاك نظماً وثراً ، ولا أدري هل تم توجيهه أم لا ، ونصّه :
 بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،
 نصر من الله وفتح قريب لأمر المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين ، قرّة أعين أهل
 الدين وسيف الله المغمّد في رقاب أعدائه الجاحدين سياج الله في الأرض ، وظلّه
 الممتد في الطول والعرض مقيم القرض والسنة والنعمة العظمى على الأمة المحمدية والمنّة
 محيي الإسلام وناشر أعلامه ومميت الكفر ومديم إرغامه ، مجدد هذه المائة والمعقل
 الأمتنع لهاته الفئة الجاري على سنن الراشدين من الخلفاء والدائب على شرعة القيام
 بعهد الدين والوفاء السلطان الأعظم والملك الأفخم البحر الطامي والغيث الهامي
 سلطان البرين وخاقان البحرين خديم الحرمين الشريفين الماسك بند سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم
 باليمين السلطان الغازي عبد المجيد أيّد الله دولته وأثل في قلوب أعدائه صولته .

من عبيدك المستظلمين بظلك والناقعين غلتهم من وابل شفقتك وغزير طلك
 الناشئين في رياض ملكك الأحمى الذائدين بحول الله عداهم بمتين ساعدك الأقوى
 أهل إيالة تونس المغتصبة من أهاليها الضعفاء لسراق المالك أرباب الجور والخيانة
 والجفاء أعداء دين الله ورسوله الحبيب التائبين في غياهب التلث وعبادة الصليب
 المريرين إطفاء نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره والمخادعين بتملقهم وبهرج
 كلام شفاههم يخادعون الله وهو خادعهم وسينزل بهم نكاله وتدميره عرضوا على
 أعتابك حالهم راجين من الله ثم من شفقتك أن تقضي آمالهم وتفصيل ما أوقعه العدو
 بهم من النكال لا يغرب عن علم الجناب الرفيع وما بعد علمه من مقال فتقرّب إلى الله
 بإنقاذ هذه العصاة من مخالب الكفر واشتر رضا النبي صلى الله عليه وسلم بالنظر في أمر هذه الأمة
 المنوطة بقيد العدوان والأسر قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم
 ويشف صلور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم .

إلى جنة الفردوس والفوز سارعوا	فيا أولياء الله هذي المشارع
وأوفوا فإن الله سبحانه اشترى	نفوسكم فاستبشروا أن تبايعوا
وما أيد الإسلام في قبة العلى	وأثله إلا السيوف القواطع
وهل غير إحدى الحسينين منالكم	وهل بسوى نصر الإله التقارع
وقد ضمن النصر المين متى نصر	تموه ووعد الله لا ريب واقع

أينكر تأييد لكم في مواطن
أيتيم بني إشراركهم من قواعد
ألا اطلقوا حبس البنادق إنها
وهل هي إلا موتة فلير امرؤ
فلا عز من غير الشجاعة يقتني
وإذ كانت الآجال قد أوجبت فما ال
على أنه لو كانت الحرب جدت
وكيف وأرض المسلمين قد اغتدت
وأموالنا نهب وأبناؤنا انبرت
مدارس آيات نخلت من تلاوة
أناخ علينا الظلم منهم بكلكل
فكم هتكت من حرمة وتهدمت
رمونا بنبل من عدا وترسوا
أعانوا على دحض الشريعة جهدهم
أجالوا يد الأندال في كل مسلم
وقد أمكتهم إذ أرادوا حياة
أدار بهم كيد الأعداي حباله
ومن رام نصحاً من عدو فإنما
دفعناهم جهد المقل فأوقعوا
وبرّ رسول الله أن عدونا
أبعد كتاب الله للمرء زاجر
وقد قال لا يألونكم فاعتبر بها
إلى غيرها فالله الله إنما اج
إلى الله نشكو ضعفنا واعترابنا

تعجب راء من حلاكم وسامع
فسقي سم من ضبا الحق نافع⁽¹⁾
إذا أرعدت في كبر قوم تواضعوا
بها وهو للأمر الإلهي طائع
ولا بيتي غير المذلة ضارع
تزال بمذنيها ولا هو دافع
لأمسي لإحراز الفخار التقارع
يدمرها التلث والدين خاضع
لفعل خبيث الكافرين تسارع
وروض علوم يانع النور ضائع
فلا المال محفوظ ولا العرض ناصع
بلاد ودكت في الدفاع صوامع⁽²⁾
بذي الأمر منا وهو خب مخادع
عداها فعذر التابذ الحق واسع
فيصنع كل ما الذي هو صانع
بضعني سقتهم كأس صبر فظائع
فأوقعهم فيما هو اليوم واقع
يحاول ما لم تستطعه الطبايع
بنا من نكال الجور ما هو ذائع
يسلّط فناً فالجانب تابع
فن غيره يرجى ويؤمل نافع
ففيها لذي اللب السليم مواقع
تباكم لكيلا تفشلوا وتنازعوا
بأرض تسلينا المنى والمطامع

(1) بُنى : جمع بنية ؛ سقى سُم : على طريقة إنابة المفعول الثاني .

(2) لعله رحمه الله ، يشير إلى مقاومة مدينة صفاقس حيث ترصد العدو لرميها من مدايع أسطوله باليوب
انشغال أهلها بصلاة الجمعة ، فرموا الجامع فهدم وسقط منه جانب عليهم وهم يصلون .

ثماناً قطعنا كل يوم كأنه
توقد في أحشائنا نار حرقه
فما عيشنا عيش ولا الدهر مرتضى
فإن لم يعاجلنا الخليفة أصبحت
خليفة خير المرسلين الذي غدا
ميد العدا جم الجدى عمدة الهدى
مجلّي دياجير الظلام بسيفه
مؤيد دين المصطفى منقذ الورى
قرين العلى عبد الحميد الذي له
أقام العلى فليصر اليوم مبصر
يجرّ جيوش النصر يحتفها من ال
كفاة لأرحاء الحروب عليهم
إذا خطبت أسيافهم خشع العدا
إليك إمام المسلمين التجاؤنا
تناديك من بعد المسافة تونس
حنانيك لا تُمسي بلادك طعمة
وحاشاك أن تقضي لواحد راغب
ونحن رعايا ملكك الضخم أزماً
أيجد ما طوقتنا من مكارم
غداة اجترت إسبانيا في بلادنا
نشأنا بنعمى تحت ظل حاكم
كأننا بأساد الخلافة ترمي
كأنك بالخضراء تختال عزة
يروم الفرنسيس اغتصاب بلادنا
أتوا والأمانى ملء أطمارهم فعن
بحزم أمير المؤمنين وعزمه
وظنوا لقاء الترك في الحرب هيناً

من الطول حول سايف الذيل شاسع
فتهطل من سحب الجفون المدامع
ولكنه دهر إلى السوء نازع
ديار الهدى وهي الخلاء البلاقع
وما مسلم إلا له الدهر خاضع
مقيم بنى الدين الحنيفي رافع
عن الأمة الوسطى وبالحق صاعد
رفيع الذرا بدر بذنا العصر طالع
تذلت الأقبال والدهر طائع
ويسمع أنباء الخلائف سامع
حملاتك ساقات حمت وطلائع
مدار فهم طول الزمان قوارع
فذا ساجد منهم وآخر راع
فإنك كهف المؤمنين المدافع
وليست تنادي غير مولى يسارع
فكل دواء منك في الداء ناجع
وليس لنا إلا الخليفة مانع
تقارع عن أمصارنا وتدافع
صنائع لا تبدو لديها الصنائع
فن جيشكم قد أدبتها وقائع
وما قط حلنا عن ولاء يتابع
كتائبها قبّ الحياذ روائح
وقد غص بالأبطال منها الشوارع
وهيهات قد غرت سواه المطامع
قريب وغم الكل لا شك راجع
شفت نفس دين الله منهم معامع
فأمست لهم في كل صقع مصارع

أغرهمُ كثر الجيوش ودونها
سنوسعهم جزراً إلى أن تعافهم
وإن كُفَّ وقع السيف عنهم ترحماً
شفتهم من داء التهور أمةً
يُلمّ بقرن قرنه وهو جائع
مضى زمن والعجب يفعم دائماً
محو عنهمُ وسم الشجاعة فانشوا
ألا هاهم من نُصَّح يرشلونهم
ترى الوحش عافت أن ترود منهم
فرائس ملقاة فلا هي صادفت
فججّل أمير المؤمنين بهجمة
ووطئ خيول الله واجلب عليهم
فلا زلت في ملك عزيز ومنعة
ولا زلت ملحوظاً بعين عناية
تذلّ لعلياك القياصرة الأولى
تجدد من ربع الدبابة دارساً

هذا والدولة العثمانية في ذلك العصر هي دولة الخلافة الإسلامية . كان المسلمون يعتقدون عليها آمالهم في تخليص البلاد وتحرير العباد ، وتتوجه تلقاءها وجوههم شرقاً وغرباً ، ولذا سرّوا بانتصارها في حرب اليونان .

ولذا قال صاحب الترجمة القصيدة التالية مهنئاً السلطان عبد المجيد خان بهذا الانتصار ونصّها :

بإعانة الله القوي تؤيد
وبما إليك من التفات رسوله
فلأنت ملحظ ناظريه من الورى
وحباك من أخلاقه الحسنى فرا
ولأنت مرآة له يبدو بها
فهو الممدّ بنصره والمنجد
بلوائك النصر المؤزر يُعقد
يولي عليك فيوضه ومجدد
تد درّها قد زيتك بها يد
فيلوح منه لدى فعالك مقصد

أزكى فكنت لدى المفازة ترشد
حقاً لهذا العصر أنت مجدد
أضحى به الدين الحنفي يسعد
أمست على طول الزمان تخلد
والله يعلم والملائك تشهد
كيد يديره العدو الملحد
شكرانه ما ذكره لا ينفد
أثنى في العلوي ذكرك أجد
فلقد يكادُ به بين الجلمد
فلقد به رضي النبي محمد
والعود للمألوف حقاً أحمد
بحمى يروع وشوكة لا تخضد
من دونه ما قد أناف الحُسد
سهر مقلتيه إذ البرية هُجد
عبد الحميد إذا الخلائف عُدّوا
جعلت فرائد سلكه تبدد
ولرمي مغزاها السهام تُسدد
وسطا بهدي المستقيم الملحد
أهوالها المولود ساعة يُولد
عدّ الحصى للظي الكفاح تجلدوا
أطفأت بالتليير ما قد أوقدوا
كادت قبيلك في بنيه تُفقد
وتعطف وتحنن لا يعهد
منها فرائص من سواهم ترعد
بجميع أوصاف الكمال محجد
جنباً فكيف بحال من يستأسد
فلذاك أجفل جمعهم وتشرّدوا

وتشعشت أنواره في سرك ال
في كل عصر جاء عنه مجدد
يا زينة الخلفاء والذخر الذي
هيات أن تحصى مزاياك التي
أقلت للإسلام ما أثلته
وأزحت عنه بسيفك البتار من
أقررت منه العين واستوجبت من
فلئن عليك العالم السفلي قد
ولئن شدت بجميلكم لسن الوري
ولئن به أرضيت كل موحد
أولم تُعد للدين أقوم مجده
وبلغت من إعزازه أقصى المنى
وأنفت من عليائه ما قد تطا
ثمرات رأي خليفة لله أسد
خير الخلائف في العباد مآثراً
أخذ الخلافة وهي علق مضنة
تحتفها الأخطار من أقطارها
وسعت لفتنة شعبها أعداؤها
فتسمرت نيران حرب شاب من
تسعى بها أمم يكاثر عدها
ففقضت ما قد أحكموا سبقاً كما
فأتمت للإسلام كل فضيلة
وغمرتهم بمعارف وعوارف
وأقت رهبة ملكهم بقوى غدت
لله جيش قد نظمت بعزم
أسد تهاب لقاءها أسد الشرى
قد أفرغت أمم البسيطة حربهم

فسلوا بني يونان والإفرس عمّ
غرتهم الأحلام فاغترروا وما
إنّ الضراغم قد تؤم روابضاً
لقوا عداهم حسرة لا تنجلي
نار بأضلعهم تجد ضرامها
يسوا بها مما تمنّيهم به
فلت غروبهم وكسر جمعهم
قرت عيون المسلمين فدأبهم
ونمد كف رغائب الله أن
ويمده بجيل نصر باهر

ل في صميم حشاهم قد أغمدوا
هي غير أضغاث بها قد فندوا
لكن إذا نهضت فليست تُقصد
غمراتها عنهم ولا تُستفد
لم يطفها صبر لهم وتجلد
آمالهم فثنوا إلى ما عودوا
مثل الزجاج هشيمه متبدد
أن يشكروا نعم إله ويحمدوا
يقي أمير المؤمنين الأصيد
تعنو له قمم الزمان وتحفد

وهكذا كان التونسيون في ذلك العصر يولون وجوههم حين صدمهم الاحتلال الفرنسي نحو دولة الخلافة الإسلامية وهي الدولة العثمانية ، ويعلقون عليها آمالهم في فك بلادهم من رقة الاحتلال الأجنبي يرون أن قوة المحتل لا يأتي عليها ويخضدها إلا قوة أخرى تكافئها أو تفوقها تأتي من الخارج . وقد انحصرت هذه القوة في دولة الخلافة الإسلامية في تلك الحقبة من التاريخ هذا ما كان يخامر عقول التونسيين . ومن شعره المرتبط بهذه القصيدة قوله حين اشتهر أن زلزالاً شديداً وقع بالأستانة ، وكان السلطان عبد الحميد في مجلس حاشد من أرباب دولته ، فرعب الجميع ونهضوا من ذلك المجلس مذعورين إلا السلطان لم يتحرك من موضعه ، فقال صاحب الترجمة مضمناً هذه القصة :

يا قبة الإسلام يا دار الهدى والغيل الآساد والأشبال
مهلاً بقيت فلاذ كل موحد وقراره التعظيم والإجلال
حقاً لقد علم الخلائق كنه ما أعددت للأعدا من الأهوال
فعلام شخصت الذي أضمرته من بطشه برواجف الزلزال
أو ما علمت وقار سلطان الورى يرسيك إن لم تكترث بجبال

ولصاحب الترجمة أيضاً رحمه الله هذه الأبيات ضمنها إحساسه الوطني وآماله وتفاؤله لوطنه الحبيب تونس ولقومه التونسيين قال :

ولولا صبية لم تكس ريشا كأفراخ القطا التاطت بعش

لجبت الأرض في حاجات قومي وإعلاء لصرح الدين أمشي
وفي لجج المخاوف جرت عوماً كأني وادع في أمن فرش
ولي نفس تحدتني بعز لتونس مقبل وسمو عرش
وعزيمة صادق ما شاب رأياً لإحراز المنى يوماً بغش
نقشت خواطر الشديد بزهو على قلبي المعنى أيّ نقش
ولم أضمر لأهل الدين بغضاً وفرقاً بين عرهم وحش
أخوتنا بحكم الله حقت فباء لها العداء بفضيع دهش

بل إنه كان من متمناه الالتحاق بالأستانة العلية تحت الخلافة الإسلامية . له
ضمن رسالة وجهها إلى بعض معارفه هناك هذان البيتان :

لعلّي أن يساعدي زماني فأدخل غانماً دار السعادة
أشاهد عزة الإسلام فيها وكيف الدين قد أرسى عماده

وله رحمه الله مع أصحاب الجرائد الوطنية لأول عهدا ارتباط ودي وهي تنشر
له كثيراً من أبحاثه العلمية والتاريخية كجريدة الحاضرة وجريدة الزهرة لأول عهدا
حتى أنه وقع إيقافها من السلط الحكومية إذ ذاك ويشير إلى هذا الحادث صاحب
الترجمة بقوله :

أقول الكواكب لا يخبثي ولكن تكويرها يرهب
وقد حان للزهرة تكويرها لها الشرق يهتز والمغرب

وقال مقرضاً صحيفة الحاضرة لمؤسسها السيد علي بوشوشة :

قرب محيا برزة الحاضرة وجوهنا بشراً به ناضرة
روض تفيئنا ظللاً له لحاظ أزهار غدت ناضرة
تزداد عين اللب علماً بما منها اجتلت لا العين الباصرة
لخدمة القطر بمجهودها عن ساعد النصح انبرت حاسرة
وأصغت الأنفس آذانها شوقاً لألفاظ لها زاهرة
فإن تكن أسمعنا شنت وروقت أعدادها السائرة
فمن جنا شهد مدير لها ومن شدى أخلاقه العاطرة

وقرّض صحيفة نتائج الأفكار نثراً بقوله :

حضرة محرّر نتائج الأفكار ، بعد إهداء السلام اللائق وتضوع نشره العابق ، فقد أبهجني محيا نتائج الأفكار المزري بسفور أقمار الخرد الأبكار ، فرأيت ما أقرّ الأعين وتسابقت في ميادين ثنائه الألسن واستلفت القلوب استحساناً له ووضاً واستنصت الأسماع لعرضه الأنباء غرضاً فغرضاً .

وآنس الوطن من أبنائه تيقظ الهمم وسلوكهم في سبيل العمران لاسترجاع ما أضاعوه في القدم وعسى أن يكون هذا المشروع عبثاً وردّه فتحمد مغنّته ويقتفي قصده . فلقد أكسبتنا التجارب أن نُمّو عمران كل وطن باشتراك أوليائه في أمره واجتماع كلمة شعبه على كل ما يهيمه وتقوية العزائم على ما يجب للقطر بهجة ويوضح من طريق إعزازه ونشر محامده نهجه وعمل كل بحسب مقدرته ، ولينفق كل ذي سعة من سعته وإيالتنا هذه وإن كانت طائفة الصيت ومجلىة في سباق الافتخار بأفلاذ كبدها المحتوين على مكارم الأخلاق المشتملين على طارف الفضائل وتالد الأعراق . غير أن كلمتهم لم تتفق على بث المعارف الحقيقية فيما بينهم وإبرازها من القوة إلى الفعل ومراجعة سنن أسلافنا في المثابرة على ما يثمر العمران حتى استقلوا من بين الأمم في كل فضيلة بالنبل وأصبح أهل البسيطة عالة على ما خلدوا من الآثار وقدوة في كل علم لأرياب كل عصر من الأعصر وقطر من الأقطار مما لم ينكره ذو نصفة من العلماء ولا غمصهم الشهادة أحد ، والحق ما شهدت به الأعداء على أنه لم يعزب هذا عن علمهم ولكن أدركهم هرم الأمة فصدّهم عن التفرّغ لطبيتهم بما شغل كلاً وأهمته وتوجّه هم ذوي الغيرة من عقلاء المملكة إلى ذلك ما ملأ الأفئدة سروراً وأبهج وسهل لأبنائها ملك كل معقل للعلم وفتح كل باب مرتج ، فكأننا بترائنا وقد كسبناه عوداً، على بدء والعود . أحمد وضالتنا قد وجدناها والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها كما في الحديث المسند ، فحق على كل واحد من أبناء القطر أن يشد عضد أخيه ويسرع بعزيمته إلى ما يعلي كعبه ويعنيه . ففي الحقيقة فخر الواحد فخر لبني جلدته وبالجملة فمشرؤكم هذا يثمر التعاون على المرام وهو الوسيلة الناجحة بها المطالب عند الأنام :

وإذا رأيت من الهلال نموّه أيقنت أن سيصير بديراً كاملاً

والسلام المعاد من فلان في غرة جمادى الأولى سنة 1305 هـ .

ولنختم هذا القسم من شعره بما قاله في واقعة حال وذلك أن المجلس البلدي بحاضرة تونس وكان عنصره القوي إذ ذاك قسم أعضائه الفرنسيين قرّر نصب تمثال على نفقته «لجول فيري» من ناحية باب البحر تجاه البحيرة يراه الداخل لمدينة تونس العصرية ، وهو من الشعر الملحون أظهر فيه عواطفه بل عواطف التونسيين عامة نحو هذا الصنيع ووصف فيه ما أودع في ذلك التمثال من رموز بغیضة وتوجّع من ذلك وأعرب عما يجده من الأسى وما يرجوه من المولى من إزالته ولو بعد حين وأنّ أمله أن يشر بإزالته ولو كان إذ ذاك في بطن رسمه ونصّه :

يا جول فيري يا عدو بلادي يلبس عليك قلبي الحريق سوادي
صُورَ وَحُشِّه. ساقت علينا من مصائب برثته. إن ريتها بالعين توحى وحشه
تكتب على قلبي بحزن مدادي
جعلوا بلادي. صورة امرا ترغب لهذا العادي. ولدا يقري بالفساد أولادي
والقلب منها فيه قدح زناد
ما نبغيها. ولا القلب يرضى ما نعيش عليها. نوصي أولادي كره هاك الجبهة
وولادهم يوصوا للأولاد
تنسى فعلة. ما ساق من جندا علينا جملة. بدون ضرورة سابقة ولا علة
تهون علينا غارة الأجناد
طمعوا فينا. في وقت كان الضعف حائط بيننا. وسطا الكحلي في بصير والينا
لاوباش قعدت في مقام أسياد
قالوا جينا. للعدل في البدو وكل مدينة. حتى تعودوا محضنين علنا
وتكسبوا الأول دون عداد
ياخي صدقوا. ما شفتشى الأحرار كيف ترقوا. لا مال لا حرمة لينا بقوا
حازوه والأسياف في الأغماد
نقلك سبوا. قالوا المعمر جاعلية وحبوا. وإنشأ الله يرضى بهذا قلبوا
حتى ينجونا بقية إلهي غاد
إيجا وأسرع. واللي ملك شير يرجع مرجع. أرض العرب طعملمن يستقطع
عليها أقبل مسيو من الأبعاد

أَمَا حَصَلَةٌ . نَفْسَ المُوَحَّدِ مَا تَسَاوَى بَصَلَةٌ . قَدَاشَ رِينَا مِنْ مَسْكِينِ قَبْلَهُ
هَدَّرَتْ دَمَاءَ مَحْدَّةٍ فِي الوَادِي
وَبَذَا نَخَاصِمٌ . سَيْفِ المَعْمَرِ ظَهَرَ حَقِي قَاصِمٌ . بَكَيْتُ يَا عَرَبِي اللِّي فِي العَالَمِ
يَسْمَعُ بِعَزِّكَ كَيْفَ صَارَ بَدَادِي
أَمَا غَيْبِنَةٌ . هَذَا الصَّنَمِ يَحْضُرُوا فِي الزِينَةِ . أَمَا الخَضْرَا مَكْسَرَةٌ وَحَزِينَةٌ
عَمَّ القَطِينُ الذَّلَّ وَالبُجَادِي
صِيرْتُ نَجَارِي . مَا تَعْرِفُ المَغْلُوبِ كَيْفَ يَدَارِي . وَالجَّاسُ يَشْعَلُ فِي مِثْلِ النَارِ
حَتَّى نَرَاهَا مَكْسَرَةٌ خَدَادِي
مَا نِشْتَلِي . حَتَّى نَرَى سُلْطَانَ أَهْلِ المَلَّةِ . أَمْرُو مَحْكَمٌ فِي بِلَادِي كُلُّهُ
عَبْدُ الحَمِيدِ مَجْنَدُ الأَسَادِ
يَا أَهْلَ الحُبِّ . إِذَا نَمُوتُ بِحَسْرَتِي فِي قَلْبِي . وَيَجِي بِنَصْرِي يَوْمَ غُدُوِّ رَبِّي
إِيجُوا لِقَبْرِي وَنَشُرُوا الحَادِي

شعره الاجتماعي :

يقتصر على قصيدة رائعة من هذا الصنف وسمها بموقظة الهمة لاسترجاع شرف
الأمة ونصّها :

أَيُّقِظُ قَوْمِي مِنْ سَبَاتِهِمُ الدَّهْرُ فَقَامُوا بِجِدِّ يَنْفُضُونَ مَسَاوِيَا بَلَى إِنَّ فِي الأَيَّامِ أَكْبَرَ عِبْرَةَ السَّنَا وَأَيْمَ اللّهِ أَحْوَجُ أُمَّةٌ بَرَّتْ جِسْمَهَا حَتَّى تَقُولَ حَاسِدٌ وَأَشْفَتْ بِهَا بَعْدَ اعْتِدَالِ مَزَاجِهَا وَقَدْ خِيفَ أَنْ تَهْوِيَ لِأَسْفَلِ سَافِلِ لَهَا الصِّدْقُ وَالِإِقْلَامُ وَالْعَفْوُ وَالْوَفَا وَهَلْ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَوْ الدِّينِ خَلَّةٌ فَأَبْنَاؤُهَا فِي رَوْضَةِ العَدْلِ رُتِعَ سِوَاءِ فَلَا نَغْضِي عَنْ الجَوْلَامِ رِيءُ	وَنَهَبَهُمْ عَنْ عَظْمِ إِجْرَامِهِمْ أَمْرُ سَفَتَهَا عَلَى هَامَاتِهِمْ شِيمٌ غُبْرُ تَجَرَّ لِإِصْلَاحِ الشُّؤُونِ وَتَضَطَّرَّ لِتَطْيِيبِ أَدْوَاءِ خَلَائِقِنَا تَعَرُّو وَأَشْفَقَ وَدَّ أَنْ يَدَاوِمَهَا الضَّرُّ عَلَى خَطَّةٍ فِي ضَمَنِهَا يَنْفَدُ العَمْرُ بِهَا غَيْبٌ إِنْ أَمَسَتْ وَمِنْ دُونِهَا الغَفْرُ وَكَسَبَ العَلِيَّ وَالْحَزْمَ وَالجِدَّ وَالصَّبْرَ مِنْ الفَضْلِ إِلَّا كَانَ مِنْهَا لَنَا وَكْرُ تَقِيلُ مِنْ أَفْيَائِهِ العَبْدُ وَالْحَرُ وَلَا يَتَجَرَّ أَنْ يَسَاوِرْنَا قَسْرُ
--	---

نواسمها قد ألفت سحراً قطر
 وقد تنثني عن شأوها الأنجم الزهر
 فمن محض آراء جلا محضها الخبر
 تطرقها من قبل إقدامنا الحجر
 فما خص شيخاً دونما يافع سبر
 فلا تلقى إلا من على إثرنا مروا
 فنحن أقنا أسه ذلك القصر
 فتلك التي من صنعنا سنها فروا
 فمن شرعنا ينساب ينبوعه الغمر
 فما قدروا منه فذاك لنا سور
 عزيز كتاب الله فيه لنا ذكر
 نبي الهدى المختار من دينه يسر
 من الجهل لا يُدرى لغايتها قعر
 إلى الملة البيضاء شرعته البكر
 وأشرق من لألائها البر والبحر
 لطاعتها تنور العمائر والقفر
 غدت تحتذي أمثالها الأمم الكثر
 غداة تجافى مستريب ومغتر
 فما استيقظت إلا وقد قضي الأمر
 قلوباً وإن قد ضم أجسامها قبر
 وإن لحت اللاواء واستفحل الشر
 لديهم يساوي فيهم الجاهل الخبر
 مغامزها لا يستطيع لها حصر
 ولا استبضعوا الدنيا فطاب بهم عمر
 ولو حزموا آواهم انخصب النصر
 وتبتز منهم كل شارقة قهر
 قلبسهم ذل ومكسبهم فقر

وأخلاقنا تزري بأزهار روضة
 لنا هم تلو على هم الوري
 ونحن جميعاً أمرنا إن نقم به
 فإن نخط لا نخطو بغير محجة
 قتلنا كبير الدهر سبراً وخبرة
 أنزنا بقاع الأرض علماً وحكمة
 فإن تر قصرأ شيد للعلم في الوري
 وإنك ما استحسننت من مدينة
 وإن أدب قد راق في الناس حسنه
 سبقنا الوري فضلاً وفقناهم حلي
 وما ذاك إلا باتباع كتابنا ال
 وسنة خير المرسلين محمد
 أتانا وقد ساخ الأنام بهوة
 فما زال تهدينا بعلم وحكمة
 إلى أن خبت في ضوئها كل ملة
 فلحنأ لراء أمة وسطاً غدت
 وللدين والدنيا أقامت مصانعا
 فما راعنا إلا تفرق جمعها
 ونامت عيون الحارسين بملها
 فألفت شعوباً طوحت بمفاوز
 تدابر لا يخنو على البعض بعضنا
 صوامت ما إن يُستجاش المنكر
 شواخص أبصار فواتر هممة
 فما شيدوا للدين صرحاً به سما
 أسامهم التقريط في جذب سبب
 تضايقهم في كل يوم نواب
 أناخ عليهم جهلهم بكلاكل

ودونهم ما ليس يعوز علمه
معارف لا تنأى على تناول
ألم يعلموا أن السعادة كلها
وبالعمل المبرور والعلم شرعنا
أصم فلم يقطف جنى العز خالف
فهل نهضة يا قوم ترحض عنكم
فنلزم ما قد خطط الدين حده
فبحوي تراثاً حازه غير وارث
وإصلاح هنا الجمع إصلاح فرده
يلوح ذمنا فيكم فتحفظوا
ومن يحسن التذكير فليقض واجباً
ولله فينا علم غيب سينجلي

شعره الخلقى والديني

نورد من ذلك مقاطيع اخترناها فنما قوله في حسن المعاشرة والإغضاء عن هفوة
الصديق وسعة الصدر :

من تمام الدين حسنى عشرة
رُبَّ خِلٍّ يتجنى صلفاً
ومحمد الله لي حظاً ساء
وبدا بشريّ يمحو ما جنى

وقوله :

إني امرؤ رحب الجنان إذا هفا
وكما علمت خلّاتي لا أنثي
ود عفوت ولذت بالغفران
عن وصله بصنائع الإحسان

وقوله في التمسك بالودّ والمحافظة على العهد :

وحسن وفاء المرء حفظ عهوده
ألا تلك أخلاقي أجمتكم علمها
إذا غار ماء الود أو بقي النزر
فخذ أو فدعها إن يكن هالك الأمر

وقوله :

أراعي كلما يبقى وداد ولم ترّ مقلتي أحداً يراعي
كأني من وفاء العهد خلقي وهم خلّقوا جميعاً من ضياع
وقوله أيضاً :

إنّ المصافي لودّي لا أثني عنه لُبائي
يحتثني من وفالي إليه أيُّ اجتثاث
كأنما بفسّوادي له أوار إراثِ

وقوله في قلة الموقّنين بمودّتهم من الأصدقاء :

أيقنت أن لا خلّ أحمد في الوري من بعد ما قد كنت بعضاً أحمد
سبرت يداي المدّعين مودة فوجدتها منهم تغور وتنجد
وعلمت صدق القائلين ثلاثة منها الوفي أكاذيب لا توجد
أين الذي يوليك غير مذمّم وإذا وفي وافاك وهو محمّد

وفي صدق مودته ونفاق الناس فيها يقول من أثناء قصيدة تهنته :

قد طباني إلى هنالك ود شدّه الصدق بيتا بوثاق
حيث عادت مودة الناس أصفا ها وداداً مشوبة بنفاق

ويقول أيضاً في صدقه في مودّته وسروره بسرور أصدقائه وما يتمّي لهم من
خير :

سروراً أخلاّني سروري المضاعف أقاسمهم سهانه وأناصف
وأعظم ما أرجوه أن يصبحوا وقد غدا كف كلّ للمنى وهو قاطف
سجية نفس ما تجشّمت كسبها وإني عليها منتهى العمر عاكف

ومن شعره الديني قوله :

لا أستبيح حمى شيئين غانية مدى الحياة ورشف الخمر من كأس
لا أشتري الفسق عن عمد فيوبقني ولا أبيع حلّي عقلي بإفلاس

وقوله :

يا أرحم الراحمين عفواً
إني وإن كنت عبد سوء
عما اقتربت من سوء كسبي
فكيفما كنت أنت ربي

وقوله :

عسى من الله يأتي لنا فرج
يا جابراً كل قلب ظلّ منكسراً
بحرمة المصطفى خير الوجود ومن
وقوله تصديراً للبيتين الأخيرين ارتجالاً :

لنرغب أيها المغرور ربا
ولا تعمل جوارح قد براها
وحاذر من عدالته عقاباً
فكم قطع إله لسان مؤذ
ورد بنحر أهل الكيد كيداً
فلا تنطق بغير الحق واغضض
ولا تكتب بخطك غير شيء
فإن الخلق للمولى عيال
وقال عاقداً حديثاً شريفاً :

والمؤمن ما دام حياً مرزاً
كخامة زرع تقيعتها الر
وقال عاقداً حديثاً آخر :

فأصبحنا ونحن صغار قوم وسوف نرى أكابر آخرينا

ومما يرتبط بعقائدنا الدينية أنه أشيع عن بعض المنجمين أن نجما ذا ذنب
سيصدم الكرة الأرضية وخاف ضعفاء العامة من ذلك فقال يطمئنهم :

عن أعين الناس علم الغيب محتجب
طارت مقالة هلك الأرض في رجب
فتار تائر وسواس يساورهم
قام الحزاة بدعواها وليس على
كم أخبروا وجلاء الخير كذبهم
ما بال غوغائهم يعلو لها لجب
كذباً وأخسر ما يستبضع الكذب
يخال عن كتب يسطو به الرعب
تصديقها حجة جاءت بها الكتب
فعاودوا وكأن القوم ما كذبوا

وهيؤوا لانقضاء الدهر فاجعة
 وكم تسور سور الغيب مجترم
 سبحان من غيبه لا يظهرن على
 فإن هم ضربوا للدهر يوم توى
 هل ينقضي وشروط البعث ما ظهرت
 فالناصر الصادق المصدق أنبأنا
 أين الملاحم والدجال ثم رسو
 والخسف والسد والمهدي من شخصت
 والنار والأهلب المأثور حليته
 إلى سوى ذلك مما صح مسنده
 فليفرخ الروع ولتحى المنى فلنا
 وله قصيدة بها اثنان وستون بيتاً جمع فيها أسماء الله الحسنى طالعها :

ثناء الذي لا نخشي دونه صرفاً به نخشي راووق إرشاده صرفاً
 وله قصيدة أخرى بها أربعة وتسعون بيتاً وجمع فيها أسماء النبي ﷺ طالعها :
 لك الحمد يا من غيث أنعمه ربى جميع صنوف الخلق أكرم به رباً
 وأخرى بها مائة وأربعة وعشرون بيتاً طالعها :

بحمد الله أبدأ في النظام مُثني بالصلاة وبالسلام

جمع فيها أسماء أهل بدر رضي الله عنهم وسمّاهم «النصر الأمم بالتوسل بالبدرين
 ذوي الهمم» وقد طبعت سنة 1299هـ . ورأيت على نسخة منها مرقوماً على أول ورقة
 منها ما نصّه : الحمد لله يقول كاتبه قد قرأت هذا اللظم الجامع لأسماء أهل بدر رضي
 الله عنهم أجمعين عند الشباك النبوي حول الحجرة الشريفة عند صلاة العصر من يوم
 الأحد ثامن المحرم الحرام سنة 1300هـ نسأل الله أن يجعله من العمل المقبول عند الله
 والرسول وهو أكرم مسؤول وأن يبلغ الجميع المأمول . حرّره العبد الضعيف محمد
 السنوسي خادم العلم الشريف أخذ الله بيده أمين . نقلاً من خطه .

شعره الوصفي :

من ذلك قوله يصف النرجس المسمى بالبهار :

رُبَّ رَوْضٍ بِهِ الرِّيحَينِ تَرنُو
وَكأنَّ البَهارَ آتِيَةَ العَسرِ
من عيون تصبو لها كل عين
جدد تجلي على خوان لجين

وقوله من قصيدة يصف فيها منتزهات تونس ومصطافاتها :

أفشى هبوب الصَّبَا سر الرياحين
يروى شذى نرجس غضّ مشافهة
فاصحب خليلاً على الآداب منظوياً
واحلل بأريانة السرور ساكنها
وإن أردت وما يأتيك من فند
وربما زوره الخطاب أوجبها
ومنها :

وأنت يا عالماً فنّ الخلاعة لا
إذ كل مشهور قول أصل شهرته
وإن رأيت تباشير المصيف أنت
فلا تقم وأقم سوق الشخوص إلى
وما تأتيك محموداً بمذهبننا
وقل لمن يلحو أنصار الخلاعة قد
أقصر فقد حكمت أهل النهي أترى
ومنها :

وما العشيّة بالصفصاف يعدلها
وما أراك مجيداً للخلاعة مهـ
وما مسامرة الأحباب تتركها
وآله بما شئت واقصد غير أني أرى
فإن أتى رمضان لا تقيم بها
لا يستقيم صيام أتق بسوى
ومنها :

أما البحيرة فهي الروض بجمع ما
مرعى التنزه في حر وفي برد -- مندى الأحبة ملقى الخرد العين
تهوى الأحبة من لهو وتلحين
ومنها ولعله ختامها :

ألهتني تونس باستقصا منازلها
وله منوها بخصوص المرسى :

هلم فصفو العيش في كنف المرسى
رعى الله من تلك الربوع مغانياً
عليها حلي الحسن حُبساً مؤبداً
فإن لسواها استجلب الحسن جالب
وأين مساويها وعيشك لا ترى
فخل عصابات يفيضون قوهم
فما فضلاً يقضي حجاجاً لجاحد

ففي شاطئء منها محاسنه أرسى
وأغمر مشواها فكم ضمنت أنسا
وأعجب إن دامت حلي حسنها حبسا
ففيها إله الحسن أودعه غرسا
إذا ما خرت يوماً عدا ألسنا خرسا
باطراء ما قد يضمرون له بخسا
ولا يتاجي في مفاخرها همسا

شعره الغزلي :

رأيت أن أقتصر في هذا القسم على معارضته لموشح ابن سهل بهذا الموشح
البديع :

أسفر البدر محياً وسيماً
وانجلى غيب ليل بعدما
واعترى الوجد قواداً عذباً
إن عفا الهجران يخشى الرقبا
فهو في الحالين يخني التعبا
يعتم مرضاة حباً حرماً
ما له ذنب لديه غير ما
أيها الموقد في قلبي الغضبي
عمرك الله أبقى قر ضا
إن يكن حسنك بالصدّ قضي
أو تردّ دمعي أن يلدي دماً
فلقد أنبت دمعي العنا

فاكتسى الصبّ به ما قد كُسي
قدّ بالأفق بساط الخندس
بالجفا والعاذل المرتصد
وإذا هجر عانٍ مسهد
علّه يُسعد فيما يُوعد
وصله حتى بطيف النعس
في الحشى من حبه المغترس
ومذكيه بنيران الصدود
فلقا ما بين وعد ووعد
فودادي لك في القلب يزيد
مهجتي في عارض منجس
وارتوى منه عطيش اليبس

رق مما حلّ بي لاحي الهوى
 وهو لو يدري تَبَارِيحَ الجوى
 ليس للحب وإن قلّ دوا
 لم يدع مني إلا أعظما
 يحسب الآسي جسمي وهماً
 تهجع الأعين غفوا في الغسق
 أنظني في فراش من أرق
 هكذا يلقي الذي ظيماً عشق
 وجهه إن لاح لي بدر سما
 يخنني البدر له محتشماً
 فاحمُ الطّرة يبدي فلجا
 كاسر الأجفان لدناً أبلجاً
 أهيف الحصر غريراً أدعجاً
 ثغره يسفر درّاً نظماً
 فإذا ما فاه فارشف كلما
 قدّه قدّ قلوب العاشقين
 مؤنس وهو هصور في عربن
 ما بأحشائي بخديه كمين
 مستقيم الخلق معسول اللّمي
 ريقه صهباء شهد ختماً
 فارتشف والتم سلافاً وخذود
 وتمتّع بخصور وقلود
 وأدر بينكما ذكر القصيد
 غادرت قول ابن سهل حلماً
 وتولى كل شعر قدماً
 أيها القارئ ما قد قلته
 إن قلبي عن هوى حصنته

وانثى يعذرني بعد العذل
 لم ينف عاشقاً عمّا فعل
 معطل أعيب الأشداء الأول
 وسط لحف خللتها نفسي
 حيث لم يدر مكان النفس
 وأنا من لوعة الوجد ضريع
 من قتاد من لهيب من دموع
 مثلما لاقيت من ظبي منوع
 تحت ليل حالك منغلس
 وتجببه ظباء المكنس
 عندما تهفو لمرآه العيون
 يكلم الصبّ بمسنون الجفون
 به عن هديه ضل المستدين
 عزّ ملقاه بشيخ القومس
 إنما هي حياة الأنفس
 وأرى الغصن تثنيّ العامد
 يلحظ الصبّ بعينيّ أسد
 معجز منه انقياد الجاحد
 طيب النشر شهى اللّس
 عتقت دهرأ بمسك أنفس
 إن يكن دهرك يوماً أعتبا
 بين أنغام وروض مطربا
 فهي في رقتها ريح صبا
 مرّ في أول ليل ونسي
 واغتدت منهم بصدر المجلس
 حظي الشعرُ وغيري العاشق
 فتى يسطو عليه راشق

وأرى الوجد وإن أخطأته
هل درى ظبي الحمى أن قد حمى
فهو في حر ونخفق مثلاً
طعماً أحلاه زعاف شارق
قلب صبّ حله عن مكنس
لعبت ريح الصبا بالقبس

شعره الرثالي :

منه ما رثى به شيخه العلامة التحرير سيدي مصطفى بن خليل ونصّه :

إلى كم عيون الموت في الدهر لا تغفو
تخيّر كالتفاد ما راق سيره
رويدك كم تجني بشعواء غارة
فأفّ لدار لا بيت بها امرؤ
فحقّ بأن لا يعلقن جبل وعدّها
أنيرت قلوب أبصرتها بوصفها
فليس سوى أثواب نور تكشفت
ولكن سباق الحاطبين لوصلها
يسرّ كلّ للذي كان خلقه
وأجداهم نفعاً مفيض معارف
كمثل فقيد العلم ذي الشأن مصطفى
فكم نظمت منها قلائد لبة
وإن تعلق الأسماع ياقوت علمه
فإن تطوه أيدي المنون فما سبط
ثناء كأرواح الكباء تأرّجت
وإن تبكه فقدأ عيون معارف
وإن نصبت من كوثر العلم عينه
وإن يُظلمن جوّ العلوم لموته
وإن أسلمته للرغام قرابة
يسلى محبّه الذي هو واجد
ولولاه لم تشف المعارف غلّاه

وعيش الورى من حربها قط لا يصفو
فن أجود يخطو لجيده الطرف
على عزّل منشا تكونهم ضعف
على الأمن إلا كان في ضمنه الخوف
ومن عهدها المنقوض أن يُنفض الكفّ
وما غرّها لبس على جسمها يصفو
عن الفارك الشمطاء عنها نبا الطرف
لحكمة عمران نهايته تقفو
له فراد منهم أينما ألفوا
بها ظلمات الجهل عنهم تكف
فقد كان بحر العلم لؤلؤه يطفو
على نحر تحير تحيرها الرصف
أنيط به من خير أنفسه شنف
على فضله المنشور بين الورى كف
تنشقها السمع المشنف لا الأنف
فيشرى له حور الفرديس تصطف
فما استنبطت كفاه من أعين خلف
فكم قد أضاءت منه أفئدة غلف
فإن بمثواه الملائك تحنف
من الله من زلقى لها يتصر الوصف
ولازمها من سحب أدمعها وكف

وفي القائل تأييد لقول مؤرخ : أحيطت بك الرحمي ويقرنك العطف

وله مرات أخرى كثيرة لا حاجة للإطالة بها وأما :

شعره في المديح :

فيقتصر على أعلاه وأغلاه ، مدح سيد الوجود ﷺ ، وله في هذا الغرض عدة قصائد نذكر منها القصيدة الآتية :

رأى البرق مجتازاً فهاج اشتياقه
عهدته في شرح الشباب مسالماً
رويدك إن شقت ضباك سحابة
تذكر من وادي العقيق منازل
منازل فيها القلب ألفى نعيمه
أدرت بذكرها حديثاً مروّفاً
وما شغني فيها الهيام بشادن
ولكن شوقي للنبي محمد
نبي الهدى والكون مخفى بطيه
به أبرأ الله الأنام من العمى
هو القصد من خلق الوجود بأسره
هو الأول المبعوث والآخر الذي
فكلّ، نبيّ قد تقدم بعثه
أنا به في تبليغ شرعة وقته
وخصّ بفضل ليس يدرك كنهه
ألا يا رسول الله ناداك ضارع
كليم تشكّي النأي عن طبّ جرحه
عدتني عن أعتاب بابك جراً
وبالقلب ما لا يجتليه شغافه
وليس بخاف عنك تفصيل كنهه
ونحن عبيد الدر والفضل لا ترى

وبادر من دمع التروح مراقه
فها هو يبدو للفؤاد شفاقه
فما له جفني قد عراه انشفاقه
فأجري عقيقاً لا يرام انتساقه
ومنها كما شاء البعاد احتراقه
غنيت به عن أن تدار دهاقه
ولا أوثق الخلب المشوق وثاقه
على قلبي المعمود مدّ رواقه
ولم يُدر فضلاً رتته وانفثاقه
وأسعدهم إشفاقه وارثاقه
ليُدري عياناً مجده وفواقه
به الوحي بالأنباء كان انطباقه
فإنه من صافي جداه مذاقه
ومن راحتيه في العلوم ارتزاقه
وليس بطوع المادحين اتساقه
يضيق مجالاً حبسه وانطلاقه
ولو شئت لم يترج عليّ ذواقه
عوادي زمان يقتفني اعتياقه
حديث ميث قد شجاه مساقه
وما سأم أحشائي الضماء زعاقه
مكارمه يوماً نساء رفاقه

وباب أياديك العظام مفتوح
 وأنت ملاذي في الحياتين هذه
 وإنّ رجائي أن أنال مآربي
 ألا يا رسول الله إني لبضعة
 ألا يا رسول الله هب منك نظرة
 فما لفؤادي لاحتمال تباعد
 ويدري موقوف إذا لم تحفه
 ولما أحاطت بي دواع ملامة
 بعثت بها جهد المقل مبة
 تقبل ترب الأرض عني نيابة
 فأوسع لها صدر القبول لكي يرى
 وصلى عليك الله أسنى صلته
 وآلك والأصحاب ما قال منشد :
 فكيف إذا دوني يكون انغلاقه
 ويوم عظيم الهول يكشف ساقه
 ولا خاب من بالجوذ منك اعتلاقه
 ولي مطلب منكم فكيف أعاقه
 لمن باعتزاز منك كان استباقه
 بصبر يُرأى أن يكون مطاقه
 بهالة وصل منك يخشى محاقه
 هي النبيل قد أدمى فأصمى ارتشاقه
 من الوجد ما من قبل عزّ فراقه
 وتستمح العرف المدام اندفاقه
 أبو عذرها والبشر منه نطاقه
 وسلّم تسليماً توالى انغداقه
 رأى البرق مجتازاً فهاج اشتياقه

وهذه القصيدة الغراء قد وجهها صاحب الترجمة لينشدها لدى الروضة النبوية
 الشيخ عبد الجليل براده شيخ المدرّسين بالحرم المدني كلّفه بذلك ضمن مكتوب صدره
 بقوله :

حوى كلّ العلي عبد الجليل يارث في مكارمه أثيل
 فأصبح عين إنسان المعالي وأسمى من تسربل بالجميل

فأجابه عنه بمكتوب نصّه :

غصن روضة المجد وفرع شجرة الفضل بل ثمرة تلك الأغصان ونتيجة هاتيك
 الأفتان ، من برع في الآداب ، وفاق أقرانه في كل باب ، بهجة بلده ، وقرّة عين
 والده ، وإنسان عين زمانه ، وغیظ حسّاده ، الأبرّ الأبرع سيّدي الشيخ محمد النيفر
 لا زال مقتفياً في جمع المآثر آثار آبائه وجدوده ، ناهجاً منهج الفضل في صدوره
 ووروده أمين . وبعد إهداء ما يروق من جميل التحية والتسليم ، فإني قد نلت الحظ
 الأوفر ، وبلغت من السرور كل غايي بوصول الكتاب الكريم بل الدرّ النظيم وانشرح
 صدري ووصلت عقيلة أهلها مثلها واحدة. القصائد وفريدة الفرائد ودرّة تاج الشعر

ويجئمة الدهر ، ولا عجب أن يوجد اللؤلؤ في عمان والعد في برخشان . فالدر من معدنه والجوهر من أماكنه . وقد تجملت مذ تزيت بمدح سيدنا الرسول ، وتاهت على أقرانها إذ وقعت بلا شك في حيز القبول مبشرة بنيل كل مرام زاد الله تعالى في ارتقائكم وأيدكم بروح القدس ووفقكم لأمثالها فإن هذا أولى ما يقدم ويهدى إلى جنبه الرفيع ومقامه المنيع :

أدرت بذكرها حديثاً مروقاً غنيت بها عن أن تدار دهاقه

ثم المرجو من فضلكم تقبيل أيدي حضرة سيدي الوالد وسيدي الطاهر وجميع المحبين ودمتم محفوظين والسلام ، من محبكم عبد الجليل براده ، في 7 محرم سنة 1298 هـ .

نشره

وأما النشر بقسميه السجع والترسيل فاصحاب الترجمة في كليهما باع طويل ولذك من كل منهما نموذجاً حسبما كنا وعدنا به .

فمن النشر المسجوع رسالة كان وجهها إلى العالم التحرير الشيخ سيدي إسماعيل الصفائحي القاضي الحنفي كان أيام إقامته بدمشق نصها بعد فاتحتها :

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سيلا

لقد صدق أبو الطيب فيما قال : فما سبيل المنايا إلى الأرواح إلا مفارقة الأحباب بالأشباح ، فلولاها ما وجدت إليها سبيلاً ولا ألفت على تطرفها إلى اختطافها دليلاً . وقد يماً عتبت الأحية على الزمان ونسبوا إليه تفريق الشمل ونظرة المعيان وتكدير الصفو وإعنات الإخوان حتى وسموه بأنه ليس له أمان ، وأوغلوا في ذمة وسبه وسلوكوا طرائق من تأنيبه وعتبه ، ودرجوا على هاته الطريقة عصراً بعد عصر حتى ورد عن الشارع اجتنائاً لهاته المظلمة قوله عليه السلام : « لا تسبوا الدهر » ثم استمرّ ارعواء السلف إلا بقدر ما ابتدع غبه الخلف فألصقوا وصمة ذلك بالمطايا وحملوها وزر ما أسفر عنه الفراق من الرزايا ، فسبوا وجدعوا وشقوا مرائرها بالتفنيد وصدعوا وتفاضوا عن مطاوعتها لقوادها ومصانعتها لهم وانقيادها وتسخيرها ، فلا تملك دفاعاً ولا تستطيع لغير إرادتهم انصياعاً ، فهي براء من الذنب براءة الذئب من صاحب الجب ، وفريق من الأسلاف ألقوا تباعته على الغداف فوسموه بسمة الشين حتى أضافوا

اسمه إلى البين وما هو إلا مسعد في الديار على بكاء ما شخص لأحبة من الآثار وفريق
ألزموا جنابة ذلك للحدأة وجعلوهم للأوداء أنكى العداة حركوا بحدائهم نشاطها
فأسرعت خطاها ونأت بسرعتها بمن من الأحاب امتطاها لا تملك حبس نفسها من
الهيام فكأنها في استغراق أحلام وليت شعري ما جرم الحادي وهو مستأجر ليعث
هتها في التّمادي ، وإذا كان لا مندوحة عن قطع السباب فمن الحق الإسراع لإراحة
الراكب ، لكنني أرى العتب على المنشئات المواخر وأعلام الخضارم الزواجر قاطعة أيم
البحار بيأس الحديد وزعزع البخار فما أسمع منظرها بعين من ذاق مضاضة ما تأتيه من
التفريق وما تجره من النأي عن الحبيب الصديق أستغفر الله أن أضيف ذلك إلى غير من
بيده الرفع والخفض والإبرام والنقض فهو الذي قدر الأشياء بحكمته وشمل الخلائق
بسابع نعمته وأحاط العالم بسياج رحمته وأدخل الممكنات تحت قاهر قدرته ولكن
استقدره خيراً وأستدفعه مكروهاً وضيراً وأستمنحه أظافاً تدقّ خفاء وآلاء تعمّ
جميعنا حقاً واحتفاء لثابة ذلك العالم الجليل والجهيد النبيل أوجد أقرانه وبهجة زمانه
ذي التحرير الذي عجزت عنه التحازير والتقارير الذي جفن العلم به قرير فارس البيان
المُنسي بفصاحته بلاغة سبحان خلاصة الخواص الممنوح مزايا الاختصاص ناهيك
برجل بدا مثال المجادة ووحيداً في الفضائل والسيادة أبي الفداء سيدي إسماعيل
الصفائحي القاضي الحنفي بتونس أدام الله رعيه وأنجح سعيه السلام الأتمّ عليكم
ورحمة الله وبركاته وبعد فقد كنت في انتظار بشير قرب إياكم واجتناء ثمر اقترابكم
بعد مضاء منسك الحج الذي له جبتم الفيافي ومخرتم اللجّ حتى طرق سمعي أنّ
جنايبكم ما زال في دمشق فبادرت بمكاتبتكم والشوق ملء الجوانح وهجّيراه
استطلاع لذيذ أخباركم من الغادي والرائح سائلين عن عافيتكم المرجو من الله دوامها
عليكم وعلى كافة جمعكم أما جمع مكاتبتكم فعلى ما يسرّ أخوتكم ونبلغكم السلام
الخاص من والد الجميع وهو يدعو بتيسر الاجتماع على أحسن حالة تتمنونها كما
يرجو جميعنا ذلك ودمتم في أمن الله وحفظه والسلام من فلان في 15 صفر سنة
1325 هـ .

ومن نثره المسجوع أيضاً رسالة بعثها إلى الوزير خير الدين باشا التونسي وهو إذ
ذاك الصدر الأعظم بالأستانة مرفقة بالنظم البديع جمع فيه مناقب الوزير خير الدين
المذكور حين كان وزيراً أكبر بتونس الذي سماه «قرة العين في مآثر الوزير خير الدين»
ونص الرسالة المشار إليها :

الحمد لله الجناب الذي أشرفت في سماء الصدارة كواكبه واتصلت بأسباب العزّ مطالبه واشتملت على الفضل والمفاخر مناقبه وظفرت بكمال العزّ والسعادة والعناية مراتبه المؤيد من الله في رأيه وباذل النصيح للأمة في جميل سعيه ، عضد وزراء الملة وبدر أولئك الأهله الأحزم الهمام ومنه الله على الأمة في هذه الأيام تاج الصدارة سيدي خير الدين باشا أدام الله له العناية وأحاطه من كمال العافية بأعظم وقاية آمين . أما بعد إنهاء لائق سلام ، محمول على كاهل إجلال لتلك الحضرة وإعظام ، فإني ما زلت منذ أنيطيت عني التمام وانخرطت في سلك أولي العمائم ، مولعاً بجمع مناقب الرجال أهل الكمال سيما أفراد حاضرتنا الخضراء منبت العلماء والصالحين وبقية أنصار الشريعة والدين فرج الله كربها ولا أبعد قربها لما جُبلت عليه الطبايع من حبّ الإنسان لشهر مفاخر بلده حب الشفوق لولده . وكنت كثيراً ما أسمع من أشرف بلادنا وأطواد كمالها وأهل المعرفة والإنصاف . من فضلاء رجالها ، ذكر مناقبكم التي لم تنزل على صفحات الزمان مرقومة ومزاياكم على هذه البلاد وغيرها المشهورة المعلومة . ويقول الكل هذا قلّ ولكنه جهد مُقلّ ، فأقول في نفسي : إني وإن كنت لحدائثة سني لم أدرك ذلك الزمان لكن خلص إليّ من أهل التحري ما يقوم مقام العيان وما زال هذا يتردّد في خلدي أداء لحق تاج مفخر بلدي سيما مع ما نراه وما نسمعه من حب أسلافي حتى من الله سبحانه بإسعافي فساعدتني القريحة والقلم على جمع بعض مفاخر هذا العلم في رجز حدوت به حدو ذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب وزير غرناطة في رجزه الذي سماه رقم الحلل في نظم الدول خدمت به أبواب الصدارة ورفعته إليها صحبة هذا وإغضاء مولانا وراءه إن رأى فيه تقصيراً والله يديم بقاءكم للوجود وأبوابكم للوفود والسلام من إلخ اه .

ومن إنشائه المسجوع أيضاً هذا الدعاء الذي دعا به في أحد أختام الحديث الشريف في رمضان بعد إلقائه درس الختم على العادة المتبعة في ذلكو نص رمضان بعد إلقائه درس الختم على العادة المتبعة في ذلك ونصّه :

الحمد لله يا من لا يفرع إلا لبابه في المهمات ولا يرتجى إلا جنابه في كشف الملمات ولا يحتسى إلا بمنيع حرزه ولا يعتز إلا بشامخ عزه ، نسألك بأعظم أسمائك أن تصلي وتسلم على أقرب أحبائك سيد الرسل الهداة والرحمة العامة المهداة الذي أمنّ بيعته الأنام وقال في ظل نعمته العالم ونام ، سيدنا محمد النبي الأواه الذي تتعطر بذكره الأزمنة والأمكنة والأفواه صلاة وسلاماً تتدفق حياضهما بسلسيل القبول وتنسّم

علينا من رضاه نسمات الصباو القبول حتى يظهر في ملابس أنوار شارقة وتلوح علينا من دلائل الاصطفاء إمارات صادقة . اللهم حفنا بألطافك الخفية واحفظنا من كل سوء وبلية وأصلح بفضلك الراعي والرعية ، اللهم إنا بسطنا إليك أكف الإلتجاء ووقفنا ببابك الذي إليه المصير والنجاء فأفض علينا سجل الإجابة فأتت المولى الذي من دعاه أجابه اللهم : لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته ولا عيباً إلا سترته وادفع عنا كل ملة واقض لنا كل مهمة وانتم لنا بالحسنى وبؤتنا من جنتك المقام الأسنى جوار نبيك الرؤوف الرحيم القائل كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلان في الميزان سبحان الله وبمحمد سبحان الله العظيم اهـ .

وأما نثره المرسل فإليك بعضاً منه أيضاً أولاً بيانه لحكمة جعل الطهارة شرطاً في الصلاة يقول فيه ما نصّه :

الوضوء للمثول بين يدي الله بمنزلة الثياب الرسمية لمقابلة الملوك وللملك أن يصطلح على ما شاء من الهيئات ويجعلها خاصة لمواكبه وللمثول لدى حضرته فإننا نشاهد اختلاف الهيئات الرسمية بين ملوك الأرض فليس زيّ الهيئات الأوروبية بالمماثل للهيئات الآسيوية ولا الآسيوية بالمشابهة للإفريقية بل كل قسم من الأقسام الأربع بين ملوكه اختلاف بين في الأوضاع والاصطلاحات وليس من نكير من واحد على ما اصطلاح عليه في هيئاته إن لم تكن مخالفة للعقل العام بين البشر ومخلة للآداب الإنسانية . ولما كان المصلي يناجي ربه كما ورد عن النبي ﷺ أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجداً أي لأنها حالة إظهار الخضوع له والذلة والافتقار إليه فلا جرم يجب أن يلبس ثياب مقابلته الرسمية ليكون مرموقاً بعين الإقبال لالتزامه الرسوم المحدودة والقوانين المشروعة وليس ذلك إلا الطهارة بقسميها . فقد أبلغنا رسوله الصادق وسفيره الناصح أنه جلّ جلاله جعل ثيابنا الرسمية للمثول بين يديه هذه الطهارة وأنه لا يقبل خضوع من لم يلتحف رداءها إلا لعذر قائم ، كما أن من خالف أمر الملك في مواجهته الرسمية فلم يلبس ثياب زينته وأوسمة لغير عذر قائم يستحق أن لا يقبل وأن يطرد لاستخفافه بالأوامر الملكية التي عليها مدار النظام وجعل تعالى نزع هذه الثياب الرسمية هو الحدث الأكبر أو الأصغر كما اصطلاح الملوك على أن نزعها هو خلعها ولو شاوروا أن يجعلوا تغيير الهيئة الرسمية بلبس ثوب فوقها أو غير ذلك لجاز إذ لامشاحة في الاصطلاح . ولما أخبر الرسول الصادق أن الله جعل الحدث نزعها وهو الفاعل المختار فما لنا وللبحث عن سرّه وكثير من القوانين السماوية على هذا النمط

موكول علم سرها لمشرعها جل ذكره ألا ترى أن الطهارة في الشريعة الموسوية هي غسل بعض الأصابع والأيدي الرسمية للصلاة عندهم سيور من جلد تشد على هيئة مفوض سر وضعها إليه عز وجل اهـ .

ثانياً ، جوابه لمن سأله عن شرح ما نوه به في شأن الأرقاء في الإسلام في الجزء الثاني من تاريخه حسن البيان عما بلغته إفريقية في الإسلام من السطوة وال عمران ونص جوابه المشار إليه بعد فاتحته :

الفاضل الزكي العالم التحرير الماجد الشيخ سيدي محمد الحشايشي الشريف حرسه الله السلام الأتم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . وبعد ، فقد وصلني الجزء الثاني من تاريخنا حسن البيان بعد أن حظي بمطالعتكم وقد مر وقوعه منكم محل الاستحسان ويصلكم الجزء الأول من التاريخ المذكور لتطلعوا عليه طبق اقتراحكم . أما الجواب الذي رغبتموه عن قولنا في شأن الأرقاء في الإسلام وما حصلوا عليه من الخير وما كان فيه لكثير منهم من المجد بما نصبه : فكثير من هؤلاء الأرقاء صاروا قواداً عظاماً وأمراء أمصار وعلماء إرخ ، وكثير من نسايتهم كانوا أمهات للخلفاء والملوك والعلماء والأعيان إرخ .

فإن تتبع ذلك مما يخرج عن نطاق الحصر ، ولنذكر جملة كالعنوان يستدل بها . أما القواد من الأرقاء فمنهم طارق بن زياد فاتح الأندلس مولى موسى بن نصير ومنهم طريف مولى موسى أيضاً فاتح جزيرة طريف من الأندلس ومنهم مغيث مولاة أيضاً ومنهم أبو المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد الأنصاري أمير مصر فقد أولى ديناراً المذكور مولاة على إفريقية فقاد الجنود وغزا وضبط إفريقية بسياسته ومنهم يزيد بن دينار مولى الحجاج بن يوسف الثقفي فقد ولي إفريقية من الأمراء عبيد الله ابن الحجاب مولى الحجاج السلوي فهو أمير وقائد . ومن الأمراء القواد عبد الأعلى ابن جريج الرومي من روم إفريقية مولى للعرب ولي إمارة طنجة وما إليها ، وكان قائداً لخوارج الصفرية في حربهم ومنهم أبو شجاع فاتك الرومي مولى الإخشيد وصاحب مصر ومنهم أبو سعيد قراقوش مولى أسد الدين شيركوه ومنهم كافور مولى عبد الله بن طنج الإخشيد ومنهم جوهر الصقلي مولى المعز العبيدي فاتح مصر والمغرب ومؤسس قاهرة مصر ، ومنهم أفلح مولى المعز العبيدي أمير برقة . أما العلماء فمنهم : محمد بن سيرين مولى أنس بن مالك رصي الله عنه وهو فارسي من أهل جرجرايا ، ومنهم عبد الله بن دينار مولى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ومنهم نافع مولاة أيضاً وهو من سبي الديلم ومنهم مكحول بن سهرار

من سبي كابل مولى امرأة في هذيل ومنهم أبو عبيد القاسم بن سلام الرومي أول من صنف في غريب الحديث ، ومنهم طوويس مولى أروى بنت كرز أم سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو أحد علماء الموسيقى للغناء العربي من سكان المدينة المنورة وإن كان من المغنين فلا ينبغي أن يذكر مع هؤلاء .

أما نساؤهم اللاتي صرن أمهات للخلفاء والملوك والعلماء والأعيان فمنهن شاه فرندا بنت فيروز بن يزدجرد كسرى الفرس وفيروز ابن بنت شيرويه وأم شيرويه بنت خاقان الترك وأم يزدجرد بنت قيصر الروم فهي أم الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك من خلفاء بني أمية وكان يفتخر بذلك . ومن شعره :

أنا ابن كسرى وأبي مروان وقصر جدّي وجدّي خاقان

وأم إبراهيم بن الوليد أخيه بربرية من سبي البربر وآخر خلفائهم مروان بن محمد أمه مولاة كردية والخليفتان موسى الهادي وهارون الرشيد أمهما مولاة اسمها الخيزران والمأمون أمه مولاة اسمها مراحل والمعتصم أمه مولاة اسمها ماردة والواثق أمه مولاة رومية اسمها قراطيس والمتوكل أمه مولاة تركية اسمها شجاع وكل من سيدنا زين العابدين بن سيدنا الحسين أحد الأئمة والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق أحد الفقهاء السبعة وسالم بن عبد الله بن عمر أحد الفقهاء السبعة أيضاً أمهاتهم بنات يزدجرد فهم أبناء الخالة كان أتي بهن سبايا في خلافة سيدنا عمر وعثمان رضي الله عنهما فاشتراهن سيدنا علي ووهب إحداهن لابنه الحسين والأخرى لعبد الله ابن عمر والثالثة لمحمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم ، فكل منهن أتت بعالم من علماء الأمة ، ومن يومئذ اشتدت رغبة الناس في التزوج بالسراري لما رأوا من نجابة هؤلاء .

وأم الأمراء الأغلبة مولاة اسمها حلاجل . ومن شعر جدّهم الأغلب بن سالم فيها متشوقاً إليها وهو ببغداد وقد تركها بمصر :

ما سرّ ميلاً ولا جاورت مرحلة إلا وذكرك يثني دائماً عنقي
ولا ذكرتك إلا بت مرتقباً أرعى النجوم كأن الموت معتنقي

وأم الأمراء الحسينيين من سبي الإفرنج ، كما حكاه الوزير في تاريخه وغيره ، وفي ذلك كفاية والله يحرس كالكلمة والسلام من أحنيتكم محمد النيفر في 26 شوال سنة 1323 هـ .
ولنكتف بما ذكرنا من شعره ونثره رحمه الله .

339 - الشيخ أبو عبد الله محمد بن عثمان الحشائشي

بيت الحشائشي من بيوت الفضل والمجد بتونس معروف بشرف المحدث من آل البيت النبوي أخذ العلم بجامع الزيتونة على أساتذته الأعلام وكان ولوعاً على الأخص بعلمي الأدب والتاريخ الإسلامي

يلزمه بعض معاصريه بأنه صاحب المبعوث الفرنسي الذي قام بمهمة استطلاع حال الصحراء الإفريقية وسكانها ، التوارق ومعهما مترجم والسيد الورتاني حتى خشى أولئك القوم الصحراويون المنزورون بصحرائهم من أن ذلك تمهيد لمد فرنسا لجناح استعمارها على الصحراء ففتكوا بالفرنسي ورفيقه الورتاني الذي نقلت لوفاته إلى تونس ودفن بزاوية سيدي محمد بن ملوكة بباب القرجاني ، وخلص صاحب الترجمة فاراً بنفسه إلى حاضرة تونس ، وبقي بها . وله رحلة ألفها عن سفرته إلى ليبيا ، طرابلس ، وكتاب في العادات والتقاليد ، وكلف بمهمة في مكتبة جامع الزيتونة ، وشارك في اللجان المكلفة بتنظيمها إلى أن توفي في ذي الحجة سنة 1330 . ومن شعره قصيدة هنا بها الأمير محمد الهادي باي لما رجع من باريس ، نصها :

إلى تونس الخضراء أب أميرها	فنادت عباد الله دام نصيرها
قدومك كالغيث العميم يسرها	وذاك مثل الشمس أضحت تيرها
حللت يمين الله بلدتك التي	بغرة وجه منك ضاءت قصورها
وهب عبير المسك من هضباتها	وفاحت بأدواح الرياض زهورها
ومالت غصون البان يعطفها الصبا	وغنت بألحان الهناء طيورها
وعادت إلى الأستباح أرواحها التي	يتابعكم مهما رحلتم ضميرها
ولله ما أبهى ترحك الذي	ترحلته كالشمس عاد ظهورها
ترحلت عن قلب ودود وبلدة	تطير اشتياقاً حيث حل أميرها
إلى أين ألقى السحب صوب غمامة	وعانق أغصان الرياض غديرها
مغان بها سيب العلوم كأنها	سيوح عراق غزرها ووفورها
معارف شم بالمعارف أترعت	وأقمار أفلاك العلى وبدورها
سقتها مياه العدل حتى تفجرت	ينابيع كسب ما يكون ظهورها
ركبت لها البحر الخضم لعودة	مباركة والعود منك منيرها
يصاحبك الشبلان أمجد طاهر	وصنوه محمود الخصال بشيرها
ورافقتك النحرير عالم تونس	وثبتها المولى العزيز وزيرها

بشمس الضحى نوراً إذا ما تديرها
 وآية باسم الله كانت تسيورها
 يقلّ على وجه البسيط نظيرها
 إلى أمة قدما أتاك كبيرها
 ولّبّاك بالبشرى الهمام سفيرها
 تذكرونا عهد الوداد سطورها
 وأغشى عيون الكهرياء منيرها
 أليس ملك العصر جاء يزورها
 وحنّت مغانيها إليك ودورها
 وطابت بكم نفساً وفاح عبيرها
 صحائف تتلى بالثناء سطورها
 إلى طلعة بدر السماء نظيرها
 بها تونس الخضراء يتم سرورها
 وإن شئت أرّخها : يدوم هشيرها
 1256 60 6

سنة 1322هـ

ومن شعره يرثي الوالد رحمة الله عليهما ، وتوفي صاحب الترجمة في نفس تلك

السنة :

بيكي الورى طراً بدمع هام
 ويقول أودى محمد الحبر الهما
 كم نور الألباب ثاقب فكره
 كم نور الكتب التي في طيّها
 حبر إذا هزّ اليراعة كفه
 من آل بيت لو تجسم للورى
 نطق الكتاب بفضله في إنما
 حسن البيان عليك يعرب شاهداً
 ومتون مذهب مالك بشروحها
 وبلاغة السعدين كان لنشرها
 ونوادير الأدب التي أحرزتها

لفقيد بيت شريعة الإسلام
 م النيفري خلاصة الإعلام
 ببلاغة راقية بسحر كلام
 نشر يفوح لنا كعرف خزام
 عجزت هنالك ألسن الأقلام
 لرأيته حجاً لكل هام
 وغدا يطهره من الآثام
 بكمال كشفك عن سنا الأيام
 فقدت لفقك مقصد الأحكام
 عبد الحكيم مؤيداً لعصام
 فضحت نوادر محكم النظام

ورسائل مُلئت بعلم زاخر
وجواهر الشعر التي قلدتها
وبراعة وكياسة ودمائة
ووفور علم بالزمان وأهله
ولها على حلق الدروس ومن لها
واها على كتب العلوم ومن لتد
تبكيك لجننتها التي نولتها
يا جامع الزيتونة السامي الذرا
كم قد أنار رحيب بيتك مرشداً
لاقيت ربك خاشعاً متبتلاً
وتركت طلاب الهدى من بعدكم
ومحلّ درسك بلقماً من بعدما
حكم الإله ولا توقف نافذ
يا أصله يا شبهه يا صنوه
صبراً وهل يجدي التصبر عن فتى
لكن إذا كان المصير لجنة
هان العزاء به وإن هدّ القوى
يا حسرة ما كان مكنك بيننا
من نستشير به بعد ذاتك باسطاً
لكنه أبقى رياضاً زاهراً
ما كان نعيك عندنا متوقفاً
لكن في تصريف حكم الله ما
أعزز عليّ بأن أرى شمس الهدى
فكأنها ما أشرقت يوماً على
يا نجل من مرع المنابر وارتقى
نم في جوار الله خير مبشر
وعليك رحمة ربنا منهلة
ومن الدليل على السعادة قد أتى

111 1207 7 5

سنة 1330 هـ

ومن شعره ونثره ما قرّض به حسن البيان للوالد ونصّه بعد فاتحته : العالم البصير
المبدع المغرب الخبير العلق النفيس المشرقة بدور معارفه في سماء الإفادة والتدريس ،
فرع الشجرة الطيبة ومزن الغمامة الصيّبة ، العلم الأشهر ، جناب المدرس الأعلى
الشيخ سيدي محمد النيفر ، جعل الله أيامه باسمه الثغور ، وساعات أوقاته طالعة البدور .
أما السلام المغرب عن إجلاله اللائق بحضرة ذلك المقام الذي لا ريب في كماله ، فقد
شرّفت بوفود ذلك الكتاب الساحر لجلجلان⁽¹⁾ ذوي الألباب فسرّحت في رياضة
النظر وأجلت في بساطة الفكر ، فإذا هو البحر المتلاطم الزاخر الذي جمع من درر
أخبار الأوائل ما تنائر ، فله درّك لقد كشفت فيها القناع عن أوجه عرائس الفوائد التي
ما حوتها الرقاع ولا دبّجها اليراع من الأنقال المفيدة المؤيدة بتعاليل الآراء السديدة ،
الترجمة عن حوادث إفريقية ووقائع المغرب وملاحم المملكة الأندلسية حتى لدن
عصر الخلافة القاهرة وأيام التابعين الزاهرة ، فأثبت فيه ما غفلت عند التحارير بأوضح
برهان وأعذب تحرير ، فطابق اسمه مسماه وناسب لفظه معناه :

قل لابن خلدون وإن أنهى العير حسن البيان على كتابك معتبر
تالله أن لو شتمه متلعماً لأنخذت من تحقيقه صدق الخبر

وشرحت القول في تراجم الأعيان مما عجز عنه تحقيق ابن خلكان فوفيت الغرض
وقمت بأحسن واجب مفترض ، وماذا أقول في كتاب جليل تنزيل من فكر صقيل إلا
أني في كل ساعة أنشد ما قاله في ذلك العلامة أحمد :

أبا عبد الإله نظمت دراً له حسن على الدرّي يعلو
كتاب يعبق التحقيق منه يشيب له عدوك وهو طفل

أو أني أحليه بما استطاع فكري القاصر عليه لأني أرى ذلك من الفرض ، ولو
تركته لتعلق بي يوم العرض فقلت ولو أني نسيت القريض وجنابكم على علم بحالة
المريض ، فنطلب منكم العذر إن أخطأت في النظم والنثر :

روض من التحقيق أئنع زهره في عالم التاريخ يعبق نشره
صدق اليقين نباته وفصاحة الـ جملة المفيدة للبلاغة جذره
وغصونه من لؤلؤ رطيب على أوراقها حجب اللجين وقطره

(1) حبة القلب .

ثمراته السدر النفيس لمن أتى
أوليس ذا حسن البيان كتاب من
النيفري محمد نجل الذي
جمع الفوائد مخبراً عما مضى
أيام جرّ العُرب ذيل فخارهم
أيام نافست المغارب شرقها
أيام طأطأت الملوك رؤوسها
ومؤزر بصوارم هنديّة
جدلان إن حمي الوطيس رأيت
حدث على أمثاله مترنماً
أثبت له ما قد حكى التاريخ في
من كل ما بلغته إفريقية
هذا الكتاب تأيدت أخباره
قد قلت لما جساءني مستبشراً

متطلباً ما كان يحسن ذكره
قد لاح في أفق المعارف بدره
قد فاض علماً بالشريعة صدره
من سالف الدهر المنور عصره
والدين ينمو في البرية نصره
وتقدم الإسلام شعشع فجره
لمعمم ما عيل قط صبره
وملثم غاب الهزبر مقره
متهللاً بيدي التسم ثغره
بشائه ما فاح طيباً نشره
حسن البيان فإن ذلك فخره
عزاً وما أعى الخنك حصره
فكأنما تمثال ذلك خبره
في عالم التاريخ يعلو بشره

1207 192

سنة 1323هـ

صدقاً فلله المهيمن درّه
فشربت فما لا يعربد سكره
فأخذت ما قد زان نحري درّه
من حسن تحقيق يروك أمره
مما تسطر في الصحائف ذكره
أن شتمه لعلمت أنك نهره
قد جاء في نص المنزل طهره
أيام أعلام الصحابة عصره
تبدو كما طلع الصباح وفجره
ذهبت بمن فتح العوالم سمه
بالرعب عمّ علي البسيطة نصره
فاضت بما ملأ البطائح غمره
إن شاء أو طوراً يروك كفره
والعسر يأتي بعد ذلك يسره
عود الذي عنا تسلل ذخره

جمعت شوارد كل حادثة به
طالعه فإذا الرحيق بطيه
ورأيت البحر العباب إفادة
وعشقت ما جمعت غضون كلامه
وتركت ما لابن الأثير وغيره
قل لابن خلدون فهذا البحر لو
صاغت حلاه درة البيت الذي
من يقتني من علمه فكأنما
كانت وما زالت مآثر عزها
لكن صروف الدهر مثل طباعه
جيش من الإسلام يخشاه الردي
أدمى فجاج الروم حتى شعابها
والدهر مثل المرء طوراً مسلماً
فاصبر فإن الصبر ضربة لازب
فاخلع إذا ثوب التواني طالباً

من كل علم نافع ومعارف
واسلم أبا عبد الإله محمد
دم آمناً وعليك من سحب الثنا
ما عشت تبدي للأنام معارفاً
وعليك من كل العباد تحية
ضاءت بها حقب الزمان وعصره
واعل كما يعلو المحيط وزمره
ما إن يزال الدهر يسكب قطره
طرباً بها ذهن اللبيب وفكره
وسلامهم يغشاك دوماً عطره

ومن نثر صاحب الترجمة أيضاً ما كاتب به الوالد يسأله عما ذكره في تلك الرسالة، ونص ذلك :

العالم التحرير المطلع الخبير جناب الدراكة الشيخ سيدي محمد النيفر، أدام الله بقاءه آمين . أما بعد أتم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فالواصل لجنابكم الجزء الثاني من حسن البيان وقد استفدنا منه ، أفادكم الله إفادات يعجز قلبي عن بيان محاسنها ، وحين زفني الله بتمام الشفاء تأتيكم مقالة من عبدكم الحقيير ونظماً ونثراً⁽¹⁾ تكشف ، إن شاء الله ، عن حسن صنيعكم في ذلك التاريخ الذي لم يسبق إليه ، وسيكون بين الأنام المعول عليه . ومن متمنيات عبدكم الإطلاع على الجزء الاول منه ، ولا يمكث عندي إلا أياماً ، إن ظهر لكم ذلك فإني من أصدقائكم الذين يترجون لكم كل تقدم ونجاح ، ونطلب من جنابكم الجواب عما تضمنته البطاقة المصاحبة لهاته الورقة ، لا زلت منهل علم يورد ، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته من حليف ودمكم على الدوام محمد الحشايشي الشريف ، كتب في 13 شوال سنة 1323 هـ . ونص ما بالبطاقة المشار إليها يطلب عبدكم على سبيل الإختصار بيان بعض من الأرقاء الذين صاروا قواداً وأمراء إلخ . وكذلك أسماء بعض الخلفاء والملوك والأعيان إلخ الذين أمهاتهم أرقاء تؤجرون هـ .

وقد ذكرت ما أجب به الوالد رحمه الله عن هذا السؤال التاريخي في آخر ترجمته قبل هذه فليرجع إليه من أراه .

كما أن صاحب الترجمة كاتب الوالد مسترشداً بمكتوب نصه :

جناب العلامة التحرير الأكمل المدرس الشيخ سيدي محمد النيفر ، أدام الله بقاءه وأجزل في مدارج العز ارتقاءه ، أما بعد السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، فالمأمول من كريم فضلكم إفادتنا ، أفادكم الله بالقصيدة النادرة الوجود المكتوبة فوق جدران قصر الحمراء بغرناطة التي منها هذا البيت :

(1) هي المكتوب قبل هذا .

فلو خَيْرُ الإسلام فيما تريده لما اختار إلا أن تعيش وتسلما
ومن قائلها لا زلت مصدر الإفادة ومعدن العلم والإجادة ويكون إرسالها صحبة
الحامل إن تيسر لكم ذلك أو إرشادنا عن ذاكها كتبه صديق البيت النيفري الشريف
محمد بن عثمان الحشايشي في رمضان المعظم سنة 1322 هـ .

كما خاطبه صديقه سيدي محمد بن البشير بن الخوجة في نفس ما تضمنته هذا
المكتوب نفسه تقريباً ونصّه بعد فاتحته :

الفاضل التحرير المتحلي من الكمالات بكثير والماجد النبيل المستوجب لوافر
التبجيل أخونا العالم المدرّس الشيخ سيدي محمد النيفر منحه الله الجزاء الأوفر السلام
عليكم ورحمة الله وبعد فقد كانت مجادتكم أطلعتني لسنين فارطة على مجموع بخط
أندلسي عتيق به قصائد من شعر الوزير ابن زمرك من جملتها قصيدة منقوشة على
إحدى قباب قصر الحمراء تضمنت البيتين الآتين :

تبارك من أولاك أمر عباده فأولى بك الإسلام فضلاً وأنعماً
فلو خَيْرُ الإسلام فيما يريده لما اختار إلا أن تعيش وتسلما

وقد دعت الحاجة الآن لمراجعة تلك القصيدة الغراء ولا سبيل للاطلاع عليها إلا
إذا سمحت أخوتكم وهو المؤمل في أخوتكم بإعازتي ذلك المجموع النفيس والله
يجرس جنابكم والسلام . من مخلصكم فقير ربّه محمد بن الخوجة كان الله للجميع
في شعبان سنة 1320 هـ .

وقد أجاب الوالد هذا الأخير بقوله :

التحرير الماجد الفاضل ومطلع شمس الفضائل والفواضل الأكمل البارع
ومحرز خصل التبرير بلا منازع مشيد صرح العلي والمتقلد من المحاسن بأنفس الحلّي
أخونا الشيخ سيدي محمد بن الخوجة لا زالت شمس مجادته تحلّ من فلك الرفعة
بروجه السلام عليكم ورحمة الله وبعد فقد شرفّنتي بطاقتكم المتضمنة أن الحاجة
دعت للاطلاع سعادتك على قصيدة من شعر الوزير ابن زمرك نقشت في إحدى
قباب قصر الحمراء تضمنت البيتين الآتين :

تبارك من ولاك أمر عباده فأولى بك الإسلام فضلاً وأنعماً
فلو خَيْرُ الإسلام فيما يريده لما اختار إلا أن تعيش وتسلما

كان محبكم أطلع جنابكم عليها لسنين فارطة بمجموع بخط أندلسي عتيق يشمل

قصائد الوزير المذكور إلى آخر ما بها وعلمته وحيث تعذر علي إرسال عين ذلك المجموع لمغيبه ولم يمكّني استحضاره ، وقد كنت جمعت ديوان الوزير المذكور مرتباً على حروف العجم ، فقد بادرت بإرسال الجزء الثاني منه المتضمن للقصيدة التي رغب جنابكم الإطلاع عليها ، بما يسد تلك الحاجة ، والله يحرم كمالككم والسلام الخ اه .

وبعد اطلاع السيد محمد بن الخوجة على الجزء الموجّه إليه من ديوان ذي الوزارتين ابن زمرك مخاطب الوالد ، رحمهما الله بقوله :

الحمد لله جناب الحازم البارع الماجد الأغر سيدي محمد النيفر دام عزه بمنه ، بعد التحية الزكية فيصلكم صحبة الحامل الكتاب العزيز الوجود الذي صاغته أفكار الإمام ذي الوزارتين ابن زمرك الأندلسي مادم الغني بالله أواخر المائة الثامنة ، ولا حاجة بأن أشكر سعيكم على ما بذلتم من الجهد في جميع شتات هذا الديوان بعد أن نسجت عليه عناكب النسيان ، وقد كنت فيما سلف وقفت على أبيات في رحلة سائح من القصيدة التي عددها 218 بهذا الكتاب الجليل ، نقلها روانها من عين المحل المنقوشة به ، إلا أن مر السنين حال بينه وبين نقل باقيها ، فاستبشرت لرؤيتها بعد ظمأ طويل ، لا زلت مظهراً لأجمل مآثر العرب بالغاً من مرادكم الأرب ، وحرره عبد الود فقير ربه محمد بن الخوجة ، كان الله له في يومه وغده صبيحة اليوم السابع عشر من شهر رمضان سنة 1320 اه .

340 - الشيخ محمد الصادق بن علي بن سيف الماطري الأصل

هذا الفاضل علامة قد فاق أقرانه وبذ وأخذ من كل علم جامع الزيتونة بطرف ، وضم إليه متفرقات لها كلؤلؤ في صدف ، زاول تعلمها على جلة علمائه وفحوله ، فجمع بين فروع ما يدرس فيه وأصوله وجمع بين معقوله ومنقوله . فمن أعلامه الآخذ عنهم جدي الشيخ سيدي محمد الطيب النيفر ، والشيخ سيدي محمد

النجار ، والشيخ سيدي محمود بن الخوجة وسواهم ، حتى امتلأ منه الوفاض وأفعم صدره بالعلم وفاض وأترعت منه الحياض ، فأصبح من الحذاق النقاد الذين إليهم الشوارد تنقاد ، نحريراً علامة درأكة فهامة . وتصدر للإقراء بعد أن شارك في امتحان شهادة التطويح ، وبرز فيه فباشرتلقي الإشهاد شغل أبيه ، كما باشرتطوع بالإقراء في الجامع الأعظم جامع الزيتونة ، فكان من خيرة القائمين بالتعليم بين عرصاته ، يُقرئ دروسه براحة تامة ووفور فصاحة وسعة صدر وأصالة فكر ورجاحة ، يعالج عويص المسائل بعزيمة صادقة ومقدرة فائقة تصل بأذهان التلاميذ إلى الجادة المشودة من أقرب طريق ، ويتقبل ما تجيش به صدورهم من بحوث منقياً على الحقيقة سالكاً بهم إلى مهيعها مرجعاً المسائل إلى أصولها بذلاقة لسان وحسن بيان ، متدرجاً في إقراء الكتب المدروسة بالجامع الأعظم بين مختلف رتبه ، إلى أن باشر إقراء المرتبة العالية من مراتبه بجدارة واستحقاق ، فقد أدركه حين انخرطت في سلك تلامذة الجامع الأعظم وأخذت في مزاولة تعلم دروس المرتبة الأخيرة به ، وهو يُقرئ مساء شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع في أصول الفقه من كتب المرتبة العالية ، يحضر عليه فيه نخبة من المتطوعين يلهجون بذكره والثناء عليه وعلى طريقتة في تدريس الكتاب المذكور ، وإن من الغريب أن ينهض أحد من تلاميذه مغادراً مجلس ذلك الدرس غير واع لمحتواه ومتفهم لما جاء فيه وفي شروحه وحواشيه وجميع ما كتب عليه . أما صباحاً فكان يشتغل في ديوان دار الشريعة كاتباً ، وهو دون مقامه الرفيع بمراحل ، والحال أن كثيراً ممن أخلوا عنه صاروا إذ ذاك من أعيان المدرسين ، وهو مع ذلك قانع بما لديه غير متطلع لما فوقه ، والدنيا حظوظ ؛ فكان رحمه الله قنوعاً تقياً نقياً صادق اللهجة كريم الأخلاق وفيماً موطأ الأكتاف واسع الصدر بشوشاً حليماً عفيفاً متواضعاً حياً حتى منعه شدة الحياء من اقتحام معمعة المناظرات مع سمو درجته العلمية المسلمة من الجميع . يذكر أنه لم يشارك إلا مرة واحدة في مناظرة تدرسية غطى شدة حياته على إيانة درجته العلمية فيها ، ولم يرض عن نفسه فيما أبداه فيها من دلائل الكفاءة فخرج وهو ينشد قول أبي العلاء المعري :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد

ولم يلبج بعدها باب المناظرات إلى أن توفي رحمه الله ، وهو على حاله متجللاً ببرود كماله وهو في سن الكهولة ، وذلك في سنة 1335 . ومع ما ناله من الدرجة

العلمية كانت له درجة في الشعر والأدب عليّة بالغة في الارتفاع كمنار على يفاع ، فهو شاعر مفلق وأديب نحرير . من شعره ما هنا به جدي الشيخ سيدي محمد الطيب النيفر حين ختم عليه شرح القسطلاني على صحيح الإمام البخاري بالجامع الأعظم وهو قوله :

هذا الحمى فارتع لدى ساحاته	وانشق عير الطيب من نفحاته
واقطف بذاك الروض أزهار الهنا	فلقد كساه الأنس من كاساته
روض تبسم زهره مُستملحاً	رقصات شحور على نغاته
حاك الربيع له الزرابي المط	رزة التي بُثت بكل جهاته
فكأنه لما علا قُزَح له اند	طبعت به الألوان في مرآته
فترى ضروب النور ألواناً لما اند	ترعته من أنواع تزويقاته
وترى البهار محذقاً متفرجاً	والورد هز الريح من شوكاته
كأن الشقيق أتى لخلصة طيبه	فاحمرت الوجنت من لطماته
فلذاك راش سهامه متحصناً	من عوده يوماً على غفلاته
وترى سراويل الغصون بخصرير	حان الرياض يروق حسن نباته
والروض مسترخى القوام كأنه	ثمل يجول الذيل في سكراته
والماء في وسط تراه الحياض مث	ل جوارب في السوق من دوحاته
والغيم فوق السرو مثل سحابة	في كف عبدٍ ظلت ساداته
وبدا شعاع الشمس منه كأنه	فانوس بلور على شمعاته
والبرق مثل شرارة قطت على	صحن من البلور في لمعاته
والرعد كالطنبور جاء منبهاً	للجند كي يسعى إلى نوياته
فغدت صفوف الدوح فيه كعسكر	ساكبر سلاح الحسن من ثمراته
حتى إذا حسر العشي نقابه	وبدا سناء الأفق من جبهاته
أضحى الأصيل كلامه من عسجد	مصقولة وضعت على هاماته
وأتى النسيم يجر ذيل التيه لم	عائق الخيزور في نُخواته
وغدت بأسطار الخليج سطوراً ط	لال مصففة على صفحاته
فرقى الهزار منابر الأغصان بس	حرها بتطريب الحسن لغاته
والبيغاء مترجماً فكتبت عند	ها مدح نحرير ببعض صفاته

بحر المعارف عالم الآفاق طو
 تاج المعارف شيخنا البحر المحي
 كثر العلوم الطيب الفذ الذي
 طابت سريرته كذا الأخلاق وال
 أما الفطانة والرزانة والديا
 من معدن الإبريز نطفة نيفر
 فخر النيافرة الفخام مقرر
 بيت حديث المجد فيه معنعن
 فالجد في بيت سواه إغارة
 فهو الشريف ابن الشريف ابن الشريف
 ما العلم إلا ما حواه جنانه
 ما الدر إلا ما تجود لنا به
 ما الراح إلا ما تدور بدرسه
 درس دخلت له على ظمأ فقد
 ورأيت من بُعد أشعة نوره
 كالبر في هالاته والليث في
 كم من فوائد كالعرائس تجتلي
 لله ما أدراه في حلّ العور
 قد فاق في فهم الحديث كأنه
 ختمت به الحفاظ أهل الاعتنا
 ومناقب الأصحاب مع آل كذا
 والفقهاء أضحى مالكا لعنانه
 فخليل لو يجيبى لكان محجراً
 والسعد ما تمت مقاصده إلى
 والأشعري قرّت به عيناه من
 صرفت له نحو المعالي همة
 فلكل مسألة تراه معللاً

د العصر من تمت محاسن ذاته
 ط ملاذ أهل العلم فخر رواته
 جمعت خصال البر في عرفاته
 أصل الفخيم فطاب كل جهاته
 ته والأمانة فيه من نشأته
 من نسل طه فخر ذرياته
 إن تلفَ فخراً مثل ذاك فهاته
 يرويه من بالهد عن طبقاته
 والفخر مقصور على عتباته
 ف وهكذا مع وصل إسناداته
 ما الفهم إلا ما لفكرياته
 أفكاره من بحر تحقيقاته
 لأولي النهى في كأس إلقاءته
 أصبحت رياناً بعذب فراته
 فوجدت نجم العلم في حلقاته
 غاباته والبحر في موجاته
 فيه مطوّقة بتطبيقاته
 ص لدى الورى بمحل إشكالاته
 عن جده يرويه في خلواته
 بحديث طه واقتفى سيراته
 آثاره طراً بمحفوظاته
 نسيت مدونة بتدويناته
 عن غيره إقراء مختصراته
 أن وضحت بعزير تقريراته
 تحريره برهان كسبياته
 ببديع إفهام لحكمياته
 يروي الرضي من بحر تعليقاته

أفكاره لكمال تحريراته
أينقص التأخير في رتبته ؟
معنى لدى الحساب في درجاته
تخش الملام ببعض إغراقاته
مدحه فاقطع بتصديقاته
والشعر لا يرضى بغير صفاته
إن قلت ذا من بعض توصيفاته
عفواً عن التقصير في مدحاته
عن مدحك فضلاً على غاياته
حتى آية من أي إعجازاته
أرشدتنا ببيان إرشاداته
عاداتكم في الغوص عن درّاته
بدأ من صحيح الدر في لبّاته
فلأنك المصباح في مشكاته
وعلامك تاج على هاماته
في ثوب عافية مدى سنواته
بحسابه إبداع تاريخاته
3 طيب 1323 هـ
عدد الحروف وما تحصل هاته
2
عدد لحرف ثالث في ذاته
بدئ الصحيح فتم لي برواته
16 117 520 40 614
سنة 1307 هـ

كم من علوم فهمها وقف على
لا غرو أن فاق الذين تقدموا
فالعبد إن أخرته صفراً رقى
قل ما تشا وراسل عنان القول لا
فالشعر فيه زخارف ترتاب إلا
فالمدح في أحد سواه تقول
فخرت به الدنيا ولست مبالغاً
يا معشر الشعراء قوموا فاطلبوا
يا ابن النبوة ما لمثلي طاقة
من بعد ما نزل الكتاب به وأضد
واهناً بختمك للبخاري الذي
بمزيد إتقان وتحرير على
قلدت جيد الجامع المعمور عقد
بيت إلى زيتونة النور انمى
لا زال مبتهجاً بكم متبجحاً
وبقيت فخراً للزمان وأهله
وانظر لسرّ جاء في اسمك مظهراً
21 طيب 21
فاضرب حساب حروفه في نفسه
14 21
ثم اطرحن ثلثي حساب الاسم مع
يقى لديه⁽¹⁾ حساب قول مؤرخ :

ولصاحب الترجمة أيضاً يهنئ الجد
وضمنها أبواب الفقه وفصوله ونصها :

من ذا لهذا الشأو يوماً يلحق
وبغاث عجز في حضيض يخفق
لم يرقها إلا الخبير الأحذق
من الدين والفتوى الفقيه المفلق
بحر القطر بحر علمه يتدفق

أرأيت كيف إلى المعالي يسبق
كم بين صقر في معارج أوجه
هذي مراقى معارف ومدارك
شيخ الشيوخ ومعدن التقوى ورك
كثر المعارف قدوة الأعلام فخذ

$$(1) \text{ المجموع يكون : } 3x(21x21) - [2 + (2x\frac{21}{3})] = 1307 - 16 = 1323$$

عضد الزمان وروحه ويمينه
ذاك الإمام الطيب الأخلاق والـ
ذاك الهام النيفر الفذ الذي
أعلى القضاة بدأ وأكبرهم حجى
فهو المنور قلبه بحديث جد
برنامج المجد للمؤئل بهجة الحك
معيار إفهام وتبصرة لهم
ونصوص منتخب العلوم لديه نصـ
ومدارك التطبيق سر غامض
كشاف أسرار لمختصر الخليـ
رفعت به أفهام أحداث غلوا
وغدا بهذا الوقت مختاراً زكت
قد صام عن غير المعارف تحفة
حجّت له الأوفاد لما آنتت
وأباح علمه للذي أضحي له
وكذا جهاد النفس فيه سجية
واختص من دون الورى بشما
كم زف في حلق الدروس عرائساً
آليت لا يلفى على ظهر البسـ
عف المآزر لا يخادعه الهوى
وبغوصه تعتد أرباب النهى
وأرى ابتداء الفخر لي أني فني
قد أنفق الأنفاس في نيل العلا
صيت على صيت تسلّمه الورى
أو مفلس من كل فضل حجرت
يا آل بيت الصالحين فصالح
ضمن الإله لكم دوام الصيت دو

ومناره وفخاره المتحقق
أفعال والأقوال فهو الأصدق
ما مثله قاضٍ مضى أو يطرق
وأعزهم للمسلمين وأرفق
ه جافظ العصر الشهاب المشرق
سام حاوي فخرهم والأسبق
ومفيدهم توضيح ما يستغلق
ب العين والتطبيق برق يبرق
ما كل من عرف النصوص يطبق
مل وغيره إن رام كشافاً تغلق
هذا يقيدها وهذا يطلق
منه الأصول وكل فرع يلحق
وعلى الإفادة عاكف متأنق
لذكاه نوراً في المعارف يبرق
أهلاً يميناً إنه لموفق
بسباق كل مزية لا يسبق
ثل ليت الزمان ببعضها يتخلق
خلعت عليها حلة وتأنق
طة مثله أبداً ولا يتحقق
كلا ولا ذاك اللعين الأحمق
في كل فن فهمه يستوثق
بليان علمه قد نشأت أرقق
وأبتاع صيتاً مثل مسك يعبق
إلا رهين جهالة أو أحمق
عنه المعالي فهو منها مخلق
منكم يحيل لصالح ويطوق
ن مشارك ما دام صيت يخلق

وكذلك أو كل منذ أحقاب لكم
وأمرها فيكم فأودعتم بها
وأعزتم الحكام بعض تبصرو
هذي وظائفكم فليس لغاصب
هذي قلائدكم فلا ترضى بجيب
أقرضتم الله الجميل فأنتم
وأجرتم المظلوم حيث جعلتم
وكذلك أحييتم موات الحق وال
ما منكم إلا الذي حمدت خصا
أو عالم من بجره لقط الوري
أو صالح أو طاهر أو طيب
شهدت له بالفضل أعداء غدت
يبغون أن ترتد عنه خطة
لو زحزحت عنه لضاع الحد في
كثر لفخر القطر ما من مادح
وهو الغياث لكل مذعور ومن
والمنهل العذب الذي شرب الوري
والسيد البر الذي كل الملا
له همة عليا وعلم راسخ
لنفائس الأفهام والأنقال أو
ذو شوكة وصلابة في الحق وه
وإلى اليتامى والأرامل ملجأ
بحر مناقب فخره لم يقض بعد
يا أيها الحكم المحبب للورى
جاوزت قدر المدح ماذا ينظم
ينى بك الإسلام والأحكام والأ
وبقيت للأيام تاج مفاخر

خطط الشريعة حيث أتم أليق
في الناس حسن مآثر لا تلحق
حتى اقتدوا بنصالكم وتعلقوا
طمع بهن ولا شنيع يطرق
د سواكم لو قسمت تتمزق
غيث بكم تسقى العباد وترزق
سدأ لباب الخيف فهو المغلق
أحكام وقف فيكم تستنشق
له في الورى أو واهب يتصدق
درراً بها أجيادهم تطوق
يقضي وللخصمين فيه توثق
حسداً دماء الدمع منهم تهرق
لا أدركوا ذلك الزمان ولا بقوا
مثل الزنى أو قاذف يتشدق
لسواه إلا من حلاه يسرق
حرب الزمان بعزه يتدرك
منه بلا حد علوماً تدفق
من رقى إحساناته لن يعتقوا
وتدبر ومطانة وتأتق
لكتابه التحرير بات يحقق
و أحن من أم الرضيع وأشفق
فكانه الموصى القريب المشفق
ض فرائض منها الأديب المفلق
وعلى مودته نراهم أطبقوا
الشعراء فيك وما عسى أن يلحقوا
يام والأيتام والمسترزق
ومنازل عدل في الورى لا يمحى

فمنصّة الأحكام منذ حلتها
 والمجلس الشرعي مبتهج بكم
 والناس بين مهنيّ ومهناً
 هذا الدليل على سعادة أمة
 يدعون «عش يا طيباً قاضي أبداً»
 سنة 1311هـ

داويت ما جرح الزمان لهم لذا
 ومنه يرثي عم والدي الشيخ سيدي محمد الطاهر النيفر قاضي الجماعة قبل
 سنة 1311هـ

قاضي المنية حكمه لا يُدفع
 سيان عنده حاكم ومحاكم
 لا يفتدى من ذا القضا ملك ولا
 كلاً ولا مال يفيد ولا حجى
 ورد نفاق له الخلاق عنوة
 سارت على مهل ولكننرى الأخب
 كالخير المفقود منا شخصه
 العالم العلامة الدراكة ال
 الطاهر الأحساب ذلك النيفر ال
 لمني على ركن الشريعة والتقى
 لمني على مولى الوفا وأخو الصفا
 لمني على سيف غدا ينكي العدا
 لمني على حامي البلاد وعزها
 لمني عليه وهل نبي بتلهني
 تبكي عليه منابر ومخابر
 تبكي عليه مجالس ومدارس
 تبكي عليه محارب وأقارب
 تبكي عليه منازل ونوازل
 عامين مع عشرين وهو منفذ ال

وأمره تنو العباد وتخضع
 وأخو العنا والعالم المتورّع
 ملك ولا بطل ولا من يشفع
 في ذا المجال ولا معاذر تسمع
 جيل فجيل ذا لذا يستتبع
 أر منهم دائماً تتسرع
 وجميل ذكره في الوري بتضوع
 فهامة النسابة المستجمع
 قاضي أخو العزم الذي لا يخدع
 لمني لقد نسفته ربح زعزع
 لما طفا طفق الحشى يتقطع
 طول المدى مها بدا لا يضلغ
 ومجيرها من كل ما يتوقع
 نظم القريض ودمع عين يهمع
 وتفرحن مقابر والمضجع
 فقدته فهي اليوم أرض بلقع
 كانت بعزته تعز وترفع
 ومشاكل كانت إليه ترفع
 أحكام في دار الشريعة يصدع

قد كان بجرأ لا تكرر الدلا
 قد كان ليثاً لا تبادره العدا
 أين الذي يا دهر كان جوابه
 أين الذي يا دهر كنت تهابه
 يا قبر كيف وسعت في شبرين لي
 يا قبر كيف وسعت في شبرين أو
 خرجوا به والخلق تبكي خلفه
 ساروا بنعشه وهو فوق أصابع
 أجيال علمه أثقلت أعناقهم
 واطاهواه تركتنا في حيرة
 قلب يذوب وطرف عين شاخص
 ما مت إذ خلقت فينا طيباً
 سلف به دار الشريعة طهرت
 وتروعت من فقده فأتى لها
 يا آل نيفر لا عدنا مجدكم
 ما مات طاهركم عليكم وحدكم
 ما غاب منكم كوكب إلا بدا
 منكم قضاة الأرض أو علماؤها
 لكم العزاء بفقده وله الهنا
 يا رب صدق فيه قول مؤرخ :

في كل نازلة إليه يفرع
 يرضى الزمان بما يقول ويسمع
 أمضي من السيف الحسام وأسرع
 عجباً فكيف بحفرة يستودع
 ثأ صدره يحوي الجبال وأوسع
 صافاً نرى أعدادها لا تجمع
 والأرض ترجف والجبال تززع
 والنعش نعهد يحملونه أربع
 فتعاونوا متبركين وودعوا
 يوم الوداع ونحن خلفك شرع
 وحشى يشن وويل دمع يهمع
 لولاه لم يك خرق رزتك يرقع
 من كل مكروه وما يستبشع
 خلفاً فطاب لها الهنا والمرتع
 فالأرض لولاكم خراب بلقع
 بل رزوه في المسلمين موزع
 من أفقكم للناس بدر يسطع
 أو ذو الفتاوى أو خطيب مصقع
 حيث ارتقى في جنة يتمتع
 قاضٍ أحق بجنة وممتع

سنة 1311هـ

ومن شعره أيضاً الموشح الآتي الذي عارض به موشح إبراهيم بن سهل الإسرائيلي
 الأندلسي مهتماً شيخه العلامة التحرير سيدي محمد النجار بختم الشفاء للقاضي
 عياض :

يا نسيماً هب من نحو الحمى
 مربع الأنس فيا لله ما
 كم لها عن قاصديها من أياد
 لم تكن تحكي مزاياها بلاد
 فشفى روجي شذاه التونسي
 أطيب العيش بها للأنفس
 كل من قد أمها يلقي المنى
 سلمت من كل عيب وخننا

فهي لا شك غدت ذات العهاد
 في هواها صرت صباً مغرماً
 حبذا ربع به وجدني نما
 صيتها قد شاع في كل مكان
 خير عيش المرء في عيش الأمان
 أنت ما دمت بها طلق العنان
 لحظة فيها أراها مغنماً
 ما ترى الروض بها مبتسماً
 وسقى الوسمي هاتيك البطاح
 وسقيط الطل في كمّ الأقاح
 وترى النرجس حيث الدّيك صاح
 وشموس الراح بين الندما
 تهزم الإحسان للحاسي كما
 صاح باكرها ولا تحتشما
 ليس من قال نسيماً مغرماً
 سنة مألوفة للقدما
 قم بنا نحو الحمى كي نغنما
 سمهري قدّه حلو اللّمي
 وعجاج الحسن فوق الوجنات
 يا حياة الروح يا روح الحياة
 فامزجن من سكر الثغر وهات
 ألبست للوجنتين عندما
 ثم أبلت شرراً كي ترجما
 كلما تغرب في الثغر غدا
 فإذا غاب ترى البصبح بدا
 ما أحيلي دلّه إن عربدا
 فهو شمل الحسن فيه انتظما

زادها الله بهاء وسنا
 هائماً لا في الظباء الكنّس
 مسقط الرأس ومحبي نفسي
 وغدت مأوى إلى كل غريب
 فاغتنم لذاتها قبل المشيب
 آمن من كل واشٍ ورقيب
 جنة تنسيك في الأندلس
 قد كساه الأنس ثوب السندس
 فزها سوسنها والأقحوان
 يزدري بالدرّ في جيد الحسان
 نبه النسرین أنّ الصبح بان
 بزغت من فوق أفق الأكوّس
 يهزم الصبح جيوش الخندس
 أو تكن من أمرها في خجل
 أو حسا كأس الطلا ذا ثمل
 حلية الشعر رقيق الغزل
 كأسها من كف ظبي مونس
 فاطر اللّحظ رقيق الملمس
 كخيال النمل في صحن زجاج
 إنّ بالراح لمضناك علاج
 ذاك مزج نافع هذا المزاج
 قد بدت في كنهه كالقبس
 مارد الما بالحباب الحرس
 من سناها شفق فوق اللّمس
 من شعاع في سما الخد انعكس
 وأتاني يتثنى في ميس
 لكن الألاحظ نبل وقسي

ويح قلبي قد غدا لا جرما
يا فؤادي كنت لا تدري الهوى
قال ما لي سبب فيه شوى
كان قد حدثنا فيما روى
فخر ذا القطر وتاج العلماء
ذلك التحرير سامي المتنى
صاحب الصيت الذي عمّ البطاح
صفوة الأخيار من أهل الصلاح
فإذا وُشِّح شعر بامتداح
جمع العلم فأضحى علماً
يا له من بحر علم قد طما
دائماً يسعى إلى نفع الورى
أخلص النيات فيما نشرا
فلقد حق له أن يشكرا
أو ما أحببى علوماً بعدما
إن يجعل فيها رأيت العظما
حاز علماً واطلاعاً غيره
وغدا في كل فن فكره
شاع في الفهم السديد ذكره
همة قد جاوزت أوج السما
وإذا تأتي إليه ابتسما
طيب الأخلاق من أهل الصفا
عامل بالعلم نسل المصطفى
نحمد الله على ما أتمفا
حزمه في طاعة الله فما
هكذا حقاً تكون العلماء
حق أن يهدى له طيب الثنا

لعبة بين يدي مفترس
فالذي أفاك في هذا الغرق
أعين ضرت بنا قلت صدق
شيخنا النجار أن العين حق
الهام الكيس ابن الكيس
ثابت الحلم تقي المغرس
والذكا والفهم والباع المديد
ذو التقى والزهد والذكر الحميد
إنما هو له بيت القصيد
منه يبدو النور للمقتبس
نفعه .كوابل منبجس
فارتوى من علمه جيل فجيل
فاقتنى من ربه الأجر الجزيل
كل جيل منه ذا الصنع الجميل
حُسبت من قبله فيما نسي
كلهم قد طأطؤوا بالأرؤس
لم يجزه وسعى فيه القرون
غائصاً يستخرج الدرّ المصون
قل لمن زاحمه وابن اللبون
ورقت تبغي نفوذ الأطلس
فهو في وجه امرئ لم يعبس
ذو عفاف وصلاح ووقار
ليس بعد ذا إلى المرء افتخار
بإمام يجتني منه الثمار
حزمه في مطعم أو ملبس
فهو بالأسلاف أضحى يأتسي
وبه بين البرايا يُفتخر

إذ بيث العلم في القطر اعتنى
روض علم طاب فيه المجتنى
فأسع في تحصيله واغتنا
إن من فرطه قد حرماً
لا تجد ثانٍ له في ذا الزمن
إن تكن تختار أخذ العلم عن
إنه بحر طام في كل فن
ملجأ الأعلام فيما استبها
كم نشأ كتباً وكم قد ختما
عطرت دروسه ذاك النسيم
وشفى تحقيقه القلب السليم
كل ذي لب بدأ الدرس بهيم
نعمة فزنا بها لا سيما
صار ذا اليوم لدينا موسماً
سيدي لا زلت للخلق تفيد
ولتهنّ اليوم بالحثم السعيد

قترى في درسكم كم من درر
يا له في النفع من نفع أغر
وأملأ الأوطاب منه وأحتس
وغدا من نفعه ذا فلس
لا ولا يأتي إلى يوم القيام
أهله فارحل لذا الخبر الهام
وبه في قطرنا نفع الأنام
علمه في القحف لا في القرطس
مثل ذا الشرح السني الأنفس
فغدا حقاً نسيماً في رياض
من تقارير شفا القاضي عياض
وبه للنفس بسط وارتياض
عن يدي هذا الإمام الأكيس
فانشرح صدرأ به واثنس
رافلاً في ثوب عزّ وعلا
ثم أرّخه : الشُّفا قد كملنا
91 104 1112

سنة 1307هـ

بالرضا فهو بكم فاق علا
قلب صبّ حله عن مكنس
لعبت ريح الصبا بالقبس

وانحفن عقداً حوى الدرّ الفريد
هل درى ظبي الحمى أن قد حمى
فهو في حر وخفق مثلاً

وقال يهني العلامة التحرير الشيخ سيدي محمود بن الخوجة بولاية مشيخة

الإسلام بهذه القصيدة ، ونصّها :

روض بلغنا بها قصى أمانينا
تخت المحاسن تنظيماً وترينا
ترّ الأفانين عانقن الرياحينا
عن ظله ينبغي يوماً توانينا
شفى غليلاً لقاصينا ودانينا

حييت يا شاطئ المرسى وحيينا
مغني المسرات ربع الأنس مرتعه
فانظر لرونق دوحات بمنزها
وارتع بساحات صفصاف النعيم فما
وارو الفؤاد بذاك السلسيل فكم

واطلب فما تشتهي النفس يأتيها
بالدهر يغضبنا طوراً ويرضينا
ذنب فشرع الهوى يأبى تجافينا
ذات اليمين فسامرنا البساتينا
نحيي الليالي إيناساً فتحينا
والبحر صفو غدا يحكي تصافينا
يقبل الأرض إجلالاً لنا دينا
إن يسكن الليل آلات المغنينا
إلى نسيم الصبا منها تصافينا
من النعيم ولا جافت تلاقينا
يقول من بعد مرآها بساتينا
له سروراً صدور التونسياً
بإسلام مكسبها فخراً وتزيينا
شيخ الشيوخ وأستاذ المریدينا
ليث الزمان وركن الدين مفتينا
تلك العشيرة من أضحو ميامينا
فخر البلاد غدوا شُماً عرايينا
فوق المنابر قد شادوا لنا الدينا
فينا ومن بينهم أضحت مفاتينا
تسعى لمحمودهم سعي المحيينا
رير السياسة كثر المستفيدينا
داد الصناعة تحريراً وتلوينا
لدى مواقفنا كم من براهينا
وفي الدياجي غدا إرشاد ساريننا
تحريرها ازداد توضيحاً وتبيننا
أبدى بها زين الناس الدواوينا
عن درها بجره الملآن يفتينا

واختر فكل مزاج ما يناسبه
أرعى لها الود يا من صار مقتدياً
كم ذا التجني وما هذا الجفاء بلا
هلا تكرمت يوماً بالتفاتك لي
ناشدتك الله كم بتنا بروضتها
والجو صحو ووجه الدهر مبتسم
يهتز شوقاً فيأتي موجه طرباً
تحرك الراح من تصفيقه طرباً
وللقواديس في الدولاب مهفة
حدائق الأنس لا جفت مناقعها
جنات استغفر الله العظيم لمن
قلنا بها ما اشتتهه النفس وانشرحت
ولاية العالم الخوجي مشيخة ال
علامة الدهر فخر القطر عالمه
إنسان عين المعالي تاج مفخرها
أبو الثنا الطود محمود السريرة من
فالخوجيون بهم نفع العباد وهم
منهم أساتذة التدريس والخطبا
وهم أيمتنا في الدين والرؤسا
لذلك مشيخة الإسلام قد رجعت
مولى الفراسة إكليل الرئاسة نح
ليث البراعة في نثر اليراعة نقد
عقائد الدين أبدى من مقاصدها
كشاف أسرار تنزيل الكتاب لنا
كم في الأصول فصول بدائع
كثر الفروع وبحر الفقه كم درراً
أما دقائق أحكام الشريعة سل

له التعاليل في التصريف شافية
أما البلاغة فالأمثال سائرة
وفي بيان المعالي طار أطولهم
هذي تآلفه في العلم تشهد بال
فمن حواشيه للألفية اعتمدوا
وقوله المنتقى في الشرط يصحبه ال
وفي التحايس بالقول النفيس أتى
وفي طلاق الذي يُدعى بمختبل
ما أشغلت حزمه أعباء خطته
منها المعين على التبيين حاشية
منها ومنها ومنها هل تحيط بما
أبا الثنا بكم تهنى الرئاسة إذ
لكم يؤرخ : حزب الشّرع مشيخة ال

1301 17

سنة 1318هـ

لا زلت فخراً لهذا القطر عمتطياً
في صفوة العيش في نعماء ضافية
ودم لمشيخة الإسلام في حلال ال
وابشر رئاستك الغراً مؤرخها :

تسهيل تدريسه في النحو يغنينا
بسحر أقلامه فيها فيسبيننا
باعاً بصيت بعيد في نواديننا
فخبر العصامي إن رمت البراهينا
توفيقه بين أفهام المحشينا
قول البديع لدى تشفيح شارينا
طب العليل به برء المديتينا
نجني بروضته الغنا الرياحينا
لا زال يدي تآليف المفيدينا
من قبلها الزيلعي لم يبد تيينا
ينبو عن الحصر فالإلماع كافينا
زفت لكفاء لها اشتاقت له حيننا
إسلام إذ وفدوا وفد المهيننا

متن المعالي التي سرّت أهالينا
تهدي الليالي لكم عزا وتمكيننا
عمر الطويل كما ترضى ويرضينا
محمودها الرئيس في مفاتينا
582 90 542 104

سنة 1318هـ

ومن شعره ما هنا به الوالد بولايته التدريس من الطبقة الثانية ونصه :

العلم أبلج من صباح مسفر
أو ما رأيت محمد التحرير إذ
فأبان عن حجج دوامغ أسفرت
وامتاز إذ تآقت لرؤيته عيو
وحوى شروط تقدم لكنه
فلذاك أطبقت العقول عليه من
وشيوع صيته في العلوم لدى الورى
لا غرو إن قصرت عليه مراتب
قد حاز في كل المعارف بسطة

ظهرت أشعته بيت النيفر
سطعت معارفه بذاك المحضر
عن فرط تحصيل وعلم أوفر
ن القوم مثل هلال عيد نير
فرد غدا يغنيك عن متكرر
دون افتعال أو خلاف مضمهر
يغنيك عن تعريف هذا الأشهر
ومفاخر حقت يوم المفخر
وغدا بسيط الوجه دون تكبر

يا أيها الشهم العصامي الذي
العالم المتبحر ابن العالم ال
قصبات سبقك في الورى مشهورة
ولأنت ذو التحرير والباع الشهيد
ووساوس الأوهام هبها رُوِّجت
ينهي بك التدريس أنك فخره
وكفاك لا زالت تهتك الورى
والله يحفظكم ويحرس مجدكم
نطف مطهرة ومجد باذخ
لا زلتم للمجد زينة منصب
وإليك من صدق الوداد حيية
تهدى هنا الأمر المبارك إذ أتى

شاعت مفاخره وإن لم يفخر
متهجر ابن العالم المتبحر
ولأنت أنت بذرا الرهان الأوعر
ر بلا نكير الخير ابن الخير
فالحق لا يُخفى على المتبصر
وجهاك رونقه البهيج الأنور
بمراتب عليا وصيت أكبر
وعلاكم يا طيبي العنصر
وحلى منظمة كعقد الجواهر
ومنار مكرمة وبهجة منبر
من فرط تقصير وبعض تأخر
تاريخه : تدريس أمجد نيفري
350 48 914

سنة 1312هـ

وله أيضاً مهناً الوالد أيضاً بازدياد نجله الأكبر شقيقنا الشيخ سيدي محمد
العزير ، رحمه الله ، بمخمس نصه :

رسل التهاني وفدها متوالي
سطعت أشعة نوره المتلالي
بطلوع نجم السعد والإقبال
وغدا كبدٍ حلّ برج كمال
فالدهر جاد بمتهى الآمال

أجرى مصادره لنا طبق المنى
قد حق أن يهدى له منا الثنا
وازداد بالنجل السعيد تيمنا
فلأن هذا النجل أعظم مقتنى

أضحى بأفق المجد مثل هلال

نجل به وجه الزمان تلبجا
بهجت به الدنيا وتم لها الرجا
والفخر أصبح روضه متأرجا
جعلته في عضد المفاخر دملجا

بل صار حلية جيدها المعطال

فلذاك قد تاهت به الأيام
وتفاخرت بقدومه الأعلام

تهنى به الآباء والأعمام لا سيما أستاذنا القمقام
أي جده مولى المقام العالي

بحر المعارف خيرة الأخيار بدر المحافل زينة الأمصار
فرع الأمجاد بضعة المخترار زال بيته مطلع الأعمار
وينوره في جيده الزمان لآلي

غر إذا ما ازداد منهم فرقد يزداد في تلك السلالة سيّد
فهم بأوصاف الكمال تفرّدوا فانظر إلى ما قد حواه محمد
من عفة وتواضع وجلال

وديانة ورزانة ووقار وسياسة وكياسة وفخار
ونباهة وبداهة الأنظار وفطانة ورقائق الأشعار
وفصاحة وبلاغة ومعاني

وشمائل وفضائل ورشاد ومعارف ولطائف وأياد
وتعود بعوائد الأمجاد وتخلق بخلائق الأجداد
والأسد لم ترك سوى الأشبال

أحمد لا زلت في أوج العلا بين الأنام معظماً ومبجلاً
واهنأ بذنا المولود قد سرّ الملا أرّخه : ذا نجل سعيد أقبلاً⁽¹⁾

134 374 83 701 5

سنة 1307هـ

فابشر فإنه أنجب الأنجال

كتب صاحب الترجمة هنا بخطه ما نصّه :

نصه :

لو ساعد الوزن لقليل (هذا نجل سعيد أقبلاً)

ثم قال :

وأنس وفي تاريخه قل وأفخر ولدى عزيز نسل بيت النيفر

371 412 380 94 50

سنة 1307هـ

وأقبل هدية ذي وداد أوفر وافت بتاريخ لنجل خير

ولد العزيز آبواه في شوال

1037 90 15 125 40

سنة 1307هـ .

وكتب صاحب الترجمة رحمه الله تحت هذا الخمس ما نصه :

كتب إليك في خجل لأنني فعلت الفرض في الوقت الضروري
لذا الأفلام قد عثرت حياءً فغير آخراً نظم السطور
يشير في البيت الأخير إلى تغيير أسلوب رسم الأبيات في آخر الخمس كما تراه في
كتابتنا له ، محافظة منا على ذلك .
ولصاحب الترجمة أيضاً قصيدة فريدة رثى بها الوالد ، وهو صديقه الوفي ،
رحمها الله ، وهي :

والنفس في فسح الأمانى ترتع	والنفس في فسح الأمانى ترتع
لمؤمل تمضي كبرق يلمع	لمؤمل تمضي كبرق يلمع
حرباء في ألوانها تتنوع	حرباء في ألوانها تتنوع
كلاً ولا فيها يطيب المرتع	كلاً ولا فيها يطيب المرتع
وإذا تعاهد بعد حين تخدع	وإذا تعاهد بعد حين تخدع
ومن الذي في الصفر فيها يطمع	ومن الذي في الصفر فيها يطمع
بسراب قيعتها تغر وتخدع	بسراب قيعتها تغر وتخدع
طوراً تبشرنا وطوراً تفجع	طوراً تبشرنا وطوراً تفجع
ما مثلها من غصة نتجرع	ما مثلها من غصة نتجرع
إذ صرت في أختيارنا تسترع	إذ صرت في أختيارنا تسترع
خيرت من لفدائه يتسرّع	خيرت من لفدائه يتسرّع
هذا أشق على النفوس وأفظع	هذا أشق على النفوس وأفظع
ورسوخه في الدين لا يتزعزع	ورسوخه في الدين لا يتزعزع
كسفت فأين ضياؤها المتشعشع	كسفت فأين ضياؤها المتشعشع
ياقوت تاجك في التراب مضجع	ياقوت تاجك في التراب مضجع
نار الحشى أجت ودمع يهمع	نار الحشى أجت ودمع يهمع
مسترجعين لمن إليه المرجع	مسترجعين لمن إليه المرجع
ومن الذي لمصابه لا يجزع	ومن الذي لمصابه لا يجزع
ي مصيبة من ذي المصيبة أفجع	ي مصيبة من ذي المصيبة أفجع
طلاب علم الدين منها تكرع	طلاب علم الدين منها تكرع
وأجيج روض بالمعارف مرع	وأجيج روض بالمعارف مرع
الدهر يمنح والمنايا تمنع	الدهر يمنح والمنايا تمنع
ومطامع الآمال هبها أدركت	ومطامع الآمال هبها أدركت
فكأنما الأيام في أطوارها	فكأنما الأيام في أطوارها
ما هذه الدنيا بمنزل راحة	ما هذه الدنيا بمنزل راحة
إن سالت يوماً تحارب في غد	إن سالت يوماً تحارب في غد
فن الذي تصفو موارده بها	فن الذي تصفو موارده بها
حتى م يا ابن الدهر ثم إلى متى	حتى م يا ابن الدهر ثم إلى متى
ليست تلوم بحالة أو ما ترى	ليست تلوم بحالة أو ما ترى
يا دهر قد جرعتنا غصصاً نرى	يا دهر قد جرعتنا غصصاً نرى
مهلاً لقد أسرفت في ترويعنا	مهلاً لقد أسرفت في ترويعنا
يا ليت لما أخرت موت محمد	يا ليت لما أخرت موت محمد
فاجأتنا بمصاب فقلده بغتة	فاجأتنا بمصاب فقلده بغتة
أنزلت طوداً في المعارف شامخاً	أنزلت طوداً في المعارف شامخاً
أظلمت أفق العلم هذه شمسه	أظلمت أفق العلم هذه شمسه
لا تحسن رجلاً دفنت وإنما	لا تحسن رجلاً دفنت وإنما
صعب علينا يومه يوم به	صعب علينا يومه يوم به
والناس بين محاولين تجلداً	والناس بين محاولين تجلداً
ومصارعين لهول خطب مزعج	ومصارعين لهول خطب مزعج
خطب له شقت جيوب الصبر أ	خطب له شقت جيوب الصبر أ
فقدت معارف جمّة ومناهل	فقدت معارف جمّة ومناهل
ومراتع علمية قد صوّحت	ومراتع علمية قد صوّحت

أين الهام النيفري أخو النقي
من زين التدريس إذ أدى أما
لا كالمقلب للصحائف باحثاً
قدم له في كل علم راسخ
وبيانة وأمانة ورزاق
ووجاهة ونباهة وفكاهة
خلق له ناهيك من خلق غدا
من كان يعرفه رأى ما قد أرى
فجعتني الأيام في الخيل الذي
يا رب عظم أجرنا بمصابه
ترك الوظائف كالأراجل حزنها
وصحائف التاريخ بعد رحيله
ولديه في حسن البيان براعة

نأ غدا لحياته كم خلدت
53

يا ابن الكرام العارفين برّبهم
العابدون الله في خطواتهم
الثابتون لدى الوري شرفاً وذا
من آل نيفر من غلوا حفاظ مذ
إن الذي سمك السماء بني لكم
يا آل بيت المصطفى حبي لكم
أني بنا صبر وذكرك دائم
إن غاب شخصك عن محافله فلم
ما بين تحرير وتقرير وتأ
في كل محمّدة سبقت مجلياً
لاقيت ربك صائماً منطهراً
يا رب عبدك قد أحب لقاء مو
واجعل سحائب أعظم الرحمت فو

والفضل أين العالم المتورع
نته كما يرضى الإله وينفع
عن نكتة ما في سواها يطمع
وتثبت في نقله وتطلع
ومكانة عظمت وصوت يسمع
بنزاهة عن كل ما يستبشع
كرضاب مسك قد غدا يتضوع
من فضله ماذا نعد ونجمع
ما لي بمثل صفاء وده مطمع
فالخطب صعب والفؤاد مروّع
متضاعف من غير كفاء يطمع
طويت وكانت ذات نشر يسطع
تأريخه في طيه مستودع

1216 90 24 = 1330

فينا مآثر نفعها لا يقطع

ومن اتقوا وتواضعوا وتورعوا
الذاكرون الساجدون الركع
في قطرنا أمر عليه مجمع
هب مالك فيهم إليه يرجع
بيتاً دعائمه أعز وأرفع
يحكي رسوخه حب من يتشيع
وخيال ذاك عندنا لا يشع
نعدم مآثرك التي تنوع
ليف يروق وللنفاس يجمع
حتى إلى الجنات أنت المسرع
متأهباً للقاءه تنوع
لاه فأكرمه وفضلك أوسع
ق ضربه منهلة لا تقلع

وارزق بنيه ووالديه وأهله وأحبة صبراً جميلاً ينفع
يا زائراً لضرحة قف خاشعاً لله وقفة خاضع يتضرع
واطلب له الرضوان والإحسان وال من بابها الريان يدخلها وخا
من بابها الريان يدخلها وخا زنها يقول مقام هذا يُرفع
أرّخ : بصوم (أي بشهر الصوم) مات محمد النيفري الأورع
108 441 95 381 308

سنة 1330هـ

ولصاحب الترجمة هذان البيتان معتزلاً لتلميذه عمي الشيخ سيدي زين
العابدين عن تخلفه عن زيارته التي وعده بها :

تحية (صادق) في الود تُهدى لمولى المجد زين العابديننا
واخبره بأن البرد عذري وصيرني من المستنزلينا

ورأيت مكتوباً بخطه على الجزء الحادي والخمسين من صحيح البخاري حين باشر
تصحيحه الذي عهد له به ، كما عهد بتصحيح غيره من الأجزاء من الصحيح المذكور
إلى علماء حذاق آخرين محبسيها على الجامع الأعظم جامع الزيتونة . وهو صفوة
الخيرة وبركة مصر الشيخ سيدي أحمد الشريف باش مفتي المالكية ونقيب السادة
الأشراف والإمام الأكبر بجامع الزيتونة - رحمه الله - ما نصه :

ذا الجزء من متن الصحيح بمجدد من نسخة راقية لكل عريف
51

ملك الذي بحديث جده عارف طود لذا أرّخته لشريف
1320هـ

كما كتب على الجزء الذي يليه أيضاً ما نصه :

قابلت ذا الجزء الجديد وقبله جزءاً فقد سلمنا من التحريف
52

وهما لطود العلم والتقوى إما م حديث جده أرّخا لشريف
1320هـ

341 - الشيخ محمد المختار شويخة

هذا الفاضل كان نحريراً أديباً وعلماً ليبياً ، من نبغاء الأعلام التونسيين ومفخرة من مفاخر جامع الزيتونة الأعظم . تولى كتابة الإنشاء بالوزارة الكبرى فزانها وأعلى شأنها وأبدع فيها ما شاء من روائع الإنشاء ، فقال بها صيتاً علياً وبلغ فيها شأواً قصياً . وفي أواخر عمره ابتلي بتعطيل يده اليمنى عن الكتابة لحادث أصابه ، فصار يخط بيساره خطه الجميل المعتاد دون أن ينقص من رونقه ولو مقدار معشاره ، وأخيراً تخلى عن خطة الكتابة وأسندت إليه خطة حاكم بالمجلس المختلط العقاري ، إلى أن لحق بالدار الآخرة وهو في سن الشيخوخة .

ولصاحب الترجمة في صناعتي النثر والشعر درجة تبلغ مرتبة الإحسان حلاً من الجودة بمكان . فن شعره ما رثى به الشيخ سيدي محمود محسن الإمام الأكبر بجامع الزيتونة ، ونصه :

ورد المنايا على الأيام مورود	وشربها المضّ بين الخلق مقصود
سيان من عز أو هانت معاقله	لا يفتدى والد منهم ومولود
تلك الليالي وإن جادت بما وعدت	عطاؤها منك مسلوب ومردود
لا لعا للأماني فهي مزلقة	ولا لعا لليالي فهي تنكيد
لا يسترد امرأ ذا عزة أسف	أن المجد بربب الدهر مجدود
لا ينفع الظامئ المصدر موجعة	أو ينجع الفاقد المحزون مفقود
أضلّ ذا الوجد من ذا الخطب وحتباً	في الحي يرتاد طلقاً وهو مردود
سل المنايا لمن وكت عزائمها	وسددت سهمها لا كان تسديد
بالفاضل المحسن المحمود قد نشبت	أظفارها فتولت وهو منجود
من الأولى فرض الرحمن حبهم	فودهم لأمان الأرض إقليد
شم معاطسهم زهر مكارمهم	والكل يصحبهم عز وتمجيد
فطيب حديثاً وقل ما شئت من كرم	فكل فضل لأهل البيت مشهود
قد كان غيثاً هطولاً في فضائله	ترى مزاياه عقداً وهو منضود
ثنتين من بعد خمسين ثوت حقياً	توم وهو على الإجلال موطود

يسدد القول عن أغراض موعظة
 ففي المناير تحبو الأسفين وفي
 فلتغمصن جفون المجد عن أسف
 ستي بمضجعه الأسنى وعاوده
 ما ظل ينشد عنواناً مؤرخه :
 لانت لموقعها الصم الجلاميد
 صدر المجالس تصويب وتصعيد
 فإنه في جفون الأرض مغمود
 غبّ الأصائل والأبكار تأيد
 أواك محسن في الفردوس محمود
 سنة 1284 هـ .

ومن شعره أيضاً مهنتاً الشيخ الشاذلي الغرياني بازدياد مولود ولد له ، ومقرضاً
 ما هنأه به قبله سيدي أحمد بن الخوجة شيخ الإسلام فيما بعد ، وما أجابه به المهناً
 على رويّ شعرهما وقافيته ، الذي سبق لي نقله في ترجمة الشيخ الشاذلي الغرياني
 المذكور ، رحم الله جميعهم ، وهو قوله :

لله نظم قد حوى لمطالع
 يزري بسمط الدر سمط نظامه
 إني وإن أرشحت مرعف مقولي
 والفضل أن يجذب عناية مدع
 وكفى بإغضاء الكرم ينيل إن
 أما جميع المكرمات فإنما
 سراه فيها فارعاً هضباتها
 وإليك أهدي من عبير تحية
 غرر البدائه في اجتلاء بدائع
 إذ هو بالإحسان شنف مسامع
 فقصارى شأني فيه جهد الضالع
 فرددّه لذويه دون منازع
 لم تسعف المسعى مثوبة راقع
 ذا النجل قطب محيطها في الطالع
 بفضيلة وسواه ليس بفارغ
 ما قد تراه لديك أنجح شافع

قاله وكتبه محمد المختار شويخة ، لطف الله تعالى به آمين ا هـ .

ومن نثره ما قرّض به شرح صلاة الفاتح للوالد رحمها الله تعالى ، ونصه :
 الحمد لله وقفت ، أعزك الله تعالى وأيدك وأطال في الفضائل يدك على عقدكم
 الفريد بل فضلكم المديد المنتظم للآليكم الفريدة بل محاسنكم الجيدة . ورأيت من
 إحسانه ما تتزامن به السفراء وتتكامل أبصار الناظرين فيه من أمام ومن وراء ،
 وتتقادح الأفكار فيه لايراء أغواره أيّ إراء ، فمن تحرير تقول تتهجج بها العقول ، ومن
 تجبير ألفاظ كأنها حور الحاظ ، فبارك الله لك وعليك ، وأجزل من فضله لديك .

وقد كنت رأيت لشيخنا ، رضي الله عنه وأمدنا ببركات منه ، كلمات أملاها على الياقوتة الفريدة ، وهي على وجازتها كالمفتاح لبابها والغنم لطلابها ، فكنت حفظك الله أول داخل من ذلك الباب فائزاً بالاقتراب من ذلك الجنب . ورأيت ما نقلتم من الحواشي الإبراهيمية على الفاكهي في توجيه نسق الصفات ، وهو وجه وجيه ، لكنني توقفت في انطباق تيك القاعدة على صفات الياقوتة إذ أن كل صفة من صفات الياقوتة يصح أن يكون سبباً مستقلاً في طلب الصلاة على النبي ﷺ ، ومقتضى ذلك أن يحذف العاطف فيها . والذي يظهر أن تلك الصفات الكريمة جارية على الفصل والوصل في المفردات ، فعطف الخاتم على الفاتح للمناسبة الظاهرة ، وعطف الهادي على ناصر الحق لمناسبته وهي أن لنصر الحق طريقين ، أحدهما بالمقاتلة وثانيهما بالمقاولة ، فأشير إلى الطريق الأول بالأول وإلى الطريق الثاني بالثاني ، وأما فصل ناصر الحق فلعدم مناسبته لسابقه ، وفي هذا الوجه تجتمع هاتيك الصفات الكريمة اجتماعاً يحمد به الورد والصدر ونظيره شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر ، هذا وإني أرغب لك الله تعالى أن يثلج بنوره يقينك ويفلج بيمينه يمينك ، حرره ودودكم محمد المختار شويخه ، لطف الله تعالى به في 16 ذي القعدة سنة 1314 هـ .

342 - الشيخ حمودة تاج

هذا النابغة من العلماء النحارير وفرسان الأدب المغاور . له في صناعتي الكتابة والقريض مدى شاسع وعرض عريض ، وهو كأمثاله ممن أنبتهم رياض جامع الزيتونة الأعظم ، فأصبحوا فخر زمانهم وبهجة أقرانهم . كان هو وشيخنا العلامة النحرير سيدي محمد بن يوسف شيخ الإسلام الحنفي في شيبتهما كفرسي رهان في العبقرية وغزارة المعلومات وتوفد الأذهان ، غير أنه لم يبق بالجامع حتى يتسّم المراتب العلية من علمية وشرعية ، بل انه بعد أن أتمّ معلوماته فيه ، آخذاً عن فحول عصره وجهاً بذه مصره كالعلامة الإمام جدي الشيخ سيدي محمد الطيب النيفر باش مفتي المالكية ومن في طبقتهم من الأعلام ، وأحرز على شهادة التطوع عنوان العالمية . انخرط في سلك حكام العدالة المعبر عنها إذ ذاك بالعدلية التونسية ، وكانت في ذلك التاريخ تدعو نوابغ التطوعين برغبة ملحّة لتزدان بهم مجالسها وتعتزّ مناصبها ، والمبرزين أمثاله فلاح

في آفاقها نجماً وزان مراتبها فضلاً وعدلاً واستقامة وعلماً ، وارتفع صيته بها طوال
 السنين ولم تحظ بمثله من ذلك الحين . ولما تأسست المدرسة الخلدونية أسسها ثلة من
 الوطنيين الصادقين إذ ذاك لغرض زيادة تثقيف الناشئة الزيتونية بالعلوم العصرية من
 رياضية وغيرها ، وتقوية ملكاتهم في صناعة الإنشاء ، وكان يرأس هذه الجمعية
 الوطني الشهير السيد محمد البشير صفر ، رحمه الله ، فانتدب لإقراء الإنشاء بها
 والتاريخ نوابغ من أساتذة جامع الزيتونة وخرّيجيه ، كان صاحب الترجمة من أولئك
 الأفاضل لتدريس صناعة الإنشاء بها ؛ وانتفع به فيها نخبة منهم بل من أبرزهم في هذه
 الصناعة شيخنا العلامة التحرير سيدي محمد البشير النيفر أبقاه الله . أما ولادة صاحب
 الترجمة فكانت في سنة 1270هـ ، ووفاته في صفر سنة 1338هـ . وله في النثر والشعر
 بدائع تضاهي درر الأسلاك بل نجوم الأفلاك ، فن شعره يهني الأمير محمد الهادي باي
 ومعزياً له عن أبيه الأمير علي باشا باي بهذه القصيدة الغراء ، وهي قوله :

عنايته سبحانه سبقت فينا	فما شدة إلّا لقينا بها لينا
ويارب أوزعني أن اشكر بعض ما	مننت علينا حين عزّت أمانينا
أما هال خطب عمّ بالقطر رزوه	وآل لما يرضي الإله ويرضينا
وأضحى يواخينا الزمان معبساً	وأسمى يبشر وابتسام يوافينا
وقد أفل النجم (العلي) أضاء من	محمد الهادي سنا قر فينا
فكان أفولاً في فخامة طلعة	بينها ابن الصلّب للناس تبيينا
وأشرقت الدنيا بنور ولاية	أقام إله العالمين بها الدّينا
ولاية ملك أحكم العهد عقدها	وزاد لها يمناً وحقق تأمينا
رعى الله أبناء الحسين ولا أرا	عنا في جمال الملك يارب آمينا
وحسن مسعاهم وحضن ملكهم	ومتنه فيهم ومكّن تمكيننا
ودامت رياح النصر تجري بهم إلى	حجرة آفاق العلي وتلافينا
ألفنا بأنّ الأمر فيهم وأنهم	بهم أبدأ ساداتنا وموالينا
وهنا ضياء الملك طارت نفوسنا	يبيعته العلياء طيراً ميامينا
وقد راعت الأبصار شهياً تطلعت	لجانب شمس من علاها تراعيها
فمن أمراء حدّقوا حول عرشه	وقازوا بأن كانوا هناك فرازيها
ومن وزراء وازروه وقد دنوا	إليه وجالوا في رضاه الميادينها

ومن رؤساء كالجبال رواسياً
ومن علماء يقتنون نصائحا
ومن بلغاء أكملوا في مديحه الـ
وما ذاك إلا أن آي كماله الـ
وجاء المقيم القرم يحمي عهوده
ويتلوه نواب الملوك وكلهم
يايوان كسرى كان ذا الموكب الذي
على وجبات من ثغور مدافع
على عزفات ضخمة عسكرية
وكان يهني البعض بعضاً وكلنا
حظينا بكهف فيه أي كفاية
وصرنا إلى ليث العرين ومعلم الـ
وجئنا إلى الطود الأشم وملتقى الـ
لما شئت من حزم كومض بمزنة
وما شئت من رأى بجرأته أنجلت
شمائل يرتاح الورى لشمولها
تفرد فيها الجواهر الفرد بعد أن
كما ازداد بالأسفار نوراً وأسفرت
وشاهد من معنى المدن ما اعتنى
وعرج من باريس مستصحباً لنا
فلا غرو أن تجتث بأساؤنا بها
وتروى أرباب العمارة والغنى
متى علقت منا على حسن يوسف
رأته معاليه فلا تك آتياً
وعوذه بالسبع المثاني وسجدة الـ
أمولاي هذا بهرمان قرمحي
ويقتبل الخضراء فيك مهنتاً

إليه سراعاً يوقصون الدواوينا
لديه لتبقي في يديه قوائينا
كلام وزانوا في حلاه الموازينا
مقدس كانت للبدائع تكويننا
لديه بحال فيه ذا الشهم يحميننا
يمدون للإجلال أيدي تصافينا
برونقه الملكي فاق الأواوينا
بأبهة الملك العظيم تحميننا
وإني لألحي من يقول تلاحينا
يقول لمن يلقاه يا من يهيننا
يقوم بأعباء الأمور ويكفيننا
قرين وشهم أشمخ الصيد عريننا
خضيم وأولى من بلطف يوالينا
تفيض علينا بالحياة فتحيننا
حقائق أخفى الدهر طلعتها حيننا
لأن لهم روحاً بها ورياحينا
تجمع منها ما يزيد ترقينا
له أوجه الإصلاح أصلاً وتحسيننا
بأسبابه أهل النهى وهو يعيننا
نباريس عرفان تضيء دياجينا
وتنضر ذا القطر الفسيح بساتينا
ويجتاز في ذا صيتنا الهند والصينا
وملكه بالمأمول نيل أمانينا
لواحدة ممن بالله سكيننا
ثماني وبالإسراء تسعاً وتسعيننا
يقيم على سحر البيان البراهينا
بطلعة يمن منك للرشد تهدينا

وأنس بأعوام طوال ويومها
ويثانك ابن العم يتلوك في العلي
يعينك في حمل الأمانة (ناصرأ)
ويعضده الآل الكرام وطاهر ال
بقيت تراهم كيف شئت أعزة
يهنيك في ملك وحكم مؤرخ :

على أمسها يربو سروراً وينسينا
وطاعتك الكبرى يدين بها ديننا
لواءك لا يألوه نصراً وتمكيننا
لذيول الذي لقتته الهدى تلقينا
جحاجة شماً فخاماً ميامينا
بمثلك يأتي الملك حكماً يحيينا
سنة 1320 هـ .

ومن شعره أيضاً يرثي :

عظّ النفس والحظها بساعة مندم
وخلّ من الدنيا ولا تدنُ ساحة
فما هي إلا كالسرّاب تخاله
يرى المرء فيها ذاته مثل ظله
في العيش ثم لا يُسدّ مكانه
وهيات والحتف المحتّم حكمه
فهذا الفتى ذو المكرمات أبو الثنا
قضى خمسة الأيام يطوي بساطه
ألّمّت به فجأً فسار سريره
فيا لك من خطب لقد هال رزؤه
ويا لك من ركن لرجفة وقعة
ورقت لعسّال اليراع إدارة ال
وجمعية الأوقاف حقاً تأسّفت
أما كان في ذين الحليين مفرداً
أما كان يلقي كل قسم من الوري
أما كان في شرح الشباب مقدماً
فوا أسفي تبت يبا الدهر إذ دعت
ولا غرو أن أبقت نعائه في في
ولو كان في داعي الردى ينفع الفدا

وعوّض دواماً ساكب الدمع بالدم
لزخرفها أو حبلها المتصرّم
شرباً فلا تحظى ولو بالتيتم
فعد عن اللذات ذات التهدم
إلى أن يرى الرائي إياب المثلّم
يبادر بدء كل بدر متمّم
تراه صريعاً للبين وللفم
وأمتت عليه كالخميس العرمم
وقد كان قبلاً في رسوّ يللم
يوم على أهل الحفيظة أيوم
تأيمت العلياء أيّ تأيم
معارف وارتاعت بكل تألم
على فقد ثيان الرئيس المفخم
يتيمة عقد لم تشفع بتوام
بوجه من البشر الجلي مقسم
يقر له أهل النهي بالتقدم
أخي وخليبي منذ عهد التعلم
وفي كبدي الحرّاً مرارة علقم
لجئت لدى ذاك النداء المتحتم

ولكنما التسليم والصبر والرضا
فمبلغ جهدي أن أقول تفاؤلاً
وغاية وسعي أن أفوه مكرراً
وبسوت أعلى عليين وفتحت
وفزت بمرضِي النعيم مؤرخاً :
لحكم القضا فرض على كل مسلم
لقد صببت الكمالات فاسلم
عليك من الرحمان فيض الترحم
إليك مقامات الرضا والتكريم
لك الفوز بالمرضِي دار تنعم
سنة 1312 هـ .

من شعره أيضاً ما قرّض به تاريخ حسن البيان للوالد - رحمهما الله - حين أطلعه
عليه :

قسماً بعزة مثل ذا التاريخ
قد كان في حسن البيان لمن لغا
إذ ضمّخ الإسلام إفريقية
فما بها العمران حتى دوخت
وإلى الإمام النيفريّ الفضل في
لا زال في حلل المعالي رافلاً
وسمّو منزله على المريخ
وبغى بإفك غاية التويخ
من طيب مجده خير ما تضمخ
أم البرية خير ما تدويخ
ذا الجمع دون جهابذ وشيوخ
أبدأ حليف تضلع ورسوخ

ومن شعره يرثي العالم الشيخ سيدي محمد جعيط :

لك الله من خطب وما ردّ وارده
لك الله من خطب تخطّف نيراً
وأصبح كلّ شاخصاً متحيراً
فلا غرو أن فاضت دموع وأدهشت
وذلك أن القطب من أفقه هوى
ولو لم يكن من عليين لبادرت
ولو لم يكن من عليين لما ثوى
خضمّ من العرفان والفضل والعلا
ولوع بتحقيق العويص فعنده
فما شئت من علم الكلام وحله
وما شئت من علم الأصول وحمله الـ
وما شئت من فقه وحفظ لكل ما
ولا صدّ منا بالفدا منه وافده
فأظلم أفق العلم إذ غاب واحده
وما هو يدري أين ضلّت مراشده
جموع ومنها الدمع ما ذاب جامده
وأهوت تواريه برمس فراقده
إلى حمله الأفلاك وارتاح لاحده
إليه همام راعع الليل ساجده
مواقفه محمودة ومقاصده
مقيّدة في كل فنّ شوارده
به عقداً تخفى لديها عقائده
فروع على ما تقتضيه قواعده
أحاطت به في الأمهات معاهده

يخاقتها لكننا الله شاهده
ولم يبق في ذا اليوم من هو ناقده
يجاهد فيها نفسه وتجاهده
ويجלוه حتى لا يرى قطّ جاحده
يناوله فيها من الحمد خالده
ولا أتحاشى إن أنا قلت حاشده
وأنفس نثر جاء فيه عطارده
خفاء وهل في الناس من هو فاقده
جمعيط تجلت للأنام محامده
ترى منهم من لم تنله فلائده
وإذ ذاك حلت كل فرد فرائده
تبين خفاياه ويشتدّ ساعده
شهاب من السبع السماوات راصده
من رشد وما أدراك أو هو حافده
مريداً بصدق فهو للخير رائده
معاني فكل الصالحات تساعده
إلى الله مغبوطاً وما ثمّ حاسده
يجلّك النور الذي جلّ واجده
تجدد له مها تمرّد وارده
وقد فغرت آساده وأساوده
بها طارف السر العظيم وتالده
حمام الذي في يومنا أنت صاعده
محمد من الزرع الذي أنت حاصده
إليه ومن حال الصبا أنت عابده
وعند مضى صبحه أنت حامده
إلينا بما لا نستطيع أوابده
سبيل الذي مُدّت إلينا موائده

له خطرات، في الصحيحين أخفيت
له انقاد علم بالصحيح وهذه
وأما علوم القوم فهو إمامها
يبيود بما للحاتمي كحاتم
وينسج من غزل الغزالي حلة
إلى غيرها من كل ما عزّ مثله
كجيد شعر جاء في الكون عاطراً
وهل لضياء الشمس في زمن الضحى
كذاك أبو عبد الإله محمد
فكم أخذت عنه الفحول وقلماً
في جامع الزيتونة انساب، يمه
وفي غرض الإفتاء ما فتت به
فينقضّ للمعنى الدقيق كأنه
إذا أمّه مسترشد قال إنه اب
ومن كان للورد التجاني آخذاً
ومن كان هجّيراه فيه جواهر ال
فيا سيّداً أسدى الجمل وقد مضى
فقدناك في نادي الوظيفة عندما
فقدناك إن ما جادل المنكر الذي
وترميه بالجيش العرمم فاتكاً
عليك من الحتم الممد مطارف
وما نحن في هذا الصعيد نصوّر ال
وما لك من فضل الإله بحرمة ال
كرؤية وجه طالما كنت شائقاً
فما لنا إلا أن نهنيك في سرى
وأن نتوخي الصبر عنك وإن بدت
وأن نفتني فيما اقتفتيت فإنه ال

وأن نتلقى فيك قول مؤرخ : ألا بحنان الخلد أنت للاحده

سنة 1337هـ

ومن ثره ما قرّض به كتاب تقوم المنطق الحضري بكف اللسان المضري للوالد أيضاً ، ولعله أهداه نسخة منه حين طبع فقرّضه بقوله :

الحمد لله مولاي محمد لك مولاك على ما منحك وأولاك ، وعدّلك وسواك ، وميّزك عمّن سواك ، ثم نشئي على جوامع غاياتك وبدائع آياتك وروائع أدواتك ، فقد أخفّفتني أعزّك الله ، بتأليفك مقدمة تقوم المنطق الحضري بكف اللسان المضري فإذا هو يهدى للتي هي أقوم على أساس متين ، ويدعو معوّج المنطق إلى لسان عربي ميين ، فلا ريب أن من أخذ بإشاراته ، وسرّح الطرف في جميل شاراته ، تحلّ بحول عقد ضجته ويكسى نطقه الإعتيادي برونقه وبهجته . وبالجملّة فلم أر قبله عبقرياً يفري فريه ، كيف لا وهو صادر عن سامية سيادة علمية نيفرية أولئك آل بيت إن كانت الناس معادن فهم البهرمان الباهر ، أو مثلت العلماء بالنجوم فهم الكوكب الزاهر . وهذا كتاب ودود جنح في عمله إلى الإيجاز حيث أيقن أن الوفاء بالواجب غاية الإعجاز . والسلام من معظم قدركم أخيكم حقاً حمودة تاج الراجي من جنابكم النيابة في تقبيل أيدي والد الجميع قاضي الجنة ، متّع الله الإسلام ببقائه ، وكتب في 28 في محرم الحرام سنة 1312 هـ .

ومن ثره أيضاً ما قرّض موضوعاً حرّره تلميذه قاضي الجماعة فيما بعد بتونس ومفتيها الشيخ سيدي البشير النيفر تمرناً على الإنشاء في فضل علم التاريخ ، وهو إذ ذاك يزاول عليه دروس الإنشاء في المدرسة الخلدونية ونص التقرّض الموماً إليه . ما هذه إلا شعلة من نار المريخ أعربت عن فضل علم التاريخ وباكورة نيفرية بكل مكرمة حرية الخ ...

343 - الشيخ إسماعيل الصفايحي

هو من العلماء المحققين والفحول المبرزين . انتفع ونفع وخبّ في ميادين التحرير والتحرير وأوضع . وكان هو وشيخنا سيدي محمد بن يوسف والأخوان الشيخ حمودة

تاج والشيخ عبد العزيز تاج أربعتهم من القرناء ، وهم في حال الطلب كفرسان الطراد في الألفية والعقرية والاجتهاد ، حتى شدا كل منهم في العلم وبرز وعلا صيته فيه ورتبه السامية أحرز ، فالشيخ حمودة تاج وأخوه الشيخ عبد العزيز انخرطا في سلك حكام العدلية التونسية إلى أن بلغ كل منهما فيها مرتبة قصية ، وأبقيا فيها أثراً حميداً وذكرًا مجيداً. أما الشيخان ابن يوسف و مترجمنا فلازما عراض جامع الزيتونة حتى زانا به الوظائف العلمية ثم المناصب الشرعية ؛ و مترجمنا بعد أن نال شهادة التطويح ثم التدريس بطبقتيه ولمع نجمه فيه ، أسندت إليه إدارة المدرسة العصفورية التي أنشأتها إدارة العلوم والمعارف لتخريج معلمي العربية بالمدارس الأولية المنخرط فيها نجباء من تلامذة جامع الزيتونة ، التي عوّضت فيما بعد بمدرسة ترشيح المعلمين ، فسار بها مترجمنا في أقوم سبيل وهياً لمنخرطها مستقبلاً زاهراً لما يسرده لهم من الكفاءة وباعث التحصيل . ثم نقل بعد ذلك إلى خطة القضاء سنة 1323هـ فقام بأعبائها بتضلع وما تقتضيه من جزالة ومضاء ، وابتهج به الديوان الشرعي وزانه ورفع شأنه ، وقد عهد إليه في غضون ذلك سنة 1323هـ برئاسة اللجنة المكلفة بتنظيم كتب المكتبة الصادقية بالجامع الأعظم جامع الزيتونة ، ثم في سنة 1324هـ حلّ بدمشق مترخصاً من الحكومة التونسية في الحج والزيارة ، إلا أنه لم يرجع من سفرته هذه . وبقيت خطة القضاء شاغرة سنة كاملة . ثم إنه انضم إلى حركة الإتحاد والترقي العثمانية ، وانتقل من دمشق إلى الآستانة العلية ، وقام فيها بأعمال سياسية وعلمية . ولما انتهت الحرب الكبرى العالمية الأولى ، ودخل الخلفاء إلى إسلامبول ، وقدم أعوانهم لمحل سكناه بقصد إلقاء القبض عليه قصد محاكمته ، كان من لطف الله به أن وجدوه قد أدركته المنية فحماه الله من تشفيهم . رحمة الله عليه ، فمات بها غريب الدار وأبقى له حميد الآثار . أما أخلاقه فكان نعمه الله ، من الفضلاء الأوفياء ، حليماً كريماً بشوشاً وعن اللغو عزوفاً ، ذا رأي حصيف وخلق شريف ، متواضعاً باراً بأبيه الذي كان بيطاراً ، وهو المراد بالصفايحي في عرف أهل تونس ، فكان يرفع من شأنه ويجلّه ، شأن الإين البار مع أبيه أمام الخاصّ والعامّ لا يتحرّج من صناعته لكمال خلقه الجدير بالتعجّل والإكرام ، حتى أنه لما ولي القضاء وأراد نقش خاتم باسمه لطبع وثائق الأحكام والرسوم على عادة الحكام الشرعيين ، وهو المعبر عنه بالطابع ، أشعر من طرف الحكومة أن بإمكانه تغيير لقبه ، الصفايحي ، بما يختاره من الألقاب ، فأبى

ذلك وأصرّ على التمسك بلقبه ذلك لشرف نفسه وكإل عقله ، رحمه الله . وكان
 زيادة على منزلته العلمية وما له فيها من نبوغ وعبقريّة ، له رتبة محمودة في الصناعتين
 الشعرية والنثرية ؛ فمن شعره ونثره ما كتب به شيخنا العلامة النحرير سيدي محمد الطاهر
 ابن عاشور ومترجمنا إذ ذاك بالمشرق ، يعزبه في جده الوزير الشيخ محمد العزيز بو
 عتور ، ونصه :

إنا لله وإنا إليه راجعون

كلُّ ابنِ أنثى وإن طالَّت سلامته يوماً على آله حدباء محمول

قد جاءنا يوم التاريخ خبيرٌ حرّك الأشجان ، ونباٌ شئت الأذهان ، ورزء صمّت
 عند سماعه الآذان ، ونعيٌّ كان رأس الأحران في هذا الأوان ، وخطبٌ حيرَ المشرق
 والمغرب من أبناء الزمان ، ألا وهو ما ورد إلينا على طريق البريد من وفاة من كنا
 نتمنى له العمر المديد ، ذلك الرجل الذي بواسطته سهّل الله الصعاب ، وأزال عن
 أهل تونس العتاب :

فلكم أبان العدل في أرجائها وبها إقامة

رجل العلم والسياسة ومن زكت أخلاقه عن كل دناسة ، من للسيف والقلم بعد
 وزير تونس البحر الخضمّ ، من للدين والعوائد ومن يقاسي في حفظها الشدائد ،
 مع دماثة أخلاق ومجد بلغ بالشرف السبع الطباق :

يا ويل تونس قد دهاها الأرقم	خطب له نار الحشى تتضم
وبها الحوادث والعراقل تدهم	دار غدت مفتوحة أبوابها
وابترّ منها فردها والضيغم	قد عضّها الدهر العقور بناه
من للإمارة والإشارة يفعم	ذاك الوزير (محمد) من للعلی
به والإمارة والوزارة عيلم	ذاك (العزیز) وفي الدروس مع الكتا
بجنابه من بعد حجج يرم	ما كنت أحسب أنني لا ألتقي
يجري على الإنسان وهو محتم	لكن قضاء الله جلّ جلاله
يكفي لحاجتها فإنك أرحم	يا رب عوض تونس الحضراء من
واغفر له يا راحم يا منعم	يا رب وأجبر من له به علقه

وَأَمَّنْ بِتَحْقِيقِ لِقَوْلِ مُؤَرِّخٍ: سُرُّ الْعَزِيزِ بِفَضْلِ رَبِّ يَرْحَمُ
سنة 1325هـ

كتبه بماء الجفون وسواد العيون من هو في اشتغال بال بالحال والترحال .
إسماعيل الصفاحي في 13 المحرم الحرام سنة 1325هـ ا هـ .
ومن ثره ما قرّض به كتاب حسن البيان عمّا بلغته إفريقية في الإسلام من السطوة
والعمران من تأليف الوالد : رحمها الله ، ونصه :
مولاي رفيع القدر جميل الذكر ، زائد الرشد متوفر المجد ، عزيز النظر بديع
التحرير والتجوير ، العالم الفذ والمدرس الذي بين أقرانه شد الكارخ من حياض ابن
زمرك ، وابن العميد والمجاري لآبن الخطيب وعبد الحميد ، الفاتح بقلمه ما استعصى
على الفتح والصابي ، والمظهر بما أبدعه أن من عداه في صنعه متصافي ، من تغري
به فضائله ولا إغراء المسك الأذفر الشيخ سيدي محمد النيفر ، لا زال مظهراً لكل
مفيد مقرونة مساعيه بالتيسير والتأييد ؛ قد سعدت بمطالعتي لجانب من تاريخكم
لتونس فوجدته لمثافته نعم المونس ، روضة ذات أزهار فيحاء ذات أفنان ، وأنهار منبتاً
عن آثار الأول وأخبار اللول ، قد أتى من الغرض على بديع الإلتقان بما أندمج فيه
من حسن البيان ، مع التحري في الأخبار بما يفيد في الفن أي استبصار ، كشفتم فيه
عن مبدأ حال البلاد بما استوجبتم به أنكم أنفع الناس للعباد ، وقد هزتكم أريحية
النصح الى إحياء علم غاله الضياع في هذه البقاع ، مع أنه لو كان أصله من المباحات
فقد يتفرّع عنه ما يلحقه بالواجبات ، وذلك زيادة عمّا يحصله مطالعه من اللذات
وبلوغ الغايات ، مما يعين في مآخذ السياسات ويبين ما به أصل من العادات من تفاهيل
الجزئيات والألماع بالكلديات ، وبه يكتسب الربط المعنوي المستتبع للتعاقد الحسي
على صراط سوى إلى ما لا يسعه هذا الرقيم بما أصبح بين أظهرنا كالعديم من فوائده التي
مستخرجها الآن كالعقيم إلا من له ذوق سليم ، وطبع في تنوير القصص مستقيم ، فله
ناظم هذا الدرّ المنثور بما أوتيه من الفضال لموفور شكر الله سعيه وزين وشبه حرره
ودودكم إسماعيل الصفاحي في 26 ذي القعدة سنة 1313هـ ا هـ .

هذا العلامة من الجهابذة الكرام ، والناشرين لأدبهم بتونس خوافق الأعلام .
 ممن ازدان بهم جامع الزيتونة دهرأ بين الأنام ، له في العلوم الشرعية باع وفي العلوم
 العربية مجال . فورحابة واتساع أما علم الحديث ، فسيره في مهيعه حيث وفي طريق
 القوم ومنهج السلوك سعي منه غير متثد ولا متروك ؛ وترجمة حياته رحمه الله ، من
 تحبير ابنه الفاضل المدرس الشيخ علي ، تجدها مفصلة في آخر حاشيته على شرح
 التنقيح لمؤلفه شهاب الدين القرافي المسماة بمنهج التحقيق والتوضيح لحل غوامض
 التنقيح ؛ ولنذكر ملخصاً منها وهو أن سلفه يقطنون مدينة القيروان . وفد منهم جدّ
 صاحب الترجمة سنة 1110هـ ، وهو الشيخ محمد ، على الحاضرة التونسية فأراً بنفسه
 من ظلم الأمير مراد بوباله السفاح أحد الأمراء المرادين حين أضرّ بمدينة القيروان وقفل
 بأهلها الأفاعيل . ولما حلّ بمدينة تونس ، أتمّ تعلمه بجامع الزيتونة الأعظم الذي كان
 ابتداءه بجامع القيروان ، إلى أن بلغ درجة علمية خوّله تولّي منصب الفتيا على عهد
 مؤسس الدولة الحسنية الأمير حسين بن علي ، ثم تعاقب نسله بتونس إلى مترجمنا
 الذي ولد سنة 1268هـ ، في ربيع الثاني ، ولما بلغ سنّ التعليم زاول تعلمه بكعبة الشمال
 الإفريقي جامع الزيتونة ، على أساتذته الأعلام كشيخني الإسلام سيدي أحمد بن
 الخوجة وسيدي أحمد كريم والشيخ سيدي الشاذلي بن صالح والشيخ سيدي محمد
 الشاهد ، والشيخ سيدي عمر بن الشيخ ، والشيخ سيدي الطاهر النيفر والشيخ
 سيدي سالم بو حاجب ، والشيخ سيدي محمد النجار وغيرهم . ولما زخرت معلوماته
 وعلت في سلم العلم درجاته ، أجاز له شيوخه التصدر للإفادة لبلوغه مرتبها ، فأخذ
 يفيد ويبيد ، فأقرأ كتباً في مختلف العلوم ، ورمى بسهم في إقراء كتب المرتبة العالية
 شرعية وعربية خصوصاً كتب الحديث . أما تأليفه فحاشيته على شرح التنقيح المشار لها
 آنفاً ، وشرحاً على البردة سماه المورد المريح في شرح بردة المديح ، ورسالة سماها
 التحفة المرضية في أحكام الأضحية ، وأخرى سماها بيان التوصل إلى صناعة الإنشاء
 والترسل وضعها حين كان يدرس بالمدرسة الصادقية ، كما له تعاليق مفيدة منها على
 صحيح مسلم تبلغ عدة أسفار ولعله حرّرها حين كان يباشر إقراءه بالجامع الأعظم .

أما أخلاقه رحمه الله ، فكان كريماً حلماً لطيف المعشر متواضعاً ، كريم الأخلاق منخفض الجناح مقبلاً على ما يعينه ، يؤنس جلسه ولا يؤذيه . متين الدين قوي اليقين من الذاكرين والشاكرين والتقاة المهتدين ، تجاني الطريقة محباً لتلاوة الحديث الشريف ، على صاحبه الصلاة والسلام . أما ما تقلده من الوظائف . فهي العدالة في ربيع الأول سنة 1297هـ فباشرها وتمرس بها ، والتدريس بالصادقية في صفر سنة 1306هـ ، والتدريس بجامع الزيتونة من الطبقة الثانية في ربيع الأول سنة 1306 ومن الطبقة الأولى في ربيع الثاني سنة 1310هـ ، كما ولي شاهداً أولاً بيت المال ومقدراً للنفقات فيه في صفر سنة 1320هـ ، ونائب الدولة لدى النظارة العلمية في ذي القعدة سنة 1330هـ ، ومفتياً مالكيّاً في رمضان سنة 1331هـ . أما وفاته رحمه الله ، فبعيد زوال يوم الخميس في 15 ربيع الأول عام 1337هـ . فن شعره وثره ما خاطب به شيخه الشيخ محمد بن مصطفى بيرم صاحب صفوة الإعتبار راغباً منه قصيدة عمه الشيخ محمد بيرم الرابع التي هنا بها الشيخ أحمد بن أبي الضياف برجوعه من الآستانة العلية مقر الخلافة الإسلامية إذ ذاك والتي طالعها :

أبحسن بي أم بالغرام يليق سلوي كلاً ما لذلك طريق

والتي كان أطلعه عليها ، وكان الشيخ أحمد بن أبي الضياف خال والده ونص الخطاب المشار إليه وذلك في حال شببته :

سيدي من بسط للسائلين كفّ النوال ، ومن حاز في المجد نهاية الكمال ، ومن لجنابه تناخ ركائب الآمال ، غرّة هذا العصر وهلال هذا المصير ، ومن عدم لمحاسنه مثل أو حصر ، من شرع للمجد شرائع وجمعت له من المفاخر جوامع ، وأشرق شمس معارفه ، فهن للناظرين لوامع . من أخذ على منوال أكرم جد ووالد ، وكفى بالعيان دليلاً وشاهد ، من أشرق شمس أوائله بهذا القطر الإفريقي وهدت بأنوارها العباد ، ومهدت لنا طرق الخير والسداد ، ونرجو من الله أن لا يزال كمالكم في نمو تام ، ومفاخركم كالنار إذا ظهرت فوق الأعلام ، ولا زلت حائزين طريق المجد مع التلاد القدوة الأعظم والملاذ الأفخم والعالم شيخنا سيدي محمد بيرم . أما بعد إهدائنا إلى عليّ الحضرة الشامخة والمكارم الراسخة ، وتقبيل أياديكم والدعاء بالبقاء إليكم ، فإني سيدي جعلت بحفظ الله محفوفاً وبطرائق النوال موصوفاً ، وبسن المكارم معروفاً ، ما زلت

مذ أطلعتني على نفائس اللآلي ورياض الآداب التي هي نزهة الأيام والليالي بل عرائس
 من نبات الأفكار ترزى فيها لها على البنات الأبيكار ، تزينت بلطيف المعاني التي أزرى
 بلطف النسيم ولا أقدر أن أشبهها بالدرّ النظيم ، وإنها لعمرى أخذت شهب النجوم
 عتوداً ووجهت لفتنة الألباب جنوداً ، وسحرت النفوس بحس نظامها وجذبت القلوب
 لشهد مناقها ، فلعمري إنها أزرى بسحر بابل سحرها وقلد بلطائف البلاغة جيدها
 ونحرها ، وأسكرتنا براح اللطافة وأتتنا بالعجب العجاب ، فاشتتنا نحلة من كؤوس
 شرابها الذي أخذته من رضاها ، قد كشفنا لناظرنا نقابها ، وأنت بكأس شاربها فيا
 لها من راحة تريح النفوس ويا لها من درر قد تقلدت بهاته الطروس ، ولعمري كان من
 حظها أن يقلد بها جيد البلاغة ويشغل بها القلب فراغه ، وترسم حروفها بعقل من ينبغي
 سلوك الآداب لتعينه على سلوك عين الصواب ، فهي لعمرى عين الأدب والسياسة
 وجمعت بين الحسب والسياسة والعقد الفريد وأزهار رياض الآداب التي محاسنها
 تشرق وتزيد ، فلما تطلعت أنوار معانيها ومالت قلوبنا لجيد مبانيها ، وأشرقت بذلك
 المجلس أنوارها هاتيك الشمس وأزالت علينا غياهب النفوس ، وتمنينا أن
 يطول بنا معها الجلوس . ثم بعد ذلك رحلنا بعد توطن النفوس على حبها ، وبعد أن
 سح لنا الزمان بقربها ، ولم تشف من أصلها الظمان ولا انتفش على أطراف اللسان ،
 فصرنا بفراقها في هيام وأبدلنا بعد سربال الشفاء سربال السقام . فها نحن منتظرون
 لتطلع صبح جلالها مؤملون لجودها ونوالها ، مسألون النفوس بصادق الوثوق ، ويقول
 القائل وكل غروب منتهاه شروق⁽¹⁾ ، فبعثت لسيدي قليل أشواقى ووصفت نزر
 احتراقى ، فليمن عليّ سيدي بإهداء شفاء ليزول عناء بإرسال قصيدة عمكم المرحوم
 الذي عمّ وداد سائر القلوب وقد بفقده كل مرغوب ومطلوب ، من كان عليه
 الرحمة وهو لكل نفائس العلوم جامع شيخ الإسلام سيدي محمد بيرم الرابع ، التي
 انتخبت من القوافي قافية القاف وحوت كل محاسن الأوصاف . فإن ظهر لسيدي
 أدام الله عافيته على الدوام على ممر السنين والأعوام ، إهداؤها هي وأتراها التي بهرتنا
 بمجلسك السعيد ، فالنفس سيدي تميل للخير وتقول هل من مزيد ، وهاكها سيدي
 أبياتاً نطقت بها القرينة الحامدة القاصرة عن سنن المكارم راقدة ، في استدعاء روض

(1) يشير الى قول الشيخ ابن سعيد من القصيدة التي عارضها الشيخ بيرم الرابع :
 تروع الليالي ثم بعد تروق وكل غروب منتهاه شروق

آدابكم الذي يتسم لمن أمّ جنابكم ، وقد صغتها من بحر الطويل لأدلكم على طول
أشواقى وشدة تألمي واحترافى :

أيا من بدا بالمكرمات يفوق
ومن أحرز العليا وحاز معارفاً
ومن صاغ في نسج القريض فرائداً
أيا سيدي أشكو إليك وإني
بأنى لما غادرتي فرائد
وقد جذبت قلبي بجودة حسنها
تحلى بمكنون اللطافة جيدها
وقد سحرت نفسي بسحر كلامها
ومرّ على سمعي لطيف كلامها
وقد خلقتني سيدي حين ودّعت
فصرت على طول المدى مترقياً
أعلل نفسي بالرجاء الى اللقا
وأطمع من قول يقول مبشراً
ولكنني لما أنخت مطالبى
رجوت بلوغي كلما قد رجوته
بقيت لنا دوماً محطّ آمالنا

ولاح لديه في الأنام شروق
فهن لليل المشكلات بروق
سمت عن جياذ القول وهي تروق
على كل ما نبدي لكم لصدوق
بمجلسكم للنيرات تفوق
وقد أسكرتني من لماها رحيق
ومنظرها للناظرين يروق
فنفسي لنيل الوصل منها تتوق
سريعاً كطيف والفؤاد مشوق
رهيناً وقلبي يعتره خفوق
نهاراً وليلاً أن يكون طروق
وأترك من قال الزمان يعوق
(وكل غروب منتهاه شروق)
يباب الذي بالمكرمات حقيق
بمطلبنا حتى اعتراني وثوق
وأنت بكل المكرمات خليق

ودعمتم بالحفظ والسلامة والمجد والكرامة والفخر والشهامة بجاه من ظلت عليه
الغمامة والسلام الخ ؛ كته في 9 المحرم الحرام عام 1288 هـ ا هـ .

ومن شعره ونثره أيضاً مقرّضاً القصيدة التي مدح بها الوالد سيدي أحمد التجاني
وضمنها آباءه الكرام ، إلى سيدنا علي بن أبي طالب ، وسأها المدح المنظوم في نسب
القطب المكتوم والتي طالعتها :

ألم بفأس ويمّم من هو العَلْمُ وانشر له طيّ مدح فيه ينفخم

مع إبداء ملاحظات له في ذلك :

تطلعت فأرتنا اللطف ينسجم عقيلة برزت من خدر فكركم
راقت ورقت بما تحويه من كلم في طيه نشر فضل ليس يكتم
وأشرقت في سما الآداب وانبعثت لغاية كل عن إدراكها الفهم
ورصعت بنفيس القول منتظماً جيد الإجابة فاشتاقت لها الأمم
وأحكمت نسج برد المدح إذ نظمت جهاها يد من الباع يتسم
أعني به النيفر الأسمى محمد من سعى لدن شب فيما شأنه العظم
حتى أرانا الذي يرضى الإله به من مدح غوث به كل الورى اعتصموا
ونظم أجداده الأشراف متصلاً بسيد الرسل طه وهو جدّهم
وعندما ظهرت أسماؤهم بهرت أنوارهم وانجلت منها لنا الظلم
فأهنا بسعي لكم يرضاه قلوبنا به توافيك من أسراره حكم

الحمد لله تطلعت أعزك الله ، على فريدة تاج الآداب الساحرة للألباب الآتية
بالعجب العجاب ، فإذا معين المعاني متفرّع من مناهل ألفاظها وأنوار الأسرار المشرقة
من نور حياضها ، والقول الفصل قد سلكته في نفيس أغراضها وكؤوس ألفاظها
مترعة بنفائس المنظوم في مدح قلوبنا القطب المكتوم ، جعلها الله من العمل المبرور
يوم النشور . هذا وقد ظهر للعبد أن يطلب منك أن ترتكب في بعض مصارعها
التبديل لتبتهت الحاسد ولا يجد في طعنها قيل ، وذلك لأنك ارتكبت في بعض
أعارضها وضروبها قطع التابع ، وهو وإن كان لضرورة الشعر سائناً في سائر التوابع ،
لكن محاسن فريدتك المبرورة نحاشي جهاها عن وصمة الضرورة ، وغير خاف على
جنايبكم موضع الضرورة من قصيدتك المشرقة والسلام عليكم ورحمة الله والبركة من
محمد جعيط ، أخذ الله بيده اه .

وقد أجابه الوالد رحمه الله ، بقوله :

شرفني أعزك الله وأجلك وعلى كل دست للمعالي أحلك تقريضك المزري بعقود
الجهان المودي بدلاقة سحبان ، الحائر من أناقة الإجابة المعلّى والرقيب والآخذ من
الإبداع أسنى نصيب ، فاهترزت به طرباً واقتطعت من الإعجاب به ما فات الحصر
ورباً ، ولا غرو فانت يمم طما وغيث بالمعارف همى ، فشكر الله سعيك وأدام رعيك .
وقد أشرت على العبد بتبديل بعض مصارع القصيد حيث ارتكبت فيها القطع ، فقد

أبلغت أعزك الله في الإلتصاح وأوريت زندان خالص مشورتك غير شحاح ، كما تقتضيه المروءة وسنة الأخوة ، فامتثلت إشاراتك بداراً وأحلتها غاية الإقبال داراً ١ هـ .

فألبت الأول بديله :

ألم بفأس ويمم من هو العلمُ وانشر له طي مدح فيه ينفخم
وبديل تسمو لمقعد صدق إلخ... تسمو لمقعد صدق شأنه فخم
وبديل يحى اصقع شهم به يحى فصيح حاذق فهم

وبعد ، فإن الحسود الغاض منها ، إن كان ممن لم يمتص ثدي المعارف ولا هو بها عارف ، فسلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ؛ وإن كان ممن فرع أبكارها واجتنب أكملها وأغوارها ، فإن كان ممن له نية تحجزه فهي الناهي عن التحامل والداعي إلى الإنصاف الحامل ، وإن كان ممن يبهت حسداً من عند نفسه وغضاضة من مفاخر بني جنسه فنقول له قد علم أن محل الإلتباع إذا كان الإلتباع محتاجاً إلى نعت أو أكثر لمشاركة غيره له في اسمه ، أو اسمه وأحد أوصافه فيجب حينئذ إلتباع وصف موضح له لا يشاركه فيه سواه ، كما في مررت بزيد التاجر الفقيه إذا كان هناك مشارك في اسمه وأحد وصفه ، وأما إذا تعين بعلمية لا يشاركه فيها سواه كما في الرحمن الرحيم على قراءة القطع ، أو استغنى بنعت آخر كما في النكرة ومنه ، ويأوي إلى نسوة عطل وشعثاً مراصيع البيت تعين القطع لأبلغية الوصف بالجملة كما لا يعزب عن علمكم ، وهذا الكلام إنما هو في السعة ، ولا يخفى أن قولنا ويمم ختمها العلم إن الختم معرفة بإضافته ، وهو متفرد به رضي الله عنه بقريئة فاس ، وفي العلم حيث قطع نكتة المبالغة فإنه معلوم للجميع بهذا الوصف فلا يحتاج إلى صفة أخرى توضحه ، ولا يخفى ما فيه من المبالغة في المدح ، وكذا يقال في بقية المصارع فإنها كلها على هذا النمط ، فإذا علم هذا تين أن القطع في مثل ما ارتكبه ليس هو بضرورة لأن الضرورة ما لا يجوز في السعة ، وهذا جائز في السعة بل متعين لما ذكرنا من الأبلغية . هذا اختصار الجواب ولكم فيه النظر الأعلى والقدم المعلى ، على أن بتغير هاته المصارع يدخلها التصنع والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ختام من محمد النيفر ١ هـ .

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً لما كلفته النظارة العلمية بتفقد بيت المال الموكل أمره حينئذ لقاضي الجماعة في سنة 1310 هـ ، وهو إذ ذاك الشيخ سيدي محمد الطاهر

النيفر عمر والذي حسب النظام الجاري به العمل في ذلك الوقت ، فوجه إليهم
هذه القصيدة تقريراً ضمنه ما اطلع عليه :

ذهبت مفقداً للمال لما	دجنير قد مضى في الأعجمي
ليت المال مصحوباً بإذن	من النظار أعلام الندي
فألفت الإدارة قد تسامت	بتنظيم وترتيب سني
تناظر في الجمال إذا تبدت	إدارة دولة الباشا علي
وعهدي بها بلا ضبط وحفظ	وقد حفت بترتيب ردي
ولا عجب وعهدتها أنيطت	بهمة ذا الهمام النيفري
إمام العصر قاض القطر حبر	سما لما انتمى للهاشمي
حليف الحزم ماضي العزم ما إن	يناظر في القضاء المالكي
نظرت لدفتي قبض وصرف	بها في غاية الضبط البهي
وبعد طرح للمصروف مما	حواه نهاية القبض السمي
أتيت خزينة الأموال تسعى	معي من ناب ذا للمجد العلي
لننظر فاضل المقبوض فيها	وإن كنا على علم قوي
فأخرجنا ظروف المال ملأى	تخاشت عن ذهاب الصائتي

ومن شعر صاحب الترجمة قصيدة غراء هنا بها الوزير المصلح خير الدين باشا
طالعها :

شموس الهدى لاحت وثغر الهبا أقرأ وروض المنى من بعدما قد ذوى اخضراً

قال ابنه الشيخ علي في ترجمته التي نقلنا عنها ، إن شعره على كثرته لم يتصد به لنيل
حطام أو اجترام أثم بل صرف معظمه في مدح المقام النبوي أو من له بجنابه الرفيع
اتصال قوي ام . رحمهما الله تعالى . ومن شعره في الشيخ محمد الصالح بو عكاز
القيرواني الذي اغتر بما كان يظهر على يديه مما يشبه الخوارق ولعل الأصح أنها من
قبيل الشعوذة ، قد اغتر به كثير لأنه قد يتظاهر بالخيرية قوله :

فاز من زار باعتقاد ونية قسماً بالنبي خير البرية
إنما الأولياء أنصار قوم حسنوا الظن فيهم والطوية

فتوسل بهم إلى الله تحظى
وإلى ذا الأستاذ فأجرح وبادر
فاطرق الباب وقل يا أبا
يا سمى الرسول يا قطب كُنْ لي
وعجيب إن زرتَه بصباح
إنه سيد جدير بفضل
أخلص الحب للإله فعلاه
سيدي ، أيها التجاني ، إني
فإذا ما رضيت عني فإني
قاسط الكف بالدعاء عسى الله
وعليك السلام ما قال صب
نقلتها من خط يده

345 - الشيخ محمد الطاهر جعفر

من علماء المعهد الزيتوني البررة وشيوخه الكملة الخيرة خصوصاً في علوم
الشرعية ، فهو من رجالها الحذاق المهرة ، أما ما له اتصال بالجناب النبوي
الرفيع العماد ، فإن له ولوعابه ووفرة اجتهاد . أخذ العلم عن علماء جامع
الزيتونة الأعلام حتى اشتد ساعده فيه وقام حين شدا وحصل منه ما شاء .
أجاز له شيوخه التصدر للإقراء على ما جرت عادة ذلك العصر فباشر الإقراء
فيه أولاً على جهة الإحتساب ، ثم انتخب لخطبة التدريس به ، فأفاد الطلاب
وانتفع ونفع ، وأفاض من كريم أخلاقه وعلومه عليهم ما يشفي الغلة وينقع .
كما ولي التدريس بالمدرسة الصادقية وباشره مدة استفاد فيها تلامذتها من
علومه ، غمرهم فيها من أخلاقه وفضله أضعاف أضعاف ما تملؤوا فيها
بمعلومه ، ثم اقتصر على التدريس بجامع الزيتونة حين بلغ سن الشيخوخة ،
وهو على ما عهد فيه من الفضل والعفة إلى أن دعاه داعي المنية فلقى حتفه
وذلك سنة 1332هـ ، وكان له في صناعتي الشعر والنثر حظ موفور غير نزر .
فمن شعره يهنئ الشيخ محمد جعيط بولايته التدريس بجامع الزيتونة من الطبقة
الأولى قوله :

مطالع يمن الله أطلعت السعدا	فبلغك الرب الكريم بها القصد
أنى منصب التدريس يسعى برغبة	ياهي بك العلياء فاكسب المجدا
أتاك على علم بأنك خدنه	ولم يصغ للعدال نعم من استهدى
إذا حسنت لله نية عبده	فينجح مسعاه ويلقي به رشدا
فحق على مثلي أهنيه بالذي	غدا حسنه بين الورى جوهرأ فردا
وحق على مثلي الهناء فإنني	حليف وداد حافظ لكم العهدا
بقيت إلى العلياء كهفاً ممنعاً	ترى بين أهل الفضل أبناء كم أسدا

ومن شعره ونثره ما قرّض به شرح صلاة الفاتح للوالد رحمهما الله ، الذي سماه
اللاكيء النضيدة بتاج الياقوتة الفريدة ، ونصه :

لآليك النضيدة يا همام	على لآلاها أثنى الآنام
نسيج أطرب الألباب حسناً	يفوق الدرّ حسنه انتظام
يزاحم نسج سعد الدين طرزاً	يقر بفضل المولى العصام
ولم لا وهو شرح الفاقحي	يزول عن العليل به السقام
رياض العلم متجع المزايا	وللعلماء بمحفله اهتمام
نسيج النيفر الخيل المفدى	يطيب به نشيدي والنظام
مديد الباع صميم وجيه	لدى العليا له الهمم الجام
أثيل المجد وهو خضم علم	معادنه جهابذة كرام
خلائقه التواضع من علو	يود سناؤه البدر الخام
شمائله استقرت من أصول	شوامخ في دياتنا دعام
أبا عبد الإله فدم سليماً	تصاحبك العناية والسلام

نحمدك اللهم على ما فتحت من أبواب الخيرات وسلكت بمن منحتة عقل الهداية
سبل النجاة ، ونستمطر من سحائب جودك وفضلك أشرف صلاة وأزكى سلام على
أفضل خلقك وأكرم رسلك صلاة وسلاماً بروحان روحه السامية ويشملان آله
وصحبه ذوي الهمم العالية . أما بعد فإن كتابك المسمى باللاكي النضيدة بتاج الياقوتة
الفريدة قد وافاني متبخرأ في حلل التحقيقات النيفرية واللطائف المستنبطة من معاني

الفتاحية ساطعة أنواره بجواهر المعاني ، فسرّحت فكري في رياض معناه ، وأعملت جهد التأمل في محاسن مغناه ، فإذا هو روضة علم أزهرت أغصانها وزهت بتحريراتك النخيسة أفنانها ، اجتمع فيه تحقيق الفقهاء وعيون بلاغة الفصحاء والأدباء شكر الله صنيع مؤلفه ونائره من تجمل للدهر بكمال محاسنه ومآثره ، ألا وهو العالم الفاضل الأبرع العفيف الزكي الماجد اليلمع الشيخ سيدي محمد ابن العلامة التحرير الكهف الشهير سيدي محمد الطيب النيفر الشريف ، لا زال كإلهم محروساً وبيتهم السامي بعليائهم مأنوساً آمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، من ودودكم القائل بقمه والكاتب بقلمه ، خادم العلم الشريف محمد الطاهر جعفر ، جعل الله له من العناية عند سيد الوجود الحظ الأوفر آمين في أول جمادى الأولى سنة 1311 هـ .

346 - الشيخ يوسف بن عون

هذا العالم التحرير والأديب الكبير ممن يفتخر بهم جامع الزيتونة الأعظم ومن متخرجه الأفاضل من أبناء توزر ، وكفى ببر الجريد منبأ لأهل الذكاء وكل علامة خضرم . كان قاضياً بمدينة توزر ومن جلة علمائها ونوابغ أدبائها ، وبها توفي رحمه الله في ربيع الثاني سنة 1327 هـ وبها دفن . أخبرني ابنه الشيخ حسن زميلي في الطلب بجامع الزيتونة أن والده صاحب الترجمة رحمه الله ، له من التأليف رجز في فقه القضاء نسجه على منوال تحفة الحكام لأبي بكر بن عاصم الأندلسي المعروفة عندنا بالمعاصمية ، بل ربما كان أبسط منها ، وصاحب الترجمة نعتة الوالد في كتابه برهان البقية من أدب أهل إفريقية بالعلم والفضل ، وقال أنه شاعر مفلق وما سنورده عليك من شعره يعرفك انه كان في الشعر فارس ميدانه والآخذ عند التسابق فيه بساطع برهانه . فمن شعره البليغ مرثيته في عمّ والدي الشيخ محمد الطاهر النيفر وهي قوله :

خطب يضارع هول يوم المحشر عمّ الأنام وخصّ آل النيفر

شقّ القلوب وهدّ أركان القوي
ورمى الكبود بسهمه المنشوب فال
فالناس كالوهمي حيارى حسرة
وكانّ كلاً بأنفراده ثاكل
كم وجنة رويت بمزنة عينها
وقد اعترى بعضاً عظيم أواره
قد كورت شمس المعارف في الثرى
وهوى سقوطاً والرواسي زلزلت
وبكت له الخضراء غبّ تفتّر
الله أكبر إنّ ذا الخطب الذي
لحر بملبوس الحداد ورقم مسو
لم لا وقد قلّ التوى ركناً لذي
حيث الثرى بالطاهر الأسمى غدا
النيفريّ سليل فرع المصطفى
قاضي القضاة عريق أطواد النهي
حبر صدوق مقسط أحظى أب
سباق غايات المدارك بالحجى
ما لابن حجة من بديعه حجة
ما للكسائيّ الكسا الضافي الذي
ما السنعد في سعد البيان مطول
ما فخر فخر عند ذا الحبر الذي
بل للذي بذّ الأوائل من لدن
قد شاد ركناً للشريعة قاهراً
وغدا يومّ برشده الأبواب في
خضع الورى للفصل عند مقوله
يا فيصل الخصمين يا كهف الورى
أسنى عليك وإن نأيت مجدّد

وكسا الوجوه البيض فاقع عصفر
بطل الصبور لذا كمن لم بصبر
صرعى سكارى خمرّة لم تعصر
لم يستعن بتجلّد وتصبّر
حتى روت عنها صحاح الجوهري
ففى انبجاس العين ذاك المعترى
ومضى به بدر الجمال المسفر
واهترت الغبر اهتراز تغير
وسها سهاها لانكدار المشتري
بذّ الخطوب خلال هذي الأعصر
د المداد على الياض بأسطر
من محمد فاعذر أخي وتبصر
يروي ويروي عن ذكاء العنبر
راوي السيادة أكبراً عن أكبر
من آل خير المسلمين وأفخر
سيّ طاهر عدل رضا ندس سري
وهو الزعيم إذا القرائح تنبري
ما لابن حزم حزم ذاك الأجدر
يحدو به حدو الرداء الأخضر
مع فرع دوحته الكرم العنصر
يسمو لأشرف عنصر في المفخر
زمن مضى بتحنك وتدبر
للمعتدين وآمن فيه البري
فصل ابن رشد مع قضاء المنذر
ما لحكم متبوع وإن لم يزار
يا من هدى يا نصرّة المستنصر
أذن التواتر في غنى عن مخبر

يا راحلاً عن أهله وصحابه
يا معرضاً عن ذي الدنيا راعياً
جازاك بالحسنى كريم محسن
وحباك محتوم الرحيق وسلسبي
يا زائر القبر المبارك أرخاً :
1

حسنت موارده لحسن المصدر
دار البقا تبغي زلال الكوثر
وسقى ثراك من الغمام المطر
لجناحه فوق المهاد العبقرى
نعم الإله تجاه قبر النيفر
160 68 409 302 371

سنة 1311هـ

ومن شعره يهنئ جدي الشيخ سيدي محمد الطيب النيفر بولابته قضاء الجماعة
عوضاً عن أخيه الشيخ سيدي محمد الطاهر الذي رثاه بالقصيدة السابقة ، ونص
قصيدة الهناء :

يا طالع السعد قابل غارب القمر
قد راقبت أعين منك الطلوع لما
وشيدن ركن آل النيفري بتحد
هم فية أحرزوا التبريز عن حنك
وخلد الذكر في بيت زكا شرفاً
علي أفوز أيا سعد السعود بمن
وسدد الأمر في حكم الشريعة بال
فالنفس والله قد تافت إلى أمل
قد اشرايت له الأعناق راغبة
والله عند دعا المضطر حين دعا
كذاك عند انكسار للقلوب كما
وعندما حق صدق في رجاء أتت
قالت أتت خطة الفصل الرفيع له
فالأفق يشرق والأدواح راقصة
يهني القضاء سليل النيفري بما

وانشر بشيرك وأطو شقة الكدر
قد أملت له لدى الآصال والبكر
سين الأمور ونيل الحكم والظفر
في حلبة السبق بالإدراك والنظر
في الأمر والنهي والإقبال والصدر
يُنمى لأشرف بيت من بني مضر
حجر المؤئل كي تنفي به غيري
ترجوه في طيب من صفوة الخير
لماتسلسل من ذا البيت من نهر
هـ بالإجابة في آي من السور
قد صح معناه في متن من الخير
بشرى الصحائف بالمرموق بالنظر
كما أتى ربه موسى على قدر
والطير تعجب منا كيف لم نظر
قد ناله من حكيم الصنع في البشر

والبيت مفخرة بالسادة الغرر	الطيب النيفر الأحظي بذنا شرفاً
حيمون طائره في البدو والحضر	بوركت يا طالع السعد المنير بذنا الـ
وحبه في سواد القلب والبصر	ثبت لدى صهوات العز مركزه
بيت القصيد ومعنى السر والأثر	يا طيب الأصل والفرع الزكي ويا
للخلق عن سيد يُنمى إلى عمر	رويت عن مالك بالعلم عن نافع
تلقاه حاجبكم توضيح مقندر	وفي يمينك سيف للأصول ومن
في الحال والآل والأولاد والعمر	ثم الهنا ولعبد سؤل عزكم
من عالكم حتت الأطيّار في الوكر	تاريخه : عند مصراع يؤرخه
257 90 252 458 164 90	816 371 124
سنة 1311هـ	سنة 1311هـ

ومن شعره أيضاً ما رثى به الأمير مصطفى ابن أمير عصره علي باشا وهو قوله

والميت حقاً بنصر الشرع يقظان	يا ناعمي الموت إن الحي وستان
والنفس أمالة والدهر نخوان	والوعد صدق وحال الخطب مقلقة
يردعه قيل وغضريف وسلطان	خان الأولى لبسوا ثوب الفخار ولم
وقد تفرّد في ذا الملك ديّان	أخنى على أم ما إن يحاط بها
والعز والملك والسنتان والشان	له البقاء تعالى في جلّالته
فيها الغرور وناإنسان قتان	أنا بدار غرور لا دوام لها
والفعل مبكٍ ولتغدار بهتان	دنيا ترينا ثنايا الحسن باسمه
وكشّرت عن نيوب هنّ عدوان	وربما زخرفت أمراً لعاشقها
طول ولكنها مظل وليان	وواعدت بالأمانيّ الحسان على
دعا لها خلفه هادٍ ومّتان	أم تعظك أيا ذا اللب موعظة
فالعين شاخصة والقلب وستان	ولم ينهك نهي منه في خلد
فالوعظ جار ولم تسمعه آذان	كأن بالقلب رينا عزّ مصقله
نشاهد الحال والملعون شيطان	والوعد ماضي لدى ريب المنون وقد
تيدي مكاسبها والريح خسران	فغبن صفقتنا في حب عاجلة

مني السلام فإن انقلب حيران
 ج الملك علق به التيجان تزدان
 سي الكعب نجلى حسين منه صنوان
 شأواً لديه ولا رضوى وشهلان
 ت الجرد في حرقه للملك عنوان
 يدبر الأمر فيما فيه عمران
 فذا الفقيد لدى الخالين معوان
 ل الوقت بالسير فالتقانون ميزان
 ورائح المزن عنه فيه تهتان
 كذا العواتق والأطيار والبان
 أقلام في كتبها ما ناح هيمان
 تتلاف أنواعها والدمع هتان
 تحكيه في حرقه شيب وشبان
 لإحسان قرم بماء العلم ريان
 واليوم في جدث تحويه أكفان
 واليوم في مدرج يعلوه بنيان
 ومن له في عموم الخلق إحسان
 وساءه الحظ إذ خانته أزمان
 يعينهم بالجداء والقلب جزلان
 حجة الكراسي إذا أقصاه فقدان
 أربحه في الثرى ما عنه سلوان
 للنائبات مدى الأزمان غنيان
 تضجر فصبرك للرحان رجعان
 وإن ربك منان وحنان
 إنعامه عنك للمفقود غفران
 إذ أنت منك لكسر القلب جبران
 ل لهم في العلي أهل وبرهان

على زخارفها اللاتي تنمقها
 لفقد نجل الحسيني درة تان
 المصطفى من صميم الملك وإن عد
 طود سما فرواسي الأرض ما بلغت
 لقد علا صهوات المجد والصفنا
 قد كان في بهر قصر الملك آونة
 وتارة في مجاري الحال يصلحها
 قد حنكته تجارب الزمان وحا
 تبكي عليه غواصي السحب جارية
 تبكي عليه معتاق الخيل ضامرة
 تنوح عند التخوت والأرائك وال
 تبكي عليه جماهير العباد على احد
 على أمير على سن الكهولة لا
 على صبيح المحيا ذي الشبابة وال
 على الذي كل يوم كان في حلل
 على سراج يريك الهدى مطلعته
 على المحبب عند الناس قاطبة
 لا سيما في الذي تعليه نسبه
 كذلك في أهل ذكر الله في ملأ
 آه على طالع الأفق السعيد وبه
 آه على غصن دوح قد فوى وغدا
 سوى تذكر فقد المصطفى وبذا
 يا أيها الملك الأسمى تعز ولا
 وإن للصبر أجراً لا نفاذ له
 يعطيك صبراً ويجزيك الثواب وفي
 لا هم جبراً لمولانا وسيدنا
 أقر عينيه يا نعم النصير بأنجا

وَأَمْنَحَهُ عَاقِبَةَ سَمْعَاءَ دَائِمَةً	فِي الْحَالِ وَالْآلِ كَيْ تَنْزَاحَ أَحْزَانِ
وَأَرْحَمِ قُلُوبَ عِيِيدِ طَالَمَا يَثُتْ	تَجْبِرُ كَسْرَهُمْ إِذْ أَنْتَ رَحْمَانِ
بِشْرَاكِ يَا نَازِلَ الْقَبْرِ الْمُبَارِكِ فِي	يَوْمِ بِهِ زَخْرَفَ الْجَنَّاتِ رِضْوَانِ
وَفِيهِ مَوْتِ خِيَارِ الْعَامِلِينَ وَمِيَدِ	لِلدَّادِ لَهُ إِذْ خَبِتَ لِلْفَرَسِ نِيرَانِ
وَفِيهِ إِسْرَاءِ مِنْ لَهِ هِجْرَتِهِ	وَحَلِّ طَيْبَةٍ يَمْنِ مَعَهُ إِيمَانِ
تَاللَّهِ قَدْ دَلَّ هَذَا الْيَوْمُ عَنْ نَعْمِ	تَتْرَى وَحَاطَهُ مِنْ مَوْلَاهُ رِضْوَانِ
فَالْقَالَ مِنْ ذِي قَرِيضٍ إِذْ يُؤْرِخُهُ	مِثْوَاكِ يَا مُصْطَفَى نُورِ وَرِيحَانِ
5	567 210 256 275

سنة 1313هـ

347 - الشيخ محمد المكي بن عزوز

هو أحد أفاضل العلماء والنحارير الأدباء ممن أبرزتهم عراض جامع الزيتونة الأعظم ، فازدان بهم القطر التونسي وخلدوا له ذكراً مجيداً في الأقطار الأخرى . برز في العلم والأدب وبلغ منها معالي الرتب ، وعرف فيها مكانه واعترف له بالسبق أقرانه . من مواليد مدينة نفطة ، وهو خال العلامة الشيخ محمد الحضر حسين نزيل القاهرة وشيخ الجامع الأزهر بها في أواخر حياته . تولى صاحب الترجمة الفتيا في مدينة بتزرت وهنأه الوالد رحمهما الله ، بولايته هذه الحطة الشريفة وكان بينهما من الوداد ما اقتضى ذلك بقوله :

هنا والأحق به الأنام	فهم جسد وأنت عليه هام
وليس يزيدك الإفتاء قدراً	وهل يجدي على البحر الغمام
وليت مكلنا يهني بحمد	ينم عليه من صدق ذمام
وأبدي الروض من ذاك ابتهاجاً	وأشرقت البسيطة والآكام
أزاهره تروق الطرف حسناً	ويرسل نشرها الأشدى ابتسام

تسيل الشمس. إبريزاً عليها وتبصر من لجينها ما يشام
بيادي الرأي تحسبها كؤوساً أسراً يياضها الأصفى المدام

ومنها وكانت بينها مطارحات أدبية :

فدعني من نسيب لا تزدني على وجددي فقي الخلب اضطراراً⁽¹⁾
جريت مع الصبا طلقاً فلماً بلغت مداه هباً بي المنام
فألفيت السباق مضى كما قد جنت يوماً على عمرو المدام

ثم اختار الزوج عن الوطن إلى الآستانة العلية دار الخلافة الإسلامية ، وكانت إذ ذاك يومها أفاضل المسلمين ، إما لقضاء مأرب سياسي ، أو فراراً بدينهم الذي أساب أهله في عهد استعمار بلادهم التنكر له والوهن لذويه ، فأكرم بها وعرف محله وإنما يعرف الفضل من الناس ذوهه . وقام بالإقراء في مدرسة الحديث هناك فشاع ذكره ونبه قدره بها وانتفع به المسلمون ممن ولوا وجوههم شطرها ، حتى توفي بها . له من التأليف رسالة في ترجيح سنة القبض في صلاة الفريضة على مقتضى المذهب المالكي على ما رآه هو الأرجح وإن رد عليه ما جاء بها الشيخ محمد المهدي الوزاني برسالة له في ذلك . أما شعره فجيّد الصياغة مكسوً بحلّة البلاغة ، فنه يرثي محمد البكوش مستشار وزارة الخارجية :

سلوا الفارس المغبر جَوَّابٌ فدغد بدا من ربا الخضرا على متن أجرد
سلوه فقد أذكى بقلبي جذوة تنفسه الصعدا وتنطيب مكمد
مضى ملغياً سؤلي اختناقاً بعبرة يمازجها لحن بشحو منكمد
ينوح على فقد الفضائل والعللا وشم المزايا والكمال الموطن
فناديت واهاً والمنايا عميمة لقد أودع البكوش أطباق ملحد
وموت رئيس الناس خطب على الورى وهل بعد رأس عيش جسم مضمد
ولا سيما النفاع دفاع ضرهم بعرفان دهقان وحزم محدد

(1) الخلب : أي القلب .

كهنا الفتى الغطريف باذل خيره
 محمد البكوش منطبق دولة
 فتي من أصول الفضل كان بروزه
 وزين بالتهذيب شرح شبابه
 وكان عفيفاً سامي العرض ممسكاً
 دري بإصلاح البلاد محنك
 لذلك رقا المشيرون رتبة
 فازر قوماً في الوزارة أطبقوا
 وسد مسداً زاد منه مكانة
 سميع شكيات الضعاف نصيرهم
 مجيد الرفا فيما أنيط سداه
 وأخلاقه الزهرا تلين للطفها
 مضىء الحجى نافي الشجا مبلغ الرجا
 مزيج الشقا عن ذي التقى مبهج اللقا
 يقول محياه لراج وواجل
 سمير لأهل العلم أخذ حظه
 وموف بعهد الخل عز نظيره
 لذا لقب الشفاف بين صحابه
 أفي موت هذا الشهم يعئل من بكى
 محمد لا أنسى كمالك لاهياً
 محمد لا أنسى خشوعاً ورقة
 محمد لا أنسى مسرة جمعنا
 محمد لا أنسى وداداً يخصني
 محمد باعدت الرحيل ولم تقف
 محمد أحيت اللقاء مهناً
 محمد نعم الصنع زهدك في الدني
 محمد يهنك اجتنابك غيبة
 ومانع جار من إساءة معتد
 إذا ارتبكت واستعجمت ألسن الندي
 ورهي في التعليم بانصدق يرتدي
 يجاذبه طبع لأكرم محمد
 على الدين شداً بالنواجذ واليد
 غيور نصوح من أكابر مجد
 لها مستقاً بانتخاب مسدد
 على نشر عدل باشتمال التجلد
 مصادف عصر للأفاضل مسعد
 نزيه يد عن شائعات التصيد
 بعهدته يقظان في كل مرصد
 ضراغم آساد بأسرع مقود
 حليف النجا صافي اللجا في التعبد
 بذاك ألتقى حاز ارتقى خير مقعد
 لخلف إيعادي ومُنجز موعد
 بفهم وإلقاء لأفخر خرد
 يُصدق منه الغيب حالة مشهد
 وأكثر من تلتني ممّوه عسجد
 وبات على الأكدار في ليل أرمد
 بأنس حبيب أو بنجد مؤرد
 بقلبك حفتها شهامة أصيد
 وآدابك الغراً رواية مسند
 وبهجة بشر داعم للتودد
 لتوديع أحباب وتسليم عود
 بقرب رحيم في نعيم مؤبد
 أواخر عمر بالأوائل تقندي
 وتم هناء الموت ختم التشهد

محمد إن فارقتك اليوم إنني
محمد أبقيت الثناء معظماً
ورثتما نسلو بمجد البنين إذ
بنه اصطباراً واتحاداً فإنكم
ودوموا على المعهود منكم نزاهة
إلهي إرحم البكوش وارحم وفوده
إلهي أتى رحماك ضيفاً بليلة
تناديه فضلاً منك أهلاً ومرحباً
ومن عليه باجتماع محبب
تناديه تبشيراً بقول مؤرخ :

أؤمل أن أفاك غدواً بأسعد
ومن يُبق ذكراً فهو حي كمخلد
نجابة أبناء عمارة معهد
سرور أوداء قذى عين حسد
وكسب معال جالباً كل سودد
بوصل غواني الخلد أنفس نهدي
مباركة والفضل أمتن مسند
بضيف يرجينا محباً موحد
مع المصطفى كنز البرية في غد
محمد يا بكوش فر بمحمد
92 11 1028 87 94

سنة 1312هـ

وكان لصاحب الترجمة مع والدي الشيخ سيدي محمد النيفر رحمهما الله ، تأخ
ووداد ، ومن أجل ذلك تعددت بينهما المطارحات الأدبية والمراجعات الأخوية إبان
عهد الشباب ، فمن ذلك أن صاحب الترجمة قدم إلى الحاضرة ولم يزر الوالد فعاتبه
الوالد بقوله :

وقالوا عهدنا بك منذ دهر
فما لك إذ غدا للنأي حجز
بذكر محمد المكي لاهج
غدا نهج التناهي عنك ناهج
أبن لي ما أقول لهم جواباً
أكون به عن العتبي محاجج

فأجاب صاحب الترجمة عنها بقوله ومن خطهما نقلت وفيه لزوم ما لا يلزم :

جوابك للوشاة وقيت غداً
تقول فؤاده بيتي ومن ذا
مقال صادق للعدر ناهج
طوى حزن القدافد في أساهج⁽¹⁾
لأضحى إثر لقينا ناهج
بيرد لقائنا بالشوق واهج
على أنا سنطفىء نار بعد

ومن خطيهما أيضاً أنقل هذه المراجعة الأخوية ، فقد كتب الوالد إليه ويظهر منها

(1) ضروب من السير .

أنه يسترضيه قوله :

فعلت ما يقتضيه الجهل بجزئاً فأين ما يقتضيه الحلم توليني
هني أسات أما في العفو وجه رضا يلقي الفضاضة من نفسي بتلين
إن لم تُقِم أوداً مني بِغَضُّكَ عن ذنبي فمن لي على جرمي يداريني
ويعلم الله كم في العمر من زمن في الحشاشة أدواء تغادينني
أبدى التسلي وأحياناً يراوخي ما يستحيل به جزمي لتخمين
فاجعل مناي وقد خفت حقيتها ملء الوفاض كمرتابٍ للدارين

فكتب صاحب الترجمة أسفل هذه الآيات مجيئاً عنها قوله :

نفسى الفداء لمن بشره تخيبي ووهم بؤسه يؤذيني ويضنيني
فقر عيناً بما تهواه من أمل والله يبقيك حتى الترب تخفيني

ومجيبه الوالد بقوله وكتبها في محوّل البطاقة نفسها بما نصه :

أنا الفداء وكل العالمين لمن هو السياج لأهل الفضل والدين
في ذمة الله ما أرجوه من كرم ومن فخامة آلاء وتمكين
وادم كذا في المعالي شمس حوزتها منعم البال في مال وأهلين

ولصاحب الترجمة مشطراً أبيات للوالد في التورية بإحياء الإمام الغزالي ، ونص

التشطير مع الأصل :

أقلّ اللوم عن سمعي وهبني يضرب بي الغرام فلا أبالي
وكيف أعي الملام وما أراني مقيماً في هواه على ضلال
غزال وجهه أودى بجسمي وشبه الصدغ منه وأوحوال
أما بصدده والهجر يبلي وأحيى حين حيى جسم بال
فلا تعجب لفعله فهو ظبي وقرن الضد سهل للجمال
يمت نوى ويحيى بالتلافي وما الأحياء إلا للغزالي

ولصاحب الترجمة أيضاً تخميس لبيتين للوالد تورية لمن لبته دخيل ونص

التخميس مع الأصل أيضاً :

وظبي فلّ عمري بالتجنيّ يفرّسني هواه لكلّ فنّ
 دخيل للحشى من باب أذني رعى الله الذي سمّاه إني
 أخاله في فراسته نيلاً
 أو ابصر قدّه فأرتاد حرزاً ليحمي منظراً في القلب عزاً
 وأرى غيبوبة القمرين عجزاً درى إن الجمال إليه يعزى
 فلقبه لتعويذ دخيلاً

وله تشطير لثلاثة أبيات للوالد أيضاً ونصها مع التشطير :

يقولون دع من لا يرقّ لعاشق	أتمنحه قلباً فيمنعك الإغفا
فإن كنت ذا طبع حليف صباية	فإن سواه من ملاح الورى أحفى
أما علموا أيّ إذا رمت سلوة	تخيلت وجهاً منه بدر الدجى يخنى
ومها أرى الإقلاع عن ذلة الهوى	أعادت عليّ الوجد أجفانه الوطفى
على أتى أبلغت جهدي تفحصاً	وكم كرهة أرسلت في الكنس الطرفا
بخت على حسن يسيل لطافة	فلم أر ظيماً مثله يجمع للطففا

وقد ضمّن صاحب الترجمة التشطيرين الآنفين والتخميس المذكور بينهما برسالة
 مخاطب بها الوالد نصها بعد الحمدلة والصلاة :

أيها النسيب العالي والحسيب الغالي ، أدام الله سيادتك وحفظ مجادتك ، إن
 إطرابك ذوي الآداب بأبكار اليراع يشهد بأنك المتصرف في فنون الإبداع ، فحق
 للمحرّوسة الخضراء أن توفل بمطرز إنشائك وللجامع الذي برزت منه أن يستضيء
 يشعله ذكائك . هذا وقد ناجاني كتابك بمقاطع موصولة البلاغة ، نسيب يوقد قلب
 السالي ويستزل العصم من قن الأعالي ، فخمست الأول وشطرت ما بعده مع علمي
 بأن خرزاتي تقصر أن تنظم مع جوهر ذلك العقد الأول فيمن يلقب بدخيل الخ ...
 ووجدت بخط الوالد أيضاً رحمة الله عليه ، مخاطباً صاحب الترجمة ما نصه بعد
 الحمدلة والصلاة ملغزاً :

سيدي محمد المكّي

يا أيها النّلس أوسع لي مطارحة حاجيت منك صحيح الود نبراسا

فأيّ رشفٍ بكأسٍ للفؤادِ على شوقٍ أحبّ له من رشقه الكاسا
وأَيّ نارٍ بماءٍ ما ثوت عجباً والماء فيما يُرى ما زال بجاسا
وأَيّ جورٍ يراه الناس مقتبلاً إلا أنا أنفت نفسي له بأسا
وأَيّ ملكٍ أطاعته الملوك ولم يرفع معارضه منهم له رأسا
وأَيّ داءٍ برى الآسي محاولة فأب وهو على إيرائه آسي
وأَيّ نارٍ يباريها الغضى شعلاً فينظني وهي لا تنفك مقباسا
وأَيّ شيءٍ أبى حدّاً يحدّ به وليس يجري عليه الدهر قسطاسا
وأَيّ حصنٍ إذا شيدت معاقله لا رأس تلتني لها يوماً ولا ساسا
وأَيّ زعمٍ لِمَرءٍ يدّعيه ومن شهوده من جفا حتاً ومن واسي
وأَيّ بندٍ بأرضٍ لو بئرت بها وجدت منه على الأعداء خراسا
أشغلت فكرك لا أشغلت في عبث شغلاً ستلقى به الأفلاك جلاساً

أما تعجيل الجواب فأنا له في ارتقاب ، والسلام ختام محمد ا هـ .

ولم أعر على جواب صاحب الترجمة عن هذه الأبيات .

ومن شعر صاحب الترجمة ما قرّض به قصيدة الوالد رحمهما الله ، في تهنئة شيخه العلامة سيدي حسين بن حسين بختم شرح التاوي على التحفة التي طالعتها :

أضحى التداي بديلاً من تنائينا وأصبح الفخر يؤوبنا ويوليننا

وذلك في عام 1295هـ ونص التقرير قوله :

يا من غدا بمدام الشعر يسقينا حتى غدا خندريساً فكركم فينا
وشيت يا حبر ما يعلو على حبر تُسمى لصنعاء إعظاماً وتزيينا
بحر البسيط بكم قد عاد مفتخراً لما تسمته فالغال كافينا
ودلّ أنك تسمو للعلاء ذراً حيث انتخبت شبيه الحاجب النونا
محمد يا ابن من من علمهم شرفت ترشيش بل بالثنا أضحت نغنينا
هذا ابتداؤك يا نبراس كيف ترى إذا ربوت فحسبي قول آمينا
وضعت مدحك في أهليه وضع أولي عدل كتعليمه إياكم حيننا
جازاكم الملك الديان خير جزا حتى تدوم أباديكم تحييننا

وذبل هذا التقريض الشيخ سيدي علي الشنوفي مقتضياً أثره بقوله ارتجالاً :

أهذه نعمة جاءت تحيينا
أم بدر تمّ بدا يسبي العقول بها
أم خمرة من رحيق النظم يشني بها
لم لا ومنشئها نجل الهداة الأولى
محمد من غدا بجر البسيط به
وعن طويل عراق الرصد مع سكة
منحت خيراً جزيلاً إذ مدحت الذي
خبر همام إمام مفرد علم
لا زال مرتفعاً بالعلم مضطعاً
ثم الصلاة على الهادي الرسول الذي
والآل والصحب ثم التابعين لهم

فأجابها الوالد بقوله رحمهم الله :

ما جرّت الأرض تيباً ذيل مفتخر
الفرقلين اللذين القطر راح بهم
أشغلنا فكري إثر الفتور بما
طوقنا جيد شعري من جواهركم
ثم اعتناري لكم عن اختصاري إذ
كجرّها بعلي وأبن عزوز
يعتر بل يزدرى عجباً بتبريز
قد صغتما من قريض صوغ إبريز
عقدأ ولولاه لم يظفر بتعزيز
ظني محاكاتكم تفضي لتعجيزي

والوالد أيضاً قصيدة يخاطب بها صاحب الترجمة رحمها الله ، أرسم منها ما

وجلت :

على وده طرفي وأذني تواطأ
وأغضني إذا يهفو كأنّ مسامعي
وإنّ صديقي ما يزال على النوى
وحسن وفاء المرء حفظ عهوده
ألا تلك أخلاقي أبحتك علمها
وما هي إلا نقطة إن نسبتها
إذا خبر عنه أتى أو به خبر
وإن قرعت باللوم عاد بها وقر
قريباً كأنّ البعد ما بيننا شبر
إذا غار ماء الود أو بقي التزر
فخذ أو فدعها إن يكن هالك الأمر
إلى خلق المكي هو لها بحر

ومن ثر صاحب الترجمة مهتأ ومعزياً الجد سيدي محمد الطيب بولايته قضاء
الجماعة بعد وفاة أخيه سيدي محمد الطاهر ونصه :

هنا محاذك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسماً

أعز الله حضرة مولانا العلامة الهام علم الأعلام شيخ الإسلام عمدة الآنام ، من
تزينت بولايته الخضراء وقد أخذت تنشر في الآفاق مكارمه الغراء . الأستاذ الجامع
للمجدين ، التالد والطريف الشيخ سيد محمد الطيب النيفر الشريف قاضي المملكة
الإفريقية وناظورة العلماء المالكية ، لا زال الشرع العزيز به مسروراً وجند الدين
انحمدي يجالته منصوراً . أما بعد السلام الكريم ورضوان ذي الفضل العظيم ،
يتأبدان بمحملكم لاهجين بحسن مسعاكم ؛ أما بعد ، فإذا أقول واللسان عن إحصاء
ما في القلب بالعجز معقول ، أهني جنابكم كما هو المتعارف ، أم أهني ما بالجامع من
العلوم والمعارف ، أم أهني أهليه من مفيديه أو مستفيديه ، أم أهني الديوان العزيز
يلوغ ما تمنناه لأحكامه من عدلكم وخلقكم الإبريز ، أم أهني نفسي ناسياً بسرور
يومي كمد أمسي إذ أسفر صبح النعمة العامة بما نسخ ظلام تلك المصيبة الطامة يفقد
الصنو المقدس المنتقل إلى الجوار الأقدس ، عظم الله تعالى في فقده الأجر ومنح الله
الإسلام وأهله جميل الصبر ، أم أهني بكم الخطة الشرعية وقد طالما ترجت هاته
الأمنية ، أم أهني كل محب برفع راية العلم وإظهار الحقوق بتحرير المستند وحزم
التنفيذ مزيناً بوفق الحلم ، وليس بعجيب من فرع السلالة المصطفوية إذا برز متحلياً
بالأخلاق المحمدية . وكان الله لكم معيناً وبكم لمخبرات مناهج الحق مييناً ، وأنار بكم
مسالك الإسلام وشد عضدكم بأنجالكم الكرام والسلام من معظم قدركم الواجب
تعظيمه ، ابنكم مقبل يدكم محمد المكي بن عزوز وفقه الله ، كتب أوائل ذي القعدة
الحرام سنة 1311 هـ .

348 - الشيخ أحمد الأمين بن المدني بن عزوز

هذا التحرير من بيت فضل ومجد توارثه أب عن جد . وآل عزوز من بيوتات
نفظه العريقة ذات المكارم الموصولة بالنيل أواصرها الوثيقة ، وهم بررة من ذوي

السلوك لم تزل شمسهم في آفاق طرق القوم ذات دلوك ، وصاحب الترجمة الأبرّ
 قد درج على هذا السبيل حتى أصبح غرة ذلك القبيل . أخذ العلم عن علماء جامع
 الزيتونة حتى حذقه ووعاه وضرب بسهم في مختلف فنونه وبلغ منه مناه ، فمن
 أخذ عنهم وملاً وطابه منهم جدي الشيخ سيدي محمد الطيب النيفر ومن في طبقتة
 من الأعلام حتى بان تحصيله وتوفرت محاصيله ، وهو كما بلغ رتبة في العلوم
 المدروسة بالجامع الأعظم جامع الزيتونة سامية رفيعة ، كذلك ارتقى في معارج
 الأدب إلى منزلة منقطعة النظير جداً بديعة . فمن شعره القصيدة الآتية يمدح فيها
 شيخه جدي سيدي محمد الطيب النيفر ويطلب منه أن يجيز له في جميع العلوم
 إجازة عامة على ما هو الشأن في ذلك عند علماء السلف كي تتصل سلسلته العلمية
 ولا تنقطع ، ويكون ذان نسب عريق في العلم غير دعوي فيه وقدره بها يرتفع ، وذلك
 في 22 ذي الحجة سنة 1306 هـ ونصها :

إن كنت ترفل في أعز برود	وتنال فضلاً غاية المقصود
فاستسق صوب يراع من لانت به	صلد المسائل تحت كل بنود
من إن أتاه موّله يشكوه من	ظماً الجهالة نال خير ورود
من بالفصاحة والسياسة والذكا	في القطر لا يدعى سوى بفريد
وعليه ألوية الكمال ترفعت	وبه بدا بالخنصر المعقود
النيفريّ الطيب الخلق الذي	بالجد نال خيار ما لجدود
ما المجد إلا منهم وإليهم	ينمو بهم ويصول في الموجود
متواتر ومعنعن بين الوري	بصحيح إسناد وصدق شهود
حاز التقى والعلم والنسب الذي	كل بمفرده أجل وطيد
غيثٌ هما بحر طما ليث حمي	علم سما هادٍ لكل مرید
لم الهدى لمن اهتدى ومن اعتدى	كأس الردى يسقيه دون جحود
ما دأبه إلا النصيحة للورى	وبه يؤثر هبه في الجلمود
يشني الغليل بحل كل عويصة	لم يحوج التلميذ للترديد
ما استشكل المعنى امرؤ في درسه	إلا ويبديه بلا تعقيد
بقليل ظلّه تبدو جدوى لم تنل	بغزير وابل غيره في اليد
مع أنه يمّ العلوم وموجه	متلاطم بمكارم وسعود

ولآلء الأصداف في تقريره
ولذاك وجهت اهتمامي نحوه
وبفضله أرجوه يكرمني لأن
وإذا تشدّ إلى العلوم رواحل
فلمثلكم يسمى المثيم بالعلّاء
إذ لا ينافس في سوى العليا سوى
منكم أريد إجازة بعمومها
وأرى بإسنادي لكم متبخراً
لا زلت بمنون الفضائل سيّداً
مستكمل الآداب بالأنجال مع
من غيره لم تلف ذات وجود
متحقّقاً أني أنال قصودي
ضيف الكرام يُعزّ عند ورود
يسعى إليها باختلاف وفود
حَبّوا بعين أو بسحب خلود
من ليس يطلق عند وصف رشيد
تغني عن التخصيص والتقييد
في سابع الإفضال والتمجيد
للسنة السمعاء ذا تجديد
عزّ وعافية على التأييد

ومن شعره يهنيء شيخه المذكور بنجتم شرح القسطلاني على صحيح البخاري هذه
القصيدة الفريدة ويؤرخه وذلك سنة 1307هـ ونصها :

العلم أنفس ما نيلت به الرتب
فامزجه من صالح الأعمال مع أدب
والسعي فيه على ذي اللب مفترض
قاحط المطايا لنيل المكرمات فما
وأزرم جفونك هجر الغمض إن كلفت
فالمدلجون إذا وافوا مرامهم
لولا سرى العيس والتعريس ما قطعت
والمرؤ أنفاسه أغلى النفائس لا
فالنفس حاسب على أنفاسها فعسى
واغم فراغاً إذا وافى بعافية
واحذر تبسم دهر فالغضنفر لا
آلى أليّة الصدق لا غموس بها
وإن يسمك بسوء البخت فأننر عنا
لكن في عدم التدبير مفسدة
وما على غير أهليه الثنا يجب
ما المجد إلا بعلم شابه الأدب
حتماً فما لسواه استحسن العجب
ينل العلا في سوى ما دونه التعب
شوقاً به النفس فالتحصيل مرتقب
صاروا كأن لم يسمهم عي أو سغب
مهامه الحزن والناؤون ما قربوا
هي اليواقيت بل أغلى ولا الذهب
إن حوسبت من كثير اللهو تجتنب
فالحر غالب دنياه هو الشغب
يبدي التبسم إن لم يكسه الغضب
أن للأفاضل صفو العيش لا يهب
ن عيس رأيك حتى الأمر ينقلب
وما التدابير إلا أنها السبب

دانوا السفساف عن عنياتها احتجبوا
 ذكراً جميلاً إذا ما الشخص محتجب
 تركن إلى من له التفريط يتسب
 عنه القصور لعمرى انه عجب
 كم من حقير له قد حيزت القصب
 فالجدّ بالجدّ لا بالجدّ يكتسب
 حبر النيل الذي تسمو به الرتب
 باب الإفادة فاستغنى له الأرب
 شمس المعارف منه في الذين حبا
 له البراعة كل الناس قد نسبوا
 موصول بالمصطفى ما مثله نسب
 قد سودته مواريث ومكتسب
 جوع الإفادة منه العز يرتقب
 واء الكلوم بما يمليه مصطحب
 كتر الأسانذ منه الصنو قد شربوا
 وواع الصباحة منه البسل قد رعبوا
 ام الأراذل مها أهلها عصبوا
 ف الغبائن عن راعه الغلب
 سى بالظرائف للأفاضل منتدب
 بحر لغترف يستبقه الرضب
 كتر لمتنع أودى به الشيب
 حرز لذي فرق من شر ما يقب
 كلاً ولا من سواء المجد يحتلب
 ككار الأماجد نالوا فوق ما طلبوا
 لكن لمدركة التدريس تنجذب
 سيما تحاريره عنهم لها نصب
 لم يلهه مانع عنهم ولا نصب

والنفس علق بعلياء الأمور فن
 وابذر مكارم أخلاق لتحصدها
 بالأصغرين يفوق المرء كنه ولا
 يستعظم الأمر للتقصير مدعياً
 بل في الميادين نafs أهل صولتها
 لا تحتش بازلاً هبه ابن بجدها
 والفضل سل عن ذويه بالأصالة كال
 الجهبدي الذي بالحزم دق على
 العيلم الندس الخريت من سطعت
 هو الحسيب النسيب الأريحي ومن
 الطيب العلم ابن الطيب العلم ال
 النيفري سما بالأصغرين كما
 تاج المجادة إكليل السيادة ين
 طود العلوم ونبراس الفهوم وأد
 فخر التلامذ بل صدر المشاوذ بل
 طود السباحة إنسان الفصاحة مط
 عين الأفاضل مفتاح الفواضل حسد
 حاوي المحاسن جلاب الأحاسن كش
 صيد الحصائف حلى باللطائف وش
 نور لمقتطف حصن لمكتنف
 راح لمصطحب روح لمقترح
 آس لمتشوق روض لمغتبوق
 لا عز للعلم إلا في مجامعه
 بلر سناه تبدى في صفائح أف
 لم يُق تقراره في الدرس شاردة
 ترى تلاميذه غراً وتعريفهم
 صنع الجميل لهم دأب وشنشة

العلم والحلم والتقوى مشاهدة
 من نفسه مانع عن كل مشته
 مها ادهمت عويصات المسائل لا
 مها بثاقب فكر غاص عن صدف ال
 ما روض فضل بدا إلا ويانعه
 تعظيمه بين أهل العصر عنونة
 فصيته في زوايا العلو قرره
 وفي الآفاق بكل الأرض سار به
 لولا التوغل في كل العلوم لما
 مواهب الله لم تحصر حقائقها
 لا غرو حيث له من جده مدد
 لا سيما وهو البر السري ومن
 شمل المكارم بعد الشت جمعه
 يا جامعاً لشتات المكرمات ويا
 أنت الشفاء لمضنى الجهل حيث لكم
 وطئت كل جموع بالسياسة إذ
 شيدت ركناً وهي من حادثات نوا
 نورت بعد صدأ القلوب أفئدة
 شئت ذا القطر إذ توجت جامعه ال
 مذ أعصر ما شهدنا بل ولا سمعت
 من يدعي أن يحاكيكم يقال له
 نلنا بكم شرفاً لا بل فضائل بل
 أفدتنا ببديع من بلاغة من
 أقرأتنا الجامع المشهور صحته
 للحجة الحافظ الفذ البخاري من
 من حل مغلقة وقيد مطلقة

في رحب مربعه خيامهم نصبوا
 والمانع العقل وهو الشرط والسبب
 بدر سواه لحسم الجهل يرتقب
 بالفاظ أبدى معانٍ شبيهها الضرب
 زاهٍ بإحسانه قد هزه الطرب
 عن حب أهل السماوات الأولى انتخبوا
 جبريل حتى به أهلوه قد طربوا
 ريح الصبا ثم أدت بعضه الكتب
 مها يحل بناذٍ قيل فيه أب
 فيض لذني به من شاء ينتخب
 سار فنه استمد العجم والعرب
 أحبى مآثر عفت رسمها الحقب
 وهو قاسمه عن له صحبوا
 مستدركاً كل ما تحقيقه يجب
 وافي فلا يثني مصحوبه العطب
 رضت الأبيات فانقادت لك الجنب⁽¹⁾
 ثب الزمان وكلت دونه الحلب
 من لازموا درسك الميمون واقربوا
 معمور فانزاح عن جاءه الحوب
 للمجد مثلكم بالإعتنا يثب
 لقد حكوت ولكن فانتك الشنب
 نلنا المنى بعد أن ضاقت بنا الرحب
 لولا أحاديثه لم ترفع الحجب
 والفضل ليس على أهليه يحتجب
 في فضله كم دواوين وكم كتب
 والنص عما له الأعلام تضطرب

(1) الجنب : النبي لا ينقاد .

تفسير بحمله وكشف مبهمة
فأهنا بخدمك إياه وهنتنا
لا زلت في مثله تهنى مصاحبكم
لا زلت تعلي منار الفخر منبهه
لا زلت مصحوب حظ وافروحجي
معطى الأمانى مصحوباً بعافية
وبالفرايد صنوان الفخار على
يا سيدي قر عيناً والزمان بكم
لولا مزايك ما أورى الزناد ولا
إذ أن طول اغترابي موهن جلدي
لي بالدعاء توجه باهتمامك كمي
وأقبل كريمة فكر راق منظرها
هي الحريدة إن بالعفو تصدقها
ولأبتسام ثانيا الختم قد برزت
حيث بخمسة أبيات مؤرخة
بمعجم البيت أرخ أو بحمله
بيتان والثالث الإهمال شيمته
وبعد نخذ مهملأ في الشطر قط. تجذ.
أما الأخير أضف للمعجم العجزي
والشطر أجمعه واحسبه فقد جمعت
سعد السعود بعين الفضل صالحكم.

سنة 1307هـ

والخير يعلم والموج الأصيلي لكم

سنة 1307هـ

قد صار ليس على الأوهام يتقب
أيضاً وكونك محفوظاً بك النسب
ما أتم أهله لا عاقكم سلب
من فيض فضلكم يستشرف الحسب
في بيتكم أبدأ ما أنهلت السحب
لا يتزلن نوادي ربكم وصب
وقف الإرادة منساق لك الطلب
عيناه قرت فن علياكم الحلب
من صلد فكري سنا التقريض يلهب
بعاصف النوب قلبي راعه السقب
تشنى به النفس عنها تنجلي الكرب
لكنها بحلاكم زانها الخدب⁽¹⁾
تنضيد درّ ولكن راقها الأدب
من خدرها نتهادي ما لها سخب⁽²⁾
لم ينشى فيما علمنا مثلها درب⁽³⁾
أيضاً أو الشطر كل أربع حسبوا
بكل شطر سوى الروي يجتنب
أو معجماً أربع في البيت تنتخب
ضوامر الصدر أو بالعكس ينجذب
فيها ثمان وعشر كلها ارتكبوا
يهني ختام صحيح حوكة عجب

سنة 1307هـ

يا نيفري كل ندّ منك يكتسب

سنة 1307هـ

(1) الخدب : الطول .

(2) سخب : الصوت .

(3) درب : فصيح .

عمّ السرور الوري كلا وعاد لكم	سنة 1307 هـ
أسما المرام سراعاً ما له دأب	سنة 1307 هـ
مكارم لسعود العصر هل غرزت	سنة 1307 هـ
للحظ ثوباً كسوس رسلها عجب	سنة 1307 هـ
تمت فباقي صداكم بالهناء لكم	سنة 1307 هـ
دم فاضلاً بكم العلياء تنتدب	سنة 1307 هـ

حرّرت في 7 ثاني الربيعين سنة 1307 هـ .

349 - شيخنا سيدي محمد بن محمد النخلي

مثابة علم وتحصيل وتحقق بالعلوم بفكر أصيل ، شعلة من شعل الذكاء تغار منه ذكاء وآية فصاحة ولسن . تنقاد إليه القلوب برسن . درس كتباً عالية في البلاغة والمنطق واللغة والنحو والأصول والكلام والتفسير والحديث ، فكان بحرألا ينضب معينه بل يرتوي من عذبه ويقنني ثمينه . انتفع به الجماء الغفير وغدا ذكره حليف أنجاد وتغوير . أخذت عنه جانباً من تفسير الجلال ومن شرح العضد على مختصر ابن الحاجب ومن المزهري للسيوطي ، فكان آية تحقيق وتحرير ومبزع بلاغة وتخبير تنسيك الروضة والغدير ، تجري منه مجرى الأنفاس دروسه التي شهدناها خير دروس أخرجت للناس . ذاهمة عليه تضاهي مكانته العلمية ، حلوا المحضر على تقبض يلوح عليه حتى إذا جالسته وحاضرتة نشقت الطيب من أخلاقه وجنيت الشهد من فيه ، رجّاعاً للحق عند المباحثة غير وعر اللقاء ولا خشن المحادثة . شرح المزهري حين أقرأه شرحاً وجيزاً ، وله رجز في العروض والقوافي وألفية في الجنرافيا وعدة رسائل منها رسالة في المرأة وأخرى في تراجم شيوخه ، وله شعر جزل المباني رقيق المعاني ، سندكر منه ما يعذب في السمع ويضطرب له سليم الطبع . ولد رحمه الله في ذي الحجة سنة 1276 هـ⁽¹⁾ بالقيروان وفيها أخذ الكتب الإبتدائية ، ثم انتقل لكعبة الأقطار الإفريقية جامع الزيتونة سنة 1304 هـ فتلقى العلوم عن شيوخ جلة ملاء منهم وطابه وفاق في وجيز من الزمن أترابه ، من أعلامهم شيخ الشيوخ جدي سيدي محمد الطيب النيفر أخذ عنه شرح الزرقاني

(1) عند مراجعة ابن المترجم له الأستاذ عبد المنعم النخلي . ذكر لنا أن والده ذكر في مفكراته أنه ولد سنة 1286 كما جاء ذلك بكنش والده المرحوم محمد بن حموده النخلي أيضاً وأن كل التراجم تعتمد هذا التاريخ ومنها تقويم المنصور لسنة 1345 هـ .

على كتاب الموطأ ، وشرح القسطلاني على صحيح البخاري ، وشرح الشيخ عبد الباقي على مختصر خليل . وله قصيدتان من غرر القصائد مهنته بختم الكتابين الأخيرين وسنوردهما إن شاء الله ؛ ومن أخذ عنهم من أئمة عصره أيضاً شيخ الشيوخ سيدي سالم بو حاجب ، وسيدي عمر ابن الشيخ وسيدي حسين بن حسين ، وشيخنا سيدي محمد بن يوسف وغيرهم ، فلم يمض زمن يسير حتى نال شهادة التطويح وذلك سنة 1308هـ ، ولم يمنعه ذلك من زيادة الإستكمال شأن كمال الرجال إلى أن حصل على التدريس سنة 1313هـ من الرتبة الثانية ثم على التدريس من الطبقة الأولى سنة 1320هـ . كما ولي مصححاً بالمطبعة الرسمية . ثم انتابه مرض عضال في أواخر حياته سنة 1333هـ ونقه منه ثم عاوده في ذي القعدة سنة 1341هـ حتى أنشأ أظافره فيه ، ولم يسلمه حتى أسلم روحه الزكية ليلة يوم السبت 10 في شهر المحرم سنة 1342هـ بتونس رحمة الله عليه ، وقد دفن ببلده القيروان بمقبرة الجناح الأخضر بعد أن احتفل في الحاضرة بتشييع جنازته إلى حيث أقلتته سيارة إلى بلده احتفالاً علمياً مهيباً .

من شعره الرائق هذه القصيدة البديعة التي طالعها :

هو المجد في الإسلام أثله علم	إليه دعا دين به انتشع الوهم
تعال بناكر روض آثاره التي	على صحف التاريخ يبدو لها رسم
وقم نقتطف زهراً غصيناً منشقاً	سناشيق ذي لب يروق له الشم

إلى أن يقول :

ففي كتب التاريخ إيقاظ نائم	قضى العمر في نوم يروقه حلم
وما هو إلا الدين رائد عزنا	ألا فاتركوا بدعاهم الطم والرم
تكلس فوق الدين كلس ابتداعنا	فلم تنخرق منه الأشعة كي نسمو
فأصبح ضد يفترى كل فرية	ويلمزه لمزاً يغار له الشهم
وأصبح أقوام يقولون ما اشتها	وغاب حماة الدين فاستأسد البهم
وظنوا ابتداءً تحجل الطبع فعله	هو الدين كلا إنه الجهل والوهم
لعمري الهدى إن الهدى هو ديننا	وما بعده إلا الضلال له ركم
فشخص من التاريخ أحوال أمة	أخص حلاها الجهل والجور والعدم
مضى زمن والحرب بين شعوبها	مكشرة الأنياب آفاقها قتم

أتى الدين نعم الدين كَوْن أمة
بدا نوره كالروح في جسم ميت
أتى ناهياً عن كل فحش ومنكر
جرائمها قد أفرخت في طباعهم
أتهم وهم في غيهم مدنية
فقال لسان الشرع للعقل هذه
وشيكاً وأمر القوم شورى وهمهم
فكم غارة شعواء يتلو أصطلاً
فسلّ دولتي رومان والفرس ما أتى
وشعشع نور العلم كالشمس في الضحى
فكم أنفقوا من منفس في اقتنائه
وكان المجلي في ميادين نشرها
فأسس في بغداد مدرسة جلت
وكم نابغ أسدى المنافع للورى
وكم أكملوا من ناقص في علومهم
وما فاتهم حظ اختراع لفكرة
هم أحدثوا الساعات مع بيت إبرة
وقد أكملوا التقويم بعد نقائص
وقد قرر السواح للنيل منبعاً
ولولا عتوّ البحر ضد سفينة
تذكر فلاحات وحسن مغارس
ومدت فروع تمخر البحر مثلها
تجارتهم راجت إلى حيث ينتهي
كذا كان قومي في المعالي وغيرهم
إلى أن أتاح الله أسباب خلطة
هم استبضعوا من أرضنا العلم متجرأ
وحيث استرق القوم رؤوس شعبهم
لينجي نوعاً كاد يغمره الردم
سرت فاستقل الميت إذ حيي الجسم
خلاتق سوه لمال في حسمها الجزم
ولولا التأسى لم يكن يتنى سقم
سماوية معقولة حكمها الحكم
قوانين إصلاح ومن شأنك الفهم
تسلط عدل لا يقاومه خصم
فتوح بها ملك الأعظم ينضم
بلادهما والحق سيف به القصم
بتشيط أملاك ملاكهم الجزم
وكم ترجموا ما كاد يعفو له رسم
أبا جعفر المنصور يا حبذا الشهم
فتوناً على أزهارها انفتق الكم
وطار له صيت يخلده علم
وكم صححوا من مغلط فانتفى الوهم
عليها بنى الإفريج ما ولد الفهم
وأثبت ذا من كان بالعلم يهتم
وما اعتمدوا الرومان فيما اقتضى الرسم
على قرب ما قد قال آباؤنا الشم
لكان (كلمبو) اليوم ليس له اسم
وأشغال ري حيث أندلس تسمو
قوافل تفري الأرض مقصدها الفهم
تسلطهم فيما به نفعهم جم
حليف خمول والجمود له وسم
بها علموا أن الكمال هو العلم
يئونونه حيث الجهالة والوهم
وحيث استبد الحكم وأحلّ لك الظلم

فطارت شمس العلم تطرح نورها
وثقت الأذهان بالعلم فانتحوا
وهبوا من النوم العميق وقاموا
وتمت معدات الحضارة فيهم
فطاب لهم في ظلها متقيل
وعمت دساتير القضايا شعورهم
وأشرق نور الاختراع على الورى
وتمت لهم من عنصر النار خدمة
وشفعها سر الطبيعة كهربيا
وما زالت الأعلام تبغي مصاعداً
ومحطت بالأفكار أحداث مبدع
نعم إن قومي يلجئون بجهلهم
نعم كل شيء بالقضا حسبما أتى
شغلتم بسفساف فسد عليكم
أضعتم أصول الدين وهي فخاركم
تمسكم بالبدع وهو هلاكنا
تركتم غداء أو دواء لدائنا
فهذي بحمد الله بعض معارف
فعضوا عليها بالتواجذ صعداً
ولم أر عيباً مثل نقص بقادر

بأرضهم حتى استنضا الغور والأكم
إلى شعث سرعان عاجله لم
نواميس أكوان وما سامهم سأم
وسيجها عدل فما انتابها هدم
يدلي لهم ثمراً يلد لها طعم
وسوى الملوك الشم بالسوقه الحكم
وعطل في الأعمال ما شابه قدم
بها من طباق الأرض يستخرج الفحم
أرتنا محال الإعتياد له تم
إلى نقطة دقت وسيلتها العلم
يغطي على ما جد إن ضوعف الحزم
لتصريف أقدار إذا ونز اللوم
وكسبكم يعزى له المدح والذم
مناقد نور العلم وانخذل العزم
وأهلمت علماً به العز والفخم
فعلمكم وهم وضنكم رجم
يجهزه شرع تضيء به الدهم
يقدمها شبانكم نفعها جم
وبالدين للإصلاح والرشد فاثموا
على نيل ما فيه لعليائه ختم

ومن شعره يهنيء شيخه جدي سيدي محمد الطيب النيفر يختم شرح القسطلاني
على صحيح البخاري سنة 1307هـ هذه القصيدة :

أعد من أحاديث الحبيب على الصب
صحيح الهوى لم يسئل من معضل الجوى
ولا حام منه الظن أن ينقض الوفا
يساور أشجاناً ألحت بسقمها

وحي بها فهي الحياة لذي الحب
ولا وقفت عيناه عن مرسل السكب
ولا قال يوماً للغرام إلا حسبي
عليه فلم تترك لباقيه من نهب

أراق دمي في الحب من غير ما ذنب
تلاها عذار عن بدائعها بنبي
بأسري أسيراً في كبول من الحب
على ضعفه عن بابل سحره يسبي
بوصل سقاه العهد دائمة الغرب
ب متى يسم فعن لؤلؤ رطب
وقلت وجه البدر مستأمن الخلب
أخذت بأوفى الحظ فيها مع السرب
بأي التهاني ناسخاً سورة الحوب
طوالع سعد لا تميل إلى الغرب
وقلده جيد الزمان بلا قطب
ولم يرح منها طالع الوصل والأدب
بما فاض منه النفس من وارد النوب
خلوصاً لإحراز العلى أي ما كسب
إلى لمح نفس الأمر موصية السلب
إلى الجهد العلامة العلم الندب
معارفه القرا تبدت كما الشهب
بأوفر تحقيق ونفع لمستحي
موارد ظمان بتقراره العذب
بفكر سديد كاشف مهيع الصوب
وبحر طما علماً بلؤلؤه الرطب
وما الفصل إلا ما يقول وما ينبي
يهر لها عطف ارتياحه ذو اللب
صبا سحر في نشره عاطر الهب
لديه يعاطيه زلالاً على غب
بطيها الأسنى التزيه بلا شوب
هدى مشوق قد حدا داعي الحب

بناكر عهدي أحور راق حسنه
حوى من فنون الحسن أسراره التي
بوجنته ورد ذهبت لقطفه
مضى جفته إذ ضارع السيف راوياً
ويذكر عهداً كان معهد أنسه
رشفت به راح المنى من مقبل
وعانقت جيد الطيبي ليس بنافر
وجررت ذيل اللهو بين مكانس
ولم أر إلا مسعر الأنس لائحاً
وليس بسابي مقمر ونجومه
وقد عقد الإسعاد عقد احتفالنا
ليالي اعتدال فاجاءت بانقلابها
لقد مرّ منا العيش إذ مرّ حلوها
ولكنني أدلجت فوق عزائم
وفزت بنفسي عن مطارح لهما
وفي أنفس الأشياء نافست ناهضاً
هو الأوحدي النيفر الطيب الذي
إمام هدى ينهل غيث علومه
إذا ما صغا نحو المشاكل أصبحت
وليث بهيجاء المباحث طاعن
وطود سما فوق السماكين راسخاً
فما معدن التحقيق إلا فهمه
يجيء من السخر الحلال بآية
فمن حسن تقرير تحال مروره
ولطف بيان صار سحبان باقلاً
وأفنان علم طاب مثمر غرسها
لقد حق أن يهدي إليه ذوو الحجى

سماه على علق الأمانى دروسه
يرون الهمام القد كالبدر لائحاً
أساس المعالي منبت الفضل والتقى
فصار هو القطب الذي دار حوله
بيمناه رايات المعارف سالكاً
ففي الفقه ربع أهل شامخ الذرا
خليله بالتوضيح يغدو مهداً
وحاويه معياره بمدارك
وأكرم بمن جدت عزائم حده
ملما بآثار الرسول معاطياً
وينشرها كالمسك تنشره الصبا
فدرس البخاري كم جنينا بروضه
لطائف آثار تزيج شمسها
إلى أن أتانا الختم منه مبشراً
ختام به ثغر المسرة باسم
فله يا تاج العلى من مآثر
وكنه علامكم ليس يدرك عذره
فتونس في أنس وسعد يحفها
غدت بكم الخضراء أينع زهرها
وأضحت بكم وهي التي طار صيتها
ودونكها الغراء قنعها الحيا
يشيد بذكراها وينشر طيها
وقد واجهت ذاك العلا انعكست لها
على أنها زقت إليكم وظنها
فلا زلت يا بدر المعارف والعلا
يهنيكم وقد العلوم خواتماً

وله يهنىء شيخه المذكور لما ختم عليه شرح الزرقاني على مختصر خليل وذلك
سنة 1310هـ هذه القصيدة :

وصاحبه يسمو على كل معتل
يحاولها ذو الحزم دون تنصل
من الحزم فرع الصعب دون تحول
ولكنه العنقا إذا الحزم لم تل
تتوج مولاها بتاج مكلل
نظام صلاحه كل ماضي ومقبل
لعدت إلى مصحوب أول منزل
بموضوعه يربو سواه ويعتلي
أما إنه الحكم الإلهي لمحتلي
يميط لثام الحق في خير محمل
بها الوارد الظمان من خير منهل
وثيق المباني محكم عن تأول
فإن قلت إجماعاً أتيت بأعدل
تلا مدحه قول الرسول المفضل
تطرق محتال كثير التمثل
لجئات عدن ناكباً عن مضلل
لذي بصر أسنى من الشمس بمحتلي
وبثاه في الآفاق من أجمل الحلي
بما لم شعث الفقه للمتحمّل
أجلة علم وضحو كل مشكل
وللقيروان الفضل دون تقول
جهاينة فاقوا به كل أول
إليه فحول وهو خير معول
سداجة بدء عالم فاضل ولي
مآثره منها الدفاتر تمتلي
لتلميذه فهو المصلي وإن قلي
ملخص هذا الفقه من بعد محول

هو العلم أما فضله فهو الجلي
وما المجد إلا الجد بالغاية التي
ودون العلا حزت القتاد وإنه
هو العلم معراج العلا فارق دارجاً
فما المفخر الوضاح إلا معارف
إما انها أس عليها بنى الورى
ولولا علوم كالنجوم لها الهدى
طرائقها مفتنة وشريفها
لذا كان علم الفقه وسطى لعقدها
هو القطب دار الخير أجمع حوله
مناهبه مثل المناهل يرتوي
ومنها الذي قد خصّ عنها بمدرك
وذا عمل قد مر في أهل طيبة
ألا أنه فقه لعالمها الذي
بناه على سد الذرائع ينجثي
فجاء سفيناً للنجاة موصلأ
فقام به الأعلام يبدون نوره
تلقاه أسناذان لما علاهما
وألف كل ما تلقاه عنها
فبغداد كم ضمت ومضّر لقد حوت
وأندلس الغراء زينت بحلة
بها قد طأ بجر من الفقه غاصه
فذلك سخنون وديوانه سمت
فهذبته بعد اختلاط قضت به
هو ابن أبي زيد محلي اختصاره
وشفع بالتهذيب متناً مهذباً
وجاء أبو عمرو بمختصر حوى

بتلخيصه برنامجاً غير معضل
على أنه رمز فسيح التأمل
وذي نفعات من مواهب مجزل
بكل قبول مشعر بالتقبل
عموم انتفاع بأستبانة مقفل
لخاطبه إذ كان صعب التوصل
بميدانه يكسوه كل مطول
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي
نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل
سواه بتفريع وقول مفصل
يشدّ عليه هاجس المتأمل
هو الروض داني انجنتي والتنقل
وفضل على هام المجرة يعتلي
مشارعه كأساً تروق بسلسل
بهالة ناد بدرها مشرق عليّ
له وعمغناه ثوى كل مفضل
هو الرحلة الأستاذ كشاف مشكل
بسيرته يروونها خير مرسل
لهم في المعالي كل أصل مؤصل
تسلسل للمختار أفضل مرسل
تمام اتحاد للفخار المؤئل
بقية فضل بيتنا وتوسّل
بفضل وتعصيب أخيراً الأول
طوى نشرهم للعلم آثار أفضل
ونتلو علاهم سورة المتبتّل
لتحصيل علم الدين دون تقل
بأندية التدريس فاتح مقفل

وكانت به كل العناية إذ غدا
وجاء خليل بالذي طمّ يمه
شهدنا به فضل الأخير مدلاً
تلقاه أهل العلم يدعون ما احتوى
وجادوا عليه كل شرح يفيد
فمن موجز أسنى مراده كشفه
ومن مطب جالت سوابق عزمه
وينشد في حل العويص تمثلاً
وينشر من معناه ما كان دونه
وناهيك بالشرح الجليل فقد طوى
أطال نجاد القول فيه فلم يكن
هو البحر يلقي اللؤلؤ الرطب موجه
به كان للزرقاني ذكرٌ مخلد
تعاطاه أهل العلم يرتضعون من
على روضة التدريس دارت سلافه
وذلك من تعلق العلوم وأهلها
هو الجهبذ التحرير عالم عصرنا
هو الطيب النشر الذي لهج الورى
إمام سما من آل نيفر الأولى
لهم نسب يجلو الظلام صباحه
وذي نسبة جلت فستدها له
وحسبك أبناء الرسول فإنهم
فسلسلة الإبريز هم ورثوا العلا
أولئك أطواد المعارف والتهى
نجوم سماء المجد نهدي بنورهم
يقرون عين المصطفى بانتدابهم
وذا الجهبذ الأسمى فكم بث علمه

بأندية منها الفوائد تجتلي
عليها البها قد مدّ أروقة السنا
إذا جاءها التحرير أقسم أنه
وإن جاءها صفر ملا من نفسها
فذي جنة الحضرا وكوثرها لنا
حديث وفقه نشرب الكأس مرة
فلله درس الفقه درس حليفه
حشرت به يا واحد العصر بيننا
وأبرزتها من عالم الكم للحجى
ألم تك للزرقاني تجلو عويصة
توشي على منواله الدرس آتياً
يمر علينا من تقاريرك الصبا
ونسرع قساً وهو يسرد جوهرأ
ونبصر أياساً وقد وردت على
وتذكر والأشبه ذكرى لذي النهى
ونشهد قول المصطفى إن ديننا
نهنيك بالختم الشريف ورتجى
وندعو لكم رب البرايا بيننا
ودونكم ما جاء عن محض عجلة
ولم أر منها ما يعود بحسنا
ولم أرتكب فيها النسب وزخرفاً
أبت أن ترى التشيب تاج فخارها
أرى السبر والتقسيم مها دنا لها

كعقد فريد بالآلي مكلل
ومنها استعار الروض تأنيقه الجلي
هو الحق مطبوع بسحر محلل
وطابه علماً دونه ذو التغلغل
تدار كؤوس بالرحيق المسلسل
بفقه وأخرى بالحديث المجمل
حليف غرام بين سعدي ومنزل
رفاة علوم لم تل محصل
غوامضها القعسا تطبق بالجلي
وتكسوه تحقيقاً وتحرير أكمل
على طوله بالمتقى المتحصل
تلاها الحيا تروى بطيب معلل
بسمط نضار في بديع التشكل
حجابه معانٍ قد خبت عن تأمل
عفاف فضيل من له الورع العلي
تحمله في العصر كل معدل
لكم مثله مع مثله غير مقلل
بطول بقاكم كل خير موصل
تحتلس من وقته بتعلل
سوى مدحكم إذ كان كل معولي
من القول مبلولاً وإن راق مجتلي
وكيف تراه وهو محض التخيل
قلاها فقابل بالرضا وتفضل

وأخبرني رحمه الله ، حين الدراسة عليه أنه كان أرخ خزانة الكتب التي حبسها
أمير عصره علي باي علي جامع عقبة بالقيروان بقصيدة لطيفة أذكر بيت التاريخ وهو
ختامها ، وذلك قوله :

قلت وفي هذا البيت أمران ، أولها أن الجيم من قوله الإبتهاج عددها داخل في أعداد أحرف التاريخ وهو المصراع الأخير ، وقد أشار إلى ذلك بقوله بغاية الإبتهاج أي الحرف الأخير منه ، وثانيها أن لفظ خزانة اعتبر عدد آخر وهو التاء بأربعائة وإن كان رسمها القياسي أن تكتب بشكل الهاء التي عددها خمسة بحروف الجمل .

ومن ثمر صاحب الترجمة ما قرص به رجز الوالد المسمى بمرصع الزجاج فيما إليه من عيون الحكم والوصايا يحتاج حين طبعه وأهداه نسخة منه ونصه :

جناب العالم النحرير الفاضل جامع أشتات الفضائل والفواضل ، أخينا الروحي المدرس الشيخ سيدي محمد النيفر ، أقر الله بوجوده عيون المعارف والآداب ، لا زلنا نتلقى من تحفه ما يضيء البصائر ويثقف الألباب . بعد إداء ما يضاهاى شريف أخلاقكم الزكية من السلام المتلالي كالهلال وإعراب ما استكنّ في ضمير المتكلم للمخاطب من خالص المودة وقصارى التعظيم والإجلال ، فقد شرفت أعزك الله وحرسك وعلى منصة كل كمال أجلسك ، بالرجز المديد الوافر البسيط والتصنيف الذي هو بجوامع الحكم وعيون الآداب محيط ، بل بالطرفة الفاتقة والتحفة الرائقة ، فسرت طرف الفكر في مغانيها الآهله بغواني المعاني ، وأطريني من هزار رياضها الأنيقة ما لا تطرب المثلث والمثاني ، فإذا هي جنة لا بل ثمانٍ فيهن خيرات حسان وحكم لقانية وقت بما يلزم الفرد والجمهور في الإجتماع البشري بمقتضى طبيعة العمران ، دلت دلالة ساطعة على ما لجنايبكم من العلم والحكمة والمهارة في صوغ سائلك الإنشاء ، والله قدس كما قال في تزييله العزيز يؤتي الحكمة من يشاء ؛ والحكمة معرفة النفس ما لها وما عليها . ورجزكم البديع قد تضمّنه واستوعب ذلك في نمط عجيب جرّ في ميدان البراعة بين أهل البراعة رسنه ، ولقد طوّقم أبناء العلم والآداب بما لتحفتم أطواق الأيادي ونشر لنا فصاحة وحكمة قس بن ساعدة الأيادي . أما بعد ، فإنه أثقل كاهلي جزيل هذه المنة البينة وصارت جوارحني لإداء واجب الشكر الستة خصوصاً وقد شفعت عندي نعمة الأمل المعنوية بالفرع ووجدت مجال القول ذا

سعة ولم أجد لساناً قائلاً وضاق بي النزع ، فلذلك صرفت عنان القلم عن المدح والإطراء إلى مجال الإبتهاال والدعاء بأن يربط مجدكم بآل النيفر بأوتاد الدوام ويطلعكم في سماء المعارف والعارف بدور تمام ؛ وكتبه أخوكم الروحي معظم قدركم محمد النخلي خادم العلم الشريف وفقه الله تعالى في ذي الحجة الحرام سنة 1313هـ .

350 - الشيخ محمد ابن العدل الشيخ الطاهر كثير

من ذوي الألفية والذكاء ومن خريجي جامع الزيتونة الأعظم الأدباء . كرع من مناهله حتى ارتوى وحصل نصيبه منه علماً وأدباً وحوى ، أخذ عن علمائه الجلة مصايح القطر ونجوم الملة ، فنال شهادة التطوير عنوان العالمية في ذلك الأوان وهو إذ ذاك في مقتبل العمر من نبهاء الشبان ، تصدر بموجبها للإقراء بالجامع تطوعاً فأقبل عليه التلاميذ الوافدون عليه يأخذون عنه مبادئ العلوم ومتزاحمين على دروسه . إلا أن إقامته بين ظهرانيهم لم تطل حتى جذبته للدخول إلى حضرته كأمثاله من نجباء خريجي جامع الزيتونة المحكمة الابتدائية العدلية ، محكمة الدرية ، فأصبح من حكامها النابيين . ولم يطل انخراطه في سلكهم حتى تخلى عنها وباشر مهنة تلقى الإشهاد ، وأصبح من العلول المشتغلين بالتوثيق في الحاضرة يعالج صعابها ويختار مزالقها بمهارة وفطنة مشتهراً بين قرنائه بتذليل الصعاب وتيسير ما استعصى من الآداب وإن حملته ذلك تعباً ولاقى عنناً في سبيله ونصباً يمرق منها مروق السهم بما أوتيه من دهاء وجرأة فهم . وكان لطيف المعشر لئن الجانب ميلاً إلى ما يسر الشجي ويصبو إليه الخلي ؛ وهكذا استمر يجاري زمنه يخلع مع أقرانه رسمه إلى أن اكتمل وحجب ليل المنون نور ذكائه المشاعل رحمة الله عليه . وله شعر بلغ مرتبة الإجسان وعُدَّ به في حلبة القريض من الفرسان ؛ فنه ما هنا به شيخه جدي سيدي محمد الطيب النيفر حين ختم عليه شرح القسطلاني على صحيح البخاري وهو قوله :

عن العلم لا يلهي أنا الخزم شاغل	ولو كنت طول الدهر عنه تشاغل
ومن يكن العرفان غاية قصده	فلا عجب إن صار فيه يطاول
وما زينة الإنسان إلا معارف	بها وسط أرباب المحافل حافل
أليس الفتى بالعلم يعظم قدره	وينحط قدراً إن تقل هو جاهل

سوى أنه عند التخاطب صاهل
تراه لإدراك العلوم يحاول
إليها وفي تحصيلها العمر باذل
ويبقى له الذكر الجميل يواصل
ولا المجد من غير المعارف حاصل
هو النعمة العظمى وغير باطل
« وكل نعيم لا محالة زائل »
به فلهم عند الإله منازل
بما حرروا مما يرجيه عاقل
إلى أن صفت للواردين المناهل
وصارت على الأقطار طراً تطاول
لقد حمدت في الناس منهم شمائل
ونارت به في العالمين المحافل
وليس له في الناس حبر مماثل
وأستاذنا والفاضل المتكامل
كما البحر لكن لا يحده ساحل
على فضله كل البرية نازل
على وجهه نور التواضع حافل
ولكن عليها سحب بشر هو اطل
هو العيلم الفذ النيل الخلاجل
أسود ضراء بل ليوث غوائل
إذا ذكرت في العالمين الفضائل
وما منهم إلا لوا الفضل حامل
عليهم رضاء الله ما اخضر ما حل
ووسطاه هذا السيد المتكامل
جواد بكل المكرمات يواصل
وسارت إلى الآفاق منه جداول

لعمرك ما الإنسان لولا بيانه
فدو العقل والرأي السيد هو الذي
وعضاً عليها بالنواجذ وانتمى
ويسعى لما بعد الحياة يزينه
وما الحمد من غير المعارف يرتجي
يقينا يقينا لا أشك بأنه
ألست ترى الدنيا نعيماً مؤقتاً
فكم من أناس أنفقوا العمر واعتنوا
وقد رغبوا في العلم حتى تحرروا
وقد خولوا ذا القطر عزاً ورفعة
أليس بهم خضراء تونس قد زهت
فطوبى لقوم قد منحنا رضاهم
كهنا الذي أنوار وجهه أشرفت
عنيت به القمقام من شاع صيته
هو العالم التحرير صفوة قطرنا
هو الماجد المفضال أوحد عصره
هو المورد الأصنى بل المورد الذي
هو الطيب الأسمى هو الأسعد الذي
ومن سر أسرار المعارف جنة
هو النيفر السامي ذرا المجد والعلا
من السادة الأخيار أطيب معشر
مناهل معلومون يوم سقاية
عريقون في المجد الأئيل وفي العلا
أقاموا على تهيج من الحق واضح
كأنهم عقد من الدر محكم
تقي تقي ناسك متورع
به فاض بحر العلم والحلم والتقى

مضاهاته لا شك أنه جاهل
وفي حقه أن ينشد اليوم قائل
لآت بما لم تستطعه الأوائل
خلاف الذي يلقيه في الدرس غافل
وما بينها والحق من بعد حائل
إذا ما ادلهمت من حجاجك النوازل
وكشافه مها توالى قساطل
وإنعامه فينا الغيوث الهواطل
فقامت على الخيرات منه دلائل
إلى كتبها لم يبلغ المتطاول
فواضل ترى واصلتها فضائل
صحيح البخاري كنه فضله واصل

86 844 75 205

سنة 1307هـ

ولو جاء بالجزم الغفير سياجل
لدى مدحكم سيان هو وباقل
دعاء له طيب العبير يماثل
حليف سرور بالذي أنت آمل
تزان بهم بين الكرام المحافل
وهذا دعاء للبرية شامل)

تفرد في كل العلوم ومن يرى
حري بأن يدعى بمالك عصره
وإني وإن كنت الأخير زمانه
له الباع في بث العلوم فسائل
يجل عقال المشكلات بفكره
فبرنامج المعقول مصباح هديه
وتحفه هذا المصير منهاج رشده
فيا أيها المولى الذي عمّ فضله
منتت بنجتم للبخاري وشرحه
وكم مئة أوليتها وكريمة
وقد شاهد الأرقام يوم ختامه
لذلك أتى قول البشير مؤرخاً

تقاصر عنك المدح من كل شاعر
أليس من المعلوم سبحان عصره
ولكنّ حسب المرء إن ضاق ذرعه
فلا زلت للأيام تاج فخارها
بأنجالك الغر الكرام مؤزراً
(بقيت بقاء الدهر يا كهف أصله

ومن شعره أيضاً يهنيء شيخه المذكور بنجتم شرح الشيخ عبد الباقي على المختصر
هاته القصيدة وهي :

فذا يوم عيد في البرايا مواكبه
لآليء قريض نظمها تراثه
فصاحبه طود أشيعت مناقبه
فعن أفق العلياء لاحت كواكبه

هلمّ إلى ختم تسامت مراتبه
هلمّ إلى نادي السرور تجد به
عليك بناذ قد حوى كل شارد
هلمّ لنادي العز والفخر والهنا

عليك به وأصرف زمانك في العلا
فن أنفق العمر اللئيد على العلا
فلونك بلر الدين لاح سناؤه
فما شئت من مجد ومن أدب ومن
فذا الطيب الأسمى لقد شاع صيته
هو الفاضل ابن الأفضلين الأولى غلوا
جناب به كل المعالي تجمعت
فقل مادحاً ما شئت فيهم فإنهم
رعى الله هاتيك المعالي فأهلها
فذاك جناب ما له من مضارع
فصيح بليغ ذو وقار وهيبة
دهاء وفضل عفة وديانة
بشوش عبوس صابر متورّع
وكعبة علم زانها الحلم والتقوى
همام علا أوج العلا لاح في الملاء
ويم ندى يجلي الصدى نعمة بدا
فلست أرى التحرير يعنو لغيره
أراك لسان الدين خير سميدع
يقلد نحر الطالبين جواهرأ
لطائف تعبير وحسن إشارة
ألان صعاب المشكلات بقطره
ألست ترى التبيان درأً منظماً
فلازم أنا التحصيل مذهب مالك
فما زال إكليل الزمان وتاجه
برفعة جباه لا يدانى محلها
ولا زال مزداناً بحلية فضله
ودام عزيزاً في النفوس محبباً

فذاك أماني من تسامت مراتبه
يقوز بعلم والفخار يصاحبه
لقد شرفت أقواله ومذاهبه
سخاء وعلم ليس يحصيه حاسبه
وذا النيفري اللذ كل فخر مصاحبه
وجمعهم أعلا الكمال يجاذبه
تقدّس من أنشأ ومن هو حاجبه
ذوو نسب أسمى وعلم يصاقبه
سماة فخار قد أضاءت كواكبه
فن فخرهم فرد لقد جلّ واهبه
رفيع علت فوق السماك مراتبه
وفهم بديع ثاقب الفكر صائبه
وهيكل فضل واسع الصدر راحبه
بها تتجلي من كل جهل غياهبه
بمجد حلا مع ما حوته كواسبه
مزبل الردى عن محتم حاط جانبه
فضائله قد دوت ومناقبه
ملازمه يعطي المنى ومآربه
ويكسب تهذيب النفوس تخاطبه
ورقة معنى أبرزتها قواله
ولو رام ذاك الغير ضاقت مذاهبه
مداركه المختار والسهل صاحبه
فذاك خضمّ قد غدا وهو شاربه
فريد كمال نافذ السهم صائبه
وعز مشيد والمعالي تجاذبه
وأنجاله الغر الكرام تصاحبه
ينال من الآمال ما هو طالبه

أمقصدنا المحمود هاك خريدة
 محجة عذراء تهدي مدايحاً
 ونعم ختام قال فيه مؤرخ
 نهي بنحتم خير بمن يصاحبه
 وما مهرها إلا دعا فاز كاسبه
 ختام زكي في البلاد مواكبه

74 68 90 37 1041

سنة 1310هـ

ومن شعره يهني الجد أيضاً بالعيد :

والعز أقبل ناشراً أعلاما
 من نرجس والورد سلّ حساما
 أهدي لها كأس الغمام مدا
 من حسن نغمت زرت أنغاما
 قدمن أحنأ إليه سلاما
 حبّ يعيل لجه أعلاما
 من أجل ذاك ضربت فيه خياما
 وبما حواه من الكمال تماما
 غيث الشيوخ وليها الضرعاما
 أعلى الأنام منازل ومقاما
 بحر المكارم عمنا إنعاما
 التيفري منقذ الأحكاما
 سيف الشريعة للردى حساما
 روض المعارف زهرها البساما
 يشني الغليل ويبريء الأسقاما
 ومناره ومنيره إلاما
 وخشوعه يذري الدموع سجاما
 حتى لقد ألفت إليه زماما
 فحوى الذي قدماً نواه تماما
 نور الشريعة قد أضأ الأوقاما

الدهر أسعف يالني أقواماً
 فانظر إلى حسن الرياض وما حوت
 والزهر يعبق والبنفسج باسم
 والطير يصدح والغصون تمايلت
 فكأنها ملك وتلك عصابة
 والقضب ترقص بالسرور كأنها
 روض به كل المحاسن جمعت
 وشغفت أزماناً بحسن حياضه
 يا قلب دونك والبهاء ومن غدا
 أعني به فخر الأولى وأبا العلام
 زاكي الأزومة فاضلاً حاز إليها
 الطيب الأسمى إمام زمانه
 قاضي القضاة أبا المحاسن والتقى
 جم الفضائل باذخاً في مجده
 إن قال قال المصطفى فحديثه
 حفظ الحديث وهو كوكب عزه
 برضاة وسلافة وذلاقة
 عكف الزمان على المفاخر ساهراً
 بذل النفيس لنيل أعلق العلام
 فإذا نذرت كماله حيناً ترى

إن حلّ إيوان القضاء رايته
 نادي النوازل قد تسامى فخره
 فكماله وهماؤه ذاك الذي
 يا من له نسب شريف ظاهر
 يهنيك ما قد نلت من ذكر به
 أنجالك الأعلام فخر بلادهم
 ما منهم إلا مثافن كتبه
 ومجالس حليت بها آدابهم
 سيما أبو عبد الإله محمد
 آثاره تنبيك عن أخباره
 تلك العصابة قد رقوا أوج العلا
 الله يبيقيكم ومحرم مجدكم
 يهنيكم ذا العيد بالعود الذي
 من أجل ذا أبديت في تاريخه
 بجرأ يريك النقض والابراما
 منه الهدى وهو المزيل ظلاما
 عزى الأرامل فرح الأبتاما
 قد زينتوا بنصوصك الأحكاما
 حزت العلا والفضل والإكراما
 بفخارهم قد توجوا الأياما
 فعزيمة يقضى وحزم داما
 فجليسهم يرعون منه ذماما
 فكماله قد أعجز الأعلاما
 تحريره قد أعجب الأفهاما
 ماذا عسى أن أمدح الأعلاما
 ما خرّ عبد للسجود وقاما
 منه البرايا يبتغون . مراما
 عيداً حياك تحية وسلاما
 378 818 31 85

سنة 1312هـ

ومن ثره وشعره يهني الجدد أيضاً بولايته قضاء الجماعة ما نصّه :

وجه البشائر أشرقت أنواره
 والعز أقبل للفخار مقارناً
 والدهر أسعف بالمني من بعدما
 فلقد صفا عيش لنا يا حبذا
 فغدا ثباب العز يسحب والبها
 وسنا النهائي قد بدت أقماره
 هذا الكمال وهذه آثاره
 غرس الغني أثمرت أشجاره
 من منصب للشرع قرّ قراره
 ويلوح في أوج الفخار مناره

أخص كعبة العلم التي زانتها العفة والصيانة وطود المعاف وقطب دائرة الديانة ،
 من جمع بين شرف الحسب والنسب ، والملاذ الذي بالتشبيث بأذياله ينال غاية
 الأرب ، المتحلي بالفضائل ومصداق كم ترك للأواخر الأوائل ، الصارف زمانه في
 اكتساب المعارف المجتمع عنده تالدها والطارف ، إلى أن صار حبل الفضل وبحره

الزاخر وأصبح ملتتمس كل علم فاخر . قاضي الأنام ومنفذ القضايا والأحكام ومن لا تحصى كالاته الأعلام ، العلامة النحرير والدراكة الشهير أستاذنا ومولانا الشيخ سيدي محمد الطيب النيفر الشريف أبقى الله وجوده . أما بعد سلام أعقب من المسك نفحاته ورحمة الله تعالى وبركاته ، فقد اتصلنا بخبر الولاية وبلغ بنا السرور النهاية ، وقدمنا مراسم التهنئة لتلك الخطبة الشريفة الرفيعة المقدار . الحائزة والمنتهى لكم أعظم اعتبار ، مهتأ لها حيث تعلقت بأذيالك وارتدت بفضلك وإيالك ، لكن لحقني أسف عظيم حيث لم أكن بمحاضرتكم أقيم ، وفاتني مشاهدة ذلك الفخار حيث كنت نائبي الدار ، ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن . وأسأل الله تعالى أن يرزقكم الإعانة على القيام بحقوق تلك الأمانة ويعجل أوبتنا في أقرب الأوقات ويمتدنا بالنظر في هاتيك الكمالات ، ويطيل بقاءكم بغير مديد وفضل فريد ، والسلام من ابنكم محمد كشير كفاه الله كل ضير ، وحول حاله إلى أحسن حال وكان له في الإقامة والترحال في 16 شوال سنة 1311هـ

ومنه يعزي الجند في شقيقه سيدي محمد الطاهر قاضي الجماعة قبله بما نصه :

وما هذه الأيام إلا مراحل يسوق بها حاد عن الدهر قاصد
وأعجب شيء لو تأملت أنها منازل تطوى والمسافر قاعد

إلى حضرة العلامة النحرير الجهاد النقاد الشهير ، مالك زمانه وفريد عصره وأوانه ، أستاذنا وأستاذ أساتذتنا سيدنا محمد الطيب النيفر الشريف كان الله به نعم اللطيف . سيدي بعد سلام ، كعرف أقاح يتوارد على جنابكم الأرفع في كل غدو ورواح ، فقد فاجأنا خير أورث الفؤاد حزناً والجسم وهناً ، وأجرى دموع العين دماً وأمر من العيش ما حلا وأحیی من الأحران ما بلی ، ألا وهو وفاة قاضي القضاة وفريد الخصال والصفات والمحیی من السنة ما مات ، منفذ القضايا والأحكام بين أمة سيد الأنام سيدنا محمد الطاهر ، برّد الله ثراه وجعل الجنة مأواه ، ولعمري إنها لمصيبة عظيمة ألمت بالعباد والبلاد وتمزقت منها القلوب والأكباد ، فنسأل الله تعالى أن يرزقكم وذويه صبراً ويعظم لنا عن مصيبتنا ومصيبتكم أجراً ، فقد قضى بذلك الرب الجبار وما هذه الدنيا بدار قرار كتبه نائي الديار عديم الاصطبار ، إنكم وتلميذكم محمد كشير كفاه الله كل ضير ، وحرر في 17 شوال أثاره الله بالقرب والاتصال سنة 1311هـ .

ومن نثره ما كاتب به الوالد يهته بتولي الجند قضاء الجماعة ونصه :

الى حضرة ذي الحلال الشريفة والصفات العالية المنيفة ، من ارتضع ثدي
المعارف من حالة صباه ومن كل طالب أجابه وليّاه ، أخ العزم والجد وملازم الحزم
والكد ، الذي اكتسب من المحامد أعلاها ومن الفضائل أحلاها وأغلاها . ذي
الترجمة الوقادة والنفس التي لها المعالي مقتادة ، الفاضل اللوذعي والكامل الأملعي ،
العالم التحرير ذي الصيت الشهير ، صديقنا الأستاذ سيدي محمد النيّقر الشريف كان
الله به نعم اللطيف . سيدي بعد سلام أزهر من زواهر النجوم وتحيات كأنها اللؤلؤ
المنظوم ، فقد بلغنا تقليد خطة القضاء لأستاذنا ذلك الإمام ونالت بذلك البرايا أرفع
مقام ، وحزناً من ذلك العلاء ذراه وثلثنا منه متناه بالمنة لله على ما أنعم به علينا وعلى
البلاد والعباد بعدما كادت أن تذهب الروح ويتمزق الفؤاد ، وهنيئاً لتلك الخطة
العظمى حيث تعلقت بأذياله ونشبت بأطراف علمه وكماه ، فلم تكُ تصلح إلا له .
هذا وقد عاملني الدهر بالنقيض وتركني بالحضيض ، حيث لم يبادر لي بالابتسام
وبلغني الخبر بعد أيام ، وقوت عليّ الفريضة لتقديم الهنا وأبعدني عن مشاهدة ذلك
الفخر والمنى ، وعساه أن يعاملني بالإنصاف عما قريب ويعجل لي بملاقة كل حبيب ،
وكتبه على أشنع عجل والخير نجعل ، أخوكم المنتسب إليكم محمد كثير كفاه الله كل
ضير في 16 شوال أناره الله بالقرب سنة 1311 هـ ا هـ .

ولعل بعده عن الحاضرة في التاريخ أعلاه لمباشرته إذ ذاك خطة حاكم في أحد
الجالس العدلية خارج الحاضرة .

ومن شعره يهنيء الوالد بولايته مدرّساً من الطبقة الثانية هذه القصيدة :

إليك العلا بالقصد منك امتطاؤه	فيا حبّذا ذاك العلا وسناؤه
ألست ترى وجه البشائر مشرقاً	فنعلم نهار لاح فينا هناؤه
بتقليد ذاك النيفري بولاية	رفيعة قدر لا يضاهي اعتلاؤه
محمدنا التحرير مفرد عصره	فذاك الهام اللذُّ يُحَبُّ اصطفاؤه
لعمري لقد حزت الفخار بأسره	وبلغت ما تبغيه واللذُّ تشاؤه
ظفرت بما سرّ الأنام اجتلاؤه	وحزت كماالأ بالمعالي بناؤه
فتاه بك التلريس من بعد درسه	وقد طال فيكم قصده ورجاؤه
وراح بأثواب المفاخر رافلاً	فبش حداد كان منه رداؤه

فلولاكم لأختلّ عنه نظامه فأتتم حياة ذكره وبهاؤه
أسيان مملوه الوفاض وفارغ فذاك جدير بالعلوم نداؤه
فجازى الإله الطود عن حسن صنعه فنه السرور بدؤه واتهاؤه

من المتسبب إليكم المعروف في 9 رجب الأصب سنة 1312هـ 1هـ .

351 - الشيخ عمر ابن الشيخ محمد ابن الشيخ سيدي علي ابن شيخ الشيوخ سيدي إبراهيم الرياحي

ولد هذا الفاضل الأصيل والزكي النبيل سنة 1280هـ ، وقد هنا والده الهمام
بازدياده شاعر عصره الشيخ محمود قبادو بقصيدة وأرخه بالمصراع الأخير منها وهو
قوله :

عمر به النسب الرياحي يعمر
320 260 383 7 310

سنة 1280هـ

فنشأ في بيت الفضل والمجد المتوارثين عن الأب والجد ، وتلقى العلم والأدب عن
جلة شيوخ الجامع الأعظم جامع الزيتونة ، إلى أن نال ما يرجوه من أرب ، وهم
علماءه الأعلام المرتفع بهم قدره على المعاهد العلمية المستضيء بنورها الأنام . فمن
استفاد بتلمذته له جدّي سيدي محمد الطيب وأهل تلك الطبقة من الفحول ، إلى أن
أحرز على شهادة التطويع وتبوأ بها مقعده العلمي الرفيع ؛ كما بلغ في النظم والنثر مرتبة
الإحسان كما ساقم عليه من كلامه البرهان . ثم انتظم في سلك إدارة المال بصفة
كاتب ، وكان على رأس مستخدميها إذ ذاك المسمى شدياق رجل نصراني من عرب
لبنان ، أثرته بها دولة الحماية لأنه ذو شائبتين ، فهو من جهة نصراني هو إليها أميل
ولإجراء سياستها أطوع ، ومن جهة أخرى عربي تمكنه المفاهمة مع أبناء البلاد
بسهولة . وقد لاقى مترجمنا في منصبه هذا ما أقلقه حتى عزم في بعض الأحيان على
الاستقالة منه . عثرت له على رسالة يخاطب بها الوالد رحمها الله ، متذمراً مما
أصابه من عنث في وظيفة ذاك يقول فيها أن ما يقاسيه من مشقة الخدمة والمعاكسات

وما لتجرعة من غصص المكر والمقت والاستبداد من قوم أنذال ذوو تجبر وعناد ، وما هو عليه في هاته الوضعية صار بذلك كشمس على أفول من خطة الكتابة ، وأنه عازم على التسليم من هاته الخطة التي شبيت رأسه ، وأن يعتاض عنها بمباشرة تلقي الإشهاد إن تيسرت له أسباب ذلك ، ولعل ما ذكر لم يتم بل هي نفثة مصدر . كما عثرت له على مكتوب آخر يطلب فيه من الوالد أيضاً أن يحرر له مكتوباً لرئيسه المذكور يستنجز فيه وعده بترسيمه في خطة الكتابة بالإدارة المذكورة ، ولعله سمي بها أولاً بصفة وقتية على ما هو المعتاد في مثل ذلك ، أو أنه يستنجزه وعده بترقيته في سلمها ونص المكتوب :

يا أيها العالم التحرير من حسنت منه التقارير والأخلاق، والشيم ، جناب الهام التحرير والودود الشهير الشيخ محمد النيفر ، أدام الله تعالى حفظه السلام عليكم ورحمة الله . وبعد ، فالمراد من مروءتكم أن يكون كتبك للمكتوب الذي تفاوضت في شأنه مع سيادتكم موفياً بالغرض مع الإشارة الكافية ، جامعاً بين الحماسة واللين والرفق المناسب للمقام ، ويكون مستوفي العبارة كامل الإشارة ، يقرع سامعه حتى لا يجد له مدافعه ، مصقول بنصاعته معجر ببلاغته ، فصيح الكلام يحصل به المقصود بعناية الملك المعبود ؛ والله تعالى يكون في إعانتكم والسلام من فقير ربّه أخيكم عمر الرياحي ا هـ .

ونص ما حرره له الوالد إجابة لمقترحه قوله ومن خطه نقلت :

من قال غاص الوفا بالوعد قلت له لم تخطون إلى واف بك الساق
هلا عقلت بوعد صادق ثقة ألقى إليك به في الدهر شدياق

أقدم مطارحة أدبية وعلاقة ودادية هي نفثة مصدر وشكاة معنور ، ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع وبث إلى ذي حماسة يرجى وإنما يرجى الفتى كيما يضر وينفع غبّ تحية مسكية العرف متجسدة من اللطف الصرف ، تقضي بعض الواجب وإن لم تستغرق وتناجي من حسن طلعتكم ما هو أبهى من كوكب المشرق ، مستأنسة للخوض في غرض قضى به الحال وحكم على خصب أماني بالإحمال ؛ خلاصته أنكم لا زال جنابكم محروساً وأصل وعدكم في روض الوفاء مفروساً ، كتم في أول العام المنصرم وعدتي والوعد من مثلكم حق

مفروض وإبرام لسبب غير منقوض ، بالحصول على إكمال الرتبة بعد ما شهدت لي به ، ويا لها من شهادة بأن اجتهادي في الخدمة يكفل بالتقدم وتبوأ مهاده .

ولربما جرت شهادة فاضل ما ليس تدركه بألف شهيد

فكنت أعلل بذلك نفسي وأصرف في سبيل الإجتهد في الخدمة جميع حسي ، متنسماً من صبا وعدكم نسيمة منشداً حسن وفائكم ، قضى كل ذي دين فوفى غريمه حتى بشرني جنابكم في خلال المدة بإحرازي كمال الرتبة المذكورة ، فأشعرت نفسي أنها يبيض أياديكم المفاضة مغمورة ، وطفقت انتظر ارنحال شهرجانفي لسفور وجه البشري واقتعادي صهوة المرتبة جهراً ، فلما برزت المائدة وجدتها كجاري العادة ولم استفد بعد تلك الوسائل زيادة :

فوقفت كالحيران ليس بمقدم كلاً وليس بمحجم عن قصده

ولكن وسائل المروءة وروابط المودة تسمح لي أن أسألكم عن السبب المانع عن إنجاز ما كان جنابكم أخبرني به وأنجز حرماً وعد بعد أن ألاحظ أن أملي كله أن تراني الإدارة مستريحاً للقيام بواجب الخدم ، وإن حلّ ما شوش فكري بفوات غرضي وألمّ على أي ما زلت أعتلق بوعدكم أملاً ولا أقول وحاشي وعد مثلكم كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً بالمرغوب ، حصول المقصد مع اعتبار ما فات لا زلت في أوج المعزة مفرعاً لقضاء المهات . وكان مترجمنا شهماً أياً دراكة ألمعياً ، تجاني الطريقة ولوعاً بالسفر إلى فاس لملاقة أقطاب هذه الطريقة وفضلائهم ، كما اجتمع بمدينة فاس ببعض علمائها الأبرار منهم العلامة المحقق الشيخ سيدي محمد المهدي الوزاني . ومن التآليف كتاب تعطير النواحي بترجمة الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي وهو كتاب مفيد في بابه ترجم فيه لجده المذكور وجمع فيه مناقبه كما ألمّ فيه بالكثير من شعره البليغ وخطبه الجمعية البديعة ، ولولاه لنسجت عليها عناكب النسيان فهي من مفاخر هذا القطر ؛ ولعله كان استمد بعض الإعانة على وضعه من الوالد رحمها الله : استروحت ذلك من رسالة وجدتها مكتوبة بخط يد مترجمنا موجهة إلى الوالد نصها :

الحمد لله الفاضل الماجد المدرس الشيخ سيدي محمد النيفر حرسه الله السلام عليكم . وبعد ، فقد وصلتني بطاقتم شكر الله سعيك وأدام برعيك للمودة

رعيك ، غير أن إجازة الشيخ الأمير وهي أهم عندي والمقصود بالذات لم أحصل عليها ، فقولك ، «هذا ما حضرني أيها الفاضل الماجد من مناقب الشيخ ولا تلمني على التأخير ، ففي شواغل الزمان ما يكون عذراً مقبولاً لدى مجادتكم إلخ» ، فالجواب أيها الماجد الأنجب أن شواغل الزمان أمر عام لكل إنسان ، وفي حزمكم ما يكون محرضاً كافياً لذي مجادتكم على إرسال الإجازة المذكورة ، والسلام عوداً إليكم من أخيكم عمر الرياحي في صفر سنة 1320 هـ 1 هـ .

وإجازة الشيخ الأمير التي يشير إليها هي إجازة الشيخ الأمير الصغير الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي ، وهو مراده بالشيخ الوالد بما حضره من مناقبه ، رضي الله عنه ، وتاريخ المكتوب المذكور وهو عام 1320 هـ هو العام الذي ابتداء فيه طبع كتابه تعطير النواحي المشار إليه والذي أرّخ إتمام طبعه بقوله :

ذا كتاب فيه ما اقرق في غيره للناس عم نفعه
سرنا المقال من مؤرخ تم تعطير النواحي طبعه
سنة 1321 هـ

وختم تأليفه النفيس هذا بأبيات نظمها في جدّه المذكور رضي الله عنه ، نصها :

مقامك إبراهيم يكرم زائره
فأنت الرياحي ذو الأيادي التي غدت
ألم تلك لم تأخذك لومة لائم
ألستم كهفاً للأنام وفيصلاً
ألستم بجزاً في العلوم جميعها
ألستم ملجأ للصريح وضيغماً
فأنت بحمد الله حياً وميتاً
سألتك بالتجاني أحمد الذي
بأن تسأل الرحمان يرضى عن ابنكم
ورحمة ربي والسلام عليكم
ووارده يحظى بفوز وصادره
تساجل بجزاً حين فاضت زواخره
تقام لدين الحق منك شعائره
وليس له في حزمه من يظاهرة
وآراكم في المشكلات جواهره
يدافع عن أشباله من يبادره
ولي مطاع نافذات أوامره
عليك بفيض السرسحت مواطره
ويبلغه ما ترتجيه سرائره
غدواً مع الأصال يفشاك عاطره

ولصاحب الترجمة مودة وإخاء مع الوالد أوجبها القرابة والوصلة العلمية ، ولها

مراجعات في أمور خصوصية . كتب صاحب الترجمة رسالة للوالد في إحدى تلك
المراجعات استهلها بقوله :

لحضرة شخصك السامي سلام تعطر منه أنفاس الرياح
لكم أهداه عن شوق وتوق حليف وداكم عمر الرياحي

ومن شعره يهني شيخه جدي الشيخ سيدي محمد الطيب حين ختم عليه شرح
القسطلاني على صحيح البخاري بالجامع الأعظم جامع الزيتونة . وذلك في ربيع
الثاني من عام 1307هـ هذه القصيدة وهو قوله :

حديث غرامي بالفؤاد قديم به استعذب التعذيب وهو أليم
نفي النوم غني مرسل من ذؤابة لمن حبه لي مقعد ومقيم
حبيب به أخبار سقمي صحيحة رواياته والقلب منه كلم
ودمعي على الحدين منه مسلسل وجفني قريح بالدموع سقيم
وحسنت ما أسندت منه الى الهوى فأصبحت في تيه الغرام أهيم
وليس بذا الموضوع قصدي وإنما مدائح مرفوع المقام أروم
محمد المشهور بالطيب الذي جلاله بين العالمين عظيم
هو النيفر العلامة الجهيد الرضا نظيره من بين الآنام عديم
وناهيك من مولى حوى رتب العلا ولكن بحل المشكلات زعيم
فيدي دقيق الفهم والغير عاجز وما أن له فكر عليه يحوم
يحاكي السما في رفعة القدر درسه تحفًا بيلد التم فيه نجوم
وقد ورث الأفضال والمكرمات عن أبيه وإن ابن الكرام كريم
ألا أيها المولى الذي هو في الورى بمعنى الأحاديث الصحاح عليم
ختمت أحاديث البخاري فأعتدت يطيب به منها عليها شميم
أحاديث خير المسلمين محمد عليه صلاة تستهل وتسليم
بقيت لنا في غبطة ومعزة وما لك في علم الحديث قسيم
مدى الدهر ما غنت بسجع حامة وهبًا على دوح الرياض نسيم

كما هنا بولايته قضاء الجماعة عوض شقيقه الشيخ سيدي محمد الطاهر بهذه
القصيدة وهي قوله :

الدهر من بعد الإساءة يطرب
والآن أحزننا بقاضٍ قد قضى
قد كان قاضينا جليلاً طاهراً
وانسراً مذهب مالك لما اغتدى
طهرت بظاهرها الدني لكنها
والطيب بعد الطهر أكمل حالة
أسفاً على الماضي وبشرى بالذي
العالم الفذ الأغر المرتضى
يهنيه منصبه كما يهنى به
لا زال مرفوع الجنب معظماً

يرضي الوري طوراً وطوراً يغضب
وأسرنا بقيام قاضٍ يعجب
فمضى ووافانا أخوه الطيب
بأخيه بعده يستنير المذهب
بالطيب الأرض غدت تطيب
إذ انها في الشرع مما يطلب
لجميع أهل بلاده يتعجب
التيفر السامي الهام الأهيب
لما سما بحلاً علاه المنصب
وإليه أنواع الفضائل تنسب

ومترجمنا كان منظوياً على نفسه مشتغلاً بما يعنيه منفرداً في مسكنه لم يتزوج قطه
إلى أن أدركته المنية وهو في سن الكهولة رحمة الله عليه .

352 - الشيخ بلقاسم بن صالح الحمسي القيرواني

هذا الفاضل عالم أديب وكيس أريب ، وهو من طبقة الشيوخ الذين ذكرتهم
قبله ومن أخذ عن نفس الشيوخ الذين تمتعوا بالأخذ عنهم بين عراض جامع الزيتونة
وملأوا منهم وطابهم . كان هو وقرين له آخر هو الشيخ صالح الهامي كفرنسي رهان في
نخلة الروح والكياسة ، كلاهما من النبهاء ومن يميل إلى المرح والمزاح ؛ وبلغ درجة
علمية لا بأس بها تؤثر عنهما فكاهات تسري عن النفس منها ما حكاها لنا بعض شيوخنا
وكان زميلاً لها ، أن مترجمنا هذا أتى يوماً بأوراق كبيرة الحجم حرر فيها بزعمه جملة
من مؤلف له في موضوع ما . استهله بقوله يقول : فقير ربه بلقاسم الحمسي وفقه الله
لإداء الخمس . وأن قرينه الشيخ الهامي أخذ يتصدى لشرحه في أوراق شبيهة بأوراق
مترجمنا وأنه انتقد عليه قوله وفقه الله لإداء الخمس بأنه يشعر بكونه من تاركي
الصلاة ؛ ولذلك دعا بتوفيقه لإدائها وأن مترجمنا يجيبه عن انتقاده هذا بأنه يدل على
جهله لأن ما دعا به هو وارد على منهج الآية الكريمة ، يا أيها الذين آمنوا آمنوا ، أي
دوموا على إيمانكم فالمراد من الدعاء بالتوفيق إلى إداء الخمس الدعاء بالمداومة على

ادائها ، وأن مترجمنا زميله المشار إليه أخذنا يطوفان على شيوخهما بما حرّراه في تلك الصحائف قصد إضحاكهم والتسرية على نفوسهم بمثل البحث المذكور ، وكان هذان الزميلان يأنس بهما أقرانهما وتحفل بهما دروسهما ، وقد نالا شهادة التطويح ثم انخرطا في سلك حكام العدلية التونسية ، وتنقلا في مجالسها بمختلف البلاد التونسية إلى أن أحيلا على المعاش ، غير أن مترجمنا باشر بعد إحالته على المعاش تلقي الإسهاد في الحاضرة إلى أن أدركته الوفاة في سن الشيخوخة رحمه الله . وكانت رتبته الأدبية حسنة نظماً ونثراً ، سأذكر منهما ما يوضح مقدارها ويظهر لكل ذي عينين آثارها . فمن شعره ما هنأ به شيخه جدي سيدي محمد الطيب عندما ختم شرح الشيخ عبد الباقي على مختصر خليل ، وكان ذلك في 9 ربيع الثاني من عام 1310 هـ ، وهو هذه القصيدة :

مراقى العلا ذا اليوم حلت صدورها	فحق لنفس أن يتم سرورها
وأشرقت الأنوار حتى تخيلت	لمرآي أن الدائرين بدورها
ولوحظت الأسرار من كل جانب	فها نقح النادي وفاح عبيرها
ألا أن هذا مجلس العَلم الذي	به غامضات قد أمبّطت ستورها
ميادين لاقت همة هاشمية	فأمرع مرعاها وفتح نورها
مفاخر جاءت من لدن خير مَحْتَد	فسارت بها ربيع الصبا ودبورها
فيا طيب يا نيفر طبت فازدهت	لذكراك آصال المدى وبكورها
ويا خير طود بالوقار مسرمل	ومنه المزايا وردها وصلورها
تجاوزت حد الوصف حتى تضاءلت	لاطرائك الأتبا وأقصر غورها
يهنيك عبد الباقي إذ نلت ختمه	فباهت بك الخضرا وراق حبورها
به شددت أركان الشريعة دائباً	فعمّر مضناها وشيدت قصورها
وأبقاك رب العرش في العز راقياً	يخفك من أطفاف ريك سورها

ومن شعره أيضاً قصيدة أخرى يمدح بها شيخه المذكور ويهنئه بزواج الوالد رحم الله جميعهم ، ونصها ما افتتحها واختتمها به الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى :

هُمُّ الناس أما علمهم فشهير	وأما ندى أفضالهم فغزير
به يبلغ الإنسان رضوان ربه	وتلقاه منه نصره وسرور

ومن لم يكن من جبههم متمسكاً
إلا إنما ساد الرجال يجزمهم
أيا ساكني الخضراء بي فترفقوا
تقابلني الأشواق وهي غوالب
وكم ليلة بات الحبيب محادثي
رعى الله بالخضراء عهداً فإنتي
وقائلة والليل مدّ رواقه
أما تنتهي عن اغترارك بالورى
صدقت ولكن أصبحت عزماتنا
ولو كتموا أنسابهم لغزتهم
وما ذلك إلا الطيب النيفر الرضا
إمام غدا في جبهة الدهر غرة
إمام أضاء القطر من نور علمه
من النفر الفر الذين وجوههم
فضائله قد كثر القطر عدّها
أضاءت به الخضراء وزادت تشرفا
حوى كل فخر في الأنام وسؤدد
أما والذي أعطاه ما جلّ ذكره
فحدث عن البحر الذي فاض علمه
لك الله من فد لقد ذاع صيته
أقامت به الأيام وزن اعتدالها
فيا أيها الأستاذ يا فدّ دهره
فهئت تزويجاً لنجلك الذي
محمد ذلك الحبر والعالم الزكي
وفي قصر باعي للقدوم إليكم
وما مقصدي أني أحيط بمدحك
فيجعله ربي عليكم مباركاً

فذاك لعمرى نادم وحسير
وما فاز بالعلياء إلا جسور
فقلبي لديكم في الغرام أسير
ويسطو بنا حكم الهوى فيجور
وباتت عيون النجم نحوي تشير
لتسحر قلبي بالخضيرا ثغور
وقد بان في نجم السماء فتور
فليس لأبناء الزمان نصير
بأسباب أبناء النبي تستجير
مكارم في أفق المعالي تنير
حميد المساعي والفعال شكور
وفي أفق العلياء بدز منير
ولانذه بالمكرمات جدير
بآثار أنوار السجود بدور
وزاحمت الأتقار حيث تشير
وأسمى لها في القطر فضل كثير
وما هو إلا في المعالي شهير
لقد عزّ منه في الأنام نظير
وقل ما تشاء فالتمام خطير
وقدره بين العالمين كبير
وفاح به في الخافقين عبير
ويا بحرنوح في العلوم زخور
أضاء به وسط البريثة نور
ومن فاز بالعرفان وهو صغير
فزاحمت هذا الفن غير بخير
فكل بديع فيه فهو قصير
ويبعد عنكم ما سواه بصير

بجاه ختام الرسل من عمّ فضله وفاضت به في العالمين بحور
عليه صلاة الله ما عمّت الصبا وما لاح برق في الدجاء منير
وما قال وسلاتي ينهيء شيخه هم الناس أما علمهم فشهير

حرّره إليكم معيد التحية عليكم عبدكم وابن عبدكم المقبل لتراب تلك الأقدام
منكم ، من تطير منه الجرشي إليكم الراجي بكم الفتح من الكريم الداني بلقاسم بن
صالح الخمسي الوسلاتي القيرواني ، حفظه الله وتولاه ورزقه رضاه يوم لقاه ،
وأعانه على ما أولاه ودمتم لما تحبه وترضاه في 19 رمضان سنة 1303 هـ ا هـ .

ومن نثره رسالة خاطب بها شيخه جدي المذكور مهتأً ومعزياً له بولايته قضاء
الجماعة عوضاً عن أخيه الشيخ سيدي الطاهر رحمهم الله ، نصها :

جناب الهام الحجة الإمام ، الثبت التحرير العلامة الشهير ، سليل الفضلاء
العظام فخر العلماء الأعلام ، شيخنا وأستاذنا المتوكل على فضل ربه العزيز اللطيف
سيدي محمد الطيب النيفر الشريف ، القاضي المالكي بالمملكة التونسية أخذ الله بيده
وكان له ولياً وبه حقيلاً آمين . أما بعد السلام التام اللائق بعلي المقام ، تعمكم تفحاته
ورحمة الله وبركاته ، فقد بلغنا إثر سفرنا ما شوّش البال من الخطب الجسيم والحادث
المؤلم العظيم ، ألا وهو انتقال العالم الجليل الذي الزمان بمثله لبخيل مولانا وولي
النعم سيدي محمد الطاهر للدار الآخرة ، فيا له من خطب تمزّقت له الأكباد وعمّ
مصابه البلاد والعباد ، وتزلزلت له أركان الشريعة المحمدية وثلمت منه دعائم السير
العمرية ، نسأل رب البرية أن يسكنه القصور العلية مع من أحب ورزقكم الصبر
الجميل آمين . وبينما الفكر ساجح في بحار يتجرّع المرار ، إذ أتت بجلولكم على منصة
القضاء الجليلة الأخبار ما تبعث الفرحة فرحة وهان على النفس المشاق وانحل عنها
الختناق وأزال السرور الحزن . وصار المرأحلى من المن .

يا عين صار الدمع منك سجية تبيكين من فرح ومن أشجان

ولا غرو فإن الخطة المنيفة حلّت محلها وصادفت بحمد الله أهلها ، فلا تصلح بعد
النعم إلا لكم ولا تصلح إلا لها ؛ فالشكر لله الذي شدّ بأقصى الأمانى عضدي وأقرّ
عيني بمرادي بعد تشوفي بولاية والدي وسيدي وسندي .

على مثلكم فليعقد الفخر تاجه وتسمو به فوق النجوم مراقياً

وحيث كنت معلوماً لدى الخاص والعام إني منسوب إلى جنابكم العالي وتريت من لبان معارفكم مع ما لكم من الأيادي التي طالما أرغمت بها الأعادي ، صار الناس يتواردون عليّ بالبشائر والتهاني يبلوغي فيكم الأمانى ، فاكسيت من شرفكم بفخر زائد وتوقير متزائد ، والمأمول من الله تعالى أن يجعلها عليكم خطوة مباركة وأن يلبسكم برد العافية ، ويؤنسكم بأنجالكم البذور الكرام في عمر مديد وعيش رغيد ، ركناً للشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ، وأن يجعل البركة فيكم وفي ذويكم إلى يوم الآخرة . والسلام من مقبل أيديكم إينكم الروحي بلقاسم أبي صلاح الخمسى القيرواني في 21 شوال من عام أحد عشر وثلاثمائة وألف هـ .

353 - شيخ الشيوخ سالم بن عمر بن سالم بوحاجب

علم علم ونبراس ذكاء وفهم طار صيته في الآفاق وأصبح سمير الرفاق خصوصاً في علوم العربية وفي الأصول ، فقد كان له فيها شهرة سارت مسير الصبا والقبول . أما اللغة فقد كان فارس ميدانها والمعلي في هذه البلاد لشأنها ، حتى قيل أنه كان يحفظ كتاب القاموس المحيط للفيروزآبادي من كثرة ما يستشهد بعباراته على طولها في مختلف المناسبات وكثير من المجالس ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . انتفع ونفع وخبّ في ميدان التحقيق والتحرير ، وأوضح برأي وقاد ووفور استعداد واجتهاد طوال الآماد حتى ألق الأضداد بالأجداد وبصرهم إلى طريق السداد وكيف بحافل الجهل يكون الجهاد ، حتى رأى من تلاميذ تلاميذه من هم في حلبة العلم كخيل الطراد . ولا ترى اليوم إلا من إليه يُسندُ علمه وتفتخر بأنه رايش له أو لشيخه في العلم سهمه . أما خلقه فأرق من الصبا وأنفع من الكبا ، حلو الفكاهة سهل اللقاء غير متكلف في زي ولا غيره ، لا يملّ جلسه من محادثته . له شعر جيد لو جمع لكان ديواناً ، وله ديوان خطب مطبوع ، أما تأليفه فنما شرح على الخلاصة وأخرى على منظومة ابن عاصم في الأصول . وكان من مناصري فكرة تعاطي العلوم العصرية وله في ذلك كتابة حافلة أبدع فيها ما شاء ؛ كما له شرح على قصيدة ابن الحاجب التي جمع فيها الأسماء الموثقة تقديراً وطالعتها :

نفسى الفداء لسائل وافاني بمسائل فاحت كروض جنان

وهو شرح بديع يدل على مزيد تضلّع في اللغة وعلوم العربية ، انتقد فيه علي ابن الحجاب أشياء مستنداً على ما لصاحب القاموس . وزاد واحداً على الستين التي ذكرها . كما له رسائل في مواضع مختلفة وأختام حديثية كثيرة . كان يلقيها بالمدرسة المنتصرية ويجامع سبحانه الله لو جمعت لكانت شرحاً لأبواب من صحيح الإمام البخاري وموطأ الإمام مالك رضي الله عنهما .

ولد مترجمنا رحمه الله ، ببيلة قرية من قرى الساحل سنة 1242هـ وفيما كان يذكر هو أن نسبه يتصل بسيدى مهذب دفين الصخيرة . ولما بلغ سن التعلم أرسل به أبوه إلى حاضرة تونس وقد اتصل فيها بالشيخ سيدي محمد بيرم الرابع وألتحمت بينه وبين المشايخ اليرميين لحمة صداقة بقيت بين أعقابهما إلى الآن . قرأ القرآن العظيم بكتاب باب المنارة ثم زاول تعلم العلوم بجامع الزيتونة على أساتذته الجلّة منهم سيدي محمد بن الخوجة وسيدي محمد بن ملوكة وسيدي محمد النيفر الأكبر ، وحضر بدرس الموطأ على سيدي إبراهيم الرياحي الذي أقرأه في داره آخر حياته . وكان مترجمنا من النوايع حتى أنه رام استعارة كتاب من خزنة الجامع لا يناسب رتبته إذ ذاك فمنعه الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي ورأى أن اشتغاله به لا يجديه نفعاً نظراً لقصوره عنه إذ ذاك ، فنظم صاحب الترجمة قصيدة يستعطفه بها نالت استحسان الشيخ فأعطاه الكتاب فاستسرده إياها لأنه ظن أولاً أن غيره نظمها له . وفي سنة 1270هـ نال خطة التدريس من الطبقة الثانية ، وفي سنة 1281هـ ولي خطة التدريس من الطبقة الأولى ، وفي سنة 1286هـ ولي رئيس الإنشاء بالكومسيون المالي : وفي سنة 1288هـ استصحبه الوزير خير الدين معه في رحلته للدولة العثمانية ومدح الصدر الأعظم بقصيدة بديعة طالعها :

وزارة محمود بها الله قد منّا على دولة الإسلام فنهى به نهى

وفي سنة 1290هـ استصحبه الوزير حسين معه في رحلته لإيطاليا لتصفيته حساب القائد نسيم قابض الدولة التونسية الذي قرّ إلى هناك ومات ، فأقام مترجمنا هناك ست سنوات ؛ كما ولي عضواً بالمجلس الكبير سنة 1278هـ وولي الإفتاء في سنة 1323هـ ، ولم يتخذ ختماً كما هو المعتاد لشيخ المجلس الشرعي ، وفي سنة 1338هـ ولي

كبير أهل الشورى المالكية وفي 14 ذي الحجة سنة 1342هـ . توفي بالمرسى واحتفل
بجنازته احتفالاً يليق به ودفن بمقبرة الزلاج بتونس رحمه الله .

من شعره يرثي الوزير الأكبر الشيخ محمد العزيز بوعتور للنقش على قبره :

ألا كل حي إلى الرمس يسلم	ولو يترقى السماء بسلم
وهيئات يرقى بدون انفصال	عن الجسم وهو انفصال محتم
فحش ما تشاء ونل ما تشاء	وسد وأرق كل مقام مفخّم
فسوف تواريك أم الورى	إذا أسلمتك لها أم قشعّم
هناك ترقّ عليك الأعادي	وأحرى الأحبة والرب أرحم
خصوصاً إذا كان نفع العموم	ورفع الغموم لديك يقدم
كما كان هذا الوزير الجليل	يصون حمى كل خير معمم
وأحرى حمى الشرع فهو الذي	غدا في حمايته خير أحزم
ويحمي ذمار ذوي العلم طبياً	فقد كان في صفهم وتقدم
ولا يعرف الفضل إلا ذووه	ورشح الإناء بما منه يفعم
محمد اسم العزيز غدا	له لقباً عن علاه يترجم
وعتور تلو أب يكتنى	به جدّه اللوذعي المنعم
يعز لإعزازه شرع هادٍ	عليه المهيمن صلى وسلم
وحدّث عن البحر في نزل ضيف	أناخ بساحة أكرم أرحم
أناخ هناك لثلاث فرير	فأرخته وثلاث محرم

سنة 1325هـ

ومن شعره هذه الأبيات الثلاث التي أذكرها ، قال رحمه الله ، ضمنى ذات
يوم مجلس طيف فيه على الحاضرين بالبردقان المسكي ، هو الخلو في عرف أهل
تونس ، فطلب مني القول فيه فقلت :

بنفسي لوذعي قد سقاني	رحيقاً في حلال البردقان
فقلت لكأسها المسكي عرفاً	لماذا قد لبست البردقان
فقلت قلب بعضي كسائب قلبي	من أنفع ما قناني البردقان

ومن شعره بيتان كتبها على صورته الشمسية وأرسلها إلى بعض أصدقائه بتونس

وهو إذ ذاك بإيطاليا ، وقد أبدع فيها ما شاء وهما :

لما شكت شحط النوى روعي التي أبقيتها عند الأحبة في الوطن
أرسلت تمثالي لها بوا عسى تسلو فلا تبغي التحاقاً بالبدن

ومن شعره وقد زاره بعض أصدقائه في منزله بجبل المنار فوجده مشتغلاً بإصلاح
أرض بستانه وقد أجاد أيضاً قوله :

علينا عباد الله إكرام أرضنا فما هي إلا في الحقيقة أمانا
فنشأتنا منها ومنها معاشنا وإن عافنا الأهلون فهي تضمنا

وزار في شببته العلامة التحرير الشيخ محمد الخضار المفتي المالكي مهنتاً له بعيد
الفطر فأنشده من شعره قوله :

زكاة رؤوس الناس في يوم عيدهم يقول رسول الله ضاع من الدر
ورأسك أعلى قيمة فتصدقن علينا من الآداب صاعاً من الدر

وله في مرض أشرف فيه على الهلاك مخاطباً أبناءه موصياً لهم بالإتحاد والتآسي وإن
عاش بعد ذلك ونقه منه :

ابني لا تأسوا لفقد أبيكم ⁽¹⁾
ما مات من أبقى رجلاً مثلكم فحياتكم لحياته كالتكلمه
أوصيكم بالإتحاد وإن تروا إخوانكم بالبر مني موصله

وقبل وفاته بعامين ظن أنه سيموت في تلك السنة فأرخ وفاته بقوله :

سالم وارة رمس تغاب في التاريخ شمس
سنة 1340 هـ

إلا أنه عاش بعدها إلى أن استكمل أنفاسه رحمه الله .

ومن شعره قصيدة أرخ بها بناء صومعة جامع الزيتونة ونص طالعها :
نال فوزاً بمناه كل ساع كي يرى مشمول فضل ذي اتساع
ومنها مشيراً لأمر عصره :

(1) كذا في الأصل .

حضرة الباشا علي من له في قلوب الخلق للود ازدراع

وبيت التاريخ :

وَلِسَانُ الصِّدْقِ قَدْ أَرَّخَ لُ مَنَارَ الدِّينِ حَقَّ الإِرْتِفَاعِ

وهي منقوشة على جانب الصومعة تقابل المنحدر من نهج سيدي أحمد بن عروس .
ومن ثره يهنئ الوالد نعمه الله بولايته خطة التدريس ما نصه :

واصل الله في رتب العرفان ارتقاء العالم الفاضل سلالة الجهابذة الأفاضل ،
بجمع شرفي العلم والنسب ومنبع فنون التهذيب وعيون الأدب ، جناب الابن الروحي
المغني اشتهار اسمه بالمزية الحالية عن إعلاني به وتصريحني . أما بعد . أزكى تحية تحمل
إليكم نشر بشرها رياح الأريحية فقد أتحفتنا جريدة الحاضرة بما لم ترق الأنظار بمثله
حدائقها الناضرة من تبرزكم حفظكم الله ، في مجال المناظرة وحصولكم فيه على المزية
الظاهرة . وقد عددت غيبتي عن ذلك الموكب الرائق مما حفت به اللجنة القريسية من
مكاره العوائق ؛ لكن حظ المسرة لا تنقصه العيبة بل بما وجد من الغائب مزيد
تعطش لأخبار الأحبة ، وحيث اقتضى الحال تأخر الحضور . وكان الميسور لا يسقط
بالمعسور ، أنبت هاته البطاقة أن تؤم ساحتكم بالتهنية بعد أن هئيت نفسي وروض
الجامع الذي لا يزال بمثلكم في بلهنية ، ونرجو أن تنوبوني في إنهاء التحية والتهنية
لحضرة الوالد المعظم ، لا زال محفوقاً منكم ومن إخوانكم بأنواع المسرة والمبرة مع
الشمل المنظم والسلام ، من الداعي ببلوغكم أقاصي الآمال ومراتب الكمال كاتبه في
غرة ذي القعدة 1312 سالم بوحاجب ا ه .

وصاحب الترجمة هذا كانت علاقته بالجد سيدي محمد الطيب رحمها الله ،
وثيقة لأنه أي الجد ابن شيخه ، فهو شديد العمسك بذلك العهد فحافظ على ما له به
من ود ، ولذا كان كثير الغشيان لمنزل الجد شتاء في الحاضرة وصيفاً في المرسى
يشارك في أفراحه وأتراحه بالحضور والتهنية وضدها رعياً لتلك الذمة ، إلى أن بلغ سن
الهرم . وقد رأيت لزاماً علي لما توفي أن أرثيه وأتوجع لوفاته التي نكب بها القطر
التونسي ، فقلت أرثيه رحمة الله عليه ومؤرخاً لوفاته :

عدمناك من يوم به العلم أطرقا وبات له جفن المعالي مؤرقا

به قد هوى نجم دوين جنادل
به قد أصيب المعهدان كلاهما
به رجفت أسباع كل موحد
أليس مصاباً فادحاً فقد سالم
فلا تلحني أمانيا اليوم مقولي
أكلفه تأيينه وهو مقصد
فيا مقولي لا ألفينك ضالعا
ويا مقولي لا تال جهداً لعني
وغالب جيوش الحزن وانشر صحائفها
مضى الأوحى التحرير بوحاجب إلى
فأني حشى لم تتقد زفراته
وأى عيون لم تسح دماؤها
أقيم له في عالم الأرض ماتم
مضى بعدما قد حاز ما حاز من على
ولم يمض من أبى جميلاً مخلداً
لئن غاب شخص منه عن أعين الورى
وإن غاص بحر العلم في بطن ملحد
أو احتبس الغيث الذي ملأ الفضا
وإن يذو روض يملأ العين قرّة
وإن ينج نور ينعش اللب والحشى
ويا طالما جلى عن القلب غمة
ستبكيه أشنات العويص إذا التوت
ويبكيه ذاك المورد العذب مورد الـ
وتندبه الأحكام والمعلم الذي
وتبكيه هاتيك المنابر إنه
وتبكيه أفواج يؤمون بابه
فكيف بهم إذ أصبحوا يوم موته

وقد كان وضاح السنأ متألقا
بمن حلّ في العلياء أبعد مرتقى
وكاد عمود الدين يهوى مدققا
بلى إنه رزه أغص وأشرقا
فقد هاض هذا الخطب والعيش رنقا
لعمرك ما أنأى قده وأسحقا
بلى نخباً في هذا المجال وأعنقا
أقضي به حقاً عليّ محققا
سيحفظها التاريخ غرباً ومشرقا
مقاعد صدق جمعة حيث لا شقا
ولم يُمس مفعجوعاً يذوب نحرقا
على فقدته لا دمعها المتدفقا
وفي الملاء الأعلى مادب تنتقى
وقد ملأ الآفاق ذكراً وطبقا
وذكراً غدا من أطيب المسك أعبقا
فهذي أياديه الجسام لها البقا
فكم من فتي من درّه قد تطوّقا
فربّتمأ أروى الظماء وأغدقا
فقد كان غصّاً داني القطف موقنا
فيا طالما للمدجّين تألقا
فلاح له صبح الحقيقة مشرقا
وأسمى مجال القول فيهن ضيقا
علوم الذي كم منه ذو الظماء استقى
بأرجائه نور الشريعة أشرقا
أجلّ وأسمى من عليها قد ارتقى
فيحبوهم در الحديث منسقا
وقد فقدوا منه سنأ متألقا

وقد فقلوا منه إذا كر مشكل
وقد فقلوا منه ظللاً وريفة
فلهني على أيامه الغر إنها
ولهني على هاتيكم الشيم التي
على الفكر مصقول الأديم مسدداً
على الأدب العالي الذي يسحر النهى
مآثر لا تبلي يد الدهر بردها
وفخر يرد العين وهي كليلة
سبقي له ذكر مدى الدهر ساطع
فإذا عسى أن يبلغ اليوم مقولي
أراني ولو أطنبت لم أقض واجباً
وما أنا ممن يستجاد قريضه
ولكها ذكرى لأيام سيد
أرددها شجراً قضاء لواجب
سيدكو من الخضراء تونس شجوها
وتذكره ثكلى ويذكرها وقد
قال لسان الفال فيه مؤرخاً

يجيش من الأوهام سيفاً مدلقا
وحصناً على أعراقه ليس يرتقى
لقد زينت للقطر جيداً ومفرقا
بين مضي راد الردى بعدما انتقى
على الخلق الزاكي على العلم والتقى
ويربو على ضوء الغزاة رونقا
إذا هو أبلي غيرهن وأخلقا
غدا فوق هام النيرات محلقا
تردده الأجيال غرباً ومشرقاً
لسان الوري أقوى وأقوم منطقاً
بمن يحسن التأين منا تعلقاً
فيغلو لآفاق البلاد مطبقاً
توشح فخراً خالداً وتمنطقاً
وما هي من شعر يُصاغ تعلقاً
إذا كفها من مثله بات معلقاً
تسئم بالفردوس أكرم مرتقى
زواه جنان لا يحل بها الشقا

1132 8 48 31 104 19

سنة 1342هـ

354 - الأستاذ الأكبر شيخ الجماعة سيدي محمد الطيب

ابن الإمام الشيخ سيدي محمد النيفر الأكبر

أصدر ترجمته بذكر ما ترجم له به حفيده للبت شيخنا العلامة النحرير سيدي
محمد البشير النيفر ، ثم أذيلها بما أعلمه عنه مما لم يذكر فيها ؛ فأقول : قال حفيده
للمذكور في شأنه بارك الله في أنفاسه ، ما نصه :

هو الأستاذ العلامة النظار الواسع الإطلاع المحدث الشيخ أبو عبد الله سيدي محمد الطيب كبير أهل الشورى المالكية ابن الإمام العلامة الطائر الصيت الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد النيفر الأكبر المفتي المالكي دفين المدينة المنورة ، يتهي نسبة إلى سيدنا الحسين السبط رضي الله عنه .

ولد ، قدس الله روحه ، في جمادى الثانية سنة 1247هـ في مربع المجد والفضيلة ، ونشأ تحضنه العفة والمروءة حيث يقوم على تربيته والده الشهير بعلمه وأخلاقه الطاهرة ، فحفظ القرآن الكريم بالمكاتب « الكتاب » الذي كان على مقربة من درية الدولابي في زمن قصير ، وكان ذلك من أول ما ظهر من آيات قوة حافظته . ثم دخل جامع الزيتونة فأخذ عن كثير من مشاهير أعلامه لذلك العهد كالشيخ والده والشيخ أحمد عاشور والشيخ محمد البنا والشيخ علي العفيف والشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، وعميه الشيخ صالح والشيخ محمد ، والشيخ محمد الشاذلي بن صالح والشيخ محمد بن ملوكه والشيخ محمد الستاري إمام فن القراءات في عصره . وأخذ عن سيدي إبراهيم الرياحي دروساً من الموطأ في سقيفة داره وهو يزاول الكتب الابتدائية حرصاً على أن ينتظم في سلك تلاميذه ويدرك فضيلة الأخذ عنه . وكان طلبه للعلم رحمه الله ، طلباً يصحبه الجد والإعتناء وخلص النية لله مع ما أوتي من قوة الحافظة وسلامة الفطرة ، فنبغ في وقت قريب وأصبح على حداثة سنه ممن تُعقد عليه الآمال في خدمة العلم ونشره وتشجيعه بناءً على بيته العلمي الذي رفع قواعده والده تغمده الله برحمته . وكان أول ما نيط به من الخطط العلمية الشريفة في طور الطلب والتحصيل خطة العدالة ، فصدر الأمر بالإذن بالإشهاد في الحجة سنة 1263هـ ، ولكن لم يباشر الشهادة ولزم طريقته المثلى في الإقبال على العلم . وفي سنة 1267هـ خرج حاجاً للمرة الأولى مع والده ، وعاد في سنة 1268هـ وأقبل على العلم كسالف عهده إلى أن ظهر تفوقه ونبوغه وتنبهاً لبثه في صدور الرجال ، فأجاز له شيوخه في التدريس وكان في ضمن المجيزين له شيخ الإسلام العلامة سيدي محمد يريم الرابع رحمه الله . وكان تصدّره للتدريس سنة 1270هـ ، ولم يترك حضور الدروس التي كان يستكمل فيها معلوماته كدرس التفسير الذي كان يقوم به والده . وشرع رحمه الله ، في تدريس الفنون المختلفة متدرجاً في مراتب كتبها من أصغرها إلى أكبرها . فدرّس الكتب الكثيرة في الكلام والأصول والحديث والفقه والنحو والبلاغة وغيرها ، وأخذ عنه

الضبقات الكثيرة ممن زانوا التدريس وغيره من الخطط العلمية ؛ وكانت طريقته في التدريس طريقة نادرة المثال يواصل رحمه الله العمل مواصلة لا يتخللها ملل ، فكان لا يتخلف عن دروسه إلا معذوراً ، وينفق الوقت كله في تحقيقها ومطالعة ما يستعان به عليها من مواد الكتب العالية ، ويسير في إلقائها على طريقة عزيزة في بسط القول في تقرير مسائلها بلسان طلق لا يتلعم وسكينة ووقار ؛ فكان في دروسه كالجبل الراسي لا يتعزع ، لا ترى منه ما ترى من غيره من الحركات المختلفة بالبد والرأس ، وكان يلقي الدرس على طوله من حافظته . وفي سنة 1276 هـ خرج حاجاً للمرة الثانية مع والده واستفاد في سفره هذا كالذي قبله ما استفاد من الإجتماع ببعض علماء المشرق وإجازاتهم له كالشيخ أحمد زيني دحلان شيخ مشايخ الحرميين الشريفين ، والشيخ محمد كمون شيخ مشايخ رواق المغاربة بالأزهر ، والشيخ محمد الكتبي شيخ الإسلام بمكة المكرمة ، والشيخ إبراهيم الخطيب من علماء الأزهر . وتوفي والده رحمه الله ، بعد قضاء مناسك الحج بالمدينة المنورة في المحرم سنة 1277 هـ فرجع تغمده الله برحمته ، إلى مسقط رأسه بعد أن رغب إليه والي المدينة يومئذ أن يقيم بها ويقلد خطة الإفتاء على مذهب الإمام مالك ، فصرفه عن إجابة طلبه شاغل الأهل والولد ببلده . وفي ربيع سنة 1277 هـ ولي مدرساً بجامع صاحب الطابع ؛ وفي شعبان سنة 1278 هـ ولي عضواً بالمجلس الكبير من مجالس قانون عهد الأمان ، وفي 15 شوال سنة 1279 هـ ولي عضواً بالمجلس الإعتيادي ، وفي 7 ذي الحجة سنة 1282 هـ ولي إماماً بمسجد السبخة ، وفي 1 رجب سنة 1284 هـ ولي شيخاً للمدرسة المغربية ، وفي منتصف الشهر نفسه من هذه السنة ولي مدرساً من الطبقة الثانية ، ثم في 22 رجب سنة 1287 هـ ولي مدرساً من الطبقة الأولى ، وفي 3 رجب سنة 1292 هـ ولي شيخاً للمدرسة المرجانية وكان تغمده الله برحمته . كلما تقدم به العمر ازداد إقبالاً على العلم وشغفاً بيته ومطالعة دواوينه ، وعنى بالفقه والحديث تدريساً ومطالعة أكثر من عنايته بسائر فنون العلم فكان فيهما ممن يذكرنا بأئمتهم من أهل الصدر الأول ، فدرس من كتب الفقه شرح الشيخ عبد الباقي على المختصر إلى أن أتى عليه بعد أن درس المختصر بشرح الدردير والكفاية ، وشرح المرشد للشيخ مياره والعشماوية بشرح ابن تركي ، وتدرج في تدريس هذه الكتب على حسب مراتبها ، ودرس الزقاقية بشرح الشيخ ميارة والتحفة بشرح الشيخ التاودي نحواً من خمس مرات ، ودرس من كتب الحديث الموطأ بشرح

الزرقاني وصحيح البخاري ومسلم من بدايتها إلى نهايتها . وشرع في تدريس سنن أبي داود وسنن الترمذي ، وصرفه عن المضيّ فيهما ولايته قضاء الجماعة . ودرّس الجامع الصغير ولم يكن يقصر نفسه على التدريس بجامع الزيتونة بل كان يدرّس بالمسجد القريب من داره بل وبينه أيضاً في شهر رمضان إذ يُعطلّ التدريس رسمياً بالجامع ، حرصاً على وقته أن يضيع في غير فائدة علمية ورغبة في إتمام ما بين يديه من الكتب لجعل غيره مكانه . وكان مع اشتغاله بالتدريس وتوسعه في مطالعة موادّه يطالع الكتب المحرّرة في الفنون المختلفة كال تفسير والسير والتاريخ والأدب وغيرها ، ولا يمر بشيء إلا انتقش في لوح حافظته ؛ وبذلك كانت مجالسه العامة والخاصة من أعمار اجالس نفعاً وأجزها فائدة ، وهو مع ذلك قوام لله بفرائض العبادات ونوافلها كثير اذكر والتلاوة حتى كانت قراءة القرآن وصحيح البخاري من أوراده اليومية ، ولا يحصي إلا الله ما ختم منها وقد كاد يحفظ صحيح البخاري . وفي شوال سنة 1311هـ ولي قضاء الجماعة فزانه بعلمه وقوة دينه وسار في فصل القضاء سيرة ذكّرت الناس بأهل الصدر الأول ، قد جمع قدس الله روحه ، بين الإطلاع الواسع على نصوص مذهب مالك والمهارة النادرة في تنزيلها على الحوادث . وكانت له مواقف مشهودة في كثير من مشكلات القضايا . وفي 9 ذي الحجة سنة 1325هـ ارتقى إلى خطة الفتوى فازدوج النفع به في جامع الزيتونة ودار الشريعة ، وشرع في تدريس المواهب اللدنية والمسيرة الكلاعية من حيث انتهى فيها إذ ولي قضاء الجماعة وكان من جلة شيوخ الفتوى علماً وتحقيقاً وورعاً . وفي 22 ذي الحجة من سنة 1342هـ رقي إلى رئاسة الفتوى على المذهب المالكي وهي آخر ما ازدان به من المناصب الشرعية .

وكان رحمه الله جيّد المعرفة بتراجم الرجال وتاريخ الدول الإسلامية عامة والبلاد التونسية خاصة ، ومجالسه جمّة الفوائد يتحفظ فيها بالنادر الغريب في كل موضوع يدخل فيه بيان سحر الألباب ويستهوئ الأسماع حتى أن جلسه يتمنى أن لا ينطوي بساط حديثه ؛ وكانت بحلّة بالوقار والسكينة لا تخلو من التذكير بالله تعالى ولا سيما في عهده الأخير ، وكلما ذكر الله واليوم الآخر انهمرت دموعه . ومجالسه تعتمد على برحمته ورضوانه ، من الآثار الجميلة في تنوير القلوب وجذبها إلى الله فوق ما لها من الآثار في الإفادات العلمية المتنوعة . وقد ضعفت قواه البدنية في الأعوام الأخيرة من عمره ولكن قواه العقلية لم تزل على ما عرف منها ؛ وهو على ضعف بدنه

رحمه الله تعالى ، لم ينقص شيئاً مما ألفه من عبادة ربه إلا ما لا يطيقه كشهود الجمعة ، فرحم الله تلك الشيبة الطاهرة وأعظم أجر المسلمين والعلم فيها هـ .

هذا ما ترجم له به حفيده المذكور أبقاه الله عن عيان ، ولنضيف إليه ما لم يذكره من أحواله وظهر لي ذكره حيث شهدته بنفسه لم أر إغفاله منها .

والدته هي التقية الفاضلة الأم الرؤوم والزوجة البارة كريمة الأخلاق ، يروى عنها من ذلك ما يُقضى منه العجب خديجة ابنة الماجد الوجيه السيد حميدة عزيز وأسرته عزيز من كريمات أسر مدينة صفاقس المنتقلة إلى الحاضرة .

زوجها هي الخيرة الفاضلة العفيفة البارة كريمة الأخلاق شريفة الأعراف الحنون الودود الولود بية ابنة سيدي إبراهيم الرياحي أولاده كلهم منها . غير أن من عاش منهم حتى كبر وتزوج خمسة ، ثلاثة ذكور هم والدي الشيخ محمد الأكبر والشيخ محمد الأصغر والشيخ زين العابدين وبتان .

أخلاقه : كان تقياً نقياً شهماً هماماً ذا حزم وعزم جلدأً شجاعاً صريحاً ، صادق اللهجة سليم الصدر عفيفاً قنوعاً كريماً مهيباً عالي الهمة عزوفاً عن الدنيا صبوراً شكوراً جسوراً طموحاً للمعالي كامل الشيم عزيز النفس ظاهر الشمم ، رحمة الله عليه .

سيرته في خاصة نفسه : كان ينهض من نومه آخر الليل مبكراً فيتمجد للمولى عز وجل ، سحراً ولو في الشتاء وزمهرير البرد . وبعد صلاة الصبح وذكر أوراده يشتغل بمهامه ؛ فحين كان قاضي الجماعة يخرج فيشتغل مع العدول بملفات القضايا التي سيعالجها يومئذ ويعرض عليه ما يعرض من الأوراق ليختمها بطابعه ويلاحظ عليها بما يلزم إلى أن يحين وقت ذهابه إلى ديوان الشريعة القريب من منزله ، وذلك قريب من الساعة التاسعة صباحاً فيمكث للحكم في القضايا إلى الزوال . وبعد أن ولي الإفتاء وولايته الإفتاء كان يطلب منه ، وبذلك رجع إلى إلقاء الدروس بجامع الزيتونة فكان يذهب إلى الجامع قبل طلوع الشمس فيقرئ به درسين ، أحدهما قبل طلوع الشمس والثاني يليه ، هما المواهب اللدنية والسيرة الكلاعية ، ويرجع إلى منزله ويتناول غداءه عند الزوال وينام القيلولة حصة يستريح فيها وتعينه على قيام الليل ، بل إنه ينام حصة قبيل الضحى عندما يكون الليل قصيراً والنهار طويلاً وينهض قبيل العصر فيتوضأ ، وبعد إدائه لصلاة العصر يتلو نوبة يومه من المصحف وجزء من صحيح البخاري من نسخته

المجزأة بحيث يحتم كلاً من المصحف وصحيح البخاري في كل شهر مرة تقبل الله عمله ، ويشغل في بقية المساء بأوراده وبملاقة من يأتيه من الزوار حتى إذا صلى المغرب في مسجد الرصاع الملاصق لمتزله دخل بيته فتنقل به وتناول العشاء ، ويشغل بالمطالعة حصة حتى إذا كان وقت صلاة العشاء خرج إلى المسجد الآتف الذكر فصلى به العشاء ثم رجع إلى بيته فيطبخ "سهر حين كان يباشر الإقراء لتحضير دروسه باعتناء وتمحيص لا مزيد عليها سهراً طويلاً يستوفي فيه غرضه من ذلك ؛ أما بعد أن انقطع عن الإقراء فيسهر مشتغلاً بالمطالعة بكيفية لا تلفت النظر . وهكذا كانت سيرته الخاصة مطردة وعمله منظماً تنظيمًا دقيقاً .

أما طريقته في التدريس المشار إليها في ترجمته السابقة فأضيف إليها ما سمعته من بعض من أخذ عنه من شيوخنا كالشيخ سيدي محمد بن يوسف والشيخ سيدي عثمان ابن المكي وغيرهما فهو أنه في تدريسه الحديث يتعرض أولاً لتراجم رجاله مفصلة كأنه كان يعيش بين أظهرهم . ثم ينتقل لشرح الحديث جملة وتفصيلاً وما يستفاد منه إلخ . . . وفي الفقه ، يجيب بالمسألة ويذكر أقوال الفقهاء فيها ، ودليل كل قول وما يتفرع عنه من غير أن يغلط في نسبة كل قول لقائله أو يتلثم بل يقرر ذلك متبسّطاً فيه براحة تامة وفصاحة منقطعة النظير . ومن الكتب التي درسها غير المذكورة في ترجمته السابقة مغني اللبيب في النحو وتلخيص القزويني في البلاغة وحكم ابن عطاء الله الإسكندري .

مطالعاته للكتب : كان كثير المطالعة والكتابة إلى قبيل وفاته ، فأولاً كان يقيد ما يراه أهم من الفوائد في دفاتر وهي الكنائس في عرفنا ، وفي أواخر حياته صار يقيد ذلك في صحائف يضعها في مجلسه لم تنظم بل ربما تلاشى أكثرها .

من إجازاته التي لم تذكر في الترجمة السابقة إجازة العلامة الشيخ محمود قابادو السالك على منهج القوم وإن كان من شعراء عصره الفحول أجازته رحمة الله عليهما في الفتوحات المكية .

كان رحمه الله من السالكين والذاكرين الشاكرين شاذلي الطريقة سخياً كثير الصدقات خصوصاً يوم الجمعة ، يقصده السائلون فيها بمتزله كسيل منهم فيغدق عليهم عطاياه حيث اعتادوا منه ذلك . كان يجلب الإحسان ويرتاح إليه حتى لغير المسلم من أهل الذمة حتى أنه في المصيف حين يكون بمتزله بالمرسى يبيع بئر حديقته للواردين من جميع الأجناس فتجد ساحتها مكتظة بهم ، وكانت معروفة كثير

الصفصاف الشهيرة بالمكان رحمة الله عليه . وقد أتى من المبرات والطاعات بما يتولى الله جزاه عنه حتى مبرة العتق أناب فيه من تولاه عنه من حجاج بيت الله الحرام . أما بيته فكانت سليمة لم يمرض مرضاً أقعده عن العمل إلا مرتين : أولاهما فيما أدركت حوالي سنة 1327هـ وثانيهما مرض وفاته الذي لم يدم إلا نحو الأسبوع مرض هرم وانحلال قوى ، ولقد شهدته في مرض وفاته وهو مسجى مكث في غيبوبة السياق مغمض العينين مغلوق الفم طيلة ليلتين إذا طلع الفجر وحانت صلاته وهو مضطجع لا يقدر على قيام ولا على جلوس يبسط يديه فيتم للصلاة ويرفع يديه لتكبيره الإحرام مهمهما بشفتيه بالتكبير والقراءة بصوت خافت لا يسمع ولا يبين منه ما يقول ، إلى أن قبض فجر الليلة الثانية من يوم الخميس ، وهكذا يموت المرء على ما عاش عليه فهنيئاً له ، ودفن من الغد ضحى يوم الجمعة بمقبرة أسلافه بالزلاج وصلى عليه بالقصبة أمام تربة لاز على ما هو المعتاد في أمثاله حيث كان كبير أهل الشورى المالكية رحمه الله ، وذلك في شهر رجب الفرد عام 1345هـ .

كان حسن السميت والشارة مهاب الطلعة جميل الثياب ولوعاً بالطيب في بيته وجسده وثيابه ، تبخر ثيابه بالند والجاوي كما يُضْمَخُ وجهه ويديه بماء الورد والنسرين فيصبح جسمه طيباً فإذا ذهب إلى الجامع ومحكمة الديوان الشرعية أو سواهما عقب الطريق التي يمرّ منه برائحته الطيبة ويبقى ذلك الطريق الذي مرّ منه ينفح طيباً فيُعرف أنه مر منه بل وتسبقه تلك الرائحة فيُعرف أنه قادم ، أما بيت سكناه فيضعون في وسطه خصوصاً في الشتاء ما يسمى عندنا بالدغار وهو وعاء من الصفر يضعون فيه الجمر يلقون فيه العنبر وعود القمارى فيعبق المنزل كله طيباً ، ويحصل الدفاء به شتاء في البيت الذي تبسط فيه الزرابي في الشتاء . وكانت أعماله كلها وأقواله جدية غير أنه يباسط صغار بنيه وحفدته بما يناسب عقل الصغير ، وإذا بدّر من أحدهم ما يصلح أن يكون فكاهة تستملح احتفظ بها وجعل يباسطه بها حتى بعد أن يشبّ ويكبر ، كما يباسط جلساءه إدخالاً للسرور عليهم بما يناسب آداب مجلسه ووقاره ملتزماً قول الحق ومنهج الصلوق . كان ذا فصاحة ولسن جيد القول نظماً ونثراً . وكان أتابه شقيقه العلامة سيدي محمد الطاهر النيفر حين كان شاباً في الخطبة بجامع الزيتونة الكائن بباب البحر ، جامع الزرارعية ، وسأورد جملة من شعره ومن ثره وبعض خطبه نور الله مرقده . فمن شعره مادحاً سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه متوسلاً به قوله :

إن شئت ينجح منك كل دعاء
 عمّ النبي وصنوه وصفيه
 أسد الإله وليث خاتم رسله
 جمّ المناقب ليس يمكن عدّها
 أسرع إليه عند كل ملة
 والجا إلى أعتابه متضرّعاً
 وأسأل قريشاً عن مزاياه التي
 شرف النجار وعز مجد فعاله
 في يوم بدر سلّ سيفاً صارماً
 سلّ أهل طيبة عن مواقف بأسه
 ماذا له والله يشكر سعيه
 إسلامه عز لدين محمد
 فيه أتيتك سائلاً يا رب بعد
 فأسلك بنا سبل الهدى بمقامه الـ
 يا رب إني مذنب ومقصر
 ثم الصلاة مع السلام على النبي

ومن شعره يتهل إلى الله تعالى قوله :

يا رب لا تمنعني في المقال هدى
 الطيبُ النيفرُ يرجو الأمان غدا

وله في مثل ذلك هذان البيتان :

يا لطيفاً بخلقهِ ورحيماً
 اعفُ عني وعافني ما ذنوبي
 ورحيماً من حلمه لا يعاجل
 وخطائي في عفو من لا يمانل

وفي هذا الغرض يقول ومتوسلاً بسيد الخلق صلى الله عليه وسلم :

يا رب إنك قد أمرت تكراً
 وأنا دعوتك سائلاً بمحمد
 بدعائنا ووعدتنا بنجاح
 فاجعل بفضلك في دعائي فلاحي

وفي التوسل به ﷺ يقول :

إن تشأ نجح مطلب تبغيه
فتوسل بجاه خير البرايا
وأماناً من العدا وسلامه
وشفيع العصاة يوم القيامة

ويقول في هذا الغرض أيضاً :

لذ بأذيال شافع الخلق طراً
وتوسل بجاهه وترقب
وملاذ الورى من أنس وجن
فرجاً عاجلاً تنل كل أمن

ويقول أيضاً :

جاه النبي عظيم
فلذ به وتوسل
وفضله لا يُحد
فجاهه لا يُرد

وفي ذلك أيضاً يقول :

إذا تعاصت أمور
سل بالنبي قضاها
وأعوزتك شؤون
فكل صعب يهون

وفي قريب من ذلك يقول :

يا سيداً حلف الإله بعمره
كل الخلائق يرتجون شفاعته
فأشفع لعبدك في تضايق حاله
ذا العبد ضاق وما درى ما يصنع
يوم المعاد وإن جاهك أوسع
فالله قال إذا شفعت تشفع

وقال في مسألة الخلق :

أحفظ لسانك إن أردت سلامة
وألن جنابك وأتركن ملامة
وأضمم جناحك من دعا المظلوم
وأبسط أكفك ضارعاً لرحيم

وفي الصبر وانتظار الفرج يقول :

لا تشكون لغير ربك فاقة
فأصبر على ضيق المعيشة وانتظر
إن الغني هو الكريم الرازق
فرجاً قريباً فالرحيم الرازق

وفي انتظار الفرح وعدم اليأس من روح الله يقول :

يا أيها المرء لا تيأس عسى فرج
والله أخبر أن العسر يصحبه
يأتي سريعاً وعلم الغيب مطوي
يسران حقاً وعلم الغيب مأتي

وفي الإستغفار يقول :

يا من أحاط علمه
بكل شيء كائن
إغفر ذنوبي كلها
وأذهبن ما ساءني

هذه المقطوعات كلها نقلتها من خط يده رحمه الله ، ورأيت بخطه أيضاً ما

نصه :

أقطع أرحاماً وتوصل غيرهم
كمرضعة أولاد أخرى وضيعت
وترجو أن ترقى إلى ذروة المجد
بني بطنها ذاك الضلال عن الرشد

وكتب إثر البيتين قوله رحمه الله ، وجدت هذا البيت بخطي ولا أدري هو لمن
فاستحسنته وزدت عليه الذي قبله كاتبه الطيب ا هـ .

وأسفل ما تقدم كتب بخطه هذين البيتين ولم ينسبهما لأحد :

وتحتسب المعروف فيما صنعته
فأنت إذاً في سوء فعلك مسرف
قليلتك لم تزد من الله في البعد
تقرب ذا البغضاء وتفصي أولى الود

ويظهر أن هذين البيتين له ولعله زادهما بعد كما يظهر لي أن محلها بعد البيت
الأول المتقدم أقطع أرحاماً إلخ. وقبل البيت الأخير ، فأنت إذاً في سوء فعلك إلخ.
والله أعلم .

ما كل من يلقي السباع مكلم
ولا كل من يلقي ابن آدم يلدغ

وبيت مفرد آخر قريب من المذكور وهو قوله :

وما كل من يدنو من النار ملدغ
وما كل من يدنو من الناس يلدغ

وجميع ما عثرت عليه من الشعر منسوباً إلى صاحب الترجمة لا يخرج عن

المقاصد والأغراض التي أسلفناها إلا نادراً ، من ذلك ما أنقله عن الوالد رحمها الله
وهو هذان البيتان :

يا أيها الملك الذي انقادت له عظم الممالك واحتمت بجواره
من عز ملكك عز فرع محمد فاجعل يمينك عصمة ليساره

وقوله ومن خطّه نقلت هذه الأبيات التي تنحو منحى الغزل وفيها تضمين من
قصيدة ابن النحاس المشهورة «رأى اللوم من كل الجهات فراعته» ، ونصّ الأبيات
المشار إليها :

منحته صفو الود لكن أضاعه وأودعته سرّي ولكن أذاعه
ونازعه في أن يرقّ لحالي عنولي فأبدي صدّه وأطاعه
(فيا ليته قبل التمكن في الهوى أطاع عنولي فاكفينا نزاعه)
خليلي إني لست أصغي لعاذل وما كان من جرم يجرّ اندفاعه
(رأى اللوم من كل الجهات فراعته فلا تنكروا إعراضه وامتناعه)
أيا لامي هون عليّ ولا ترد جناني أسيّ أما رأيت انصداعه
فحسبي ما لاقيت منه فعتقوا أو استعطفوا أتي رأيت اتباعه

ومن ثر صاحب الترجمة رحمه الله ، هذا المکتوب إلى خاتم المرسلين صاحب
الروضة الشريفة عليه السلام ، أنقلها من خط يده الكريمة ونصه :

الحمد لله ،

مدحتك آيات الكتاب فما عسى يثني على عليك رقم بناي
وإذا كتاب الله أثنى معلناً كان القصور قصارى كل لسان

إلى سيد الكائنات المرسل إلى كافة المخلوقات الراقي بذاته إلى ما فوق سبع
سماوات والنور الذي هو أصل الموجودات المقسم بعمره في محكم الآيات ، إمام
المرسلين المنبأ وآدم بين الماء والطين ، صفوة العليم المتزل عليه الكتاب الكريم ،
المخاطب بـ «وانك لعلی خلق عظیم» ، البالغ من القرب إلى المنزلة التي ما أحد نالها
القائل يوم يقول الرسل لست لكم - أنا لها أنا لها :

أنت تاء الضمير في كنتُ كثيراً كيف ترقى رقيتُ الأنبياء

الحبيب الخليل الممدوح بآيات حم تتريل ، ملجأ العباد يوم المعاد المرید المراد ،
الخلاصة من أشرف نسب والمصطفى من صميم العرب ، سيدنا محمد بن عبد الله ابن
عبد المطلب صلى الله وسلم عليك ما صليت خمس وما طلعت شمس ، كتبه إليك
يا رسول الله عيّد بابك وخديم أعتابك ، المتمسك بذمتك يشكو إليه ضرة وذنباً
أثقلت ظهره ، فأغث يا رسول الله من ناداك وخذ بيدي يوم ليس لها سواك ،
وحاشا أن أخيب يا وسيلة الداعين ، حاشاك كيف وأنت المخاطب بلولاك لولاك ما
خلقت الأفلاك ، هذا وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق وأنت
رسول الله إلى الخلق ، وأنت بلغت الرسالة وجاهدت في الله حق جهاده وأديت
الأمانة ، ونصحت إلى كل عباده ، واستودع الله هذه الشهادة ليوم العرض وادّخرها
في حجرتك مظهر السنن والفرض والصلاة والسلام عليك وعلى وزيرك ضجيعيك
والخليفين من بعدك صهريك أبي بكر شيبة الحمد الصديق الأول وعمر الفاروق الذي
وافقه غير مرة الكتاب المنزل وعثمان جامع القرآن ذي النورين وعلي ابن عمك زوج
البتول وأب السبطين وعلى بقية أصحابك أهل المجد والثناء وأزواجك أمهات المؤمنين
اللاتي شرفهن منك البناء ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

من محمد الطيب النيفر

يا حجرة بل روضة بل جنة فازت بسكنى المصطفى خير البشر
من لي بأن يحظى بوجهك ناظري سعد الكتاب وعاق كاتبه القدر

وتحت هذين البيتين ما نصه كاتبها ولعل المراد لكاتبها أي أنها من شعره ،
ولعل البيتين المصدر بها المكتوب أيضاً من شعره والله أعلم .

ومن خطه رحمه الله ، ما نصه لنا في الجواب عن مكتوب :

الصلر الذي أجمع على فضله الأكابر وعجزت عن محاسنه الأقلام ، بعد أن
جفت الحابر وافاني مكتوبكم الجابر لما فات من ملاقاتكم وأي جابر ، وأذكرني حامله
قول الشمس أبي عبد الله بن جابر :

وافي فلم أر أحلى من شمائله ذاك الغزال الذي نعل به غزلي

الثغر ذو شنب واللحظ ذو حور والخصر ذو هيف والقذ ذو ميل

فإنه يطيل حياتكم لأمثال هذه التحف حتى تروا الطبقة الخامسة من صلبكم قد بلغت غاية الشرف والسلام هـ .

ومن خطه أيضاً قوله رحمه الله تعالى :

وصلتني المقامة البديعة التي يقول لسان حالها للحريري فضأ أفواه المقامات فإن العباد فيما أفيض عليهم من المعارف مقامات ، ولو أن من تقدمني كان حياً لساجلته ولكنه قد مات ؛ وحاشا أن أغض من مراتب من قدم على الله من الأعلام ، ولكن كما قال من تفسخ من ورود الملام إنما الكلام مع الكلام والسلام هـ .

أما خطبة الجمعية فيها الخطبة التالية ولا أدري الظرف الذي اقتضى إنشاءها فيه ، ومن مسودتها أنقلها :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمان الرحيم ، الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل ، وكبره تكبيراً . الله أكبر فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

الحمد لله الذي أعز بنصره الإسلام وأذل عبدة الأوثان والأصنام وجعل العاقبة للمتقين والعدوان على الظالمين ، وأظهر دينه على الشرك فتبارك الذي بيده الملك ، أحمده على هذا التأييد والفتح وأشكره على التسديد وواضح النجاح ، ثبت أوليائه ورحم عبيده وأنزل من السماء نصره وتأييده ، وحمي الأمة من الأرجاس وإذاعة المناكير وطهر البلاد من الأنجاس أكلة لحوم الخنازير ، حمد من لاحظ ما كان عليه من الشدة فأخذ الثناء عليه ولاحظ ما حل من الفرج واستنشق من عفوه عتاً أطيب أرج ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، القاهر القادر الذي لا خاذل لمن أعزه ولا مؤيد لمن خذله ولا ناصر ، شهادة مخلص من صميم الفؤاد يرضاها رب العباد وينجى بها في المعاد ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده الذي كسر بدعوته شوكة المشركين ورسوله الذي أظهر دينه على كل دين ، صلى الله عليه وعلى آله الذين أصبحوا للدين أعلاماً وأبي بكر الصديق أول الرجال إسلاماً وعمر الفاروق من وافق له الكتاب الكريم أحكاماً ، وعثمان ذي النورين الذي جعلت الأمة مصحفه إماماً ، وعلي بن أبي طالب ليث الكتاب شجاعة وإقداماً وعلي سائر المهاجرين والأنصار

الذين بنص القرآن تبوّعوا الإيمان والدار . أيها الناس تحققت البشرية فباتت النفوس مطمئنة وعظمت علينا بذلك كامل المنة ، واستوجب من باشر الصنف على الله بفضلته الجلة ورجع بالربح والرضوان وتحلّى بما يرضي الرحيم الرحمان ، فاشكروا الله على ما يسره إليكم وأنعم به من هذا الفتح عليكم ، وأخرج أعداءه عنا صاغرين وردّهم من حيث جاؤوا خائبين وأذهبهم الى مقرّ كفرهم ملعونين مطرودين ، وأقرّ الأعين فأصبحنا بنعمة الله في أنفسنا وذوينا آمنين ، وأورثنا ما جمعوا لأنفسهم من الغرس والزرع والتجارة وقضى عليهم بفادح الخزي وعظيم الخسارة ، فأحفظوا واجب حق هذه العطية التي ساقها إليكم المواهب اللدنية والعناية المحمدية ، فبلغتم بها بفضل الله غاية الأمانة وجددوا في كل حين لله حمداً وشكراً وألهجوا بذكر صادق وعده «سيجعل الله بعد عسر يسراً» ، هذا وملاك الأمر تقوى الله ، والوقوف عندما أمر به العبد وتجنب ما نهاه ، ومخالفة النفس وهي الجهاد الأكبر، والأحاديث المصروفة بذلك في كتب السنة أشهر من أن تذكر ، فمن أراد تمام نعمة الله عليه عمل بقوله ، وتمسك باتباع سنة رسوله واعلموا أنكم إنما تقاتلون بالدين ومن قاتل به فهو مؤيد، وإلا فما أنتم فيمن سواكم إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، فلا تدنسوا عباد الله بإيمانكم بالعصيان، وترضوا باتباع الهوى عدوكم الشيطان ، ولا تغضبوا بمخالفتكم بعد الرضا الرحمان ، فالمتقون لله بما أمرهم به عاملون ، وعما نهاهم عنه منتهون ، ومن عقابه وجلون ، وبنبيهم عليه الصلاة والسلام مقتدون ، وللشريعة المطهرة متبعون . ولم يأمنوا مكره فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

جعلني الله وإياكم ممن امثل نبيه وأمره ، وشرح باتباع الكتاب والسنة صدره ، ولم يأمن في هذه الدار مكره . إن أحسن سعي مشكور وأرجى تجارة لا تبور تلاوة كلام ربنا الذي إليه ترجع الأمور ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ا ه .

ومن خطبه الجمعية هذه الخطبة الجامعة :

الحمد لله الذي جعل المسلمين خیر امة أخرجت للناس ، وهي نعمة لا توازي غيرها ولا تقاس ، وجعل الإيمان هو الأساس ، والتقوى أولى حلية وأفضل لباس ، نحمده على ديننا المحمدي الذي لنا ارتضاه . ونشكر على أن أول من نعمة الإسلام وأسداه . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا يورد حق سواه ،

شهادة من أوتي تقواه . ندّخرها عنده ونجدها يوم نلقاه . ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي فضّله على جميع خلقته واصطفاه ، صلى الله وسلم عليه ما أمر بمعروف أمر ونهَى عن منكرناه . وعلى آله وصحبه أهل المزايا الفاخرة والجاه . وعلى سائر من آزره ووالاه . صلاة وسلاماً يليقان بعلاه ، ويؤديان ما يجب لسنائه الرفيع وسنائه . أيها الناس إن الله سبحانه فضّل الرسل عليهم الصلاة والسلام على سائر البشر ، ولا أفضل من خاتمهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وشرّع شرائع لمن قبلنا من أهل الحضرة والمدر . ولا أفضل من شريعتنا شريعة الإسلام ، الناسخة لما تقدمها من الشرائع في سالف الدهور ، وهي لا تنسخ إلى آخر الزمان ، حين النفخ في الصور . وأنزل الكتب السماوية ولا أفضل من القرآن ، وأمرنا فيه بالذكر ولا أفضل من لا إله إلا الله محمد رسول الله مفتاح الجنان ، واعلموا كما قال بعض السلف أن المفتاح لا يفتح إلا إذا كان له أسنان ، وأسنان هذا المفتاح أعمال الإسلام التي هي بقية الأركان من صلاة وزكاة وحج وصوم رمضان . ثم إن الصلوات المسنونة كلها فاضلة ولا أفضل من صلاة الوتر ، والصلوات المندوبة أكدها ركعتا الفجر وصدقة التطوع منبع الحسنات وأحسنها صدقة السر ، والتنفل في الليل أفضل ما كان ليلة القدر ، وأفضل أوقات الدعاء آخر الليل وهو السحر ، وأفضل أيام العام يوم مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأفضل أيام الأسبوع يوم الجمعة الذي هو العيد الأسبوعي على الدوام . وبر ذوي الحقوق متأكد أمر به الدين ، ولا أكد بعد الإيمان بالله ورسوله من بر الوالدين وقضاء الحق واجب وآكده أداء الدين ؛ ومطل الغني ظلم ، وجحد ما الذمة به عامرة من أكبر الإثم ، والخيانة من أوصاف المنافقين والغش كيفما كان بعيد عن أوصاف المسلمين . وأفضل الدعاء الحمد لله ، وأفضل الجهاد أن يجاهد المرء نفسه وهواه . فاشكروا عبّاد الله مولاكم على هذه النعم الواصلة اليكم وأدوا فرائضه التي أوجبها عليكم ، وحافظوا على ما سنّه من النوافل ، وإياكم والتقاعس عن إتيان الخير والتكاسل ، فإنه لا أنجى من أتباع السنّة الذي ثمرته رضا الله ورسوله ثم نعيم الجنة .

روى مسلم بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ
أفضل الأعمال الصلاة لوقتها وبر الوالدين .

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ أفضل الأيام عند الله يوم الجمعة .

وروى الترمذي والنسائي وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله .

وروى الحاكم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ ، أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن .

جعلني الله وإياكم ممن حافظ على الفرائض والسنن ، وعافاني الله وإياكم من الكروب والمحن ، وأجارني وإياكم من غوائل الزمان وجميع الفتن ، وأصلح مني ومنكم ما ظهر وما بطن ، ورزقني الله وإياكم رضاه وبلغ كلامنا ما يتمناه . ربنا توفنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ا هـ .

وهذه خطبة أخرى في التذكير بنعم الله والتحريض على العمل الصالح والتوبة الحمد لله السابقة رحمته ، السابقة نعمته ، البالغة حاجته ، الغالبة قدرته ، الحكيم العليم ، الذي وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظها وهو العلي العظيم . أحمده حمد من أقر له بالعظمة والجلال ، وأشكره شكراً يحفظ جزيل نواله من الزوال ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ندخرها عنده كنزاً ، ونجدها يوم العرض عليه من النار حرزاً . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله نور هذا الوجود ، وسيد كل والد ومولود ، ﷺ ، وعلى آله وصحبه وكل التابعين لستته الفائزين بقربه . أيها الناس إن نعم الله على عباده أجل من أن تنال باكتساب وأعظم من أن تعدّ بلسان أو تضبط بحساب ، وإنما هي مواهب من الكريم الوهاب ، فتذكروا «وما يتذكر إلا أولو الألباب» ، وأجلّ النعم نعمة الإسلام ، وإذا لم يكن عمل ؛ فبأي وجه تقابلون يوم القيامة الملك العلام ، أم كيف تظعمون في دخول الجنة بسلام ، فأتوا رحمكم الله بالمستطاع من صالح العمل ، ما دتم في مهل ، ولا تهملو ولا تمهلوا فإن لم يكن وابل فطل ؛ وكل عامل يرى الله عمله ، وكل ميسر لما خلق له . والناقد بصير ، والأمر الناهي بما نعمل خبير ، وإلى الله تعالى المصير . والعرض عليه لا يتطرقه ريب ، ومنتهى الأجل لا يعلمه إلا الله الذي استأثر بعلم الغيب . فالفرار الفرار إلى من لا ملجأ منه إلا إليه والبدار البدار إلى التروّد بالتقوى والتوكل في القبول عليه . وتوبوا إلى الله جميعاً فإن الله يحب التوابين والإعتقاد بعد ذلك عليه .

أخرج ابن نعيم في كتاب التائبين مرسلأ أن رسول الله ﷺ . قال : لله أفرح

بتوبة التائب من الظمآن الوارد ومن العظيم الوالد ومن الضال الواجد فمن تاب إلى الله توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه وجوارحه وبقاع الأرض كلها خطاياها وذنوبه .

وأخرج البخاري في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ ، إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال له : هكذا قال أبو شهاب راوي الحديث بيده فوق أنفه ؛ ثم قال : لله أفرحُ بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة وفقد راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال : أرجع إلى مكاني فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده .

جعلني الله وإياكم ممن يبادر إلى التائب ، وذكّر بالله فأتاب اه .
وقد وقفت له على كثير من الجمل الحكيمية الصالحة لأن تكون أمثالا أذكر هنا جملة منها أنقلها من خط يده رحمه الله عليه .
«ألزم اليقين تكن من المتقين» .

«ما أسعد من هدي للعلم ونزل رباعه ، وأري الحق ورزق اتباعه» .
«خدشة اللسان ثلثة لا تنسدّ ، والكلام كالنبل إذا طار لا يرتد» .
«إن الله إذا أحب عبداً استعمله ، وإذا أبغضه أهمله ، وإذا أراد أن يظهر فضله عليه ، خلق ونسب إليه» .

«إنما الإعتماد على من له الفضل والامداد» .
«إذا لم يساعد القدر ، فما حيلة البشر» .
«اللهم ابعثنا من فراش الغفلة متبهيين ، واجعلنا من الصالحين أو بهم متشبهين» .
«شكراً لله يستغرق المجهود ، ويليق بالمحمود» .

«صلّ اللهم على أفضل خلقك وأشرفهم وأعلمهم بك واعرفهم» .
«النفس من شاء زمها بزمام الهدى ومن شاء تركها سدى» .
«الخصال الحميدة من مواهب الرحمان لا من مكاسب الإنسان» .
«العمر وإن طال فما تحته طائل وكل نعيم لا محالة زائل» .

«ترصد للموت فلكل طالع أفول ، وتزود لدار الإقامة فلكل غائب قفول» .
«هل أدرك الآمل أمله ، قبل أن يبلغ الكتاب أجله» .

«من عاين قلب الليل والنهار لا يغير بدهره .ومن عرف أن بطن الثرى مضجعه
لا يمرح على ظهره» .

«تنادي أقواماً كأنهم قيام وهم قعود وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود» .

«تعالى الله لا تأخذه السنة ، ولا تغلظه الألسنة» .

«ما حلّ وقل ، خير مما حرم وجل» .

«خزائن الأمانء مكتومة ، وكنوز الأولياء مختومة» .

«لقد أصلحت شأنك ، لو رأيت في مرآة الإعتبار ما شأنك» .

«لقد أنذرك نذير الموت ، وتتصائم عن الصوت» .

«لا يمسك ما في يده ولا يدخر لغده» .

«إذا برزت من مقبرة الرمس ، بدا لك ما جنيت بالأمس» .

«كل الناس ضيف ، وما في القسمة حيف» .

«أتشكرون الله على سحت قضمته أسنانكم ، ونهب غضبته أيمانكم» .

«من طلب الدر ، شرب الأجاج المر» .

«يغترون بأعوامهم وشهورهم ، وينبذون الآخرة وراء ظهورهم» .

«سترى حين تبدو الضمائر ، يوم تبلى السرائر» .

«أعمالاً يحسبها الغافل زلالاً في وقية ، فإذا هي سراب بقية» .

«مسرات الأيام مقرونة بالغم ، وحلاوة الدنيا ممزوجة بالسم» .

«كن عاملاً ولا تكن حاملاً» .

«ربما تندم حيث لا يتفع الندم ، وعسى أن تزلّ حيث لا تثبت القدم» .

«ما لمن معهم الدرياق يتداولونه ، ولا يتناولونه» .

«أليس من الخسران أن ترد وادياً ، وتموت صادياً» .

«هل أصبحت أمراً إلا أمسيت مأموراً» .

«يا رهين الذمة اشتغل بفكاكها ، ويا مهين الهمة أدرك نفسك قبل هلاكها» .

«من لؤم الطبيعة ، اختيار القطيعة» «وأعظم الجريرة ، سوء العشرة مع العشيرة» .

«واحراز الفضيلة في إعزاز الفضيلة» .

«ينظر في الأمور إلى خواتمها لا إلى مبادئها» «ويرمي بالبصر إلى إعجازها لا إلى هوائها» .

«من له فطنة وبصيرة ، يعلم أن أيام البلاء قصيرة» .
«إن الفطن لا يبالي بالبلاء ، فغيم الغم وشيك الانجلاء» .
«سيطلع الفجر ويقى الأجر» .
«طوبى لمن عقل لسانه وكفه ، وأطلق بالخير بنانه وكفه» .
«أنحس الفرسان من حارب باللسان» .
«أحمس الكماة من استعان على قرنه بالصمات» .
«أعدل عن الإفراط والتفريط إلى النهج الوسيط» .
«خلق الله الآفة وجعل النطق ماثرا ، وقدر السلامة وجعل الصمت مدارها» .
«ما اللسان إلا سبعُ صوول فقيده ، وسيف مصقول فأغمده» .
«إن ذكر بالآخرة كسل ، وإن دُعِيَ إلى هو وقع فيه وقوع الذباب في العسل» .
«إن قلت حي على الشهوات طاروا إليها خفافاً وثقالاً ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى» .

«حلاوة اللسان ، بعض الإحسان» .
«الجود شعب أعلاها نول مألوف ومعدرة ، وأدناها قول معروف ومغفرة» .
«أعمر دنياك بقدر محياك ، ودبر أمر عقباك التي هي مأواك بقدر مشواك» .
«من عجل أخطأ المراد ، ومن تأتى أصاب أو كاد» .
«اغتنم فودك الفاحم قبل أن يبيض ، والنجاء النجاء فالدنيا جدار يريد أن ينقض» .
«أعبد الله الذي تخافه وترجوه واسجد لمن عنت له الوجوه» .

ووقفت له على مكتوب ثانٍ موجه منه لصاحب الحجرة الشريفة لله ، أنقله من
خط يده ونصه :

الحمد لله ،

الله عظم قدر جاهك في الورى وكتابه أثنى عليك وصرحا

وإذا إله الخلق جلّ تولى ذا فالعبد مثلي ما عسى أن يمدحها

الصلاة والسلام عليك يا عين الرحمة وملاذ الأمة وكاشف الغمة ، يا سيد الوجود
وأصل كل موجود ومن خص بالمقام المحمود في اليوم المشهود ، نخبة الملك العلام
الراضي إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام :

يا سيداً جاوز السبع الطباق إلى ما ليس يخطر عن فكر ولا بال
قريع باب صلوات يرتجيك فخذ بكفه ثم حد عنه بإقبال

أنت بشارة عيسى ودعوة إبراهيم والمخاطب من العزيز العليم فوأنك لعلّي خلق
عظيم :

يا مجتبي من قبل نشأة آدم والكون لم تفتح له أغلاق
أروم مخلوق ثناءك بعدما أثنى على أخلاقك الخلاق

أحمد الحامدين المحمود في العالمين والمتقلب في الساجدين أبعده أن أقسم الله بعمره
في محكم ذكره وقرن اسمه باسمه في كلمتي الشهادة فوق هذه السيادة :

يا سيداً عظمت في المجد رتبته وأكرم الخلق إحساناً وإفضالاً
أنت الجواد الذي ما خاب قاصده وصفوة الخلق تفصيلاً وإجمالاً

سر العالم ووسيلة أيينا آدم سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم
صلّى الله وسلم عليك ما أمّ البيت الحبيب وارتفع للملين عجيج وعلى كل آلك
وصحبك أهل ودك وقربك :

صلّى الإله عليك ما هبت صبا وترنحت بهبوبها الأغصان
وعلى الصحابة والقراة كلهم ما أخلصوا وتعاقبت أزمان

أما بعد يا رسول الله ، فهذا كتابي وجهته إلى حجرتك متردد جبريل بالوحي
والتريل يلثم الأعتاب ويسأل الجواب :

يا خير من جاهه ملجأ وجانبه حمى لكل مسيء مذنب جان
أنت الحبيب الذي من أمّ ساحتته نال السعادة والبشرى بفران

هذا وعبدك الحقير الطيب النيفر يشهدك يا رسول الله أنه يشهد أن لا إله إلا الله
وأنت سيدنا محمد رسول الله ، أنقذت الخلق من الجهالة وجاهدت أهل الكفر
والضلالة ، ودعوت الأنس والجن إلى التوحيد وقاسيت الشدائد في إرشاد العبيد ؛
فأستودعك إلهادي لساعة احتضاري ويوم معادي ، فإنك أحفظ مستودع ووسيلة
الخلق أجمع وجاهك أمنع وأوسع ، اللجوء إليك أنفع والدعاء بالصلاة إليك يرفع ،
والاستجابة بمقارنته أسرع ، والمخصوص باشفع تشفع . ولي مطلب منك أنبت فيه
مكتوبي عاقتني عن سؤاله مشافهة ذنوبي فأنت الذي سائله يحمد ومن أكرم منك
فيقصد :

إليك ملاذ الورى حاجتي رفعت فإنك قلت اذكروا
وقلت أبلغوني حوائج من أراد وقلت اشفعوا تؤجروا

فأنت الذي ما ردّ سائله ولا خاب آمله ، ألسنت الذي قال الله في تفخيم شأنه
لآدم عليه السلام لولاه والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا
الله . ومطلبي يا رسول الله قد علمته بلغته إليك الملائكة الكرام محفوفاً بالصلاة عليك
والسلام :

يا حجرة بل روضة من جنة فازت بسكنى المصطفى خير البشر
من لي بأن يحظى بوجهك ناظري سعد الكتاب وعاق كاتبه القدر

ا هـ .

وأذكر على جهة التبرك نص الإجازة التي منحنيها رحمه الله ، في أواخر عمره في
جملة من منحهم بها من آل بيته ونصها :

بسم الله الرحمان الرحيم

نحمدك اللهم حمد عالم بكمالك متطلباً المزيد من نوالك ، ونصلي ونسلم على
سيدنا محمد الفاتح الخاتم نعمة الخيرة من بني هاشم ، صلاة وسلاماً نستفتح بهما
الأبواب ويكونان للقربى منه من أعظم الأسباب ، وعلى آله وأصحابه الذين حملوا
إلينا الشريعة وبيئوها أتم بيان حتى ظهرت بمظهرها الجلي للعيان . أما بعد ، فإن
حفيدنا السيد علي النيفر بلغه الله الأمنية وحفظه من كل أذية ، فمن طلب منا الإجازة

على قاعدة السلف وما جرى عليه عمل الخلف ، حتى يصل سنده بسندنا في جميع العلوم المعقول منها والمنقول . ولما تحققت منه الأهلية بلغه الله الأمانة . قلت قد أجزت للسيد المذكور في جميع العلوم المعقول منها والمنقول ، رواية ودراية أخصها علم الحديث الشريف إجازة تامة شاملة عامة ، حسبما أجاز لي في ذلك والذي المقدس المبرور نعم الله روحه الزكية ، وأشياخي الجلّة الكمل المنعمون سيدي إبراهيم الراجحي وسيدي محمد بن ملوكة وسيدي محمد بن الخوجة وسيدي محمد بيرم الرابع وسيدي أحمد زيني دحلان شيخ مشايخ الحرمين الشريفين في وقته ، وسيدي الحاج محمد كمون شيخ مشايخ رواق المغاربة بالأزهر الشريف في وقته ، وسيدي أحمد مئة الله من علماء الأزهر حين اجتماعي به في الإسكندرية ، وسيدي محمد الكبلي شيخ الإسلام بمكة المشرفة . كما إني أجزت له في جميع ما ينسب للأستاذ العارف الشيخ سيدي محيي الدين بن عربي الحاتمي ، كما أجاز لي في ذلك سيدي محمود قابادو الشريف نعمة الله تعالى ، والظن أن لا ينساني في مظان الإجابة والله يسلك بالجميع مسالك النجاة في الحياة وبعد الممات بمته وكرمه ؛ حرره فقير ربّه محمد الطيب النيفر الشريف الحسيني كبير أهل الشورى من المالكية بالديار التونسية : وفقه الله وختم بالسعادة عمله ، وكب في غرة المحرم الحرام فاتح شهر عام 1343 هـ ا هـ . وعلى التاريخ ختم طابعه الشريف تغمّده الله برضوانه . وختاماً لترجمته أذكر ما رثيته⁽¹⁾ به ونصّه :

عشّ ما تشاء أليس آخرك الردى	سيان طال عليك أم قصر المدى
إن المنية ما رأينا خاملاً	أبقت عليه ولا شريفاً سيّدا
بيناً تراه آمناً في سره	إذ فوّقت سهماً إليه مسدداً
يهوي به نحو الثرى متعفراً	فيعود في طور الفناء كما بدا
أي صاحبي ولنا مواظ جمّة	ما أصدرت إلا وعادت وردا
ظل الحياة وإن بدا لك وارفاً	لا تغترر فتنام فيه موسداً
ف هناك يوشك أن يرى متقلصاً	وتقيل في رمضائه متوقداً
عجباً لمن يأتي وقد وضع الهدى	ما يمرع المرعى يجديه غدا
تالله لولا حكمة العمران لم	أمدد لزهرتها وإن خلّبت يدا
ما زلت مذ نيّطت عليّ تمامي	في آيها نظري أجيل مُصعداً

(1) المرثية من نظم الشيخ علي النيفر صاحب الذيل .

حتى له وجه الحقيقة قد بدا
 منها سوى زاد التقى لمن اهتدى
 فيما به شرف يدوم مخلدا
 ذكر سيقتي في الآنام مرددا
 لم يدرك البزل القروم له مدى
 يتقنى أجد في خطاه أجد
 حسب المفاخر أن يقول محمدا
 من ضئضيء العلياء أوجد أوحدا
 فأناف ما قدما بنوه وشيدا
 علما به يجلو عن القلب الصدى
 أثنى عليه بها الأحبة والعدى
 أمضى من السيف الصقيل مجردا
 وبه تازر بالمحامد وارتنى
 لإظلام إذ كان الدرّي المرشدا
 قد بدّ من قد راح فيه أو اغتنى
 في الفهم يقتاد الأبي الأبعدا
 الفضل في أكفانه والسؤودا
 وأجل قدر في الآنام وأمجد
 وأعدت أفق المجد أقم أربدا
 ما قد قرى دمعاً وسعر أكبدا
 أبداً وأحرى بأن يكون مجددا
 حتى أصابتها به عين الردى
 من بعد أن أدنى القطاف وأرفدا
 روى الثرى متقشعاً متبددا
 ولكم أفاضت قبل أنوار الهدى
 قد قلد الأعناق دراً أوحدا
 متبلاً من ذي الدنى متجرّدا

أبني تجلي ما اختفى من سرها
 فعلمت أن لا زاد يبلغ راحلاً
 طوبى لمن أمضى نفيس حياته
 مثل الإمام الفد من لفخاره
 الطيب الأسى محمد الذي
 من نسل نيفر الأولى حازوا العلى
 نسب يمت إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله
 نشأوا كمطرّد الكعوب مقوم
 صيد بنوا بنيان مجد شامخاً
 قضى نفائس عمره في بته
 أو حكه بين الآنام بحكمة
 قد كان في فصل القضا ذا عزمة
 وتقلد الإفتاء بعد فزانه
 ثم الرئاسة فاستشار برأيه الـ
 فاليوم يبكي المعهد الشرعي من
 من مثله في العلم أم من مثله
 يا رمس قد واريت إذ واريت
 يا رمسه واريت أكرم راحل
 يا يومه روعتنا بفراقه
 قد عمّ أرجاء البلاد من الأسى
 أسف عليه من الجميع مجدد
 ما كان للخضراء إلا تاجها
 ما كان إلا الروض صوح نبته
 ما كان إلا المزن ألقع بعدما
 ما كان إلا شمس علم كورت
 ما كان إلا البحر سجر بعدما
 أصغى إلى داعي الردى فأجابه

لكنه ما مات من أبقى له ذكراً جميلاً ما يزال مردداً
ما كان أجدر فيه قول مؤرخ في منزل الأبرار حَيَّ مُخْلِداً

سنة 1345هـ

355 - شيخ الإسلام أحمد يريم

هو الشيخ النبيل العالم الجليل أحمد ، ويدعى حميدة ، ابن شيخ الإسلام محمد بالفتح ابن الشيخ القاضي ، ثم المفتي مصطفى ابن الشيخ العلامة المفتي الأول الحنفي سيدي محمد يريم الأول . كان مترجماً نحريراً علامة ألعياً داهية فهامة ، أضاف إلى طيب أعرافه كرم أخلاقه ، وإلى شرف عنصره ما حسن وطاب من خيره وراق من محبه . يسحر المجلس بلطائف التأنيس ، ويجذب إليه السامع بلطفه المتدارك المتابع . صار ضارباً في مختلف العلوم بسهم نافذاً إلى صميمها بثاقب فهم خصوصاً علماء النحو والصرف ، فله بها مزيد اعتناء ودراية جاوز فيها قدر الكفاية إلى حد النهاية ، حتى اشتهر أنه كان يحفظ متن توضيح ابن هشام للمخلاصة في العلمين المذكورين عن ظهر قلب . وكان يقوم بتدريسه في جامع الزيتونة بحذق وكياسة يناسبان ما لعبقريته من نفاسة . أخذ العلم بجامع الزيتونة عن أعلامه الفحول وبالأخص عن عمه العلامة الشيخ سيدي محمود القاضي ثم المفتي ، وعن شيخ الشيوخ سيدي سالم بو حاجب وأضربهما من أئمة الجامع الأعظم وبالأخص الأخير فله به مزيد اختصاص حتى أحرز على شهادة التطويح في سنة 1310هـ . ثم تدرج في الرتب العلمية والشرعية فتججح في مناظرتي التدريس من الطبقة الثانية ثم من الطبقة الأولى ، فتصدر لبث العلم لقاصديه والإقتباس منه لمستفيديه . وياشر التدريس فأفاد وبرز فيه وأجاد . كما وني خطابة الجامع اليوسفي ومشیخة المدرسة الباشية فكان له بهما أختام رمضانیه من نوع السهل الممتنع ، كما أن خطبه الجمعة يقبل عليها الناس بشغف لما أوتيه من القبول لسهولة تعبيره وسلامة لهجته . وكانت خطبه الجمعة يلقيها لسانه دون تلثم ولا ينظر في أوراق رحمه الله ثم تقلد خطة الإفتاء فزانها ثم مشیخة الإسلام سنة 1329هـ . أعطي رهاناً فرغ لها في العيون بما ركز في طبعه الطموح شائناً وقدرأً وأعلى لها في مختلف الأوساط ذكراً .

وكان رحمه الله كآبيه محتفظاً بنظامي التعليم في جامع الزيتونة والمحكمة الشرعية
 خوف أن يصيبها القلب والإبدال فيخرجها من صبغتها خصوصاً والحكومة بيد
 الأجانب ، وبدأت تفوق لصدورها السهام الصواب . وفيما بين سنتي 1330هـ
 و1336هـ ، أمسك عن عمله بالنظارة العلمية بجامع الزيتونة منياً فيه غيره من المفتين ،
 ومقتصراً على عمله بالديوان أي المحكمة الشرعية ، لصدور قانون جديد إذ ذاك للتعليم
 بجامع الزيتونة قاضٍ بتسوية كبير أهل الشورى المالكية بشيخ الإسلام في المناظرات ،
 بحيث أن النظر الأربعة إذا اختلف رأيهم في مناظرة وانقسموا إلى شقين ، يترجح رأي
 شيخ الإسلام الذي هو حنفي إن كانت المناظرة حنفية ، وإن كانت مالكية ترجح رأي
 باش مفتي المالكي وهو كبير أهل الشورى المالكية ، فأصيب رحمه الله ، فيما كان حريضاً
 عليه من الاستئثار بالرئاسة في الصميم ، ووقع من جراء ذلك في المقعد المقيم ، ووقع من
 أجل ذلك في مشادات مع الوزير الأكبر لذلك العهد ، كان مآلها بمساعدة
 البخت له أن أعني الوزير الأكبر من منصبه لسبب سياسي رمت به الأقدار ، فرجع
 مترجمنا إلى مباشرة عمله بالجامع الأعظم وذلك في سنة 1336هـ : وعاد منفرداً بأمر
 الإدارة العليا للجامع الأعظم ومستحوذاً عليها ، وباشرها بشدة وعزم صارم بحكي
 الصّخور الصّلام . إلا أنه دخل منذ ذلك التاريخ تقريباً في مصارعات مع بعض
 الوزراء ، وفي مشادات مع بعض الشيوخ نظرائه في النظارة العلمية لتمسكه بإبقاء ما
 كان على ما كان . واستمرت المصارعات بينه وبين هؤلاء وهؤلاء في مختلف الأوساط
 حتى الصحفية . أفضى به هذا الصراع الطويل إلى إعفائه من مشيخة الإسلام حيث
 حيكّت حوله مؤامرات مع بعض الوزراء ، بل وصلت إلى نسجها مع أمير عصره
 حتى أوغروا عليه صدره ، وهيوؤه لينشب فيه نابه وظفره . وكان أقوى الأسباب في
 فصله عن وظيفه تمسكه بنظام التعليم الزيتوني وإدارته وعدم السماح بتطويره الذي
 يرتثيه غيره من الشيوخ ، وإرادته التثبيت للحنفية بجانب مهم من خطط التعليم بجامع
 الزيتونة حتى لا يغمرهم المالكية بعددهم الغفير لأنهم أكثرية البلاد ، كما كان ممانعاً في
 تحويل نظام المحكمة الشرعية وسن مجلة لقضاياها ، قال أمره إلى ما آل رحمة الله عليه ،
 فلابزم في الإعوام الأخيرة من عمره منزله وانتابته الأمراض إلى أن توفي بمنزله بمرناق .
 ومن الغد أتى به إلى الحاضرة فدفن بمقبرة أسلافه بالزلاج رحمه الله . كان عزيز النفس
 أبي الضيم مهيباً لبيباً بشوشاً ، لئن العريكة جريء الجنان فصيح اللسان ، عالي

اضمة صريحاً ، سهل اللقاء ، طموحاً للمعالي ، كثير الوفاء ، له مواقف محمودة منها
دبته عن اللغة العربية في مؤتمرها وتنى ما رماها به بعض أعدائها من المستشرقين
انفرنسيين من الميوعة وعدم الصلوحية للتطور ومسيرة الزمن بمحاضرته البليغة التي
برهن فيها عن حيويتها وقبولها للتقدم ومسيرتها للزمن ، وقد أجاد فيها وأفاد ، وطبق
المتصل وهي مطبوعة ، وقد نالت الإعجاب وألقت الأضداد حجراً ؛ وكنت من
المعجبين بها فقرضتها بقولي⁽¹⁾ :

الحق منبلج الأشعة باد لا يجتني إلا عن الحساد
تغو له كل النفوس وتنضوي الـ عقلاء تحت لوائه المياد
وله على جيش الأباطل صولة ما تقضي بتناول الآماد
والله ناصره وصالح خلقه وكفاك من عدد ومن أجناد
أو ما رأيت الفذ أحمد بيرماً أمسى يدافع عنه كيد العادي
قد قام في نادي العروبة ذاتداً عن حوضها بيانه المعتاد
بفصاحة وبلاغة ومعارف تجلو العمى ويرأيه الوقاد
والناس قد حشروا سراعاً يهرعو ن إلى استماع بيان ذاك الهادي
في متدى رحب الجوانب ماج بال مستشرقين معاً وأهل الضاد
من تونس والمغربين ومن فرنسا أقبلوا ناهيك من أطواد⁽²⁾
نظموا على نسق فطاحل من رجا ل الأمتين بسمط ذاك النادي
يصغون للفذ الإمام وكلهم لمعين ما أمسى يفيض هوادي
فيعيد آونة وييدي والجوا هر ترمي كالبحر ذي الأزياد
يسدي إلى لغة الكتاب أبادياً ويرد عنها مكر كل معاد
أمسى يقيم على خلود حياتها حججاً قواطع حيل كل عناد
يللي بأن عناصر اللغة التي تحيي بها ست لدى التعداد
ويبين أن جميعها قد لاح في لغة العروبة مثل صبح باد
ثم استجر حديثه لتسامح الـ لإسلام وهو سبيل كل رشاد
فنفى بذلك وسم كل تعصب كم يفتره بجانب لسداد

(1) من نظم الشيخ علي النيفر صاحب الذيل .

(2) المغربين : الجزائر ومراكش .

ولكم له من موقف في الحق ما يوماً يرى لسواه بالمنقاد
فالله يمنحه جزيل جزائه أبداً ويدراً عنه كل عواد

كما له موقف آخر جليل وذلك أنه لما استصدرت الدولة الفرنسية الظهير البربري من سلطان المغرب الأقصى في عام الظهير الذي أنكره العالم الإسلامي في المشرق والمغرب ، واحتج على إصداره لما يرمي إليه من التفرقة بين رعايا المغرب الأقصى ، وجعلهم شقين عرباً يحكمهم الإسلام وبربراً تحكمهم الأعراف والعوائد صادف ورود مقيم عام جديد لتونس ، فلما دخل صاحب الترجمة عليه ضمن وفد من شيوخ المحكمة الشرعية ، فاجأه في خطاب التهنئة الذي ألقاه أمامه بإنكار ذلك الظهير والاحتجاج عليه ، ويقال أن هذين الموقفين المحمودين اللذين وقفهما هما السبيان الأصليان في فصله عن خطة مشيخة الإسلام التي لم يتولها على تلك الصبغة من أسندت إليه بعده ، وهو شيخنا العلامة التحرير الإمام سيدي محمد بن يوسف ، بل صار منصب شيخ الإسلام منصبين شيخ الإسلام الحنفي ويتولاه حنفي ، وشيخ الإسلام المالكي ويتولاه مالكي . وقد كان صاحب الترجمة زينة المجالس وصدرها بمقتضى وظيفه السامي وشخصيته الملامعة إذ هو شيخ الإسلام ، وما أدراك ما هو طموحاً لتصدرها حسناً ومعنى ، حريصاً على الخطبة في عقود الأنكحة ، حتى أن صديقه الوزير السيد خليل بن شيخ الشيوخ سالم بو حاجب أصدر قراره بأن من يتولى الخطبة في العقود هو أكبر الحاضرين خطة تفادياً من أن يقوم بذلك غيره بمحضه ، وهو جدير بذلك لفصاحة لسانه وحلاوة منطقته . وكان حاضر البديهة حلو الفكاهة ظريف المباشرة يستعملها مع زائريه المتصلين به كل يحسب ما يناسبه ، ويخالقهم بخلق حسن أرق من التيسير . يحب معالي الأمور ولا يقنع بما دونها ؛ صاهر على ابنته لابن أمير عصره وعلى ابنة وزير ، وكان لعهد وجاهته وصولته كمنار على علم . كان ساكناً في تونس في منزل والده رحمها الله ، ثم صار في غالب السنة أو جميعها يسكن في شاطيء خير الدين بالمتزل الذي اشتراه به ، وهو قصر الوزير خير الدين الذي سميت باسمه تلك الضاحية . وكان في صوغ الكلام فارس ميدانه والرافع لشأنه . أما في الثر ، فكان ذلق اللسان واضح البيان ، ترسلاً وسجعاً ، يخطب في مختلف الأغراض والمناسبات دون استعانة بأوراق لقوة حافظته وطلاقة لسانه ورباطة جأشه وجنانه . وأما الشعر فكان من المقلين فيه مع الإجابة إذا نظم ، وسنورد منها ما حضرني الآن . فن شعره وثره يقرض نظم

الوالد رحمها الله ، في الحكيم المسمى بمرصع الزاج لما طبعه وأهداه نسخة منه ،
ونصه :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه .

ودودي الأعز سيدي محمد النيفر ، حرس الله مجده بحوله وطوله . وبعد التحية
الشاملة ، فأخوك لما لمت به عقيلتكم الكريمة بكرأتمشي على استحياء ملكت منه زمام
القبول ، فقدر أن يقول وإن شبه الماء بعد الجهد بالماء . الحمد لله ولي الحمد وكفى
بالله ولياً أحكم صنع العالم ، فأبدى صنع ما شاء وأبدع ما شاء . ونهج سبكه على
هذا النمط صراطاً سويّاً وقفت فيه من سواه بمقدرة الإنشاء ، وأدار رحي استقامته كلياً
على محور العرفان ، فكان لذلك منهلاً لا يظماً وارده ، وسبيلاً لا يضل رائده ، بل لا
يخاف دركاً ولا يخشى . نحمده سبحانه إن خط لنا على صفحات الوجود أي اهتداء
هي في الأرض والسماء سواء ، ونبّه على ما لها من الشأن بقوله في معرض الإمتنان على
لسان القرآن «وعلامات وبالنجم هم يهتدون» . ونشكره مستمدين كرمه وإحسانه أن
أفاض علينا من ينابيع طوله سوانح الآلاء وأضاف إليها بمحض فضله متوالي النعماء
فظلتم يا أيها الناس تفكّهون ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير من نطق بالصواب
وأفضل من أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، وعلى آله وأصحابه الواثقين بعظيم جنبه
واقفين ببابه ، لا يزالون ضارين القباب ومن تبعهم بإحسان إلى يوم يعثون . أما بعد ،
فهذه يد ذلك الإنسان وهذه مآثرها الجمّة ذوات الأفنان قد رصفت يواقيت
الفخر على جبين الدهر ، فأزرت بعقود الجمان على نحور الحسان ، ألا وقد
أظهرت من مكنون التحقيق ما أوقفته رأي العين وأبرزت من مصون التدقيق ما
ساوت به بين الصدفين ، فجاءت حديقة أفرّاح ذات أقداح ، ما غرست مخلفات
ألوانها يد غارس وعقيلة ارتياح ذات أشاح مئّعة ما مسّها كف لاس ، وكم أغربت وكم
أعربت بمنظرها الفتان عما في ضمائر الإحسان ، وقفت عليها وقوف شحيح
ضاع في الترب خاتمه فنزلت منها بوايد ذي زرع قد غنت على أماليد الإجادة حمائم ،
وتفتقت عن طلائع زهر الإفادة كائمه ، ورفلت مما نسجته فيها يد الإحسان البالغة في
مطارف وبرود ، وكرعت في سلسيل حياضها السائغة كل عذب برود . وكيف لا
وهي يد مولى تقصّر عبارتي أن تفي بما له من حميد المآثر ، ومن لي أن تحيط إشارتي بمن
عقدت عليه في عكاظ الفضل الخناصر . بلى ، فقد أعجز الواصفين وصف خلاله

وأكرم بهاتيك الخلال من خلال فلو حاول المحاول تفصيل إجماله لما رجع من تلك
الإرادة إلا بمحاولة المحال . هو الكاتب النظام المستعبد بحسن سبكه حرّ الكلام ، المقيم
فيما عهدته إليه أخلاقه الكريمة على الوفاء . فريد عصره ونادرة دهره ، وما بذاك
الكمال من خفاء ، وناهيك بحامل لواء الإنشاء . المتفنن في ضروبه ؛ كيف يشاء
البارع المحصل من البراعة على عالي الرتب ، الأديب الآتي من ملّحه بما يقضى منه
العجب ، وكل ذلك لا غرو بمحاسن الأبناء مصدرها الأب

وها هنا وقف بي البراع ولم يتجاوز مقدوره الى ما ليس له بمستطاع ، فلم أزل
أسقيه امتباحاً وأعاطيه ارتباحاً ، حتى عاودته شجونه وتعهدّه جنونه ، فقدّر عندئذ
حق القدر وأشرف من لمع السراب على بحر :

أنعم بها وهي اليد البيضاء	تدري مواقع حسنها البلغاء
بمرتبة كشفت نقاب الحسن عن	وجه الغزاة ما عليه غطاء
نفشت من السحر الخلال نفّاة	ذهبت بها الأرواح حيث تشاء
من كل قول ما لديه تدافع	أو كل معنى ليس فيه خفاء
رقت معانيها ورقّ معينا	فتحالف الأرواء والإظماء
نشرت محاسن لم تزل آياتها	تتلى ويقصر دونها الإملاء
ووشت بها أيدي البيان طرائفاً	ما وشيتها الحلة السيراء
فكأنها الحرباء في ألوانها	إن لم تكن في حسنها الحرباء
وكأنها والحق أعدل شاهد	في مجتلاها روضة غناء
من ظلها الممدود جلّ لها الندى	روح النعيم يهبّ وهو رُخاء
سكرت بها الألباب فهي بحالة	يُمضى بها في حسنها وُبحاء
لا غرو إن برزت وفي عطفاتها	تبه وفي لفتاتها خيلاء
تقضي على الأفواه ما تقضيه. إذ	تختال فهي الغادة العذراء
يا سيداً لما تزل نفحاته	تأتي بطيب حديثها الأبناء
لله من موشية حرّرتها	ولها بكل خميلة أبناء
يا من عقدت على وثوق وداده	قلبي وحنان له بذاك وفاء
حصلت من رتب الكمال على التي	لم يحظّ قط بنيلها النجباء
حتى رقت لنا بدائع لم تكن	نسجت على منوالها الزعماء

بصدورها عن فكرك السامي اكتست
وبما جمعت من المكارم جُمعت
لا زلت تحظى بالذي أمّلته
حتى يرى لك ما تشاء ونساء
بجداً قد انحطت له الجوزاء
حسناً فذا فصيح وذا إيماء

18 صفر عام 1312هـ أحمد بيرم ١ هـ .

ومن شعره أيضاً ما رأيته بخطه تهنئة بإبلال من مرض ونصه :

مولاي حظوا بمدى محكم من مبتهج أو متهج
سبقوني فيه لمرتبة قد كان أحق بها لهجي
ولئن قصرت بي مكرمي عن وصف كمالكم البلج
فأنا حظي من خدمتكم هو حمد الله على الفرج
فعدريك في تقصير فتى بسمي مرضاتك عنه حجي

ومن شعره أيضاً ما رَقمه على شجرة ثبوت الشرف لعائلة شام ، ونصه :

بخير من دعا الورى إلى الصراط الأقوم
وآله أهل التقى والشرف المسلم
أسلك مسالك الرضا بأحمد بن بيرم

ومن نثره ما خطب به في مجلس ختم امتحان التطوير بالجامع الأعظم جامع الزيتونة ، ونصّه :

الحمد لله العظيم الأعظم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلّم . وبعد ، فقد تمّ امتحان الجامع هذه السنة وقام به جمع من تلامذته ذو عدد عديد ، غير أن منهم المجيد بالطبع وغير المجيد . وبعبارة شارك فيه منهم من شارك وبارك الله فيمن بارك ، وأياما كانوا ، فشيوخ الجامع شكر الله صنيعهم وحفظ بمنه جميعهم قد قاموا بواجبهم فضل قيام ، باذلين بجهودهم واقفين عند حدودهم ، فالله سبحانه الحمد في البدء كما له الحمد في الختام .

وخطب أيضاً في مثل ذلك في سنة أخرى أيضاً بما نصه :

الحمد لله الكبير المتعال ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله

وصحبه خير صحب وآل ، ومن تبعهم بإحسان سواء في الأقوال والأعمال . وبعد ، فقد تمّ امتحان الجامع هذا العام ، والله سبحانه الحمد في البدء كما له الحمد في الختام ، وشارك فيه من تلامذته عدد كبير كانت النتيجة فائقة ، لكن في مجرد التعبير دون التحقيق والتحرير ؛ ولذا كان الواجب على أهل هذا الجانب أن حرصوا على حمايته من السقوط لا قدر الله ، أن يركبوا جواد الهمة بزاد الجهد والتوفيق لا عملاً على مجرد الحضور والتحليق .

ويقول من خطبة أخرى في مثل ذلك أيضاً ما نصه :

وأخر بمن كانت له وجهة للعلم مقصودة أن يقام في وجهه سدّ يمنعه من الإنحطاط بالأخذ في حقه بجانب الإحتياط ، وإلا فما يمنعه من اللحاق بالخذاق وله مثلهم قدم وساق .

ومن دعاء ختم به خطبة أخرى مماثلة يقول أيضاً ما نصه :

وتجنّب مواقع النعمة بأعمال الخذر ، فباء من رضا الله بحيث الفوز والظفر ، وختم لي ولكم بحسن الموت على ملة سيد البشر

356 - شيخ الشيوخ سيدي محمد بن يوسف شيخ الإسلام الحنفي

جهبذ جليل وعلامة نبيل . من علماء جامع الزيتونة الأعلام وأيمته العظام الذين يفاخر بهم سواء من المعاهد العلمية المنبئة في أقطار الإسلام ، ومن فطاحل الجامع المشار إليهم بالأصابع . أخذ علومه عن فحول ، فلأ وطابه من معقوله ومنقوله . فمن أخذ عنهم من أولئك الفحول العلامة التحرير الشيخ محمد الشاذلي بن القاضي ، والعلامة التحرير جدي الشيخ محمد الطيب النيفر . أخبرني حين كنا نزاول عليه الدروس ، وقد شرع في إقراء شرح مختصر السعد للخطيب القزويني ، أنه قرأ على الجلد المذكور كتاب التلخيص جميعه . هذا وحين عرف مترجمنا بين أقرانه بالتحصيل واشتهر بالذكاء والرأي الأصيل ، انتخب للتدريس من الطبقة الثانية بالجامع الأعظم ، وشهد له شيوخه بالتحقيق ، فتولاه وهو به خليق ، فتحلّى به دون مزاحم وهو به جدير ، ونال ما نال من الصيت العلمي البعيد في زمن يسير . ثم ارتقى إلى رتبة التدريس من الطبقة الأولى فكان من الأفاض المبرزين والسابقين الأولين ، وزان التدريس بتحقيقه وتحريره النفيس ، فتخرج عليه من العلماء جلة لاحوا بين أقرانهم

وكانهم الأتقار والأهله ، حمد منهم الورد والصدر ، وشرف منهم العين وزكا الأثر . كثير منهم قد أولع بتقليد أسلوبه البديع في التدريس ، فنالوا بذلك ما أمّلوه من تقدم على الأقران ، وسما لهم بذلك شأن وأي شأن ، فلمع من تلاميذه نخبة أصبحوا وهم زينة المناصب وطراز المجالس ؛ شهدت مجلس ختمه لشرح الجلال المحلي على جمع الجوامع ، وقد انتظم فيه سوق عكاظ من تلاميذه هنا فيه بختمه منهم سبعة عشر منهم المحلي في تلك الحلبة والسابق والتالي . فلما أتموا إنشادهم عطف فأجابهم شعراً ، وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً . ولم أكن من تلامذة الدرس بل كنت أزاول التعلم الثانوي بالجامع الأعظم . كما أن مترجمنا شرفت به إدارة الأوقاف حين انخرط في سلك متوظفيها ، ولها زان وأصبح من عليتها ومثله من يعلو به الشأن وأخيراً قلد منصب الفتوى . فباشره برأي سديد وساعد أقوى . وقد كان تمارس بالتوثيق قبل ذلك لمباشرته لقضايا جمعية الأوقاف أولاً ، ونوازل القضاء مع صديقه وزميله في الدراسة الشيخ إسماعيل الصفايحي القاضي الحنفي ثانياً ، فحصل من مجموعها على دراية فيه واسعة النطاق مع ما له من ذكاء وعبقرية . أحلاه في مرتبة مرموقة عليّة . كما ولي إمامه ولي جامع حموده باشا المرادي فألقى على منبره خطباً بليغة تستطيرها النفوس ، ويقال في شأنها لا عطر بعد عروس . كما ختم فيه أختاماً حديثية نفيسة يوم السابع والعشرين من رمضان في كل عام من الأعوام التي كان خطيبه فيها أختاماً تكتب بما العين ، وأول ختم ختمه فيه أول عام 1351 هـ من ولايته أبداع فيه ما شاء ، وقد قرضته بقولي⁽¹⁾ :

ألا هكذا فليشد بالعلم من شدا	ويصدع بالتحقيق يبر من شدا
ويفصح عن آي الكتاب مفسراً	ويوضح من سر الأحاديث مسندا
يفوص على درسيها خضرميها	فينظمه عقداً وتسي مقلدا
يقلده لبات قوم فتردهي	به وتباهي كل من راح أو غدا
ومن كأبي عبد الإله بن يوسف	له بصراً في العلم لا يخطيء المدى
بحسب نجوم العلم منه اقتباسه	تزيدهم من نور مشكاته هدى
حضرنا وغاب البؤس والأنس شامل	له روض عرفان نسميه منتدى
جنينا ثماراً غضة من فنونه	وزهراً سقاه الفكر لاريق الندى
أفاض به خدن العلوم محمد	معين فهوم سائفاً يذهب الصدى

(1) التفريض للشيخ علي النيفر صاحب الذيل .

أعاد وأبدى والجواهر ترمي
رأينا به التحقيق عباً عبابه
فيا لك من ختم كما شاءت العلى
ألحت به نور المعارف ساطعاً
رفعت حجاب الشك عن مذهب الذي
فلاح لنا الرازي بصافح معشراً
ووقفت بين الأشعري وصنوه
وأبرز منك الفكر لأم تهيه
إلى غيره مما أنوه بعده
فلونكه عقداً من الدرّ أوحداً
فمنك اقتبست العلم يبر نوره
بقيت مدى الأيام تبلي جديدها

فلا غرو إن قلنا هو البحر مزبدا
فلبته أشتات الجواهر وردا
إليه انتهى حسن البيان كما ابتدا
فأوضحت نهجاً للصواب ممهدا
يرى عدم التعليل للفعل أرشدا
حسبناه فيها لا يمد لهم يدا
فميّزت ما بين الضلالة والهدى
غدت تردري لام الغرار مزردا
لساني إذا أطببت في القول منشدا
أنت به من بحرك الواسع المدى
وعنك تناولت البيان المنضدا
وأختامك الغراء تجدي وتجندى

وشيخنا رحمه الله ، لم يبارح الإيالة التونسية إلا مرتين : أولاهما سافر إلى معرض باريس حكى لنا بعض شيوخنا من كانوا يزاولون عليه الدروس في ذلك التاريخ أنه حين رجع من باريس كان معجباً بما رآه فيها من آثار التقدم والحضارة حتى أنه بقي أياماً يروي لهم ذلك مظهراً إعجابه الشديد بما رأى ، والمرة الثانية حين سافر إلى الآستانة ، وكان زميله وصديقه إذ ذاك الشيخ إسماعيل الصفايحي فيها ، ولما أراد مترجمنا السفر أشيع في تونس أنه يريد الهجرة إليها ، وكان هاجر إليها قبل ذلك الشيخان محمد المكّي بن عزوز وصالح الشريف ، كما هاجر إلى المدينة الشيخ محمد العزيز الوزير وجميع هؤلاء من أساطين جامع الزيتونة ، ولذا خاطب والذي سيدي محمد النيفر صاحب الترجمة متأسفاً بقوله :

إليك أخى بثي فلست بكاتم
أنتني أنباء برحلتك التي
فإن حق منها القول كانت رزية
وما ساعة التوديع لاحم يومها
لما يستخف العلم في القطر حملة

وإن أنبني فيه أقوال لائم
سيرضيك منها حظ أنجم غائم
تقل لها أقطارنا أنف راغم
ولا أبصرت آناءها عين شائم
بلى إنه كل على كل عالم

يؤرّقني والود ذكرى فراقكم فأقطع بالتهيام ليلة قائم
وارحم ثكلى معهد العلم إنها تودّع أبناء بمقلة ساحم
وإن كان ما أنباته عن تخرّص وإرجاف مفشي الإفك بالغيب راجم
فتلك أماني من يرجي لتونس بقاء على من علمها المتقادم
فلا زلت في أمن ومن نقيية تصوبك نعمى من حيا كفّ راحم
وأما السلام العنبري فإنه لمجلسكم أهديه تحفة خاتم

فأجابه صاحب الترجمة بما نصه :

الحمد لله ، الهمام العلامة النحرير صاحب التصنيف والتحرير الشيخ سيدي محمد
النيفر دامت سعادته :

أتني رعاك الله تحفة سيّد خبير بأسرار البلاغة عالم
سلالة بيت العلم والشرف الذي لحوزته تعزى عيون المكارم
أتني على شغل وحق لمثلها ثناء كما افترت ثغور الكرائم
ولكنّ للعدر الملمّ تقبلاً ومن فضلك الإغضا على كل جارم
ودتم كما رتم ودامت لمجدكم معاقد عز ليس تدنو لحاتم

ونستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه ، والسلام الأتمّ من أخيكم محمد بن
يوسف في 18 شعبان سنة 1328 هـ 1 هـ .

هذا ومترجمنا كان شديد العناية بتحضير دروسه ، ينكب على مطالعة كلام كل
من كتب على الكتاب الذي يدرسه من شراح ومُحسّنين ، حتى يحيط به من جميع
جوانبه وينفصل فيما استقر عليه رأيه في المسألة ، ويكون متصلاً فيما انفصل عليه ،
وينتصب حكماً فيما اختلفت الأنظار فيه ، فكان إذا رجع إلى منزله من إقراء دروسه لم
يزل مشغلاً بتحضير دروس الغد إلى حين ذهابه لإلقائها من الغد على تلاميذه .
وهكذا كان ذا همة علمية قعساء ، لا يترك المطالعة إلى آخر يوم من حياته شأن من تذوق
لذة العلم وأفنى عمره فيه . وطريقته في التدريس فذة في بابها ، يقرّر المسألة بإيضاح ثم
يطبق عليها عبارة الكتاب الذي يزاوّل إقراءه ، ويدفع ما عسى أن يكون بعض الكتاب
قد أورد عليه محرّضاً تلاميذه على تداول البحث في الموضوع

والنقاش فيه ، فتتكون فيهم ملكة الفهم والتحصيص وتتجلى لهم غوامض المسائل .
وإذا قيل ببحث تلميذ نشطه عليه وقبله منه والعكس بالعكس . صريحاً في رأيه ، صلباً
فيه وفي ملاحظاته لتلاميذه إذا اقتضى الحال ، ليكون سلوكهم مستقيماً وطريقتهم
مثلى سواء في أفكارهم أو حتى في زيّهم ، وهو في ذلك وحيد دهره وفريد عصره .
وكان يقول لنا أن حقيقة المدرّس عقل يجذب إليه عقولاً ، وأن التدريس نوعان :
قراءة علم وقراءة كتاب ، وأن طريقته في التدريس تجمع بين النوعين ، وهو صادق في
ذلك رحمه الله ، أدركناه وهو شيخ مشائخنا ، فأخذت عنه جانباً من تفسير القاضي
البيضاوي بحاشية الشيخ عبد الحكيم السلوكوتي إلى أن ختمنا عليه الحاشية المذكورة
وعوضها بحاشية القاضي زاه ، فرأينا من طريقته المذكورة العجب العجيب . كما أخذنا
عنه جانباً من صحيح الإمام البخاري ، وجانباً من دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر
الجرجاني . وكان من زملائنا في هذه الدروس العالم الألمعي الأديب الشيخ معاوية
الشمسي ، والعالم البحاث الشيخ إبراهيم طفيش الميزابي الذي هاجر بعد إلى القاهرة
وعمل متوظفاً في دار الكتب المصرية بها ؛ أخبرني صاحبنا الشيخ معاوية المذكور أن الشيخ
إبراهيم طفيش كتب إليه من القاهرة بعد هجرته إليها يقول في كتابه إليه أنه اجتمع في
القاهرة بعلماء فطاحل أجلاء كثيرين واستمع إلى دروسهم في الأزهر الشريف ، لكنه
لم يجد فيهم من يداني شيخنا محمد بن يوسف رحم الله جميعهم . وفي سنة⁽²⁾ ، قلّد
صاحب الترجمة خطة مشيخة الإسلام المنحلة عن سلفه الشيخ أحمد بيرم الذي أعني
منها . إلا أن هذه الخطة وقع تفكيكها حيثند إلى خطّتين : شيخ الإسلام الحنفي
وأعطي هذا اللقب لمرجمنا ، وشيخ الإسلام المالكي وأُسند إلى شيخنا العلامة النحرير
سيدي محمد الطاهر بن عاشور الذي له لقب كبير أهل الشورى المالكية إذ ذلك ،
المعبر عنه بياش مفتي المالكي . وكان إسناد مشيخة الإسلام إلى مرجمنا من باب
إعطاء القوس بازرها وإسكان الدار بانيتها ، إذ هو شيخ الشيوخ ومعدن التحقيق
والرسوخ العلامة الفهامة فصيح اللسان والقلم وركن البلاغة المستلم ، أحد الأئمة
الراسخين والأعلام المهتمين . كان رحمه الله ، في دروسه شديد الأدب والحذر من
أن تلتف أو يتلفظ بمحضره بعبارة يشتم منها رائحة سوء أدب ما ولو في معرض حكاية
كلام الغير لردّ شبهة لبعض الزائغين أو غلاة المنتطعين ، سالكاً في ذلك مسلك الكمل
المتورّعين . أما الصناعة الكلامية نظماً ونثراً ، فكان حامل رايتها وسابق حليتها ،

(2) يياض في الأصل .

فارس ميدانها ومحرز رهاتها ما شئت من شعر رائق ونثر فائق . له ذوق جيد في
الفصاحة والبلاغة يهتز للشعر الجيد الصياغة ، ويميّزه تمييز الحدائق . زرته يوماً بمتزله
بسوق البلاط إذ ذاك وقد عوفي من مرض ألمّ به ، وكنت حينئذ أزاول عليه
الدروس ، فأنشدته أبيات أهنته بها بإيلاله ، فأبدى ابتهاجاً وانشراحاً ، واهترّ لها
ارتياحاً ، وهذا نص الأبيات :

صبح من اللطف الخفي تنفساً	نسخ الأسي وأزال ذلك الخندما
أسدى إلى هذي البرية أنعماً	وأزاح عنها مذ تجلّى أيوما
أحيى نفوساً كاد يقتلها الأسي	وأراحها مما أهمّ وما أما
شفاء مولانا وحيد زمانه	شيخ المعارف قطبين المؤتسى
داكم محمد بن يوسف من به	ليل العويص يرى نهراً مشمساً
جاء البشير بها أعزّ بشارة	لمّا غدا ثوب الشفاء قد اكسى
مرض الزمان وأهله لمّا شكّا	والآن صحّ بغير ما قد أوجسا
كل تجرّع من شكاتك علقماً	واليوم من كأس الهناء قد احتسى
ولأنت أجدر من نود حياته	كي نستضيء بنوره أو نقبسا
أولست أوسع من نراه معارفاً	وأصحّهم فهماً يعنّ وأنفسا
أنت الذي ما عاش فينا سالماً	فالمعهد العلمي شمع معطسا
الله يبني ذاتكم محروسة	أبدأ تحلّون المقام الأقسا

ومن شعر صاحب الترجمة قصيدة هنا بها أمير عصره محمد الناصر باني العيد
ضربت في الإبلع سهم مصيب ، طالعها قوله :

ما لي أراك متيماً متبولاً أرأيت في سرب المها مكحولا

ومن نثره مقرّضاً مرصع الزاج للوالد رحمها الله ما يأتي :

المقام الذي اشتر محتداً ونساً ، وعلماً وأدباً ، وحاز في المعارف رتباً تعلو رتباً
مقام أئحينا الهام الذي اتضح في العلم باعه المديد وفضله المنيف ، واتسع اطلاعه
السديد ونقله السابغ الوريث ، وحاز من المجد التالد الطريف وضمّ الأصل الطاهر
والنسب الشريف ، الحسب الكريم والخلف اللطيف ، والمقال العذب والأدب
الظريف ، العالم الفاضل الجهد الدراكة التحرير الشيخ سيدي محمد النيفر ، لا زال

كلفاً بالابداع والتأليف ، ولا برحت براعته بين ترصيف وتصريف . أما بعد ، ما يحاكي شمائلكم الأريحية من السلام والتحية ، فإني وقفت أعزك الله ، على حديقتك الباهرة وروضتك الزاهية الزاهرة ، فإذا هي حديقة الحكم وروضة الآداب والشيم ، حياضها دافقة وأغصانها باسقة ، وتجارتمكم إن شاء الله رابحة نافقة . كيف لا وهي من المقاصد التي تعود على ملوك الأمة بالنفع خصوصاً وعلى سائر المسلمين عموماً ، حيث تضمنت من محاسن الأخلاق والآداب ما لم يكن مجموعاً قبله في كتاب ، واشتملت على أصول يجب ابتناء دول الإسلام عليها ، وأمهات لا بد في حفظ حوزة الدين من الرجوع إليها ، وقواعد مرعية في معاملة الراعي والرعية ، ثمر لجميعهم الفوز بالحياة الحقيقية والسعادة الأبدية . وما أجدرها بأن تلقن حمر الحواصل من الأطفال كيما تنطبع أشعة معارفها في مزايا نفوسهم في الحال ، وتشرق عليها أنوارها في المال ، محضت فيها النصيحة واقتضيت من الخبر صحيحه ، وجمعت من أشنات الحكم والآثار ما دل على ما لسيادتكم من الإطلاع وقوة الباع والاضطلاع ، دلالة الضوء على النهار وعاطر النسيم على الأزهار ، وكسوتها من رونق البلاغة وتصناعة الألفاظ ما كادت لرقته تشربها مسامع الحفاظ ، ودونك أيها الخل الودود كلمات سمحت بها القريحة ولم تف بمحاسن المليحة ، وأستمطر من شمائلكم الزكية أن تتجاوزوا عن التقصير بالترز اليسير ، وإلا فقامكم مما تعجز عن وصفه أرباب البراعة وتقف دون غايته جياذ البراعة . وأسأله سبحانه أن يجعلها من العمل المرفوع إليه والمثاب عليه ، وأن يبلغ نفوسكم بها آمالها ويلهمكم في المستقبل أمثالها ، ويرينا كل يوم من بدائعكم غريبة ومن روائعكم عجيبة ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير من نطق بالصواب وأوتي الحكمة وفصل الخطاب ، صلاة وسلاماً يوازيان كماله ويعمان صحبه وآله ما أفصححت بالإفادة السنة البيان وأعملت في الصالحات يراعة وبنان والسلام من الداعي لكم بالبقاء والسعادة والإرتقاء ، ودودكم محمد بن يوسف ، وحرر في 16 جمادى الثانية سنة 1310 هـ .

ولما أدركت صاحب الترجمة المنية وفجعت به الأوساط العلمية ، رثيته رحمه الله بقولي ومؤرخاً وفاته :⁽¹⁾

حمّ القضاء فلا حامٍ ولا واقٍ للمرء من شجن للنفس طراق
غشى على أفق الخضراء غيبه أمسى مطبق أقطار وآفاق

بذ القوي نفث البلوى بكل حشى
أدمى القلوب أسي أذكى بها قيسا
يا ليت شعري وللأدواء مرهمها
مضى الردى بملت النفع غيداق
مضى بعلامة الخضراء جهبذها
محمد علم الفتوى ابن يوسف من
شيخ الشيوخ الذي كانت مجالسه
كم أنبت من نحارير حدائقها الل
وأغلقت مزنها للمستظل بها
كم قد وردت به من منهل فهق
وكم قد قبست بها من نور فكرته
وكم شهدت من التحقيق آيته ال
به بلغت الذي أرجوه من أمل
كم حاك للذكر من تفسيره حبرا
وصاغ من شرحه متن الصحيح حل
وقلّد الجم أعلق البلاغة من
وكم له قدم في غيرها رسخت
يا للقريض لقد ألوى بجيده
وللخطابة من بعد ابن يوسف قد
ولف معهدنا العلمي حين غدا
ولف معهدنا الشرعي أصبح قد
قد كان فيه رئيساً لا يُرد له
يمضي كما السيف لا تنبو مضاربه
وكان في مذهب النعمان باقعة
لله فخر لهذا القطر شاد له
جادت به كف هذا الدهر آونة
قد عاش ما عاش في أسر الحياة وإن

أغرى الجفون بدمع منه دفاق
أذا بهن بلذع أو بإحراق
هل للمنية من طب ودرباق
وكور الموت شمسا ذات إشراق
مضي بمن ذكره بين الورى باق
في حلبة العلم أمسى خير سباق
تجو مجالسه فوزاً بأعلاق
أبي تروق لأسماع وأحداق
صوي ذكاء وعلم أي إغداق
عذب لدى ظل أورد وأوراق
في كل معضلة كرت بأغساق
كبرى لديه بقول رافع راق
به تكامل أزهارى وإيراق
مذهبات الحواشي غير أخلاق
من عسجد القول محضاً صوغ حذاق
دلائل الشيخ ما أزرى بأطواق
مها وصفت فلا أرمى بإغراق
دهر قلم يبق منه غير أرقام
جادت بدمع كصوب المزن مهراق
لما بيته فيه رهن أشواق
أصابه الشكل في حزن وأطواق
قول يصول بأرعاد وأبراق
حتى طوته الليالي طي أوراق
شأي سواه بإجماع وإصفاق
ذكراً يجول بأصقاع وآفاق
ثم اغتدت وهي منه ذات إملاق
طابت فبشراه إن مئت بإطلاق

لا همّ أمّته في يوم يطول به كرب ويكشف فيه الهول عن ساق
 واجعل شآبيب رحمتك منك واكفة على ضريح ثوى منه بأعماق
 رمس إليه هوى نجم العلوم ومن لم يعرّ من أمّه رجعى بإخفاق
 قد قلت لما ثوى فيه أورشخ يا لهني على العلم يضحى خلف إطباق
 11 113 710 118 171110125
 سنة 1358هـ

357 - أخي الشيخ محمد العزيز النيفر⁽¹⁾

ولد رحمه الله عصر يوم الثلاثاء سابع شوال سنة 1307هـ سبع وثلاثمائة وألف
 كذا بخط الوالد نعمه الله . نشأ رحمه الله ، في بيت العلم والفضل . أبوه الشيخ محمد
 ابن الشيخ الطيب النيفر ، وناهيك به علماً وتقوى ومكارم أخلاق . وأمه السيدة
 هنائي ابنة التاجر الوجيه الفاضل العفيف الحاج محمد ثابت ، قرّنتي تربية صالحة عمادها
 التقوى بما في هذه الكلمة من معاني الصدق والعفة وخشية الله تعالى ، مع علو الهمة
 وعزة النفس ، والعزوف عن السفاسف والثبات على المبدأ ، إلى أصالة رأي وذكاء
 وقاد وفطرة سليمة إليها المصاعب تنقاد ، وصرامة في الحق وثبات عليه ، وصبر
 وشجاعة ومجاهرة بالرأي وتدليل بالبرهان عليه . كان رحمه الله ، مثلاً حياً لجميع
 هذه الخلال بل لأكثر منها من بقية سمات الكمال التي يتفاضل بها الرجال . ولما بلغ
 سن العييز وتأهل لتعلم الكتاب العزيز ، ونطق كلماته وحفظ آياته ، وضعه والده
 رحمه الله تعالى ، في الكتاب الكائن ببطحاء رمضان باي عند الشيخ المؤدب به المعمر
 الحافظ لكتاب الله السيد الحبيب العروي ، فحذق عنه آي القرآن العظيم ، وتعلم عنه
 القراءة والكتابة ، وأظهر فيها ذكاء ساطعاً ونجابة . ولما بلغت سنه الحادية عشرة ،
 أدخله والده قدس الله روحه ، إلى جامع الزيتونة لتلقي العلوم التي تدرّس فيه من
 شرعية وعربية وغيرهما على أساتذته الفحول وذلك في شوال عام 1318هـ ، فتلقى
 دروسه عن أساتذته الفطاحل لذلك العهد كالإمام والده سيدي محمد النيفر ،
 والمشائخ سيدي محمد رضوان وسيدي محمد الصادق بن ضيف وسيدي علي الشنوفي
 وسيدي محمد الحضري بن الحسين وسيدي عمر بن عاشور وسيدي محمد بن يوسف

(1) هو شقيق الشيخ علي النيفر صاحب الذيل .

وسيدي عثمان بن المكّي وسيدي صالح الشريف وسيدي الصادق صفر وسيدي بلحسن النجار وسيدي صالح الهوّاري وسيدي مصطفى النيفر وسيدي أحمد بن مراد وسيدي مصطفى بن الخوجة وغيرهم . وفي جمادى الأولى وجوان من عام 1327 هـ ، (1909م) ، شارك في امتحان شهادة التطوع التي هي عنوان الإحراز على صفة العالية ، وعندما ينتهي التعلم الثانوي الزيتوني ، فأحرز على هذه الشهادة وبعدها أخذ يزاول التعلّم العالي على شيوخ جلة نحارير منهم جدّه خاتمة المحققين وعمدة المحدثين ، وبقية العلماء الراسخين الشيخ سيدي محمد الطيب النيفر ، والشيوخ المحققون الأجلاء سيدي محمد بن يوسف وسيدي محمد النخلي وسيدي محمد الصادق ابن ضيف وسيدي محمد الطاهر بن عاشور . وصدر له أمر العدالة على عصر الأمير محمد الناصر باي سنة 1328 هـ ، ثم شارك في المناظرة على خطة التدريس من الطبقة الثانية بالجامع الأعظم جامع الزيتونة ، فأحرز عليها عن جدارة ملحوظة ، وصدر له أمر ولايتها بتاريخ (4 المحرم الحرام 1333 هـ / 21 نوفمبر 1914م) . كما ارتقى بالمناظرة أيضاً الى خطة التدريس من الطبقة الأولى ، وأمر ولايته لها مؤرخ في 5 جمادى الثانية 1343 هـ وفي 1 جانفي عام 1923م . كما انخرط في سلك متوظفي جمعية الأوقاف ، وصدر له أمر عليّ في ولايته شاهداً على أوقاف الزوايا والمساجد بأحواز الحاضرة بتاريخ 14 ذي القعدة 1331 هـ 14 أكتوبر سنة 1913م ، فباشر ما نيظ به بحزم وعلوّ همة وشرف نفس ، وكان يباشر ذلك صباحاً ، وفي المساء يزاول دروسه بالجامع الأعظم إلى أن أسندت إليه خطة نائب الدولة لدى النظارة العلمية بجامع الزيتونة بتاريخ 22 شوال 1349 هـ 22 مارس عام 1931م ، فتخلّى عن وظيفته بجمعية الأوقاف . كما ولي مدرّساً بجامع صاحب الطابع الكائن في الحلفاوين عوضاً عن والده بتاريخ 10 رمضان 1330 هـ 22 أوت عام 1912م ، وراوياً لصحيح البخاري بالمدرسة المرجانية عوضاً عن جدّه في 2 شعبان 1345 هـ وفي 5 فيفري سنة 1927م . كما سميّ عضواً بلجنة تنظيم الكتب التي بجامع الزيتونة بتاريخ 16 ذي القعدة 1330 هـ 26 أكتوبر سنة 1912م . وكان في جميع ما تقلّده من الوظائف مثال العفة والاستقامة والحزم وأصالة الرأي والصدق والجهر برأيه وكمال المقدرة على تنفيذه والإقناع به . سليم الصدر كامل المروءة أبيّ النفس كريم الشمائل خلقاً وخلقاً . محباً لعمل الخير سريعاً إليه غير متظاهر به . لم أطلع على كثير من مبرّاته على

شدة التصاقى به إلا بعد وفاته رحمه الله ، وتقبل عمله . ومن أعماله البارة وخيراته الدارة التي لا تنقطع بالموت ، تأسيسه لجمعية إعانة ضعفاء تلامذة الجامع الأعظم وفروعه ، وهو أول رئيس لها ، لم ينقطع عن خدمتها إلى المات رحمه الله . وقد تم تأسيسها وانتخابه رئيساً لها في عام 1352هـ ، وتمت المصادقة عليه من الحكومة سنة 1354 هـ / 1936 م . والغرض من تأسيسها كفالة معوزي تلامذة الجامع الأعظم من حيث المأكل والملبس والمسكن وسائر ما يحتاجه التلميذ من ضروريات الحياة بحسب ما يسمح به ميزانها ومن ذلك التاريخ وأمر هذه الجمعية قائم إلى الآن ، وقد انتفع بكفالتها عدد غفير من التلامذة المتخرجين بإعاتها والمئة لله ، منهم الآن المدرس والحاكم والحامي والمتوظف بلواوين الحكومة بفضل إخلاصه ، والقائمين على هذا المشروع من فضلاء القوم جازاهم الله أحسن الجزاء ، وفي مقدمتهم التاجر الصدوق الوجيه الخير الأبر الحاج المعتمر سيدي أحمد بن الأمين الذي كان كرس أوقاته لحياطتها بماله وأعماله ، وبنى لها مدرسة لسكنى بعض مكفوليا وتناول الطعام بها التي سميت بمدرسة الهداية ، وتقع بنهج الرابطة عدد 89 بتونس وذلك في سنة 1357 هـ ، 1938 م ، وفي آخر هذه السنة الدراسية ، احتفلت هذه الجمعية في المدرسة المشار إليها بإتمامها والتعريف بأعمالها لمد يد المساعدة من السادة المحسنين ، وكان الاحتفال مساء يوم الخميس في 23 جمادى الثانية وفي 21 جويلية من السنتين المذكورتين . كما أقيمت حفلة أخرى في آخر حياة مؤسس مدرسة الهداية السيد أحمد بن الأمين بحيث أنه حضرها وهو سقيم ، وكانت وفاته رحمه الله ، بعد مدة وجيزة أي بعد أيام . وقد ألقى مترجمنا في هذه الحفلة الأخيرة خطبة نذكر منها ما يأتي منقولة من خط يده تعمده الله برحمته ، واليكها :

الحمد لله الذي جعل العلم سراجاً وهاجاً ، ومحجة واضحة للسعادة ومنهاجاً ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي هدى الخلق إلى طريق الحق ، ففاز بالسعادة من اهتدى بهداه ، وباء بالخسران من أطاع الشيطان فأغواه ، وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء والشهب الراجمة للأعداء . وبعد ، فلا شيء أشرف من العلم وبخاصة علوم الشريعة ، ومن أراد الله به خيراً يفقهه في الدين . وبما أن ضعفاء الأمة أكثر من أغنيائها ، حيث كانوا هم السواد الأعظم كان أكثر من يتوجه إلى دراسة العلوم الفقراء ، وكثيراً ما يكون منهم حملة الشريعة النجباء ، وهم أحوج الناس للإعانة .

وقد كان صدر هاته الأمة من زمن النبوة يتعاونون على القيام بواجبات الحياة وعلى العلم أيضاً ؛ فقد روى البخاري رضي الله عنه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنه قال إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق في الأسواق ، وأن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم ، وأن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ ، لشبع بطنه ، ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون ، فدلّ الحديث أن أبا هريرة كان منقطعاً لطلب العلم بإعانتة عليه الصلاة والسلام . فهذا يمكن أن يكون أصلاً للإعانة على طلب العلم . ولهذا وقع تأسيس جمعية إعانة الضعفاء من تلامذة الجامع الأعظم وفروعه لإعانتهم على طلب العلم ، وكفائتهم في ضرورياته من مأكل ومسكن وملبس وكتب . وتم ذلك بعد تعب وصعوبات جمّة شأن كل خير ، وإن على كل خير مانعاً وعلى العلم موانع .

ثم ذكر كيف تمت المصادقة على الجمعية وتاريخها ، وكيف ابتدأت في أعمالها . وكان ذلك في 1 جاتني عام 1937 م ، وخلاصة ميزانها قبضاً وصرفاً في عام 1937 م ، وعام 1938 م ، وعام 1939 م ، وعام 1940 م ، وعام 1941 م ، وعام 1942 م الدراسي . ثم ختم خطابه بقوله : وفي الختام ، نوجه الشكر الوفير والثناء الكثير لمن أعان هذا المشروع على اختلاف الإعانات ، سيما السادة الفلاحون الذين تبرّعوا على الجمعية ببعض محصولاتهم ، وكذلك السادة التجار الذين يتعهدون الجمعية بوافر عطاياهم ويغدقونها عليهم في مختلف المناسبات ، ولن لبوا نداء الجمعية وأجابوا داعي البرّ . اهـ . في 18 ربيع الثاني 1361 هـ وفي 14 ماي عام 1942 م . تاريخ الحفلة .

كما أنشئت في آخر هذه الحفلة قصيدة في التنويه بعمل الجمعية والحث على مد يد المعونة إليها ، ونصها :⁽¹⁾

هلموا انظروا في هذه الساحة القعسا	صنائع معروف لكم قد زكت غرسا
فإن راقكم منها صنيع مشيد	فأتم له يا قوم أحكمتم الأسا
بإحسانكم قد قام بنيانه على	قواعد تقوى فهو لا يخبثي طمسا
وهل بسوى الإحسان تنمو وترقي	مشاريع برّ تطرد الهمم والبؤسا
به تترك الجمد الشعوب وإن هم	لها نبذوا لم يرفعوا للعلا رأسا
وأنبها ما حطّ إصراً عن الأولى	يؤمّون علماً ينسخ الجهل والتعسا

(1) القصيدة للشيخ علي النيفر صاحب الدليل .

فذلك أولها يبذل عناية
 رأى القوم طلاب العلوم بحالة
 فلا كنّ يحميهم من الغرّ والأذى
 فجدّوا إلى أن نظّموا عقد هيئة
 تحقّف بلوى ثلّة منهم ولو
 وأول سيب الغيث قطر وبعده
 أتوا والمنى تحدوهم في ارتحالهم
 إلى جامع الزيتونة المعهد الذي
 يرومون منه منهلاً يذهب الصدى
 وقد وثقوا متكم بحسن قراكم
 ومدّوا إلى جمعية عنيت بهم
 فذا زمن فظ عصيب دعا لأن
 ولولا رجال أغلقوها بجودهم
 رعى الله منهم محسناً لم تزل له
 غذاها ورواها وجدّ لخيرها
 وشاد لها ذا المنزل الشامخ اللرا
 وأسكنه من أوقفوا أنفساً على
 مكارم لا يبلي الزمان جديدها
 لقد قام فيها ابن الأمين بخدمة
 وكل الأولى اهتموا بذا العمل الذي
 فلا زلتم تولونه من جميلكم

وإن تعملوا في رعيه العقل والحسناً
 منغصة تحوي التعاسة والنحسا
 ولا قوت يشفي الجوع منهم ولا لبسا
 لجمعية أضحي بها جرحهم يؤسى
 تدقّق سيب الجود لم يشتكوا يؤسى
 يطمّ ويمسي بعد قلته بحسا
 الى كعبة العلم التي حوت القدس
 ستاه لعمرى يزدرى البدر والشمسا
 ويبغون من مشكاة أنواره قبسا
 ألا حققوا منهم بجودكم الحدسا
 بدأ تذهب البأسا وتستجلب الأنسا
 تضاعف مجهوداً ولا تركب اليأسا
 وجدّهم باتت معالمها درسا
 أباد عليها عود لم تُسمّ بنحسا
 بمال وأعمال زواكي لا تنسى
 فجاء صنيعاً محكماً يبهج النفسا
 طلاب علوم الدين أكرم به حبسا
 وأنباء جود ذكرها يملأ الطرسا
 سيجزيه عنها ربّه جنة وعسا
 مآثره قد غادرت ألسنا خرسا
 أبادي بيضاً جمّة تذهب الرجسا

ومن الصدف أن هذا الاحتفال كأنه كان احتفالاً بنختم أعمال الرجلين لصالح
 الجمعية المشار إليها مترجمنا مبتكر فكرة تأسيسها ، ومؤسسها والمشرف على أعمالها
 والموجه لها بفكره الثاقب الأصيل ، حيث توفي في أوائل شهر رمضان المتصلة راحته
 براحة التعليم الصيفية في تلك السنة 1361 هـ / 1942 م ، بحيث أن تعليم السنة
 المالية واستئناف أعمال الجمعية فيه يقعان ، وقد لاقى ربّه كلّ من رئيسها
 ومؤسسها ، وهو صاحب الترجمة ، ومن عضدها الأيمن التاجر الأبرّ السيد الحاج

أحمد بن الأمين الذي توفي أيضاً بعد الاحتفال المذكور بأيام ، تغمدهما الله برحمته
وجازاهما أحسن الجزاء .

ومن نثر صاحب الترجمة أيضاً هذا الخطاب الذي ألقاه أمام أمير عصره أحمد
باشا ، حين ولايته نائب الدولة لذي النظارة العلمية ، ونصه :

الحمد لله على نعمائه ، والصلاة والسلام على سيد أصفياه وخاتم أنبيائه ،
مصطفاه المختار من أهل أرضه وسبائه ، وعلى آله وصحبه وكل من انخرط في سلك
اقتفائه واستظلّ بظلّ لواء ولائه . أما بعد ، فإن العبد عاجز عن شكر مولاه على ما
منحه وخوّله إياه من الخطة العلمية المنيفة التي كستني حلتها العناية الملكية الشريفة ،
ولا غرور ، فهي من أيادي مولانا التي يجب ذكرها وشكرها ، وإن شبّ عن طوق
الإشادة والحمد عمرها ، فلنبتهل إلى الله بالدعاء باسطين إليه أكفّ الرجاء ، أن يجعل
انحامد لباساً ورياشاً لسيدنا ومولانا أحمد باشا صاحب المملكة التونسية والفريدة في
عقد الدولة الحسينية السنية ، أدام الله دولته ، وأيد في مجال العز والنصر صولته ،
وجعل ثغور أيامه بواسم ونفحات عرفها نواسم ، كأنها الأعياد والمواسم . مأنوس
الجناب بأنجاله ووزرائه وآله لا سيما صدرهم الخطير ذو الرأي الصائب والتدبير .
اللهم اجعل دعاءنا هذا دعاء مسموعاً وابتها لنا إليك مرفوعاً ، ما أنهل غيث وأمرع
جناب وختم دعاء بفاتحة الكتاب ا ه .

ومن نثره أيضاً هاته الإجازة ونصها :

الحمد لله الذي خص باتصال السند هاته الأمة المحمدية ، وشرفها من فضله
بالخصال السنية ، إيداناً بأن أهلها من ذوي الهمم . وإظهاراً لمزيتها على سائر الأمم ،
والصلاة والسلام على حبيك أكمل من به هلّبت ، وعلى آله وصحبه أفضل من
اجتبيت بعد الأنبياء واصطفيت . أما بعد ، فإن أعلى ما يجتهد في تحصيله بصرف
نفائس الأعمار ، وأغلى ما تمهر به أبكار عرائس الأفكار ، اتصال السند في علوم
الدين والانتظام في سلك النسب العلمي للأئمة المهتدين . فن ليس له سند في
العلوم فهو دعوي ، وإن يكن ناهض الحجة فصيح القول ، فما أشبهه بالعمي . ذلك
لأن علومنا الشرعية نقلية لا عقلية ، ومصدرها الوحي من مولانا رب البرية . هذا
وإنّ ابنا الروحي النجيب الخيّر الفاضل الأديب ، الآخذ في طرق الكمال غاية

الاجتهاد ، بلغني الله وإياه من الخير المراد ، الشيخ محمد الحشاني ابن الحاج
من لازمني في كثير من المجالس العلمية وسمع مني ما تيسر من العلوم الشرعية
والأدبية . شاركني مدة في دروس عدة ، فألفيته قد جمع من الملكة ما تقرّ به
العين عند امتحانه ، ولا يقصّر به تحصيله عن أقرانه . ولتعطيل الدراسة في
الجامع الأعظم ، عمّره الله بدوام ذكره في هاته المدة لأمر قدره الله ، نرجو
أن يكون محفوفاً بالألطف الخفية عزم على الرجوع إلى سكنه وبث ما أمكنه
من العلم بوطنه ، فالتمس من العبد الحقير المعترف بالقصور والتقصير ، أن
أجيّزه كما هي عادة آبائنا العلماء ومن يشابهه أبه فما ظلم . اعتقاداً منه بأنني من
أهل هذا الشأن وفرسان ذلك الميدان وما درى أنه استسمن ذا ورم ونفخ في غير
ضرم فأجبتته إلى ذلك عسى أن أجبر منه الخاطر ، وأرعى من نفعه المستقبل
والحاضر ، وإلا فمن لمثلي أن يلتحق بالرجال ، وأن ينسج في الإجازة على ذلك
المنوال ، فأقول مكرهاً لا بطلاً ومنكساً رأسي خجلاً : قد أجزت للشيخ
المذكور في أن يث من العلوم المنقول منها والمعقول رواية ودراية وأخصها علم
الحديث الشريف إجازة تامة شاملة عامة كما أجاز لي في ذلك جدّي⁽¹⁾ المقدس
المبرور نعم الله روحه الزكية عن شيوخه الجلة الكمل المنعمون الجد الأكبر
والده الشيخ محمد النيفر الأكبر ، وسيدي إبراهيم الرياحي ، وسيدي محمد بن
ملوكة ، وسيدي محمد بن الخوجة ، وسيدي محمد بيرم الرابع ، وسيدي أحمد
زيني دحلان شيخ مشائخ الحرمين الشريفين في وقته ، وسيدي الحاج محمد
كمون شيخ مشائخ رواق المغاربة في تاريخه ، وسيدي أحمد منة الله من علماء
الأزهر ، وسيدي محمد الكتبي شيخ الإسلام بمكة المشرفة . وكما أجاز لي في
ذلك المقدس المبرور سيدي عمر ابن الشيخ المفتي المالكي بطرقه المذكورة في
ثبته . وكما أجاز لي في ذلك المرحوم المنعم الشيخ المهدي الوزاني حين حلوله
بتونس ، رحم الله السلف وبارك في الخلف كل ذلك على شرط العمل بقوله تعالى
«ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه
مسؤولاً» فليكن عالماً قدر ما أُوتِمِن من العلم عليه ، وليصُن جانبه الرفيع وكما وعاه
يوذيه ، وليخش الله في علانيته ونجواه ، ويلازم في جميع حالاته تقواه ملاحظ صادق
وعد «واتقوا الله ، ويعلمكم الله» والظن بمثله أن لا ينساني ووالدي ومشائخي من

(1) يعني به الشيخ محمد الطيّب النيفر المترجم له سابقاً .

صالح دعائه . والله يختم لنا وله بما ختم به لخاصة أوليائه بالحسنى ، ويؤتينا بفضله
المقام الأسنى اه .

أما شعره رحمه الله ، فجيد متين ورائق كالسلسيل المعين ، فمن ذلك قوله
بهنيء شيخنا العلامة التحرير سيدي محمد بن يوسف بختم شرح المحلى على جمع
الجوامع :

مضى زمن باللهو أولى وأليق
مضى مسرعاً لم يتند لوداعنا
ألست الذي نيفت عشرين حجة
ثبت لذا همي وأصبحت معرضاً
ووليت وجهي لاقتناء مكارم
وبادرت كي أقضي فروضاً تصرمت
وأعظمها ما كان شكراً لمنعم
ألا أيها المولى الذي عمّ فضله
فنا كاهلي كلُّ ينوء بنعمة
فما شكركم من جائز الترك إنه
وحسب الذي يبغي القيام بحققكم
فما وقع التكليف إلا بممكن
فأنت الذي بددت أوهام ناقد
وناصرته فيما يرومون هضمه
أبنت مفاهيم ، الكتاب بحكمة
وعربت ألفاظاً رأوها تشابهت
فصارت من الألفاظ دون تجوز
ولخصت من علم الأصول شتاته
لقد أجمع القوم الكرام أولوا النهي
وقاسوا عليكم في العلوم سواكم
وهدي معاليكم على كل جاحد
ترى أتغاضى عن حقوق كثيرة
وبعد. مسير الراكين بنجبرها

ووقت من اللذات قد كان يشرق
وإن هي نفسي لا تكاد تصدق
وهل بعدها قلبي إلى الحب يخفق
عن اللهو إني للفضائل شيق
ترى في ميادين العلى وهي أسبق
بني الصبا أوقاتها وهو أنزق
فإجابه بالشرع والعقل أعلق
فما عالم من رقه اليوم معتنق
ورأسي من التقصير في الشكر مطرق
من الفرض عيني وما ذا تملق
ثناء بما في طوقه وهو ضيق
وإن جاز بالمنوع وهو تشدق
فبان بك اللغز العويص المغلق
فأجلت ما قد موه المتخرق
فأنت بها من صاحب الشرح أليق
وكانت كنايات حروفاً تلتق
حقائق جيد العلم منها مطوق
فما صنع الرازي ومن يتألق
بأنك في العلم المقدس أعرق
فكنت لهم أصلاً وعلمك يدفق
تقوم براهيناً لديه تآلق
علينا لكم مآثرها ليس يخلق
وسار لها النشر المصوغ يعبق

وبعد الذي قد نلت من بركاتها
وحاشا تقاليدي تبيح خيانة
جمعت لآلي من نثار دروسكم
أفاخر أقراني بها دون غيرها
فلا زلت وهاب العلوم ودرسكم
كفيل بمأمول بك الدهر مشرق
فأجهدا أني إذا أنا أخرق
ومجدي وآبائي بذلك أليق
على رغم أنف الضد لا تفرق
فأسبقهم دوماً وهيئات ألحق
كفيل بمأمول بك الدهر مشرق

ولما زار تونس الشيخ عبد الحفي الكتاني زيارته الأولى واجتمعنا به مراراً ، أجاز لصاحب الترجمة دون طلب منه ، فأجابه شاكراً بقوله :

شرفٌ أُتيح لنا عزيز المكسب
عَضُدان قد عضدا تليد فخارنا
والفضل في هذا لعبد الحفي من
لاحت لنا أنوارها فبلت لنا
لما أجاز لنا شريف مقامه
علم يمت إلى النبيّ بنسبة
قد زان نسبته الشريفة بالتقى
وغدت نوادي الأرض تلهج باسمه
لا زال مرموقاً بعين عناية
وعلا لقد زحم النجوم بمنكب
عن كل ليث في المعارف أغلب
هو شمس هديّ أشرقت من مغرب
سبل لهدي الناس دون تشعب
لا زال يروينا بعلم صيب
أعظم بمرء ينتمي لحمي النبي
والعلم حتى صار كعبة رُغِب
وتضوّعت منه بذكرٍ أطيب
تردُّ الوري منه بأعذب مشرب

وقال يهنيء الأمير أحمد باشا بولايته الأمانة بهذه القصيدة العصماء :

تنبه جفن الملك من بعدما أغفى
وأصبحت الآمال دانية الجنى
تبلج نور للمسرات ساطع
به تونس أمست تجرّ مطارف ال
فإن لها منكم لعمري كافلاً
ويوسعها عدلاً وأمناً وغبطة
ومثلك من زان المواطن ملكه
فإن سجايك التي شاع ذكرها
سجايك كإشراق الصباح إنارة
فولت جيوش الحزن تبندر الخلفا
لكل امرئ من غصنها يبتغي قطفها
وأدبر ليل الحادث الجلل فاستخفى
هنا وقد هزت بيعتكم عطفها
يؤمنها الأرزاء ويشملها عطفها
فترشف من كأس الهناء بها رشفها
بسيرته المثلى وإحسانه الأحفى
تحقق ما نرجو من الخير مستوفى
وكالروض قد فاحت أزاهره عرفها

فإذا عسى المثنون أن يتكلفوا
بحسبهم بما ابتغوه نموذج
أمولاي زاد الله قطرك رفعة
يزف إليك الشعب منه تهاباً
ويأمل منكم نيل كل سعادة
ورفع لواء العلم بالمعهد الذي
لأسلافكم جاد الإله ثراهم
ولا سيما المفد المشير سميكم
ووالدك المبرور كم ممن له
وأنت رعاك الله تقفو سبيلهم
فلا زلت تبنى للفخار معاقلاً
ولا زلت للدين الخفيف مؤيداً
وأبقاك رب الناس كعبة قاصد

من الوصف ما قد يزدهي بعضه الرصفا
فإن فم التاريخ أبلغهم وصفا
وأرخصي عليه الأمن في ظلكم سجعاً
ويدعولكم بالخلد في عيشك الأصفى
وعز وإقبال لدى سترك الأصفى
به الفخر للخضراء والسؤدد آحتفاً
أياد عليه لا تبيد ولا تخفي
فكم من ديون للعلی نحوه وفي
عليه وكم عنه العوادي قد كفاً
وتربي على ما شيدوا من على ضعفاً
بكل علماً يستوقف اللب لا الطرفاً
تدوم له سوراً وتبقى له كهفاً
يحوطكم حفظاً ويكتفكم لطفاً

وقال يهنيء السيد خليل بوحاجب بولايته الوزارة الكبرى ویهنيء بهذه الولاية
صديقه الحميم شيخ الإسلام سيدي أحمد بيرم ، ويستنهض همتهما لنصرة العلم والدين
بهذه القصيدة الفريدة ، ونصها :

يومٌ له أثرٌ أجلٌ حميد
يوم تبلج صبحه عمًا يؤمّ
فرجاؤه أن البلاد يعتمها
اليوم حقق مبتغاه وطالما
فيه احتفل بين الوري وبذكره
بالأمس كنا واجمين إذا لنا
لاح النجاح لكل ذي أمل صفت
هذا (خليل) العلم والعلماء أح
فعلا على دست الوزارة حائراً
لله من دست أشمّ ومرتقى
شرف طريف ما أعزّ يمدّه

ولدى الوري ذكر أغرّ مجيد
له امرؤ عفا الضمير رشيد
عيش على رغم الحسود رغيد
قد خاب ما يرجو وشحّ جديد
فاهتف مشيداً فهو حقاً عيد
أمل نعلقه عليه وطيد
منه سريره ونخاب حسود
مرز سؤدداً ما ان عليه مزيد
فيها الرئاسة مبدتاً ويعيد
بسواه إن رام الصعود يمد
حقاً من الشرف الرفيع تليد

فاستبشر الجَمّ الغفير بطالع
والكل يتلو من ثنائه ما غدا
وفضائل المولى الوزير لصيتها
فتى يحاول عدّها فكأنما
فيه الهناء لتونس ولن بها
وبه الهناء لكعبة العلم التي
وبه يهني الفذ أحمد بيرم
ذاك الذي أحبى مآثر قومه
(يا شيخ إسلام وقلوة أمة)
أنصر مقام العلم وارفع شأنه
فيه استعن في ذلك واغتم فرصة
لسنا نبصركم بهذا من عمى
ولقد نصرتم قبلُ دين محمد
لكنها ذكرى امرئ لك عنده
لا زلتما في ظل عز وارف
متعاضدين على مناصرة الهدى

من يومه تبدو عليه معود
كالصبح لاح له الغداة عمود
أبدأ ذبوع ما يزال يزيد
للصبح منبلجاً أقيم شهود
فيها يكون لمجدها تجديد
سيقيم منها ما وهى وبشيد
ربّ الفخار الغيلم الصنديد
مَنْ ذَكَرَهُمْ باقٍ وليس يبيد
ولرأيك التأييد والتسديد
هذا وزير ما علمت رشيد
فلأنت في هذا السيل وحيد
كلا فطرفك في الأمور حديد
والناس تعلم والإله شهيد
ودّ على مرّ الزمان يزيد
لكما العداة كما نشاء عبيد
بكما يعيش القطر وهو سعيد

وله قصيدة بديعة يهنيء محمد الحبيب باي بولاية الملك .

يقول فيها فيما ترجوه الأمة التونسية منه وما أصابها قبله من الاستعمار
انفرنسي ، وكانت ولايته حين اشتداد الحركة الدستورية :

فلك الرحمان من شعب كريم
ولكم ساموه تفريقاً فما
يا له صرح من المجد رفيع
فجاه الله من أعدائه
لا تخف شراً لعمرى بعدها
هاضه الأعداء غمصاً واهتضاماً
زاده كيدهم إلا التثاماً
كاد أن يهوي منقضاً تماماً
بملوك جلّة غرّ فقاما
منك قد أبرأ مولانا السقاما

إلى أن يقول متعرّضاً لما يطلبه الشعب التونسي من حكومته :

ومساواةٍ وعدلاً شاملاً أوليس العدل للملك قواما

وأماناً من خطوب جمّة أوقدت في مهج القوم ضراماً

وقال مجيباً السيد الطاهر القصار عن تهنئته له بإملاكه ما نصه :

أيها الماجد الكرم السجاياء لكم نرتجي دوام ارتقاء
بلغتني آياتكم ولعمري تعجب اليوم أبلغ الشعراء
قد تأملتها ملياً لكي أذكر نبي فبانت غنية عن ثنائي
ضمّنت أبلغ المديح ومن أرى من مثلي وصف السنا والسناء
إن من كان مثلكم مخلص الو د فعنه يثني لسان الإخاء
فأنا شاكر لفضلك يا طا هر فلتقبلن شعار الولاء
دمت بدماً يضيء بينكم السا مي برغم الأضداد والأعداء

ونص أبيات الشيخ الطاهر القصار المجاب عنها قوله :

خلق الشعر للهنا والثناء ليس للحب والهوى والهجاء
خلق الشعر للمديح وإني أبتغي مدح أبلغ الشعراء
وهو عبد العزيز ذو الهمة الشما ء ذو الفخر والسنا والبهاء
بيته أكرم البيوت ومنه منبت المكرمات والآلاء
سرّني مبدأ الزفاف وحفّت بالمسرات سائر الأعضاء
فهنّيك «بالملاك» ولكن مها بالفت لا أفي بالهناء
أنت طود وأنت بحر خضمّ قد رميت الوري إلى العلياء
أنت شمس العلا وأنت همّام أنت حبر وسيد العلماء
فلتدّم في مدارج العز راق كارتقاء الجدود والآباء
ولتدّم مؤنساً بجذك محفو فأ بالطفاف موجد الخضراء

ومن نشر صاحب الترجمة هذه الخطبة التي ألقاها بين يدي الأمير أحمد باي الثاني حين أولاه وزميله الشيخ سيدي محمد دامرجي نائبين عن شيخ الجامع ، وقد كان لقبهما قبل في إدارة جامع الزيتونة نائبين الدولة لدى النظارة العلمية ، فأزيلت النظارة وتأسست المشيخة وصار لقب نائبين الدولة نائبين شيخ الجامع .

الحمد لله الذي رفع للعلم مناراً واصطفى له حياة ذادة وأنصاراً ، جعلهم من عباده لباباً خياراً ، فمهذوامنه سبلاً وأقطاراً ، وأدنى من رياضه للقاطف جنى وثماراً ، نحمده سبحانه على جليل نعمائه ، ونصلي ونسلم على سيد أصفياائه وخاتم أنبيائه ، مصطفىاه المختار من أهل أرضه وسماائه ، وعلى آله وصحبه وكل من انتظم في سلك اقتفائه واستظل بظل ولائه . أما بعد ، فإن خير الناس أكثرهم للناس نفعاً ، وأرعاهم لما يصلح شأنهم جلياً ودفعاً . لذا كان لأمرء العدل فضل التقدم ، ووجبت طاعتهم على كل مسلم . وإن لمولانا الأمير ربّ التاج والسرير أوفر نصيب من هذه المزية ، والشمس عن مدح المادح عنية ، ومن أعظم منته على هذا القطر الباقية ، وعلى عمر الدهر سعيه لترقية ، شأن العلم وأهله وتنقيح برامجهم وتعبيد سبله حسبما يقتضيه التدبير السديد ويمليه الرأي الرشيد بما أربى به على فضل سلفه الزاهر وكم ترك الأول للآخر . وقد شملت عنايته الشريفة بالمعهد العلمي العامر تنظيم إدارته على نحو بهيج باهر ، فاصطفى له شيخاً جليلاً وعالمًا نبيلاً بتحقيق إرادة مولانا كفيلاً ، وكان من نعم سيدنا على عبد إتمامه أن شرفني بخطبة نيابة شيخ الجامع عالمه وإمامه ، تلك الخطبة العلمية المنيفة التي كستني حلتها العناية الملكية الشريفة اهـ . ما وجدته منها .

وحين تأسست جمعية إعانة الضعفاء ووقعت المصادقة عليها من الوزارة أريد جعلها تحت إشراف الأمير تمتيناً لمركزها ، استأذن لمقابلة الأمير رئيسها وهو مترجمنا ، تصحبه ثلثة من أعضاء مجلسها حين مثلوا أمامه خطب رحمه الله ، مخاطباً الأمير وهو أحمد باي بقوله :

الحمد لله الذي شرف العلم وأهله ، وأوضح للسالكين مناهجه وسبله رعاية الأمراء العادلين ، وعناية الملوك الصالحين حتى أصبح وعمرها ممهداً ومنارها مرفوعاً مشيداً ، فاتهجها الناس آمنين مستظلين بظلالها الوارقة مطمئنين ، وبوصولهم إلى الغاية المنشودة واثقين . والصلاة والسلام على من بذل غاية الجهود في الإرشاد ، وهدى إلى دين الله كافة العباد ، وتوه بشأن العلم وأغرى بالتنافس فيه حتى جعله مما يباح التحاسد عليه وعلى آله مصابيح الظلمة وصحبه هداة الأمة . أما بعد ، فيا أيها الملك الخطير عديم النظر ، لقد تمّ بمعونة الله على عهد ملككم طويل الآماد ، وعصر دولتكم قرينة اليمن والإسعاد ، من الحسنات ما صير ربوع العلم أهلة بطلابه ، وجعلهم متمسكين بأهدابه . فلقد رأوا من عناية دولتكم ما يشرح الخاطر ويهيج

الناظر ؛ فمن زيادة في عدد⁽¹⁾ المدرّسين ، إلى ترقية⁽²⁾ في رتبهم وتحسين لمربّهم ، فتسابقوا في ميدان سلوكهم والناس على دين ملوكهم . وإنّ من الحسنات الماثورة لجنابكم المضافة إلى أعتابكم ، ما تمّ في هذه الأيام من المصادقة على قانون جمعية إعانة الضعفاء من تلامذة الجامع الأعظم وفروعه ، تلك الجمعية التي توفّق بعض أهل العلم إلى تأسيسها تحت إشراف جنابكم ، والتي يتشرف رئيسها وثلة من أعضائها في هذه الآونة بالثول لدى سدتكم العلية وحضرتكم الأحمدية ، راجين من الجناب العالي شمولها بعطفها الأدبي والمالي ، وإنا لنأمل من الباري جلّ وعلا ، أن تكون عنايتكم دائمة الاتجاه نحو هذا المعهد المؤسس على التقوى ، حتى يكفي حاجاته الوفيرة تنتظم فروعه الكثيرة ، فيمرع واديه وتطيب مجانيه . وفي الختام نرفع أكفّ الابتهاال إلى الكريم المتعال ، أن يديم ملككم مرفوع الذرا موثوق العرا ، منيف المقدار مبلغ الأوطار ، مأنوس الجناب بالأنجال وكافة الآل ، مشدود الأزر بوزرائكم المخلصين ورجال دولتكم العاملين ، سيما وزيركم الأكبر الذي له في هذا المشروع العلمي الحظ الأوفر ، اللهم اجعل هذا المشروع من المساعي الناجحة بجرمة القرآن الكريم وسر الفاتحة اه .

وله في مثل الغرض السابق يُرسم منه ما وجد ، وذلك قوله رحمه الله .

الحمد لله الذي أعلى منار الشريعة للمهتدين ، وأتأط حراسته بالأمرء العادلين والعلماء العاملين ، فمهدوا له السبل الوعرة وعبدوها ، وأقاموا معالمها وشيّدوها ، فانتهجها الناس واثقين بنيلها آمين ، واستظلّوا بظلالها الوارفة مطمئنين ، فرحب ربها وأترع واديه ، وأنحصب زرعها وطابت مجانيها ، واستطابتها النفوس فإذا ربها بعد الوحشة وهو المأنوس . والصلاة والسلام على من بذل غاية المجهود في الإرشاد ، وهدى إلى دين الله عامة العباد ، ونوّه بشأن العلم فأغرى على التنافس فيه ، وجعله مما يباح التحاسد عليه اه . الموجود .

ومن نثره رحمه الله ، مخاطباً السيد أحمد بن السيد حمزة الرفاعي المدني ما

نصه :

(1) زيادة الخطط غير المختصة بملذهب .

(2) احداث رتبة الأساتذة .

جناب العالم الفاضل ، العمدة الكامل ، الأورع التقي ، الخليل الوفي ، سليل الأبرار ، صفوة الأخيار . من يقصر في الثناء عليه باعي ، سيدي أحمد بن سيدي حمزة الرفاعي ، أدام الله إجلالهما ، وحرس بمنه كلالهما وأهلها . سلام كريم يزري شذاه بنفحات الأزهار في مقمر الأسحار ، من أخر على الودّ مقيم ذي شوق لمجاذتكم عظيم ، يأمل منكم القرب والتملي بحديثكم العذب . أما بعد ، فقد وافاني كتابكم ، فتلقته باليمن تلقياً بنىء عن شوق مكين ويعبر عن ودّ كمين ، وحصل لنا به من السرور ما يثلج الصدر ويشرق الجبين ، حاملاً من أنباء محبتكم ووفائكم لنا ما تؤمل أن نكون له أهلاً ، ولا يستغرب صدوره من مثل جنابكم ، فإن الأخلاق الكريمة عنكم تروى وإلى رفيع علاكم أصلها يُنمي تقبل الله دعواتكم وحقق تمنياتنا وتمنياتكم ، ولا أعلمنا الله منكم ركن وذرّكين وحبل قرابة موصول متين بمنه آمين .

هذا وقد ذهبت يوم الأربعاء العاشر من رمضان بعد صلاة التراويح إلى منزل شيخ الجامع لأجل المهمة التي خاطبتموني في شأنها ، ولم أشأ أن أرجئ الأمر ليوم السبت ، وهو موعد اجتماعنا ، لكي أكتبكم فوراً ، وقد تمّ الأمر وفق رغبتكم ، فله الإذن في زيادة شهر ديسمبر ، وإنا متشوقون لتمام عافيته . أما ما ذكرتم من ثناء سيدي عمر علينا فشيء قد تفضل به جازاه الله خيراً ، وإلا فنحن مقصرون في جانبه تنصيراً ينجلنا متى ذكرناه ، وهو من يستحق التبجيل والتكريم لعلمه وفضله وشرفه ، ويكفي أنه من أجوار جدنا ﷺ . وفي الختام ، تفضلوا بقبول السلام من كافة أهل بيتنا وأحبّتنا مشفوعاً بالإجلال والإعظام ، راغبين منكم إبلاغ سلامنا لمقام والدنا سيدنا الوالد أبقاه الله ، وكافة آلكم الكرام ، لا زلتم معظّمين وبعين العناية ملحوظين آمين .

ولندعو لنا بصلاح الدرّية ومجاورة خير البرية والسعادة الدنيوية والآخروية إلخ اه . وكان هذا الخطاب منه رحمه الله للمكتوب الآتي نصه بعد فاتحته :

جناب العلامة الهمام الدرّاة الشهير ، الكامل الفاضل الخطير ، الجامع بين شرفي العلم والنسب الأغر مولانا الشيخ سيدي محمد العزيز النيفر الشريف ، أطال الله أفضاله وحفظه وآله آمين .

سلام الله الأتمّ ورضوانه الأوفى الأعم عليكم ورحمته وبركاته سائلاً عنكم ما تعاقب الملوان وتفاوتت الأزمان ، مبتهلاً إلى الرب الكريم متوسلاً إليه بجاه جدّكم الأعظم ﷺ ، أن يبلغكم المقصود وكل أمر هميم ، ولا يحرمكم من حج بيته الذي

مُلِيءٌ من أنوار الجلال ، وزيارة قبره الذي يفوح منه طيب البدء والكمال ، وصل إلى طرفنا عشيق⁽¹⁾ تلك الشمائل الشريفة والمزايا من حلمكم المنيفة ، يلهج بالثناء عليكم في كل نادٍ ، مترجماً عن كالاتكم وما أنتم عليه من الشيم الحميدة لدى كل حاضر وبادٍ ، ولن أنسَ دعاءه لفضيلتكم خاصة تجاه قبر النبي الكريم ، وفي روضته الطاهرة المعطرة عقيب الصلوات ، وحضوره لدى زاوية جدكم سيدنا الولي الصالح سيدي أحمد الرفاعي الكبير رضي الله عنه . وقد سلّم لي عشيقكم المومى إليه كذا حسب رغبتكم فجرى تقسيمها على فقراء الزاوية ، جعل الله ما تحصل من دعواتهم الصالحة فيكم وفي نسلكم وعقبكم . ثم إني أعرض عليكم أن الرجل ألزم والدي ولا يخفاكم أنه كبير السن ، بالدعاء لكم في بستاننا الشهير بالجزع تجاه مسجد قباء المسجد الذي أسس على التقوى بقرب ديار السادة الأنصار بنات النجار الذين قابلوا النبي ﷺ بالترحاب لخلوله بتلك الديار ، كما ورد في صحيح الإمام الحجّة البخاري رحمه الله .

سيدي لا يخفاكم أن صاحبنا محب الطرفين العلامة الأستاذ الشيخ عمر بري كما يعبر السادة التوانسة ، رجل أخذت منه الطباع التونسية حتى أثرت فيه رفاهية تلك البلاد الأنيقة . فلذا عند حلوله بجدة أثرت عليه مياهاها ، فهو مريض بسبب ذلك . والرجل قد انفلت في ربوع الحجاز وله الحق لاشتياقه ، فهو تارة ينحو مكة ، وتارة ينحو الطائف لزيارة حبر الأمة سيدنا عبد الله بن العباس رضي الله عنه ، ولا تسل حين ورد إلى المدينة المنورة فهو كالرقعة في كل بقعة . ولا يخفاكم أن الرجل كثير الشهوات في تنويع المأكولات ، فتتج من هذا كله ما هو عليه الآن من التأثر والحمى الباطنية وإذا أضفتم إلى ذلك تأثر بناته ومرح والدهم ، تحقق لديكم عذره في التأخر حسب رغبة طيب الصحة بالمدينة المنورة مدة شهري نوفمبر وديسمبر فيكون المزيد على المأذونية ، يعني الرخصة ، مقدار شهر ديسمبر فقط وحيث أنه قد كلفني لما أكد لي من خلوص طويتكم في المحبة لداعيكم ، وما حقق لي من تأثير رجائي لسماحتكم . ولم أنسَ عبارته لي بقوله عند عيادته « يا سيدي أحمد » أكتب لابن عمك مولانا الشيخ سيدي محمد العزيز النيفر وعرفه بحالتي ، واسترحم منه أن يسعى بإدخال شهر ديسمبر في المأذونية ، فإن القربى وصلة الرحم لا سيما منك ، لها التأثير العظيم والموقع الحسن من قلبه . وكم أكد لي بمثل هذه الكلمات المفرحات سيدي

(1) يريد الشيخ عمر بري .

المعظم أني حسن الظن بكم ، ولما تشرفنا به من صلة الرحم بكم ، واشتياقنا لأخينا المذكور وعذر المرض الشرعي ، أتمس من فضيلتكم أنا ووالدي والدكم ، إجابة مطلبه وبذل جهودكم وإشعاري بقبول رجالي ، لا زلت لكل مكرمة أهلاً ، ولا عدم الكمال منكم وصلأ . هذا مع قبول سلام والدكم والدي وأولادكم إخواني ، محمد منصور وعبد الله ، وحسن ومحمد الكاظم ، ومحمد وأبي الصفا وإبراهيم ، وهو أيضاً يبلغكم السلام وولده عبد الكريم يقبل أناملكم . وسلموا لنا على جميع أبناء عمكم الأفاضل المحترمين الأمثال المكرمين ، الذين بهم وبأمثالهم يتباهى ويفتخر بهم الزمان لا سيما الشيخ سيدي محمد البشير النيفر وأولاده ، ولا سيما اللاهج بحبته وفضله الشيخ عمر بري الشيخ سيدي علي النيفر الفاضل العالم الأديب الفذ كما ترجم لي عنه ، وحضرة الشيخ عمر النيفر وعمدة الزمان الشيخ الصادق النيفر وأولاده الأفاضل وأنسابكم الأفاضل السادة المنسترين ، وجميع مدرسي الجامع وشيخ الجامع ، ممن عرفنا وبيدكرنا عندكم ، وصديقنا العزيز سي أحمد الوزير ، وسي محمد عراب وجميع أهل الدائرة ، وعلى الفاضل صديقنا الحاج محمد بن عمر الحلواني وأولاده ، وعلى الشيخ محمد الصادق الغرياني الذي عشقني في شمائله حضرة الأخ الفاضل الشيخ عمر بري المحترم ، وعلى عمكم الفاضل الشيخ سيدي زين العابدين النيفر وأولاده ، وابن عمكم الشيخ محمد الصالح النيفر . وفي الختام ، أدعو لكم ولجميع أبناء عمنا المنتسبين إلى سلطان الأولياء سيدنا الشيخ أحمد الرفاعي ، رضي الله عنه ، بالدعوات الصالحة وأن يجعل أمور الجميع ناجحة ، وذلك مسك الختام .

لقرب قلوب شهر رمضان المبارك ، أقدم لفضيلتكم من قلب ملؤه الحب والإخلاص لشخصكم الكريم ، أسمى التبريك بحلول هذا الشهر الفاضل ، وفقنا الله وإياكم لصيامه وقيامه والعمل الصالح بأحكامه ، وجعلنا الله وإياكم من عتقائه من النار بجاه سيد الأبرار ؛ سيدي ، أرجوكم تبليغ سلامنا لعموم أولادنا جميعاً خصوصاً صاحبنا الراضي النيفر ، ودعمه لخلص الود ابن عمكم أحمد الرفاعي المدني ا هـ .

في 19 شعبان سنة 1355هـ

وكتب الشيخ عمر بري بمحول هذا المكتوب ما نصه :

سيدي ، أطلعني السيد الشيخ أحمد الرفاعي على هذا الكتاب عندما عادني وأنا مريض بالدار فأبكاني :

(آل الرفاعي أتم من دوحة طابت وطاب جناؤها للمعجني)
جزاكم الله أحسن الجزاء بجاه سيد الأنبياء ، أسترحم منكم قبول سلامي ، ودمتم .

محبكم عمر بري

وكاتبه الشيخ عمر بري بما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله تعالى وحده والصلوة والسلام على من لا نبي بعده ،

من طابة الطيبة في 15 شوال سنة 1355 هـ هجرية

حضرة الفضال الذي يعثر في مدى فضله مقتفيه الراقي بشرفه مكاناً يتمني البلر المنير لو أشرق فيه ، المحمود بكل لسان العزيز في كل وقت وآن ، السيد السند الصالح الرفاعي من هو لكل خير راعي ، ذو المجد الأبهى الشيخ سيدي محمد العزيز النيفر ، بسط الله البركة فيه وآله وذويه ، وأطاب وأطال معاليه ، ويرحم الله عبداً قال آميناً ؛ سلامي على تلك الشيم المتجسمة مجدداً وهمم . الشريفة المزايا البعيدة عن المزايا ، مبتهلاً إلى ذي الطول والنعم بجاه أفضل العرب والعجم ، صلى الله عليه وسلم ، وشرف وعظم وكرم بحرمة المحترم ، وإن يبلغني في سيدي كل الأمان ، وأن يريني في سيدي كل الأمان ، وأن يريني فيه في كل وقت وبشائر الصحة والتهاني ، وأن يحبه من كل سوء ومكروه بشين ، وأن يوليه كل سرور ومحجوب يزين ورد مكتوبكم ، فسرتني حتى أبكاني ، وأذكرني أيامكم التي هي لدي أشهر من مفرحات الأمانى :

آل الرفاعي أتم من دوحة	طابت وطالت أصلها مثبت
ما فيكم إلا كريم ماجد	والورد يتج مثله ما نبت
إني لمعنور إذا أنشدتكم	نظري إليكم دائماً متلفت
إن النيافرة الأفاضل أحرزوا	مجد الفحول فكيف منهم يفلت
لي منهم في وسط تونس سيد	مدحي له بين الآنام مشتت

نعم ، ويا ليتني أقوم بالواجب . سيدي ، إن الكبير والسند الخطير ، بركة

الحجاز في الحقيقة والمجاز ، مولانا الشيخ السيد حمزة الرفاعي في هذه الأيام متوَعِّك ، وكل الناس متأثرون لذلك ، وقد خفنا عليه ؛ ولكن الله تداركه بلطفه فخفف عنه شدائد المرض وأظن السيد أحمد ابنه قد انشغل عن مكاتبتكم ، وسلامي على كل من حواه ناديتكم ، وبلسان الاحترام أناديتكم ، وأحب إبلاغ سلامي الخاص لسيدي عبد الجليل الزاوش وسيدي محمد عَرَّاب ، ودمتم .

المخلص عمر بري

ومن ثر صاحب الترجمة رحمه الله ، هذا المكتوب الموجّه منه للسيد أحمد الرفاعي ، أنقله هنا من مسودّته :

جناب الفاضل الزكي العالم سيدي أحمد بن سيدي حمزة الرفاعي حرسه الله . وبعد ، فإني تلقّيت كتابكم باليمين معرباً عن حسن عهدكم وعن مشاطرتكم لنا في السرور ، فحمدنا الله على عافيتكم ودعونا لكم بخير ، وقد سكن ما بنفوسنا من التشوّق لملاقاتكم والاجتماع بكم أيها الصديق المخلص ، فأقبلوا مني أجمل تحياتي وأكمل تشكّراتي والسلام الخ .

وله في مثل ذلك : بلغني كتابك رعاك الله من راعٍ للعهد مقيم على الودّ ، قد وفيت للصحة حقّها فملكك من عواظي أرقّها ، شكر الله سعيك وأدام رعيك ، والسلام من حليف ودكم الخ ...

وله كذلك : وبعد ، فقد تشرّفت بكتابكم الكريم المزرى في رفته بنفحات النسيم ، نشره عابق ومنظره رائق ، ما شئت من تحرير عزيز وألفاظ في حسنها كالذهب الأبريز ، فرعى الله ما بيننا من قديم عهد وصادق ودّ ، كان لله فأدامه بعنايته وتجرّد عن الغايات ، فأقدرنا على رعايته حق رعايته ، فجازاكم الله عنّا خيراً ووقاكم بمنّه ضيراً ، ولا زال بيتكم مناخاً للقصاد متحلياً ، يزهو برجاله الأطواد الأماجد يبهز بجلاله كل رائد ، والسلام من حليف الود الخ ..

وله أيضاً في مثل ذلك بعد فاتحته :

بلغتني تحفتكم النفيسة ، تحياتنا المثلى لجنابك الأسمى على ما به أوليتنا نحن من نعمي .

أهدي لكم واجب الشاء يا دوحة المجد والعلا
أرسلت لي تحفة القدوم فهاكها تحفة الوداع

إليك تحنّات التشكر والودّ
 تحنّات إجلال لفاخر صنعكم
 وكم لكم نحو التحارير من يدٍ
 ففجّرت ينبوعاً من العلم زاخراً
 جمعت الذي قد كاد يصفو من البلا
 وهنا عير الآس قد فاح طيبه
 وآيات إخلاص تقدّم من عندي
 فإنّ أبايديكم يضيق بها عدّي
 بها أنزاح عن ليلٍ من الجهل مرئد
 هو البحر إلّا أنه دائم المد
 به يرتوي من عذبه صافي الورد
 كأخلاق مولانا من الفضل والزهد

وللشيخ عمر بري السالف ذكره مودّة لمرجعنا وصبابة فيه حيث ولي كاتباً
 بمشيخة الجامع الأعظم حين أقام سنوات بتونس ، وهو عالم أديب من أسرة نبيلة
 بالمدينة المنورة ، فكانت له مقاطيع وقصائد في مرجعنا ثبت له هنا ما ظفرنا به ،
 منها كقوله يخاطبه باعتباره شريفاً حسينياً :

آل الحسين جميعكم متفضّل
 الله يحفظكم ويقيكم لنا
 ويخصّكم ويعمّكم بكرامة
 وجميع أتباع لكم وأحبة
 في مولد المختار نسال ربنا
 متقرّين له بأشرف مرسل
 ببقاء عمدتنا العزيز مسلماً
 في كل عام أمره متزايد
 يا أيها الأحباب طراً أمنوا
 أتم وداد في القلوب يسان
 ما عنّ في نظم الثناء لسان
 وسلامة تحظى بها الأبدان
 في ظلّكم طول الزمان تصان
 وهو الكرم الواهب المان
 ذاك الذي شرفت به الأكوان
 سنداً بكلّ كرامة يزدان
 العزّ والإقبال ثمّ أمان
 فبه يزان القطر والأزمان

وله أيضاً في مرجعنا رحمها الله ، بيت يتفرّع إلى خمسة أبيات بشكل ساق
 شجرة لها فرعان ، نذكر الأبيات الخمس ثمّ نرسم شكل الشجرة كما رسمها .

الأصل تير مصطفي من زمزم
 الأصل يبرز فرعه متنوراً
 الأصل يبرز فرعه متنوراً
 الأصل ما منه الفضائل فرعت
 الأصل ما منه الفضائل فرعت
 وبه تفرّع زاهراً من أكرم
 وعليه أوراق المحبة تسمي
 مستنبتاً ورق السباح بعلم
 وبدت بتوريق الكمال الأعظم
 وغدا لها ورق المكارم يرغمي

← اوعليه أوراق المحبة تنتمي
 ← يبرز فرعه متوراً
 ← مستنبتاً ورق السماح بمعلم
 ← الأصل ← تبر مصطفى من زمزم ← وبه تفرع زاهر من أكرم
 ← ما منه الفضائل فرعت
 ← وبدت بتوريق الكمال الأعظم
 ← وغدا لها ورق المكارم يرتمي

وله أبيات أخرى مدحه بها على الشكل أيضاً وهي أطول ، نصّها :

محمد أصل في الكمالات ثابت	عزير لآل النيفر الغرّ ينتمي
محمد أصل قد تفرّع وارتوى	وأورق بالفضل المين المتمم
محمد أصل قد تفرّع وارتوى	زلالاً بمجد من قديم مخيم
محمد أصل قد تفرّع وارتوى	بماء النهى في حكمة وتفهم
محمد أصل في الكمالات يانع	من النفر الأعلى عند التقدّم
محمد أصل في الكمالات يانع	عليه من الإجلال أثواب ضيغم
محمد أصل في الكمالات يانع	يفوح شذى معروفة بتبسم
محمد أصل في الكمالات ثابت	ونجم علاء لا يقاس بأنجم
محمد أصل في الكمالات ثابت	ثبوت الرواسي بالفضائل معلم
محمد أصل في الكمالات ثابت	بفرع على هام السماك مخيم
محمد أصل في الكمالات ثابت	ونجم علاء لا يُقاس بأنجم
محمد أصل في الكمالات ثابت	تفوح عليه زهرة بالتبسم
عزير أصيل سيّد متورّع	أبيّ وفيّ ذو مقام معظم
عزير أصيل سيّد متورّع	رفيع رفاعي فصيح التكلم
عزير أصيل سيّد متورّع	تفرّع من أصلٍ كريم مكرم
عزير لآل النيفر الغرّ أصله	ونسبته بين المقام وزمزم
عزير لآل النيفر الغرّ أصله	من الهاشميين الأصيلي التكرم

عزیز لآل النیفر الغرّ أصله
عزیز لآل النیفر الغرّ یتمی
عزیز لآل النیفر الغرّ یتمی
عزیز لآل النیفر یتمی

وعرفانهم للفضل فی اللحم والدم
وهم ما هم أهل الهدی والتکرم
وحسبک منهم کل فخر میتم
بهم کل مجد فی المفاخر یحتمی

والیک فی الصفحة المقابلة شکل الشجرة المتکوّنة من هذه الأبیات التي یمکن
ترتيبها علی غیر ما رتبها علیه ، وهي ما رسمه ناظمها تترکب من ساق شجرة تفرع
منها من کل جانب من جانبيها ثلاثة أغصان ، وإن سمّیت أوراق فیكون المجموع ستة
والیکها فی الصحیفة بعد هذه :

من علماء مدينة صفاقس وأدبائها المتلقين علومهم عن شيوخها الأشاوس . نال من العلوم منزلة سنية ومن الأدب رتبة قصية ، يذكر بالشيخ العلامة الأديب سيدي محمد طريفة بلديّه ، وهو مثله فيما أُشير إليه ، مع كونه كفيف البصر أيضاً ، كساهما الله من رضوانه حللاً شريفة . كان ولي التدرّيس ببعض مساجد بلده ، قام بالتعليم فيه ويارشاد العامة إلى سلوك منهج سلفنا الصالح ، مشتدّاً في الإنكار على الطرفين حتى ثار به بعض أولئك العامة وشكوا إلى الوزارة في ذلك العهد ، فأوقف عن التدرّيس مدة ثم أرجع إلى خطّته التدرّسية المذكورة ، ولم يؤثر عنه من ذلك الوقت ما يثير النكر عليه . ولما التحق أربعة مكلفون بالتدرّيس في المعاهد الزيتونية بما هم مختصون به من بعض الفنون ، أحدهم مدرّس علم الهيئة ، وهو إذ ذاك بلديه الشيخ محمد المطيع ومدرّس الخط الخ ، التحقوا بمدرّسي الطبقة الثالثة . قام لدى المشيخة العلمية بجامع الزيتونة بطلب الإذن له في القيام بدروس في الوعظ والإرشاد عند الزوال ، أي وقت فراغ دروسهم الرسميّة لما أن ذلك محتاج إليه حاجة أكيدة ، وكأنه يرمي من وراء ذلك أيضاً إلى التمهيد لتسميته مدرّساً خامساً مختصّاً بهذا الفن يلتحق بمدرّسي الطبقة الثالثة أيضاً . فأقام بالحاضرة مدة طويلة يتردد على المشيخة لالتماس ذلك حتى إنه تزوّج فيها وهو إذ ذاك في سن الهرم ، وإن كانت قواه البدنية والفكرية متوفّرة ولكن الظروف لم تساعد على إجابة رغبته ، فرجع إلى بلده صفاقس وبها توفي عن سنّ عالية في مارس عام 1963 (م)

فن شعره قوله يهنيء جدّي الشيخ محمد الطيب النيفر بولايته قاضي الجماعة :

هل من بشير يلقي نور أعياي	فإن شوقي لذاك الحسن أعياي
بدر غدا مالكاً روجي بيهجته	ولم يكن شافعي من نار هجراني
وقد غدوت حنيني الغرام وإن	ما كنت أحمد عشق العاشق الفاني
ظبي رماني بسهم البين فاضطرت	نار الجوى في فؤاد بالهوى عان
وأصبح الجسم مضنيّ عن مقاومة	لجيش صدّ وأشواق وأحزان
ودمع عيني غدا كالدرّ منتشرأ	بل عاد من فرط وجدٍ مثل مرجان

والنفس في قلق والعين في أرق
يا مبتدا الحسن ذا حالي غدا خبراً
عطفاً على مغرم لا يبتغي بدلاً
عشاً يطيب له العيش الرغيد كما
قاضي القضاة سراج الدين من سطعت
بجد الكرام الكرام المجد من عبقت
زاكي السلالة فرع الدوحة النبوية
صدر الشريعة سداد الذريعة مح
فخر الطيالس نبراس المجالس يند
ذو الرشد منتصباً ذو البر محتسباً
به تدعم ركن الشرع وانتشرت
به ازدهت تونس الخضراء تائهة
أكرم به جهيداً راقته مكارمه
تلخيصنا لمعانيه بمختصر
مولاي دونك بنت الفكر رافلة
يضوع نداء التهاني من مباسمها
فألحظ بعين قبول وأعف عن خلل
لا زلت تاج الصلور الراسخين لدى
ودمت بدمراً أنيساً بالكواكب من
لا سيما معدن الآداب خير فتى
عادت مواسمكم باليمن في فرح
بجاه خير النبيين الذي انفتحت
عليه أزكى صلاة نشرها أرج
ما فاح مسك ختام من مؤرخها

والقلب في حرق من حر أشجاني
بين الآتام بحب فيك أفناني
من وصفه بهواكم دون سلوان
طاب الزمان بطيب الطيب الشأن
أنوار هيبته في كل ديوان
أعطار سيرته في كل أوطان
الرضا النيفر السامي بعرفان
حمود الطبيعة مأوى كل إحسان
سبوح النفائس مروى كل ظمان
ذو الفخر مكتسباً ذو الصيت والشان
بمتمدى مالك أعلام تبيان
على العواصم وازدانت بتيجان
كروض أنس بنور الأنس مزدان
مطول في بيان الموجز الجاني
في حلة من ثناك العاطر الباني
بعيد حج زها كروض ريحان
من شاكر قاصر عن شكر أعيان
مواكب العز تبدي كل إتقان
قد استناروا وفاقوا بين أقران
محمد بهجة الأعلام ذو الشأن
وفي هناء بصيت كل أحيان
به المغالقة من أبواب وأكوان
والآل والصحب في سر وإعلان
دم أنس عيد الصفا يارند عرفان

359 - الشيخ محمد الصادق بن الطاهر المحرزي

من علماء جامع الزيتونة الفضلاء ونحاريره المشار إليهم الأدباء . أخذ العلم عن جنة عصره وجهابذة مصره ، إلى أن نال شهادة التطويح التي هي عنوان بلوغ مرتبة العالمية ، ثم أحرز التدريس من الطبقة الثانية بالمناظرة عليه ، وأخيراً ارتقى إلى التدريس من الطبقة الأولى بالمناظرة أيضاً سنة 1331هـ . كما باشر مع خطته التدريسية بالجامع الأعظم خطة العدالة بإدارة جمعية الأوقاف ، إلى أن انقطع عن مباشرتها بإحالتة على المعاش في السن المحددة لذلك . كما ولي رواية الحديث الشريف بالمدرسة المرادية ، وله فيها أختام نفيسة ، كل عام تقع في مساء اليوم الثامن عشر من شهر رمضان إلى أن أقعده الهرم عنها . كما قلّد منصب الإفتاء على مذهبه الحنفي الزكي ، وذلك بعد أن أُحيل على المعاش من خطته بإدارة جمعية الأوقاف ، وهو في سن الشيخوخة إذ ذاك ، وبرهن في مباشرته خطة الفتيا عن جدارة لها واستحقاق ، فأفاد العموم والخصوص بمواهبه ومعلوماته وألمعيته وأصالة رأيه ، وقد بلغ حينئذ من الهرم . ثم بعد سنين من ولايته منصب الإفتاء ، أُحيل على عدم المباشرة ، وقد بلغ من الكبر عتياً إلى أن توفي يوم الأحد 14 في جمادى الثانية وفي 11 نوفمبر سنة 1382 هـ ، 1952 م ، ودفن من الغد ، يوم الإثنين ، مساءً بمقبرة الزلاج ، وولادته كانت في عام 1283هـ . وكان رحمه الله حسن الأخلاق ، وفي العهد لئن الجانب ، بشوش الوجه تقي العرض ، عالماً بأحوال زمانه وأهله ، يسير معهم على ما يقتضيه الحال .

من شعره مؤرخاً تجديد الأمير أحمد باي الثاني لجامع المرسي هذه الأبيات ، وقد نُقشت فوق بابه :

لله هذا المجد الأسنى الذي	قامت على تقوى الإله دعائه
قد كان بيتاً للعبادة من بني	حفص ثوت آثاره ومعائه
أحياء سيدنا علي الباشا الذي	قد خلّدت بين الملوك مكارمه
فأقيمت الصلوات فيه أعصراً	وبدت عليه من القبول علامه
وتضايقت بالقائنين رحابه	واشتدّ في وقت الصلاة تراحمه

فاستيقظ الملك المعظم أحمد
خير الملوك ديانة وثقافة
فأشاد من بنيانه ما قد ترى
ناهيك من عمل لربّه خالص
عنوان فضله جاء في تاريخه
وقوت على الفعل الجميل عزائمه
ومن الذي في المكرّمات يزاحمه
وتضاعفت ساحاته ومراسمه
لا تنقضي حسناته ومراحمه
قامت على تقوى الإله دعائمه

وله يهنئ عمّ والدي الشيخ سيدي محمد الطاهر النيفر بالشفاء من مرض
انتكس منه بعد وكان سبب وفاته ، هذه القصيدة غير أنه لم يقدمها إليه إلى أن توفي
رحمها الله ، ونصها :

عرف الهناء بجميكم قد فاحا
الله ما أحلى مقال بشيركم
نفسى الفدا لمبشّر بسلامة
قوموا نهّي بعضنا وندير للصد
فليومنا هذا هو العيد الذي
حيث الرياض تبسّمت أزهارها
وغدا بمزمار البيان خطيبها
فرحاً بمقدمك السنّي لجامع
بك مجلس النظار أصبح حافلاً
قم سيدي فالناس حولك ترتجي
ولئن جنى عنك الزمان فظالما
ها هو يلتمس الرضا مستعطفاً
قم سيدي وانهض لرفع مظالم
وتدارك الإسلام منك بهمة
أو ما ترى الديوان بعدك باكياً
وتمايلت أعطافه طرباً بكم
لم لآ وحلّ حماه مصفّعه الذي
ومنصّة الأحكام فيها ضيغم

أحيى القلوب وأنعش الأرواحا
اليوم أصبح سيدي مرتاحا
كانت لكل العالمين نجاحا
هباء في روض الصفا أقداحا
بسطت موائده لنا أفراحا
وهزارها مترنم صدّاحا
يتلو عليك من اخنا ألواحا
يزداد حين تحلّه إصباحا
يرجو برأبك أن يزيد فلاحا
يبغون من أنوارك أستصباحا
عوّده من برك استمناحا
مستقبحاً ما قد مضى استقباحا
نهضَ الهزير ملتبياً مصداحا
مستوهباً من ربك الإنجاحا
واليوم أصبح ضاحكاً نفّاحا
حتى كأنما قد سقينا الراحا
يجلي عليه الهم والأتراحا
ألقت إليه المشكلات سلاحا

يلقي عليه الخضم كل عويصة
 ما سلّ صارم فكره في مشكل
 ساس القضاء بعزمه وبجزمه
 ما شئت من علم ومن حلم ومن
 ومآثر جلّت عن الإحصاء فلو
 جمع المعارف صدره وسواه يح
 أما السباحة فهو حاتمها الذي
 غيث الندى وغياثنا يوم الندا
 يم المعارف بجرها الطامي الذي
 هو للفضائل كنزها السامي الذي
 ما علفت آمالنا بفضيلة
 الماجد الدراكة الحبر الذي
 ليث غيور عن شريعة جدّه
 والحق نهجاً والنصيحة مذهباً
 وصلابة دينية ومهابة
 وطهارة الذيل التي عن وصفها
 لله درّ أب تفرّس فيكم
 قاضي القضاة النيفري اللذحوى
 ورث المفاخر كابراً عن كابر
 بيتٌ تسلسل مجده ومتونه
 يزري بنفح الطيب نشر حديثه
 يا أهل بيت شيدت أركانه
 ماذا أقول وقد أردت مديحكم
 حسبي الهنا بسلامة المولى الذي
 وسيان نحن وأنتم في ذا الهنا
 هذا مقام الحمد والشكر الذي
 نخذها إليك عمالة الفكر الذي

فيرى لمقصده فتى لمّا
 إلّا وكان لسره الوضّاحا
 والعدل كان لرأيه مصباحا
 آيات مجد تعجز المدّاحا
 عدت إلّا أنها استفتاحاً⁽¹⁾
 مع بيته الأوراق والألواحا
 لا يرتضي من سائل إلّاحا
 في الحلبتين مهينم صياحا
 ما إن ترى في وسطه سباحا
 لا رصد يمنع دونه الإفتاحا
 إلّا وكان ليابها مفتاحا
 آراؤه تستقدح استقداحا
 ألف التقى والنسك والإفلاحا
 والحزم عضباً والعفاف وشاحا
 علمية تستبتك الفصّاحا
 لا يستطيع لساني الإفصاحا
 فدعاك قدماً طاهراً إيضاحا
 شرفاً وعلماً نافعاً وصلاحا
 وغدا لبيته كوكباً وضّاحا
 ما مثلها في المسندات صحاحا
 ويزيد إن كرّرتهُ استملاحا
 أيدي العلاء ودعمته ملاحا
 ومديحكم قد أعجز الفصّاحا
 أضحى له اللطف الحفي وشاحا
 وجميعنا بعد العناء ارتاحا
 ورداً يكرّر بكرة ورواحا
 لولاكم ما ساجل المدّاحا

(1) هكذا في الأصل .

لكنّ مذ وجب الهنا بشفائكم
هيفاً تدير من التهاني أكوساً
لا عيب فيها غير أن جليسيها
لا زلت في حلل السلامة رافلاً
لا تختشي نوب الزمان ولا ترى
ما دارت الأفلاك وهي منيرة
ألفيته يستقدح استقداحا
فتميل من ندمائها أشباحا
في وجهها لا يوقد المصباحا
متنعماً مستبشراً مرتاحا
يوماً ينغص فيكم الأفراحا
أو أشرقت شمس النهار صباحا

فهرس الكتاب

- الجزء الثاني -

رقم الشخصية	رقم الصفحة
295	705
296	707
297	717
298	722
299	724
300	800
301	811
302	816
303	823
304	827
305	832
306	832
307	838
308	842
309	848
310	851
311	851

رقم الصفحة	رقم الشخصية
852	312 أبو العباس أحمد القليبي
852	313 أبو عبدالله الشيخ محمد بيرم شيخ الإسلام الرابع
891	314 أبو عبدالله محمد الشنقيطي
893	315 الشيخ أبو عبدالله محمد الكافي التونسي
897	316 الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن حميدة بيرم
898	317 أبو عبدالله الشيخ محمد الطاهر بن محمد بن عاشور
906	318 الشيخ أبو الثناء محمود بن علي قابادو الشريف
912	319 الشيخ أبو عبدالله محمد بن الفقيه أبي محمد الحسن التطاوني
916	320 أبو عبدالله محمد البشير التواتي
917	321 أبو إسحاق إبراهيم بن أبي عبدالله محمد السنوسي الكافي
918	322 الشيخ أبو عبدالله محمد الصادق بن عمر بن محمد ثابت
922	323 الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بوغلاق
923	324 كاتب السر الوزير أبو العباس أحمد بن الحاج بالضياف
	325 الشيخ الكاتب أبو عبدالله محمد الباجي ابن الكاتب
930	أبي عبدالله محمد المسعودي
938	326 الشيخ محمد الشاذلي ابن الشيخ أحمد الغرياني
	327 الشيخ أبو العباس أحمد ابن شيخ الشيوخ أبي عبدالله
940	محمد بن الخوجة
945	328 الشيخ أبو العباس أحمد بن محمود كريم التركي الأصل
952	329 أبو عبدالله الشيخ محمد ابن الشيخ عثمان السنوسي
964	330 الأديب حسن المزوعي
970	331 أبو عبدالله الشيخ محمد بن الحاج محمد طريفة الصفاقسي
993	332 الأستاذ أبو النخبة شيخنا مصطفى بن علي رضوان التركي الأصل
	333 أبو عبدالله الشيخ محمد ابن شيخ الإسلام أبي العباس
1002	أحمد بن الخوجة
	334 الوزير الأكبر أبو عبدالله محمد العزيز بن محمد الحبيب ابن
1007	محمد الطيب بو عتور

رقم الشخصية	رقم الصفحة
335	الأديب الشيخ عمر بن أبي بكر
336	الشيخ محمد الطاهر بطيخ
337	أبو الثناء الشيخ محمود ابن شيخ الشيوخ أبي عبدالله محمد بن الخوجة
338	الشيخ محمد ابن الشيخ محمد الطيب ابن الشيخ محمد النيفر
339	الشيخ أبو عبدالله محمد بن عثمان الحشائشي
340	الشيخ محمد الصادق بن علي بن صيف الماطري الأصل
341	الشيخ محمد المختار شويخة
342	الشيخ حمودة تاج
343	الشيخ إسماعيل الصفايحي
344	الشيخ محمد بن حمودة بن احمد جعيط
345	الشيخ محمد الطاهر جعفر
346	الشيخ يوسف بن عون
347	الشيخ محمد المكي بن عزوز
348	الشيخ أحمد الأمين بن المدني بن عزوز
349	شيخنا سيدي محمد بن محمد النخلي
350	الشيخ محمد ابن العدل الشيخ الطاهر كشير
351	الشيخ عمر ابن الشيخ محمد ابن الشيخ سيدي علي ابن شيخ الشيوخ سيدي إبراهيم الرياحي
352	الشيخ بلقاسم بن صالح الخمسي القيرواني
353	شيخ الشيوخ سالم بن عمر بن سالم بوحاجب
354	الأستاذ الأكبر شيخ الجماعة سيدي محمد الطيب ابن الإمام
355	الشيخ سيدي محمد النيفر الأكبر
356	شيخ الإسلام أحمد بيرم
357	شيخ الشيوخ سيدي محمد بن يوسف شيخ الإسلام الحنفي
358	أخي الشيخ محمد العزيز النيفر
359	الشيخ محمد شاكر
	الشيخ محمد الصادق بن الطاهر الحرزي

